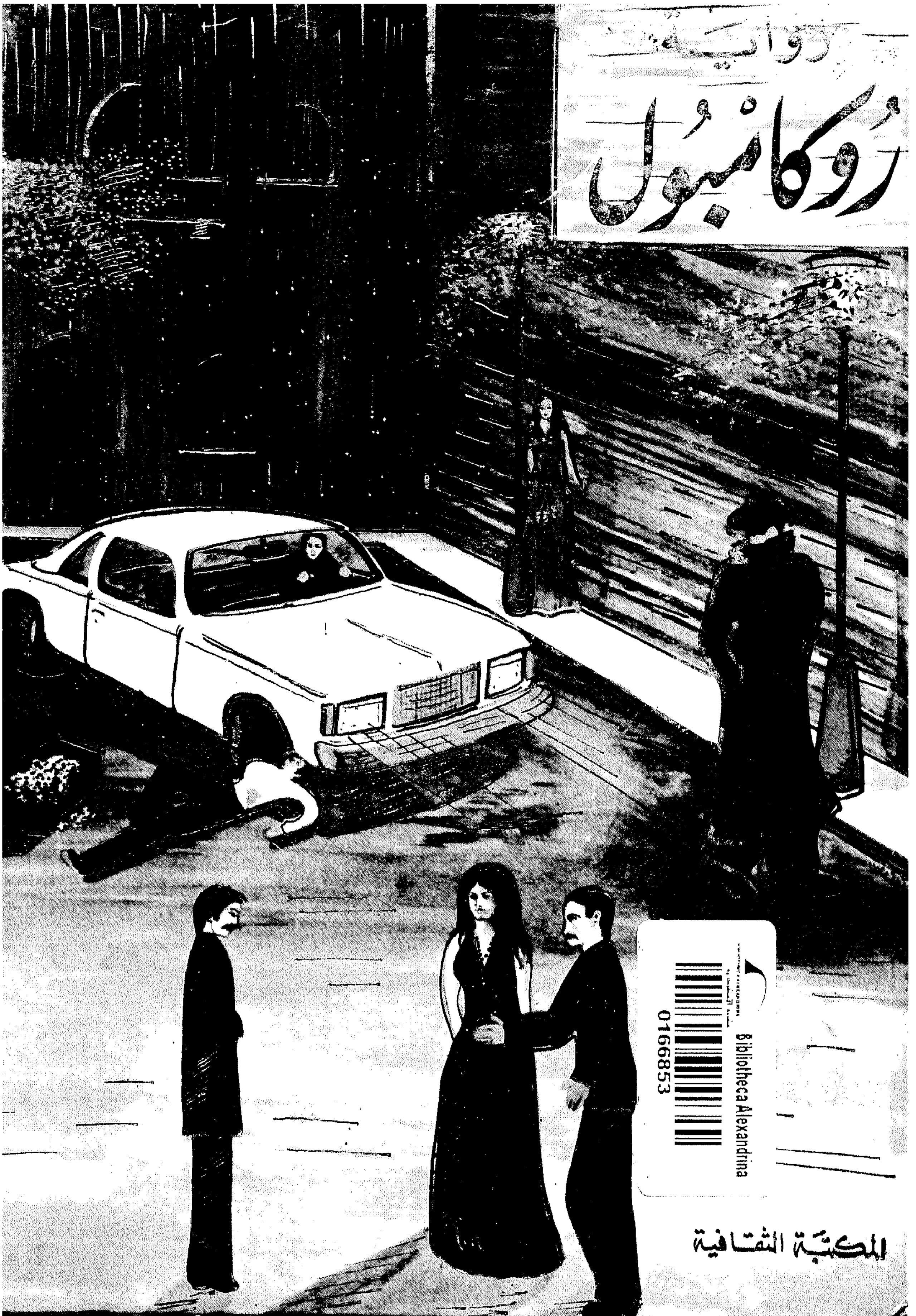

روايــة
روكامبول
المكتبة الثقافية

رواية

روكامبول

المجلد الثالث

يحتوي هذا المجلد على :

ملايين النورية

البستانية الحسناء

كنوز الهند

ابن ارلندا

رواية

روكامبول

ترجمة الكاتب البليغ الأستاذ

طانيوس عبده

الجزء التاسع

ملايين النورية

المكتبة الثقافية

بيروت - لبنان

ملايين النورية

- ١ -

كان الهواء يهب عاصفاً والغيث يهطل منهمراً وقد ثارت عـــاصفة تحطم لشدتها زجاج النوافذ في قصر روشربيم في بيكارديا ، وهو القصر الذي تبدأ فيه حوادث هذه الرواية .

وكان هذا القصر على بضعة مراحل من طريق أميانس ، وهو قديم يتصل عهد بنائه بأيام الصليبين ، ولكنه هجر نحو مئة عام لم يسكنه أحد ، حـتى رويت عنه الأحاديث الخرافية المزعجة ، وبات الناس يخافونه ولا يدنون منه لكثرة ما روي عنه من الحوادث المخيفة ، وأخصها أنه مسكون من الجان .

وكان ينتقل من وريث إلى وريث ، فلا يقيم به ، ولا يجد من يستأجره إلى أن جاء يوما سائحان من الانكليز إلى تلك الجهة وسمعا مـــا يروون من الخرافات عن ذلك القصر فزاراه وتفقداه ، ثم اشترياه من صاحبه وأقاما فيه وذلك منذ ٥ أو ٦ أعوام .

وكان أحد السائحين إمرأة يبلغ عمرها نحو الخامسة والثلاثين عصبية المزاج بارعة الجمال ، غير أن آثار الهم والتفكير كانت بادية بين ثنـــاياها وجميع

ظواهرها تدل على أنها من الأعيان .

أما السائح الآخر فقد كان أبيض الشعر مصفر الوجه ، إلا أن آثار القوة كانت تبدو من اتقاد عينيه ، وخفة حركاته ، وكان يدعوها بلقب ميلادي ، ويخاطبها بلهجة الاحترام ، وهي تدعوه باسم بب دون كلفة مما يدل على أنها مولاته وانه وكيلها .

وقد حاول هذا الوكيل حين إقامتها في هذا القصر أن يجد خداماً من أهل القرية فلم يلق من يجسر على المبيت فيه لكثرة ما تداول على الأسماع من سمعته السيئة ، فاضطر إلى إحضار الخدم من باريس .

وكان من عادة ميلادي أن تخرج في صباح كل يوم ممتطية جواداً فتتنزه ساعة وتعود ، لكنها تجتنب الحقول والمزارع والمنازل والقرى المجاورة فلا تكلم أحداً من الناس ، حتى سكان القصر ، ولا يأتي إلى هذا القصر أحد حتى الشحاذين .

وأغرب من هذا أن الخدم أنفسهم لم يكونوا يكلمون أحداً كأنما الأمر قد صدر اليهم بهذا السكوت غير انهم كانوا يحدثون بعضهم بأسرار هذا القصر كما تراه من هذه المحادثة الآتية :

فقد اجتمع في المطبخ السائق وخادم والطباخة فقال الخادم : مسكينة هذه السيدة فقد كانت ليلتها أمس من أسوإ الليالي .

فقالت الطباخة : هو ما تقول فقد سمعناها تصيح وتطلب العفو .

وقال السائق . حبذا لو كنت أعرف اللغة الانكليزية فإني كنت أفهم حديثها حين تصيح في الليل .

فقال الخادم : لا شك ان الأرواح مقيمة في هذا القصر وانها ستعود هذه الليلة

فقال السائق : أنها تأتي كل ليلة منذ حين غير بعيد .

فقالت الطباخة : ولكن أتعلمون في أي غرفة من غرف القصر تنام

ميلادي ؟

فقال خادم الغرفة : ذلك يستحيل معرفته فإن غرف القصر كثيرة وهي تنام كل ليلة في غرفة راجية أن لا تهتدي الأرواح اليها كأنما الأرواح تخفاها خافية .

فقالت الطباخة : أظن ان سيدتنا لا تهبط اليها الأرواح ولا تناجيها وانها قد تكون أذنبت ذنباً عظيماً ندمت عليه وما نسمعه منها إنما هو مما يصيبها من تقريع الضمير .

فقال السائق : وأي تقريع هذا ، بل أي ذنب يمكن أن تجترمه مثل هذه الحسناء ؟

فقالت الطباخة : اني عقدت كلامي على الظن ، ومع ذلك فإني أعتقد أنها ارتكبت جريمة وعندي برهان .

لكنها قبل أن تتم حديثها وتذكر ذلك البرهان ، قرع باب القصر الخارجي قرعاً شديداً فتوقفت عن الحديث .

واندهل جميع الخدم لأنهم لم يتعودوا قدوم الزائرين فشغلهم الاندهال عن فتح الباب ثم توالى القرع بشدة فأسرع بب إلى المطبخ وأمر أحدهم أن يفتح الباب وينظر من الطارق .

فذهب أحدهم وعاد بعد هنيهة فقال للوكيل : إنهما يا سيدي اثنان أحدهما رجل والآخر امرأة صبية وقد ابتلت ثيابها بمياه المطر .

فسأله الوكيل ماذا يريدان ؟

— إن مركبتهما قد انكسرت على الطريق وهما لا يعلمان أين يذهبان . فقلت لهما ان سكان القصر لا يضيفون أحداً .

— وهل ذهبا ؟

— كلا فانهما لا يزالان يلحان بالدخول .

فلم يجبه الوكيل بحرف ، ولكنه قطب حاجبيه وغادر المطبخ فذهب

إلى السيدة ، وعاد إلى الخادم كي ينفذ الأمر ، وبقي الخادمـان الآخران في المطبخ ينتظران .

- ٢ -

بعد ذلك بساعة كان الضيفين جالسين في قاعة من قاعات القصر يتدفئان قرب النار ، وقد مضت عليهما ساعة دون أن تحضر ميلادي أو وكيلها بب فلم يريا غير الغلام .

ولم يكن هذان الضيفان إلا السير جمس نيفلي وفاندا ، وقد كانا قادمين إلى باريس للانتقام من روكامبول بعد أن خدعت فاندا السير نيفلي كما تقدم في الرواية السابقة (ضحايا الهند)

فلما وصلت المركبة القادمة بهما إلى أميانس سقطت في هوة في ذلك الوادي الذي كان يشرف عليه قصر روشربيم فلم يصب ركابها بأذى إلا ان المركبة انكسرت ولم تعد صالحة للسير ..

وكانت الساعة العاشرة من الليل والأمطار تنهمر غزيرة فحارا في أمرهما ولم يعلما أين يسيران فقال لهما السائق : انه لا يوجد هنا ملجأ قريب غير قصر روشربيم ، لكنه روى لهما جميع ما كان شائعاً من الخرافات عن ذلك القصر ، فلم يحفلا بها وقالت فاندا ما زال سكان القصر من الانكليز فإني أرجو أن يأذنوا لنا بالمبيت في هذه الليلة .

فوافقها السير جمس وبعد ساعة كانا في تلك القاعة كما ذكرنا ، وكان السير جمس ينظر اليها نظرات ملؤها الغرام وهي مقطبة صامتة تمثـل دور اليأس والحقد الدفين خير تمثيل .

إلا أن السير جمس أراد أن يشاغلها بالحديث عن هواجسها فقـال لها :

كيف رأيت هذا القصر ألا يشبه تلك القصور التي كنا نقرأ عنها في الروايات الخرافية ؟

– هو ما تقول فإن كل ما فيه يدل على الغرابة .

– ولقد يخال لي اننا في منزل إحدى بنات الجان ، ولكن هذه الجنية لم تتنازل بعد إلى مقابلتنا .

– ربما هي تتأهب لاستقبالنا فلنصبر .

فأطرق السير جمس برأسه إلى الأرض وقال : إني لا أرى كما ترين.

وفي ذلك الحين دخل عليهما الخادم وقد رأى من لهجتهما في حديثهما انهما غير زوجين فوقف أمامها وقفة المتردد وقال : أسألكما العفو يا أسيادي فإني متلجلج ولا أعلم ماذا أقول فإن المسيو بب نائم .

فقالت فاندا : من المسيو بب هذا ؟

– أنه وكيل القصر ولا أجسر على إيقاظه .

– ألعلك محتاج اليه ؟

– كل الاحتياج يا سيدتي فإن المسيو بب كان يحسب انكما زوجان .

– كلا .. انه منخدع فإن الذي تراه هو من أصدقائي ..

– وهذا الذي يقلقني يا سيدتي ..

– لماذا ؟

– لأن المسيو بب أمرني أن أهيىء لكما الغرفة الحمراء ، لكنه لا يوجد في هذه الغرفة إلا سرير واحد .

– كيف ذلك ... ألا يوجد سوى غرفة واحدة للضيوف في هـذا القصر العظيم ؟

– يوجد نحو عشرين غرفة ، لكنها جميعها لصاحبة القصر ، لأنـه ليس بيننا من يعلم في أية غرفة تنام ولهذا تريني مضطرباً فاني اذا أدخلت صديقك إلى الغرفة الحمراء ، فأين تنامين أنت ؟

– أنام على كرسي في هذه القاعة .

– إن ثيابك مبتلة يا سيدتي ، والبرد شديد فلا تسلمين من الخطر إذا نمت على الكرسي ، ولكني سأفتح لك غرفة من غرف ميلادي فتبيتين فيها وعند الصباح أصلح سريرها فلا تعلم بشيء مما جرى .

ثم أخذ مصباحاً فسار أمامها وسألها أن تتبعه فودعت السير جمس وسارت في أثر الخادم حتى أوصلها الى غرفة متسعة مفروشة بأفخر الرياش علىالطريقة الانكليزية ، فوضع شيئاً من الحطب في المستوقد وخرج ، فأقفلت فاندا الباب وخلعت ملابسها ، ثم أطفأت المصباح وصعدت إلى السرير بغيـة أن تنام ولكن لم تنم .

وكانت نار المستوقد لا تزال متأججة ، يخرج منها نور ضعيف ، والأمطار لا تزال تنهمر على النوافذ ، فيضيع صوت سقوطهـا بين هزيم الرعود القاصفـة .

وكانت فاندا تقول في نفسها : من عسى تكون هذه المرأة التي تغير غرفة نومها في كل ليلة ؟

وأقامت في سريرها نحو ساعة وهي تمعن الفكرة في حل هذا اللغز دون أن تهتدي إلى حل .

وفيما هي أرقة مفكرة خيل لها أنها تسمع صوت تنهد من بعد ، ثم قرب هذا الصوت وانجلى ، فرفعت رأسها عن المخدة وأصغت كل الاصغـاء إلى هذا الصوت .

وكانت تسمع مع صوت التنهد ، صوت قيود من حديد ، كأنما صاحب هذا الصوت كان أسيراً يرصف في قيوده ، فجعلت أصوات التنهد تتوالى والخطوات تتدانى ، وأخذ لهب نار المستوقد يخمد وتنطفيء أشعته التي كانت تنير الغرفة .

ولم تكن فاندا من اللواتي يعتقدن بالخرافات والأرواح ولكنها على بسالتها

لم تنج من الاضطراب ، إلى أن سمعت أن الخطوات وقفت عند باب غرفتها فجعل العرق ينصب من جبينها .

وكانت فاندا قد أقفلت باب غرفتها ، ومع ذلك فقد رأت ان الباب انفتح ورأت من بقية نور المستوقد الضعيف خيالاً دخل إلى هذه الغرفة يجر وراءه قيداً كبيراً من الحديد ويتنهد تنهداً متصلاً ، ثم رأت أن الخيال يمشي مشياً بطيئاً إلى السرير .

وعند ذلك انطفأ نور المستوقد وساد الظلام ، فلم تعد فاندا ترى الخيال ولكنها كانت تسمع صوت القيد ينجر على أرض الغرفة .

- ٣ -

وكانت فاندا باسلة كما يعهدها القراء ، ولكن قلبها قد انقبض حين شعرت أن هذا الخيال يدنو منها ، وحاولت أن تصرخ وتستغيث لو لم يخطر في بالها ذكر روكامبول فتتشدد .

ومـا زال الخيال يدنو متباطئاً متوانياً حتى وصل إلى السرير فوضع يده على فاندا ثم تنهد تنهداً عميقاً وقال : يا مس الن هو ذا أنا عدت اليك أعرفتيني ؟

ففهمت فاندا ان هذا الخيال أو هذا الروح الهائمة يحسب أنه يخـاطب الانكليزية صاحبة المنزل فزال خوفها في الحال ..

أما الخيال فانه عاد إلى الحديث فقال : ألم تندمي إلى الآن حتى الندم يا مس الن ؟

ولم تجب فاندا بحرف وعاد الخيال الى الحديث فقال : ان الله قد أذن لي أن أخرج من القبر كل ليلة كي أذكرك بذنوبك وأوبخك على قتـلي ... مس

الن ماذا فعلت بأختك ؟. ألم تمت مخنوقة بأمرك ، وماذا صنعت بأبيك ، وهو أنا ، ألم تحبسيني في سجن عميق وتقييديني بالسلاسل عشرة أعوام حتى قتلني الشقاء والجوع ؟ ثم ماذا فعلت بابنة أختك ؟ انك لا تريدين أن تقولي شيئاً عنها ، إلا أن الوقت لا يزال فسيحاً لديك فاندمي فقد ينفعك الندم ، وابحثي عن الفتاة المفقودة وردي لها تلك الثروة العظيمة المسلوبة .

وكان الخيال قريباً من فاندا، وكانت تشعر بأنفاسه تقع على يديها فاطمأنت وقالت في نفسها . ان الأرواح لا يكون لها أنفاس ولا عيون ، ثم أنه إذا كان الله يسمح لأرواح الموتى بالخروج من قبورها، لأن هذه الأرواح لا تخطىء الناس الذين تسير اليهم فكيف أخطأ هذا الخيال وحسباني مس الن ؟

وعند ذلك أيقنت الرجل يخدع تلك الانكليزيّة منذ أعوام هذه الخدعة الهائلة وانه متنكر بشكل خيال

ثم عاد الخيال إلى الكلام وقال : مس الن أن البرد شديد وأن الأموات يشعرون به أكثر من الأحياء وقد اجتزت طريق الأبدية للوصول اليك وهي طريق شاسعة فاستغفري الله واندمي على ذنوبك أعود إلى قبري ولا أخرج منه بعد الآن واستغفر لك الله .

وكان يقول هذا القول ويمشي عائداً إلى المستوقد ، وكان بقية لهب تمكنت فاندا من نوره الضعيف أن ترى الخيال فرأت انه شيخ عجوز مرتد بملابس ضباط الانكليز

ثم انطفأ اللهب وساد الظلام فقال الخيال . اني عندما أتيت اليك المرة الأخيرة ظهرت عليك دلائل الندم لأنك بكيت البكاء الشديد وجعلت تصيحين وتستغيثين ، وطلبت إلي أن أعود إلى قبري ووعدتني بالتوبة والطاعة لي فماذا فعلت ؟ إنك لم تفعلي شيئاً ، بل اني أراك صامتة لا تجيبين فاحذري لأن العقاب هائل شديد .

ثم هز قيوده هزاً عنيفاً وقال : انك تخافين في الليل وتعزمين عزماً صادقاً

على التوبة والندم وإرجاع الأموال المسلوبة ، فاذا أقبل النهار محا توبة الليل وعدت إلى الآثام . أيتها الشقية قاتلة أختها وأبيها إن عقابك سترتجف له الأبدان.

وبعد أن قال هذا القول فتح الباب بسكينة وخرج منه فأقفل وراءه وجعل يمشي مشياً بطيئاً فتسمع فاندا صوت قيوده ، وما زال هذا الصوت يتباعد حتى انقطع .

فتنفست فاندا الصعداء ولكنها لم يغمض لها جفن في تلك الليلة .

ولما أشرق الصباح نهضت من سريرها وفتحت نافذة الغرفة المطلة على حديقة القصر ، ورأت السير نيفلي يتنزه فيها والخادم واقف عند باب الحديقة فلبست ملابسها وخرجت من تلك الغرفة إلى الحديقة وكان أول من قابلها الخادم فسألها : أعلمت ميلادي يا سيدتي انك نمت في إحدى غرفها ؟

– كلا .. كن مطمئناً .

– ألم تسمعي شيئاً مدة نومك ؟

– كلا .. ما خلا صوت الأمطار وهزيم الرعد .

– ألم تسمعي صوت الخيال ؟

– أي خيال تعني ؟

فخشي الخادم أن يزيد في التصريح وقال لها : التمس من سيدتي أن تبرح القصر قبل أن يستيقظ بب .

– اننا مسافران في الحال .

ثم نادت السير جمس وقالت له : أتريد أن نسافر الآن ؟

– انك تعلمين اني أطوع لك من البنان .

وبعد ساعة كان السير نيفلي وفاندا في قطار الاكسبرس المسافر إلى باريس.

ولنذكر الآن شيئاً عن ميلادي فانه مضت ساعتان على سفر فاندا ونيفلي ولم يكن بب قد استيقظ من رقاده بعد .
وكان الخادم قد عاد إلى المطبخ بعد سفرهما وفيما هو جالس مع الخدم إذ سمع قرع الجرس في المطبخ فقال · هوذا ميلادي قد استيقظت .

وأسرع إلى حيث الجرس كي يعلم نمرة الغرفة التي باتت فيها ميلادي فانه كان يوجد في المطبخ أزرار كهربائية متصلة أسلاكها بغرف ميلادي وتحت كل زر نمرة الغرفة المتصل بها السلك ، ورأى الخادم ان نمرة الغرفـــة التي قرع جرسها كان ٩ فاطمأن باله كل الاطمئنان ، لأن الغرفة التي نامت فيها فاندا كانت نمرتها ٣ .
وكانت الغرف التي تنام فيها منقسمة إلى قسمين ، قسم في الدور العلوي ونمرها ١ إلى ١٠ والقسم الثاني في الدور الأسفل ونمر غرفه من ١١ إلى ١٠ ، وكانت إذا اختارت غرفة من هذه الغرف للنوم أقفلت بابها من الداخل ، ولكن كل هذا الحذر لم يكن يفيدها فان الخيال كان يزورهـا مرة في كل ثلاث ليال .

وكان الخدم يعلمون بزيارة الخيال من وجه سيدتهم فانه حين يزورهـا في الليل تصبح نحيلة مضطربة مصفرة الوجه ولا تقوى على الكلام وإذا لم يزرهـا أصبحت مرتاحة النفس براقة العين باسمة الثغر لأنها تنام تلك الليلة خلافـاً لحالها في الليلة التي يزورها الخيال فان عينيها لا تذوقان طعم الرقاد .

ولما دق الجرس أسرع الخادم إلى الغرفة نمرة ٩ فطرق الباب بلطف فأذنت له بالدخول وعلم من هيئتها وارتياحها ان الخيال لم يزرها في الليلة السابقة .
وكانت جالسة قرب المستوقد متشحة برداء من الكشمير وقد فتحت نوافذ الغرفة فملأتها أشعة الشمس فلما دخل الخادم قالت له · أين هو بب ؟

- إني لم أره بعد يا سيدتي .
- إذاً ، قل لي أنت أرأيت الغريبين اللذين باتا ليلة أمس في القصر ؟
- نعم يا سيدتي .
- صفهما لي .
- إنه شاب وصبية ويظهر ان الزوج استاء لأنه لم ير سيدتي .

وقد استعمل الخادم لفظة زوج ، حذراً من أن تعلم أنه أدخل فاندا إحدى غرفها .

فقالت له : أهي حسناء تلك الصبية ؟
- إنها بارعة الجمال .
- أعرفت اسمها ؟
- كلا يا سيدتي .
- أهما باقيان في القصر أم سافرا ؟
- إنهما سافرا منذ الفجر

فذهبت ميلادي الى النافذة ونظرت في الفضاء نظرة فاحص ، ثم عادت الى الخادم فقالت : إن الطقس جميل ، إذهب وأسرج لي جوادي في الحال .

فخرج الخادم مسرعاً ولما بلغ آخر السلم التقى بالوكيل بب فسأله الوكيل فأخبره أن ميلادي ستخرج للنزهة وإنه ذاهب لإسراج جوادها فقال له : العلها سألت عني ؟
- نعم يا سيدي فقلت لها إني لم أرك .
- حسناً إمض في شأنك وأنا صاعد اليها .

فصعد بب الى الدور الأول وذهب تواً الى الغرفة التي نمرتها ٣ وهي الغرفة التي كانت نائمة فيها فاندا ، فطرق بابها فلم يجبه أحد فطرق ثانية دون جدوى. وعند ذلك فتح الباب ودخل فلم يجد أحداً في الغرفة لكنه وجد رماداً في

المستوقد ورأى الفراش مختل النظام فقال في نفسه : العل ميلادي باتت هذه الليلة في غرفتين ؟

ثم برح هذه الغرفة وجعل يطرق جميع الأبواب حتى انتهى الى نمرة ٩ ، فأجابته ميلادي من داخلها وأمرته بالدخول فدخـــل ورآها تلبس ملابس الركوب وعليها علائم السكينة والارتياح فتقدم منها وقبل يدها وقال أرى أن سيدتي قد نامت مستريحة هذه الليلة ؟

– نعم فلم أزعج في رقادي .

– ويسرني ان أراك اليوم ناعمة البال رضية الأخلاق

– نعم إننا في اليوم السابع عشر من الشهر ، وإنه في مثل هذا اليوم من كل شهر يحضر رجل باريس .

– لقد أصبت فقد سهوت عن التاريخ .

ثم خرجت ميلادي وخرج بب في أثرها حتى انتهت إلى الحديقـة فأعانها وكيلها على امتطاء الجواد وصحبها الى الشارع فأطلقت عنان الجواد إلى أن توارت عن الأنظار .

أما بب فإنه عاد الى القصر وصعد وهو يضطرب الى الغرفة نمرة ٣ وجعل يفحص الفراش فحصـاً مدققاً ، فرأى على المخدة شعرة علم من طولها انها من رأس إمرأة ولكنه ما لبث ان نظر الى لونها حتى ارتعش ؛ لأن هـــذه الشعرة كانت شقراء وشعر ميلادي أسود . فأيقن ان ميلادي لم تبت الليلة الماضية في هذه الغرفة . وجعـل العرق ينصب من جبينه ، ليقينه أن تلك المرأة التي باتت أمس في هذا القصر ، برحتـه في هذا الصباح وهي تحمل سر الخيال .

- ٥ -

وسارت ميلادي على ظهر جوادها تقطع تلك البراري وهي طلقة المحيا ، فكانت تسير في طريق خاص كأنها تسير لموعد مضروب . وما زالت مجدة في سيرها حتى انتهت إلى روضـة في آخر القرية ، كائنة على الطريق المؤدية إلى باريس .

وهناك أوقفت جوادها وجعلت تتلفت يمنة ويسرة ، ولم يطل وقوفها حتى برز لها رجل من وراء الأكمة كان متنكراً بملابس القرويين ، ولكنها عرفته في الحال وقالت له بصوت يتهدج : أهـذا أنت يا فرانز ، قل لي ما وراءك من الأخبار ؟

فحياها هذا الرجل ، الذي دعتـه باسم ألماني ، وقال لها : إن الأخبار حسنة .

– وكيف ولدي ؟

– إنه زاد جمالاً .

– أهو سعيد ؟

– دون شك ولكنه عاشق مفتون وهو سيتزوج .

فاضطربت ميلادي وقالت : رباه وماذا أصنع ؟

– لماذا تضطربين فإنه سيكون أسعد الناس بهذا الزواج ، لأن التي يحبها بارعة الجمال ، ولكنها فقيرة مدينـة له بكل شيء حتى بهنائها فإنها أيضاً هائمة بهواه .

فزالت آثار الاضطراب عن وجه ميلادي وأخذت يد فرانز وقالت : إنه بلغ من العمر أربعة وعشرين عاماً ، وإني لم أعد أراه بعد ان تجاوز عمره خمسة أعوام .

– إني يا سيدتي لم أجسر أبداً على اعتراضك بل اني كنت أمتثل لأوامرك

وأنفذها كما تنفذ الآلة أغراض الصناع وها أنا الآن لا أزال في موقفي القديم ، أحبّ ان أتكلم ولكني لا أجسر على الكلام .

– قل إني أريد ان تتكلم .

– ألا تظنين يا سيدتي ان حب الأم يكفر عن الذنوب ؟

– أسكت .

ولكن فرانز أتم حديثه فقال : إنك أردت ان أتكلم وسأتكلم فاعلمي يا سيدتي انه قد مضى ٢٥ عاماً على موت أبيك .

فغطت ميلادي وجهها بيدها إخفاء لاضطرابها فقال فرانز : وقد مضى أيضاً على قتل اختك ستة أعوام ، فممن تخشين ومن الذي يطالبك بعد أبيك واختك بهذه الثروة الطائلة التي تتمتعين بها منذ عهد بعيد فلماذا لا تظهرين لابنك انك أمه ولماذا لا تقيمين في باريس ؟

وكانت دموع ميلادي تتساقط ، ولكنها مسحت دمعها حين سمعت هذا القول ، وقالت له : ألا تعلم أيها التعس ، ما القاه من العذاب منذ ستة أعوام ؟

– ماذا تعنين بما تقولين ؟

– ألم تقل ان أبي مات ؟

– ولا أزال أردد هذا الكلام لأني واثق من موته .

فابتسمت ميلادي إبتسام القنوط وقالت : ولكنه يخرج من قبره حين يريد .

– إن الأموات لا يخرجون يا سيدتي من القبور .

– ولكن أبي لم يجر على منوالهم لأنه يخرج من قبره كل ليلة وهو يجر جميع القيود التي كبلناه بها .

– ما هذا الوهم بل ما هذا الجنون ؟

– ليس ما أقول لك وهماً بل هو حقيقة ثابتة ، فإنه يدخل إلى

غرفتي ويجلس على سريري ، ويقول لي : توبي واستغفري وأرجعي الأموال المسلوبة .

فهز كتفيه قائلاً : لمن يريد ان ترجعي هذه الأموال ؟

– لابنة أختي .

– ما هذا الخوف . إنك تعلمين أن إرجاع الأموال محال لأنك إذا أردت إرجاعها فإن الآخرين لا يريدون .

فذعرت وقالت له بربك لا تكلمني عنهم .

فقال فرانز بلهجة قاسية : إنك يا سيدتي قد جريت في صحبتي شوطاً بعيداً ولم تكتمي عني أمراً ، ولذلك أسألك بحق ما بيننا من الصلات أن تبوحي لي بكل شيء .

فقطبت حاجبيها وقالت : إذاً أنت تريد .

– نعم !.

فنزلت عن جوادها وتأبطت ذراعــه ، ثم مشت وإياه وجعلت تبوح له بأسرارها الغامضة .

ولم يعلم أحد ما دار بينهما من الحديث عن الخيال وغيره من الأسرار . ولكن يظهر ان ميلادي قد اطمأنت بعد هذا الحديث ، فعادت إلى القصر وعليهــا مظاهر السكينة والارتيــاح ، خـلافاً لوكيلها بب ، فقــد كان مضطرب أشد الاضطراب . ولكنه لم يسأل الخادم عن المكان الذي نامت فيه فاندا .

ولما عادت ميلادي دخلت الى قاعة الطعام ، ودخل معها بب . وكان من عادته ان يخدمها على المائدة ، لكنها كانت تعتبره صديقاً بل حليفاً لها فكانت تتخـلى عن كبريائها الانـكليزية وتكلمــه من غير كلفة ، لما كان بينهــما من الروابط السرية .

غير أن ميلادي كانت ملازمة للصمت مدة الأكل على ما كان يبدو عليها من

ظواهر الارتياح فبدأ بب الحديث وقال أرى على سيدتي مظاهر السرور فهل وردتها أنباء حسنة من باريس ؟

– نعم إن ابني سيتزوج

فأظهر بب سروره ودعا له بالهناء والعمر الطويل غير ان ميلادي قاطعته وقالت له : أتعتقد بالأرواح يا بب ؟

فتكلف هيئة البلاهة وقال : لا أعلم .

– ولكنك تعتقد مثلي فيما أظن أن أرواح الموتى تظهر للأحياء !

– لا ، لا أعلم أيضاً . ولكني أصدق بكل ما ترويه لي يا سيدتي .

– ألم تر الخيال ولم تسمع رصف قيوده ؟

– كلا ولكن . .

فنظرت ميلادي اليه نظرة ارتياب وقالت لكن ماذا ؟

– ولكني أرى أن هذا الخيال وهذه القيود وهم يمثله لك فكرك المضطرب ولم ير أحد من سكان القصر شيئاً من هذا . غير أني سمعتك في إحدى الليالي فأصغيت ، فخيل لي إنك تجيبين على مسألة تعرض عليك ولكني لم أسمع صوتاً غير صوتك وأظن ان تلك الخرافات التي أشيعت عن هذا القصر قد دعت إلى هذا الاضطراب في أفكارك .

فقالت له ميلادي قد يكون ما تقوله حقاً . ولكن هذا الخيال كان يزورني أيضاً في غلاسكو وفي لندرا - أي في غير هذا القصر الذي كثرت عنه الخرافات ، لأن أبي كان يخرج إلي من قبره في كل ليلة أتعلم ما كان يريد ؟

ثم قلبت شفتها إشارة إلى الاحتقار وقالت : إنه يطلب إلي أن أرجع الى تلك الفتاة النورية تلك الثروة التي ما وصلت إلي إلا بعد أن سفكت كثيراً من الدماء . وهو يقول إني إذا أرجعت هذا المال يصفح عن الزلة التي ارتكبتها في صباي ، ويصفح عن حبي لذلك الهندي وعن قتلي إياه

وقتل أخي .

فارتعش بب وقال : أهو يطلب منك هذا الطلب ؟

– نعم إنه يريـد أن أحرم ولدي الذي تعود بسطة الكف وعيش السعة والانفاق دون حساب ، وأجعله فقيراً معدماً يعيش من شق القلم ، أو يرتزق من صناعته .

ثم ضحكت ضحك الهازىء وقالت : إنه ينذرني بالنار الأبدية وماذا تهمني النار إذا بقي ولدي سعيداً ؟

وقامت بعد ذلك فجعلت تمشي بخطوات غير متوازنة وقالت : لقد اسود هذا القصر في عيني وأريد ان أبرحه .

– إلى اين تبرحين يا سيدتي ؟

– إلى باريس أريد ان أرى ولدي وأهنأ بسعادته .

فلم يجب بب بحرف لكنه خرج من القاعة بحجة انـــه يريد إصدار بعض الأوامر الى الخدم وبقيت ميلادي وحدها .

ولما أقبل الليل ودنت ساعة الرقاد ترددت ميلادي هنيهة باختيار غرفـة تنام فيها إلى ان وقع اختيارها على الغرفة التي نمرتها ١١ وكانت نوافذها تشرف على حديقة القصر .

ولكنها لم تصعد الى سريرها بل جلست فوق مقعد قرب المستوقد وجعلت تنظر الى الساعة من حين إلى آخر وعليها دلائل القلق .

ولبثت على ذلك الى ان دقت الساعة مؤذنة بانتصاف الليل ، فسمعت صفيراً من الحديقة فأسرعت الى خزانة ففتحتها وأخرجت منها حبلاً من الحرير ثم فتحت النافذة المشرفة على الحديقة فربطت طرف الحبل بحديد النافذة وأطلقت الطرف الآخر فبلغ أرض الحديقة .

ولم يمض على ذلك دقيقتين حتى رأت ميــــلادي رجلاً يتسلق الجدار ، مستعيناً بهذا الحبل .

وتنحت عن النافذة ودخل ذاك الرجل منها الى الغرفة فأسرعت ميلادي الى المصباح وأطفأته فساد الظلام في تلك الغرفة .

- ٦ -

غير ان نار المستوقد كانت حامية ، فكان ينبعث منه نور ضعيف ينير إنارة الشفق فيمكن مشاهدة الرجل الداخل من النافذة ويعرف الناظر اليه انه فرانز الألماني الذي التقت به ميلادي في آخر القرية فقال لها عند دخوله العلي تأخرت وجئت بعد فوات الأوان ؟

— كلا ، لأن الخيـال لا يحضر إلا في منتصـف الساعة الأولى بعـد انتصاف الليل .

فنظر فرانز الى ما حواليه وقال : اين يجب ان أختبىء ؟

— هنا وراء السرير فلا يفصل بيننا غير ستار .

فاختبأ وقال لها : قد يمكن ان يكون الزائر خيالاً ، ولكني أعتقد انـه جسم مركب من لحم وعظم ودم فإذا كان ذلك فلا بد لي من مقاتلته .

فاتقدت عيناها ببارق من الغضب وقالت ألديك سلاح ؟

— نعم مسدس وخنجر وأنت لديك مسدس ايضاً فنامي في سريرك بثبات ولننتظر قدوم الخيال .

فامتثلت ميلادي وجعل فرانز يخاطبها من وراء الستار همساً فقال لها أواثقة أنت ان الخيال خيال أبيك ؟

— ليس لدي ريب لأن الوجه وجهه واللباس لباسـه ولا يختلف عنه إلا اختلافاً قليلاً في الصوت .

وفيما هي تقول ذلك سمعت تنهداً فقالت له : كفى لقد حضر

ثم استحال التنهد الى زفير وشهيق تلاهما صوت القيود فغطت ميلادي رأسها بلحاف وقالت لفرانز بصوت منخفض : أسمعت ؟

— نعم اسكتي ولا تفوهي بحرف

وكان الخيال قد بلغ الباب ولكنه لم يسرع بالدخول إلى الغرفة فوقف عند الباب وانطلق لسانه بالكلام فقال . رباه ! ألا تريحني من هذا العذاب ؟ أقضي علي ان أخرج كل ليلة من قبري كي الين قلب هذه المرأة التي قتلت أباها وأختها دون إشفاق . إنها تقنع بالرجاء ولا تخاف من الوعيد بل هي تنكر جلالك ولا تخشي بأسك رباه عفوك لان كفرانها شديد .

وعند ذلك فتح الباب بعنف ودنا من المستوقد وقال . إن البرد شديد وأنا في حاجة الى الدفء .

ثم وقف هنيهة أمام النار فجعلت أسنان ميلادي تصطك من الخوف خلافاً لفرانز فقد وقف موقف التأهب .

وبعد هنيهة دنا الخيال من ميلادي ، فهز سريرها وقال : مس الن أتسمعينني ؟

فاضطربت ميلادي وقالت له بصوت متلجلج : ماذا تريد مني ؟

— أريد ان ترجعي الأموال المختلسة أيتها السارقة السفاكة .

فلم تجبه بشيء . فدنا منها ووضع يده على كتفها وقال لها : ألا تذكرين أباك ؟

فصاحت تقول رحماك .

- أتذكرين أختك ؟

— نعم نعم إني أذكر كل شيء فأشفق علي

إذاً أترجعين الأموال المسروقة ؟

-- لمن تريد ان أرجعها ؟

الى إبنة اختك .

– وإذا كانت هذه الفتاة قد ماتت ؟

– كلا فهي لا تزال في قيد الحياة وأنا أرشدك الى مكانها .

فقالت له بصوت المتوسل ، كيف ذلك ، أتريد أن أحرم ولدي وأجعله فقيراً بعد غنى ؟

– نعم ، لأنه ابن الجريمة . وفوق ذلك فإنك إذا لم ترجعي المال الى إبنة اختك فإن ابنك لا يستفيد منه بشيء ، لأنه يموت ليلة زفافه قرب عروسه .

فصاحت ميلادي صيحة يأس وقالت : إني أرد كل شيء على أن يبقى ولدي حياً .

ولكنها قبل ان تتم كلامها خرج فرانز من وراء السرير وقال له بصوت الساخر المتهكم لكنك تموت قبله أيها المنافق .

ثم انقض بسرعة على الخيال وضغط على عنقه ضغطاً شديداً حتى كاد يخنقه فرأى الخيال انه لا يستطيع دفاعاً فطلب العفو وشعر فرانز ان قناع وجه ذلك الخيال قد سقط على الأرض .

وكان هذا القناع مصنوع من الشمع على مثال وجه والد ميلادي . فلما سقط عن وجهه ورأت ميلادي انه يطلب العفو أيقنت ان فرانز قد تغلب عليه هبت من سريرها وأنارت الشمعة ونظرت الى ذلك الخيال وهو تحت أقدام فرانز ، فرأت انه وكيلها بب . ولكنها لم تهجم على ذلك الرجل الذي كان يخدعها منذ عشرة أعوام بهذه الحيلة الهائلة بل قالت لفرانز يجب على هذا الرجل أن يعترف بكل شيء قبل ان يموت .

ثم قالت لفرانز ، وكان راكعاً فوق صدره : إنهض عنه كي يستطيع أن يتكلم ، لأنه إذا حاول الفرار ألهبت دماغه بنار المسدس .

فامتثل فرانز ونهض بب فألقى سلاسل قيوده وتغير فجأة من الرعب الى الارتياح والاطمئنان كأنه لم يعد يرهب الموت وقال لميلادي : انك تريدين أن

تعرفي كل شيء ؟

– إن دقائق حياتك باتت معدودة ، ولكني أريد ان أعرف سرك قبل أن تموت .

فقال بلهجة المتهكم: إني سأبوح بكل شيء، ولكني لا أبوح بما تريدين لرهبتي من الموت بل إني أقول ما أقوله بملء الرضى وأنت لم تعلمي السبب الذي حملني على ان أظهر لك بمظهر الخيال منذ عشرة أعوام وكيف اني أقنع وجهي بقناع من الشمع يشبه وجه أبيك .

ثم قهقه ضاحكاً وقال إذاً إسمعي .

انك تعلمين يا ميـــلادي ، بل يا مس الن ، إني اتهمت أباك حين كنت خادم غرفته ، انــه دنس عرضي وأغوى إمرأتي ، فحــالفتك مع فرانز على قتــل أبيك ولا شـك إنك تعجبين كيف أني انقلبت عليك هــذا الانقلاب ؟

– نعم وأريد ان أعرف ايها الشقي من دفعك الى هذه الخيانة

فحملق ببب بعينيه وقال أتسألينني من أغراني ومن عسى يغريني غـير خيانتك وفظاعتك ؟

إسمعي الآن . إنه كان لي إمراة طاهرة حسناء أحبها وتحبني كما تعلمين فأتيت إلي يوم وأنت لا تتجاوزين الخامسة عشرة من عمرك الدنس واخذتني بيدي وأكرهتني على ان أنظر من النافذة المطلة على حديقة قصرك في غلاسكو ورأيت إمرأتي جالسة بالقرب من أبيك وهو يعانقها فطلقت امرأتي وأصبحت منذ ذلك الوقت آلة بيدك للانتقام من أبيك .

ومضى على ذلك أربعة أعوام وأنا أساعد فرانز على قتله ، ثم مضت عشرة أعوام أخرى وأنا أطوع لك من البنان الى ان انقلبت عليك هذا الانقلاب . واليك بيان السبب :

جاءني رجل ذات ليلة وقال لي إن امرأة تحتضر وهي تريد أن تراك

قبل ان تموت .

وذهبت الى حيث كانت تقيم فوجدت انها امرأتي وانها مشرفة على الموت فنظرت إلي نظرة قطعت قلبي وقالت إنك طردتني يا بب من منزلك كما تطرد الزوجة الخائنة ، ولكني كنت طاهرة عفيفة بريئة . فما أحببت ان أموت قبل ان أطلعك على سر عظيم وهو ان والدمس الن الذي رأيتني وإياه في الحديقة لم يكن عاشقاً لي بل كان أبي .

ثم أعطتني لفافة تقادم عهدها من الأوراق وقالت لي : إقرأ هذه الأوراق يثبت لك ما قلته .

فقرأتها وعلمت ان امرأتي كانت بنت أبيك من زواج غير شرعي وهي اختك يا ميلادي أعلمت الآن ؟

إنك لا تفقهين مرادي لأن قلبك الدنس لا يعرف غير الذنوب . أما أنا فقد ندمت على ذنبي القديم وذكرت انك انت السبب بالتفريق بيني وبين امرأتي ، فأردت ان أرجع أموال أبيك الى من هو أحق منك اي الى بنت اختك التي خنقتيها في لندرا وهي فتاة تدعى جيبسي النورية وترقص في الشوارع فإذا رجعت اليها ثروتها كانت أغنى أغنياء الانكليز .

فهاجت ميلادي هياج الضواري وقالت ستموت ايها الشقي دون ان تراها على هذا الغنى .

ثم أطلقت عليه مسدسها ، فوقعت رصاصته بصدره . فوقع صريعاً تتدفق منه الدماء .

ثم نظرت الى فراتز وقالت لقد أصبت إن الأموات لا يرجعون .

اما بب فكان لا يزال قادراً على الكلام فقال لها إنك يا مس الن ، قد أضفت جريمة جديدة الى جرائمك القديمة ، ولكن لا بد من عقابك وهو قريب .

فضحكت ميلادي وقالت العلك تقوم ثانية من بين الأموات ؟

– كلا ولكن يوجد من يعرف سري بين الأحياء .

ورأى بب ان وجهها قد اصفر فقال لها . لقد بدت عليك دلائل الخوف وإذا اردت ان تعلمي كل شيء فاعلمي ايضاً انه جاء الى قصرك امس غريبان وامرت باستقبالهما فبات الرجل في الغرفة الحمراء وباتت المرأة في إحدى غرفك فخدعت بها حين دخلت الى غرفتك وحسبتك اياها فمثلت امامها دور الخيال وذكرت جميع ذنوبك .

فصاحت ميلادي صيحة جزع اما بب فكان صوته يتلاشى فقال لها : ان يوم العقاب قريب وسيكون هائلاً ايتها الأفعى

ثم ادار وجهه كي لا ينظر اليها وقد خفت صوته واطبقت عيناه

* * *

فقال فرانز لميلادي لا تضطربي لمثل هذه الأمور التافهة ولنبرح المكان قبل الصباح

– الى اين نذهب ؟

– الى باريس حيث ترين ولدك .

– لقد اصبت لنذهب .

ثم انحدرت دمعة حنو من عين تلك النمرة التي سفكت دم ابيها واختها ، كأنما ذكر ولدها اعاد اليها قلب المرأة .

– ٧ –

وبعد ان رحلت فاندا مع السير نيفلي بساعتين على قطار الاكسبرس الى باريس كان روكامبول بطل هذه الرواية في شارع الكبوشيين في باريس يسير سيراً

مستعجلا تدل ظواهره انه ذاهب الى موعد ثم رأى مركبة اجرة فأوقفها وامر سائقها ان يسير به الى شارع سربنت .

فلما وصل رأى نويل ينتظره ، فكان اول سؤال بادره به قوله : هل اتت فاندا ؟

فقال له نويل : كلا ايها الرئيس إني كنت انتظرها امس فلم تأت وذهبت اليوم الى المحطة ورأيت جميع الركاب دون ان اراها بينهم ولكني علمت ان القطار خرج عن الخط قرب اميانس فلم يصب احد من الركاب بضرر غير ان بعضهم تركوا القطار وذهبوا الى اميانس وانا الآن واثق ...

وقبل ان يتم كلامه فتح الباب ودخلت منه امرأة فارتعش روكامبول حين رآها لأنها كانت فاندا فسلمت عليه سلام المحبين وقالت له : وصلت منذ ساعة فأفرغت جعبة حيلي حتى تمكنت من الحضور لأن السير جمس نيفلي بات يعاملني معاملة العشاق ويغار علي اشد الغيرة في حين ان شفتيه لم تلثما اطراف اصابعي بعد .

فابتسم روكامبول وقال : شرط ان تكوني علمت اسراره على الأقل .

-- كلا لم اقف على شيء منه بعد .

-- ولكني اريد ان اعلم تاريخ حياة جيبسي لأن السير جورج ستوي الذي انضم الينا لم يعلم حقيقته .

-- ولكني علمت بعضه لأن الصدفة اوقفتني على شيء منه .

فاندهش روكامبول وقال . اوضحي ما تقولين .

-- ان جيبسي غنية وتقدر ثروتها بالملايين الكثيرة .

ثم قصت عليه جميع ما حدث لها من الحوادث في قصر روشربين ، وكيف انها جاءت مع السير جيمس نيفلي الى ذاك المكان من اميانس ومبيتها في إحدى غرف ميلادي وظهور الخيال وما علمت منه من الأمور الى ان اتمت حديثها قائلة : إما ان اكون منخدعة او تكون جيبسى ابنة اخت مس

الى صاحبة تلك الملايين

وكان روكامبول مصغياً اليها بانتباه عظيم فقال لها: إذا كان ذلك فلا خوف على جيبسي لقد وضعتها في محل امين وتولى مرميس حمايتها وهو يحرص عليها اكثر من حرصه على نفسه .

— وما صنعت بالسير جورج ستوي ؟

- اقمته في احدى فنادق سانت جرمن وامرته ان لا يبرح الفندق في النهار . غير اني مضطر الآن بعد ما سمعت منك هذه الحكاية ان لا أذن له بالخروج في الليل ايضاً ، حذراً من ان يراه السير جيمس نيفلي قبل ان اعود .

— كيف الى ان تعود العلك راحل ؟

— نعم ، فلا بد لي من زيارة قصر روشربين ، والمباحثة قليلاً مع ذاك الخيال .

وبعد ليلة كان روكامبول ينزل من قطار السكة الحديدية الى اقرب محطة من قصر روشربين .

وكانت فاندا قد ارشدت روكامبول الى طريق القصر ووصفته له خير وصف ، فكان يتوقع حين وصوله اليه ان يرى السكينة سائدة من حوله ولكنه رأى نقيض ما كان يتوقع . إذ رأى كثيراً من الناس واقفين عند بابه ، وخادم القصر يقص عليهم ما حدث فيه لوكيله بب فيقول انه كان خدام القصر سمعوا في الساعة الأولى بعد منتصف الليل ، دوي مسدس ، ولكنهم لم يجسروا على الدخول الى غرف مولاتهم ، غير انهم سمعوا بعد ذلك ميلادي تنادي أحدهم فأسرع اليها فأمرته ان يسرج لها جوادين ، فامتثل وهو منذهل لانه رآها مع رجل غريب لم يكن رآه في المكان من قبل .

ثم رحلت ميلادي مع فرانز وعند الصباح تجاسر الخادم على الدنو من

غرف ميلادي فسمع انيناً فتقدم حتى اهتدى الى مصدر الأنين ففتح الباب ووجد بب سابحاً بدمائه لكن قلبه لا يزال ينبض .

ولما وصل روكامبول كان الخادم قد بلغ بحكايته الى هذا الحد فزحم الحضور واخترقهم الى الخادم قائلاً ألا يزال حياً ؟

– نعم ولكني لا اظنه يحيى اكثر من ساعة .

– سر بي اليه في الحال فاني طبيب .

فدخل به الخادم الى القصر ، وظل الفلاحون المتجمهرون وقوفاً عند الباب .

– ٨ –

ولندع الآن روكامبول في ذلك المكان ، ونخبر شيئاً عن ابن ميلادي التي ارتكبت ما ارتكبته من الجرائم حفظاً لثروته فنسمع الآن حكايته من فمه يتلوها لصديق له في باريس .

كان ابن ميلادي يدعى لوسيان وله صديق يدعى بول فكانا مختليين في غرفة من منزله ولوسيان يقص عليه حكايته قائلاً :

إن ما تتصل اليه ذاكرتي اني عندما كنت في الخامسة من عمري كنت في قصر كبير لا اعلم في اي بلد على كثرة بحثي عنه حين بلوغي سن الشباب ولكني اظن انه كان في انجلترا او ايكوسيا .

ولا ازال اذكر امي فقد كانت صبية حسناء ، إذا رآها احد معي حسبها اختي الكبرى . ولا اعلم كيف افترقت عنها واذا كان هذا الفراق برضاها ولكني أذكر انها كانت تضمني الى صدرها وتبكي ، ولم ادر إلى الآن سبب هذا البكاء .

وبينما أنا ذات يوم نائم في القصر صحوت فاذا أنا بيدي امرأة عجوز راكبة في قطار ينهب الأرض فقضيت اياماً أنوح وابكي ثم تناسيت امي والفت الصغار الذين كانوا يلعبون معي .

وعندما بلغت العاشرة من عمري ارسلت الى مدرسة داخلية كان يتولاها استاذ كهل يحبني كما يحب ابنته ، فاقمت في تلك المدرسة وربيت في منزل ذلك الشيخ إلى ان بلغت السادسة عشرة من عمري وكنت في كل يوم اسأل الاستاذ وهو يدعى برتود عن امي فيجيبني انه لا يعلم شيئاً من امري ، وكان اخر ما قاله لي في هذا الشأن ان رجلاً الماني اللهجة دفعني اليه وجعل يرسل له كل عام خمسة الاف فرنك اجرة تعليمي ونفقاتي فعلمتك اللغـــات الشائعة وأحسنت تربيتك جهد ما استطعت .

وبعد عام ورد الى هذا الاستاذ كتاب الماني يقول فيه ان لوسيان قد أتم دروسه فأطلق سراحه وأعطه هذه الحوالة في طيه .

وكانت الحوالة على أحد المصارف الكبرى وقيمتها الف جنيه ولهذا الاستاذ الفاضل فتاة في الرابعة عشرة من عمرها وهي كزنبقة الحقول وقد كنت بها من الهائمين ، فلما أخذت هذه الحوالة ورأيت اني لم أكد ابلغ السابعة عشرة من العمر حتى كان ايرادي مائة الف فرنك في العام بفضل ما كان يرد لي كل ثلاثة أشهر من هذه الحوالات السرية جئت والد الفتاة واسمها ماري فبحت له بغرامي بها ورجوته أن يأذن لي بزواجها فأبى معتذراً عن ذلك بحداثتي وما زلت به حتى رضي أن يزوجني بها متى بلغت ، وبلغت سن الرشد أي بعد ستة أعوام .

وأنت تعرف أيها الصديق تتمـة حكايتي فاني تجولت سائحاً مدة عامين بصحبة استاذي ولما عدت انشأت منزلاً ودخلت في سلك أعضاء النادي باسم لوسيان دي هاس لأني لا أعرف اسمي الحقيقي فجعل ذلك المكاتب السري الذي كان يكاتب استاذي في عهد حداثتي يكاتبني رأساً ويرسل لي في كل ثلاثة

أشهر ثلاثة الف جنيه بدلاً من الف فلم أعد محتاجاً إلى شيء من اسباب الراحة غير ان الذي نغص عيشي اني عدت من سياحتي في البـــلاد المصرية فلم أجد استاذي القديم برتود ولا ابنته ماري ولا المدرسة التي كان يدرس فيها فبحثت عنهما في كل مكان حتى يأست الى ان أخبرني أحد رفاقي ان الاستاذ مات وان ابنته ماري تزوجت وكنت لا ازال متدلهاً في حبها فاندفعت مع تيــار البذخ والاسراف بغية النسيان فكنت أسكر وأقامر أتعرض لهوى كل حسناء حتى جرى لي مع إحدى بنات الهوى حادث غريب .

فقال له صديقه : ألعلك برحت باريس منذ عام واحتجبت عن الأنظار من أجلها ؟

– هو ذاك وأنا الآن من أسعد الناس .

– ألعل سعادتك من هذه الفتاة ؟

– كلا ، فاني هجرتهـا بعد أن ارسلت اليها كتاب وداع وفي طيه مئة الف فرنك .

– لقد أحسنت غير اني لا أعلم سبب انفصالك عنها قبل فتور حبها لك .

– كلا ، فانها كانت تهواني هوى لا يوصف وهي التي لم يدخل الى قلبها من قبل شعـــاع من أشعة الغرام ولكني لقيت ماري برتود التي أحببتها الحب الأول .

– ألقيتها أرملة ؟

– كلا ، فانها لم تتزوج ولا يزال أبوها حياً يرزق وهي الآن في العشرين من عمرها تفتن النساك بجمالها الطاهر وسأقترن بها بعد ثمانية أيام .

– ولكن كيف لقيت خطيبتك ؟

– انه حديث يطول شرحه ، فاشعل هذا السيكار واجلس أقصه عليك .

- ٩ -

ولنذكر شيئاً عن لوسيان قبل تتمة حكايته فقد كان في الرابعة والعشرين من عمره ممشوق القوام شديد الساعد أسود الشعر أزرق العينين، يبتسم ابتساماً يدل على السويداء ، وهو حلو الكلام حاضر النكتة ، كثير اللطف على بسالة نادرة ، فقد اتفق له مرة وهو في المانيا انه سمع أحد الضباط الالمانيين يطعن بفرنسا طعناً شائناً فدعى جميع فرقة ذلك الضابط إلى المبارزة وبارز في يوم واحد ستة من رجالها ففاز عليهم جميعاً .

لكنه كان مع هذه البسالة والجراءة طاهر النفس رقيق الحاشية يحبه جميع أصدقائه حباً أكيداً لما يرون به من مخائل النجابة والسلامة .

ولما أشعل صديقه سيكارة وعاد إلى موضعه قال له لوسيان : أسمعت باسم تلك الفتاة التي تدعى جوزفين ؟

ومن لم يسمع بها فانها أشهر بنات الهوى العلها هي التي علقت بحبها ؟

- نعم فقد اختطفتها ذات ليلة بل هي التي اختطفتني فإن هذه الفتاة كانت تفتخر انها لم تهو أحداً في حياتها من عشاقها الذين كانوا يترامون على أقدامها وينتحرون من أجلها ، ولكنها أحبتني حباً قوياً ، واعترفت ان هذا أول عهدها بالحب الصادق .

فعشنا عاماً أو يزيد ونحن لا نفترق لحظة ، ثم جاء دور الفتور وشعرت ان جذوة غرامي أخذت بالخمود.وفتح الصواب قلبي وعلمت ان هذه المومس ستقذف بي إلى الهاوية وجعلت أتهيأ للانفصال خلافاً لما كنت أراه منها فإن تعلقها بي كان يزيد في كل يوم .

وقد أصبحت يوماً وشعرت أن حبها قد زال من قلبي بل وجدت نفسي أخافها وارتعد لذكرها ،فخرجت من ذلك المنزل المعتزل الذي كنا فيه أطلب النزهة وما زلت أنتقل من شارع إلى شارع حتى انتهيت إلى حديقة عمومية

كان كثير من الصغار مع مربياتهم يلعبون فيها .

فوقفت أمامهم اتأمل جمال الحداثة ثم حانت مني التفاتة ، ورأيت شيخاً احنت ظهره الايام ، يمشي متوكئاً على عصاه مشي المتعب الضعيف تصحبه فتاة صبية .

وكان وقور الهيئة لطيف الملابس غير ان ملابسه كانت تدل على الفقر وكذلك ملابس الفتاة التي كانت تصحبه فان قبعتها بسيطة دون ازهار غير اني عرفتها للحال فانهما كانا الاستاذ برتود وابنته ماري .

ولا تسأل عن دهشتي فاني اسرعت الى استاذي القديم وكدت اخنقه عنقاً وأنا أقول له . كيف بعثت بعد الموت فاني بكيتك كثيراً ؟

ولم يكن اضطرابه أقل من اضطرابي فاضطر الى الجلوس في مقعد في الحديقة وقال لي : كلا يا بني اني لم أمت ولكني لقيت من الامراض ما هو أشد من الموت فنظرت الي ماري فاطرقت بعينيها وعند ذلك حكي لي الشيخ جميع ما حدث له ولأبنته منذ خمسة أعوام وحكايته انه خسر ماله في مصرف اصيب بالأفلاس ثم جعلت تلاميذه تترك المدرسة واحداً أثر واحد حتى اضطر الى بيعها وبقي عامين يدرّس دروساً خاصة في المنازل الى ان أصيب بمرض اقعده عن العمل فامتنع مرغماً عن التدريس واضطر الى الاقامة مع بنته في منزل صغير فكانت تشتغل ١٠ ساعات في اليوم كي تقي أباها شر العوز .

فتأثرت لحكايته وقلت لماري أين زوجك الله هجرك ؟

فذهلت الفتاة وقالت : ليس لي زوج ولم افترق لحظة عن أبي .

فضممتها الى صدري وقبلت جبينها وقلت لها : اخطأت فان لك زوجاً وهو أنا .

ثم ركعت أمام استاذي القديم وقلت له : العلك نسيت وعدك لي ؟

– صديق لوسيان لقد عرفت الباقي إذن فانت ستتزوج

– نعم بعد ثمانية أيام وإنما ذكرت لك امري كي تكون شاهدي في هذا الزواج .

– ومن يكون الشاهد الثاني ؟

– لا أعلم ولكني أرجو ان يكون ذلك الالماني الذيبت أظن انه هو الذي يتولى شأني منذ حداثتي وهو يدعى الماجور هوف ولست اعلم متى اتى الى باريس ولكني عرفته منذ ٤ أعوام وهو ينظر الي في بعض الأحيان نظرات ملؤها الرفق والحنان فيحدثني قلبي ان هذا الرجل غير غريب عني .

– ألم تكلمه أبداً ؟

– نعم فكان يجيبني ببرود بل بقسوة ولكني كنت أرى انه يتكلف هذا البرود تكلفاً كأنه مكره عليه .

– إذن تعتقد أن الماجور هو والالماني الذي كان يعتني بأمرك هما واحد ؟

– نعم ولهذا ارجو أن يكون شاهدي الثاني .

– اين تجده ؟

أجاب : في نادي اسبرج فانه من أعضائه وسنذهب اليه في هذه الليلة .

– ليكن ما تريد وسأوافيك الى هذا النادي .

وبينما هو يلبس قبعته ويحاول الانصراف سمع دق جرس الباب الخارجي فقال لوسيان من ترى هذا الزائر فاني لا استقبل أحداً في هذه الساعة .

وبعد هنيهة فتح الباب ودخل رجل يناهز الستين من العمر فنظر الى الشابين وقال : من منكما يا سيدي يدعى لوسيان ؟

– لوسيان هو انا .

– لقد عهد لي يا سيدي مصرف دفيس هامفري وشركاه أن أدفع لك مئة الف فرنك وأعطيك هذا الصندوق الصغير وهذا الكتاب .

فانذهل لوسيان لأنه منذ عشرة أيام ورد اليه هذا المبلغ فأخذ المال والصندوق ثم فتح الكتاب فرأى ٣ أسطر مكتوبة بخط دقيق يدل على أن يد أمرأة قد كتبتها وقرأ ما يأتي :

« ولدي العزيز :

« قدم بالنيابة عني هذه الهدية التي تجدهـا في الصندوق الى خطيبتك وفي طي الكتاب مفتاح الصندوق »

(والدتك)

فاحمر وجه لوسيان وكان يرجو أن يعرف اسم والدته على الأقل ثم فتح الصندوق الصغير فوجد فيه عقداً من الماس لم ير أبهج منه ولا تقدر قيمته بأقل من نصف مليون فتنهد لوسيان وانحدرت دمعة من عينه وقـال . إذن امي لا تزال على قيـد الحياة فما يدفعها الى هذا الاحتجاب ومـا بالها تكتم حتى اسمها عني ؟

ثم خطر له أن يسأل موظف البنك الذي جاءه بالحوالة والصندوق فقال له: انك تستطيع الكلام يا سيدي أمام صديقي هذا إذا لا أكتم عنـه شيئاً من اسراري .

فذهل الشيخ الصراف وقال له : ماذا تريد أن أقول يا سيدي ؟

– اتأذن أن اسألك كم بقي لك في خدمة هذا البنك الذي أنت فيه ؟

– أربعون عاماً .

– إذن أنت عرفت كل شيء ؟

– ماذا تعني يا سيدي ؟

– أعني انك ستقول لي كل ما تعلمه

فأبدى الصراف حركة انذهال صادقة وقال . أعيد عليك القول يا سيدي اني لا افهم شيئاً مما تقول .

– إذن اصغ الي فستفهم ما أريد . انه يردني من مصرفكم كل ثلاثـة أشهر مبلغ كبير فمن يرسل الي هذا المال ؟

– يرد الينا من فرع بنكنا في لندرا .

– ممن ؟

– لا أعلم

- ولكنهم في لندره يعلمون ؟

- لا أظن .

- ولكن مدير البنك يعلم دون شك ؟

- لا أستطيع أن أقول لك يا سيدي غير واحد ذكرته الآن وهو اني كنت منذ ٣٠ عاماً عاملاً في فرع بنكنا في لندرا ، وجاء رجل أعرفه دون شك إذا رأيته مرة ثانية لأنه لا يزال ممثلاً في ذهني ودفع إلى البنك مبلغاً عظيماً قسمه إلى قسمين متساويين فوضع أحد القسمين باسم غلام يدعى لوسيان يتربى في فرنسا والقسم الآخر باسم رجل هندي يدعى علي رجاه .

وفي اليوم التالي جاء الهندي وقبض حصته من المال ، وفي العام الثاني جاء الرجل فوضع أيضاً مبلغاً جسيماً قدر المبلغ الأول نصفه للوسيان والنصف الآخر باسم علي رجاه ، وجاء في اليوم التالي وقبض المال الذي وضع باسمه .

فسأله لوسيان : وفي العام الثالث ؟

- لم أكن في لندرا فقد نقلوني إلى مصرف باريس .

- أهذا كل ما تعلمه ؟

- أقسم لك اني لا أعلم غير ما ذكرت .

فقال لوسيان : إذا أظهرت لك الرجل الذي أظن انه هو الذي كان يدفع المال في لندرا أتعرفه وتقول لي هذا هو ؟

- اني لم أتقيد بالكتمان يا سيدي

- إذن أعتمد عليك ؟

- دون شك ..

فقال لوسيان في نفسه : إذا كان هذا الرجل هو الماجور هوف فلا بد له من أن يقول لي أين أمي .

ثم ذهب الصراف ولبث الصديقان يتحدثان هنيهة وبعد ذلك افترقا على أن يجتمعا في المساء في نادي اسبرج .

وأرسل لوسيان كتاب الانفصال إلى عشيقته القديمة جوزفين وأرسل اليهـا تلك المكافأة المالية وهو يحسب انها سوف ترضى عن كرمه وتذكره بالخير ، وما علم ما أثاره هذا الكتاب في نفسها من العواصف فإنها بعد ان ورد اليهـا الكتاب أصابها مس من الجنون وكادت تبتلى باليأس ثم عادت إلى صوابها وجعلت تبحث عن الأسباب التي حملته على هجرانها، وراقبته سراً حتى علمت انه يهوى ابنة استاذه القديم، وانه عازم على الزواج بها، فهاجت عوامل الحقد واستحال ذلك الحب القديم إلى كره دفين وعولت على الانتقام .

وكان لهذه الفتاة حظوة عظيمة لدى شبان باريس لفرط جمالها ووفرة دلالها وكثرة بذخها ، فلما خطر لها خاطر الانتقام عادت إلى عيشتها القديمة في باريس فاتخذت لها قصراً شائقاً واشترت المركبات الجميلة، فما تجولت منتزهات باريس يومين حتى ازدحم الأغرار على أبوابها والتف حولها العشاق .

وكان بين أولئك العشاق شاب جريء يدعى المركيز روكرول علمت جوزفين بعد طول تردد عليها انه خير آلة لقضاء أغراضها فاختارته من بين عشاقهـا وجعلت تمد له سبل غرامها حتى فتنته ولم يعد يطيق الصبر عنها كل ذلك وهي تشغفه حباً وتقصيه عما يريد فتقلبه من هجرها ورضاها على أحر من الجمر

إلى أن أعياه أمرها وكاد يجن بهواها فخلا بها ليلة وعرض عليها كل ماتطمع به أمثال أولئك النساء من مال وعقار وجواهر فابتسمت له جوزفين وقالت اني لا أطمع بمالك ولا أشك بصدق هواك ولكني سأكشف لك حقيقة أمري، وأبوح لك ببعض سري وإنما اخترتك من بين عشاقي لما توسمت فيك من دلائـل الحب الأكيد ولشعور نفسي بميلهـا اليك ولكني لا أقول لك شيئاً إلا متى تعهدت لي بالموافقة على ما أريد وإلا فلا تطمع مني بمراد

— سيدتي ان حياتي وقف لأمرك فمريني أن أموت أو أنتحر فاسفك دمي

على قدميك .

- اني لا أريد أن تموت بل أن تكون رسول الموت أمـــا وقد رضيت بشرطي فاسمع . إني ما أحببت في عمري سوى مرة واحدة وهذا الرجل الذي أحببته وهجرت من أجله باريس ورضيت معه بعيش أشبه بعيش السجون أصبحت أكرهه بقدر ما كنت أهواه ولا يطيب لي عيش إلا إذا انتقمت منه بالموت ، فقد لقيت منه ما هو أشد من الموت .

فقال المركيز : إذن ليمت .

- ولكنه من الماهرين بأساليب المبارزة .

- وما يهمني ؟

- انه ماهر باطلاق الرصاص .

- وأرجو أن أصيب المرمى فإن الحب يشد ساعدي .

ثم ركع أمامها وقال : بالله اذكري لي اسمه فلم أعد أطيق الصبر.

- سأرسل لك اسمه .

- لماذا لا تقولين الآن ؟

- لي في ذلك مأرب ، قل لي أين انت ذاهب الآن ؟

- الى نادي اسبرج .

- إذهب الآن وانتظر فيه فسأرسل لك اسم هذا الرجل .

فقبل يدها وذهب وهو يتنهد فقد حمله غرام هذه المومس من المجانين

ولنعد الآن الى لوسيان فإن موعد التقائه بصديقه في نادي اسبرج كان في الساعة العاشرة ولكنه لم يحضر إلا في منتصف الليل لأنه ذهب لزيارة خطيبته فانسته مجالستها ذلك الموعد .

وكان عضواً في ذلك النادي وقد عرف لجميع أعضائه أنـه ظريف وغني والظرف والغنى كافيان لاكثار الأصدقاء من حوله .

ولما دخل إلى القاعة التي كانت غاصة بأعضاء النادي لاحظ أن قدومه أثر على

الحاضرين تأثيراً غريباً لم يفقه لم معني ولم يسلم عليه بينهم غير صديقه بول .

ورأى ان جميع الأنظار متجهة إلى المركيز دي روكرول لأنه كان واقفاً بينهم موقف الخطيب يكلمهم عن أمور غريبة فاندهش لوسيان واصغى إلى المركيز فسمعه يقول ما يأتي :

الحق أيها السادة ان مثل هذه الأمور لا يتفق حدوثها إلا في باريس فان الرجل يأتي اليها بثروة لا يعلم الناس موردها فينتحل لنفسه إسماً إذ لا يكون له أب معروف ويدعى من النبلاء فيقبل عليه الناس ويحوم حوله الأصدقاء والنبلاء وهو ليس من النبل في شيء

فارتعش لوسيان لسماعه لأن كلامه كان ينطبق عليه .

وعاد المركيز إلى حديثه فقال: لوجاءكم رجل يوماً وقال لكم ان هذا الرجل الذي يقيم بينكم منتحلا اسماء الأعيان وما هو إلا مزور محتال وان المال الذي لديه يورثه الخزي والعار وهو لكم من الأصدقاء فماذا تقولون ؟

وقال له أحد الحاضرين : انك جريت شوطاً بعيداً أيها المركيز .

ـ لا بأس فاني قد أحسن إلى كثيرين بفضيحة هذا الرجل .

وكان لوسيان قد اصفر وجهه ولكنه كان ينظر إلى المركيز بسكينة فقال له : من هذا الذي تريد فضيحته ايها المركيز ؟

ـ هو رجل ينتحل اسماً لا حق له بانتحاله .

ـ يوجد كثير من الناس على هذه الشاكلة ؟

ـ نعم ، ولكن هذا الرجل غني لا يستطيع أن يظهر مورد ثروته وأظنه ابن مومس ، إلا إذا استطاع أن يبرهن عكس ما اقول .

فوقف لوسيان عند هذا القول ولكنه لم يجب بشيء غير ان وقفته كانت هائلة وبات جميع الذين سمعوا كلمات المركيز الأخيرة يتوقعون حدوث أمر خطير بين الاثنين

وساد السكون بضع ثوان حتى اوشكت ان تسمع الأنفاس ، الى أن عاد المركيز الى الكلام فقال اني لا أتهم أحداً إلا وأنا مستعد لإعطاء من أتهمه حق الدفاع .

فقال لوسيان : من هو الذي تتهمه ؟

فأجابه المركيز ببرود . هو انت .

فوقعت هذه الكلمات من صدر لوسيان وقوع الشرارة في لغم بارود ، فجحظت عيناه وارتخى صوته وقال : أيها المركيز إني سأقتلك غداً وان كان دمك لا يكفيني

- هذا حق .

- نعم ولكنه أحب قبل ذلك ان تكشف النقاب عما قلته .

- سأفعل ما تريد . فاعلم انك لا تدعى لوسيان دي هاس ، بل لوسيان فقط .

- وبعد ذلك ؟

- ليس لك غير هذا الاسم

- وبعد ذلك ؟

- أنك لقيط لا أب لك تعرفه ويعرفه الناس .

- إنك لا تعرف شيئاً من ذلك مثلي

- كلا بل أعرف انك ابن فتاة من بنات الهوى .

- كفى !

ثم هجم عليه وصفعه على وجهه والتفت الى الحضور فقال إن هذا الرجل كان امس من أصحابي ولم أسيء اليه مرة في حياتي . ولكن هذه الفضيحة التي يتهمني بها لا تغسل إلا بالدماء . على اني عشت بينكم زمناً طويلاً فهل يذكر واحد منكم اني أسأت اليه أقل إساءة ؟

فأجابه بعض الحاضرين : كلا .

وقال صديقه بول: إني أعدك من أشرف رجال النبل وقد أهنت فأنا أكون شاهداً لك في المبارزة .

ثم التفت الى الحاضرين قائلاً : من منكم ايها السادة يريد ان يكون معي الشاهد الثاني ؟

فحدث عند ذلك اضطراب عظيم إذ لم يتقدم أحد للقبول .

فأوشك لوسيان ان يجن من يأسه ، وغطى وجهه بيديه وهو يقول : أماه اين أنت ! إني لا أجد بين هؤلاء الناس ، من يريد ان يكون شاهدي للانتقام لك ؟

وعند ذلك دخل رجل في الأربعين من عمره ، وعليه مظاهر الكآبة ، فاخترق القاعة ووقف بين الجمهور فأقبل كثيرون للسلام عليه وكانوا يدعونه الماجور أفاتار .

أما الماجور أفاتار ، أي روكامبول ، فإنه رأى علائم الاضطراب بادية عليهم فسألهم عما هم فيه فأخبره تول بجميع ما اتفق فتقدم روكامبول من لوسيان وقال له : أنا شاهدك الثاني يا سيدي .

فصافحه لوسيان شاكراً ممتناً .

أما المركيز فانه قال للوسيان : إن الرجل إذا صفع لا يستطيع ان ينام قبل ان ينتقم وهذا القمر يسطع نوره في السماء فيجعل الليل نهاراً . فما تقول في المبارزة الآن ؟

– إني طوع لك .

– إن الحق حقي في اقتراح السلاح وانا اقترح القتال بالسيف فلا نرجع حتى يقتل احدنا الآخر .

– هو ما تقول فليكن ما تريد .

وبعد ربع ساعة كان المركيز وشاهداه ولوسيان يسيرون في المركبات الى الغابات .

فقال روكامبول للوسيان إني لا أعلم الى الآن سبب المبارزة فهل لك ان تذكر لي السبب ؟

– إن المركيز اهان امي .

فاقتصر روكامبول على هذا السؤال ، كما تقتضيه آداب اللياقة ، وقال : فهمت

وسارت بهم المركبات حتى وصلوا الى ساحة القتال . فاقترع الخصمان على السيفين ووقفا في موقف المبارزة الى ان أشار اليهما روكامبول بالمبارزة فأطبق كل منهما على الآخر وكلاهما باسل شجاع

ومرت بهما دقيقتان لم يكن يسمع في خلالهما غير صوت قرع السيفين ، ثم بدأ لوسيان بالحديث قائلاً . إن واحداً منا سيقتل قريباً يا حضرة المركيز ، أفتأبى علي في مثل هذه الساعة ، ان تخبرني عن السبب الذي دعاك إلى إهانتي وقتالي ؟

- إن جوزفين وعدتني بحبها إذا قتلتك .

ثم حمل عليه بسيفه حملة منكرة وطعنه بصدره طعنة نجلاء فاخترق السيف صدر لوسيان ، لكنه لم يقع ولم يسقط السيف من يده .

وبينما المركيز يتأهب للدفاع والوقوف موقف الحذر انقض عليه لوسيان وهو يقول . ان جوزفين لن تفي بوعدها

ثم طعنه بسيفه طعنة صائبة ، فاخترق حسامه قلب ذلك المركيز وسقط على الأرض قتيلاً وعند ذلك تلاشت قوى لوسيان ، وجعلت الدماء تتدفق من صدره .

- ١١ -

ولنعد الآن الى روكامبول لنروي للقراء كيف اتفق وجوده في نادي اسبرج حين كان لوسيان محتاجاً الى شاهد ، ولا بد لنـــا لذلك من العودة الى قصر روشربين حيث دخل اليه روكامبول بصفة طبيب .

وكان الخادم دخل به الى الغرفة التي كان فيها بب ، فكان ملقياً على نفس السرير الذي كانت نائمة فيه ميلادي وهو بملابس الضباط الانكليز والقيود والقناع ملقية على الأرض .

فدهش الخدم لأنهم لم يروا من قبل بب مرتدياً بهذه الملابس ، خلافاً لروكامبول فإنه ذكر حكاية فاندا ، فعلم لأول وهـــلة ان هذا الشخص يعرف حكاية جيبسي ، ويريـد إرجاع المـال اليها ولا بد له من الوقـوف على أسراره ، وإتمام مشروعه .

ولم يكن روكامبول كاذباً في قوله انه من الأطباء ، فقد تعلم من استاذه القديم اندريا ، ومـــا جرى له من الحوادث في أيام غروره ، أكثر أنواع الجراحـة . ففحص الجريح وعرف موضع الرصاصة ، فقال له الخـادم : أيمـوت ؟ . .

– لا أعلم . إذهب واحضر لي ماء بارد وعصابات .

فامتثل الخادم وغسل روكامبول الجرح ثم تحايل على الرصاصة فأخرجها ورأى ان الجريح قد اتقدت عيناه ببارق يشف عن الأمل بالحياة ورغبـة في الانتقام فرحا خيراً وقال للخدم الثلاثة الذين كانوا مجتمعين في تلك الغرفة : يجب أن أبقى وحدي هنيهة مع الجريح .

فخرج الثلاثة وأقفل روكامبول الباب في أثرهم ، ثم عاد الى الجريح فنظر اليه بب نظرة يتخللها الرجاء وقال . أتراني أموت ؟

– إن جرحك خطر ولكنه غير مميت فيما أراه . وفي كل حال ان الخطر

غير قريب .

وقد عرف روكامبول أنه يحب السرعة إذ قدر ان بب لا يعيش أكثر من ساعتين ، فقال له باللغة الإنكليزية إني آت اليك أحمل أخبـــاراً من جيبسي النورية .

فذعر بب عند سماعه اسم جيبسي وقال : ماذا تقول ؟ جيبسي !

– نعم إبنة اخت مس الن .

فزاد ذهول بب وقال كيف تعرف هذه الأمور ومن أنت ؟

– إني رجل مثلك يريد إرجاع الأموال المختلسة الى أصحابها

– إذاً انت تعرف جيبسي ؟

– دون شك لأني أنقذتها منذ اسبوعين من ايدي الخناقين

فاصفر وجه بب وقال لا تذكر لي شيئاً عن هؤلاء الناس .

ثم ظهرت عليه مظاهر التردد كأنما داخله الشك بصدق روكامبول فقال له : إني لا أصدق ما تقول

فقال له روكامبول بلهجة الكآبة : لماذا لا تصدقني ؟

– لأن ميلادي أرسلتك الي كي تعلم كل شيء . لكنها لن تعلم شيئاً .

فأخذ روكامبول يده بين يديه وقال له بلهجة تشف عن الصدق : إذاً ألا تريد إتمام مشروعك ؟

فهز بب رأسه قائلاً . إن ميلادي وشركاءها قادرون ولا سيما فرانز القاتل السفاك الذي ينتحل لنفسه اسم الماجور هوف .

فعلق هذا الاسم بذهن روكامبول وقال له : أتعتقد إذاً اني من أتباع ميلادي وأحد شركائها في الجرائم ؟

– نعم

– وإذا برهنت لك عكس ما تعتقد أتثق بي ؟

– دون شك لكني أريد البرهان .

إذاً إسمع .

ثم حكى له مـا اتفق لفانـدا في قصر روشربين ، وكيف انه مثـل أمامها دور خيال ، وهو يعتقد انه يخاطب ميلادي . فأيقن بب من صدق روكامبول

لكن بقي له شيء من الشك في مقاصده فسأله لماذا يهمك امر جيبسي ولماذا تريد ان تخدمها هذه الخدمة ؟

فرأى روكامبول انه لا بد له من الكلام فقـــال له : ذلك لأني أحب جيبسي حباً صادقاً ومن اجل ذلك أنقذتها من أيدي الخناقين ، بعد أن كادوا يحرقونها .

فزال عند ذلك كل أثر للشـك من نفس بب وقال له : لقد صدقتك فيما تروي ولكن أتحسب نفسك قادراً على مقاومة ميلادي ؟

-- إني اذا وقفت على حقيقة أمرها عبثت بها كما اشاء وأرجعت الأموال الى أصحابها .

– أتقسم لي انك ترجع المال الى جيبسي ؟

– أقسم لك بالله العلي على صدق ما أقول .

فتنهد بب وقال له : اني لا استطيع الكلام لضعفي ولكني كتبت جميع أسرار مس الن .

– اين وضعت ما كتبته ؟

– في غرفتي وهي في الدور الأول ونمرتها عشرة وقد خبأت ما كتبته تحت أول بلاطة بعد العتبة .

فدق روكامبول عند ذلك الجرس فأسرع اليه الخادم فقال له : إذهب بي الى الغرفة التي يبيت فيها المسيو بب .

فنظر الخادم الى بب ، فأشـار اليه إشارة المصادقة . فمشى وتبعـه روكامبول .

فلما وصل الى غرفة بب جعل روكامبول يفتكر بطريقة يبعد بها الخادم كي لا يرى ماذا يصنع فقال له : ماذا تدعى ؟

– جاك .

– أأنت من هذه القرية ؟

– كلا بل انا من مايلنس .

– كم بقي لك في خدمة ميلادي ؟

– عامين .

– إنك ستصبح من غير خدمة .

فذعر الخادم وقال : رباه كيف ذلك ؟

– ذلك ان بب سيموت قريباً ، وميلادي لن تعود الى هذا القصر ، وستقفل الحكومة أبوابه وتختمها ولكن لا تيأس فسأتخذك لخدمتي وتكون معي في باريس وأضاعف راتبك ، على شرط اذا لقينا ميلادي في باريس ترشدني اليها .

فسر الخادم سروراً عظيماً لأنه كان يتمنى من دهر طويل ان يرى باريس فقال له : ان ذلك سهل ميسور يا سيدي ، وسأكون في خدمتك من المخلصين الصادقين .

فأعطاه روكامبول مئة فرنك وأرشده الى المكان الذي يقيم فيه بباريس ثم سأله : هل أبلغتم البوليس عن الحادثة التي جرت ؟

– كلا يا سيدي .

– إذن أسرع الى إبلاغه ، قبل ان يموت بب ، فتغدو انت ورفاقك من المتهمين .

فلما خلا المكان بروكامبول أخرج خنجره ودنا من البلاطة التي أرشده اليها بب فاقتلعها ورأى تحتها علبة صغيرة من الحديد الرفيع فأخذها وأرجع البلاطة الى ما كانت عليه ثم عاد الى بب فأخبره بما فعل وأراه العلبة فقال له بصوت

خافت : نعم هذه هي وهذا مفتاحها

ثم أشار الى مفتاح صغير كان معلقاً في عنقه فأخذه روكامبول ووضعه مع العلبة في جيبه وخرج فسار تواً الى محطة السكة الحديدية .

وبعد ساعة أقبل رجال البوليس وكان لا يزال في بب بقية رمق فلم يستطع ان يظهر لهم الجريمة ولكنه تمكن من نفي التهمة عن الخدم .

وبعد هنيهة أسلم الروح فحملوه الى المستشفى وأقفلوا القصر فوضعوا الأختام على أبوابه وتفرق الخدم فذهب كل الى قريته ما خلا جاك فإنه جعل يتأهب للسفر الى باريس .

أما روكامبول فإنه صبر في المحطة الى ان أتى القطار ، فدخل اليه ولما سار به فتح تلك العلبة ، فوجد فيها دفتراً مطوياً يظهر انه متقادم لاصفرار أوراقه ، ورأى في أسفل العلبة مدالية عليها رسم صبية بالغة غاية في الجمال ، وقد حفر تحتها هذه الكلمات : (مس الن في العاشرة من عمرها) . ثم فتح الورقة الأولى من الدفتر ، فوجد عنوانه : (تاريخ قاتلة أبيها) .

- ١٢ -

وفتح الدفتر وجعل يقرأ والقطار سائر فيه الى باريس ما يأتي :

في ليلة عيد الميلاد سنة ١٨٣٥ ، وهو العيد الذي يجله الانكليز كل الإجلال ، كان الضباب كثيفاً حتى لم يعد يستطع المارة الاهتداء الى سبيلهم . واضطر البوليس ان يحمل المشاعل بدلاً من العصي لكثافة الظلام .

ولم يكن يوجد احد في الشوارع ما خلا فتاة في ريعان الصبى والجمال كانت تسير مسرعة على غير هدى ، وهي باسطة يديها الى الأمام

كالعميان ، حذرا من أن تصطدم بشيء ، لأنها لم تكن ترى غير الظلام الكثيف .

وفيما هي تسير رأت خمارة مفتوحة فوقفت عند بابها وسألت صاحبها ان يهديها الى الشارع الذي تسير فيه . فأجابها صاحب الخمارة وهو يتأمل محاسنها وذكر لها اسم الشارع فشكرته وانصرفت .

ولكنها لم تسر خطوتين حتى خرج لها رجل كان في الخمارة ودنا منها قائلاً : اني خبير بشوارع العاصمة يا سيدتي فقولي لي اين تقيمين أقودك الى منزلك ؟

فنظرت اليه الفتاة وارتعشت لما رأته من ملامحه الجاذبة . فقد كان في الخامسة والثلاثين من عمره اسمر اللون أسود العينين فوق الربعة كان لابساً ملابس البحارة . غير ان نعومة يديه وأسلوب حديثه كانا يدلان على انه ليس من هذه الطائفة ولعله أصيب بما أصيبت به الفتاة من الارتعاش حين رآها فأراد ان يوصلها الى منزلها .

غير ان الفتاة حاولت الامتناع . فما أمهلها وتأبط ذراعها وقال لها : هلمي بنا فإني سأوصلك الى حيث تشائين دون ان يكون عليك أقل خطر .

فجعلت الفتاة تضطرب وترتجف من الغريب وانها على اضطرابها وارتعاشها أنست به ولم تعد تبدي مقاومة فسألها : اين تقيمين ؟

– في بيكاديللي

– إذاً تعالي معي من هذا الشارع ، ولا تخشي مكروهاً ، لأني من الأصدقاء .

– كيف تكون من الأصدقاء وانت لا تعرفني ؟

– هو ما تقولين غير اني حين رأيتك واقفة بباب الخمارة هاجت بي عاطفة لا تغلب وشعرت اني أكون عبداً لك لأول امر تصدرينه الي فثقي إني

لك من المخلصين .

فتنهدت وقالت : ليس لي أصدقاء . وما أنا إلا فتاة شقية حرمت من إرثها .

— أنت حرمت من إرثك ؟ وكيف تحرمين منه ولك مثل هذا الجمال ؟ بالله يا سيدتي ، قولي لي عن اسمك ، لأن ملامحك تدل على انك من الأسرات النبيلة .

— إني أدعى مس الن .

— وأنا من تحسبينني؟ أتظنين اني بحار كما تدل عليه ملابسي ؟ كلا يا سيدتي ألمسي يدي تعلمي اني لست من البحارة .

فارتعشت مس الن حين شعرت بنعومة يده . وعاد الرجل الى الحديث فقال . سأخبرك في غير هذا المكان من انا ولكني أخبرك الآن اني استطيع ان أخدمك أجل خدمة .

— وأنا أصدق ما تقول .

— إذاً أخبريني عن السبب الذي حرمت من أجله .

— ذلك لأن لي أختاً أكبر مني ولأن أبي لا يحبني لاعتقاده ان امي ولدتني بالاثم فحرمني من إرثه وكتب جميع ماله لأختي الكبيرة .

— أرضيت بهذا الحرمان ؟

— إني رضيت به لأني لا أستطيع منعه .

— وإن أتاك صديق من السماء ؟

فثارت في فؤاد الفتاة كوامن الحقد ، وقالت : ليكن هذا الصديق من جهنم أو من السماء ، فإني أرضى به صديقاً إذا كان يساعدني فيما أريد .

— مس الن اني أحبك وأحب ان تكوني غنية قادرة وسأسحق أعداءك تحت قدميك فقولي لي ماذا يدعى أبوك ؟

– يدعى الكومندور بروكنس

– حسناً ، سترد اليك أخباري . والآن إننـــا وصلنا الى بيكاديللي ، فنادي البـوليس الواقف أمامنا ، يرشدك الى منزلك . أما أنا فستريني قريبـاً .

ثم عانقها طويلاً وقبلها في ثغرها فصاحت الفتاة صيحة اضطراب واحتجب الرجل عنها في جنح الظلام .

ويظهر ان بب لم يعلم ما حدث بعد هذا اللقاء السري لأنه لم يذكر شيئاً من ذلك في دفتره .

لكنه قال فيه انه بعد ذلك بعدة أشهر كانت مس الن مقيمة في قصر قديم في ايكوسيا مع أبيها .

وكان أبوها عجوزاً ترمل ثم تزوج مرة ثانية وهو في الخمسين من عمره بامرأة ماتت على أثر ولادتها مس الن ابنته الثانية ، وكان له ابنـــة من امرأته الأولى تدعى مس أنا ، فكان يحب الكبرى بقدر ما كان يكره الصغرى ، حتى كان يظن بعضهم ان السبب في كرهه لابنته الثانية ظنه انها ثمرة حب غير شرعي .

وكانت اختها تقيم في أجمل قصر من قصور أبيها في لندرا خلافاً لمس الن لأن أباها كان يقيم معظم شهور السنة في ايكوسيا فيصحب معه ابنته مس الن كي لا تتمتع بملاهي العاصمة .

ولم يكن في منزله كثير من الخدم إذ لم يكن فيه غير وكيله بب مع امرأته وخادم غرفة يدعى فرانز أصله من الألمانيين وثلاثة من صغـار الخدم لم يكونوا يخرجون من المطبخ .

وكان يظهر من فرانز انه شديد الإخلاص لمس الن على حداثة عهده في خدمة هذا المنزل فكان يخرج كل يوم في وقت معين الى البوسطة ويعود برسالة إلى مس الن فتقرأها وتبكي بكاء شديداً

وقد اتفق ليلة ان أباها كان جالساً في غرفته وكانت مسر الن جالسة في القاعة وهي تتوجع وقد حاولت ان تبرح هذه القاعة فلم تستطع وصاحت صيحة عظيمة فوصلت صيحتها الى مسمع أبيها فجاءها وقال لها بلهجة تدل على الاستياء: ما هذا الصياح ؟

– اني مصابة بصداع شديد .

ثم بدرت منها صيحة اخرى فنادى ابوها فرانز كي يعتني بها ، فأقبل فرانز ونظر اليها نظرة سرية ، فامتنعت عن الصياح وتكلفت السكينة فقال لها أبوها : إن اختك ستتزوج بعد شهر ، فاجتهدي ان تنالي الشفاء في هذه المدة واذهبي الآن الى غرفتك ونامي ، فقد حان وقت الرقاد .

ثم تركها وانصرف .

ولم يكد يذهب حتى عادت الى التوجع والصياح فأسرع فرانز اليها قائلاً : عضي منديلك واخفتي صوتك وإلا كنا من الهالكين .

– أتظن ان الوقت قد دنا ؟

– نعم .

– ما هذا المصاب ؟ وهو . إنه لم يرجع بعد .

– إنه سيحضر بعد ثلاثة ايام .

وعند ذلك عادت الى التوجع والصياح فوضعت منديلها في فمها وعضته إخفاء لصياحها فحملها فرانز وخرج بها الى غرفة في الدور الأسفل كي لا يصل صوتها الى مسامع أبيها .

وكان أبوها يكرهها كرهاً شديداً كما تقدم ، ولكنه يندم في بعض الأحيان إذا بالغ في الإساءة اليها ويشفق عليها فلما دخل الى غرفته بعد ان غادر ابنته وهي مصابة بصداع اليم كما كانت تدعي خلع ملابسه وصعد الى سريره فجعل يفكر بابنته ويندم لقسوته بحيث أرق ولم يستطع الرقاد

وفيما هو آرق يتأمل ، سمع أصواتاً متتابعة كانت تصل اليه شبه الأنين

فقام ولبس رداءاً طويلاً، وأخذ بيده مصباحاً وذهب الى غرفة ابنته فلم يجدها فيها فأصغى فسمع ان الصياح صادر من الدور الأسفل .

فاضطرب ونزل في السلم فانتهى الى دهليز ، فمشى فيه الى الجهة التي يصدر منها الصوت ، حتى انتهى الى غرفـــة رأى نوراً فيها ، ففتح بابها ودخل فرأى ابنته في سريرها ، وفرانز واقفاً أمامها ، وهي تصرخ وتتوجع من آلام الولادة . فصاح صيحة هائلة وتراجع منصعقاً وهو يقول : تباً لك من شقية .

ولما وصل روكامبول بقراءته الى هذا الحد ، كان القطـار قد وقف في محطة باريس ، فأعاد الدفتر الى العلبة ، وأعاد العلبة الى جيبه ، وخرج من القطار وركب مركبة وذهب الى المـــنزل الذي كان استأجره باسم الماجور أفاتار .

وكانت الساعة تدق مؤذنة بانتصاف الليل . فـــلم ينم بل انه وضع العلبة في موضع أمين ، وقال في نفسه يظهر من رواية بب ان فرانز والماجور هوف واحد . وهـذا الماجور عضو من أعضاء نادي أسبرج ، فلأذهب اليه .

- ١٣ -

وقد عرف القراء ما حدث لروكامبول حين وصوله الى هذا النادي فإنه بحث عن الماجور هوف ولم يجده فسمع آخر خصام لوسيان مع المركيز ورضي ان يكون شاهده .

وقد تقدم لنا الكلام ان المركيز قتل في ساحة المبارزة ، وان لوسيان أصيب بجرح في صدره ، فحمل شاهدا المركيز ذلك القتيـل الى أهله وأخذ

روكامبول وبول الجريح الى بيت صديقه بول وبعد هنيهة أقبل الطبيب فغسل الجرح وضمده وقرر انه غير خطر ولكن الجريح لا يستطيع الخروج من البيت قبل شهر .

وكان روكامبول قد شعر بميل وانعطاف الى لوسيان وقد وقف على بعض حكايته من صديقه ، فأشفق عليه إشفاقاً شديداً حين علم انه كان عازماً على الاقتران بعد اسبوع .

وكان بول حائراً في أمره ، لا يعلم كيف يخبر خطيبة لوسيان بهذا النبأ المحزن ، فقال له روكامبول : أنا أتولى عنك هذه المهمة ، فأرشدني الى منزلها .

فدله على البيت الذي تقيم فيه .

وأقام روكامبول أمام سرير الجريح الى الصباح ، ولوسيان نائم نوماً هادئاً ولما فتح عينيه وجد روكامبول واقفاً امام سريره ، فشكره بابتسامة لأن الطبيب منعه عن الكلام . فخاطبه روكامبول قائلاً إنك نمت نوماً هادئاً وقد وثقت ان جرحك لا يحمل على الخوف فأنا ذاهب الآن ، وسأعود في المساء لعيادتك .

ثم تركه تاركاً عنده صديقه بول ، وذهب وهو يقول في نفسه : لقد اشتركت في هذه الحادثة فلأندفع بها الى النهاية ، وسأهتم بعد الفراغ منها بأمور جيبسي

ولذلك لم يعد الى منزله بل سار مشياً على الأقدام في الشارع المؤدي الى بيت خطيبة لوسيان . فكان كلما سار بضع خطوات يقف مفكراً ويخاطب نفسه : إني أرى شبهاً غريباً بين لوسيان وبين صورة ممثلة في ذهني لا أذكر صاحبها فمن عسى ان يكون شبيهه ؟

ومشى في شارع الجزائر ومنه الى شارع سانت اونوريه . ثم انتهى الى شارع سورديير حيث تقيم ماري . وجعل يبحث عن نمرة منزلها ، ولكنه لم

يدخل الى هذا الشارع حتى اذذهل فجأة لأنه رأى رجـــلا دخل الى الشارع أيضاً وجعل ينظر مثله الى نمر منازله فكان سبب انذهاله ، فعرف ان هـــذا الشخص كان الماجور هوف الذي أتى عنـد منتصف الليل يبحث عنـه في نادي أسبرج ، وقد كان رآه مرة أثناء حوادث كارل موروليكس فخاطب نفسه : ما شأن هذا الشخص في هذا الشارع ؟ وماذا يبغي من المجيء اليه في هذا الصباح ؟

أما هوف فإنه مر دون ان ينتبه الى روكامبول وكان يحمل علبة بيده وعليه دلائل الاهتمام .

وبقي يبحث عن النمر حتى اهتدى الى نمرة ١٧ ، فوقف وزادت دهشة روكامبول لأنه هو ايضاً كان يبحث عن تلك النمرة وهي نمرة البيت الذي تقيم فيه خطيبة لوسيان .

فتردد الماجور هنيهة ثم دخل وأسرع روكامبول في أثره ووقف وراء الباب فسمعه يخاطب البواب : أهذا البيت الذي تقيم فيه المدموازيل ماري برتود مع أبيها ؟

- نعم

- أهي في منزلها الآن ؟

- نعم ولكنها نائمة

- إذاً أعطها هذه العلبة

ثم سأله : في أية ساعة تخرج الفتاة من منزلها ؟

- إنها تخرج في صباح كل يوم لتوصل شغلها الى العامل ولكنها بعـد ان خطبت لم تعد تبرح البيت في الصباح .

- ألا تذهب الى النزهة في التويلري مع أبيها كل يوم بعد الظهر ؟

- نعم حين يكون الطقس صاحياً .

- حسناً لا تقل لها إني سألت عنها

ثم نفحه بدينار فحياه البواب الى الأرض .

وكان روكامبول قد سمع كل هذا الحديث فخاطب نفسه إذا صدق حديث بب أية علاقة لهذا الرجل مع خطيبة لوسيان ؟

ثم سمع ان الماجور قد أنهى حديثه مع البواب ، فأسرع الى الاختباء وراء الباب . وعند ذلك خرج الماجور هوف وسار في طريقه دون أن يرى روكامبول .

فخاطب روكامبول نفسه : سأخبر ماري بجرح خطيبها بعد عودتي لأن المهم الآن أن أقتفي أثر هذا الرجل .

فمشى الماجور وروكامبول في أثره حتى رأى مركبة فأوقفها وقال لسائقها . سر بي الى الجران اوتيل .

فسمعه روكامبول وكان هذا كل مـا يريد ان يعرفه ، لأنه إذا لم يكن مقيماً في هذا الفندق فيكون ذاهباً ليرى شخصاً فيـه ، وقد يمكن ان يكون هذا الشخص ميلادي لأن فرانز كان شريكاً لها في قتل بب في قصر روشربين ، وما دام موجـوداً في باريس ، فلا بد ان تكون هي أيضاً فيها .

وجعل روكامبول يمعن في التفكير عله يهتدي الى علاقة فرانز بخطيبة لوسيان فلم يهتد الى مراد وفيما هو يجهد فكره خطر له خاطر ارتعش له إذ ذكر ما قرأه في دفتر بب وهو ان مس الن ولدت غلاماً ففكر في نفسه : ألا يمكن ان يكون لوسيان ابن ميلادي ؟

وكأنما هذا الخاطر قد أزعجه فجعل العرق يتصبب من جبينه وهو يفتكر في نفسه : أيكون مثل هذا الفتى الباسل إبناً لتلك النمرة الضارية التي تقتل أباها وأختها كي تنهب نقود تلك المسكينة جيبسي ؟ فشبه عند ذلك ميلادي بذلك النذل الفيكونت كارل دي موررليكس وشبه ابنها لوسيان بابن أخيه احينور الذي تزوج انطوانيت كما تقدم في الأجزاء السابقة

وخطر له أن يدخل إلى الجران اوتيل في أثر الماجور هوف لكنه فضل الرجوع إلى منزله لأنه ذكر أن لوسيان يشبه شبهاً غريباً ذلك الرسم المنقوش على المدالية التي وجدها مع دفتر بب في العلبة وقد قرأ تحت الرسم مس ألن في السادسة عشرة من عمرها .. فأحب أن يعيد النظر إلى هذا الرسم ليزيل من نفسه كل أثر للريب ولما عاد إلى منزله وجد ميلون ينتظره مع الخادم جاك الذي كان في خدمة ميلادي في قصر روشربين فدنا منه ميلون وقال له ان فاندا قد حضرت مدة غيابك .

فاضطرب وسأله : متى حضرت ؟

– منذ عشر دقائق وقالت انها لا تعود اليوم ولكنها ترجو أن تحضر في نصف الليل مغتنمة فرصة ذهاب السير جمس إلى النادي وقد تركت لك هذه الرسالة ، ففضها روكامبول فاذا بها ما يأتي :

« يا رئيسي المعبود

« ان حب السير جمس بدأ يقلقني ولكنه لم يتجاوز بعد حد الاحترام وهو لا يزال متكتماً ينكر معرفة جيبسي أتم الانكار ، ولكن لا بد لي من اغوائه وحمله على الافشاء .

وقد ورد اليه أمس كتاب عليه كثير من الطوابع الغريبة ، ورده من الهند إلى لندرا ، فأرسله اليه عماله فيها فقرأه وأسرع إلى تخبئته في محفظته وهو حريص عليها فلا يضعها إلا في جيبه .

وأنت ايها الرئيس ماذا علمت ؟ إلى اللقاء في منتصف الليل » .

« عبدتك فاندا »

أحرق روكامبول هذه الرسالة بعد الفراغ من تلاوتها ، ثم ذهب إلى خزانة فاخرج منها العلبة التي كان فيها دفتر بب وأعاد النظر إلى الميدالية ، فصاح صيحة دهش لأنه رأى الشبه تام بين لوسيان وميلادي ، فعلم عند ذلك السبب في سؤال الماجور هوف عن موعد خروج خطيبة لوسيان للنزهة وان ميلادي

تود أن ترى خطيبة ابنها .

وعند ذلك نادى روكامبول ميلون وقال له : ألبس جاك ثياب يتنكر بها ما أمكن ، ثم عد به إلي فاني في انتظارك .

فخرج ميلون وعاد روكامبول إلى دفتر بب فقرأ فيه ما يأتي :

- ١٤ -

بعد أن ولدت مس ألن غلاماً بثمانية أيام قدم أبوها إلى غرفتها وهو مقطب الجبين ، غير انه كان يظهر من ملامحه انه لم يكن يريد ان يندفع بالحدة ويخرج عن حد الاعتدال فدخل إلى غرفتها وهي لا تزال في سريرها وطفلها في مهد بجانبها فدنا منها وقال لها بصوت يتهدج مس ألن اني ما اتيت اليك لأوبخك فان سلوكك لم يسئ إلا لأنك تلقبين باسمي ولا أريد أن يتلطخ اسمي بالعار وقد ارتكبت ذلة عظيمة ، ولكني لا أبحث عن شريكك بالجريمة ولا احاول الجمع بينكما بزواج يغسل هذا العـــار ، فان زواجك لم يخطر لي في بال ، ولذلك جئت أخيرك بين أمرين وهما أما ان تدخلي إلى الدير فتقضين العمر بالتوبة والاستغفار ، أو يذهب بك وكيلي بب الى فرنسا .

فاذا ارتضيت بالشرط الأول تعهدت بتربية غلامك كما يستحق ان يتربى غلام لا يعرف ابوه ، وإذا اخترت الشرط الثـــاني وجب عليك تغيير اسمك فيذهب بك بب إلى المدينة التي تختارينها في فرنسا فيعطيك عند وصولك مائة الف فرنك تستطيعين بها تربية غلامك كما تشائين .

فمدت مس ألن يدها متوسلة الى أبيها أن يصفح عنها غير انه صدها بعنف وقال أن الطبيب الذي يتولى العناية بك أقسم لي بشرفه وعرض امرأته على كتمان سرك وأكد لي أنك تستطيعين السفر بعد ٤ أيام فأنا امهلك ثمانيــة أيام

لا أزيدها ساعة فان اختك ستحضر قريباً مع خطيبها ولا أريد أن يتــدنس بيتي بوجودك فيه أكثر من هذا الحد ؟

وعادت إلى التوسل ونادته بأبيها رجاء استعطافه فقال لها : لا تعودي إلى ذكر اسمي أيتها الشقية فاني لست أباك .

ثم خرج وهو يهدر ويزمجر .

وبعد خروجه دخل فرنز فوجدها مندفعة في البكاء وهي تقبل طفلهــــا وتقول : اني أبغض هذا الرجل الذي ينكر اني فتاته وأبغض تلك الأخت التي يضحوني من أجلها ، وأبغض ..

وقبل أن تتم كلامها سمعت صوتاً يقول لها : لا تبغضي أكــثر من هؤلاء يا مس الن .

فالتفتت وصاحت صيحة فرح لا توصف لأنها رأت أن العناية قد لاحظتها عيونها وبدلت خوفهــا بامان وأرسلت لها ذلك الرجل الذي لقيتــه تلك الليلة الهائلة .

اما الرجل فإنه أسرع اليها وعانقها عناقاً كثيراً ، ثم أخذ الولد من مهده فجعل يقبله ويقول ولدي !

وقد انقطع بعد ذلك بكاء مس الن وجعلت تنظر إلى زوجهــا نظرات الاعجــاب ثم قالت له الملك أتيت لانقاذي من هذا الرجــل الذي ينكر أني فتاته ؟

- جئت أنتقم لك .

فاتقدت عيناها بنار الحقد وقالت : نعم انتقم لي كيف شئت وعلى أفظع شكل فلا تروق لي حياة بغير الانتقام .

فأشار هذا الرجل عند ذلك إشارة إلى فرنز كي يخرج وقال له · إحذر ان يعود أبوها وإذا عاد ..

فابتسم فرنز وقد برق الخنجر في يده وقال : لا تخف فإنه لا يصل اليكم

حياً .. ثم خرج .

وجلس الرجل فوق سرير مس الن وأخذ يدها بين يديه وقال أتريدين الانتقام ؟

ـ لا أريد سواه .

ـ أتكرهين أباك ؟

ـ كما أكره الموت .

ـ وأختك مس أنا ؟

ـ أن كرهي لها لا يوصف فهي علة مصائبي .

ـ ولكنك لا تعلمين إلى الآن من أنا ؟

ـ أعرف انك جميل وقوي وأعرف أني أرتعش لنظراتك واهتز لنبرات صوتك ، واني أحبـك وأكون أسعد النساء إذا أتيح لي أن أعيش العمر عبدة لك .

ـ ولكني لست انكليزياً .

ـ كن كيف شئت فإني كرهت هذه البلاد التي يؤذن فيها الشرع للأب أن يحرم إبنته .

ـ ولست مسيحياً أيضاً .

ـ وماذا يهمني معتقدك فلك دينك ولي ديني .

ـ العلك سمعت بتلك الجمعية الهائلة التي نشأت في غابات الهند ودعيت جمعية الخناقين .

ـ نعم ...

ـ ان هذه الجمعية قادرة على ما تشاء فهي تسن الشرائع في الهند وتغرس الهول في نفوس الانكليز فاذا شاءت عدلت ، وإذا شاءت ظلمت ثم أنها تنثر المخاوف والموت من حولها وهي مطمئنة آمنة .

فتنبهت مس الن وقالت : العلك من اعضائها ؟

- بل أنا رئيسها الأعظم الذي يدير حركاتها من الغابات في الهند وفي عواصم البلاد

فأعجبت الصبية إعجاباً شديداً وقالت : كنت أرى من عينيك أنك ما خلقت لتطيع بل لتطاع .

ثم طوقته بذراعيها وقالت له : مر يا سيدي ورئيسي بما تشاء أطيعك طوع الاماء .

- احذري يا مس الن فانك إذا رضيت أن أنتقم لك وجبت عليك الطاعة المطلقة .

فنظرت اليه نظرة جمعت بين الافتتان والاعجاب وقالت سأطيعك طاعة لا حد لها .

- ليكن إذن ما تريدين واعلمي الآن أني أدعى علي رجاه .

ولم يعلم أحد ما جرى بين رئيس الخناقين الأعظم وبين مس الن فإن بب نفسه لم يعلم لأنه وضع كثيراً من النقط عند وصوله في حكايته إلى هذا الموضع ففكر روكامبول هنيهة ثم قلب الصفحة وأتم القراءة ما يأتي :

بعد هذه الحادثة بأربع وعشرين ساعة كان والد مس الن جالساً في غرفته وأمامه وكيله بب وهو يظهر له رغبته بسفر مس الن في القريب العاجل لقرب قدوم ابنته الصغرى ، دون أن ينتبه إلى نظرات بب التي كانت تسفر عن الحقد الدفين ثم سأله : أين إمرأتك يا بب فإني لم أرها اليوم ؟

فارتعش بب واتقدت عيناه ولكنه أسرع فكظم غيظه وقال : انها سافرت يا حضرة الميلورد في هذا الصباح إلى أدمبرج كي ترث عماً لها توفي منذ أيام ...

- ولكنها ترجع قريباً أليس كذلك ؟

وثارت العواصف في فؤاد بب ونوى قتله منذ ذاك الحين ولكنه كظم غيظه وقال ان في الباب يا سيدي الميلورد غريب يريد مقابلتكم وهو يقول

انه قادم من لندره يحمل أنباء من ابنتكم مس أنا .

فاضطرب الشيخ وقال له : اسرع بادخاله الي .

ففتح بب الباب وأدخل ذلك الغريب وهو رجل في الخامسة والثلاثين من عمره ، طويل القامة براق العينين ، وقد كان الكومندور خدم في الهند وبحارها مدة طويلة فعرف من هيئة ذاك الرجل انه هندي انكليزي .

ولما دخل هذا الرجل خرج بب فدنا منه الكومندور وقال له : اني اتيت لمباحثتك في بعض الشؤون .

ـ أأنت قادم من قبل ابنتي ؟

ـ نعم ولا ، سيدي الميلورد . .

فانذهل وقال كيف ذلك ؟

ـ انك أقمت يا سيدي مدة طويلة في الهند وعرفت دون شك احترام بعض الهنود للآلهة كالي وأريد بهؤلاء الهنود الذين يلقبونهم بالخناقين .

فظهرت على وجه الميلورد علائم الاشمئزاز وقال : نعم عرفت هؤلاء الأوغاد الأشقياء .

وكان هذا الرجل الهندي علي رجاء نفسه زوج مس الن فلم يحفل باشمئزاز الشيخ وقال له : قد يكونون من الأشرار كما تدعيه ، ولكنهم إذا صدر اليهم أمر من رؤسائهم ينفذوه لا محالة ، وأنت تعلم يا حضرة الميلورد ان للآلهة كالي رغائب شتى ، منها انها تريد أن يضحى لها في كل عام بعض البنات الانكليزيات فتنقش على صدورهن الوشوم ويقضى عليهن بالبتولية الدائمة .

فاضطرب الشيخ وقال له : اني اعرف كل الأمور ، ولكني لا أعلم لماذا تقولها لي ؟

ـ لأن الالهة كالي قد افتكرت بك .

ـ بي أنا ؟

ـ نعم فإن لك ابنتين إحداهما تدعى مس أنا والثانية مس الن .

– وهذه الالهة قد ضحت مس الن ؟

فقال علي رجاء : كلا يا سيدي بل انها ضحت أختها

فأنقلبت سحنة الشيخ واتقدت عيناه الغائرتان بأشعة الغضب فانتهز الهندي وقال له : أخرج من هنا أيها الشقي .

فلم يتحرك علي من موضعه وقال له ببرود : اني اتيت لأبلغك ان مس أنا لا يحق لها الزواج لأنها ضحيـــة الالهة كالي وأن ثروتك يجب ان تعطى لأبنتك مس الن .

فنهض الشيخ من مكانه مغضباً وقال : خسئت ايها السافل فان ذلـــك لا يكون ثم جعل يدق جرساً أمامه وينادي بب بصوت مضطرب .

ففتح الباب وبدلا من ان يدخل بب دخل فرنز

وكان في يد فرنز حبل من تلك الحبال التي يستعملها الخناقون فأشار له علي عند دخوله إشارة سرية فأطلق الحبـل من يده على الشيخ فالتف على عنقه ثم شد فسقط على الارض وهو يكاد لا يعي من الذعر .

أما علي فانه اسرع الى المغسلة فوضع قليلاً من المـــاء في كأس وأخرج من جيبه زجاجة فصب بعض نقط منها في الكأس فوق الماء وجـــاء الى الشيخ فركع فوق صدره وفتح له فمه ثم صب فيه الماء الممزوج بنفط الزجاجـــة فما وصل المزيج الى جوفه حتى صاح صيحة منكرة وسقط صريعاً لا يعي .

فنهض علي عنه وأمر فرنز ان يجلسه على كرسيه فأجلسه عليـــه فكانت هيئته تدل على انه مات بالسكتة الدماغية .

وعند ذلك أخذ علي مفتاحاً كان معلقاً بسلسلة في عنق الشيخ وفتح بـه صندوقاً من الحديد كان الشيخ يضع فوقه فيه اوراقـــه الخطيرة ففتش بين الاوراق حتى عثر بظرف مختوم بختم الكومندور .

وكان هذا الظرف يتضمن وصية الشيخ التي حرم بها مس الن من الميراث ووهب جميـع ثروته لبنته الكبرى ففتحه علي وقرأ الوصية ثم أدناهـا من نور

الشمعة فأحرقها وهو يضحك ويقول : أما وقد احرقت الوصية فان الارث يقسم بين الاختين وسيكون لنا مع الأخت الكبرى شأن .

وفي الليلة نفسها ارسلت مس الن الى اختها مس أنا هذا التلغراف الآتي :

(اكاد أجن من الحزن .. ان والدنا توفي على كرسيـــه . احضري حالا لتشييع الجنازة) .

« اختك الن »

فقال روكامبول : لقد بدأت أن افهم ثم أتم تلاوة دفتر بب وقرأ ما يأتي :

في صباح اليوم التالي أقبلت مس أنا مـع خطيبها فوجدت اختها مس الن منهوكة القوى من الحزن وعيناها جاحظتان من كثرة البكاء فكانت ساعـــة مؤثرة وقد تظاهرت مس الن بالحزن الشديد حتى وهم الناس أنهـا كانت أشد حزناً من اختها .

وقد حكم جميـع الاطباء ان الشيـخ مات بالسكتة وطلبت مس أنا تشريح جثة أبيها وتحنيطها فاعترضتها مس الن انها سمعت أباها يقول مرات كثيرة انه يجب ان تبقى جثته على حالها بعد موته فاذعنت اختها لها وأخذوا يهتمون بدفنه واعداد مشهد حافل

وقد قرروا ان يكون الدفن في اليوم التالي فلفوا الجثة بالاكفان ووضعوها في تابوت عظيم ووضعوا فوقه وسامات الكومندور ونقـلوه الى اقرب كنيسة فوضعوه فيها الى الصباح حيث يحتفلون بتشييـع الجنازة .

وقد عينوا كاهناً لحراسة الجثة والصلاة عليها في الليل فأقام الكاهن يحرسها وفي يده كتاب صلاته ثم شعر فجأة ان الكتاب سقط من يده فتراخت عيناه وأطبقتا فنام نوماً عميقاً .

وعند ذلك دخل الى هذه الكنيسة رجلان وهما فرنز وبب يحملان مثـالا من الشمع يمثل هيئة الكومندور أتم تمثيل والبساه نفس ملابسه الحمراء فوضعها قرب التابوت ثم فتحوا التابوت ونزعوا الاكفان وأخرجوا الجثة فكفنا مثال

الشمع بأكفانها ووضعاه في التابوت وأقفلاه كما كان .

ولما فرغا حملا الجثة فقال فرنز ، يجب أن نسرع فان قلبه بـــدأ ينبض ونخشى أن يستفيق .

فقال بب لنسرع إذن إذ لا يجب ان يستفيق إلا في المــكان المعـــد له ثم حملاه وذهبا به الى القصر في جنح الظلام .

وفي الصباح دفنوا مثال الشمع وهم يحسبون أنهم دفنوا الشيـخ .

وكان علي رجاه قد اكتشف بارشاد مس الن قبوا في ذلك القصر ينزل اليه بسلم يبلغ طولها ٣٠ درجة تحت الأرض فلما فتح الشيخ المسكين عينيه وجد نفسه في حالة تقشعر لها الابدان فانه كان مقيد اليــدين والرجلين بسلاسل من الحديد وفي وسطه سلسلة غليظة مشدودة الى وتد في الجدار .

فحسب نفسه حالما لأول وهلة الى ان سمع صوت قيوده فلم يشكك انه في يقظة وجعل يصيح صياح القانطين فلا يجيبه غير الصدى .

وبعد ذلك ببضع ساعات فتـح باب القبو ودخل فرنز يحمل ابريقــا للماء وقطعة من الخبز فقدمها له وقال بلهجة المتهـكم : هذا ما ارسلته اليك ابنتــك المحبوبة مس الن

ولبث هذا الشيــخ المنكود ستة أعوام في هذا القبو الى ان اشفق عليــه فرنز فخنقه .



أما ما جرى للاختين بعد دفن المثال فهو أن مس أنا كانت تعلم ان أباهــا جعلها وريثته الوحيدة في وصيته فبحثت بحثاً طويلاً عن الوصية فلم تجدهــا فاقتسمت الاختان تلك الثروة الواسعة .

وبعد ستة أشهر أي بعد انقضاء أيام الحداد تزوجت مس أنا خطيبها فلمــا

صحت في اليوم التالي لعرسها وجدت صدرها موشوماً بنقوش غريبة وعرفت انها نقوش الخناقين فارتعشت لأنها لم تعلم كيف تمكنوا من وشمها وهي نائمة

وفي المساء وجد زوجها مخنوقاً على قارعة الطريق فان الخناقين قتلوه كي لا تلد امرأته البنين فترملت في اليوم الثاني لزوجها ولكنها أحست بعد بضعة أشهر ان جنيناً يتحرك في أحشائها فولدت فتاة خشيت عليها من الخناقين فعهدت بتربيتها الى رجل من النور يدعى فيررا واحتجبت عنها كل الاحتجاب

غير انها رأتها مرة ترقص في حفلة عمومية فهاجت بها عواطف الامومة وأغشي عليها وبعد ذلك ببضعة أيام خنقها الخناقون وهي تعانق ابنتها في منزلها فعادت ثروتها كلها الى اختها مس الن زوجة علي رجاه رئيس الخناقين الاعظم في الهند .

الى هنا انتهى دفتر بب وقد بقيت فيه مسائل غامضة مثل السبب الذي دعا ميلادي أي مس الن أن تعيش بعيدة عن ولدها غير ان روكامبول رجا ان يجلي هذه الغوامض بدهائه المعروف .

وقد أتم روكامبول تلاوة الدفتر الساعة الرابعة بعد الظهر وكانت أشعة الشمس تنفذ الى غرفته فقال في نفسه : ان الطقس جميل وفي مثل هذا الطقس تخرج ماري خطيبة لوسيان للنزهة ولا بد لميلادي أن تراها لتعرفها فنادى خادمه الجديد جاك وخرج واياه .

- ١٥ -

أما خطيبة لوسيان فانها بعد ان صحت من رقادها صعد اليها البواب وأعطاها ذلك الصندوق الذي أحضره لها الماجور هوف فسألته عن الذي أرسله فقال لها : لا اعلم فحسبت انه هدية من لوسيان وأطلقت سراح البواب .

وكان هذا الصندوق من خشب الصندل ومفتاحه معلقاً به ، وذهبت به إلى غرفتها ففتحته بيد تضطرب ووجدت به قطعاً من الدانتيلا الثمينة مصفرة مما يدل على تقادم عهدها ، وأنها أثر عائلي قديم ووجدت في الصندوق أيضاً كتاباً معنوناً باسمها ففتحته وأسرعت بنظرها إلى التوقيع فاضطربت اضطراباً شديداً ، لأنها لم تجد توقيع لوسيان فنادت أباها وقرأت وإياه هذه الرسالة ، وهي كما يأتي :

(ابنتي المحبوبة ..

« اسمحي لي أن أدعوك بهذا الاسم فإنك الملاك الذي أرسله الله لحراسة ولدي الحبيب . إني في باريس من عدة ساعات فقط ، ومنذ ثلاثة أيام لم أكن أطمع بالحضور اليها وقد أرسلت إلى ولدي مع رجل أئتمنه عقداً من الماس هدية لك ، ولا أ لم إذا كان لوسيان قدمه لك أو انه أبقاه إلى يوم العرس .

« أما أنا فإني أرسلت اليك هذه الدنتلا القديمة التي تجدينها في الصندوق لأنها كانت على الثوب الذي لبسته يوم عرسي ، وأنا لا أعلم إلى الآن واأسفاه إذا كان يؤذن لي أن أضم ولدي إلى صدري ، ولكني طامعة بهذا الرجاء ، وفي كل حال فإني أحب أن أرى تلك التي اختارها ولدي عروسة له ، وعلمت بعد الاستقصاء انك تخرجين للنزهة في التويلري مع أبيك ، فأرجو أن تذهبي اليوم حسب العادة ، لأن والدة لوسيان تعرفك حين تمرين بها من دقات قلبها) .

وكانت الرسالة موقعة علبها باسم الن ففرحت ماري فرحاً لا يوصف وقالت : ما عسى أن يكون من لوسيان بعد أن يعرف أمه فإني أخشى أن يقتله الفرح

وأقامت مع أبيها وهي تناجي نفسها بأعذب الأماني ، إلى أن دنت ساعة الأصيل ، وزهت سلطانه الكواكب في سمائها فلبست ثياباً بسيطة تزيدها جمالاً وسارت مع أبيها إلى النزهة في التويلري وقلبها يخفق خفوق الطائر ، لرجائها

أن ترى لوسيان ، فما رأت أحداً عند وصولها ، وجلست على مقعد من مقاعد الحديقة تراقب المتنزهين وتتوقع أن ترى من تحب من حين إلى حين .

وبعد أن استراح أبوها هنيهة نهض وإياها وجعلا يتنزهان بين أشجار الحديقة ، وعند ذلك وقفت مركبة بالقرب من الحديقة وخرج منها رجل وغلام وهما روكامبول وخادمه جاك الذي كان في خدمة ميلادي ودخلا إلى الحديقة وكانا متنكرين تنكراً عظيماً ولا سيما جاك حذراً من أن تعرفه ميلادي ووقفا في ظل شجرة وجعلا يراقبان القادمين إلى الحديقة .

وكان والد ماري قد تعب من المشي فجلس على مقعد مع ابنته وبعد هنيهة أقبلت مركبة وخرجت منها امرأة تناهز الأربعين وهي بارعة في الجمال ولابسة ملابس تدل على بساطتها أنها من النبيلات فمشت تلك المرأة في الحديقة دون أن تراها ماري ، وجلست على مقعد في ظل شجرة بحيث كانت ترى كما تشاء دون أن تراها الفتاة .

وعند ذلك قال جاك لروكامبول : هذه هي ميلادي يا سيدي .

وتفرس فيها روكامبول حتى انطبعت صورتها في ذهنه وخرج مع جاك من الحديقة إلى المركبة التي كانت تنتظره خارجاً ودخل اليها معه وأرخى ستائر نوافذها ، ثم عمد إلى صندوق كان أبقاه فيها ففتحه وأخرج منه ملابس جديدة وتزيا بها ، وخلع تنكره القديم ، وعاد إلى شكل الماجور أفاتار .

وعند ذلك خرج من المركبة وقال لجاك إذهب الآن وحدك إلى المنزل وانتظرني به .

وعاد روكامبول إلى الحديقة وهو بملابس الماجور أفاتار وذهب تواً إلى الفتاة وأبيها وقال لها بعد أن حياها الست الآنسة ماري برتود ؟

فاضطربت ماري وقالت نعم يا سيدي .

– إني صديق للوسيان .

وزاد اضطراب ماري وقالت : العله قادم ؟

- كلا يا سيدتي ، لذلك أرسلني .

فذعرت ماري وقالت . رباه كيف أرسلك ولماذا لم يحضر ؟

– لا تضطربي يا سيدتي إذ ليس ما يدعو إلى الاضطراب والحكاية أنه اختصم مع أحد أعضاء النادي فتبارزا وأصيب بخدش خفيف بعد قتل خصمه.

وصاحت ماري تقول ويلاه أهو جريح قل لي بربك أاصيب بمكروه ؟ قل ولا تخف عني شيئاً بالله ؟

– لا تجزعي يا سيدتي فإنه جريح وجرحه بسيط .

وصاحت ماري صيحة ثانية ثم سمع روكامبول صيحة أخرى شديدة والتفت فرأى أن هذه الصيحة خرجت من صدر ميلادي المختبئة في ظل الشجرة وأنها أغمي عليها من الحنو والخوف ..

- ١٦ -

ولنعد الآن إلى فاندا ، فقد علم القراء أن السير جمس نيفلي الذي استلم رئاسة جمعية الخناقين من السير جورج ستوي فتن بها حين رآها وأنها كانت توهمه ان روكامبول خدعها وخانها ، وانها لا تحيى إلا بالانتقام وأن السير نيفلي كان مندفعاً إلى الحضور معها إلى باريس بعاملين وهما عامل حبها ، والتفتيش عن جيبسي التي اختطفها روكامبول من معبد الهنود في لندرا وهي فوق المحرقة .

ولقد علم القراء أيضاً كيف أنهما باتا ليلة في قصر روشربين ولم يعلم بسر الخيال ولم يخطر له في بال أنه يقيم في قصر امرأة تخدمها جمعية الخناقين بملء الغيرة والاخلاص .

ولما وصل مع فاندا إلى باريس أقام وإياها في فندق اللوفر وهو أجمل

فنادقها ، غير أنه كان واسع الثروة فكره أن تقيم حبيبته في الفندق واشترى لها في اليوم التالي منزلاً جميلا بما فيه من الرياش وأقام معها، وركع أمامها وقال لها : هوذا قصرك أيتها الحبيبة فاحكمي فيه وبي كما تشائين .

فابتسمت له فاندا الطف ابتسام وقالت له : إذن أنت تحبني ؟

— إن سعادتي أن أكون لك عبداً ما حييت .

— وأنا أوافقك في هواك ، لكن على شروط أحب أن تسمعها .

— وأنا لا اشترط إلا أن أمتثل لشروطك فمري بما تشائين

— لقد قلت لك أن لي شروطاً والحق اني لا أشترط غير شرط واحد وهو ان تنتقم لي فإذا انتقمت كما أريد أحببتك حب الهائمين وصرت أنا العبدة وأنت السيد المطاع .

وكانت فاندا في باريس منذ ثلاثة أيام ولكنها لم تستطع أن تخرج من المنزل إلا مرة واحدة ، فلما انتقلت مع السير نيفلي إلى المنزل الجديد لم يكن يفارقها لحظة فقالت له فاندا في اليوم الثالث : إنك وعدتني أن تنتقم لي وأنت تعلم باني لا أحبك إلا على هذا الشرط فما بالك تناسيت هذا العهد وإذا كنت تنفق ساعاتك بقربي فكيف تستطيع أن تعثر بهذا الشقي الذي اختطف حبيبي ؟

فابتسم السير نيفلي وقال لها : إن لدي قوماً يشتغلون بأمري ويضحون أنفسهم لكلمة تخرج من فمي فهم ينفذون إرادتي وهم الذين يبحثون الآن عن هذا الرجل وينتقمون لك منه كما تريدين

— ومتى يعثرون به ومتى يكون هذا الانتقام ؟

— بعد يومين أو ثلاثة أيام وأنا انتظر نتائج مساعيهم في هذا المنزل .

وتنهدت جزعاً وقالت : كيف أطيق الصبر ثلاثة أيام ؟

وفيما هم على ذلك دخل الخادم يحمل رسالة إلى السير نيفلي فارتعش حين رأى طوابع البريد الغريبة عليها ثم فضها وقرأ ما فيها ووضعها في محفظة جيبه دون أن يطلع عليها فاندا .

وعاد إلى فاندا فحادثها بضع دقائق ثم قال لها : إني مضطر أن أذهب إلى إدارة بنك دافيد همبري .

أما فاندا فإنها كانت تنظر خلسة إلى الرسالة حين كان يقرأها ولم تعلم من أمرها إلا أنها مكتوبة بلغة هندية وكانت الرسالة واردة اليه من كلكوتا وهي كما يأتي :

« علي رجاه يأذن للمس الن ان تعرف والدها وعلى السير جمس نيفلي نائبي في أوربا أن يبلغها هذا الأمر »

ولم يكد السير نيفلي يخرج من المنزل حتى أسرعت فاندا وركبت مركبة وانطلقت بها إلى المنزل الذي يقيم فيه روكامبول ولكنها لم تجده فيه كما تقدم وكتبت اليه تلك الرسالة التي اخبرته فيها بما علمته ووعدته أن تعود اليه في منتصف الليل وسلمت الرسالة الى ميلون .

أما السير نيفلي فإنه لم يكن يكاتب مس الن أي ميلادي إلا بواسطة بنك همبري فذهب إلى البنك وكتب اليها ما يأتي :

« إن وكيل علي رجاه يريد أن يرى الماجور هوف فليرسل الجواب إلى السير جمس نيفلي في شارع جبرائيل في الشانزليزه وليعين مكان الاجتماع » .

وبعد ربع ساعة ورد اليه الجواب الآتي

« ان الماجور هوف ينتظر السير نيفلي بين الساعة ١١ ومنتصف الليل في نادي اسبرج » .

وقد وصل هذا الكتاب إلى منزل السير نيفلي قبل عودته من البنك بمدة عشر دقائق وكانت فاندا في المنزل فأخذ الخادم الكتاب من عامل البريد فدفعه اليها وانصرف .

فأسرعت فاندا إلى شفرة رقيقة فحمتها وأدخلتها برفق بين طيات الظرف فانسال الغراء وانفتح الظرف دون أن يتمزق ورقه فاطلعت على الرسالة وأرجعتها إلى الظرف وأقفلته .

ثم أتى السير جمس ففتح الرسالة وتلاها دون ان يهتدي الى ما فعلته فاندا . فلما أذنت الساعة الحادية عشرة خرج من المنزل وأخبر فاندا أنه سيعود متأخراً .

ولم يكد يبرح المنزل حتى أسرعت فاندا الى روكامبول ، حيث كان ينتظرها وأخبرته بمضمون الرسالة فقال لها : حسناً فعلت وقد بلغنا المراد فيما أظن ولم يبق علينا إلا ان نضع الخطة التي يجب ان ننتهجها . فاجلسي بجانبي واصغي لما أقول .

- ١٧ -

بينما كان روكامبول يشرح خطته لفاندا كان يجري في الشارع الأميركي أمور خطيرة لها علاقة عظيمة بمشروع روكامبول .

وكان يوجد في هذا الشارع قهاوي ، وهي قهوة النعيم وقهوة الأبرياء وقهوة الألدورادو .

أما قهوة النعيم فكان يتردد اليها المتشردين الذين لم يمهروا بعد في مهنة اللصوصية ولم يحصلوا على شهاداتها وأما قهوة الأبرياء ، فلم يكن يدخل اليها غير الذين سجنوا ست مرات على الأقل لجرائم مختلفة . وأما قهوة الألدورادو فكان يجتمع فيها كبار اللصوص ، ويحق حضور مجتمعاتهم وحفلاتهم لصغارهم . فكانت تغص كل ليلة ، بعد منتصف الليل ، بلصوص هذا الشارع .

وكان في هذا الشارع كثير من الأفران والآبار التي نزحت مياهها . فكان هؤلاء اللصوص ينامون في الشتاء فوق الأفران الدافئة ، وينامون في الصيف في تلك الآبار الرطبة . ولذلك كثر وجود اللصوص في

هذا الشارع .

ففي تلك الليلة التي كان روكامبول مجتمعاً فيها بفاندا ، كان بعض اولئك اللصوص في قهوة الالدورادو وبينهم فتاة تبحث في مباحث الغرام فاعترضتها رصيفة لها قائلة : أتعتقدين أنت بالغرام يا زبلي ؟

- كيف لا أعتقد به ؟ ولو كنت تعرفين غرامي بغوستاف وشغفه بي لما اعترضت علي هذا الاعتراض ، لكنه سجين لا يستطيع الوصول الينا كي يثبت لك صدق الغرام أما أنا فإن إيمان قلبي بالحب لا يتزعزع وفوق ذلك إني أعرف من يحب الحب نفسه .

- كيف ذلك ومن هو هذا الأبله واين يجدونه ؟

- يجدونه في المنزل الذي كنت فيه وطردوني منه لعجزي عن دفع اجرة الشهر ، وما هو أبله بل هو متوقد الذهن تدل مخائله على النجابة والذكاء . وحكايته انه يهوى فتاة ما رأت عيناي أجمل منها لكنها مجنونة ، لا تطيق ان ترى سواه وتضحك وتبكي في حين واحد .

- العله يحبها لجنونها ؟

فقالت زبلي : لا أعلم لا أعلم ولكنه فتى جميل في الثامنة عشرة من عمره . ووالله ما حنت أم على ولدها حنو هذا الفتى على تلك الفتاة ، فإنه ينام عند قدميها ويبيت طول ليله ساهراً عليها وقد اشتدت أعراض جنونها في إحدى الليالي فرأيته يبكي بكاء يقطع القلوب

فقالت السارقة : ويح لنفسي اني لو عثرت بمثل هذا العاشق لحبسته وأوثقته خوفاً من ان يسرقوه وماذا يدعى هذا العاشق المفتون ؟

- إنه يدعى باسم غريب ، لم أسمعه غير مرة من غوستاف ، وهو مرميس !

فلم تكد تلفظ هذا الاسم حتى برز رجل من بين الجمهور وقال إفسحوا لي كي أرى هذه الفتاة .

فتباعد الحضور احتراماً له وهم يقولون : هوذا باتير !

كل من طالع الأجزاء السابقة يعرف ان باتير هو زعيم تلك العصابة التي انتزعها منه روكامبول وخلف في قلبه الحقد الدفين . فكان باتير هذا لا يزال محترماً في تلك القهاوي ، غير ان الفتاة زبلي كانت حديثة العهد في المهنة فلم تحفل به احتفال اولئك اللصوص ودنا باتير من زبلي قائلاً لها : إنك تعرفين إذاً مرميس ؟

- نعم .

فاتقدت عيناه ببارق نفذت منه أشعة الحقد وأضاف : إني لم أر هذ الغلام منذ عهد طويل فهل تقولين اين يقيم ؟

– كلا إني أرى من عينيك انك تريد به شراً فلا أرشدك الى مكانه .

فقال بلهجة المتوعد بل ترشدينني اليه

- كلا لأني خائفة عليه منك .

عند ذلك دنا منها صاحب القهوة وقال لها همساً : لقد أخطأت ايتها الفتاة لا يجب معاداة رجل مثل باتير .

غير ان الفتاة كانت باسلة فلم تخف هذا الوعيد وقالت ، كلا إني لا أرشدك إلى مكانه .

فضم باتير يديه وهجم عليها يريد ان يضربها ، فتداخل صاحب القهوة بينهما قائلاً لباتير لا حاجة لضربها لأن الرجل لا يضرب المرأة اذا كان قادراً على نيل مأربه بواسطة اخرى .

فاصفر وجه باتير وأجابه : إني أضرب من أريد .

ثم تقدم منها فاعترضه صاحب القهوة ايضاً وقال: إصغ إلي وتأن . إن هذه الفتاة قد دلت على مكان مرميس دون أن تريد .

– كيف ذلك ؟

– ألم تقل ان الفتى الذي يدعى مرميس يقيم في المنزل الذي كانت هي مقيمة

فيه وطردت منه لأنها لم تدفع الأجرة ؟
فقالت زبلي ولكن لا يوجد بينكم من يعرف اين كنت أقيم ؟

فبرزت لها عند ذلك ، إحدى الفتيات وقالت : إنك منخدعة ، أنا أعرف منزلك القديم ، لأنك كنت تقيمين في منزل خمار ، في شارع فيرلابو ، وهذا المنزل في وسط الشارع س الجهة اليسرى ، وبالقرب منه دكان بائع تبغ .
فأنكرت زبلي كل الإنكار . غير ان باتير علم من اضطراب صوتها انها غير صادقة في إنكارها فقال لقد علمت الآن ما أريد ان أعلمه .

ثم ترك الألدورادو وذهب الى سطح فرن فاضطجع قرب رفيق فسأله رفيقه . ماذا صنعت بالألدورادو ؟
– علمت عنوان مرميس .
فاستغرب الرجل هذا الاسم وقال من هو مرميس هذا ؟
– لقد أصبت إنك لم تعرفني إلا بعد اعتزال الرئاسة .

– نعم إني لم أعرفك غير اني أرى من تحية الرفاق لك انك كنت من قبل شيئاً مذكوراً .
وتنهد باتير وقال : وا أسفاه لقد انقضت تلك الأيام . وأنا احاول منذ ستة أشهر ان أؤلف عصابة ولا أظفر بمراد . فكان بعض اولئك اللصوص يعتذر بقوله ان مهنة اللصوص بائرة في هذه الأيام وبعضهم يجيب أية ثقة تريد ان تكون لنا برجل غلبه روكامبول وانتزع منه عصابته ؟

فقال له اللص : وأي عجب لهذا ، إن روكامبول قد غلب كثيرين سواك ؟

فثارت كوامن الحقد في صدر باتير وأجاب : إنه سلبني رجالي ونفوذي حتى صاحبة الخمارة التي كنا نأوي اليها ، لأني أردت ان أستدين منها ريالاً واحداً فأبت ولو لم يتيسر لي سرقات صغيرة من حين إلى حين لمت

من الجوع .

– هو ذاك ولكنك لم تذكر لي شيئاً عن مرميس .

– إنه غلام ربيته وعلمته أساليب المهنة فكان أذكى لص بين العصابة فسلبني إياه روكامبول .

– ألعلك تريد ان تدخل في العصابة او أنت تبحث عنه لتراه ؟

فامتعض وجه باتير وارتسمت على محياه علائم الحقد الوحشي وقال : أنا أخضع لهذا الرجل ؟ ولكني اريد ان أراه لأنتقم

– إصغ إلي ايها الصديق إني ما عرفت روكامبول ولكني سمعت من أخباره ما يدعوني الى نصحك بعدم التعرض له

– قد أصبت . إنه قد يغلبني إذا كنت وحدي ولكني أجد أصحاباً يعينوني عليه وسوف ترى .

ولم يزد باتير على ما قاله شيئاً . لكنه عاد الى الاضطجاع وجعل يراقب الداخلين والخارجين من الألدورادو ، حتى بلغت الساعة الثانية بعد منتصف الليل .

وانطفئت أنوار القهوة ، وتفرق من كان فيها ، فقام باتير وجعل يتأهب للذهاب فسأله رفيقه إلى أين ؟

– إلى حيث أقضي القضاء المبرم على روكامبول .

فقال له : إني أعيد عليك النصح ، فارجع عن التصدي لهذا الرجل إذ لست كفوءاً له .

– إن الأيام بيننا ومن يعش يرى .

ثم تركه ومضى .

- ١٨ -

سار باتير إلى باريس فجعل يجتاز شوارعها المقفرة في تلك الساعة المتأخرة من الليل ، فلا يرى غير بعض المارة من حين الى حين ولا ينتبه اليهم لانشغاله بروكامبول . وهو لو رأى أحدهم منفرداً في مثل ذلك الوقت وفي غير هذه الأحوال لانقض عليه وسلبه ما معه . غير ان انشغاله بالانتقام صرفه عن كل أمر سواه .

وما زال سائراً حتى بلغ الى شارع بلوفند في الشارع الذي حبس فيه تيميلون انطوانيت وفاندا . وهناك وقف باتير عند أحد أبواب المنازل ووضع إصبعيه في فمه وصفر صفيراً خاصاً فلم يفتح الباب لكن النافذة المطلة على الشارع فتح بعضها ، وأعاد باتير الصفير ففتحت النافذة كلها وسمع صوت يقول ها أنا قادم اليك ؟

وبعد حين فتح الباب وخرج منه رجل وكان هذا الرجل تيميلون عدو روكامبول الألد الذي طالما ورد ذكره في الأجزاء السابقة .

وكان ظهره قد انحنى وبدت عليه دلائل الكبر وتغير وجهه حتى لو رآه روكامبول نفسه لما استطاع ان يعرفه .

وقد عاد هذا الداهية الى باريس غير حافل بروكامبول ، لأنه لم يعد الى تلك العاصمة إلا للانتقام منه ، لأن هذا الرجل لم يكن يحب في الوجود غير ابنته ولا يطمع إلا بالمال وقد ماتت ابنته وضاع ماله ، ولم يعد يتشوق إلا للانتقام من روكامبول .

وكان قد لقي يوم عودته باتير وهو يعرفه كما يعرف جميع اللصوص وسأله عن أحواله فقص عليه باتير جميع ما حدث له مع روكامبول . ولما أتم حديثه سأله : إذاً انت تكره روكامبول ؟

— كرهي له لا يوصف .

— وأنا أكرهه بعض الكره إذ بيني وبينه حساب قديم يجب تسديده فقل لي أين تبيت في الليل كي أجدك حين الحاجة اليك ؟

- على سطح الفرن في الشارع الأميركي .

— حسناً لا بد لنا ان نلتقي . ثم افترقا .

وبعد يومين علم تيميلون ان روكامبول في لندرا فسافر اليها ثم عاد منها بعد ثمانية أيام فلقي باتير وقال له : ان روكامبول عاد من لندرا الى باريس فابحث عنه في الليل والنهار وفي أية ساعة تقف فيه على أثره أسرع الى إخباري في شارع بلفوند .

ولذلك أسرع باتير الى موافاته في تلك الليلة حين علم مقر مرميس . ولما سمع تيميلون صفيره فرح فرحاً وحشياً لوثوقه من ان باتير قد اهتدى الى روكامبول ولما برز له من الباب سأله : أوجدته وأين هو ؟

— إني لم أجده ولكني علمت اين يوجد مرميس .

ثم قص عليه كلمة كلمة جميع ما حدث له في الألدورادو

وسر تيميلون من تقريره وقال له : إذن ان مرميس يقيم مع امرأة ؟

— كلا بل مع فتاة حسناء .

— إنها مجنونة ولا تتكلم غير الانكليزية .

— لا أعلم بالحقيقة من أمرها بعد غير ان زبلي تكلمت عنها هذا الكلام .

فاتقدت عينا تيميلون ببارق من السرور ووضع يده على كتف باتير قائلاً : أظن انك اكتشفت اكتشافاً عظيماً .

— أحق ما تقوله ؟

— لم أعلم الحقيقة بعد ، ولكنني أظن انه يوجد في باريس او في لندرا من يدفع كثيراً من النقود ، للاستيلاء على هذه الفتاة التي تقيم مع مرميس ، وهلم بنا .

ـ الى اين ؟

ـ الى شارع فيرابو ألم تقل انها تقيم هناك ؟

ـ ليكن ما تريد غير انه يجب الحذر الشديد من مرميس لأنه يعرفني ويعلم اني لا أحب رئيسه روكامبول .

ـ ولكنه لا يعرفني أنا . فقف انت بعيداً وأرشدني الى المنزل فهذا كل ما أريد .

ـ إذن هلم بنا .

وسار الاثنان الى ذلك الشارع ، وقد نفض تيميلون عنه غبار الشيخوخة وقوم حب الانتقام عوج ظهره . فسار وهو يقـول : إي روكامبول ! إن ابنتي قد ماتت ، ولم أعد أخشاك وأنا أضحي حياتي مقدماً في سبيـل الانتقام منك !.

ـ ١٩ ـ

ولنبسط للقراء الآن السبب الذي حمـــل روكامبول على إقامة مرميس وجيبسي في شارع فيرابو ، فإنه حين عاد من لندرا الى باريس قال في نفسه : إني أحضرت اثنين يجب ان أبالغ في إخفائها وهما السير جورج ستوي الذي أستعين به على السير جمس وطائفة الخناقين ، وجيبسي التي يجب ان أحجبها عن السير جمس

أما السير جورج لا أجد له محلاً أفضل من شارع سانت جرمان ، لأن الإنكليز لا ينتابون هذا الشارع . وإذا كانت فاندا قد أحسنت تمثيل دورها لا بد ان تكون مثلتني لدى السير جمس بأني من اولئك الخناقين الذين يلبسون أحسن الثياب وينتحلون افضل الألقاب وينتـــابون أجمل الشوارع وأشهر

النوادي . واذا كنت قد اختطفت جيبسي واتخذتها خليلة لي كما يعتقد ، لا بد لي من ان أتخذ لها منزلاً جميلاً في الشانزليزيه ، او في شارع ملهرب . إذن يجب أن أقيمها في شارع لا يطرقه الا العوام ، إذ لا يخطر في باله اني اقيمها في مثله .

ولذلك أرسل نويل كي يبحث له عن منزل حقير في شارع يسكنه الفقراء واستأجر غرفتين في منزل خمار أقام فيها مرميس وجيبسي .

وكان قد أصدر امره الى مرميس ان لا يفارق جيبسي لحظة ولكن مرميس لم يكن في حاجة الى تلقي مثل هذا الأمر لأنه كان مشغوفاً بحب الفتاة وقد استأجر اثنان من العصابة وهما مورت وشانوان غرفة تحت غرفة جيبسي وكانا يلعبان بالورق في حانوت الخمار ويراقبان .

أما جيبسي فقد كانت مجنونة وجنونها لم يقلق روكامبول لاعتقاده انه متى عرف الداء وجد الدواء . وكان واثقاً ان جنون جيبسي لم يكن ناتجاً ، كما يتبادر الى الأذهان عما لقيت من الرعب يوم وضعها الخناقوق على المحرقة في معبدهم وأضرموا النار في الحطب ، بل ان جنونها كان لفرط شغفها بارثر نويل ولما لقيته بعد ذلك الحب من جفائه واحتقاره ، وكان خبيراً بعواطف القلوب فقال في نفسه : ان هذا الحب القديم لا يدفعه غير حب جديد . ولذلك سر سروراً عظيمـــاً حين باغت مرميس مع جيبسي ورأى تلك النظرات التي تشف عن الغرام الأكيد .

ولم تكن جيبسي تخرج من غرفتها ولا تقبل الطعام إلا من مرميس . وكان مرميس يعتني بها منذ ثمانية أيام اعتناء الأم بولدها ولا يكلمها إلا بالإشارة لأنه كان يجهل اللغة الانكليزية . فأحضر له روكامبول كتباً بهذه اللغة وقال له : إن جيبسي لا بد لها ان يعود اليها الصواب ، فادرس لغتها فقد يروق لك ان تحادثها بعد شفائها .

فجعل مرميس يدرس هذه اللغة بملء الاجتهاد وهو يرجو ان يعرف أن

يقول لها يوماً احبك

وكان ميلون ونويل يزورانها ايضاً فكانت لا تنظر الى نويل وتبتسم لميلون لانها لم تكن تعرف غير ميلون ومرميس .

وفي اليوم التالي الذي اجتمع فيه تيميلون بباتير وأرشده الى المكان الذي يقيم فيه مرميس مع جيبسي ، كان رجل ماراً في شارع فيرابو عليه ملامح المسكنة وهو يرتدي ثياباً بدت عليها آثار القدم،فكان ينتقل من بيت الى بيت يحاول استئجار غرفة وفي يده قطعة من الخشب الأسود مكتوب عليها بحروف بيضاء هذه الكلمات : مكتب معد للتخديم .

وما زال يتنقل وهو لا تعجبه غرفة حتى انتهى الى منزل الخمار الذي تقيم فيه جيبسي ، فنادى البواب فبرز له الخمار نفسه وقال له : لا بواب عندي فماذا تريد ؟

– أريد غرفة أجعلها مكتباً لي .

– أتدفع مقدماً ؟

– نعم .

فدخل به الى الخمارة ودخلا من باب فيها الى ساحة ، وصعدا سلماً مظلمة حتى انتهيا الى الدور الأول ، وهناك صف من الغرف فأخذ الخمار مفتاحاً ، وبينما هو يفتح إحدى الغرف نظر الرجل من ثقب قفل الغرفة المجاورة ورأى مرميس جالساً يقرأ أمام سرير جيبسي فعرفه للحال لأن هذا الرجل المتنكر بشكل شيخ الخدامين لم يكن الا تيميلون .

وبعد ان فتح الخمار بابها دخل تيميلون في أثره وتفحصها تفحصاً دقيقاً ، واعترض اعتراضات شتى حتى انتهى الأمر بقبوله ونقده اجرة شهر مقدماًقائلاً : سأحضر غداً أثاثي

ثم خرج وإياه وعلق إعلانه على باب المنزل وانصرف .

وبعد ساعة عاد الى الخمار وقال له : أعطني مفتاح الغرفة لأني احب ان

اقيس نوافذها كي أعرف قياس الستائر .

فأعطاه المفتاح وصعد تيميلون وحده ودخل الى الغرفة المجاورة لغرفة مرميس وجعل يتأملها فوجد ان الغرفتين لا يفصل بينهما غير جدار رقيق من الخشب ملصوق فوقه ورق ملون . فأغلق باب الغرفة وأخرج مدية من جيبه ، وأزاح الورق وجعل يثقب الخشب بملء الرفق كي لا يسمع مرميس حتى اوشك ان يتم الثقب ثم قال في نفسه : كفى اليوم وسأعود غداً الى إتمام الثقب . وأعاد الورق الى ما كان عليه ونزل الى الحانوت ورد المفتاح الى الخمار وانصرف .

وفيما هو ذاهب رأى امرأة دخلت الى الشارع لابسة ثياب الخادمات فعرف للحال انها فاندا وقال في نفسه : إما ان يكون الشقاء قد بلغ منها فاضطرت الى الخدمة وإما ان تكون متنكرة بهذه الثياب .

ومشى الهويناء وهو يراقبها خلسة فمرت به دون ان تعرفه ودخلت حانوت الخمار فانجلت له الغوامض وقال : إنها دون شك رسول روكامبول الى مرميس .

كان يوجد بازاء الخمارة دكان لبيع التبغ وتتولى البيع فيه امرأة ثرثارة فذهب تيميلون اليها واشترى مقداراً من التبغ وبادءها بالحديث وهي تزن له التبغ فما صدقت ان رأته يريد المحادثة حتى اندفعت بكلامها كالسيل فما أبقت على شيء مما تعلمه عن سكان هذا الشارع .

وكان تيميلون يسمع حديثها وعيناه ناظرتان الى الخمارة فرأى رجلين دخلا اليها من بابها الداخلي وجلسا يلعبان بالورق وعلم ان احدهما شانوان والآخر مورت ثم رأى رجلاً ثالثاً قد انضم اليهما وعرف انه ميلون ، وقال في نفسه : يظهر ان روكامبول شديد الحرص على تلك الفتاة ، فبعث جميع رجاله لحراستها .

وعند ذلك خرجت فاندا فقطع تيميلون حديثه مع المرأة على الكره منه

واندفع يقتفي أثرها حتى رأت مركبة في الطريق صعدت اليها وقالت للسائق: سر بي الى شارع سانت لازار نمرة ٢٨ .

وكان تيميلون سمعها تدل السائق على هـذا المنزل ، ولم يكن يوجد في تلك الساعة مركبة غير هذه ، ولكنه رأى في الوقت نفسه ان مركبة من مركبات الأومنيبوس ، التي تسير الى شارع سانت لازار ، قد دنت منه وركب فيها . غير ان الاومنيبوس لا يدرك المركبات ، فتوارت مركبة فاندا عن أبصاره .

وكانت المسافة بعيدة الى ذلك الشارع الذي كانت فاندا ذاهبة اليه . غير ان تيميلون لم يبال بذلك البعد ، لأنه عرف نمرة المنزل . ولما وصلت مركبة الاومنيبوس اليه رأى مركبة جميلة واقفة عند بابه ، وان امرأة خرجت منه ، وقالت لرجل كان يصحبها : سأفعل ما تريد ، والى اللقاء في هذا المساء .

وارتعش تيميلون لأنه عرف ان هذه المرأة هي فاندا وقد خلعت تنكرها ورجعت الى روائها القديم وقد زاد ارتعاشه حين رأى الرجل يعين المرأة على الصعود الى المركبة ويقول للسائق : الى الشانزليزيه . إذ عرف انه الماجور أفاتار ، أي روكامبول .

وقال في نفسه : لقد علمت الآن ان روكامبول يقيم في سانت لازار وان جيبسي تقيم في فيرابو ، ومتى عرفت الى اين ذاهبة فاندا أستطيع ان أعلم اين يقيم السير جمس نيفلي .

ثم سار به الامنيبوس الى الشانزليزيه حيث كانت فاندا ذاهبة .

- ٢٠ -

ولندع تيميلون يقتفي أثر فاندا ، ولنقص على القراء ما حدث بين فاندا وروكامبول في الليلة السابقة حين اغتنمت فرصة خروج السير جمس من المنزل ، وأسرعت الى سانت لازار لمقابلة روكامبول فقد قال لها حين خلا بها : لم يعد حاجة الى الاهتمام بمعرفة أسرار السير جمس فقـــد عرفت حكاية مس الن أي ميلادي بالتدقيق وذهب وقت البحث ، وآن اوان العمل . إعلمي ان ميلادي قد قتلت اختها ونهبت مال ابنتها ويجب ان ترد الى ابنة اختها أي الى جيبسي الاموال المسروقة .

– ألا يجب ان نعرف اين توجد هذه الأموال ؟

– إن السير جمس لا يعرف اين موضعها لانها بيد ميلادي والذي أراه ان الثروة لم تمس بل ايرادها كان يقسم الى قسمين تأخذ ميلادي قسماً ويرسل القسم الآخر الى خزينة الخناقين كي يستعينوا به على إخراج الانكليز من الهند متى توفرت لهم الاسباب . لكني لا أزال اجهل السبب الذي حمل علي رجاه على هجر ميلادي ومنعها عن رؤية ولدها .

ثم قص عليها ما حدث أمامه في حديقة التويلري وقال لها : إن ماري برتود عرفت ان ميلادي والدة خطيبها ولما رأت ما أصاب ميلادي من الإغماء استعانت بي ، فحملتها الى مركبة سارت بنا الى منزل ماري ، واقتنعت ماري ونحن في الطريق ان جرح لوسيان سريع الاندمال ولما استفاقت ميلادي من إغمائها جعلت تبكي بكاء شديداً ، فقالت لها ماري يجب ان نذهب الى منزله لان وجود امه بقربه يعجل في شفائه .

فاضطربت ميلادي حين سماعها هذا الاقتراح وقالت : كلا ان ذلك محال إذ لا استطيعه ثم استحلفت ماري ان لا تذكر شيئاً من امرها امام لوسيان واستحلفتني انا أيضاً نفس اليمين لاعتقادها اني من أصحاب ابنها .

تعجبت فاندا وقالت : كيف تأبى ان ترى ابنها وهو جريح ؟

— ليست هي تأبى هذا اللقاء لكن علي رجاء يمنعها عن الاجتماع بابنها لسر ستكشفه الايام .

— إذن انت موطد العلائق مع ميلادي .

— ومع الماجور هوف أيضاً ، لقد جددت معرفتي به حين أعدت ميلادي الى الجران اوتيل .

— وعلى ماذا عولت الآن ؟

— إني لم أر في صدر ميلادي غير عاطفة واحدة وهي حبها لابنها ويجب ان نضربها في موضع ضعفها .

— كيف ذلك ؟

— إفترضي ان ماري برتود قد اختفت ، وان لوسيان علم ان أمه قد اختطفتها .

— حسناً وبعد ذلك ؟

— نرشد لوسيان على ميلادي ونقول له هذه امك وهي وحدها تستطيع ان ترشدك الى خطيبتك

وقالت فاندا . ولكن ميلادي تثبت لابنها انها بريئة ، وانها لا تعلم اين هي ماري .

— نعم .

ثم سكت هنيهة وقال : أتظنين انه حين ترى ميلادي ابنها في حالة يأس لاختفاء خطيبته وأتى أحدهم قائلا لها : ماذا تدفعين اذا أنقذت ابنك وأعدت له الصبية ألا تدفع له ثروتها ؟

— ربما .

- وهذا الذي أبتغيه

- ولكن كيف السبيل الى اختطاف الفتاة واين نضعها ؟

– ذلك سهل ميسور علي لا سيما ولي مثل هذه العصابة .

وسكتت فاندا هنيهة ثم قالت : ايها الرئيس أعزمت على ان تبقيني مدة طويلة مع السير نيفلي ؟

– الى ان يتم لي النصر الاكيد على الخناقين وعلى ميلادي .

– ان ذلك يطول .

– بل هو أقصر مما تظنين .

– سأفعل ما تريد . إنما بقي امر أراك لم تفطن له وهو ان لوسيان وماري شريفان وكلاهما نقي القلب طاهر السريرة اليس من الظلم ان نضربهما هذه الضربة القاضية ؟

ووضع روكامبول يده فوق جبينه شأن المفكر المهموم وقال : لقد خطر في بالي جميع ما تقولين ، ولكني رأيت ولا بد من إرجاع الملايين لجيبسي ، ومتى عادت اليها فهي تعطي دون شك ابن ميلادي شيئاً من هذا المال .

– ولكنها مجنونة ؟

– انها تشفى ولا خطر عليها من هذا الجنون .

– ليكن ما تريد والآن بماذا تأمر ؟

– ليس لدي اليوم شيء أقوله ولكن يجب ان أراك غداً .

وذهبت فاندا . وفي صباح اليوم التالي عادت الى روكامبول فقالت له:لدي أخبار عن علي رجاه .

ثم أخبرته ان السير نيفلي لم يعد في تلك الليلة الا قرب الفجر وكان معه رجلان هنديان قدما من لندرا ، فخلا بهما في غرفة مجاورة لغرفتي ، وقد أنصت الى حديثهم ولم أفهم شيئاً لانهم كانوا يتكلمون باللغة الهندية ، لكني سمعتهم يذكرون اسم جيبسي مرات كثيرة واستنتجت من ذلك انهم وقفوا على أثرها .

فقال روكامبول : لا بأس ، اذا كان الخناقون جاءوا الى مساعدته فإني لا أدعهم يساعدوه .

– كيف ذلك ؟

فقام روكامبول الى خزانة وأخرج منها زجاجة فيها رشاش ابيض وأعطاها إياها وقال لها : يجب ان تسقي السير نيفلي هذا المخدر هذه الليلة وانه حين يستقر في جوفه يسقط صريعاً فتضعين عند ذلك مصباحاً على نافذة الغرفة المشرفة على الحديقة فأعلم ان الامر قد تم

– وبعد ذلك ؟

– إن البقية خاصة بي . إذهبي الآن ولكن قبـل ان تعودي الى السير نيفلي ، إذهبي الى فيرابو واسألي ميلون عن جيبسي ، واذا كان رأى مَا يوجب الحذر .

فامتثلت فاندا وتنكرت بالشكل الذي رآها فيه تيميلون ثم خرجت وعادت بعد ساعة فخلعت تنكرها وأوصلها روكامبول الى المركبة وقال للسائق : الى الشانزليزيه . وهي الكلمة التي سمعها تيميلون .

– ٢١ –

بينما كان الماجور هوف عند ميلادي في الفندق الذي كانت فيه جاءه عامل دافي همبري برسالة السير حمس وكانت ميلادي تقـــول لفرانز : الى متى هذا الصبر على ظلم علي رجاه . أيكون لي ابن وهو أبوه ويكون هذا الابن مريضاً جريحاً معرضاً لخطر الموت ثم لا يأذن لي ان أراه ؟

فقال لها فرانز : انك تعلمين ان ثروتك مرهونة لارادة علي رجاه والخضوع له فافتكري واحذري .

- لا أبالي إذا كنت فقيرة فاني أحب ان أرى ابني .
- ولكنك إذا كنت فقيرة ألا يكون ابنك فقيراً مثلك ؟

فردت هذه الكلمات الصواب الى ميلادي وقالت : يا للشقاء ولكني لا أعلم لماذا هذا الرجل يمنعني عن أن ارى ولدي وهو قد هجرني منذ خمسة عشر عاماً .

- أنا أعلم .

فدهشت ميلادي وقالت : أنت ؟

وقبل أن يجيبها دخل الرسول برسالة السير جمس وتلاها فرنز وعرضها على ميلادي فقالت : من هو السير جمس هذا ؟

- هو وكيل على رجاه وخلف السير جورج ستوي .
- أهو الآن هنا ؟
- دون شك ، إنه يريد أن يراني .

ثم قام الى المائدة فكتب الى السير نيفلي تلك الرسالة التي فتحتها فاندا وأطلعت على فحواها كما تقدم وعاد الى ميلادي فقالت له : لقد قلت لي انك تعرف السبب في حرماني من ان ارى ولدي .

- ولكني استمهلك في ايضاح السبب الى الغد فربما غنيت عن ذلك بعد مقابلة السير نيفلي .

فلم تجد ميلادي سبيلا إلا الالحاح ، وفي المساء ذهب فرنز الى نادي اسبرج وبعد حين جاءه الخادم برقعة زيارة السير جمس فاستقبله في القاعة المعدة لاستقبال الغرباء

وبعد ان تبادلا الاشارات السرية وتعارفا قال السير جمس : اني حامل اوامر علي رجاه .

فانحنى فرنز وقال بماذا يأمر الرئيس ؟

- انه يأذن لميلادي ان ترى ولدها .

فان هذا الرئيس الأعظم سيتخلى عن الرئاسة لأنه يتولاها منذ خمسة وعشرين عاماً ولا يجيز نظام الخناقين تولي رئيس واحد اكثر من ربع قرن ، وأنا اقول لك هذا القول مقدمة للبحث في ثروة مس ألن فان نصف ايراد هذه الثروة كان يدفع حتى اليوم الى الخزينة الهندية ، ولكن علي رجاه متى تخلى عن السلطة يضطر الى التصفية .

قال فرنز : ماذا تريد بذلك ؟

– أريد انه يجب عليه ان يدفع للخزينة أصل المال وليس الايراد .

– ان مس ألن لا تخالف لعلي رجاه امراً .

– هو ما يرجوه ولكني أعد نبأ آخر الى مس ألن وهو ان رئيس جمعيتنا الأعظم يجب عليه ان يكون عازباً مدة توليه الرئاسة ولكنه يحق له الزواج متى تخلى عنها ولا يزال علي رجاه يهوى ميلادي ويحب ولدها لانه ولده أيضاً.

فاضطرب فرنز وقال . ماذا تعني بذلك ؟

– أعني ان علي رجاه قادم الى اوروبا وهو يريد ان يتزوج ميلادي .

فارتعد فرنز وقال . هذا إذا رضيت ميلادي ؟

– ان هذا شأنها وليس شأني ولكن لا بد لي من ان اطلعك على امر وهو ان ميلادي وان تكن قد دفعت نصف مالها الى الخناقين مقابل قتل ابيها فانها لا تزال تحتاج الى هذه الطائفة لصيانة النصف الآخر لأن الفتاة النورية أي جيبسي لا تزال في قيد الحياة وهي تستطيع مطالبتها بهذه الثروة كل حين .

– اني أعلم انكم تكلفتم بجيبسي .

– ولكنها افلتت من ايدينا وعادرت انكلترا الى باريس .

– أجاءت وحدها ؟

– كلا بل مع رجل يحبها ويحميها وقد يمكن أن ينتقم لها لأنه رجل شديد فاضطرب فرنز اضطراباً عظيماً وقال : يجب ان تموت هذه الفتاة .

وأنا ما أتيتك إلا لمثل هذا .

- ٢٢ -

وافترق السير جمس نيفلي عن فرنز في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، ولكنه لم يعد إلى منزله إلا حين شروق الفجر ، وقد عـاد اليه مع الهنديين اللذين تقدم ذكرهما في حديث فاندا ، فأقام معهما ساعة ثم صرفهما ونام نومـاً هادئاً إلى الظهر بينما كانت فاندا مع روكامبول .

ولما صحا أحضر له الخادم رسالة ففضها وقرأ ما يأتي :

« إن رجلاً عاش زمناً طويلاً في اندرا يسأل السير نيفلي أن يقابله لأنـه يستطيع أن يخدمه خدمات جليلة » .

ولم يكن السير نيفلي في ظروفه الحاضرة وورد مثل هذه الرسالة لمزقها دون أن يجيب عليها ، غير ان الهنديان أبلغاه أنهما يئسا من لقاء جيبسي فأمل خيراً بصاحب هذه الرسالة وأمر الخادم أن يدخله اليه .

وبعد هنيهة دخل الخادم بالرجل ، ونظر السير نيفلي هذا الزائر فرأى عليه ملامح نبلاء الانكليز ، وما شكك لحظة أنه منهم ، أما الرجل فإنه حياه وفاجأه بقوله : أيها الميلورد اني أعرف أين هي جيبسي .

ولو فوجىء السير نيفلي بدوي مدفع لمـا بغت كما بغت بقول هذا الرجل وقال في نفسه : هب ان هذا الرجل عرف أين تقيم جيبسي فكيف عرف اني أهتم لهـا ؟

أما الرجل فإنه كان يتوقع منه مثل هذا الانذهال فوضع اصبعـه على شفتيه وقال له أيوجد لديك غرفة معتزلة إذا خلونا بها لا يسمع حديثنا أحد؟

- لا يوجد في المنزل غير امرأة لا تعرف الانكليزية وأنا واثق منهـا كل الثقة .

فابتسم الرجل وقال إذا كان الحذر واجباً فإنما هو من هذه المرأة .

وارتعش السير وقال أوضح لي ما تقول ..

فاستأذن الرجل السير نيفلي وأغلق الباب ثم عاد اليه قائلا . أيها الميلورد أننا لسنا الآن في لندرا وإذا كان لديك في باريس عصابة من الخناقين فليست هي الآن في هذا المنزل ، وإذا خطر لك أن تستعمل العنف فلا تجد من يعينك لذلك أقول لك انك إذا خفت أو حملتني على الانصراف تفقد خير فرصة تعينك على إيجاد جيبسي والاستئثار بثروتها التي قد تطالب بها يوماً من الأيام فاصغ إلى حديثي ولا تلمني إذا حذرت من تلك المرأة التي تثق بها .

ولم يسع السير نيفلي بعدما رآه من هذا الشخص الواقف على داخل أسراره إلا الاذعان له فقال : إننا في الدور الثاني من هذا المنزل والمرأة التي تخشاهـا مقيمة في الدور الأول ، ولا سبيل لها إلى سماع حديثنا .

– إذن اصغ فإني أبدأ بذكر شيء عن أمورك فإنك تدعى في لندرا السير جمس نيفلي ، وأنت زعيم جمعية الخناقين ، وقـد خلفت بهذه الزعامة السـير جورج ستوي لعدم كفاءته ، ثم انك اتيت باريس لسببين أحدهما لخدمة الجمعية التي تمثلها والثاني غرامك بهذه المرأة المقيمة في منزلك .

وان هذه المرأة تدعى فـانذا وقد اخبرتك عنها ان عاشقها تخلى عنها واختطف فتاة نورية تدعى جيبسي ، وأنت آت إلى باريس كي تنتقم لفانذا من عاشقها القديم ، لأنها لا تحبك إلا على هذا الشرط وكي تظفر بجيبسي ولذلك أحضرت اثنين من الهنود كي يبحثا عن الصبية وعن خـاطفها ، وخابت مساعيها ومساعيك ، لأن هذا الشخص أعظم من الهنود ، وقد طالمـا عجز عنه بوليس باريس .

فاندهش السير نيفلي وقال : من هو هذا الرجل ؟

– هو رجل يدعى روكامبول كان من كبار المجرمين ثم تاب توبة صادقة ، أتريد أن أقص عليك بايجاز ؟

– نعم ..

فحكى له حكايته وكيف هرب من سجن طولون وما جرى له البارون

موروليكس .

حتى إذا فرغ من حكايته قال له السير نيفلي :

— أهو الذي اختطف جيبسي ؟

— نعم ...

— العله يهواها ؟

— كلا ، ولكنه يهوى تلك المرأة التي تهواها أنت .

— كيف يكون ذلك وهو قد هجرها شر هجران ؟

— إني يا حضرة الميلورد أدعى تيميلون وقد عرفت روكامبول وفاندا حق العرفان وهما يسخران بك ، وفي كل يوم .

فاضطرب السير نيفلي وقال : إن هذا محال .

— بل هو الحقيقة وقد اجتمعا في صباح اليوم .

فضحك جمس ضحكة مرة ثم قال : إذا كان حقاً ما تقول فإنها موتاً تموت .

وجعل يخطو في أرض الغرفة خطوات مضطربة وأثار الغضب الوحشي بادية بين عينيه ثم وقف أمام تيميلون وقال له : اني لا أعلم من أنت ولكن اصغ إلى ما أقول فاعلم أنه إذا كان ما تقوله حقاً فإن هذه المرأة تموت وأما إذا كنت كاذباً فأنت الذي تموت دونها .

فابتسم تيميلون وقال اني أرجو أن أعيش بعدها عمراً طويلا ثم ارجوك أن تعلم يا سيدي اني ما أتيت اليك كي أخبرك فقط بما ينذرك من الأخطار .

— إذن ماذا تريد ؟

— ان اتفق وإياك فقد قلت لك اني اعرف أين جيبسي وأنا أستطيع ان أسلمها لك وان أثبت ان روكامبول وفاندا لا يزالان متعاشقان يتراسلان ويهزأون بك .

— إذن أنت قادم لتبيعني هذه الأسرار ؟

- ان الانتقام فوق المال .

ثم اتقدت عيناه ببارق من الغضب وقال : إن روكامبول قتل ابنتي .

- إذن أنت تريد الانتقام؟

- إصغي الي يا حضرة الميلورد إني شديد الفقر ومع ذلك فاني لا أسألك من المال إلا قدر ما احتاج اليه من النفقة لانفاذ مشروعنا فاذا سلمت اليك جيبسي وعلقت روكامبول على المشنقة وأحببت أن تنعم علي بشيء من المال اسد به عوزي كنت لك من الشاكرين .

وكان السير نيفلي قد تمرس بالافات ودرس أخلاق الأمم وعلم ان عاطفة الانتقام ، أشد العواطف الانسانية فوثق مما قاله تيميلون وقال له : لقد صدقتك ؟

- إذن نحن على اتفاق وانت راض ان اخدمك .

- نعم .. ولكنني أريد قبل كل شيء ، أن تبرهن لي عن اتفاق روكامبول وفاندا .

- هو ذاك وسأبرهن لك عن ذلك في منتصف هذه الليلة .

- إذن فان فاندا تموت .

- كلما عجلت بموتها احسنت فانها اعظم مساعد لهذا العدو الشديد الذي يدعونه روكامبول ، ولا بد لي قبل انصرافي من ان انبهك إلى امر يا سيدي الميلورد وهو اني عندما كانت ابنتي في قيد الحياة لم اكن اخشى إلا روكامبول ، اما الآن فان روكامبول لا يخشى سواي ، ولهذا احذرك من ان تذكر اسمي امام أحد من الناس فاذا وصل اليه خسرنا كل شيء .

- كن مطمئناً فقد نسيت اسمك .

- هذا جل ما اتمناه ..

ثم ودعه وانصرف .

أمافاندا فأنها لم تر تيميليون حين دخوله وانصرافه وأما السير نيفلي فانه بعد

انصراف تيميليون الذي ارسلته الاقدار لنصرته ابلغ فاندا انه منحرف الصحة فلا يتعشى هذه الليلة ولكنه يتناول معها الشاي في الساعة التاسعة وأقام في غرفته وهو يحاول اخفاء اضطرابه كي يتمكن من الاجتماع بها دون أن تظن به ظنون السوء .

وكذلك فاندا فقد كانت أيضاً شديدة الاهتمام بالأوامر التي اصدرها اليها روكامبول وهي « ان السير نيفلي يثقل علينا فاذا شرب هذا الرشاش ضعي مصباحاً على النافذة المشرفة على الحديقة وعلي الباقي » .

وكان لفاندا ثقة عظيمة بروكامبول ولكنها كانت تقول في نفسها ، كيف يستطيع اختطاف السير نيفلي من شارع الشانزيليزيه وماذا يريد ان يصنع به وكيف امهد له سبل هذا الاختطاف ؟

وبعد أن امعنت في التفكير أبعدت جميع الخدم بطرق مختلفة كي يخلو الجو لروكامبول وبعد حين جاءها السير نيفلي وكانت فاندا قد اعدت الشاي ووضعت في كأس السير نيفلي ذلك الرشاش الذي اخذته من روكامبول .

وكان السير نيفلي قد آلى على نفسه ان يقتل فاندا اذا ثبت له ما قاله عنها تيملون ولكنه آل على نفسه أيضاً ان يحتفظ بظاهر السكينة الى ان يأتيه تيملون بالبرهان فدنا من فاندا فقبل يدها حسب عادته ثم جلس حول مائدة الشاي فقالت له : أتريد كأساً من الشاي ؟

– دون شك .

فأخذت الابريق وصبت في كأسه وكأسها وهو ينظر اليها نظرات تدل على مبلغ افتتانه بها في حين ان العواصف كانت ثائرة في قلبه ولم يرها مرة أجمل مما كانت عليه في هذه الساعة فثارت الغيرة في فؤاده ونسي ما عقد النية عليه من التزام السكينة فنظر اليها قبل ان يشرب جرعة من الشاي وقال لها بلهجة المتهكم : كيف حال صديقك روكامبول .

فاضربت فاندا بالرغم عن دهائها لهذه المباغتة وبدت عليها ملامــح الذعر بشكل ظاهر فلم يعد السير نيفلي محتاجاً الى برهان تيملون إذا قرأ خيانتها بين عينيها فاستل خنجره وهجم عليها وهو يقول . أيتها الخائنة انـــك خدعتيني فاستعدي للموت .

- ٢٣ -

ورأت فاندا انه لم يعد لها مناص وان خنجر جمس سيخترق قلبها فلاينقذها غير الصدفة والاتفاق ولكنها عاشت زمناً طويلاً مع روكامبول فتعلمت الحيـلة في مثل هذه المواقف واستعانت على عدوها بدهائها فوثبت الى آخر الغرفـة وسقط الرداء عن منكبيها فظهر من تحته كتفاها ونصف صدرها فوقفت يـد السير جمس وتراجع وهو ينظر مبهوتاً الى جمال هذا الصدر الذي لم يره قبـــل الآن ثم ضحك وقد هاجت به العواطف الوحشية وقال : انك ستموتين دون شك ولكني أحب ان يكون انتقامي تاماً ... ولم يتم كلامه .

فتنفست فاندا الصعداء وعلمت ان الوقت لا يزال لديها فسيحاً بما رأته من ظواهر افتتانه بها وركعت وقالت : ماذا يهمني الموت والعار إذا كنت تنقـذ ولدي ؟

فاندهش السير جمس وقال : ولدك . العل لك ولد ؟

فضحكت فاندا ضحك القانطين وقالت : اتحسب انه لو لم يكن لي ولد في قبضة روكامبول اكنت اطيـع مثل هذا الشقي السافل ؟

ثم كشفت صدرها وقالت له بلهجة المتوسل . افعل بي مـا تشاء ثم اقتلني بعد ذلك فقد استحقيت القتل ولا أبالي بالموت ولكن عدني انك تنقذ ولدي من قبضة روكامبول .

فانقلب السير جمس انقلاباً غريباً حتى ان يده سقطت الى ركبته وهي لا تزال مسلحة بالخنجر فوقفت فاندا وقالت له: إذا ابيت ان تجيب طلبي وتعدني هذا الوعد فاني انجو من قبضتك بالموت ثم ادنت من فمها خاتماً كان باصبعها فخدع السير جمس بهذه المظاهرة وحسب انه يوجد في خاتمها سم يقتل في الحال وهو لم يكن يريد قتل فاندا فقط ...

فعاد الى المائدة وجلس أمام كأس الشاي المعد له فقال لها : إذن لك ولد كما تقولين ؟

– نعم .

– اتحبينه ؟

– وأية أم لا تحب ولدها ؟

قال : أتقولين انه في قبضة روكامبول وانك تخافين ان يقتل هذا الولد ؟

وكان يسألها هذه الأسئلة وعيناه تنظران الى كتفيها العاريتين وصدرها الجميل فيتزايد هياجه بالتدريج وهي تنظر اليه نظرات توسل تفتن الجماد فثار في فؤاده جمر ذلك الحب الشائن ونوى على اجابتها الى سؤالها وادرك سؤاله منها ثم قتلها .

فقال : تكلمي بايجاز ماذا تريدين ان اصنع بولدك .

فعلمت فاندا انه قد حكم عليها بالموت وحاولت ان تطيل الوقت راجية ان تجد منفذاً للخلاص فقالت : اريد ان تنقذ ولدي فعدني وعد الصادقين .

– اني أعدك بذلك ولكني أريد ان اعلم اين هو ؟

– ليس من يعلم مقره غير روكامبول

– وروكامبول اين يقيم ؟

– في شارع سانت لازار نمرة ٢٨ .

– أهذا كل ما تطلبينه إلي ؟

فنظرت اليه نظرة ساحرة وقالت نعم :

ولكن السير نيفلي لم يكن من الذين تلين قلوبهم هذه النظرات فقال لهـا : اننا الآن وحدنا في هذا المنزل فان جميع الخدم قـــد ذهبوا والمطر ينهمر في الخارج فلا يسمع أحد صراخك فاعلمي انه يجب انتطيعيني ... وتموتي .

ثم أخذ الخنجر وحاول أن يهجم عليها فقالت له : دعني أصلي واستغفر الله قبل أن تقتلني .

وعادت إلى الركوع .

ـ انك تؤمنين بالآلهة وتعتقدين بالخلود إذن صلي ولكن أسرعي بالصلاة .

ثم أخذ كأس الشاي كأنه يريد أن يشغل نفسه كي لا يطول انتظاره وشرب ما فيه .

وبعد ذلك هجم بخنجره على فاندا فصاحت صيحة يأس فألقى خنجره على المائدة وأوقفها وضمها إلى صدره وجعل يقبلهـــا ويقول : إني أحبك وأبغضك في حين واحد .

غير ان فاندا هبت لها قوة من السماء فتخلصت منه وصدمته صدمة قوية وأسرعت إلى المائدة فقبضت على الخنجر وقالت له : إذا دنوت خطوة فأنت من الهالكين .

وضحك السير نيفلي وقال : أتحسبين ان الخناقين يخشون خنجر امرأة ؟

ثم تراجع إلى الوراء وأخرج من جيبه ذلك الحبل الذي اشتهر باستعماله الخناقون، وخافت فاندا خوفاً شديداً وأيقنت أنها مائتة لا محالة ، وأما السير نيفلي فإنه أطلق الحبل فالتف على عنق فاندا، فأطبقت عينيها وتأهبت الموت وهي تذكر همساً إسم روكامبول .

على انها شعرت أن الحبل لم يضغط على عنقها ففتحت عينيها ورأت السير نيفلي واقفاً وقوف الصنم وقد اصفر وجهـــه إصفرار الأموات وهو يتمتم كلمات لا معنى لها ..

ثم أن أنيناً مزعجاً ووهت رجلاه وحاول أن يشد الحبل كي يضغط

على عنق فاندا ، ولكن الحبل أفلت من يده وانقلب على الأرض صريعاً بفعل ذلك المخدر الذي وضعته له فاندا في كأس الشاي ..

ثم انطبقت عيناه وأخذ جسمه يهتز ويتشنج كأنه في حالة النزع ولم يكن غير دقيقة حتى سكن جسمه وأصبح شبيهاً بالأموات .

وتنهدت فاندا تنهد المنفرج بعد اليأس وبقيت بضع دقائق مضطربة لا تعمل شيئاً غير النظر إلى هذا الرجل الذي كاد يقتلها ثم ذكرت روكامبول وذكرت معه الواجب وقامت إلى المصباح وأخذته عن المائدة ووضعته على النافذة حسب الاتفاق ، فرأت رجلاً يمشي في الحديقة ثم رأت رجلاً آخر ، فعلمت انهما روكامبول وميلون .

وبعد هنيهة دخل روكامبول إلى الغرفة وسألها : أقضي الأمر ؟

أجابته بلهجة المضطرب : نعم وها هو ملقى على الأرض .

ونظر اليه روكامبول ثم نظر إلى فاندا ، ورأى الحبل لا يزال في عنقها ، فذعر وقال : ما هذا ؟

— لولا دقيقة واحدة لكنت من الأموات

ثم قصت عليه جميع ما حدث لها معه ، فقال لها : لا بأس انك لا تخشينه بعد الآن ..

— ألعله مات ؟

— كلا .. ولكنه في نفس الحالة التي كانت فيها انطوانيت حين أخرجناها من سجن سانت لازار ، إذا كنت تذكرين ، لو كنت في الزمن القديم لكنت قتلته دون إشفاق ، أما الآن فقد آليت على نفسي أن لا أسفك دماً بشرياً إلا حين اضطر للدفاع عن نفسي .

— إذن على ماذا عولت وماذا تصنع به ؟

— سأسجنه في قبو منزل الخمار الذي تقيم فيه جيبسي إلى ان استرجع ملايين جيبسي ، وأحذره مرة ثانية وأضعه في صندوق وأشحنه إلى لندرا

بعنوان أحد الخناقين كما تشحن البضائع .

ثم التفت إلى ميلون وقال له : أتسمع حركة ؟

ــ لا . .

وقالت فاندا : لا يوجد سوانا في المنزل فإني صرفت الخدم لهذا الغرض.

ـ أحسنت . .

ثم أمر ميلون أن يحمل السير جمس وينتظره عند باب الحديقة ، فحمله ميلون وخرج به ممتثلاً .

وعاد روكامبول إلى فاندا وقال لها : استودعك الله وسنتقابل غداً .

ــ كيف ذلك اتتركني وحدي في هذا المنزل ؟

ــ نعم إذ يجب أن تبقي فيه ولا خطر عليك . .

ــ لماذا ؟

ــ ألم أقص عليك قصة المس الن ، إذن إعلمي ان علي رجاه رئيس الخناقين الأعظم في الهند تجدد غرامه بميلادي بعد أن هجرها عشرون عاماً ، وهو يريد ان يتزوجها ، غير ان ميلادي تابى هذا الزواج لأنها استرسلت في هوى فرنز ، الذي يدعو نفسه الماجور هوف . .

وهي ستحضر غداً إلى هذا المنزل كي ترى فيه السير جمس وهي لا تعرفه من قبل ولكنها تعرف انه نائب علي رجاه ، وغرضها من هذه المقابلة ان يحمل علي رجاه على الرجوع عن قصده من زواجها وأريد أن تبقي في هذا المنزل كي تستقبليها .

ــ وانت اين تكون .

ــ اكون معك دون شك . وسأحضر اليك قبل الساعة الثامنة صباحاً . .

ثم ودعها وقبل جبينها وخرج

ووقفت فاندا في النافذة تشيعه بالنظر ، حتى توارى عن نظرها مع

ميلون ، وعادت إلى الغرفة وتنهدت تنهداً طويلاً قائلة : لقد سلمت الليلة من أشد الأخطار ..

ولم تكد تتم كلامها حتى سمعت صوتاً من ورائها يقول : إذا سلمت في المرة الأولى فلا تسلمين في الثانية .

والتفتت منذعرة فرأت رجلاً وامرأة واقفين دون حركة على عتبة الباب ، أما الرجل فكان تيميلون ، واما المرأة فكانت شيفيوت التي جرحتها فاندا بالرصاص حين انقذت انطوانيت من مخالبها .

وعرفتها فاندا للحال وصاحت مستغيثة صيحة منكرة غير ان صياحها لم يبلغ الى روكامبول لأنه كان قد خرج من الحديقة .

- ٢٤ -

أما روكامبول فإنه سار في اثر ميلون ، وكان ميلون حاملاً السير جمس على كتفيه ، والقوه في مركبة كانت تنتظرهم بقيادة نويل ، فصعد اليها روكامبول وميلون ووضعا السير نيفلي بينهما ، وامر روكامبول نويل ان يسير بهم إلى منزل الخمار ، الذي تقيم فيه جيبسي .

وسارت المركبة بهم تقطع الأرض نهباً حتى وصلت الى منزل الخمار ، واخرجوا السير نيفلي ووضعوه في إحدى الغرف مؤقتاً ، ودخل روكامبول مع الخمار الى اقبية المنزل يتفقدها ، ورأى بينها قبواً تحت قبو آخر له باب سري على سطح ارض القبو الذي فوقه ، لا يظهر له اثر ، واختار روكامبول هذا القبو بعد ان فحصه فحصاً دقيقاً ، وامر ميلون فأنزل السير نيفلي اليه ثم اقفل بابه وقال إن هذا الرجل سيصحو بعد يومين وسترى إذا كان يبقى له شهية للطعام حين يستفيق .

ثم خرج الى الشارع وتبعه ميلون ، وكان نويل لا يزال ينتظر في المركبة وسأله ميلون : اأذهب معك ايها الرئيس ؟

– كلا ، ابق هنا وغداً لا تنس موعدنا في الساعة التاسعة .

وركب روكامبول المركبة قائلاً لنويل : سر بي الى الجران اوتيل .

وبعد ذلك بربع ساعة وقفت المركبة امام باب الفندق وهنـاك قهوة خاصة بالفندق ، ولم يدخل روكامبول اليه بل دخـل الى القهوة حيث رأى فرنز وميلادي جالسين حول مائدة ، يشربان الشـاي وهما منهمكان انهماكاً عظيماً ، بمحادثة يظهر انها كانت خطيرة جداً ، حتى انهما لم ينتبها اليه حين دخوله ولكنهما لو رأياه لما عرفاه لأنه كان متنكراً بزي الانكليز .

وجلس روكامبول قرب مائدة مجاورة لمائدتهما وطلب الى الخادم ان يأتيه بكأس شراب وبجريدة التيمس ، ولما جاءه بالجريدة ادناها من وجهه بحيث لم يعد احد يراه وجعل يوهم انه يقرأ وهو في الحقيقة يسمع حـديث فرنز وميلادي ولم يفته منه حرف .

وكانت ميلادي تقول لفرنز : ما اجمل ولدي لوسيان فإني ما كنت احسب انه جميل الى هذا الحد فإنه ابيض البشرة مثلي ولكنه حاد النظر براق العينين كأبيه .

ورد فرنز : بالله لا تذكري إسم ابيه لأني شديد الغيرة عليك منه .

وهزت ميلادي كتفيها إشارة الى عدم اكتراثها بعلي رجاه .

وتابع فرنز : لا تحاولي الانكار فإنك لا تزالين تحبينه .

وضحكت ميلادي ضحكاً أزال من فؤاده كل شك وقال لها : ان الغيرة بقدر الحب .

– كن مطمئناً فإني لا انكر اني احببت علي رجـاه اصدق حب . غير انه هجرني وتخلى عني فتناسيت حبه حتى نسيته ولو لم يكن والد ابني لما

ذكرته بلسان وكفى انه هجرني ٢٠ عاماً ، ولما فرغ من شؤونه السياسية قال في نفسه · إن لي ولداً وامرأة في اوروبا فلأذهب اليهما .

والآن إعلم اني أحتقرك ، وعندما أذكر اني من النبيلات أذكر ايضاً انك كنت خادماً في منزل أبي . ولكن الجريمة جعلتنـــا متساويين . وانا أحتقرك واحبك في حين واحد ، لأنك الفتني دهراً طويلاً فتمكن هواك مني وجرى حبك في عروقي مجرى دمي وفي مفـاصلي لأن يدي سفكت دم أبي وأنت كنت تقبل هـذه اليد . إذن لا تغار علي بعـد الآن لأني لا أحب علي رجاه .

-- لا ريب عندي فيما تقولين ولكن علي قد يكون باقياً على حبك فلو خطر له أن يتخذك زوجة شرعية فماذا تفعلين ؟

- ماذا تظن أأتزوجه ؟

- ربما .

فابتسمت إبتسام الأبالسة وقالت إصغ إلي يا فرانز ، إن علي رجاه لايزال الرئيس الأعظم للخناقـــين ولديه جيش من اولئك الجنود السريين يستطيع ان يفعل بمساعدتهم ما يشاء ولكنه سيتخـلى عن هذه السلطة كما يقال ، فإذا بقيت له لا بد له من البقاء في الهند فلا نخشاه . واذا تخلى عنها وحضر الى اوروبا لا يبقى له شيء من وسائل النفوذ السرية ويصبح رجلاً عادياً كسائر الأشخاص فكيف نخشاه ؟

- لكنه اذا عاد وطلب الاقتران بك أترفضين ؟

-- كلا بل أقبل .

فامتعض وجه فرانز وقال : كيف ذلك ؟

- إني أقبل كي يكون لولدي والد معروف . وأما البقية فهي عليك لأنك ذكي الفؤاد واذا عاد علي رجاه الى اوروبا يكون خالياً من كل سلطة كما تقدم إذ يكون قد اعتزل رئاسة الخناقين . واذا كان الخنجر لا يخترق صدره فان

السم يمزق أحشاءه

وعقب هذا الحديث سكوت قصير دلعلى الرضي ثم عاد فرانز الى الحديث قائلا : على ماذا عولت ؟

- على ان أرى نائب علي رجاه .

- وماذا تقولين له ؟

- أقول له إني مستعدة لاستقبال عليُ رجاه للامتثال لما يريد . لكني أشترط شرطاً واحداً ، وهو قتل تلك النورية التي قد تطالبني بثروة أمها ، أي أختي .

- ومتى عزمت على مقابلة السير جمس ؟

- غداً .

-- هل أصحبك اليه ؟

- كلا ، لأني أذهب اليه وحدي في الساعة العاشرة .

فانحنى فرانز إشارة الى الامتثـال ، ثم شرب جرعة من الشاي ونظر الى ما حواليه ، كأنه خشي أن يكون أحداً سمع الحديث . فـلم ير أحد لأن روكامبول كان قـد توارى عن الأنظار ، وكانت الساعـة الأولى بعـد منتصف الليل .

بعد ذلك ببضع ساعات اي في الساعة الثامنة من الصباح، ذهب روكامبول الى منزل السير نيفلي وطرق الباب ففتح له احد الخدم فقال له : السير نيفلي في المنزل ؟

- كلا يا سيدي .

- والسيدة ؟

- هي أيضاً خارج المنزل

- كيف ذلك ؟

إنها خرجت من المنزل مساء امس ولم تعد بعد .

— في أية ساعة ؟

فاضطرب الخادم وقال : الحق يا سيدي اني لا أعلم شيئاً من الحقيقة ، كسائر خدم المنزل لقد أذنوا لنا أمس بالانصراف ولما عدنا في الساعة الثالثة من الصباح ، رأينا جميع الأبواب مفتوحة ، ولم نر السيد ولا السيدة .

فارتعش روكامبول إذ كان يعلم انهم لا يجدون السير نيفلي ، ولكن اختفاء فاندا لم يخطر له في بال فدخل الى المنزل والعرق البارد ينصب من جبينه وقلبه منقبض أشد الانقباض .

- ٢٥ -

لنعد الآن الى فاندا ، لقد تركناها مذعورة وقد رأت تيميلون وشيفيوت واقفين في الباب بعد ذهاب روكامبول .

وكل من قرأ الأجزاء الماضية يذكر ما كان في صدر شيفيوت هذه من الحقد على فاندا حين أطلقت رصاصة على صدرها وأنقذت انطوانيت من قبضتها . وقد عرف القراء في الجزء السابق ان روكامبول لقيها وهي تحمل تلك الطفلة الموشومة وهي ابنة ناديا فضمها الى حزبه يوم جرد باتير من عصابته ، وعهد بالطفلة اليها والى صاحبة الخمارة .

فأقامت شيفيوت مع صاحبة الخمارة ، بعد سفر روكامبول الى انكلترا ، ثم وسوس الخناس بين المرأتين فاختصمتا ، واضطرت شيفيوت الى ترك الخمارة والطفلة .

ولم تكن شيفيوت قد خضعت لروكامبول إلا لما تولاها من الرعب فذهبت في البدء الى خمارات باريس ، وعادت الى عيشتها السابقة ومشاركة اللصوص

الى ان طاردهم البوليس ، فالتجأت معهم الى الشارع الأميركي ، وهناك لقيت باتير فحكت له ما اتفق لها مع صاحبة الخمارة وحكى لها اتفاقه مع تيميلون وهي واثقة من فوزه ، لاسيما بعدما عرفت ان ابنته قد ماتت وبات حراً مطلقاً لا يخشى روكامبول .

أما فاندا فإنها لما رأت هذين العدوين الشديدين واقفين بالباب ذعرت ذعراً شديداً وخطر لها ان تفر منهما وتلقي نفسها من النافذة الى الحديقة وأسرعت الى النافذة ، غير ان حبل السير جمس كان لا يزال معلقاً في عنقها وطرفه ملقى على الأرض فأسرع تيميلون ووضع رجله عليه وأسرعت شيفيوت الى الخنجر الذي تركته فاندا على الطاولة . أما تيميلون فإنه أخذ طرف الحبل بيده وشده فضغط على عنق فاندا ، واضطرت مكرهة الى ان تتبعه حذراً من ان تختنق .

وقد حدث جميع ذلك بسرعة عظيمة فقال لها تيميلون : لقد قبضنا عليك هذه المرة ولا سبيل لك الى النجاة بعد الآن .

ودنت منها شيفيوت وصفعتها صفعة شديدة صاحت لها فاندا صيحة ألم بصوت مختنق وحاولت شيفيوت ان تخنقها بيديها فحال تيميلون دون قصدها وقال إرجعي لا أريد ان تخنقيها .

فاعترضته شيفيوت وقالت : من عساه يكون أولى مني بخنقها ولا يزال أثر رصاصها بصدري ؟

– هو مـا تقولين . ولكن الوقت لم يحن بعد ، وثقي اني لا أدع أحـداً يخنقها سواك .

وعند ذلك دخل باتير فقال لها تيميلون بلهجة السيادة . أوثقا يديها وضعا منديلاً في فمها كي لا تصيح ، لأننـا سنجتاز مسافة شاسعـة قبل الوصول الى حيث نسير

وبعد ذلك بربع ساعة كانت فاندا ملقية في مركبة وهي موثوقة اليـدين

والرجلين بحراسة شيفيوت وباتير فركب تيميلون بازاء السائق وسار بالمركبة الى جهة الشارع الأميركي .

ولقد وصفنا هذا الشارع للقراء ، وكان من شـــأنه في ذلك العهد الذي نقص فيه هذه الرواية انه كان ملجأ أميناً للصوص ، لأن الجنود طالما طاردتهم في ذلك المكان فكانت تندحر عنهم كل مرة بخسائر ، لكثرة ما كان فيه من العقبات والدهاليز الخفية التي يلجأون اليها ، ولما عجزت الشرطة عنهم تركتهم وشأنهم .

وقد اتفق مرة لتيميلون حين كان بوليساً سرياً ، انه اكتشف موصماً في ذلك الشارع لا يعرفه أحد وذلك ان لصاً سرق مرة مبلغاً كبيراً من المال ، فقبضت الحكومة عليه ولكنها لم تعثر بالنقود . فأرسلت اليه تيميلون كي يغريه على الإقرار فاتفق معه على ان ينقـــذه من السجن ، ويقتسم وإياه النقود اذا أرشده اليه ، فرضي اللص كي ينقذه كما وعد . فأعطـاه مبرد لكسر قيوده وقال له إذا أقبل الظـــلام وكسرت قيدك ، أسرع الى النافذة تجد حبلاً معلقـاً فيها ، فتمسك به واخرج من السجن تجـدني في انتظارك

وفي المساء كسر اللص قيده وكان الظلام حالكاً والنافذة على علو شاهق فخرج اليها واعتصم بالحبل فما نزل خطوة حتى انقطع الحبل بدهاء تيميلون فانقلب يهوي الى الأرض وتحطم ومات وفاز تيميلون وحده بالنقود وبمعرفة ذلك المكان الخفي .

فلما وصلت المركبة التي يقودها تيميلون الى الشارع الاميركي سار بها الى منعطف خفي فأوقفها ونزل الى فاندا فحل قيود رجليها وقال لها : يجب ان تسيري معنا الآن الى حيث نريد واني لا اريد قتلك لكنك اذا حاولت الهرب قتلتك في الحال دون إشفاق .

فلم تجد فاندا اولى من الامتثال وسارت يخفرها باتير وشيفيوت ويتقدمهم

تيميلون ليرشدهم الى الطريق .

وساروا نحو ربع ساعة حتى اقتربوا من الآبار فقال باتير : أعرف بئراً خفية ألا تريد ان تراها ايها الرئيس ؟

فقال تيميلون : إن الآبار التي تعرفها انت يعرفها سواك ولا اريد أن يرى أحد هذه الأسيرة الجميلة .

– الى اين اذن نسير ؟

– الى بئر الشيطان .

– إنها بئر شهيرة لا يذهب اليها أحد من الناس

– ذلك لأنه لا يوجد بينكم من يعرف مدخلها . أتعرف مدخلها أنت ؟

– كلا ولم أجد أحد من الرفاق يعرفه .

– اذن اتبعوني لأني اقدم منكم في المهنة وأعرف ما لا تعرفون . وانت ايتها الحسناء لا تنسي ما قلته لك ، لان حياتك موقوفة على إشارة تبدو منك .

وسار بهم تيميلون في طريق مقفرة لا يسلكها أحد من الناس ، حتى انتهى الى سور قديمة تهدم معظمها لتقادم عهدها .

فدخل منها الى حديقة مهجورة ذلت أغصانها ، فسار الى آخرها ووجد هناك كثيراً من الاحجاب والأدغال بعضها فوق بعض ، فالتفت الى شيفيوت وقال لها : إحرصي جيداً على الاسيرة . وأنت يا باتير هلم معي الى إزاحة هذه الأدغال والحجارة .

فاقترب باتير منه وتعاون الإثنان على إزاحتها فانكشف لهم فم بئر عمقها نحو مترين ،فألقى تيميلون نفسه فيها وأخرج من جيبه شمعة وكبريتاً فأثار الشمعة وجعل يفتش في البئر ويمر يديه على جدرانها . فكان باتير وشيفيوت ينظران معجبين وفاندا تنظر نظرة الرعب وقلبها ينذرها بمصاب وان هذا الرجل يعد لها عقاباً هائلا لا يخطر إلا في بال الأبالسة

وعثرت يد تيميلون بالجدار بينما كان يبحث فرأوا ان ذراعه قد دخلت في الجدار ، ثم شاهدوا حجراً ضخماً قد سقط وفتح فيه منفذ يكفي لمرور إنسان ، فعاد وعليه دلائل الفوز الى الطرف الاخير من البئر وقال لباتير : هات الاسيرة الآن .

فحمل باتير فاندا بين يديه وادلاها الى البئر بالحبل الذي كانت موثوقة به ، ولما بلغت الى البئر قال لهما تيميلون . انزلا انتما الآن .

فنزل باتير وتبعته شيفيوت فرأيا ان ذلك المنفذ الذي فتح في الجدار يؤدي الى سرداب طويل .

فقال لها تيميلون : احرصا على الأسيرة الآن .

فقالت له شيفيوت : أتريد ان أخنقها ؟

— كلا لم يحن الوقت بعد .

ثم دخل من المنفذ الى الدهليز قائلاً : اتبعوني .

فدخلت فاندا وتبعتها شيفيوت وهي تنهال عليها بأقبح الشتائم وسار باتير وراءهم فكان تيميلون يتقدمهم وبيده الشمعة فيضطر الى الانحناء من حين الى حين لقلة ارتفاع قبة السرداب .

ثم وقف أمام باب ضخم من الخشب ، وكان له قفل كبير مفتاحه فيه ، فأدار المفتاح ففتح الباب وهب منه هواء بارد يدل على شدة الرطوبة في هذا المكان .

فدخل تيميلون وتبعه جميعهم ووجدوا قبواً متسعاً لا منفذ منه وجعلت الجراذين والفيران تتراكض منذعرة بين أرجلهم ، فقال تيميلون لفاندا بلهجة المتهكم : أرجو على الأقل ان لا تمل سيدتي في هذه القاعة ، لان لها رفاقاً فيها .

ثم أشار إشارة الى باتير فقلب فاندا الى الارض وتعاون مع شيفيوت على تقييد رجليها وتركاها ملقية على ظهرها . فدنا تيميلون وأخرج الكمامة

من فمها وقال :لابأس من ان تصرخي وتستغيثي فعسى ان ترسل اليك الاقدار من يمينك

فنظرت فاندا نظرة احتقار وقالت له إني لم أخف ولن أخافك فافعل بي ما تشاء .

فقالت لها شيفيوت : سيكون لك خير غذاء فكلي من هذه الجراذين الى ان تأكلك .

فاضطربت فاندا وهالها ما سمعته من هـــذه الشقية فقالت . ليكن ما يريده الله ، ولا بد لروكامبــول ان يبحث عني ويجدني ، والويــل لكم ايها الاشقياء .

فقال لها تيميلون : وانا في انتظار ذلك أتمنى لك ليلة مباركة

ثم خرج مع رفيقيه فساد الظلام في القبو وسمعت فاندا صوت قفل الباب وصرير المفتاح ثم سمعت خطوات اولئك الاشقياء هنيهة وانقطع بعد ذلك ولم تعد تسمع غير صوت الجرذان .

ولما صعد تيميلون الى سطح البئر الاول ، وضعوا الحجارة والادغال على بابه كما كانت .

وقالت شيفيوت لتيميلون : لقد احسنت بهذا الانتقام غير اني كنت اؤثر أن أخنقها بيدي .

– لماذا ؟

– لاننا نضمن موتها .

– نعم ولكنها اذا ماتت خنقاً تموت دون عذاب .

– لقد أصبت ايضاً ولكني أخشى ان يدركها روكامبول .

فضحك تيميلون وقال · وأنا ارجو ان يدركها روكامبول فقد نصبت له الفخ .

– أي فخ تعني ؟

– فاندا .
ثم سار الثلاثة في سبيلهم دون ان يوضح لها تيميلون مقاصده .

– ٢٦ –

في صباح اليوم التالي اي بعد بضع ساعـــات من زمن القبض على فاندا والسير جمس ، حيث وقع احدهما في قبضة روكامبول والآخر في قبضـــة تيميلون ، فتح صاحب الخمارة التي يقيم فوقها مرميس وجيبسي خمارته جاء حمالان يحملان اثاث تيميلون ليضعاه في الغرفة التي استأجرها في منزله بصفة شيخ الخدامين .

وكان تيميلون يسير وراءهما متنكراً ، فدخل الى الخمارة وطلب الى صاحبها ان يعطيه مفتاح غرفته فأعطاه المفتاح وقال له : لقد انتظرتك امس فلم تحضر .

فاعتذر له تيميلون عذراً مقبولاً ، ثم دعاه الى ان يشرب كأساً معه فرضي الخمار شاكراً وجلس الاثنان حول مائـدة بينما كان الحمالان ينقلان الاثاث الى الغرفة

وفيما هما يتحدثان بدرت التفاتة من تيميلون الى سطح القبـو المعد لتخزين الخمر فانتبه وجعل ينظر نظرة المراقب .

والعادة في ايام الشتاء حين تكثر الوحول ، ان كل خمار وتاجر وصاحب قهوة وغيرهم يضع الرمال في أرض دكانه او مخزنه كي لا يلوثها الداخلون اليها لوبالوحول فتظهر آثار اقدامهم على تلك الرمال .

وقد استلفت أنظار تيميلون انه رأى آثار أقدام مختلفـة فوق سطح قبو الخمارة ورأى اولاً آثار قدمين حافيين فعـلم انها قدما الخمار نفسه لأنه خلع

حذاءه حين النزول الى القبو ، ثم رأى آثار قدمين ضخمين ورأى بينهما آثار حذاء لطيف ، فداخلته الظنون وترك الخمار هنيهة بحجة مراقبة أثاثه وخرج الى الشارع .

وكانت الوحول لا تزال على حالها في ذلك الشارع من الليلة السابقة ، لأن الكناسين لم يكونوا قد أزاحوها بعد ، ورأى فوق تلك الوحول آثار الأقدام نفسها التي رآها على رمال سطح القبو .

فاقتفاها ورأى أثر عجلات مركبة وقفت قرب منزل الخمار ولاحظ أثار الأقدام قد احتجبت عند هذه العجلات ، فأيقن ان الذين دخلوا الى القبو هم الذين قدموا بالمركبة .

وعاد تيميلون الى غرفته وأطلق سراح احد الحمالين وأعطاه اجرته وبقي الآخر وهو باتير الذي كان متنكراً بملابس حمال ، فقال له باتير : إني أنتظر أوامرك .

— صبراً لأرى إذا كان الطير لا يزال في القفص .

ثم قام الى الجدار وأزاح عنه الورق ونظر من الثقب الذي ثقبه فيه كما تقدم ، فرأى منه ان جيبسي لا تزال نائمة ، ورأى قرب سريرها مرميس جالساً حول مائدة عليها كتاب مفتوح وقد وضع رأسه بين يديه وجعل يقرأ في ذلك الكتاب ، لأنه كان يدرس اللغة الانكليزية كما أمره روكامبول باعتناء عظيم رجاء ان يتعلمها ويتمكن يوماً من محادثة من يحب فيها .

فسأله باتير ألا يزال في الغرفة ؟

أشار اليه تيميلون إشارة المصادقة ثم سد الثقب بقطعة من العجين كانت في جيبه وأعاد الورق الى ما كان عليه وعاد الى باتير قائلاً إن الطير لا يزال في قفصه ولم يبق علينا إلا إيجاد السير نيفلي

— من يعلم ماذا صنع به روكامبول

— أظن اني أعلم . لأن روكامبول قد جاء أمس مع ميلون الى هذا المنزل

ودخلا الى الخمارة .

– كيف عرفت ذلك ؟

فضحك تيميلون وقال : إنك أيها الأبله لم تكن إلا لصاً ولكنك لم تخدم البوليس . إصغ إلي الآن تعلم .

ثم ذهب وإياه الى آخر الغرفة فجلس كل منهما على كرسي وجعل تيميلون يكلم باتير همساً قائلاً : أتذكر اننا حين ذهبنا ليلة أمس الى منزل السير نيفلي رأينا مركبة واقفة قرب باب الحديقة .

– نعم .

– إن هذه المركبة كانت لروكامبول استخدمها لاختطاف الانكليزي ولم نكن نستطيع عند ذلك مقاومته لأنه كان مع رجاله وهو أشد منا فاكتفينا باختطاف فاندا .

فقال باتير ، عند ذكر فاندا : إني لا أزال على رأي شيفيوت بشأن هذه المرأة .

– ما هو رأي شيفيوت ؟

– ان نقتلها في الحال ونأمن شرها .

فهز تيميلون رأسه وقال : لقد قلت لك ان لي مأرباً في الابقاء عليها ، فلا تجادلني .

وأحنى باتير رأسه إشارة الى الخضوع . وعاد تيميلون الى حديثه السابق وقال : إن روكامبول اختطف الانكليزي في مركبة ، وقد وجدت آثار عجلات مركبة قرب منزل هذا الخمار ، ورأيت في خمارته أثر حذاء ضخم عرفت مساميره في الأرض ، وهو حذاء ميلون دون شك الذي كان يحمل الانكليزي على كتفه ، ورأيت بقربه حذاء لطيف لا شك عندي ان صاحبه روكامبول .

– أتظن انهم جاؤا به الى هنا ؟

— بل أؤكد .
— إذن إن الخمار شريك لهم .
— وهذا لا ريب فيه .
— أين تظن انهم وضعوا الانكليزي ؟
— لم أعلم بعد وربما وقفت على الحقيقة هذا المساء . إصغ إلي الآن انه يجب ان تجتمع بشيفيوت .
— إنها تنتظرني في زاوية شارع مرتين .
— إذن إذهب اليها وسيرا معاً الى بئر الشيطان بالطعام الى فاندا لأني لا أحب ان تموت جوعاً بل أحب ان تبقى في قيد الحياة لحاجتي اليها الآن ، ولا أظن ان الجرذان أكلتها
وحاول باتير ان يعترضه فقال له تيميلون ببرود : ألا تريد ان تنتقم من روكامبول ؟
— أعندك شك في ذلك ؟
— إذن إعلم انك إذا خالفت أقل أمر من أوامري لا أكون مسئولاً عن شيء بل اني أفعل خيراً من هذا وهو اني أعقد الصلح مع روكامبول وأدعك تفعل ما تشاء .
فاضطرب باتير لهذا الانذار وقال : كفى مر بما تريد .
— تذهب الى فاندا بسلة من الطعام ، ولا تفارقها الا متى رأيتها اكتفت من الاكل .
— أيجب ان أحل وثاق يديها ؟
— دون شك ولكنك تعيد وثاقها متى فرغت من الطعام ويجب ان تأخذ معك غدارة .
— لماذا ؟
— لقتل شيفيوت اذا تعرضت لفاندا بشيء من القسوة .

ـ سأمتثل لما تريد .

ففكر تيميلون هنيهة ثم قال لباتير : أنظر الى هذه النافذة ، إنها تطل على الشارع ويجب ان تحضر اليه عند منتصف الليل . فـإذا رأيت النافذة مفتوحة إخلع حـذاءك واصعد الى غرفتي وادخـل إلي كي نفتش عن الانكليزي .

فامتثل باتير وانصرف لتنفيذ أوامر تيميلون . أما تيميلون فإنه بقي في غرفته الى الظهر وهو يراقب راجياً ان يرى روكامبول وميلون فلم يحضر أحد منهما . وفيما هو يحاول الانصراف رأى اثنين من الحمالين يدخلان برميلاً ضخماً من الخمر الى قبو الخمارة والخمار يساعدهم لضخامة البرميل فعرض تيميلون مساعدته على الرجل فرضيها شاكراً .

وعاونهم حتى أدخلوا البرميل الى القبو وهو يراقب كل ما يراه . فلما وصل البرميل الى القبو المظلم أنار الرجل شمعة كي يستنير بها ويضعها موضعه فاندهش تيميلون لانه رأى في أرض القبو الموحلة اثر الاقدام الذي رآه في الخمارة وفي الشارع .

وبعد ذلك صعدوا جميعهم الى الخمارة فراقب تيميلون باب القبو وشرب كأساً من الشراب مع الرجل وخرج ، فما مشى هنيهة في الشارع حتى رأى ميلون قادماً الى الخمارة فقال في نفسه : إنه قادم للبحث عن فاندا . ثم مضى في شأنه وهو يضحك ضحك الساخر .

وفي الساعة العاشرة من المساء عاد الى غرفته وأضاء الشمعة وفتح النافذة المطلة على الشارع ، وقال : لننتظر الآن الى ان تقفل الخمارة أبوابها ، ويتفرق الناس .

- ٢٧ -

وأقام تيميلون في منزله ينظر من الغرفة المطلة على الشارع فيراقب المارة ويعود الى الغرفة المشرفة على الخمارة ، فيراقب زبائنها . فكان يسمع أقدام المقيمين في هذا المنزل يصعدون الى غرفهم للمبيت فيها ، وبقي على ذلك الى منتصف الليل فرأى صاحب الخمارة أقفل باب خمارته المتصل بالشارع ، ودخل من الباب المتصل بالمنزل الى غرفة له عند مدخل المنزل العام فدخل اليها

كل ذلك جرى وتيميلون يراقب ما حوله كل المراقبة ، حتى اذا انتصف الليل وسمع غطيط النائمين ، ذهب الى النافذة المطلة على الشارع فرأى باتير واقفاً ينتظره . فأشار اليه ان يوافيه الى الباب العمومي ، ثم خلع نعليه ونزل ففتح الباب برفق دون ان يسمع له أحداً حساً ، فدخل الاثنان غرفة تيميلون ، وجعلا يتحادثان بصوت منخفض ، فقال تيميلون : أرأيت الاسيرة ؟

– نعم .

– ألم تمت ولم تأكلها الجرذان ؟

– كلا ، لانني لم أر في حياتي أشد منها أعصاباً ، وأثبت جناناً بين النساء .

– كيف ذلك ؟

– ألا تعلم أننا أوثقنا يديها ورجليها والقيناها على الارض

نعم .

– ولكننا رأيناها واقفة ولا أدري كيف تمكنت من الوقوف .

– العلها قطعت وثاق رجليها ؟

– كلا ، فقد كانت موثقة كما تركناها . لكن يظهر انها لقيت عناءاً شديداً

من الجرذان لقد لمحت في خدها أثر العض الموجع ولذلك بذلت جهدها فوقفت وسحقت بعض هذه الجرذان .

– أ كانت عليها علائم اليأس ؟

– كلا ، بل كانت هادئة رابطة الجأش . وقد حاولت شيفيوت ان تسيء اليها فمنعتها .

– وهل أكلت ؟

– بشهية عظيمة فإنني حللت وثاق يديها ، ولما انتهت من الطعام أعدت الوثاق فما أبدت مقاومة .

– أبدر منها شيء يدل على أملها بالنجاة ؟

– لم تقل كلمة بهذا الشأن لكنها هادئة .

– سيان عندي كيف كانت غير ان المهم ان نسرع بالعمل .

– أعلمت اين هو الانكليزي ؟

– بالتقريب ، هلم بنا .

ثم قام تيميلون الى خزانة وأخذ منها حبلا وضعه في جيبه وقال لباتير : إعلم ان خطراً عظيماً يتهددنا لان جميع عصابة روكامبول يقيمون في هذا المنزل ، وأخصهم من رجال عصابتك القديمة ، فإذا شعروا بنا كنا من الهالكين . ولذلك يجب الانتباه الشديد ولا سيما حين نزولنا الى السلم كي لا يشعر بنا الخمار .

– سأكون على خير ما تريد ، وما زلت أرجو أن أنتقم من روكامبول !.

– كل آت قريب

ثم أخذ من خزانته حلقة ضخمة فيها كثير من المفاتيح المختلفة وخرجا من الغرفة الى السلم ، فكان تيميلون يقف عند كل درجة ويصغي فلا يسمع غير غطيط النائمين .

فلما وصلا الى آخر السلم عطفا الى قبو الخمار فجعل تيميلون يمر يده على الباب متلمساً قفله حتى عثر به فقال لرفيقه : إن كسر هذا الباب سهل ولكني أخشى ان ينتبه لصوته النائمين .

ثم أخذ المفاتيح من جيبه وجعل يجربها في القفل بصبر عجيب حتى فتح ، ودخل اليه مع باتير وأقفل الباب ثم أضاء شمعته وجعل يفحص هذا القبو فحصاً مدققاً فلم يجد أثراً للأسير فطرق كل موضع في جدرانه عله يجد باباً سرياً فلم يجد ، ففتح البراميل وأزاحها من موضعها فلم يعثر بشيء . ثم أرجعها الى ما كانت عليه وجعل يفحص الارض فرأى عليها أثار الاقدام واتبعها فرأى انها انتهت عند منتصف أرض القبو فقال في نفسه : لا بد ان يكون تحت هذا القبو قبو آخر . فأعطى الشمعة لباتير ووضع أذنه على الارض وأصغى إذ قال في نفسه إن الاسير مهما بالغوا بشد الكمامة على فمه فإنه يستطيع الانين . لكنه لم يسمع شيئاً فعاد الى تجربة اخرى وهي انه جعل يزيل الوحول والاتربة عن المكان الذي انتهت اليه أثار الاقدام فانكشفت له حلقة ضخمة ففرح فرحاً عظيماً وتعاون مع باتير على رفع الحلقة فارتفع معها باب من الخشب كانت مغروسة فيه وانكشف له من تحت هذا الباب بئر عمقها نحو ثلاثة أمتار .

وعند ذلك أخذ الشمعة من باتير وأدناها من فم البئر فرأى جسماً ممدوداً على الارض لا حراك فيه فوقف شعر رأسه من الذعر لانه خشي ان يكون قتيلاً ، وإذا مات السير جمس ضاعت أمانيه .

غير انه بقي له شيء من الرجاء فأخذ الحبل الذى أحضره معه .فلف بعضه على وسط باتير وعقده ، فقال له باتير ماذا تصنع ؟

- سوف ترى ، ثبت قدميك في الارض

ثم أمسك الحبل ونزل الى البئر والشمعة بيده ورأى السير جمس ممدوداً فلمس جسمه فرآه بارداً فوضع يده على قلبه فوجده ينبض فأجال نظره في القبو فرأى طاقة مفتوحة تنفذ الى المزاريب فانتبه للحال وقال إنهم لم

يدعوا هذه النافذة مفتوحة إلا التماساً للهواء كي لا يموت ، فهو إذن غير ميت ، وانما قد سقوه مخدراً فأصابه ما أصاب انطوانيت حين أخرجوها من سجن سانت لازار .

وحاول ان يستوثق من صحة ظنه ففتح فم السير جمس ونظر إلى لثتـــه فوجدها حمراء وذلك يدل على الحياة فقال في نفسه : سنتم البحث في غير هذا المكان والمهم الآن اخراجه من هذا القبو .

وعند ذلك أخذ حبله الطويل فلفــه تحت ذراعي السير جمس وعقده ثم تسلق على الحبل حتى بلغ سطح البئر فاستعان بباتير ونشلا السير جمس من البئر .

فلما رآه باتير اضطرب وقال : انه ميت وأية فائدة لنا منه ؟

ـ كلا ، ولو كانوا يريدون قتله لقتلوه في منزله ولم يتكلفوا عنــاء نقله إلى هذا المكان .

ـ ولكن جسمه بارد وقلبه ساكن ولا أثر للحياة فيه .

فضحك تيميلون ضحك المشفق وقال : يظهر جلياً انك لا تعرف شيئاً من أعمال روكامبول .

فذعر باتير ذعراً شديداً بدت لوائحه على وجهه فقال له تيميلون : ألعلك كنت تحسب مخاصمة روكامبول من الأمور السهلة .

ـ كلا ، ولكن لم يخطر في بالي انه يحيي ويميت

ـ بل هو يفعل أكثر من ذلك فاذا كان الخوف قد تولاك فلا يزال الوقت فسيحاً لديك

فتحمس باتير وقال كلا ، ان ثقتي بك أعظم من خوفي منه .

وعند ذلك ركع تميليون أمام السير جمس وهو يعيد النظر اليه ، وكلما حدق في وجهه رأى ان حالته تشبه الحالة التي كانت عليها انطوانيت فيزداد وثوقاً بحياته

وكان باتير يراقبه فلما رأى دلائل الرجاء على وجه تميليون قال له : إذن هو حي ؟

– دون شك .

– ماذا عزمت ان تفعل ؟

– يجب ان نرجع كل شيء الى ما كان عليه فانهم لا بد ان يدخلوا الى القبو ثم يجب ان تحمل السير جمس إلى غرفتي .

فجعل الاثنان يصلحان البراميـــل وأعادا باب البئر الى موضعه وأرجعا الوحول والتراب الى ما كانت عليه حتى اختفى أثر الباب فأمر تيميليون باتير بحمل السير جمس فخرجا من القبو واقفلا بابه وصعدا بجمس إلى غرفة تميليون دون ان يشعر بهما أحد .

وبعد ان وضعه فوق سريره قال باتير : انك تؤكد انه حي ولكنني ضائع الرشد دون شك فكيف يرد اليه الصواب ؟

– لا حاجة إلى ذلك فهو يفيق من تلقاء نفسه .

– متى ؟

– انه شرب المخدر ليلة امس وسيستفيق ليلة غد كما جرى لأنطوانيت .

– وما يجب ان نصنع من الآن الى الغد ؟

– يجب ان نهتم بروكامبول .

فاتقدت عينا باتير بشرر الحقد ، وفتش تميليون جيوب السير نيفلي فلقي فيها اوراقاً مالية تبلغ قيمتها الف ريال فسر بها وقال : سنحارب بهذا المـال روكامبول ويعجبني من الانكليز انهم يدفعون نفقات الحروب ، ثم اخذ من هذه الأوراق ٣٠٠ فرنك دفعها لباتير قائلاً : أذهب الآن كما اتيت وسأقفل البـاب الخارجي بعد ذهابك ، وفي صباح غد تذهب الى منزلي في شارع بلفرند ثم تقابل البواب وتعطيـه هذا المال وتكلفه عني ان يشتري لي برميلاً من البارود .

فعجب باتير وقال له : ماذا تريد أن تصنع بالبارود ؟
-- ستعلم ذلك فيا بعد .
ــ أهذا كل ما تأمرني به ؟
ــ كلا ، بل يجب أيضاً أن نذهب إلى إمرأة عجوز تقيم في شارع فيلديو ولا بد أنك تعرفها .
ــ ما اسمها ؟
-- فيليبيت .
ــ عرفتها ؟
ــ إذن أرسلها إلي فإني بحاجة اليها .
ــ ومتى يجب أن أعود ؟
ــ في الليلة القادمة في مثل هذه الساعة ..
وانصرف باتير لتنفيذ أوامره وبقي تيميلون وحده أمام السيرجس .

- ٢٨ -

بينا كان تيميلون منصرفاً بكل قواه إلى الانتقام بعد أن ضحى حياتـه مقدماً في سبيله ، وبينا كان يعد الوسائل الجهنمية لبلوغه أمانيه كانت فاندا لا تزال سجينة في بئر الشيطان .

وقد علم القراء كيف دخلت إلى هذا السجن ، وكيف أن تيميلون أوثق يديها ورجليها ، وأمر باتير حين أرسله بالطعام اليها أن يحميها من شيفيوت .

وقد أقامت في تلك البئر يوماً وليلة كانا لديها كالأدهار لفرط ما لقيته من الهول في مطاردة الجرذان غير أنها لم تيأس وكانت تذكر روكامبول في ساعاتها الهائلة فتطمئن نفسها وتقول : اليس هو الذي أنقذ أنطوانيت من سجن لارار

فأماتها وأحياها ؟ اليس هو الذي أنقذ مدلين من مخالب موررليكس ، وقد ذهب للبحث عنها في أقصى سيبيريا ؟ اليس هو الذي أنقذ جيبسي من النار وقد وضعها الخناقون على المحرقة ؟ إذن هو ينقذني دون شك ولا خوف علي ان يقتلني تيميلون إذ كان هذا قصده لفعل ، وقد يكون مراده أن يميتني جوعاً ، لكني أستطيع الصبر على الجوع أربعة أيام ولا بد لروكامبول أن يهتدي إلى سجني في خلال هذه المدة فإنه يبحث عني الآن دون شك لأنه لم يجدني في منزل السير نيفلي .

وكانت قد الفت تلك الظلمات المكتنفة بها وتلك الجراذين التي كانت تجول بين قدميها ، ولم تكن تعلم المسكينة كم مضى عليها من الزمان في تلك البئر ، لأن الظلام كان سائداً فيها ، ولا ينفذ اليها نور النهار

وفيما هي على ذلك سمعت عن بعد أصواتاً ووقع أقدام ، ورأت أشعة من النور تنفذ إلى سجنها من خلال الباب ، وجاشت نفسها بالأمل وقالت . ألا يمكن أن يكون روكامبول قادماً لانقاذي ؟ ولكن ساء فألها لسوء حظها ، لأن الباب انفتح ورأت باتير داخلاً تصحبه شيفيوت فقالت في نفسها : لقد دنت الساعة ، وما هما قادمان إلا لقتلي ، فعولت على الدفاع بأسنانها لأنها كانت موثوقة اليدين والرجلين .

إلا أن باتير طمأنها بقوله : إننا قادمان بطعام العشاء لسيدتي الدوقة .

وقالت شيفيوت تباً لك من شقية ، لقد أكرهوني على أن أحضر لك العشاء وأنا لا أريد إلا أن أمتص دم عروقك.

وأجابتها فاندا بنظرة احتقار وأخرج باتير مسدساً من جيبه وقال لشيفيوت : إنك تعلمين أوامر الرئيس ولا تضطريني إلى تنفيذها فيك أو أقتلك لا محالة .

وعضت شيفيوت شفتها من القهر وقالت : حسناً .. سأصبر

أما فاندا فإنها استنتجت من ذلك ان تيميلون لم يحكم بموتها بعد وبالتالي

فهي تستطيع أن تأكل آمنة من أن يكون الطعام مسموماً .

وبينما كان باتير يحل وثاق يديها كانت شيفيوت تخرج الأكل من السلة وتضعه أمام المصباح الذي جاءت به ، وكانت الجرذان تهرب متبددة حين رأت اشعة النور ، وشيفيوت تتهكم على فاندا وتشتمها بأقبح الألفاظ .

وكان هذا الطعام مؤلفاً من خبز وجبن ودهن خنزير ونصف زجاجـة من النبيذ وجعلت تأكل بشهية وهي غير مكترثة بما تسمعه من الشتائم وتمكنت من أن تأخذ قطعة من الدهن وتجلس عليها .

ولما انتهت من طعامها أوثق باتير يديها وذهب مع شيفيوب وأقفلا الباب وانصرفا ، فعادت الظلمات إلى ما كانت عليه .

غير ان فاندا بينما كانت تأكل والنور أمامهـــا كانت تتظاهر بالاشمئزاز من شتائم شيفيوت وتنظر الى جدران البئر نظر الفاحص فرأت ان جدرانه كثيرة الثقوب والحفر ورأت في أعلى احد الجدران ثقباً يشبه عش الطيور فخطر لها في الحال خاطر الفرار .

وكان باتير قد اوثقها وأبقاها على ظهرهـا فوق الارض غير ان يديها كانتـا مقيدتين وبقيت أصابعها مطلقة دون قيد فجعلت تبحث بأصابعهـا في الارض عن قطعة الدهن التي اقتصدتها من الطعام حتى عثرت بها وجعلت تمسح بهاوثاق يديها حتى إذابتها كلها فوق الوثاق

وعند ذلك انقلبت على بطنها بحيث أصبحت يداهـا بارزتين لأنها كانتـا مشدودتين وراء ظهرها .

وكان النور قد زال وانقطعت الاصوات فعادت الجرذان الى الطواف حول فاندا ولكنها لم تنتهرها في هذه المرة بغية ارهابها وابعادها بل انها سكتت ولم تتحرك كأنها اصبحت تأنس بالجرذان .

وشم الجرذان رائحة الدهن فأقبلت تلتمسه فوق وثاق يدي فاندا فتلحس الوثاق ثم تطلب المزيد فتقرضه بأسنانها الحادة كل ذلك وفاندا صابرة لا تتحرك

والجرذان تلعب فوق ظهرها وتتلهى بقرض الوثاق لما رأت عليه من الدهن
فلما أحست ان الجرذان قد اكلت كثيراً من الوثاق حتى ضعف تحركت حركة عنيفة فتفرق الجرذان من حولها ثم شدت الوثاق فقطعته وصارت مطلقة اليدين وعند ذلك حلت بيديها وثاق رجليها وأصبحت قادرة على استعمال أعضائها وسحق الجرذان برجليها ولكنها لم تزل أسيرة بسجنها المظلم .

وفيما هي مستندة الى الجدار تعمل الفكرة في طريقة النجاة شعرت ان الجرذان تتراكض وعلمت من صياحها انها منذعرة كأنما فاجأها عدو ولم تكن تتوقع مفاجأته فرفعت عينيها في احدى زوايا البئر فرأت نقطتين تنيران كالقبس فقالت في نفسها لا شك انهما عينا هرة وان الله ارسلها لي معيناً على هذه الجرذان

ولم يطل وقوف هذه الهرة فان فاندا رأتها وثبت وتلا وثوبها صيحة الجرذان فدنت فاندا من الهرة وانتهرتها فهربت وتسلقت مقدار متر من الجدار ثم وقفت والتفتت فرأت فاندا بريق عينيها وعرفت الطريق التي سارت فيها فتقدمت فاندا أيضاً فصعدت ووقفت في مركز أعلى فمدت فاندا يديها ومشت الى الجدار الذي تسلقته الهرة حتى وصلت اليه .

وكانت جدران البئر كثيرة الثقوب وقد عرفت فاندا ذلك حين كان باتير في البئر فانها رأت الحفر على ضوء مصباحه .
وقد كانت رأت أيضاً شبه كوة في مرتفع الجدار فقالت في نفسها لاشك ان هذه الكوة منفذ الى الخارج خفي عن تيملون وإلا لما نفذت الهرة الى هذا المكان فرجح لديها أمل الفرار فأخذت تتسلق الجدار بصبر عجيب فتبحث بيديها عن الثقوب فاذا ظفرت بها تعلقت بها ثم جعلت تبحث برجليها عن ثقوب اخرى ترتكز عليها فاذا صعدت واستقرت ترتاح قليلاً ثم تعود قليلاً الى البحث عن ثقوب أعلى فتتسلقها وتنشب فيها يديها ورجليها .
كل ذلك والهرة تختفي وتغيب فترشدها ببرق عينيها الى الطريق .

ولبثت على ذلك نحو ساعة وهي معرضة للسقوط في كل حين حتى أوشكت أن تبلغ الى آخر الجدار واختفى عنها أثر المنفذ ولكنها شعرت بأنفاس حامية تهب فوق شعرها فعلمت انها انفاس الهرة فزجرتها فهربت وولجت من المنفذ فاهتدت فاندا اليه ولم يكن غير هنيهة حتى نشبت يديها بأطرافه وأمنت السقوط .

وكانت هذه الكوة كبيرة يستطيع الانسان ان يمر بها وهي منفذ دهليز طويل لا يزيد ارتفاعه عن متر فدخلت فاندا اليه وعللت نفسها بقريب النجاة فجعلت تزحف على بطنها فيه زحف الافاعي فلم يطل زحفها حتى رأت نوراً خفيفاً يتجلى لها فعلمت انه نور النهار .

وكان الدهليز كثير التعاريج فجعلت فاندا تزحف على بطنها حتى رأت عن بعد عشرة أقدام ذلك المنفذ الذي يخرج منه النور ففرحت فرحاً لا يوصف ولم يعد لديها شك بالنجاة لا سيما وقد رأت ان الدهليز يرتفع سطحه ويتسع كلما دنت من المنفذ بحيث لم تعد في حاجة الى الزحف وبلغت ذلك الثقب الذي يخرج منه النور ورأت انه يشرف على بئر أخرى لا سطح لها لأنها رأت النور يتدفق فيه من جميع الجهات .

غير ان هذا الثقب كان ضيقاً جداً يستحيل على الانسان أن يمر منه مهما كان نحيلاً ففحصته فاندا وصاحت صيحة يأس لأنها رأت ان المنفذ من صنع الطبيعة لا من صنع الانسان وهو في صخر أصم لا يفيد في توسيعه غير الآلات ومن أين تجدها في سجنها الضيق .

ولكنها جعلت تنظر من هذا الثقب الى البئر المشرف عليها فرأت في أرضها كثير من الرمال ومصطلي للنار وبعض أخشاب متفرقة وأباريق مكسرة فاستدلت من ذلك أن بعض اللصوص يلجأون الى هذه البئر ويبيتون فيها فقالت في نفسها : انهم قد يحضرون فأطمعهم بالمال فينقذونني وعند ذلك عاد اليها الرجاء بالنجاة .

ولبثت على ذلك عدة ساعات تستنشق هواء نقياً وهي آمنة من الجرذان ثم رأت ان النور جعل يضعف بالتدريج فعلمت ان النهار قد انقضي وبعد حين أقبل الليل وساد الظلام .

وقد خطر لفاندا أن ترجع على أعقابها وتعود الى البئر التي وضعت فيها حذراً من ان يعود تيملون ورجاله فيفطنون اليها ولكنها سمعت عند ذلك حركة في البئر التي يشرف عليها المنفذ فعلمت انها وقع اقدام ثم رأت شبحاً أسود وسمعت صوت امرأة تقول . حبذا لو كان باقياً أثر للنار فان البرد يقتلني .

ثم رأتها تبحث في الرماد علها تجد ناراً مخبوءة فرأت بقية من نار فنفخت فيها ووضعت فوقها الاخشاب فرأت فاندا على لهيب النار وجه تلك المرأة وتنهدت تنهد المنفرج بعد اليأس .

- ٢٩ -

والنعد الآن الى تيملون فلقد تركناه أمام السير نيفلي وهو لا يزال غائباً عن الصواب وكان ميلون أمر باتير ان يبحث له عن امرأة تدعى فيلبيت ويرسلها اليه وان يعود هو نفسه اليه في الليلة القادمة .

كان ميلون قد وضع السير نيفلي في غرفة داخلية بعيدة عن السلم بحيث لو استيقظ وصرخ لما يتولاه من الاندهاش لا يصل صوته الى الخارج ويستطيع ميلون أن يظهر له كل شيء فاضطر لهذا السبب أن يبقى في المنزل الى ان يستفيق إذ لو صحا ووجد نفسه منفرداً وفي الحالة التي كان عليها فلا بد له من الضجر والخروج من المنزل فينفضح الأمر .

وقد فات ميلون لانهماكه بالسير نيفلي أن يأمر باتير بارسال الطعام الى فاندا وجلس بالقرب من الانكليزي يراقبه ويتوقع صحوه من حين الى حين .

أما فيليبيت التي كان ينتظر قدومهـا ، فقد كانت في بـدء أمرها من بنـات الهوى ، فلما دالت دولة جمـالها ، وانقطعت أسباب رزقهـا ، جعلت ترتزق من السرقـة وقد خدمت تيميلون باخـلاص في كثير من الأغراض .

وفي الساعة العاشرة من الصباح جاءت هذه المرأة الى تيميلون ، فأدخلها الى المنزل وأقفـل بابه ، ودار بينهما الحديث الآتي ، فقال تيميلون : ماذا تصنعين ؟

– لا أزال أعمل بالمهنة التي تعرفها ، غير ان البوليس منتشر في كل مكان وقد ضيق علينا سبل الارتزاق .

– أين تبيتين في الليل ؟

– كنت أبيت في الأسبوع الماضي في الشارع الأميركي .

– والآن ؟

– اضطررت الى المبيت في بئر في ضواحي هذا الشارع لكثرة ما لقيته من مطاردة الجنود ، وهذه البئر لم يحضر اليها أحد بعد واني أبيت فيها منذ ثلاثة أيام وحدي .

فأخذ تيميلون ورقة كبيرة بيضاء ورسم عليها طريق جميع الآبار التي يعرفها وقال لها : أنظري في هذه الخريطـة ، ودليني على مكان البئر التي تبيتين فيها .

فنظرت اليها نظراً مدققاً وأرشدته الى المكان فانذهل لانه علم انها تنام في بئر مجاورة للبئر التي سجن فيها فاندا وقال لها : ألم تجدي في أسفل هذه البئر ثقباً صغيراً تحت صخر أصم ؟

– لم ألاحظه .

– ولكنك بت فـيه ثلاث ليال كما تقولـين ، ألم تسمعي صوت امرأة تستغيث ؟

– كلا ومن اين تأتي الاستغاثة ؟
– من جوف الأرض !
– لم أسمع شيئاً وفوق ذلك إني أنام سكرى لا أعي على شيء .
– ولكن إن أردت ان نتفق على عمل ، أول ما أشترطه عليك أن لا تسكري .
– أتريد أن أمتنع عن الشرب مدة طويلة ؟
– يومين فقط .
فتنهدت وقالت : كيف أطيق الصبر يومين ؟
– متى علمت انك ستكسبين ۲۰۰ فرنك .
– إذا كان ما تقول إني أرضى ولا أشرب غير الماء . قل ماذا تريد أن أصنع ؟
عاد تيميلون الى الخريطة ودلها على المكان المسجونة فيه فانذا فقال لها : إنك تعلمين هذا المكان ألم تجدي هنالك سوراً او حديقة مخربة ؟
– نعم رأيتهما ودخلت الى الحديقة أيضاً .
– ألم تجدي بها بئراً مغطاة بالأغصان والحجارة ؟
– نعم نعم ويخال لي إني أراها من هنا .
– إذن إعلمي ان هذه البئر يوجد تحتها بئر اخرى لها باب محكم الاقفال ، ولهذه البئر كوة في أعلى جدارها تنفذ الى سرداب يتصل بالبئر التي تنامين فيها ، واذا بحثت في بئرك تجدين في أرضها ثقباً صغيراً يظهر لك منه السرداب ولكن هذا الثقب ضيق لا يمكن لجسم أكبر من جسم الهرة ان يمر منه وهو في صخر أصم بحيث لو أراد البناؤون توسيعه بالآلات لما استطاعوا ذلك إلا بشغل يومين على الأقل .
وقد سجنت في هذا البئر إمرأة لا بد ان تسمعي صوت استغاثتها .
– وإذا سمعتها تستغيث أيجب ان أسكت ؟

– كلا بل إنك تخرجين من بشرك وتذهبين الى الحديقـة فتزيلين الأدغال وتنزلين الى البئر التي حبست فيهـا المرأة ، وتجدين باباً قويـاً لا تستطيعين كسر أقفاله .

– وأية فائدة من ذهابي إلى هذا الباب ؟

– إنك تحاولين كسره ولا تستطيعين . عند ذلك تعلم تلك المرأة الموثوقـة اليدين والرجلين إنك تريدين إنقاذها فتستغيث بك وتعهد اليك قضاء مهمة في شارع سانت لازار .

– أأذهب الى حيث ترسلني ؟

– دون شك ، لكن يجب ان أراك في الساعة السابعة من صباح غد في زاوية هذا الشارع .

– أهذا كل ما تريد ؟

– نعم وبعد ان أراك تذهبين الى حيث ترسلك المرأة .

– ولكنـك أنت الذي سجنت هـذه المرأة ، فكيف تريد أن ينقذها سواك ؟

– إذهبي الآن في سبيلك وستعلمين كل شيء .

فامتثلت العجوز وذهبت فعاد تيميلون الى غرفة السير نيفلي وهو يقول : سيكون روكامبول غداً في قبضتي .

– ٣٠ –

وقد عرف القراء الآن ان هـذه المرأة لقيتهـا فانـدا في البئر لم تكن إلا فيليبيت .

وكانت هذه العجوز قد حافظت على عهدها مع تيميلون فلم تشرب قدحاً

مدة النهار بطوله ، فلما عادت الى البئر كانت صاحية ، وقد ذهبت في البدء الى البئر التي دخلت منه فاندا، فوقفت عند بابه مدة طويلة فلم تسمع صياحاً ولا استغاثة .

فعادت الى بئرها وجعلت تنفخ النار كما تقدم في حين ان فاندا كانت في الدهليز أمام الثقب المشرف على البئر .

وكانت فاندا تنظرها وهي تنفخ النار من الثقب . ولكنها لم تتبين وجهها لضعف نور اللهب ، فبعد ان ترددت هنيهة عزمت على الركون اليها والاستغاثة بها فبدأت بالسعال كي تسترعي سمع العجوز ، فسمعت العجوز سعالها وتظاهرت بالانذهال العظيم وقالت : من عسى يوجد في هذا المكان ؟

وأجابتها فاندا من الثقب وقالت : يوجد إمرأة تعيسة تكاد تموت من الجوع .

فأخذت العجوز قطعة ملتهبة من الخشب وأدنتها من الثقب ورأت وجه فاندا وقالت لها : من أنت وكيف وصلت الى هنا ؟

— إني أسيرة في هذه البئر وقد برح بي الجوع .

وقد أدركت فيليبيت في الحال انها أسيرة تيميلون ، وانها تمكنت من حل وثاقها والبلوغ الى الدهليز . ولكنها تظاهرت بالانذهال وقالت لها : كيف تمكنت من الدخول الى هذا الدهليز وهذا الثقب ضيق لا يمكن أن يمر به إنسان ؟

- إنني لم أسجن بهذا الدهليز ، بل في بئر تتصل به . وإن في هذه البئر كثيراً من الجرذان فقضمت وثاق يدي ، وفككت بعد ذلك وثاق رجلي . وبعد البحث الطويل رأيت منفذا بلغت منه الى هذا المكان ، وكنت أرجو أن أستطيع النجاة ، ولكن الثقب ضيق ولا سبيل الى الخروج منه .

– ومن الذي سجنك ؟

– رجل يكرهني ويريد ان يميتني جوعاً .

فأخذت العجوز قطعة خبز من جيبها وقالت : خذي وكلي فإنك لا تموتين جوعاً بعد ان اهتديت اليك . لكن ألا يوجد طريقة لإنقاذك ؟

– إنك عجوز لاتستطيعين كسر باب البئر التي سجنت فيها لكنك تستطيعين ان تدعي لي الرجل الذي يهواني .

– ألك عشيق ؟

– نعم وهو من كبار الأغنياء وسيهبك مالاً يكفيك الى آخر العمر .

فارتعشت فيليبيت كأنما خطر لها ان تخون تيميلون ، وكانت فاندا لا تزال بالملابس التي كانت عليها حين اختطفها تيميلون ولم يكن قد خطر لهم تفتيشها فأخذت كيساً من جيبها وهزته فسمعت العجوز رنين ما فيه من الذهب ومدت يدها اليها ، فقالت لها فاندا : إصغي إلي إني لست متسولة واني كثيرة المال وكذلك عشيقي ، لأنه من أصحاب الملايين . وإذا وصلت اليه وأخبرته بأمري وأنقذني أعطاك مائتي جنيه ، عدا ما أمنحه إياك أنا من الهبات .

فاضطربت العجوز اضطرباً شديدا وذكرت ان تيميلون لم يعدها إلا بخمسة عشر ديناراً ، في حين ان هذه المرأة تعدها بثروة عظيمة ، فقالت لها : قولي يا سيدتي اين هو عشيقك هذا ، لأنك تريدين ان أذهب اليه دون شك ؟

– نعم ، وهو يقيم في شارع سانت لازار نمرة ٥٢ ، واسمه الماجور أفاتار .

– إنه اسم غريب أخاف ان أنساه وأنسى اسم الشارع والنمرة .

فأخذت فاندا ورقة من دفتر كان بجيبها وكتبت عليه باللغة الروسية بضعة أسطر وباللغة الفرنسية اسم الماجور افاتار ونمرة الشارع ثم أعطتها الورقة وقالت

لها : أسرعي اليه وإذا لم تجديه في المنزل تجدين رجلا ضخماً وهو خادم المنزل وهو يرشدك الى الماجور أفاتار .

– سأفعل ما تريدين وها انا ذاهبة في الحال ولكن ألا تعطيني واحداً من هذه الدنانير ؟

– كلا إنك اذا كان لديك دينار فلا تمرين بخمارة حتى تدخلي اليها وتسكري قبل الوصول اليه ولكنك ستكونين راضية أتم الرضى بعد عودتك والآن قولي اين نحن من ساعات الليل ؟

– في الساعة ١١ .

فسرت فاندا لأنهم لم يحضروا لها الطعام وقالت : لا شك انهم لايحضرونه قبل الصباح لأنهم لو حضروا ولم يروها بحثوا عنها فوجدوها في الدهليز . فلما ذهبت العجوز أقامت فاندا ترجو وتنتظر .

أما العجوز فإنها لما صارت خارج البئر تنبهت لما هي فيه وتنازعها عاملان عامل الاخلاص لتيميلون وعامل الطمع بالمال ، لأن تيميلون وعدها ان يعطيها خمسة عشر ديناراً لكن فانـدا وعدتها بمائتين . فعزمت في البدء على خيانة تيميلون ، لكنها ذكرت ان هذا الداهية كان يخدم البوليس فقالت في نفسه : إني إذا خنته من أجل المال قبض علي وسلبني ما كسبته وعدت بالخسران .

وفيما هي واقفة هذا الموقف من التردد رأت رجلا يدنو منها ثم سمعت هذا الرجل يناديها باسمها فعلمت انه صوت تيميلون وقالت له : كيف أتيت الى هذا العلك خشيت ان أخونك ؟

كلا ، ولكن حدث لي ما لم يكن في الحسبان ، بحيث تمكنت من مبارحة المنزل ، وأتيت أتجسس في هذا المـكان والآن هل سمعت صراخها ؟

– بل سمعت ما هو خير من ذلك لأنها كلمتني ورأيتها .

فاضطرب وقال . هذا محال لأنك لا تستطيعين المرور من الثقب
- هو ما تقول ولكنهاهي تمكنت من الوصول الى الثقب لان الجرذان قرضت وثاقها فتسلقت الجدار الى الدهليز ووصلت منه الى الثقب ووعدتني باعطائي مائتي دينار اذا أنقذتها .

فغير تيميلون خطته في الحال وقال : حسناً سنقتسم هذا المال .
- كيف ذلك ؟
- ذلك لأني لم أقبض أجرة سجنها غير ٤٠ ديناراً .

فظنت العجوز انها أدركت قصده وقالت له : إذن أذهب الى الرجل الذي أرسلتني اليه في شارع لازار نمرة ٥٢ لانها أعطتني رسالة اليه ؟
- دون شك .
ثم أخذ منها الرسالة وجعل يقرأها على نور سيكارة كان يدخنها .

- ٣١ -

وقد عرف القراء ان تيميلون كان متقيداً بالبقاء أمام السير نيفلي ، إذ كان يخشى ان يستفيق فجأة ويفتضح أمره . أما السبب في وجوده عند بئر العجوز ، فهو ان السير نيفلي قد استفاق قبل ان يلتقي تيميلون بالعجوز بساعتين .

وكان تيميلون قد أقام طول النهار قرب السير نيفلي وهو يفتح النوافذ من حين الى حين وينظر الى السير نيفلي فيجده جثة باردة ، ويذكر ان انطوانيت لم تستفق إلا بعد ٣ أيام ولا بد إذن للسير نيفلي ان يبقى على هذه الحالة يوماً وليلة أيضاً .

غير انه كان يقول : إن الامزجة تختلف وإن بنية الرجال أشد من بنية

النساء فقد يصحو قبل هذه المدة .

وقد صحت ظنونه فـــإنه بينما كان يفتكر بهذه الامور سمع فجأة تنهداً ضعيفاً خرج من صدر السير نيفلي ، فارتعش تيميلون وأسرع اليه فوجد ان شفتيه قد فتحتا بعد انطباقها ، ووضع يده فوق قلبه فشعر ان النبض عاد اليه وعادت الحياة .

وعند ذلك أخذ قدحاً ووضع فيه خلا وغمس بأطراف منديله وجعل يدلك صدغيه ثم شفتيه ثم عينيه وكان في خلال ذلك قد خلع تنكره وعاد الى الهيئة التي عرفه بها السير نيفلي في منزله

ولم يطل ذلكه حتى فتح السير نيفلي عينيه ثم ابتسم وقال له كنت أعرف من أنت إذ عرفتك من صوتك .

فتراجع تيميلون مندهلاً وقال : كيف ذلك ؟

– ذلك اني حين شربت ذلك المخدر فقدت كل صوابي ما خلا حاسة السمع فعلمت كل شيء وسمعت حديث فاندا مع روكامبول وحديث روكامبول مع ميلون في المركبة التي نقلوني اليها وعرفت ايضاً اسم الشارع الذي نحن فيه وهو فيرابو وان جيبسي تقيم في هذا المنزل مع فتى يدعى مرميس ثم علمت أيضاً انهم وضعوني في بئر وأنت الذي أنقذتني منها .

والآن لنتحدث إذ عرفت إني عالم بكل شيء لقد علمت من حديثك مع إمرأة تدعى فيليبيت ان فاندا في قبضتك .

فقال تيميلون نعم .

– ماذا عزمت ان تصنع بها ؟

– أن أستخدمها شركاً لقنص روكامبول ثم أقتل الاثنين .

– متى ؟

– كنت أنتظر لتنفيذ ذلك ان تستفيق

– لماذا العلك محتاج إلي ؟

- كلا ..

فابتسم السير جمس وقال : إذن تريد أن تعرض علي شروطك .

فقال له تيميلون : لقد قلت لك أيها الميلورد منذ يومين ان خير جزاء لي هو قتل روكامبول ، ومع ذلك اني فقير وقد صرت شيخاً فإذا أردت أن تساعدني بشيء من المال ، يقيني شر العوز في شيخوختي ، أكون لك من الشاكرين .

- كم تريد ؟

- مائة الف فرنك ..

- سأعطيك هذا المال أهذا كل ما تريد ؟

- وتعطي أيضاً الذين خدموك قدر ما تريد ..

- ليعينوا أيضاً المبلغ الذي يريدونه فلا أبخل عليهم بشيء ، أبقي شيء بعد ؟

- كلا ، سوى أمر واحد وهو انيّ أنبهك ان هذا المنزل غاص بأعدائنا ويجب الحذر الشديد ، أما الآن وقد صحوت فقد وجب أن أبدأ بالعمل .

- إفعل ما تشاء .

وعند ذلك سمع صفيراً من الشارع فقال تيميلون : هوذا باتير قد حضر .

وقال له السير جمس : أهو الرجـل الذي واعدته على المقابلة في هذا المساء ؟

- نعم ..

- إذن أوضح لي أمراً لا يزال خافياً علي ..

- قل ما تريد يا سيدي .

- لماذا أمرت هذا الرجل أن يشتري برميلاً من البارود ؟

فأجابه ببرود : كي أنسف به فاندا وروكامبول ..

ثم عاد إلى التفكير وقال له : يجب الآن أن أذهب للقاء باتير .

– إفعل ما تشاء فإن من كانت له مهارتك لا يتعارض فيما يريد .

٣٢ -

ولنعد الآن إلى روكامبول ، لقد غادرناه حـائراً مضطرباً في منزل السير جمس حين علم من الخدم أن فاندا غير موجودة فيه ، وقد أجابه الخدم كلهم جواباً راحداً وهو انهم خرجوا من المنزل بالاجازة ولما عادوا اليه عند الفجر لم يجدوا السيد ولا السيدة .

فقال لهم روكامبول عند ذلك : إني صديق حميم للسير جمس نيفلي ، وأنا قلق مثلكم لاختفائه ، وإذا كان لا بد لي من إيجاده وإيجاد السيدة التي كانت معه يجب أن تطيعوني ، ثم اني مرتاب ريبة شديدة وينبغي لاكتشاف الحقيقـة ان لا يعلم أحد من سكان الشارع بشيء مما حدث

ووعده الخدم بالامتثال له وبالكتمان فدخل روكامبول إلى القاعة وأقام ينتظر .

وبعد ربع ساعة جاء ميلون فقال له روكامبول : كنا نحسب ان الفوز لنا فإذا نحن مغلوبون .

وحملق ميلون بعينيه وقال : لا أفهم ما تعني .

– أين فاندا ؟

– يجب أن تكون هنا

– إنهم لم يروها في المنزل منذ الليلة الماضية ، ولا حاجة إلى القول انهم اختطفوها .

– من الذي اختطفها ؟

ـ هذا ما يجب أن نبحث عنه فاتبعني .

ثم مشى أمامه يتبعه ميلون الى غرفة فاندا ، وهي الغرفة التي تخدر فيها السير جمس ، ففحص أرض الغرفة وقال له : أنظر ألا تجد فيها أثر العراك والنعال الموحلة

ـ نعم ..

ـ إنهم اختطفوها دون شك ، وقد رأيت هذه الأقـــدام عند الباب الخارجي ، وأثر مركبة ذات أربع عجلات ولا بد أن يكونوا استخدموها لنقل فاندا .

-- إذا لم يكن الانكليزي الذي اختطفها فمن تراه يكون ؟

ـ أخشى أن يكون ذلك من صنع رجاله ، وقد أنفـذوا خطة كانت مقررة من قبل .

فقال ميلون إن ذلك بعيد ايضاً ، لأنه إذا كان الانكليزي أمر رجاله من قبل كما تقول فلماذا لم يصبر على تنفيذ أمره وحاول قتلها ؟

فاقتنع روكامبول من كلام ميلون ولكنه قال : لا بـد أن يكون الذين دخلوا إلى هذا المنزل على اتفاق مع السير جمس وإلا كيف تمكنوا من الدخول؟

ـ إني لا أرى ما تراه لأنهم إذا كانوا على اتفاق معه كان يجب أن يفتح لهم الباب بنفسه إذ لم يكن أحد من الخدم في المنزل وإذا كان ذلك ، لماذا لم يقبلوا لنجدته حين اختطفناه ؟

ـ لقد أصبت أيضاً فمن تظنه اختطفها ؟

ـ أظنه ذلك الرجل الالماني الذي تدعونه الماجور هوف

ففكر روكامبول هنيهة ثم قال : إذا صح ظنك فإن هذا الرجل لم يفعـل وحده ما فعل ، ولا بد أن يكون لميلادي دخل بهـذا الشأن ، وستحضر ميلادي لأنها واعدت السير نيفلي على الاجتماع في هذا المنزل .

وفيما هو يقول ذلك سمع صوت جرس الباب الخارجي فأطل من النافذة

المشرفة على الحديقة ، ورأى إمرأة نزلت من مركبة ودخلت وهي مبرقعة ببرقع كثيف فعلم روكامبول لفوره انها ميلادي وأسرع الى مناداة إحد الخدم وقال له : ادخل بهذه المرأة إلى القاعة وسلها ان تنتظر .

فامتثل الخادم وانصرف ..

أما ميلادي فقد كانت واثقة ان الذي يستقبلها هو السير جمس نيفلي نائب زوجها علي رجاه الهائل ودخلت دون حذر ولم تكد تجلس في القاعة حتى دخل روكامبول .

واندهلت ميلادي حين رأته لأنها ذكرت في الحال انه ذلك الرجل الذي قال انه صديق لوسيان وأوصلها إلى منزل خطيبته وقالت له : كيف اتفق وجودك هنا يا سيدي الملك تعرف السير جمس ؟

— انه عهد الي يا سيدتي ان استقبلك .

فاضطربت ميلادي اضطراباً شديداً ولكنها اخفت اضطرابها وقالت : تريد أن تقول يا سيدي ان السير جمس اصطر إلى الذهاب لبعض الشؤون فعهد اليك ان تدعوني إلى الانتظار ؟

— كلا يا سيدتي فإن السير جمس سافر في هدا الصباح إلى لندرا .

— إذاً لم يبق لي إلا الرجوع من حيث أتيت .

— لا حاجة إلى رجوعك يا سيدتي فإن لي سلطة السير جمس بل لي سلطة علي رجاه أيضاً .

فاندهلت ميلادي اندهالاً شديداً وقالت : ماذا تقول ؟

— لا يجب أن تنذهلي يا سيدتي فإن لرئيس الخناقين في الهند كثيراً من النواب في اوربا ..

— ماذا تدعى يا سيدي ؟

- الماجور افاتار وسأذكر لك بأتم الايجاز ، ما تعلمين منه اني واقف على كل اسرارك فإن علي رجاه والد ابنك وانك اشتركت معه بقتل ابيك وبينك

وبينه أسرار كثيرة تقضي عليك بطاعته .

فأيقنت ميلادي انه حقيقة نائب علي رجاه وقالت له: بماذا يأمر الرئيس؟

– سأطلعك على اوامره بعد ثلاثة أيام وقد اذنوا لك امس برؤية ابنك فهل رأيته ؟

– نعم ..

– إذن بعد ثلاثة أيام في مثل هذه الساعة تريني عند ابنك فتعلمين ما يريد علي رجاه .

ونهضت ميلادي تحاول الانصراف فودعها روكامبول بملء الاحترام حتى إذا وصلت إلى الباب قال لها : كلمة ايضاً يا سيدتي .

– ما هي ؟

– لا يوجد في باريس من يعرف شيئاً من علائقي مع الخناقين فإذا أردت السلامة لولدك فاحذري ان يعلم باجتماعنا احد .

– لا حاجة إلى توصيتي وسأكتمها كل الكتمان عن ولدي .

– لا اريد كتمانها عن ولدك فقط بل عن فرانز ايضاً .

فاحمر وجه ميلادي وقالت : اتعرف هذا السر ايضاً ؟

– اني أعرف كل شيء فاحذري .

ثم أعانها على الصعود إلى المركبة وعادت إلى الفندق .

وعاد روكامبول إلى ميلون وقال له : إن هذه المرأة كانت تحسب انها تجد السير جمس ولا تعلم شيئاً من أمر فاندا .

فقال ميلون : إذاً لا دخل لها في اختطافها .

– اني واثق كل الثقة ..

ثم وضع رأسه بين يديه وجعل يفتكر .

وقال ميلون . اصغ الي يا حضرة الرئيس ، إن فاسيليكا قد ماتت والسير نيفلي في قبضة يدنا ، وإذا كانت فاندا قد اختطفت فما اختطفها إلا تيميلون .

فاضطرب روكامبول اضطراباً شديداً وقال : ويحك ما هذا الاسم الذي ذكرته وكيف خطر لك هذا الخاطر ؟

- ذلك لأن تيميلون الد عدو لك .

- هو ما تقول ولكنه غير موجود في فرنسا .

- من يعلم ؟

- وهب، انه الآن في فرنسا فكيف اهتدى إلى فاندا ؟

- ألم تقل لك فاندا ان السير نيفلي يحاول قتلها ؟

- نعم ..

- إذاً من الذي انبأه بخيانة فاندا حتى اراد قتلها وقد كان مفتوناً بها ؟

واتقدت عينا روكامبول ببارق هائل من الغضب وقال : الويل له إذا كان قد تصدى لي

وهز ميلون رأسه وقال :اظن يا حضرة الرئيس‌ان تيميلون لم يعد يخشاك.

- لماذا ؟

- لأنه لم يعد لديه ما يخافه بعد موت ابنته .

ورجع روكامبول خطوة إلى الوراء وقال : انت واثق مما تقول ؟

- نعم وقد علمت ذلك حين كنا في لندرا .

وعاد روكامبول إلى التفكير إلى ان قال له ميلون : ارى يا سيدي انه إذا كان تيميلون قد اختطفها فلا يجب ان نضيع الوقت بالتفكير فقد يخشى ان يقتلها .

وجعل العرق البارد ينصب من جبين روكامبول دون ان يجيب فقال له ميلون يجب ان نخرج من هذا البيت كي نبحث عن تيميلون

- كلا يجب ان تبقى انت هنا فإنه إذا كان تيميلون‌قد اختطفها فهو حليف السير نيفلي دون شك، ولديه مفتاح المنزل وهو غير عالم باختطاف السير نيفلي فاذا كان ذلك فلا بد له من العودة إلى هذا المنزل ليراه .

– أصبت يا سيدي وسأبقى هنا ، وأنت ماذا تصنع ؟
– إني ذاهب للبحث عن فاندا .



مهما يكون البوليس حاذقاً فانه يضل سعياً حين بحثه عن مجرم لم يهتد إلى أثر من اثاره .

وكان روكامبول أمهر من أحذق بوليس في العالم كما دلت عليه اعماله إلا انه في هذه المرة خفي عنه كل أثر ، فان ميلون نبهه إلى تيميليون غير أن مداخلة هذا الرجل لم تكن أمراً اكيداً ، ولا ريب ان فاندا قد اختطفت ولكن لم يقم دليل لروكامبول ان الذي اختطفها هو تيميليون فرأى روكامبول ان يبدأ بالبحث عن فاندا .

فخرج من المنزل وكان اول ما رآه أثر دواليب المركبة التي عاد فيها تيمليون فرأى انها قد دارت قبل مسيرها فعلم انها سارت في جهة الشانزليزه

فلقي حمالاً كان يرود في ذلك الشارع فسأله ، أخبره الحمال انه شاهد بعد نصف ساعة من منتصف ليلة امس مركبة مرت بقربه وسمع رجل يقـــول لسائقها : سر بنا إلى رومانفيل من الشارع الخارجي ولم ينظر الحمال الى داخل المركبة فلم يعلم من فيها .

فلم يستفد روكامبول شيئاً مما سمعه لأن هذه المعلومات كانت مبهمة فسار في سبيله ولكنه لم يبتعد قليلاً حتى ناداه الحمال وقال له : ان مصابيح المركبـة كانت حمراء و كان أحد الجوادين ابيض اللون والآخر اسود .

وهذان اللونان كثيرا الشيوع بين جياد المركبات غير ان روكامبول قال في نفسه : لا بد ان يكون قد استأجروا المركبة من هنا فلنرى .

وسار روكامبول الى اقرب اسطبل فرأى تلك المركبة التي وصفها الحمال واقفة عند بابه وعلى دواليبها أثر وحول حمراء وبيضاء وهذه الوحول لا توجد

عادة في شوارع باريس ، فلا بد ان تكون هذه المركبة سارت الى الضواحي ومرت قبل ذلك بتلك السواقي التي تنحدر فيها مياه المعامل القذرة .

ففتح روكامبول باب المركبـــة ودخل اليها وقال للسائق : اني استأجر مركبتك بالساعة .

— إلى أين يريد سيدي ان أسير به ؟

— فنظر اليه روكامبول تلك النظرات الجافة الخاصة برجال البوليس وقال: إلى ادارة البوليس . فأظهر السائق حركة اشمئزاز تنبه لها روكامبول وسار بمركبته بالكره عنه .

فلما وصلت إلى الشانزليزه اوقف روكامبول السائق وقال له : اننا ذاهبان إلى دائرة البوليس ولكن لا نصل اليها بوقت قريب كما تظن .

فانذهل السائق وقال : لماذا ؟

— لأنه يجدر بنا ان نذْهب توأ الى رومانفيل .

فلم يكد روكامبول يتم جملته حتى بدت دلائل الذعر على وجه السائق فقال روكامبول : يسرني انك فهمت قصدي كما أرى من اضطرابك فقف قليلاً ، ثم خرج من المركبة وصعد الى جنب السائق وجلس بقربه وقال له سر الآن فاني أحب ان احادثك في بعض الشؤون .

- ٣٣ -

إذا كان يوجد فئة بين الناس تخاف البوليس خوفاً اكيداً فهي فئة الحوذيين ولعل ذلك لكثرة ما ترتكب من الهفوات ولشدة غلطتهم في معاملة من يركبون مركباتهم ولذلك حسب السائق ان روكامبول من كبار رجال البوليس السري فهلع قلبه خوفاً ولكنه أخفى اضطرابه قدر امكانه وحاول أن يتظاهر بالجسارة

توهماً منه ان ذلك يدفع عنه المظنة فقال له : ماذا تريد ان تحدثني به وما هذا السلوك الغريب ، وإلى اين تريد ان تسير ؟

ونظر اليه روكامبول نظرة هادئة وقال له : لا تحاول الانكار مع مثلي فإنه لا يفيدك ، وإذا سرت بك إلى دائرة البوليس فإنك تقيم في السجن إلى أن ينتهي أمرك .

وقال له السائق بلهجة الخائف : لكن الأبرياء لا يسجنون .

– بشرط أن يثبتوا براءتهم ولا أرى ذلك سهلاً عليك على اني سأقص عليك أمرك بايجاز كي لا تعود إلى الانكار ، فاعلم أنك أجرت مركبتك في الليلة الماضية .

– دون شك ، وما يمنعني عن تأجيرها ألا يجب أن أعيش ؟

– نعم ، ولكن ذلك يتعلق بالرجل الذي أجرته إياها ، فإذا كنت لا تريد أن تقول ماذا فعلت في الليلة الماضية فأنا أقول عنك إنك خرجت من شارع مارينيان .

– هذا الشارع الذي أقيم فيه .

– وانك ذهبت منه إلى رومانفيل .

فاضطرب السائق اضطراباً شديداً لم يبق لروكامبول أقل أثر للريب ، فتابع : وكان يوجد في مركبتك امرأة قيدوها ووضعوا الكمامة في فمها .

وتبدل اضطراب السائق باصفرار الوجه ، وتابع روكامبول : إن وجهك ينوب عن لسانك بالاعتراف ، فلنذهب الآن إلى رومانفيل قبل الذهاب إلى البوليس ، واحذر أن تسلك غير الطريق التي سلكتها أمس .

قال له السائق : أرى يا سيدي انك من كبار رجال البوليس وأحذقهم ولا ينطلي عليك محال .

فابتسم روكامبول قائلاً : لقد حاولوا ذلك كثيراً ولم يفلحوا .

– لكني أقسم لك يا سيدي إني لا أعرف الرجلين ولا المرأة التي

اختطفوها .

- إذاً كان يوجد رجلان ؟

- نعم ..

- وإمرأة ؟

- إنك تعلم ذلك أكثر مني .

- ربما .. لكنني أحببت أن أمتحنك لأعلم إذا كنت صادقاً ، فقـل لي الآن كيف كان هذان الرجلان ..

- أحدهما طويلاً ضخم الجثة أبيض الشعر .

- أيدعى تيميلون ؟

- هو ما تقول فاني سمعت الرجل الذي كان معه يدعوه بهذا الاسم .

- والآخر ماذا يدعى ؟

- إن إسمه غريب ، لأني سمعت المرأة تدعوه باتير وهو يدعوها شيفيوت

وجمدت عروق روكامبول من الخوف والاشفاق على فاندا وقال في نفسه : ما عسى يكون مصيرها بين هؤلاء الأشقياء الثلاثة .

وبعد صمت قليل قال للسائق : ان خلاصك موقوف على إخلاصك وإلا فالسجن يكون نصيبك لأنك اشتركت مع هؤلاء الأشقيـــاء باختطاف امرأة وربما بقتلها .

وصاح السائق صيحة رعب قائلاً : أقسم لك يا سيدي اني كنت أحسب الأمر أمر غرام .

وقد تبين لروكامبول الصدق من مخائله وقال : سر بي الآن إلى رومانفيل وهناك أنظر في أمرك .

وسار السائق في نفس الطريق التي سار بها ليلة أمس حتى وصل إلى المكان الذي وقف فيـه تلك الليلة ووقف قائلاً : هنا أوقفوني يا سيدي ، وساروا بالمرأة .

ونزل روكامبول ورأى أثر اقدامهم جميعهم فعلم ان هذه الطريق مؤدية الى الآبار وقال في نفسه : أما ان يكونوا قد قتلوها وأما ان يكونوا سجنوها في احدى تلك الآبار فاذا كان الأول فقد أتيت بعد الاوان وإذا كان الثـاني فلا فلا يزال الوقت فسيحاً لانقاذها وفي كل حال فاني لا استطيـع الدخول الى هذا الشارع بهذه الملابس فصبراً الى المساء .

ثم عاد الى المركبة وقال للسائق · عد بي الى باريس

فقال له السائق بصوت يضطرب ، الى أين تريد أن اسير بك يا سيدي ؟

قال : الى ادارة البوليس . وقد رأى روكامبول ما أصابه من الرعب فقال له : لا انكر انك اشتركت بالخيانة ولكني واثق انك اشتركت بها دون أن تعلم .

فرجا السائق بعض الخبر وقال : اقسم لك يا سيدي اني بريء .

ــ ذلك اكيد عندي ولكن قـــد نحتاج الى النظر في امرك فماذا تدعى واين تقيم ؟

ــ ادعى امبرواز جيرود واقيم في شارع نقطة الذهب نمرة ٣ .

فأخذ روكامبول دفتره من جيبه وكتب ما قاله ثم قـــال له : سر بي الى الشارع الذي لقيتك فيه وسوف نرى في امرك .

فتنهد السائق تنهد الراحة وسار بـــه الى قرب منزل السير نيفل فخرج روكامبول من العربة وقال له :انتظرني ثم دخل الى المنزل فرأى ميلون لا يزال فيه فأخبره بجميع ما اتفق له .

ــ ميلون . إذن يجب ان تذهب الى الابار في الحال .

ــ كلا ليس الان فان الاشقياء إذا كانوا قتلوا فاندا فلا فائدة من إجائتنـــا وإذا كانوا سجنوها فلا ينفع البحث عنها إلا في الظلام حيث تختلط مع اولئك اللصوص الذين يبيتون في تلك الأبار .

ــ لقد اصبت فماذا يجب ان اصنع الى المساء ؟

ـ يجب ان تبقي هنا فان تيملون لم يختطف فاندا من هـذا المنزل إلا وله مأرب فيه فلا بد له من العودة اليه .

ثم تركه وعاد الى السائق وقال له : إذهب الآن في شأنـك ولكني اشير عليك ان تدعى انك مريض فترجع المركبة الى الاصطبل وتذهب الى منزلك فتقيم فيه .

ـ السائق ببساطة : لماذا ؟

ـ لأننا قد نحتاج اليك بصفة شاهد وكان يخلق بي ان ارسلك الى السجن غير اني اشفقت عليك لاعتقادي انك بريء ثم اشير عليك بأمر آخر وهو ان الصدفة قد تجمعك بأحد اولئك اللصوص فاحذر ان تخبرهم بشيء مما جرى وأعلم انه يوجد من يراقبك .

فبكي السائق لسروره بالنجاة وانطلق داعياً لروكامبول وهـو يحبسه من كبار رجال البوليس .

- ٣٤ -

وفي المساء اجتمع ميلون وروكامبول فلبسا ملابس قديمة وتنكرا وذهبا الى الشارع الاميركي فدخلا الى احدى خمارته وطلبا كأسين من الشراب وجعلا يراقبان زبائن تلك الخمارة وهي خليط من اللصوص والمتشردين

وفيما هما على ذلك دخلت امرأة وهي تبكي وتستنجد بأولئـك اللصوص وتقول : لقد اوشك ان يقتلني هذا الخائن ولم أجد بين الرفاق من يدافـع عني فلو لم اهرب لاجهز علي .

وقال لها أحد الحاضرين : من هذا ؟

ـ هو ليون الذي كان يتفانى في غرامي ورغب عني بحب زبلى الفتاة التي

تقيم في شارع فيرابو .

وانتبه روكامبول انتباهاً عظيماً عند ذكر اسم فيرابو وعادت المرأة إلى حديثها وقالت : أتعلمون كيف أصبت بهذه الخيانة . . إن هذه الفتاة التي تدعى زبلى جاءت إلى الشارع الأميركي منذ أسبوع لأن صاحب الخمارة في شارع فيرابو طردها من منزله ، وجعلت تقص علينا القصص وتروي لنا حديث غلام يدعى مرميس .

وكان بين الحاضرين باتير ، فأراد ان يعرف أين يقيم مرميس فـأبت ان تخبره ، وحاول ضربها ، ولكن صاحب الخمارة تداخل وعرف العنوان ، ولا أعلم كيف اني اشفقت على هذه الفتاة وتوليت حمايتها وصحبتها إلى البئر التي أقيم فيه ، وفي اليوم التالي جاء ليون واخبرنا ان البوليس عازم على كبس الشارع فهربنا وأخذت زبلى ولم يمض ٣ أيام حتى ملكت قلبه فطردني وحلت هذه الفادة مكاني .

وفي هذه الليلة هاجني الحقد إلى الانتقام منها فما زلت أبحث عنهـا حتى عثرت بها في خمارة قرب بئر الشيطان ، ولكن ليون كان معها وبدلاً من أن انتقم منها انتقمت مني ، فإن هذا الخائن انهال علي بالضرب الأليم ، حتى أوشكت أن أموت ولم أجد من يحميني

ولما وصلت بحكايتها إلى هذا الحد أظهر روكامبول انه تحمس لحديثها ودنا منها قائلاً : أنا انتقم لك من هذا الرجل ، لقد راق لي جمالك .

ونظرت اليه الفتاة نظرة المنتقد وقـالت : وأنت تروق لي أيضاً لأنك جميل . .

- نعم وقوي أيضاً . .

- إذاً أحبك بشرط أن تنتقم لي من ليون .

- بل أسحقه سحقاً ولا يعود بعدها الى الخيانة .

والتف اللصوص حول روكامبول ولم يكونوا قد رأوه من قبـل وجعلوا

يسألونه من هو ومن أين اتى فأجابهم : أنا منكم وقد اتيت من اميركا (اي من السجن حسب إصطلاحهم) .

ثم نظر الى الفتاة قائلاً لها : اتريدين ان تـذهبي معي الآن للبحث عنّ هذا الرجل ؟

– اتنتقم لي منه امامي ؟

– بلا ريب ، بل انتقم لك من كل من يحاول الانتصار له .

ثم تأبط ذراعها وخرج بها وتبعهما ميلون وقال لها وهما على الطريق : اني سأنتقم لي ولك على السواء فإنك انت حاقدة على باتير .

– لا اظن انك تجده في المحل الذي نحن ذاهبون اليه ؟

– لماذا ؟

– لأنه منذ عدة أيام لم نره فيه ..

– لا بأس وسنرى .

وسارت بهما تلك الفتاة حتى بلغت الى المكان الذي وقفت فيه المركبة ، ورأى روكامبول آثار اقدام تيميلون فارتعش لاسيما حين رأى الفتاة تسير في الجهة التي سار فيها تيميلون .

وما زالوا يسيرون حتى انتهوا الى الخمارة المحيطة ببئر الشيطان ومروا عدة مرات بهذه البئر المسجونة فيها فانذا دون ان يفطنوا لها إذ لم يكن احد يعرف مدخلها .

وقد ذهبوا الى كل تلك الخمارات فلم يجدوا ليون ولا زبلي حتى اضنكهم المسير وانتهوا قرب الفجر الى خمارة فدخلوا اليها وكانت الفتاة قد مسهـا الجوع ، فجعلت تأكل وتفرط في شرب الخمر حتى دب النعاس في اجفانهـا واطبقت عيناها وقام روكامبول وتبعه ميلون ودفعـا ثمن الأكل والشرب وخرجا من تلك الخماره والمرأة نائمة فيها ، ولم تنتبه اليهما .

وعاد الاثنان الى منزل روكامبول فغيرا ملابسهما ثم ذهبا الى منزل السير

نيفلي وعلما من الخدم أنه لم يحضر أحـد إلى المنزل فعاد روكامبول إلى منزله وأرسل ميلون إلى بيت الخمارة حيث تقيم جيبسي فأخبره الخمار أن فتاة تدعى زبلى جاءت الى البيت وطلبت أن ترى مرميس وطردتها لعدم ثقي بها وعاد ميلون الى روكامبول وأخبره بما كان ، فأمره أن يعود الى الخمارة وأن ينتظر فيها عودة زبلى ، وإذا عادت وعلم منها ما تريد يرجع اليه ويخبره ، فامتثل ميلون ومضى .

وأقام روكامبول ينتظر في منزله وكان يثق ثقة تامة بذكاء فاندا ويقول في نفسه : انها إذا كانت سجينة فلا تعدم وسيلة لاخباري .

ومضى النهار ولم يعد ميلون واستدل من ذلك ان زبـــلى لم تعد الى بيت الخمار قبل الليل

ولما أوشك روكامبول أن ييأس سمع صوت مجادلة في صحن الدار وذلك ان إمرأة كانت تريد ان تدخل الى روكامبول والخادم يمنعهـــا ، فأسرع روكامبول ليعلم سبب هذا الخصام ورأى فيليبيت بملابس المتسولات تحمـل بيدها تلك الورقة التي كتبت عليها فاندا الى روكامبول تخبره انها سجينة بأمر تيميلون وتدعوه الى ان يتبـع حاملة الرسالة كي ترشده الى مكانها .

ففرح روكامبول وجعل يتأهب للسير مع فيليبيت .

٣٥

ولنعد الآن إلى تيميلون ذلك إننا تركناه مع فيليبيت وقد أخذ منها الورقة التي كتبتها الى روكامبول فقرأها ثم ردها إلى العجوز .

وكان قبل ذلك غادر السير نيفلي بعد أن أوصاه بالحذر الشديد وذهب لمقابلة باتير فلقيه ينتظره في عطفة الشارع وسأله : ماذا صنعت بالبرميل والفتيل؟

هيأت كل شيء ووضعت كل المعدات في البئر .

فنظر تيميلون في ساعته وقال : نحن في الساعة التاسعة الآن بحيث نستطيع أن نرى فيليبيت قبل ذهابها .

ثم ذهب الاثنان فأقام باتير عند البئر المسجونة فيه فاندا وذهب تيميلون الى البئر التي كانت فيه العجوز فلقيها تتأهب للرحيل .

ولم تكن العجوز تعلم شيئاً من مقاصد تيميلون كما انها لم تكن تعرف شيئاً عن الماجور افاتار ، ولما أطلعته على رسالة فاندا سر بها وقال : أرى ان التوفيق يخدمنا كما نريد .

- كيف ذلك وماذا يجب أن أصنع ؟

- تذهبين بهذه الرسالة الى صاحبها وأنت تعرفين عنوانه .

- اتظن انه يعطيني المائة دينار ؟

- بلا ريب وسوف نقتسمها

- أقسم بالله إذا وصل هذا المبلغ الى جيبي لأقضين بقية العمر بين الخمر والقناني فأصل السكرة بالسكرة ولا أستفيق ما حييت .

وضحك تيميلون وقال : ستنالين ما تطمعين به على شرطين أحدهما أن لا تسكري سلفاً ، والثاني أن تطيعيني في كل ما أريد .

- سأكون لك أطوع من بنانك فقل ما تشاء .

وأخذ تيميلون بيدها وقال لها : لقد بت عدة ليالي في هذه البئر دون أن تعلمي شيئاً من أسرارها ، فاعلمي ان هذا الثقب الذي كلمتي منه المرأة السجينة منحوت من الصخر الأصم لا يمكن توسيعه إلا بآلات ضخمة تستلزم وقتاً طويلا وفوق ذلك فهو لا ينفذ الى البئر ، بل الى الدهليز ، إلا أنه يوجد في طرف هذه البئر التي تقيمين فيها منفذ آخر ينفذ الى البئر التي فيه السجينة من دون ان يعترضه الدهليز ، وهذا الثقب ضيق كالثقب الأول ، إلا انه منحوت من الحجارة الطرية المبنية وكل من كان معه مطرقة يستطيع توسيعه

بأقرب وقت ، وإذا كان لديه حبل ادلاه الى البئر وبلغ ما يريد .

– أين هو هذا المنفذ فاني لا أراه ..

– هو في طرف البئر مغطى بالأدغال ، وإذا وصلت الى هذا الرجل الذي أرسلتك اليه السجينة تخبرينه انه يجب ان يحضر معه حبلاً ومطرقة إنما اجتهدي ان تقبضي منه المال مقدماً ..

– لماذا ؟

– لأني لا أعلم ما يتفق وقد يهوي الى البئر عند نزوله اليها .

فابتسمت وقالت : أظن اني فهمت قصدك .

– لا شك عندي بذكائك وإذا فقدت جزائه ولا تفقدين جزائي إنما احذري هذا الرجل كل الحذر .

– وأنا انفقت نصف عمري في السجون .

ثم افترقا فذهبت العجوز الى روكامبول وذهب تيميلون الى باتير ولقيه ينتظره عند فم البئر وقال له : لننزل الى البئر فاني احب ان أرى المهمات التي احضرتها .

ثم نزل الاثنان فأنار باتير مصباحاً وجعل تيميلون يفحص برميل البارود والفتيل فأدخل الفتيل بالبرميل ووضع البرميل عند باب القبو ثم قال : ان هذا البارود يكفي لنسف البئر وما يجاورها .

– العلك اعددته لروكامبول ؟

– بلا ريب ، أما هو جدير بهذه الميتة ؟

وبرقت أسرة باتير بأشعة الفرح واجاب : بورك فيك ، لأن هذا الانتقام لا يخطر في بال أحد من البشر .

– اما الآن فلم يبق علينا إلا امر واحد

– ما هو ؟

– ان نضع ايدينا في جيوبنا وننتظر .

– ننتظر من ؟
– ننتظر ان يقع الطير في الشرك .
– اني فهمت ما ستفعله بالتقريب ولكني لم اعرف طريقة الوصول الى قصدك ...
– صبراً وسترى كل شيء فان روكامبول لا يستطيع النجاة إلا إذا كان من الأبالسة ..
ثم قال لباتير : لا تفه بحرف ولا تكلمني إلا إذا كلمتك
اما فيليبيت فانها كانت وصلت الى روكامبول واعطته رسالة فـاندا كما قدمناه ، ونظر روكامبول الى هذه العجوز ، وعرف لأول وهلة انهـا من اولئك النساء اللواتي نزلن الى اقصى درجات المجتمع الانساني ولكنه امعن في الرسالة وعلم ان الخط خط فاندا ، ولم يكترث بالرسول ، ثم انه ايقن ان فاندا في قبضة تيميلون ، وإذا تمكنت من إغراء من يحمل رسالتها فـإن هذا الرسول لا يمكن الا ان يكون من اتباع تيميلون .
أما هذه العجوز فقد كانت متوقدة الذهن شديدة الدهاء ، حين لا تكون سكرى وكأنما علمت ما يجول في خاطر روكامبول فقالت له بلهجة تبين منها الصدق : اني خاطرت يا سيدي خطراً عظيماً في سبيل الوصول اليك ، إذ لو علموا بخيانتي لقتلوني دون شك ولكن السيدة التي ارسلتني اليك قـالت لي انك كريم وانك تمنحني مائتي دينار .
– اطمئني ، ستنالين هذا المال ..
وذكرت العجوز وصية تيميلون وقالت له : اني اؤثر يا سيدي ان اقبضه في العاجل .
– كلا ، إني لا ادفع لك شيئاً قبل إنقاذ السيدة التي ارسلتك
فسكتت العجوز ، لكن روكامبول علم من سكوتها انها لا ترشده الى مكان فاندا إلا إذ رأت المال ، فقال لها اتبعيني .

ثم تقدمها الى غرفته وفتح درجاً كان فيه كثير من الأوراق المالية فأراها إياها وقال اتعرفين قيمة هذه الأوراق ؟

فهزت العجوز رأسها وقالت : لقد جمعت كثيراً منها في ايام صباي .

واخذ روكامبول ٤ اوراق تبلغ قيمتها ٢٠٠ دينار ثم اقفل الدرج قائلاً لها : متى اوصلتني الى مكان الأسيرة اعطيتك هذه الأوراق .

ورأت العجوز من صحة عزمه ان كل جدال لا يفيد فقالت له : لقد رضيت فهلم بنا ..

— الى اين تمضي ؟

— إلى جوار الشارع الأميركي فقد حبسوا السيدة في بئر لا يهتدي اليها أحد وليس هذا كل الذي أريد ان أقوله لك إذ يجب التأهب لإنقاذها ولو كنت في عهد الشباب لما احتجت اليك وذلك لأن لهذه البئر ثقباً ضيقاً يقتضي لتوسيعه مطرقة ويد قوية ويقتضي لإنقاذها حبلاً طويلاً .

— سنأخذ ما تحتاج اليه على الطريق ثم دخل الى غرفة أخرى فوضع في جيبه مسدسين وتسلح بخنجر وعاد فخرج واياها وركبا مركبة فأمر السائق ان يسير بهما الى شارع فيربوا .

ولما وصل الى الخمارة ترك العجوز في المركبة ودخل فلقي ميلون وموريت وامرأة عرف روكامبول انها مرتون وهي تلك المرأة التي كانت مع انطوانيت في سجن سانت لازار وكان معها كلبها وهو نايم تحت الطاولة فأسرع الجميع لاستقباله وقال روكامبول لمرتون : ماذا تصنعين هنا ؟

— أرسلتني فتاة تدعى زبلي كي أحذر مرميس من ناتير فانه يريد به شراً

— لقد عرفت جميع ذلك .

ودنا منه ميلون وقال : أعرفت شيئاً عن فاندا ؟

— نعم . ثم نادى روكامبول الخمار وقال له : احضر حبلاً متيناً طويلاً ومطرقة حالاً .

— أين تذهب أيها الرئيس ؟
— لانقاذ فاندا .
— إذن أتيت لتأمرنا ان نصحبك .
— كلا ، إذ يجب ان تبقوا هنا فان تيميلون وباتير لا بد انهما يرودان حول المنزل ويجب الحرص على جيبسي

فقال له ميلون : ألا يكفي أيها الرئيس مورت والخمار ومرميس ومرتون لحراستها ؟ فدعني أصحبك في هذه المرة فأني خائف عليك .

فأراه روكامبول المسدس والخنجر وقال متى كان هذا السلاح معي فلا خوف علي وانما الخوف على جيبسي فأحرصوا عليها ولا تغفلوا طرفة عين عنها .

— انما قل لي الى أين أنت ذاهب .
— الى الآبار المجاورة للشارع الأميركي .

وعند ذلك جاءه الخمار بالمطرقة والحبل فأخذهما وذهب الى المركبة حيث كانت تنتظره العجوز فصعد اليها وقال للسائق : سر بنا الآن الى الشارع الأميركي .

- ٣٦ -

أما فيليبيت فانها قلقت حين رأت روكامبول عطف على شارع فيربوا ودخل الى الخمارة ولكن ما لبثت ان رأته عاد وحده حتى أطمأنت وقالت في نفسها : ماذا يهمني ان أعلم ما فعل في هذه الخمارة المهم عندي ان انال الجزاء من هذا الرجل او من تيميلون .

وسارت بهما المركبة فجعل روكامبول يسألها اسئلة مختلفة فحكت له ببساطة تاريخ حياتها وذكرت له كيف انها سمعت سعال فاندا من الدهليز وهي

في البئر وكيف انها رأتها من الثقب ثم انها وصفت له البئر والدهليز والثقب وصفاً دقيقاً وقالت : اني سمعت حكاية السجينة من فمها فعلمت انه لا يقدم على هذه الأعمال إلا تيميلون .

— أتعرفين إذن هذا الرجل ؟

— نعم ، وقد اشتغلت معه فيما مضى من زماني الى ان بات يخدم البوليس فانفصلت عنه وقد اتفقت مع السيدة السجينة على أن تعطيني مائتي دينار فأنا ارجو ان أعيش بهذا المال بقية ايامي .

ولما وصلت المركبة الى الشارع الأميركي أوقفهـا روكامبول فصرف سائقها وقال للعجوز : اتبعيني فاني أعرف الطريق الى بئر الشيطان ولكني لا أعرف مدخلها ، فسارت في أثره حتى وصل الى البئر الذي كان مختبئاً فيها تيميلون وباتير .

وعند ذلك تقدمته العجوز وقالت : قد وصلنا فاتبعني . فتبعها روكامبول دون أن يخطر له وجود اللصين في البئر ولو كان معه كلب مرتون لعلم بأمرهما ولكن الكلاب امتازت عن الأنسان بحاسة الشم .

وعطفت العجوز عطفة فوصلت الى بئرها ونزلت اليه فنزل روكامبول في أثرها ودنا من الثقب فنادى فاندا فأجابته بصيحة فرح لا تدرك وصفها الأقلام .

وأمر روكامبول العجوز ان تشعل شيئاً من الأخشاب والأعشاب اليابسة ففعلت ورأى بنورها ان توسيع الثقب محال .

فقالت له فاندا : اني لم أدخل من هنا كما ترى ، ثم وصفت له البئر وبابه الخشبي والدهليز الذي هي فيه .

فقال لها روكامبول : إذاً سأعود الى باب البئر فأكسره .

قالت العجوز : أن الباب متين ولا تكفي هذه المطرقة التي معك لكسره غير اني أجد طريقة اسهل واقرب من كسر الباب .

— ما هي ؟

– انه يوجد في طرف هذه البئر ثقب آخر ينفذ رأساً الى البئر ولا يعترضه هذا الدهليز وهو من الحجارة اللينة بحيث يمكنك توسيعه بمطرقتك في أقرب حين ولديك حبل طويل تبلغ به بعد ذلك مرادك .

– لقد أصبت فأين هو هذا الثقب ؟

فكشفت العجوز عنه الأدغال فرأى انها مصيبة فيما قالت .

فقال لفاندا : ارجعي الى البئر فسأعمل برأي العجوز .

– اسرع فان قواي قد تلاشت من السهر والجوع ، ثم جعلت تزحف في الدهليز حتى وصلت الى الجدار فنزلت متمسكة بثقوبه كما صعدت ولم تكد تبلغ الأرض حتى سمعت صوت سقوط حجارة ضخمة فعلمت ان روكامبول قد وسع الثقب لا سيما وقد رأت كوة عظيمة قد فتحت في سقف البير .

وكان روكامبول قد استعان بالمطرقة فبلغ مـــا أراده من توسيع الثقب وأيقن من صدق العجوز فنادى فاندا من الثقب كي يعلم إذا كانت قد وصلت اليه فأجابته .

فقال لها : سأنزل اليك فإنك لا تستطيعين الصعود على الحبل .

ثم أخذ روكامبول ذلك الحبل الطويل المتين الذي أحضره معـه وربط طرفه بصخر ضخم ، وشد وثاقه ، وأيقن من متانته وأمسك الحبل وجعـل ينزل إلى البئر .

وكان يجب على العجوز أن تطلب اليه في هذه الساعة ما وعدهـا به من المال ، إلا أنها خشيت أن يفطن إلى الحيلة .

وعند ذلك سمعت العجوز وقع أقدام في البئر فالتفتت ورأت تيميـلون مشهراً بيده خنجراً ، وقد أسرع إلى الحبل المشدود بالصخر فقطعه ، وسمع على الفور صوت سقوط روكامبول على الأرض وصيحة صعدت اليه من أعمـاق تلك البئر .

وكان هذا الصوت صوت ذعر فان المرء مهما بلغ من بسالته وجراءتـه لا

يسمع إلا الانذعار حين يحدث ما حدث لروكامبول .

وقد أجاب صوته صوت آخر وهو صوت فاندا فان ذعرها كان أشد من ذعره ، وأسرعت اليه وقالت له : رباه ماذا أصابك العلك جرحت ؟

ـ لا أظن ولكني طائش الفكر ضائع الرشد .

ثم جعل في ذلك الظلام الدامس يحرك أعضاءه كي يعلم إذا كانت كسرت ساقه أو رض جسمه ، ثم مشى بضع خطوات فأيقن أنه سليم لأن أرض القبو كانت رطبة فلم يؤثر عليه هذا السقوط .

وعانقته فاندا وهي تقول : لقد اجتمعنا أخيراً .

ـ نعم ، لكني اسير مثلك وقد نصبوا لي فخاً وسقطت فيه كالأبله .

ثم ضحك ضحك المحتقر نفسه قائلاً : انــه لا يزال يوجد على بلاهتي من يثق بي .

وإن من كان مثل روكامبول يعلم في الحال إن انقطاع الحبـل لم يكن من قبيل الصدفة بل كان خديعة مدبرة من قبل فقال : لقد خدعونا ولم نفطن لهم ويجب علينا أن ننظر في وجوه النجاة .

وكان يحمل دائماً في جيبه علبة من الكبريت الشمعي فأخرجها من جيبه وأنار عوداً من عيدانها وجعل يفحص المكان الذي هو فيه فرأى فوق رأسه في سطح البئر منفذاً كبيراً وهو المنفذ الذي فتحه بيده كأنما هو قد حفر قبره بيـده وعلم لأول وهلة أن الصعود محال لأن المنفذ كان في وسط السقف

ثم أدار نظره ورأى باب البئر الخشبي الذي دخلت منه فـاندا ، ولكن روكامبول ارتكب كل الأغلاط في تلك الليلة فانه ترك المطرقة قرب الصخر الذي ربط فيه الحبل ، ولم يبق له رجاء لكسر الباب سوى تلك الصخور التي سقطت من القبة ، وأعطى علبة الشمع لفاندا وقال لها انيري لي كي أرى

ثم أخذ حجراً ضخماً من الحجارة الثلاثة التي سقطت في البئر وصدم بـه الباب الخشبي صدمة هائلة وهو يرجو ان يكسره ، لكنه رأى أن الحجر نفسه

قد تحطم وانحل إلى تراب لشدة الصدمة ولمتانة الباب ، وعلم أن الحجر رملي لا فائدة منه ، وصدم الباب بالحجر الثاني وأصابه ما أصاب الأول

وعند ذلك وضعت فاندا يدها فوق كتفه وأطفأت الشمعة وقالت له : اصغ ألا تسمع ؟

- ماذا ؟

- حركة وراء الباب . .

فأصغى روكامبول فسمع صوتاً يشبه صوت المنشار في الخشب فقال لفاندا : قفي ورائي ولا تبدي حركة . .

وكان صوت المنشار يتزايد ثم رأى نوراً يضيء من وراء الباب ثم رأى منشاراً يفتح كوة في باب البئر ودنا روكامبول من فاندا وقال : من يعلم فقد يكون ميلون قادماً لانقاذنا . فلم تجبه فاندا بشيء .

وكان كلما بلغ المنشار من الباب يزداد النور ظهوراً ، إلى أن فرغت تلك اليد من النشر وسقطت قطعة الخشب المنشور ففتح منفذ من الباب مستدير بقدر حجم الصحن ، وسطع النور في البئر على وجهي روكامبول وفاندا ، وسمع روكامبول في الوقت نفسه صوتاً يقول بلهجة الساخر . أي روكامبول ان هذا آخر ما يكون بيننا وقد اتيح لي النصر عليك .

وعرف روكامبول للحال أن الصوت صوت تيميلون فأجابه : كلا ان وقت نصرك لم يحن بعد ، ثم أطلق غدارة من الثقب .

ودوى صوته دوياً شديداً جعل يتجاوبه الصدى نحو عشر ثوان ، ثم انقطع الصوت وعادت السكينة إلى البئر ، وانطفأ المصباح الذي كان مع تيميلون فحسب روكامبول انه قتل .

إلا أن مدة هذا الرجاء لم تطل إذ سمع قهقهة تيميلون يضحك ضحك الساخر فتسلح روكامبول بالغدارة الثانية .

وكان تيميلون قد أحنى رأسه حين خرجت رصاصة روكامبول بحيث اخطأه

فقال : انك كنت تصيب المرمى في غير هذا العهد ،أما الآن فان يدك ترتجف لدنو ساعتك .

فأطلق روكامبول عليه غدارته الثانية قائلا : خسئت أيهـا الشقي لأن ساعتي لا تزال بعيدة .

وعند ذلك سمع ان تيميلون قد صاح صيحة ألم قائلا : لقد اصبت .

فانقض روكامبول على الباب وأمسك بالنافذة التي فتحت فيه وجعل يهزه هزاً عنيفاً فلم ينل منه غاية تفرط متانته .

وسمع تيميلون يقول أيضاً : لقد أصبت حقيقه ولكني سأنتقم ياروكامبول فان ساعتك قد دنت .

ثم سمع صوت آخر قائلا : بل سننتقم كلانا .

فعلم انه صوت باتير وجعل يهز الباب هزاً عنيفاً دون فائدة قائلا : لم تحن الساعة بعد ايها الخاسر ؟

وكانت فاندا واقفة وراءه ولم تعلم كيف يريد ان ينتقم تيميلون ولكن قلبها كان ينذرها بانتقام هائل

فقال تيميلون : اي روكامبول انك لم يخطر لك في بال اني أعود لكنك أخطأت فان ابنتي ماتت ولم أعد أخشاك ، فاقتفيت اثرك واتبعت خطواتك واحبطت مساعيك وذلك إنك اردت ان تتخلص من السير جمس حذراً على جيبسي ، ولكني انقذت السير جمس وهو سيقتـل جيبسي . اني اريد ان تعرف كل هذه الامور قبل ان تموت لأنك ستموت . نعم ايهـا العزيز انـك ستموّت أفظع موت .

وكان صوته يدل على تألمه وان جرحه كان بالغاً فأخذ روكامبول علبـة الكبريت الشمعي من فاندا ورأى من الثقب باتير وتيميلون ووراءهما جسم لم ينتبه اليه وكان باتير يعين تيميلون على الوقوف وكلما وقف عاد إلى السقوط وصاح متألماً ، فان رصاصة روكامبول اخترقت فخذه .

ورأى تيميلون أن روكامبول ينظر اليه فصرخ : لا تفرح لشقائي فإنك ستموت شر موت . ثم زحف قليلاً إلى الجهة اليمنى بحيث ظهر برميل البارود لروكامبول وأدرك قصد تيميلون الهائل وصاح صيحة رعب واندعار .

أما تيميلون فإنه قال لباتير : إشعل الفتيل الآن واحملني وهلم بنا للخروج من هذه البئر ، فنفذ باتير الأمر .

وكان تيميلون يتألم تألماً شديداً قائلاً لباتير : لنسرع بالرحيل كي لا يضجر هذا العزيز روكامبول ، ووضع باتير الفتيل في البرميل وذهب إلى طرفه الآخر وأشعله ، وكان هذا الفتيل يبلغ طوله نحو خمسة أمتـار بحيث يقتضي له نصف ساعة لتبلغ ناره للبرميل .

وبعد أن أشعل الفتيل حمل تيميلون على كتفيه وخرج به والاثنان يودعان روكامبول بأفظع عبارات التهكم ..

وظل روكامبرل ناظراً اليهما حتى تواريا عن أبصاره والفتيل يشتعل ببطء.

وبعد عدة ثوان سمع روكامبول صيحة كبيرة من تيميلون تلاها شتم قبيح وأصغى مع فاندا فسمعا تيميلون يقول : تباً لك من خائن .

ورد باتير : ليس لدي حبل ، ولا أستطيع أن أصعد بك إلى سطح البئر ، وليس الذنب ذنبي إذا كنت ثقيل الجثة مكسور الساق .

- إذن أتتركني هنا ؟

- ذلك لا بد منه .

وكان صوته يدل على أنه بات خارج البئر فصرخ تيميلون . تباً لك من خائن سافل ، ثم انقطعت الأصوات .

وسرى إلى نفس روكامبول بعض الرجاء قائلاً : لا بد له من إطفاء الفتيل كي لا يموت معنا إلا أن هذا الرجاء لم يلبث طويلاً ، لأنه شاهد تيميلون يزحف زحف الأفاعي حتى وصل إلى البرميل فنام بقربه قائلاً بلهجة وحشية تدل على الانتقام : إذن لنمت جميعنا .

وكان الفتيل لا يزال يشتعل فأيقن من صدق عزمه فضم فاندا إلى صدره وتمتم : يجب أن نموت .

- ٣٧ -

بينما كان الفتيل يشتعل ، وبينما روكامبول وفاندا وتيميلون ينتظرون تلك الساعة الهائلة حين يصل إلى البارود ويحدث ذلك الانفجار ، كانت حوادث أخرى تجري في خمارة فيرابو

وقد علمنا أن روكامبول لم يشأ أن يصحب معه ميلون وأمره أن يتولى مع أفراد العصابة حراسة جيبسي ، فلما خلا ميلون بأصحابه أخبرهم بأمر الرئيس قائلا لهم : ان قلبه ينذره بحدوث مكروه .

وفيما هم يتحدثون في الخمارة رأوا مرميس دخل اليهم وهو حافي القدمين وبملابس النوم ، ووضع اصبعه في فمه إشارة إلى وجوب الصمت

فأيقنوا أن الأمر خطير وسأله ميلون عما جرى فقال له : لقد عبثوا بنا وبالرئيس أيضاً ونحن غافلون كالأطفال. ثم التفت إلى الخمار وسأله : ألم تضعوا الانكليزي في البئر ؟

— نعم .

— ولكنه نجا ..

فذعر الحاضرون وقالوا : كيف ذلك وبأية طريقة فان الباب لا يزال مقفلاً .

— لا أعلم ولكننا لا نزال قادرين على أسره لحسن الحظ لأنه يقيم بيننا في هذا البيت ، وفي غرفة هذا الرجل الذي يدعي أنه شيخ الخدامين وقد عرفت ذلك في هذه الساعة إذ سمعت جيبسي تصيح وقد أتاها الكابوس ، فأسرعت اليها ودخلت إلى غرفتها المظلمة فرأيت نوراً ينفذ من ثقب صغير في

الجدار الفاصل بين غرفتها وغرفة شيخ الخدامين ، فخطر لي أن أعلم ما يصنع هذا الشيخ في هذه الساعة المتأخرة من الليل ، فصعدت على كرسي ونظرت من الثقب ، ورأيت الانكليزي بعينه جالساً حول طاولة وعليه علائم التفكير ، وإذا كنتم في ريبة مما أقوله فاخلعوا نعالكم واصعدوا إلى الغرفة تروا ما رأيت

وصعدوا جميعهم إلى الغرفة وجعل كل واحد منهم ينظر من الثقب فيرى السير جمس ويرجع مذعوراً .

ولما تحققوا مما قاله مرميس خرجوا من تلك الغرفة كي لا يسمع السير جمس حديثهم وجعلوا يتشاورون فقال ميلون ماذا يجب أن نصنع ؟

فأجابه مرميس : إن الأمر بسيط .

— كيف ذلك ؟

— ذلك ان الرئيس لم يسجنه في البئر إلا بغية إبعاده مؤقتاً فتعالوا معي وأنا أقضي هذه المهمة .

ثم مشى إلى الباب فأوقفه الخمار قائلاً : إني لا آمن دهاء الانكليز وهذا الرجل قد يكون مسلحاً فاصبروا إلى أن أحضر مطرقتي فإنها تقتل بضربة واحدة .

ونزل الخمار إلى خمارته ووقف ميلون ومرميس عند باب الغرفة ولما عاد الخمار بمطرقته قرع مرميس الباب فسمع صوت اهتزاز كرسي مما يدل على أن جمس وقف بعنف وصبر مرميس هنيهة ثم قرع الباب ثانية ولم يفتح فأوعز إلى ميلون بكسر الباب فصدمه بكتفه صدمة قوية فانفتح ودخل الثلاثة فرأوا السير نيفلي واقفاً وعليه علائم الذعر والرعب إذ عرف مرميس وميلون .

وعند ذلك أشار مرميس إشارة إلى ميلون فانقض على الرجل وضغط على عنقه حتى أوشك أن يخنقه ، وأسرع الخمار بمطرقته ورفعها فوق رأسه وهو يقول : إذا فهت بكلمة فأنت من الهالكين .

وأشار السير نيفلي بيده إلى انه يطيع فقال مرميس : دعه إذاً يا ميلون فإننا سنتحدث قليلاً ، وأقفل الباب ، لكن مرتون دخلت مع كلبها قبل أن

بقفله وقالت : وأنا أريد أن أكون معكم .

ثم دنا مرميس من السير نيفلي قائلاً . لا حاجة بنا ايها الميلورد أن نسألك عن اسمك فإننا نعرف انك تدعى السير نيفلي زعيم الخناقين في لندرا ، لكننا نريد أن نعلم كيف أصبحت هنا وقد دفناك في القبر منذ يومين ؟

– إن معرفة ذلك بسيط فإن أصحابي أنقذوني .

– هذا لا يخفى علينا ولكننا نريد أن نعرف من هم هؤلاء الأصحاب ، فاذا بحت لنا باسمائهم أبقينا عليك حتى يعود الرئيس فانه لم يصدر الينا أمر بشأنك ولكنك إذا أصررت على الكتمان قتلناك ولا ينكر علينـــا الرئيس هذا القتل .

فاصفر وجه نيفلي ولكنه أصر على الكتمان قائلاً . إفعلوا بي ما شئتم فاني لا أعرف الذين أنقذوني .

فرد مرميس : إحذر فان وقتنا أقصر من تضييعه في المخابرات .

وقال ميلون . الأمر واضح فانه لم يوجد في غرفة المستأجر الجديد إلا لأن هذا المستأجر أراده فيها .

فابتسم السير نيفلي وقال : ربما .

ولم يصدق الخمار هذا القول فسألهم : كيف يستطيع مثل هذا الشيخ عمل مثل هذه الفعال ؟

ورد ميلون : لم يبق عندي ان هذا الشيخ شريك الانكليزي وانه عبث بنا كلنا .

فنظر مرميس إلى السير نيفلي وقال له : قل لنا إسم هذا الشيخ .

فهز كتفيه قائلاً : لا أعلم .

– احذر من العناد وإلا قتلتك .

فاعترض ميلون قائلاً : كلا ان الرئيس لم يأمرنا بقتله .

– ولكن الرئيس قد يكون معرضاً لأشد الأخطار في هذه الساعة .

وبرقت عينا السير نيفلي بأشعة الفرح ، وعوى كلب مرتون وقد عض ثوباً لتيميلون فقالت : لا شك ان هذا الثوب ثوب عدو .

وخطر لميلون خاطر فسأل الخمار أن يصف لهم هذا الشيخ ولما أتم الخمار وصف شيخ الخدامين صرخ ميلون · انه قد يكون تيميلون .

وعند ذكر هذا الاسم نظر مرميس فجأة إلى السير نيفلي فرأى انه قد بدرت منه حركة استدل منها على انه حقيقة تيميلون وجعل الكلب ينبح نباحاً شديد فقال مرميس : اني أشترك مع ميلون بظنه بل أثق ان هذا الشيخ هو تيميلون بعينه ، وان الرئيس يحدق به خطر شديد ، فاذا لم يقل لنا هذا السير أين هو تيميلون قتلناه .

إلا انه أنكر فقالت مرتون : لا حاجة إلى ذلك فقد قال الرئيس لميلون انه ذاهب إلى الآبار الكائنة وراء الشارع الأميركي ، وأنا أعرف طرق هذه الآبار وكلبي يقتفي أثر تيميلون .

ـ إذاً شدوا وثاقه ولتأخذ مرتون ثوب تيميلون فانه يعين الكلب على اقتفاء أثره .

وقد عادت إلى مرميس تلك السيادة التي كانت له على العصابة في لندرا ، وأمر بانزال السير نيفلي إلى القبو ، ووضعوه في برميل فارغ وهو موثوق اليدين والرجلين ، وأمر شانوان بالوقوف بسلاحه أمام البرميل حتى يعودوا ، ثم أمر الخمار بالوقوف أيضاً على باب غرفة جيبسي فلا يفارقه لحظة وبعد ذلك أخذ مسدساً وخنجراً وكذلك ميلون وخرجا تصحبهما مرتون وكلبها فركبوا مركبة إلى الشارع الأميركي .

ولما وصلوا اليه أطلقوا سراح المركبة وأخرجت مرتوب ثوب تيميلون وأظهرته للكلب ثم قالت : ابحث عن تيميلون

ونبح الكلب أمامهم نباحاً شديداً ، وانطلق أمامهم إلى جهة الآبار في الطريق التي سلكها تيميلون وروكامبول والثلاثة يتبعونه وهم واثقون من

فوزه ، لأنه كان يشم التراب حيناً ثم يندفع بالسير بعد أن ينبح مما يدل على أنه عرف الأثر .

وظل هذا دأبه نحو ساعة وهو يسير بهم من بئر إلى بئر حتى انتهى إلى تلك الحديقة المسورة ودخل اليها فوقف عند فم البئر المسجونة فيه فاندا فجعل ينبح نباحاً شديداً ، فدخلوا جميعهم إلى الحديقة وسمع مرميس اصواتاً مختلفة كأنها خارجة من جوف الأرض ، فوقف مع رفيقه على مسافة بضع خطوات من فم البئر قائلاً لهما : اصبرا لنرى ما يكون من الكلب .

وفي الحال رأوا رجلاً خرج من فم البئر فلم يعترضه الكلب ، بل انه دنا من البئر وجعل ينبح ، أما الرجل فإنه حين صعد من البئر جعل يعدو كمن يحاول الفرار ، ولكن ميلون هجم عليه وقبض على عنقه ، فأسرع اليه مرميس ولم يكد ينظر اليه حتى عرف أنه باتير زعيمه القديم

وحاول باتير التخلص من ميلون قائلاً له : دعني .

لكن ميلون صرعه إلى الأرض وركع على صدره وسأله : إذا اردت الحياة فقل لي أين روكامبول .

فلم يجب فوضع خنجره على عنقه ووخزه به وهو يقول : قل في الحال أو أغمدت في عنقك الخنجر .

- لا أعلم أين هو .

- كذبت أيها السافل ، ثم وخذه في عنقه ثم تابع قل أو اقتلك .

فصاح باتير صيحة ألم وقال: إنه سيهلك وأنت أيضاً تهلك مثله إذا لم تدعني أهرب وتهرب معي .

فنظر اليه ميلون نظراً طائشاً وصاح به : أوضح ما قلته .

بعد خمس دقائق ينفجر البارود ونهلك جميعنا .

فذعر ميلون حتى انه رفع رجله من فوق صدره دون أن ينتبه فنهض باتير وحاول أن يهرب إلا أن ميلون قبض عليه بيد من حديد فجعل باتير

يصيح قائلاً : دعني أفر أو يقضي علينا جميعاً . وكان يتكلم وأسنانه تصطك من الخوف .

ولما رأى ان ميلون لا يتركه أجاب : ان روكامبول وتيميلون في هذا البئر ويوجد فيها تحت أقدامنا برميل من البارود فيه فتيل يشتعل وسينسف كل ما في هذا المكان .

ولم يكن مرميس قد فاه بكلمة إلى الآن فلما سمع حديث باتير صاح صيحة منكرة وأسرع إلى البئر فألقى نفسه فيها وكان الكلب قد سبقه منذ حين .

أما ميلون فان عينيه جحظتا من الغضب فقال لباتير : إنك لا تسمع صوت هذا الانفجار أيها الشقي. ثم أغمد خنجره في صدره فهوى إلى الأرض يتخبط بدمائه .

ومع ذلك فقد كان ذلك الفتيل الهائل مستمراً في اشتعاله وكان تيميلون مضطجعاً بجانب البرميل ينتظر الموت بسكينة ، وجعل روكامبول يهز الباب هزاً عنيفاً دون أن يتمكن من كسره حتى سئمت نفسه واوشك أن يجن من يأسه فانه كان يريد الموت لنفسه ، غير أنه كان يريد انقاذ فاندا فنادى تيميلون من كوة الباب وقال له : انا أعلم انك تريد موتي ولا أسألك العفو عني، ولكن أيروق لك أن تدع هذه المرأة تموت ؟

ولم يجبه بشيء، وعاد روكامبول إلى الحديث وهو ينظر نظرات الاضطراب إلى دنو النار من البرميل وقال لتيميلون : اني اقسم لك اني اغمد هذا الخنجر في قلبي إذا كنت تنزع هذا الفتيل

فضحك تيميلون وأجاب : انك خلقت حسن الطالع فقد تخطىء يدك قلبك.
– انك لا تطفيء النار إلا متى وثقت من موتي .

وكان يقول له هذا القول بلهجة المتوسل ، فأكبت فاندا على عنقه وقالت: كلا ، بل أموت معك ..

وعاد روكامبول إلى استعطاف تيميلون . لا انكر انك تكرهني كرهاً لا

ألومك فيه على قتلي ولكن أيخلق بك أن تغمس يدك في جريمة قتل إمرأة ؟

فأجابه تيميلون بلهجة المتهكم : العلك أشفقت على ابنتي حين أخفتها من الموت فأمتها من الخوف .

فأطرق روكامبول برأسه هنيهة ثم استل خنجره قائلاً : اني سأقتل نفسي ومتى رأيتني قتيلاً فقد تشفق عليها وعلى نفسك .

غير ان فاندا انقضت على يده واختطفت منه الخنجر وقذفته من ثقب الباب فوقع بعيداً عن تيميلون وقالت : إن الموت معك أحب إلي من الحياة .

فأن روكامبول أنيناً مزعجاً وجعل تيميلون ينظر إلى النار تدنو تباعاً إلى البرميل ، وعند ذلك عانقت فاندا روكامبول فجأة وقالت : أتسمع ؟

— ماذا ؟

— نباح كلب فوق سطح البئر التي نحن فيها .

وكان هذا الكلب كلب مرتون فانه بعد أن أزال الأدغال عن فم البئر شم رائحة تيميلون فنبح هذا النباح ثم قالت ان قلبي يحدثني بانهم قادمون لانقاذنا . .

— من تظنين هذا القادم ؟

— لا أعلم ولكني لا أزال أرجو .

ثم نبح الكلب نباحاً ثانياً ولكن نباحه كان بعيد المدى ، فنظر روكامبول إلى الفتيل وقال : أمل باطل ، ولكنه ما لبث أن قـــال هذا القول حتى رأى على نور الفتيل الضعيف شبحاً اسود انقض فجأة انقضاض الصاعقـة على تيميلون .

فقالت فاندا . هوذا كلب مرتون فقد عرفته .

فقال روكامبول وقد رآه انقض على تيميلون : ولكنه لا يعرف كيف يطفي الفتيل والأسفاه .

أما الكلب فانه نشب اظافره في عنق تيميلون فجرى بينهما عراك هائل وحاول تيميلون ان يأخذ الخنجر الذي ألقته فاندا فلم يمتد اليه فجعل يدافع عن نفسه بيده ، ولكن الكلب كان ينهكه ايضاً فاذا نجا تيميلون منـه هنيهة عاد إلى الوثوب عليه وارهاقه بالعض ، فكان روكامبول يرجو ان يقع حين وثوبه على الفتيل فينزعه من البرميل ولكنه كان محكم الوضع .

أما تيميلون فقد جاهد في وقاية نفسه من الكلب فلم يفلح ولم يمر به هنيهة حتى تغلب عليـه الكلب وانقطع صوت تيميلون فان الكلب خنقه ، فقال روكامبول : اننا نموت وقد انتقم لنا على الأقل .

وكان الفتيل قد قرب من البرميل فلم يبق بين النار وبينه غير قيد اصبعين، فقال روكامبول : لقد انقطع كل رجاء ، وركع وجعل يصلي الى الله ملتمساً الصفح عن ذنوبه .

وركعت فاندا امامه وقالت : أحبك فاذا لم نلتقي في الحياة التقينا بعد الموت وعزائي اني أموت بين يديك .

ولم يبق غير مقدار دقيقة واحدة لاشتعال البارود .

وعند ذلك سمع الأثنان صوت جسم هبط إلى ارض البئر وصوت رجل يقول : لقد زال الخطر .

وكان هذا الرجل مرميس فانه اسرع الى الفتيل فانتزعه من البرميل .

وعند ذلك شعر روكامبول ان فاندا اغشى عليها بين يديه فقال : ان الله لم يأذن لي ان أموت فلا شك انه لم يصفح عني بعد .

- ٣٨ -

بعد يومين من هذه الحوادث التي رأيناها ، أي بعد اربعة أيام من اختطاف فاندا من منزلها ، جعل خدم هذا المنزل يتشاورون فيما يفعلونه حينما قنطوا من عودة السير جمس وفاندا ، فاقترح احدهم ابلاغ البوليس ، وقال اخر بل السكوت اولى فان اسيادنا قد يعودون وربما ساءتهم معرفة البوليس باحوالهم ، وطال الجدال بينهم حتى ارتأى احدهم سرقة ما خف وغلا من المنزل وتركه وشأنه إلى ان يعود اصحابه ، فلقي هذا الفكر استحساناً من الجميع وعولوا على انفاذه .

وفيما هم يتناقشون في أي الحاجات يسرقون ويعدونها ويتفقون على اقتسامها إذ طرق الباب فاضطربوا جميعهم واسرع احدهم الى الباب وفتحه ، فدخلت فاندا وعليها علائم عدم الأكتراث كأنها برحت المنزل منذ ساعة حتى انها لم تسأل الخدم إذا كان احد قد جاء في غيابها فنقض رجوعها خطة هؤلاء الخدم لأنها سواء كانت خليلة السير جمس او حليلته فانها كانت السيدة الآمرة في البيت ، ولا يسع الخدم إلا الامتثال لها ، فدخلت تواً إلى غرفتها ونادت الخادمة فأمرتها ان تعينها على خلع ملابسها .

وبعد ذلك بساعة وقفت مركبة عند باب المنزل وخرج منها روكامبول فدخل وعرف الخدم انه صديق السير جمس وكانت علائم السكينة بادية عليه مثل فاندا كأنهما لم يلقيا شيئاً من الأخطار منذ يومين .

اما روكامبول فانه دخل إلى الدار دخول صاحبه ، ولم يسأل هذه المرة عن السير جمس بل قال للخادمة :

– هل السيدة في قاعة الاستقبال او في غرفتها ؟

– بل في غرفتها

فذهب تواً اليها فقبل يدها وجلس بقربها

وخلا الخدم بعد ذلك الى بعضهم وكلهم مستغربون مما رأوه . فاتفق رأيهم على ان السيدة كانت خليلة الانكليزي فاستبدلته بالفرنسي وقرروا ان لا بد من الطاعة وحمد الله لعدم تسرعهم بنهب المنزل .

أما روكامبول فإنه خلا بفاندا ودار بينهم الحديث الآتي فقالت فاندا : لا أزال أيها الرئيس أحسب نفسي حالمة ، لفرط ما مر بنا من الغرائب في هذه الأيام .

— الحق إننا نجونا من خطر لم أجد أشد منه فيما مضى من عجائب حياتي . ولولا ان أدركنا مرميس لكنا من الهالكين .

— الحمد لله فقد صفي لنا الجو ولم نعد نخشى تيميلون ولا باتير .

— إن تيميلون قد مات ، وباتير أصيب بجرح بالغ ، وهو إما ان يلقى حتفه كما يقول الطبيب ، وإما ان يعيش معتوهاً . وفي الحالين لا يخشى أن يبوح بأسرارنا .

— ألا تقول لي الآن ، أيها الرئيس ، لماذا أردت ان أعود الى هذا المنزل ؟

— لأن المنزل لك وعقد شرائه مسجل باسمك .

— والسير نيفلي ماذا تصنع به ؟

— يقيم معك في هذا المنزل .

فاندهلت فاندا وقالت : كيف ذلك ؟ أما عزمت على ان تبقيه في قبو الخمارة ؟

— كلا بل يقيم معك ويكون في أسرك بحراسة ميلون .

— والخدم ؟

نطلق سراحهم بعد ان نعطيهم راتب شهر على سبيل المكافأة ، ونستبدلهم عند ذلك بنويل وموريت وشانوان وميلون ومرتون ومرميس وجيبسي . فيكون جميع من في المنزل أعواناً لنا بل يكون لنا جيش نجعل

مركز العام في هذا الشارع .

فلم تفهم فاندا المراد من كل هذا وقالت له : وبعد ذلك ؟

– كيف تسألينني هذا السؤال ؟ ألا تعلمين ان مشروعنا لم يتم شيء منه بعد وهل قبضنا على ملايين جيبسي ؟

– أصبت ولكن كيف السبيل إلى هذه الأموال ؟

– إنه سر من أسراري لا أستطيع ان أبوح به الآن

- ٣٩ -

ولنعد الآن الى السير نيفلي . لقد تركناه مقيداً في البرميل بحراسة أحد أفراد العصابة فلما عاد مرميس وميلون الى الخمارة أخبر مرميس الخمار وحارس نيفلي جميع ما اتفق لهم ، وكان السير يسمع الحديث فيأس يأساً شديداً حين علم ان تيميلون قد مات وهو المعين الوحيد الذي كان يعتمد عليه في إنقاذه من روكامبول .

وبعد ان فرغ مرميس من حكايته قال إن الرئيس لا يحضر إلى هنا ولكنه يأمر ان ينقل هذا الانكليزي الى القبو ، الى أن يصدر بشأنه أمر جديد .

فامتثلوا لأمر الرئيس وأخرجوه من البرميل الى القبو . وأقام فيه ثلاثة أيام لم ير في خلالها غير ميلون ، إذ كان يأتيه مرتين في اليوم ، فيحل وثاقه ويقدم له الطعام الى ان يفرغ من الأكل فيشد وثاقه كما كانوا يفعلون بفاندا .

وبقي على ذلك ثلاثة أيام ، وفي الليلة الرابعة جاء ميلون ومرميس ونويل فأخرجوه من القبو ووضعوه في صندوق كبير معد لنقل البضائع بعد ان شدوا

وثاقه ووضعوا الكمامة في فمه ثم حملوه على مركبة نقل الى الذي تقيم المنزل فيه فاندا وهناك أدخلوا الصندوق إلى المنزل ثم فتحوه وأخرجوه منه فوجد نفسه أمام روكامبول .

فقال له روكامبول : أسألك العفو يا حضرة الميلورد ، لأن رجالي قد تعودوا الغلظة .

ثم أشار الى ميلون ففك قيوده وخرج وبقي روكامبول وحده مع السير نيفلي فسأله . أتريد ان نتحدث الآن ؟

– ليكن ما تريد ، فلا أحب إلي من هذا .

– لكن لا بد لك قبل ذلك من أن تأكل لانك جائع دون شك ، وكذلك لا بد لك من تغيير ملابسك ، وهذه غرفتك لا تزال على ما كانت عليه فادخل اليها

فشكره السير ودخل الى تلك الغرفة فأقفل بابها وكأنما قد جال في فكره خاطر الفرار . فأحكم إقفال الباب من الداخل ووضع الزلاج بحيث لا يمكن فتح الباب من الخارج إلا بعد كسره . ثم أسرع إلى النافذة وفي نيته ان يثب منها إلى الحديقة ، لكنه تراجع مبهوتاً إذ وجد ان قضبان الحديد قد وضعت فيها خلافاً لما كانت عليه من قبل فعلم انهم حسبوا لفراره حساباً وجعل يفكر في وسيلة أخرى .

وكان من عادته ان يضع مفتاح الخزانة التي يضع فيها ملابسه تحت آنية من الخزف على المغسلة ، فرفع الآنية ووجد المفتاح فقال في نفسه : لا شك أن الخزانة لم تفتح لان المفتاح لا يزال في موضعه .

ثم فتح الخزانة وغير ملابسه المتسخة بملابس نظيفة ، وأخرج منها مسدساً وضعه في جيبه بعد ان تيقن ان رصاصاته لا تزال فيه ولما رأى ان لا سبيل الى فراره منهذه الغرفة إعتمد على مسدسه وخرج الى روكامبول فوجده جالساً حول المائدة وميلون يضع عليها الطعام فجلس بازائه وانصرف ميلون فجعل

روكامبول والسير نيفلي ياً كلان .

وبعد ان أكلا بعض الطعام وشربا زجاجة من الخمر قال له روكامبول : إسمح لي يا حضرة الميلورد ان أبسط لك الحالة كي تفهم ما أريد فإنك في لندرا زعيم الخناقين .

ـ نعم ولا أزال مقلداً هذا المنصب .

بورك لك فيه . لكن يظهر ان الخناقين لم يكترثوا لفقد زعيمهم ، ثم إني نزعت جيبسي من قبضة السير جورج ، فعزلته أنت من منصبه لأنه لم يحسن توليه .

ـ هذا أكيد .

ـ أما السير جورج فإنه برح لندرا دون أن تعلم ، وكنت أقل منه كفاءة لهذا المنصب لأنك سقطت في الفخ الذي نصب لك ، ووثقت من كره فاندا لي وتدلهت في حبها فعميت عن الرشد ، وتبعتهـــا الى باريس وهنا بدأت حوادثك المكدرة .

فأجابه بجفاء وبعد ذلك ؟

ـ أسألك الصبر يا سيدي ، إذ لا بد لي من إتمام أقوالي كي أصل إلى ما أريد ، لأن الأقدار دفعت اليك في باريس مساعـــداً علمت دون شك كيف كانت عقباه ، فأصبحت وحـدك لا نصير لك غير اولئك الخناقين الذين لا يحضرون لنجدتك ، وبالتالي فإنك ستكون أسيري الى آخر العمر . إلا إذا خطر لي ان أقتلك وأريحك من الأسر الطويل .

أما وقد أظهرت لك حالتك فاسمح لي ان أعرض عليك شروطي علهـا توافقك . واعلم ان السير جورج كان شديد التعصب يحسب ان روح أبيـه كامنة في جسم سمكة حمراء فكان يخدم الإلهـــة كالي لانه كان يعبدها . أما أنت فإنك أوفر منه عقلا وأكثر دهاء وأنت تخدم هذه الإلهة بالظاهر ، وأما في الحقيقة فإنك تخدم أغراضاً سياسية تحجبها بحجاب الدين . وإنك لم تحاول

خنق جيبسي وإحراقهـا لأنها لم تكن عذراء كما كانت تقضي بـه عليها أحكام الإلهة كالي ، بـل لأن لهذه الفتاة النورية ثروة عظيمـة تريـدون اختلاسها .

فاضطرب السير نيفلي وقال : أتعرف أيضاً هذا السر ؟

— هذه هي الثروة التي سرقتها مس الن بالاتفاق مع عشيقهـا علي رجاه رئيس الخناقين الأعظم في الهند على أن تقتسم بين الاثنين . أما مس الن فقـد ظفرت بها وستكون في قبضتي حينما أريد .

— أحق ما تقول ؟

— دون شك . ألا تذكر ذلك القصر الذي بت فيـه ليلة مع فاندا في بيكارديا ، إن هذا القصر كان لمس الن وأنت لا تدري ، وقد باتت فاندا في إحدى غرفها حيث جاءها الخيال بب خادم أبيها ، فكلم فاندا وهو يحسب انه يكـلم مس الن وعدد لها جميع ذنوبهـا . أعلمت الآن كيف اطلعت على هذا السر ؟

فاصفر وجه السير نيفلي وقال له ماذا تريد بهذا الكلام ؟

— أريد بها إني سأكره مس الن على رد الثروة بواسطة ابنها وأريد منك أن لا تعارض في شيء ثم اني توليت بحمايتي جيبسي النورية وناديا إبنة الجنرال الروسي وأحب ان أتفق معك .

- قل شروطك .

— هي ان يرجع الخناقون عن مطاردة الفتـاتين ، وفي مقابل ذلك أطلق سراحـك فتعود إلى انكلترا . وأقسم اني لا أتداخل بعـد ذلك في شؤونك .

وكان السير نيفلي يسمع كلام روكامبول وهو غائص في لجج التفكير فقطع روكامبول تصوره وقال له : لا تؤاخذني يا سيدي إذا ألححت عليك إذ لا بد لي من معرفة حقيقة عزمك في القريب العاجل .

فأجابه السير نيفلي : لا حاجة الى الانتظار لأنك ستعلم حقيقة أفكاري في الحال وهي رفض شروطك لسببين أحدهما اني لا أستطيع عصيان علي رجاه والآخر لاني وطنت النفس على الخروج من هنا .

فقال له بلهجة الهازىء لكن خروجك من هنا لا يكون من النافذة فيما أظن .

– كلا إني أعلم انك طوقت جميع النوافذ بالحديد لكني لا أجد ما يمنعني عن الخروج من الباب .

ثم وقف فجأة وقد توقدت عيناه كالجمر وأخرج المسدس من جيبه . فوثب روكامبول مسرعاً الى الباب، فقال له السير نيفلي إفتح هذا الباب أو أطلق النار عليك .

فظهرت عند ذلك علائم الخوف على روكامبول وصاح مستغيثاً بميلون فقال له السير نيفلي إنه يصل اليك لكن بعد ان تموت .

ثم أطلق المسدس فلم تخرج رصاصته ولم يسمع غير صوت الكبسول ، فأطلق طلقاً ثانياً ثم ثالثاً ، فكان نصيبها نصيب الأول . وعند ذلك سمع السير نيفلي قهقهة روكامبول ، فعلم أنه قد عبث به وسقط المسدس من يده وكان روكامبول قد صنع بمسدس السير جمس كما فعل به زامبا من قبل في رواية « الغادة الاسبانية » .

وبعد ان ضحك روكامبول ضحكاً طويلاً نادى ميلون فلما جاءه قال له : أرى أنه صار ينبغي أن نتخلص من هذا الرجل

فأيقن نيفلي هذه المرة أنه بات من الهالكين .

- ٤٠ -

ولنعد الى لوسيان ابن ميلادي الجريح ، فنقول انه عرف أمـــه فكانت معرفته بها داعية الى التعجيل في شفائه . فلما دخل في دور النقاهة تقرر ان يتزوج خطيبته ماري برتود بعد أسبوعين ، وكان سروره عظيماً في البدء ثم انقلبت مظاهر هذا الفرح الى مظاهر السويداء ، وذلك لانه أراد أن يعرف أباه كما عرف أمه فقالت له أمه : إكتفي بأنك علمت امك واعلم انه يستحيل علي الآن ان أصرح لك باسمي وباسم أبيك .

- أهو حي على الاقل ؟

- نعم ولكني أخشى انك لا تراه في الحياة .

فأطرق لوسيان برأسه وانقطع عن سؤالها .

وكان فرانز كثير التردد عليه وكلما زارته أمه صحبها اليه . فاتفق مرة انه باغته وهو ينظر اليها نظرة لا تدل على انها نظرة خادم او عشيق . فلما خلا بأمه قال لها . لقد عرفت أبي وهو الماجور هوف

- أقسم لك يا ابني أنك منخدع .

فعلم لوسيان أن فرانز عشيق أمه وزاد بلباله منذ ذلك اليوم

أما ميلادي فقد كانت تتنازعها عوامل كثيرة. فبينما هي فرحة بلقاء ولدها إذ تنكمش ويضيق صدرها كأنما قلبها كان ينذرها بمصاب اليم فكانت هـــذه الظواهر كلها تزيد في هواجس لوسيان .

وبينما كانت يوماً عند ولدها إذ دخل الماجور أفاتار عائداً فحياها أمام ولدها تحية لا تدل على أن بينهما شيئاً من العلائق وأقام هنيهة ثم انصرف بعد ان قال لميلادي سراً : إني أنتظرك قرب الباب الخارجي .

وأقامت ميلادي عند ولدها مدة وجـــيزة ، ثم ودعته وخرجت الى الشارع فوجدت روكامبول ينتظرها في مركبة فصعدت الى جانبه وأمر السائق

أن يسير الى المنزل الذي تقيم فيه فاندا .

وكانت ميلادي لم تر روكامبول منذ ٤ أيام وهي معتقدة كل الاعتقاد انه وكيل علي رجاه فقال لها : لقد طال غيابي عنك يا سيدتي لكني كنت في لندرا وأنا قادم منها الآن .

فاضطربت ميلادي ولم تجسر ان تسأله إذا كان لقي علي رجاه

وظلت المركبة سائرة حتى وصلت الى المنزل فترجل روكامبول وساعدها على النزول ثم دخل الاثنان الى قاعة الاجتماع فجلس كل منهما بازاء الآخر ودار بينهما الحديث الآتي فابتدأ روكامبول :

– قلت لك يا سيدتي إني قادم من لندرا .

– العلك رأيته فيها ؟

– من هو ؟

– علي .

– كلا لكنه سيكون في باريس قبل ٨ أيام .

ورأى روكامبول ان وجهها قد اصفر ، حتى باتت شبيهة بالأموات ، فقال لها : إسمحي لي يا سيدتي ان أخبرك عما جرى في لندرا كي تعلمي ماذا أريد منك .

– تكلم .

– لقد تغيرت الوزارة في لندرا يا سيدتي ، فتعين لوزارة البحرية والمستعمرات رجل ملء قلبه الحزم والثبات والبسالة ، فاتفق مع حكمدار الهند وهو لا يقل حزماً عنه على إبادة هذه الجمعية السرية التي يدعونها جمعية الخناقين وهي هذه الجمعية الهائلة التي يوجد بين أعضائها كثيرون من أشراف الانكليز أنفسهم .

فقالت له ميلادي بلهجة الهازىء : إذاً قد قضوا عليها بالإبادة .

– نعم يا سيدتي ، وقد صرح الوزير انه سيضطر الى محاكمة كثير

من النبلاء . لان أسرار هذه الجمعية التي يتولى رئاستها علي رجاه قد انفضحت .

– من الذي فضحها ؟

– هو رجل عرف تاريخ حياة علي رجاه وماضي مس الن بركنس .

فأظهرت ميلادي علائم القلق غير أن روكامبول اندفع في حديثه قائلا : وان هذا الرجل عرف أيضاً السبب الذي وشمت من أجله بنات بعض نبلاء الانكليز باشارات سرية وكرست للالهة كالي .

– أحق ان هذا الرجل يعرف كل هذه الاسرار ؟

– نعم وقد باح بها للوزير فوعد الوزير بمعاقبة الآثمين

– إن ذلك صعب لعدة أسباب أحدها ان هذه الجمعية متسعة متشعبة في جميع الأقطار .

– هو ما تقولين . وليس لها على امتدادها وتشعبها غير رئيس واحد وهو علي رجاه .

– ثم ان علي رجاه لا يقيم في لندرا .

– نعم لكنه سوف يحضر الى باريس .

– وماذا يستطيع البوليس الانكليزي أن يصنع في هذه العاصمة الفرنسية ؟

– لا يستطيع ان يصنع شيئاً. لكن الرجل الذي باح بأسرار الجمعية للوزير الانكليزي تعهد له ان يسلمه علي رجاه .

– دون إذن حكومة فرنسا ؟

– دون شك حق ان البوليس الفرنسي نفسه لم يعلم ان علي رجاه جاء الى باريس .

– هذا الرجل قد تطرف بوعده ولا أظنه يلاقي غير الفشل .

فتبسم روكامبول قائلا : إنه لم يقتصر في وعده على هذا الحد بل انه وعد

أيضاً بتسليم مس الن .

فاضطربت ميلادي وقالت . كيف ذلك أيسلمني أنا ؟

– نعم ياسيدتي إن لديه أوراقاً تثبت انمس الن قد قتلت أباها الكومندور بالاشتراك مع علي وخادم كان يدعى فرانز .

– هذا مستحيل إذ لا سبيل الى الاثبات .

– إنك مخطئة لان لديه برهاناً عظيماً ، وهو مذكرة كتبها المسيو بب وكيل مس الن فوصلت الى هذا الرجـــل وفيها كل ما يحتاج اليه من البراهين القاطعة .

فلم تكترث ميلادي لهذه البراهين وقالت له : أظن ان لك سلطة علي رجاه فتستطيع تلافي هذا الخطر .

– إنك مخطئة يا ميلادي لان الرجل الذي سيسلم علي ومس الن وفرانز وزعماء الخناقين هذا الرجل يا ميلادي هو أنا .

فصاحت ميلادي صيحة منكرة ونظرت الى روكامبول نظرة ملؤها الرعب كأنما هوة عميقة هائلة قد انفتحت بينها وبين روكامبول .

ثم خطر لها ان هذا الرجل هو حقيقة وكيل علي رجاه لكنه يحاول تجربتها فبقي لها شيء من الأمل .

غير ان روكامبول ضرب على هذا الرجاء وأضاف : لقد كان لك يا سيدتي أخت تدعى مس أنا .

فاضطربت ميلادي وأجابت : أتعرف هذا أيضاً ؟

– نعم وانك خنقتيها .

– لست انا التي خنقتها بل علي .

– إنك وعلي واحد أليس كذلك ؟

فأطرقت برأسها ولم تجب . أما روكامبول فعاد الى حديثه قائلا : وإن أختك ماتت عن فتاة تدعى جيبسي ، ولهذه الفتاة الحق بإرث أموال أمها

التي اختلستموها .

فوقفت ميلادي ، وقد اتقدت عيناها بنار الغضب وقالت : كلا هذه الثروة لولدي .

فضحك روكامبول قائلاً : أواثقة أنت مما تقولين ؟

- قلت لك انها لولديَ لأني اشتريتها بحياة ملؤها الجرائم واليأس .

— إني كنت أنتظر منك هذا الإقرار .

— وأنا لا أفهم ما تقول لأني لا أستطيع حل الألغاز .

— إذاً إصغي إلي إني موضح لك ما خفي عنك إعلمي ان ابنك شريف جميل باسل وهو لا يغمس يده بهذه الثروة المدنسة وإذا قيل لابنك لوسيان ان هذه النقود التي ستنفقها على زواجك وهذه الهدايا التي ترسلها الى عروسك وهذا البذخ الذي تعده لها ولك وجميع هذه الأموال قد وصلت اليك من الجريمة فماذا تظنين أنه يجيب ؟

ورأى روكامبول انها أنت أنيناً مزعجاً وأخفت رأسها بين يديها فقال لها: إصغي إلي إن الموقف خطير وإني أحب الاتفاق معك .

فنظرت اليه وقالت : على ماذا تريد الاتفاق ؟

- إني أعرف كل تاريخك ولدي ما أحتاج اليه من البراهين لإثبات جرائمك ولا أسهل علي من تسليمك الى الحكومة الانكليزية غير اني لا أفعل هذا إلا حين أقنط من الاتفاق معك

فقالت له بلهجة المتهكم : أراك يا سيدي كثير الإشفاق فهل تريد أن تخبرني سبب هذه الرحمة ؟

- نعم ، والسبب هو ابنك ولو لم تكوني ام لوسيان لما وجدت في قلبي ذرة من الرحمة

— إذاً لا تسلمني الى الحكومة

ثم نظرت نظرة سريعة الى ما حولها ، كأنها قد خطر لها خاطر الفرار

فابتسم روكامبول وقال · إطمئني يا سيـــدتي فليس في نيتي أن أحبسك عندي . لكنك تخطئين كل الخطأ إذا خرجت من هنا قبـــل ان نتفق الاتفاق النهائي .

– قل ماذا تريد مني ؟

– إنك شديدة الجرأة والدهاء وإذا وقفت أمام المحاكم فقد تنكرين كل ما يتهمونك به كل الإنكار . نعم ان القضاة لا يكترثون لإنكارك ويحكمون عليك لكن ابنك قد يبرئك لما يسمعه من شد إنكارك وهذا ما أريده بل أريد أن يكون لك قاضياً واحداً وهو ابنك .

فـارتعشت ميـلادي وقالت · كـلا ، إنك لا تبلـغ بقسوتك الى هذا الحد .

– بل أعمل أعظم من ذلك إذا لم ترجعي الثروة المسروقة .

– أأجرد ابني وأجعله من الفقراء ؟

– ذلك لا بد منه

– بل ذلك لا يكون ما دام بي عرق ينبض .

– إصغي إلي أيتها السيدة ، إن أباك الكومندور بركنس قد مات عن ثروة عظيمة ، وقد أوصى بهذه الثروة كلها لأختك مس أنا فأصبحت كلها بيديك .

– ان ما تقوله قد يكون أكيداً غير انه يوجد ما تجهله .

– ما هو ؟

– هو اني خبأت هذه الثروة في موضع لا يمكن ان تهتدي اليه الحكومة ولا أنت ولا علي رجاه الذي لم يقبض الى الآن غير نصف ايراد تلك الثروة الطائلة .

– لاأنكر إني لا أعلم موضع الثروة ولأجل ذلك رأيت ان أستخدم الطريقة الوحيدة التي تحملك على الإقرار

فتظاهرت بنفاذ الصبر وقالت : تريـــد ان تخبرني ان هذه الطريقة هي ولدي .

– نعم إذ لا أجد أفضل منها لان ابنك متى علم جميع جرائمك ينتحر دون شك ويؤثر الموت على العار .

فصاحت ميلادي صيحة تبـــين منها ضعفها ، غير أن مظاهر هذا الضعف تبدلت في الحـــال ، وقالت : ومن يضمن لك ان ابني يصدق ما تقول ؟

فتنهد روكامبول وقال : إن إقناعه منوط بي ، والآن أنظري يا سيدتي الى الليل فقد أخذ يبسط جناحيه ، ولا أحب ان يخطر لك اني ناصب لك فخاً لأن أمثالنا يتحاربون وجهاً لوجه ولا يستعملون الغدر ويستخدمون أفضل ما لديهم من الأسلحة .

– لقد عرفت سلاحك فاعلم اني لا أخشاك .

– وأنا محضتك خالص النصح وأمهلك الى الغد .

– وإذا أبيت غداً إجابة سؤالك ؟

– يعلم ابنك كل شيء ولا تقع التهمة إلا عليك .

– إذاً الى الغد .

ثم وقفت تحاول الذهاب فنادى روكامبول ميـــلون قائلاً له : أحضر مركبة للسيدة .

وبعد ربع ساعـة كانت ميلادي سائرة الى الفندق وقلبها ملؤه الحقد واليأس ، ولكنهـا كانت مصممة على ان لا ترجع فلساً من تلك الثروة المخصصة لابنها .

ولما ذهبت دخلت فاندا الى غرفة روكامبول وقالت له : إني لم أفهم شيئاً أيها الرئيس مما فعلت .

أجابها : إن ساعة العنف والإكراه لم تحن بعد ، لأن ميلادي شديدة

العناد والكبرياء ، فهي قد تصعد من تلقاء نفسها الى درجات المشنقة ولا تخبرنا بمكان ملايين النورية ، ونحن لا نحتاج الان الى رد هذه الملايين .

- ٤١ -

في الوقت نفسه الذي خرجت فيه ميلادي من عند روكامبول الى الفندق الذي كانت تقيم فيه في شارع اماريسان ، كان قطار باريس قد وقف في المحطة فنزل منه رجل نحاسي اللون أسود العينين والشعر غير ان الشيب كان قد وخط بعض شعره فكان يظهر في رأسه شبه النجوم وله أسنان ناصعة البياض ولحظ براق .

وكان يصحبه رجلان لهما ذات لونه النحاسي وهما حسنا الملابس على أنهما لم يكونا غير خادميه .

وكان الرجل قادماً من الاستانة الى باريس بطريق البر فاجتاز الدانوب وفيينا والمانيا وهو مسافر بجواز تركي كتب فيه اسمه رستق باشا .

وكان أحد هذين الرجلين اللذين يصحبانه يشغل عنده وظيفة ترجمان ، فلما نزلوا من القطار ، أحضر مركبة وأمر بنقل الأمتعة اليها ، ثم أمر السائق ان يسير بهم الى الجران اوتيل ، وهو الفندق الذي تقيم فيه ميلادي وفرانز .

وبعد هنيهة وصلت المركبة الى الفندق فخرج منها رستق باشا وأمر أن يعدوا له أفضل مكان في الفندق ولم يكن يتكلم الا بواسطة الترجمان إذ كان يظهر انه لا يعرف كلمة من اللغة الفرنسية .

وبينما كان خدام الفندق ينقلون أمتعته وخادماه منشغلان بإعداد الغرف

التي عينت له جمل رستق باشا ، او هذا الهندي الذي يدعى انه من الأتراك ، يتنزه ذهاباً وإياباً على رصيف الشارع .

وكان على ادعائه انه من الأتراك لابساً ملابس الاوروبيين فلم ينتبه أحد اليه ولم يزعجه المارة بشيء .

وبعد حين جاء الخادم وأخبره ان الغرف قد تهيأت فأشار له ان ينصرف وبقي يتنزه على الرصيف وينظر الى المركبات التي تدخل كل حين الى هذا الفندق الكبير .

وفيما هو على ذلك إذ رأى مركبة قد دخلت الى الفندق ورأى فيها إمرأة صفراء الوجه تدل هيئتها على انها في اضطراب شديد فارتعش حين رآها وقال باللغة الانكليزية : هذه هي مس الن .

وعند ذلك أسرع ووقف وراء المركبة بحيث لا تراه حين خروجه . أما ميلادي ، وكانت هي نفسها عائدة من عند روكامبول ، فإنها لما خرجت من المركبة ، أسرع اليها أحد خدام الفندق فقالت له : هل عاد الماجور هوف ؟

— كلا يا سيدتي إنه لم يعد بعد

وكانت ميلادي شديدة الاضطراب ، وعلائم القلق والحيرة بادية على وجهها ، بحيث انها لم تنظر الى أحد من الذين كانوا حولها ، ولم تر ذلك الغريب الذي كان واقفاً وراء المركبة وعيناه تتقدان فإنه لم يكد يسمع اسم الماجور هوف يخرج من شفتيها ، حتى اضطرب واصفر وجهه اصفراراً شديداً .

أما ميلادي فإنها صعدت والخادم أمامها الى غرفتها وخلت الى نفسها .

وقد كانت أظهرت شيئاً من الجلد أمام روكامبول غير انها حين أتت و[illegible]دها فكرت في أمورها فعلمت انها شديدة التعقيد لا تحل إلا بارتكاب الجرائم الهائلة أو بالتخلي عن المال .

ثم افتكرت أن ولدها إذا عرف آثامها أنكرها واحتقرهـــا وأنف من مالها ، بل ربما أفضى به اليأس إلى الانتحار كما قال لها روكامبول فهاجتهـا عواطف الحنو وأوشكت أن تجن من اليأس .

ولكنها عادت إلى التفكير بهذه الثروة التي لم تنلها إلا بعد إهراق الدمـاء وأنها أودعتها في مكان خفي لا يمكن أن تنالها يد مغتصب ، فعز عليها تسليمها لاسيما وقد عودت ولدها عيشة البذخ والترف وقالت له حين عرفته انك أغني غني في فرنسا ، فكيف تستطيع أن تقول له الآن انك أفقر فقير .

وقد علمت من محادثتها مع روكامبول انه خصم شديد عنيد لا يسلم من يخوض معه في مجال الأخطار ، فإذا لم يسرع خصمه بالتأهب كان من الخاسرين لا محالة .

ولم يكن لديها غير رجل واحد يستطيع أن يخدمها في مثل هذه المهمات وهو فرانز ، فأسرعت إلى الاجتماع به ولكنـــها وجدت انه لم يعد بعد إلى إلى الفندق كما تقدم .

أما فرنز أو الماجور هوف فإنه كان يقيم معظم الليل في النادي مع اللاعبين ولا يعود إلا بعد انتصاف الليل .

وكان جميع من في الفندق يعلمون اتصال فرانز بميلادي ، ونادت ميلادي الخادم الذي لقيته حين وصولها وإمرأته أن لا ينام قبل عودة الماجور هوف ، وان يخبره حين عودته انها بانتظاره .

وانصرف الخادم وفتحت ميلادي نافذة غرفتهـا ووقفت تستنشق الهواء البارد إخماداً لثورة غضبها المتوقد في فؤادها .

ولبثت على هذه الحالة نحو ساعة وهي تفكر في طريقة تعينها على الفرار من روكامبول وانقاذ ولدها منه وأمنها مطاردته فلم تجد لذلك وسيلة .

وفيما هي على ذلك سمعت وقع أقدام في الرواق المتصل بغرفتها فقالت في نفسها . هوذا فرنز قد عاد ، ثم سمعت بابها يطرق فأذنت للطارق بالدخول

وعند ذلك فتح الباب ودخل منه رجل لم تكد تراه ميلادي حتى ذعرت ذعراً شديداً وكاد يغمى عليها من الخوف..

أما هذا الرجل فلم يكن روكامبول ولا فرنز بل كان ذلك الرجل الذي انتحل لنفسه اسم رستق باشا فتقدم من ميلادي ببطء وهو مشبك يديه فوق صدره قائلاً لها : أعرفتيني يا مس الن ؟

فوهت ركبتاها وسقطت على كرسي كانت واقفة بالقرب منه وهي تجيب : علي رجاه ..

فاستل علي خنجراً لأن هذا الهندي المتنكر كان علي رجاه رئيس الخناقين الأعظم في الهند وأجابها : نعم أنا هو علي رجاه وقد أتيت لعقاب الخائنين .

- ٤٢ -

وكان علي رجاه ينظر اليها نظرات هائلة ويدنو منها والخنجر مشهر بيده وهي تنظر اليه مبهوتة وأسنانها تصطك من الخوف .

ثم دنا منها أيضاً وقال : أي مس الن أين ضاعت تلك العهود والمواثيق ، وكيف نكثت بذلك الايمان .. انك لا تجيبين بحرف ولكني أعرف كل شيء فإن قلبك قد ملكته لسواي وأنت تكرهينني الآن ..

فركعت أمامه وقالت : أسألك العفو .

- لا عفو عندي ولا رحمة وسيكون الموت عقابك وعقاب فرنز ولكني أريد أن أعرف قبل ذلك أين ولدي ..

وقد تهدج صوته حين قال ولدي وبدت فيه لهجة الحنان كأنما هذه اللفظة كانت ماء على جمر غضبه المتوقد .

أما ميلادي فكانت تنظر اليه برعب ، لكنها على رعبها كانت تبدو عليها

ملامح الاعجاب به ، لأن شمس الهند المشرقة لم تؤثر على جماله ، ولم تحدث تلك الأعوام الطويلة أقل أثر في جبينه فكان لديها كما نظرته لأول مرة .

وعاد علي إلى القول : أين ولدي ؟

وكان الخنجر لا يزال في يده غير ان لهجة حنوه طمأنت ميلادي فقالت له : انه في باريس أراه كل يوم وهو يعبد أمه عبادة .

والقى علي خنجره كأنه يخشى أن تسبقه يده إلى الانتقام وكانت ميلادي لا تزال راكعة فقالت له لا أنكر أن زلتي عظيمة ولكنني أرجو أن يكون عفوك أعظم ، فإنك هجرتني عشرين عاماً لم أرك فيها ولم تكتب لي في خلالها حرفاً ، بل كنت تصدر الي أوامرك الهائلة بواسطة عبيدك . ألم تمنعني كل هذا الدهر الطويل أن أري ولدي ؟ ألم أعش هذا العمر معتزلة عن الناس كما يعيش النساك ، وأنا أنتظر عودتك دون أن يتحقق هذا الرجاء ؟

– لم يكن أمري بيدي وأنت تعلمين المنصب الذي كنت فيه .

– أما أنا فقد كنت وحدي مسترسلة إلى الأحزان تتمثل لي ذنوبي ، ويقتلني تقريع الضمير ، وليس لدي صديق اتنفس به وأفرج بعشرته همومي وقد تركت لي في خدمتي رجلاً أنت جعلته شريكاً لي في الجريمة وهو رجل شقي سافل غير انه كان عارفاً باسرار جرائمي فلزمني لزوم ظلي وتدله بغرامي .

ثم زحفت على رجليها إلى علي رجاه وقد شعرت ان حب هذا الرجل قد عاد إلى فؤادها ، وعادت سلطته القديمة ، وهو الرجل الذي أغرت فرنز على قتله ، وقالت له بلهجة القنوط . نعم إني كبحت جماح نفسي أعواماً طويلة ، لكن هذا الرجل الصبور تغلب على علي رجاه في ساعة ضعفت فيها نفسي ونكثت بعهودي وخنت عهدك المقدس ، فأنا أستحق أفظع موت فاقتلني كما تشاء ، لكني التمس منك أن تأذن لي قبل الموت أن أرى ولدي .

فأوقفها علي بيده ونظر اليها نظراً طويلاً وهي منكسة الطرف وقال لها : انك لا تزالين جميلة

وعلمت ميلادي انها نجت من قبضته .

أما علي فقد تابع بعد سكوت طويل . اني أريد قتل هذا الرجل وسأقتله لا محالة .

فأطرقت ميلادي برأسها إلى لأرض وقد تخلت عن الماجور هوف

وعاد علي إلى الحديث فقال إني الآن حر وقد سلمت سلطتي الهائلة التي طالما أقصتني عن أوروبه فلم أعد أدعى علي رمجاه زعيم الخناقين ، بل أنا أدعى الآن رستق باشا فلا تستطيع حكومة الهند والحكومة الانكليزية وصولاً إلي وأنت غنية وأنا غني وقد أتيت للبحث عنك .

- إلى أين تريد أن تذهب بي ؟

- إلى البلاد الأميركية فإن سفينة لي تنتظرني في الهافر .

- وولدنا ؟

- يسافر معنا . .

- ولكنه شاب جميل عازم على الزواج . .

- إذن تسافر خطيبته معنا . .

وبينما كان علي رمجاه يخاطبها كانت تتذكر ما قاله لها الماجور أفاتار والشروط التي عرضها عليها قبل ساعة فأخذت يد علي رمجاه بين يديها وقالت له بصوت مضطرب دل على مبلغ خوفها أنظن يا علي انك حر ؟

- دون شك

- ولكنك منخدع فقد يقبضون علينا ونصبح أسيرين بعد يومين.

ومن الذي يأسرنا ؟

- تقبض علينا الحكومة الانكليزية فتحاكمك بصفتك زعيم الخناقين ، وتحاكمني أنا لقتلي أبي

فضحك ضحكاً عالياً وقال : انك تعلمين ان الحكومة الانكليزية عينت جائزة عظيمة منذ أعوام كثيرة لمن يأتيها برأسي ، ولا يزال هذا الرأس مركباً

على هذا البدن كما ترين

- ولكن خطر اليوم غير خطر أمس .

- كيف يكون هذا الخطر وكيف يقبضون علي وأنا مسافر بجواز عثماني وأدعى رستق باشا ؟

- إنك منخدع فليست الحكومة التي تقبض عليك بل الماجور أفاتار .

ثم قصت عليه جميع ما جرى لها مع روكامبول ، ولما أتمت حديثها ضحك علي رجاه قائلاً : ايوجد من يجسر على التعرض لي ؟ إذاً سأسحقه سحق الزجاج

- وهو يسحقك .

وغضب علي ولكنه ما لبث أن عاد إلى السكينة فقال : تقولين أن هذا الرجل أمهلك ٢٤ ساعة للفتكير .

- نعم ..

ولكننا سنكون خارج باريس قبل هذه المدة أنا وأنت وولدنا وخطيبته .

وفيما كان علي يتكلم ، سمع وقع أقدام في الرواق ثم قرع باب الغرفة فاصفر وجه ميلادي ثم فتح الباب ودخل منه الماجور هوف أي فرانز فاضطربت ميلادي اضطراباً عظيماً وغطت وجهها بيديها .

- ٤٣ -

وقد اضطرب فرانز أيضاً حين دخوله لأنه يعرف نفوذ ذلك الهندي الهائل أما علي فإنه وثب مسرعاً إلى الباب فأقفله ووقف بينه وبين فرانز حذراً من فراره

أما فرانز فإنه نظر نظرة الفاحص إلى ميلادي فأطرقت بنظرها إلى الأرض ، وعلم أن الهندي قد عاد إلى تسلطه على قلبها .

ودنا علي رجحاه من فرانز وقال له ايها العبد الزنيم انك تجاسرت على رفع عينيك إلى المرأة التي أحبها فوجب أن تموت .

ثم أسرع إلى الأرض والتقط ذلك الخنجر الذي رماه حذراً من أن تبتدره الحدة فيطعن به ميلادي .

غير أن فرانز لم يكن هياباً وقد دبت الحماسة إلى قلبه بحضور ميلادي ، وكان هو أيضاً ضخم الجثة عريض المنكبين شديد العضلات كعلي فاستل خنجره وقال لعلي : انك مخطىء فما أنا بعبد وما أنا بخادم .

فقال له علي بلهجة المحتقر إذاً أنت ماذا ؟

- أنا رجل رفعتني ميلادي اليها وساوى الحب بيني وبينها في كل مقام .

فلم يجبه علي ، ولكنه التفت إلى ميلادي وسألها : اتسمعين ما يقوله هذا الرجل .

وأطرقت ميلادي بعينيها دون ان تجيب فقال لها علي : إن هذا الرجل يفتخر بأنك تحبينه فقولي له انه سافل منحط لا يستحق منك نظرة رفق .

وقال لها فرانز : قولي إذن لعلي رجحاه أن شفتي تقبل شفتيك منذ عشرة أعوام ، وان الحب قد الف بين قلبينا فكنا نقتسم السراء والضراء وكنا روحاً واحدة في جسمين .

وسكتت ميلادي ولم تجسر على النظر إلى واحد من هذين الرجلين اللذين سيقتتلان من أجلها ، اما فرانز فإنه هز الخنجر بيده وقد غضب لصمتها وقال : أرى ان هذا الرجل قد أخافك يا الن وقد تهددك بسلطته السرية الهائلة ولكني لا اخشاه ولا اخشى هذه السلطة .

وكأنما هذه الكلمات قد اذكرت ميلادي ما كانت تعلمه من بأس علي رجحاه ووازنت بين قوة الرجلين ورجحت في تصورها كفة علي ثم ذكرت انها ابنة أعظم نبلاء إيكوسيا ، وانها قد انغمست في حب خادم لها فنظرت إلى فرنز نظرة ساحقة وقالت له : ايها العبد الزنيم انك كاذب فما انت إلا من اسفل الخدم

وما أحببتك في حياتي بل انا احتقرك .

وصاح فرانز صيحة منكرة وطاش رأسه واتقدت عيناه ثم انقض بخنجره على ميلادي وقال إنك ستموتين قبله ايتها الفاجرة الخائنة .

ولكنه قبل ان يتمكن من الوصول اليها وطعنها الطعنة القاتلة سمع صوتاً في الغرفة يشبه الصفير ثم شعر ان حبلاً قد التف على عنقه وجذبه فسقط على الأرض لا يعي .

وقد اطلق علي عنقه هذا الحبل علي رجاه وهو سلاح الخناقين الهائل ولما رأى علي ان فرنز سقط على الأرض سقوط الأموات اسرع إلى ميلادي وهي توشك ان تجن من الرعب فتأبط ذراعها وقال لها هلمي بنا الى ولدنا لنأخذه ونهرب .



ومع ذلك فإن روح فرنز لم تفارق جسمه الذي لا يتحرك ولا يعلم إذا كان مات او بقي حياً بعد ان التف ذلك الحبل الهائل على عنقه غير ان روحه الخالدة لم تضمحل ، ولم تفقد حاسة الحقد والغيرة فحدثت أعجوبة يستحيل تأويلها ، غير انها لم تكن دون مثيل روى العلماء كثيراً من هذه الحوادث العجيبة .

ذلك ان روح فرانز اجتازت الفضاء وجعلت تقتفي اثر علي رجاه وميلادي خطوة خطوة .

ولا يعلم كم امضت في طوافها واقتفائها اثر هذين العدوين .

وقد مضى الليل واقبل النهار ودخل الخدم الى تلك الغرفة التي تركتها ميلادي فوجدوا الماجور هوف طريحاً في ارضها لا حراك فيه واسرعوا الى احضار الطبيب ، ولما فحصه قال انه ميت .

وكان يوجد في الفندق في ذلك الحين رجل روسي جاء لزيارة احد النازلين

في الفندق ، ولما ذاع خبر موت الماجور هوف تقاطر جميع من كان في الفندق الى غرفته وبينهم الروسي ، ودنا من فرنز ففحصه وقـال للطبيب : اظن يا حضرة الدكتور انك مخطىء فإنه لم يمت بعد .

واستاء الطبيب وقال له باحتقار : العلك يا سيدي من الأطباء ؟

— إني أدعى الماجور افاتار وانا طبيب حين تدعوني الصدف الى ممارسة هذه الصناعة . ثم تركه ودنا من سرير فرانز وقال : إني سأحيي هذا الميت .

— ٤٤ —

في هذه الليلة نفسها شعر لوسيان بعد ان ذهبت امه بحزن شديد تولد عن اسرار مولده الخفية وكتمان امه عنه حقيقة مولده واسم ابوه .

وكان لوسيان قد نسي هذه المشاغل قبل شهر لانشغال فؤاده بحب خطيبته وكان يرى المستقبل باسماً له ، ولكنه بعد ان لقي امه اظلم هـذا المستقبل في عينيه وقد حاول تلك الليلة أن ينام فلم يستطع إطباق جفنيه ولم يـذق طعم الرقاد وعادت اليه الحمى كما كانت في أول عهد جرحه .

ودقت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل وهو يتقلب على فراشه منكمش الفؤاد ، كأنما قلبه كان ينذره بأمر هائل ، وفيما هو على ذلك سمع جرس الباب الخارجي يدق فاضطرب قلبه لعلمه أن هذا القادم بعد منتصف الليـل لم يحضر إلا لشأن خطير .

وفتح أحد الخدم الباب الخارجي وبعد هنيهة رأى ان باب غرفته قد فتح ودخلت منه امه فقال لها : لقد علمت انك انت القادمة حين طرقت الباب ، فإن قلبي كان يحدثني بقدومك لشأن خطير .

— لقد صدق حديث قلبك يا بني فإني ما اتيت في هذه الساعـة المتأخرة

إلا لتوديعك وداع الأبد .

وصاح لوسيان وأخذ يدها بيديه فضغط عليها ضغطاً شديداً وقال : كيف تفارقينني فراق الأبد وأنا لم أكد أعرفك ، اتريدين لي الموت يا أماه ؟

- اريد ان تكون أسعد انسان في الأرض .

- كيف أكون سعيداً وانت تنذرينني بهذا الفراق الأبدي . واي فرق بينه وبين الموت ؟

- إنك ستعيش سعيداً مع امرأتك فتسلو فراقي وهذا ما قدر لي يا بني فاني ما اتيتك في مثل هذه الساعة لتوديعك واخبارك بما اشكل عليك من أمري فانك لم تعرف سوى اني امك حتى انك تجهل اسمي .

واقد قلت لك انك لن تعرف أباك إلى الأبد ولكني لا أريد في مثل هذه الساعة الرهيبة ساعة الفراق الأبدي ان ادع في فؤادك أقل أثر للريب بي يدعوك إلى احتقاري .

- انا احتقرك يا اماه وانت عندي أجل النساء وكفى انك امي .

- اصغ الي يا لوسيان ان اباك حي وهو يحبك كما أحبك ، بل هو الآن في باريس .

فوثب لوسيان من فراشه وقال : ايكون ابي في باريس ولا أراه ؟

- لا سبيل إلى أن تراه فانه سيبرح باريس قبل الفجر فلا يراك ولا تراه إلى الأبد ، ولا تعجب لذلك يا بني فاني مسافرة معه قبل الفجر ، ولهذا اتيت لتوديعك بعد منتصف الليل ، ثم يجب ان تعلم يا بني ان أباك لا يحضر إلى المدينة التي تقيم فيها ولا يراك ، وان امك لا تفارقك هذا الفراق الذي لا لقاء بعده ، إلا وقد حكمت عليهما الأقدار هذه الأحكام الجائرة .

ثم اندفعت في البكاء فكاد لوسيان يجن من اشفاقه وجعل يقبل امه ويبكي معها ، فمسحت ميلادي دموعها وقالت : ان اباك يا لوسيان قد حكم عليه بالاعدام .

وانذعر لوسيان حتى اوشك أن يسقط على الأرض ، ثم عاد اليه رشده وسكينته وقال : أريد ان اعرف الحقيقة مهما كانت ومهما كان وقعها شديداً علي .

– نعم يا ولدي يحق لك ان تسأل معرفة هذه الحقيقة ، فاسمع الآن تعلم كل شيء . اني انكليزية وابوك هندي ، اما انا فاني من اشرف اسرات ايكوسيا واما أبوك فهو احد ابناء ملوك الهند الذين اغتصب ملكهم الانكليز .

وتنفس لوسيان الصعداء وقال : إذاً ان ابي لم يكن من المجرمين .

– ان أباك اعظم نبيل وقد اراد الانكليز ان يستعبدوه كما استعبدوا سواه فأبت نفسه الكبيرة حمل الضيم ، ودافع دفاع اليأس عن عرش أجداده وقاتل قتال المستبسل المستميت وطالما كسر جيش الانكليز شر انكسار لأنه كان يقود الهند بنفسه إلى ان خانته الأقدار وخسر معركة كبرى وقع فيها اسيراً بأيدي الانكليز ، وأرسلوه الى لندرا وقد عرفته واحببته واحبني حباً يشبه العبادة .

وكان أبي حاكماً في الهند وقد أقام في تلك البلاد دهراً طويلا ، وكان يحتقرهم ويكرههم اشد الكره ، ولو علم بحبي له لكان قتلني لا محالة .

غير ان كره أبي للهنود لم يمنعني عن حب هذا الفتى واتفقنا على الزواج وعقد زواجنا بالسر كاهن من الكاثوليك .

فبرقت أسرة لوسيان بأشعة الفرح وقال : إذاً ان ولادتي شرعية ولا شك في نسبي .

– هذا لا ريب فيه يا بني ، لأن امك لا ترتكب إثماً غير انك ابن رجل مضطهد ، ولنعد الآن إلى حكاية ابيك فانه تمكن من الفرار من لندرا بعد زواجنا على باخرة تجارية فحملته إلى الهند وهناك جمع بقايا جيشه وعاد إلى مقاتلة الانكليز وقاتلهم ٣٠عاماً كان يتراوح في خلالها بين الانتصار والانكسار فتارة يدحر اعداءه الى شاطىء البحار وطوراً يدحرونه فيعتصم في الجبال .

إلى ان قنط الانكليز منه فجعلوا يرسلون لقتاله الجيش تلو الجيش حتى أفنوا جنوده واضطر إلى مبارحة الهند والكف عن القتال لاحاق جنده

ولما علمت الحكومة الانكليزية بفراره عينت جائزة عظيمة لمن يقبض عليه وبثت العيون والأرصاد في كل مكان فهي تقبض عليه اينما وجدته .

فسألها لوسيان : أيمكن القبض عليه وهو في فرنسا ؟

– نعم ، فان القبض عليه لا يكون مباشرة لأنه يوجد في باريس عصابة تنتظر قدومه للقبض عليه بالسر .

– أكانوا يعلمون انه سيحضر إلى باريس ؟

- نعم فانهم كانوا يعلمون انه له فيها ولد وامرأة ..

ففرح لوسيان وقال : إذن سأراه ..

– كلا ، لأنه يسافر في هذه الليلة إلى الهافر وهناك سفينة تنتظره للذهاب به إلى اميركا حيث يكون آمناً من الانكليز ولهـــذا جئت اليك كي أودعك الوداع الأخير ..

– إذاً انت تسافرين ؟

– لا بد لي ان اتبع زوجي .

فطوق لوسيان عنق امه بذراعيه وقال : كيف ابقى هنا وحدي ومــاذا يمنعني من السفر معك ؟

– أنت تسافر معنا إلى اميركا ؟

– بلا ريب ..

– وخطيبتك ؟

– تسافر معنا ..

– اتظنها ترضى بالسفر ؟

– انها ترضى بكل ما ارضاه .

– أتعلم انه يجب ان نسافر بعد ساعة ؟

– لا شيء يحول دون سفري وسفر خطيبتي فان ساعة تكفينا للتأهب .

وعند ذلك سمعا مركبة وقفت عند باب المنزل فقالت ميلادي : هوذا قد جاء ليسير بي . ثم طرق الباب الخارجي ففتح ودخل منه علي رجاه فاجتاز حديقة المنزل وصعد اليه فقالت له ميلادي ابشر يا بني فسترى اباك

وبعد ذلك بخمس دقائق كان هذا القاتل السفاك يضم لوسيان إلى صدره وعلائم الحنو بادية بين عينيه وكانت ميلادي واقفة بالقرب منهما تنظر نظرات الاعجاب إلى الولد وابيه وحسب لوسيان ان اباه من ابطال التاريخ ، وان امه من ملائكة الطهر فصاح صيحة فرح وقال : اني اسافر معكما الى اقصى مكان في المعمور .

فقالا : اذاً هلموا بنا فان الوقت غير فسيح

وأسرع لوسيان الى لبس ملابسه وخرجوا جميعهم الى منزل خطيبته ماري وأخبرها لوسيان بجميع ما اتفق فوافقت على السفر وخرجت معهم فساروا جميعهم الى الهافر .

أما ميلادي فكانت في جميع تلك المدة مضطربة اشد الاضطراب لخوفها من روكامبول ولم تكن خائفة من أن يمنعهم عن السفر بل كان معظم خوفها من ان يرى لوسيان ويقول له ان هذا الرجل الذي حسبته من ابطال التاريخ هو من ابطال اللصوص وتلك الأم التي حسبتها من ملائكة السماء هي قاتلة اختها وابيها ، وهي شيطان بصورة انسان .



ولنعد الآن الى فرانز ، لقد تركناه فاقد الرشد في الجران اوتيل بين طبيب يقول انه ميت لا رجاء منه وبين روكامبول الذي كان يثبت انه من الأحياء .

وقد خرج الطبيب مستاء وبقي روكامبول وكثير من الناس في الغرفة فقال لهم روكامبول اني احتاج ان اكون وحدي مع هذا العليل ، فخرج الجميع

ولم يبق في الغرفة إلا روكامبول وفرنز .

وأخذ روكامبول مسحوقاً وأذابه في كأس ماء ثم اجلس فرانز في سريره وفتح فمه وسقاه ذلك المسحوق وجعل يفرك صدغيه بالخل ولم تمض هنيهة حتى اهتز فرنز في السرير ثم زاد الاهتزاز وجعل يتنهد .

غير انه لم يستيقظ ولم يفتح عينيه ولكن شفتيه تحركتا وخرجت منهما لفظة ميلادي بصوت ضعيف يشبه الهمس فأقفل روكامبول باب الغرفه من الداخل وأقبل يصغي إلى كلماته لوثوقه انه مصاب بالنوم المغناطيسي وسمعه يقول بصوت متقطع دون أن يفتح عينيه : أي ميلادي اني اعلم اين هربت وإلى أين رحلت ، ولكن الأرض مهما اتسعت فلا يمنعني اتساعها عن طوفها والوصول اليك .

ولم يخطىء روكامبول فإنه كان في حالة النائمين ذلك النوم المغنطيسي وذكر في الحال باكارا وتلك الفتاة اليهوديةالتي كانت تنومها فتعلم منها أسرار أندريا وروكامبول فدنا من فرانز ووقف أمامه كما يقف من يحاولون التنويم وجعل يشير إلى جبهته تلك الاشارات الاصطلاحية ويمد يده من فوقها دون أن يلمسها وكان فرنز يظهر مقاومة الجواد العاصي على مروضه إلى ان ظهرت منه إشارة الخضوع فوضع عند ذلك روكامبول يده على جبينه وقال له : آمرك ان تنظر .

وأظهر فرانز جهداً عظيماً يدل على انه يمتثل بالرغم عنه ثم قال : اراهما أرى الاثنين .

فقال روكامبول : من هما ؟

- ميلادي .

- حسناً ، ومن الثاني ؟

- علي رجاه فان الاثنين قد برحا باريس .

فاضطرب روكامبول وقال : متى ؟

- هذه الليلة ..

– إلى أين ذهبا ؟

– إلى البحر .

– الا ترى سفينة ؟

– نعم ...

– ما نوعها ولونها ؟

– من نوع الابريق مدهونة بالدهان الأسود ..

– ومن ترى فيها ؟

– ميلادي

– العلها وحدها ؟

– كلا فهي مع علي رجحاه و .

– أيوجد معهما أحد ايضاً ؟

– نعم رجل وامرأة ..

– أتعرفهما ؟

فسكت فرنز هنيهة ثم قال : نعم عرفتهما فهما لوسيان وخطيبته واني اراهما الآن .

– العل السفينة متأهبة للسفر ؟

– كلا .. فان مراسيها لا تزال في البحر .

– ولماذا لا تسافر ؟

– لشدة اضطراب البحر ولأن من يعهد اليه إخراج السفن من الميناء يأبى الخروج بها حذر الأنواء .

فقال روكامبول في نفسه : هذا كل ما أريد معرفته .

وعند ذلك وضع يديه على جبهة فرانز وقال له : أمرك ان تصحو

وتنهد فرانز لفوره تنهداً عميقاً وفتح عينيه فأجال في الغرفة نظراً حائراً إلى ان وقع نظره على روكامبول

أهذا انت يا حضرة الماجور وكيف أتيت الى هنـا بل كيف أنا نفسي موجود في هذا المكان ؟

وأجابه روكامبول : اجتهد ايها الصديق ان تتذكر ما جرى لك ليلة أمس وانا اتمم تذكارك ..

وصاح فرانز صيحة منكرة وقال : نعم ذكرت ذلك الرجل ..

ثم توقف عن الكلام فقال له روكامبول : تريد ذلك الرجل الذي أطلـق حبل الخناقين على عنقك وخنقك ، انهض وانظر في المرآة اثر الخنق في عنقك.

فاصفر وجه فرانز واجاب : تبا له من شقي .

– ان هذا الشقي هو علي رجاه زعيم الخناقين ووالد لوسيان وعشيق ميلادي الأول .

وذعر فرانز وسأله : كيف تعرف هذا ؟

– اسمع ايضاً .. ان ميلادي وعلي رجاه برحا باريس

– متى برحاها فاني أدركهما ولو ذهبا إلى اقصى المعمور .

– ان ادراكهما سهل لأني اعلم إلى اين ذهبا .

– كيف عرفت ذلك وإلى اين ذهبا ؟

– أسألك المعذرة ايها الصديق فانك انت الذي قلت كل ذلك لأني نومتك نوماً مغناطيسياً .

وبينما فرنز ينظر إلى روكامبول نظرات الانذهال قال له روكامبول : اعلم انك مدين لي بالحياة فان احد الأطباء حكم انك ميت منـذ ربع ساعـة ولو لم اعترضه واتعرض لاحيائك لكانوا دفنوك حياً فأنا قد خدمتك خدمة جليلة ، غير اني سأخدمك خدمة أجل من هذه وهي القبض على علي رجـاه وعلى ميلادي التي لم تعد تهواك فاسمع الآن ما أريده .

ثم خلا به روكامبول نحو ساعة ودار بينهما حديث طويل لم يعلم به أحد

كانت فـــاندا لا تزال مقيمة في ذلك المنزل الذي سجن فيه السير جمس وأقام معها عصابة روكامبول .

وقد لبثت في هذا المنزل ١٥ يوماً لا تخرج إلا للنزهة في حديقته إلى أن جاءها روكامبول فدخل تواً إلى غرفتها وقال لها لقد جئتك بتعلياتي .

– كيف ذلك العلك عازم على السفر أيضاً ؟

– نعم ..

– إلى أين؟

– لا أعلم الآن ، ولكني سأعلم بعد يومين وسأصحب معي في سفري هذا ميلون ومورت ونويل .

-- وأنا ؟

– تبقين هنا مع مرميس لحراسة جيبسي .

– والانكليزي ماذا تريد أن تصنع به ؟

– سأصحبه معي .

ثم قرع الجرس فأتى ميلون فقال له : تأهب للسفر بعد ساعة .

– أأسافر معك ؟

– نعم ..

ثم التفت روكامبول إلى فاندا وسألها : كيف حال جيبسي ؟

– إنها ستشفى بعد اسبوع ويعود اليها صوابهـــا وهي قد تعلقت بي بعد قدومها إلى هذا المنزل فلا تفارقني لحظة .

– ومرميس العله فقد سلطته عليها ؟

– كلا لقد وثقت انها تحبه

– إذا عاد اليها صوابها فإني أريد أن تتزوج مرميس لأنه أهل لها

– والملايين ماذا جرى بها ؟
– إني مسافر للحصول عليها .

ثم مد يده إلى جيبه واخرج منها غلافاً ضخماً مختوماً وأعطاه لفاندا وقال لها : خذي الآن هذا الغلاف وإذا لم أعد بعد ثمانية أيام فافتحيه واعملي بكل ما فيه ، لأنه يتضمن تعليماتي .

واضطربت فاندا كأنما خشيت أن يصاب روكامبول بمكروه جديد وقالت له : سأطيعك في ما تريد ولكن كيف لا تعود بعد ثمانية أيام ؟
– اني مسافر إلى الهافر .
– إلى انكلترا ؟
– لا أعلم إلى أين تكون وجهتي إلا بعد أن أبلغ متن السفينة .

وأطرقت فاندا برأسها ولم تلح بالسؤال .

أما السير جمس فإنه كان لا يزال في القبو موثق اليدين والرجلين وكان ميلون يحضر له الطعام مرتين في اليوم فيحل وثاقه إلى أن يأكل ثم يعود إلى شده ويدعه في ظلمات القبر .

وقد كان السير جمس استرسل إلى اليأس في بدء أمره وحاول الانتحار مراراً فلم يفلح ، ثم استسلم إلى الأقدار وذهب ما أصابه من اليأس فلم يعد يكترث لما هو فيه .

وأقام في هذا السجن الضيق خمسة عشر يوماً إلى أن فتح يوماً باب القبو ورأى ميلون داخلا اليه غير ان ميلون لم يكن وحده هذه المرة فقد كان يصحبه رجل لم يلبث السير جمس ان رآه حتى ارتعش إذ عرف انه فرانز ،أي الماجور هوف خادم ميلادي الأمين

أما فرانز فانه أخذ كيساً من جيبه مملوءاً من الذهب ودفعه إلى ميلون وقال: خذ جزاء خدمتك . فأخذ ميلون الكيس وتظاهر بالسرور فأيقن السير جمس انه أغراه على خيانة روكامبول .

أما ميلون فإنه تركها وانصرف ، فنظر السير نيفلي نظرة ابتهاج الى فرانز وسأله : أنت هنا وكيف أتيت ؟

- أتيت لأنقذك فقد أغريت هذا الخادم الذي نيطت به حراستك وأنت حر الآن

- وروكامبول ؟

- ليس في المنزل .

ولكن هذا المنزل غاص بخدامه .

- إنك مخطىء أيضاً لأنهم قد برحوا المنزل كلهم ولم يبق فيه أحد وكل ذلك بفضل ميلون .

ثم فك قيوده وقال له : هلم بنا لأن الوقت ضيق .

- أنخرج من هنا ؟

- نعم ثم نبرح باريس على الأثر وإذا أردت ان تكون حراً فإني أطلب اليك ان تقسم لي يميناً ان تطيعني مدة ٤٨ ساعة طاعة لا حد لها مهما كانت أوامري غريبة

- إني أطيعك وأقسم لك على ذلك مهما كانت أوامرك لأني شديد الظمأ الى الحرية .

- إذاً إتبعني .

فتبعه السير نيفلي وخرج الاثنان خارج المنزل وكانت مركبة تنتظر على الباب ففتح فرانز المركبة وقال للسير نيفلي : أدخل .

- إلى أين نحن ذاهبان ؟

- إلى محطة السكة الغربية ، حيث نسافر في قطار نصف الليل الى الهافر .

- وماذا نصنع في الهافر ؟

- نسافر منها الى انكلترا

فاتقدت عينا السير نيفلي بأشعة الحقد وقال : كنت أود ان أنتقم من روكامبول قبل السفر .

— إننا سننتقم هناك لأن روكامبول في انكلترا .

فلم يخطر للسير نيفلي أن فرانز قد انفصل عن ميلادي وانضم الى روكامبول وسافر وهو آمن مطمئن لا تدور الخيانة في باله .

- ٤٦ -

كان منظر ميناء الهافر غريباً في بابه لان السفن لم تخرج منذ أسبوع من حوضه لكثرة العواصف والأنواء ، ولأن هذه السفن لم تجد مرشداً يجسر أن يخرج بها من الميناء ، فكانت الخمارات والفنادق المجاورة للميناء غاصة بالبحارة .

وكانت السفن تراقصها الرياح فوق المياه ، فيخشى عليها وهي داخل الميناء ان تقطع مراسيها لشدة هياج البحر ، وندر وجود الناس على الأرصفة لشدة عصف الرياح .

وهناك خمارة تدعى الفتاة المتوحشة ، كان فيها نحو ثلاثين رجلا كانوا ينظرون فيها من خلال الزجاج الى سفينة هندية تدعى سيوا ، وقد استلفتت أنظارهم لجمال رونقها ، وجعلوا يتحدثون فيها وقد افتتح الحديث بحار قديم بينهم أحنت ظهره الأيام ، فكان يقول إن البحر هائج وهذه العواصف لا تهدأ قبل ثمانية أيام على الأقل ، ولا يمكن لهذه السفينة الهندية ان تخرج من الميناء .

فقال له أحد البحارة أرأيت ربانها ، فإننا لا نراه يفارقها ولم ينزل مرة الى البر !

- نعم رأيته في السفينة نفسها وأما الربان الثاني فقد جاء في صباح اليوم الى هذه الخمارة لشحن ما تحتاج اليه السفينة من المؤونـــة ، ولكنه لم يتجاوز هذه الخمارة وما ذهب مرة الى الأسواق لأنهم يحضرون له جميع ما يحتاج اليه في الميناء وهو يتكلم بالانكليزية والفرنسية وأخاله يتقن جميع اللغات لأني رأيته يكلم الهنود أيضاً .

وكان بـين الحضور رجل في أذنيه حلقتـين كبيرتين من النحـاس ، فكان يسأل البحارة أسئلة مختلفة عن الميـناء ومخارجها ، فيعلم منهم كل أمورها بالتدقيق .

ولبثوا على ذلك الى ان غابت الشمس ، فتفرقوا جميعهم وذهب كل في شأنه وبعد ساعة عاد ذلك الرجل الذي كانت في أذنيه الحلقتان وطلب إلى صاحبة الخمارة ان تحضر له العشاء فقالت له : أتريد ان تأكل وحدك أم تحب ان يكون لك رفيق ؟

– بل أود ان يكون لي رفيق فمن هو هذا الرفيق ؟

– هو ربان السفينة الهندية الثاني وقد صعد الى الغرفة العالية .

– إذاً سأصعد اليه .

ثم صعد الى الغرفة فلم يكد يراه الربان حتى حياه تحية المرؤوس للرئيس فأقفل صاحب الحلقة الباب وقال له : كل شيء تهيأ ؟

– نعم على ما يرام .

– ألم يعرفوهم ؟

– لم يعرفوا أحداً منهم لان ميلادي مرت ثلاث مرات بالقرب من فرانز فلم تعرفه .

– ولا ميلون ؟

– وكذلك ميلون فقد صبغ وجهه بلون نحاسي وصبغ شعره بلون السواد فلم يعد يعرف

– أأنت واثق من بقية البحارة ؟

– ثقتي من نفسي .

– إني مسرور منـك يا نويل ، لأنك تـبرهن لي عن ذكائك منـذ عهد بعيد .

فقـال له نويل : لقد أقمت عشرة أعـوام ، يا حضرة الرئيس ، في خدمتك .

– أترى اننا نستطيع السفر غداً ؟

– إن البحر شديد الهيـاج ، ولكن الذي أراه أنه يجب السفر في القريب العاجل .

فقال له روكامبول ، وكان متنكراً بشكل الهنود وواضعاً تلك الحلقة في آذانه : وأنا ايضاً أرتئي رأيك ولا أبالي بالعواصف فقد الفتها ، ولا يعارض علي رجاه في السفر لانه لا ينتظر غير المرشد . وسيحصل غداً على المرشد لان هذا المرشد هو أنا .

فضحك الاثنان وجعلا يأكلان .

– ٤٧ –

كان الظلام مـدلهماً ، والهواء زمهريراً ، والسفن ترقص فوق الأمواج المضطربة فتلتطم بالقـوارب ، وقد أقفرت الأرصفة من الناس لاشتـداد العواصف .

وكان على ظهر تلك السفينة الهندية التي تقدم ذكرها ، رجلان واقفان قرب الدفة يتحدثان بصوت منخفض وهما نويل وميلون .

وكان كلاهما متنكرين أتم التنكير بحيث لو دخلا الى شارع فيرابو وهما بهذا

الزي لما عرفهما أحد .

وكان ميلون يسأل نويل كيف حدثت هذه العجائب وكيف أصبح هو الربان الثاني لهذه السفينة .

فقال له نويل : إصغ إلي إني موضح لك كل شيء .

– إني مصغ كل الإصغاء والذي أعلمه انك سافرت مع الرئيس الى انكلترا منذ ٣ أسابيع .

– نعم في اليوم التالي لإنقاذه من البئر .

– هو ما تقول لكن لماذا سافر الى لندرا ؟

– إنه ذهب لمقابلة وزير البحرية في المستعمرات فقال له ان الحكومة الانكليزية عينت جائزة لمن يأتيها بعلي رمجاه رئيس الخناقين الأعظم فاعطني هذه الجائزة ثم أخبره بأمور كثيرة عن الخناقين. ويظهر ان الوزير وثق به ثقة عظيمة فإنه أعطاه جميع ما طلبه في الحال وعين له كثيراً من الرجال يمتثلون لأمره فأتينا تواً من بريتون الى هنا .

– إني لم أفهم شيئاً بعد .

– إصغ إلي فستعلم كل شيء . إنهم أعلموا الرئيس في الوزارة بأمور كثيرة . مثال ذلك : إنهم أخبروه ان سفينة هندية بحارتها من الهنود ، يقودها الربان الثاني ، ستحضر من الهافر كي يسافر فيها الربان الأول الى نيويورك .

فسأله ميلون : العل الربان الاول هو ذلك الرجل الذي جاء صباح أول أمس ؟

– هو بعينه ولكن كما رأيت لم يحضر وحده بل جاء بعائلته التي سترافقه في هذا السفر

– ولكني لم أعلم بعد كيف اتصلت بهذه السفينة الهندية وصرت ربانها الثاني وصرنا نحن عصابة روكامبول بحارتها ؟

إن الامر بسيط فقل لي أتذكر كيرشي والسير جورج ستوي ؟

- نعم .

- إن كيرشي أطلع روكامبول على بعض أسرار الخناقين . وأطلعه على بقيتها السير جورج ستوي وهو حاقد على السير جيمس نيفلي وعلي رجاه حقداً لا يشفيه غير القتل .

- إني أعلم كل ذلك .

- فاستعبد روكامبول السير جورج ، ولا بد لك أن تعلم ان السير جورج قد عزل من منصب رئاسة الخناقين في لندرا ، لكنه بقي في الظاهر رئيساً . وبقيت له تلك الاشائر والاصطلاحات السرية الخاصة بالرؤساء . فلما وصلنا الى لندرا أرسل روكامبول الى السير جورج تلغرافاً يأمره فيه بالحضور فحضر وأرسله روكامبول الى هذه السفينة الهندية التي كانت في مياه لندرا فعرف الربان الثاني بنفسه فاستقبله بملء الاحترام والخضوع .

ولقد فاتني أن أخبرك بأمر آخر وهو ان علي رجاه حين برح الهند كتب الى السير جورج ستوي مصدراً اليه الاوامر ولما كان السير جورج قد استبدل بالسير نيفلي أرسلت هذه الاوامر من لندرا الى السير نيفلي في باريس . غير أنه كان في قبضة روكامبول، فوقعت هذه الاوامر بيد روكامبول وأطلع عليها السير جورج .

أما السير جورج فإنه حين قابل الربان الثاني علم منه انه لا يعرف علي رجاه ، وكان منصب الرئيس يدعو الربان الى طاعته في كل شيء . فأمره أن يركب مع ثمانية من بحارة قارب السفينة . فامتثل وركب السير جورج معهم ، فتولى هو نفسه قيادة القارب ، ولم يكن باقياً في السفينة غير أربعة من البحارة .

فسار السير جورج بهذا القارب الى سفينة تجارية إنكليزية ، كانت راسية في محل معتزل فأنزلت السفينة كثيراً من القوارب الغاصة بالرجال ،

فأحاطوا بقارب السير جورج وأسروا الربان الثاني والبحارة الثانية وحبسوهم مقيدين في السفينة

أما السير جورج فإنه بقي في القارب وبقي معه إثنان من بحارة تلك السفينة الانكليزية وهما مورت وأنت يا ميلون وانا .

أما السفينة الانكليزية فقد كانت أرسلتها الحكومة بطلب روكامبول وعادت بالربان والبحارة الهنود الى الميناء وسلمتهم للحكومة . أما السفينـــة الهندية فسارت بقيادتي الى الهافر ، ولما وصلنا الى هنا اخترت من نحتاج اليهم من البحارة من ميناء الهافر وقيدنا البحارة الهنود الاربعة وهم الآن يئنون ويتوجعون في عنبر السفينة .

أعلمت الآن كيف احتال روكامبول على علي رجاه وكيف بات هذا الرجل في قبضتنا ؟ فإنه هو الذي أوصى عملاءه أن يرسلوا الى ميناء الهافر سفينـة تنتظره فيها ، فأرسـلوا له هذه السفينة وأخبروه ان اسمها سيوا ، فلما وصل من باريس الى الهافر رأى السفينة سيوا فنزل اليها وحبس نفسه فيها دون ان يدري .

– متى نسافر ؟

– غداً .

– وروكامبول ، أيكون معنا ؟

– إنه متنكر بزي المرشد الذي جاء صباح اليوم .

فدهش ميلون وقال : إني لا أرى أقدر منه على التنكر لاني حدقت فيه كل النهار فلم أعرفه .

فوضع نويل إصبعه على فمه وقال له : اسكت هذه ميلادي قادمة .

- ٤٨ -

وكانت ميلادي قد صعدت من غرفتها الى ظهر السفينة ، وتبعها علي رجحاه فتأبط ذراعها ووقف وإياها على مسافة بعيدة من ميلون ونويل بحيث يتعذر وصول صوتيهما اليهما ، غير ان الهواء كان يهب من جهة ميلادي الى جهة ميلون ونويل فيحمل اليهما حديثهما وهذا ما سمعاه :

قالت ميلادي : أتظن يا علي اننا نستطيع السفر ؟

— دون شك .

— وهذا البحر ألا ترى أمواجه يبلغ زبدها الى ظهر السفينة ؟

— إن المرشد الذي جاءنا في الصباح يثبت اننا نستطيع الخروج من الميناء ومتى خرجنا منها وبلغنا الى عرض البحر تهدأ الامواج وتسكن الرياح لانها في الموانىء أشد منها في عرض البحار .

— آه لو تعلم كم اود السرعة في الفرار .

— ألا تزالين تخافين هذا الرجل ؟

— إني أخافه أشد خوف حتى ان شعري يقف عندما يخطر في بالي وهو ممثل لي في كل مخيل .

— لا تخشين أيتها الحبيبة بأساً ، فلا تمر بضع ساعات حتى نأمن من كل خطر .

فسكتت ميلادي هنيهة ثم قالت : أأنت واثق من الرجلين الذين تركناهما في باريس ؟

— كما أثق بنفسي .

— أتظن أنهما يستطيعان بالتوكيل الذي أخذاه منا ان يقبضا تلك المبالغ الطائلة المودعة في بنك دافيس همفري ؟

— دون شك .

— أأنت واثق أيضاً أنها يحملان هذه الاموال الينا في نيويورك .

— ليس لي أقل ريب ، لانهما من عبيدي المخلصين .

فنظرت ميلادي الى السماء وقد بدأت تظهر منها أشعة الفجر فقال لها علي: إطمئني سنبرح الهافر بعد ساعتين .

فظهرت عليها علائم السرور وقالت : سنأمن روكامبول بعد ساعتين ، ولو كنت تعلم ما لقيته في هذه الايام الثلاثة من العناء ، لعزيتني لخوفي من هذا الرجل الذي أنقذ جيبسي من المحرقة ، فقد خيل لي انه وقف على أثرنا وكنت كلما رأيت قارباً يسير في مياه الميناء أحسب انه قادم فيه .

— ما هـذا الجنون ؟ أفقدت ثقتـك بي الى هذا الحـد ، أنسيت أني علي رجاه ؟

فسكتت ميلادي ولم تجب لان قلبها كان ينذرها بمصاب اليم ، فكانت عرضة لتأثرات هائلة .

واستأنف علي الحديث وقال : إني أخبرت لوسيان ان السفينة ستبحر عند الفجر لانه يجب ان يكون على ظهرها حين إبحارها كي يودع فرنسـا الوداع الاخير .

— إذاً سأذهب اليه انا ، فقد رأيت نوراً نافذاً من غرفته مما يدل على أنه غير نائم .

ثم تركته ونزلت الى غرفة لوسيان فوجدته متكئاً على فراشه يتأمل في ماضيه ومستقبله ، وفي ذلك الاب الذي بقي عشرين عاماً لا يعرفـه ، ثم لما عرفه علم انه محكوم عليه بالاعدام ، واضطر الى الفرار معه الى البلاد الاميركية .

فلما رأى أمه داخلة اليه قال لها : أدنا وقت السفر يا أماه ؟

— نعم فإننا نبرح الميناء بعد ساعة ولا يزال الوقت فسيحاً لديك إذا أردت الرجوع مع خطيبتك الى باريس .

– إني أحب باريس لاني ربيت فيها ولكن الواجب يقضي علي ان أكون مع والدي. وما زالت خطيبتي راضية بهذا السفر فاني لا آسف لبعدي عن فرنسا ما زلت مع خطيبتي ووالدي .

فقبلته قبلات ملؤها الحنو وقالت: هلم بنا إذاً الى ظهر السفينة فقد بدأوا بنشر قلوعها .

وبعد ذلك بساعة كانت هذه السفينة الهندية تسير في الميناء خارجة الى عرض البحر بقيادة روكامبول الذي كانوا يحسبونه مرشد الميناء .

وكان روكامبول يصدر الأوامر الى البحارة بمهارة لا تبقي مجالاً لأقل ريب لأنه من كبار العارفين بفنون البحر . فسارت بهم السفينة وجميع ركابها على ظهرها حتى خرجت من الميناء ، فجعلوا ينزلون الى غرفهم تباعاً فلم يبق غير علي رجاه ، وكان واقفاً ينظر الى اضطراب الأمواج غير مكترث لأخطارها بعد وثوقه من النجاة من روكامبول ، إذ لم تخطر له الخيانة في بال لان جميع البحارة كانوا يشيرون إشارات الخناقين التي تعلموها من روكامبول ويستحيل ان يخون أعضاء هذه الجمعية رئيسهم الأعظم .

أما ميلادي فإنها كانت لا تزال موجسة خوفاً شديداً وقلبها يحدثها انها لم تنج بعد من أخطار روكامبول

وبينما كانت في فراشها عرضة لمثل هذه الهواجس والتصورات ، سمعت صوتاً يشبه الأنين . فأصغت وعلمت انه غير صوت الصواري وغير أنين الرياح بل هو أنين إنسان خارج من أعماق السفينة . فاضطربت اضطراباً شديداً وهمت بالصعود لاخبار زوجها ، ولكنها رأته جاء من نفسه كي يطمئن عليها فأخبرته بما سمعت فذعر علي وأصغى الى هذا الأنين ، فعلم انه أنين قوم من الهنود ، إذ كانت تصل الى مسمعه كلمات متقطعة باللغة الهندية لبعد المسافة .

فداخله الشك وقال : كيف حبس هؤلاء الهنود في عنبر السفينة ، دون

أن أعلم ؟

فقالت له ميلادي : تنبه فان قلبي ما أنذرني بمصاب إلا وكان المصاب واقعاً لا محالة .

فعاد علي الى ظهر السفينة فوجد البحـــارة في مواضعهم والمرشد ، أي روكامبول، يصدر الأوامر ونويل ، اي الربان الثاني ، في موضعه عند الدفة فلم ينتبه أحد لصعوده غير روكامبول .

وكان الهواء زمهريراً ، ونويل قد صبغ وجهه ويديه بلون الهنود . فبينما كان علي يراقبه وهو غير منتبه اليه هبت نسمة شديدة كشفت قميصـــه عن صدره ، فظهر لعلي انه ناصع البياض خلافاً للون وجهه ويديه فأجفل وقال في نفسه : إن هذا الرجل متنكر وهو من أهل الغرب ولكن كيف يمكن ان يحل محل الربان الثاني المرسل إلي من كلكوتا ؟

وقد أيقن انهم خانوه فأخذ المسدس من جيبه وهم باطلاقه على نويل لكنه أعاده فجأة الى جيبه وقال : الخيانة قد حدثت ، وجميع بحارة السفينة تحت امرة مدبر المكيدة وقد حبسوا البحارة الهنود دون شك ولا بد لي قبل كل شيء أن ارى اولئك البحارة الأصليين فأنقذهم من العنبر واقف على أسرار المكيدة فأستعين بهم على مقاومة أصحابها .

ثم رجع أدراجه وروكامبول يراقبه دون ان يعلم. فنزل الى السفينة وذهب الى العنبر فأصغى لأنين الهنود جلياً ورأى الباب مقفلاً فجعل يتمعن الفكرة في وسيلة لفتح الباب .

وفيما هو يبحث عن آلة يتمكن بها من كسر الباب رأى فجأة رجلاً قد وقف أمامه فصاح صيحة الرعب وتراجع منذعراً الى الوراء كأنما رأى ميتاً قد بعث من قبره .

أما هذا الرجل الذي خرج الى علي رمجاه من بين البراميل المكدسة في العنبر فقد كان الماجور هوف ، أي فرانز ، الذي توهم انه قتله بحبله وانه بات

من الأموات .

أما علي رجاه فإنه قبل ان يتصل الى منصب زعيم الخناقين الأعظم كان من عصابة الخناقين وقد نال شهرة خاصة باطلاق الحبل على العنق ، فما أطلق حبله على عنق رجل إلا قتله لا محالة ، فكيف أمكن لفرانز ان يسلم من حبله وقد رآه بعينه صريعاً على الأرض؟وهب انه سلم من الحبل فكيف اتفق وجوده في هذه السفينة ؟

غير ان لأهل الشرق الاقصى إعتقاد بالارواح لا يتزعزع ولا يزول من نفوسهم مهما استنارت هذه النفوس بالعلم والمعرفة . ولما كان علي موقناً ان فرانز قد قتل رجع اليه اعتقاده الهندي وأيقن انها روح فرانز قد ظهرت أمامه فتراجع منذعراً حتى التصق بالجدار وهو يقول : إلى الوراء أيها الخيال الى الوراء ! .

وكان علي متسلحاً بمسدس وخنجر فلم يخطر له ان يطلق المسدس او يستل الخنجر لوثوقه انه أمام روح فرانز والسلاح لا يؤثر بالارواح .

غير ان اعتقاده ما لبث ان تزعزع حين سمع صفير فرانز ، ورأى رجلين قد أسرعا اليه فانقضوا جميعهم على الهندي فجندلوه وجردوه من سلاحه . وكان اللذان أقبلا لنجدة فرانز ميلون ومورت .

وكان ميلون قد ركع فوق صدره وقال له : إني مأمور بقتلك إذ صحت أقل صياح .

وقال فرانز لميلون ضع ركبتك فوق صدره ولكن لا تطبق فمه ، لاني أمنعه عن الصياح ولكني لا أمنعه عن الكلام ، إذ قد يخطر له محادثتي .

فرفع علي عينيه الى فرانز وقال له : إذاً أنت حي ولم يقتلك الحبل .

– كلا لم أمت كما تراني .

– ألديك أوامر بشأني ؟

— ربما .
— من الذي أصدر اليك هذه الاوامر ، العله الربان الثاني ؟
— كلا بل هو مرشد السفينة .

فارتعش علي وعلا عند ذلك أنين الاسرى فقال له فرانز . العلك تستغرب هذا الأنين ؟

فأجابه علي : قبحت من خائن لقد علمت كل شيء إنك واصحابك قـــد استوليتم على سفينتي .
— هي الحقيقة بعينها .
— وهؤلاء الأسرى هم خدامي الهنود الأمناء ، ولكن الهنود مشهورون بالصبر ولا بد لهم من كسر الباب والمجيء لنجدتي وإنقاذي .

فقال له فرانز بلهجة الساخر وعند ذلك تأمر بشنقنا ، غير أنه بقي أمر لم تعرفه يا حضرة الرئيس، وهو ان بحارتك الاثني عشر قد أصبحوا أربعة فقط فاذا تخلصوا من أسرهم لا يستطيعون مقاومتنا .
— تباً لكم أيها الأشقياء العلكم القيتموهم في البحر ؟
— كلا بل أرسلناهم في سفينة إنكليزية إلى لندرا .

فأن علي أنين القانطين وقال : ويحك ايها الخائن ماذا فعلت ؟ ومن هو هذا الرجل الذي تخدمه ؟
— هو نفسه سيخبرك باسمه .

ولم يكد فرانز يتم حديثه ، حتى دخل مرشد السفينة ، بعد ان عهـــد بقيادتها الى نويل ، فقال لعلي رجاه إذا كنت تريـــد ان تعرف من أنا ، فاعلم اني ادعى أمام « ميلادي » الماجور أفاتار ، وأما أمامك فإني أدعى روكامبول .

ثم أشار الى ميلون بالنهوض عن علي وامر علياً بالوقوف فقال له : إنك انت وميلادي قد اشتركتما بسرقة ثروة فتاة قد توليت

حمايتها فهل تريدان إرجاع هذه الثروة الى صاحبتها ؟

فاتقدت عينا علي بجمر الحقد وأجاب : كلا لا نرجعها ما زال لنا عرق ينبض .

— إذاً اضطر الى عمل عملاً يكسبني مثل هذه الثروة المختلسة وهو القبض من حكومة الهند الجائزة التي عينتها لمن يقبض على علي رجاه .

فاصفر وجه علي من الرعب وقد أدرك حرج الموقف غير انه لم يجب بحرف فقال روكامبول لعصابته : أحكموا وثاق هذا الرجل وضعوه في السجن مع السير جمس نيفلي .

ثم تركهم وصعد الى ظهر السفينة ، بينما كانوا يقيدون يديه ورجليه بقيود الحديد .

— ٤٩ —

لما صعد علي رجاه الى ظهر السفينة غادر ميلادي في غرفتها مضطربة الحواس لما سمعته من أنين الأسرى ، ولو كان حدث لها مثل هذا منذ عشرين عاماً لما اكترثت له لأن ثقتها بعلي في ذلك العهد كانت فوق كل حد . غير ان علياً أصبح كهلاً ، وهو وإن كان لم يزل وحشي الأخلاق غير ان الأيام قد أخذت إقدامه وثباته وقد باغتته ميلادي مرات فرأته يقف ويتردد في كل امر خطير ، فضعفت تلك الثقة به واشتدت مخاوفها .

ومع ذلك لم تبرح غرفتها بل لبثت فيها تنتظر عودة علي ، الى ان مضت ساعة دون ان يعود ، فزادت هواجسها وصعدت الى ظهر السفينة كي تبحث عنه ، فرأت جميع البحارة في مواقفهم ما خلا المرشد . وبحثت عن علي فلم تجده ، فنزلت الى غرفته فرأت بابها مفتوحاً ، ورأت رجلاً

جالساً فيها أمام مائدة وظهره متجه الى الباب فما شككت انه علي ودخلت وأغلقت الباب .

وعند ذلك التفت الرجل فذعرت ميلادي ذعراً شديداً واوشكت ان تسقط على الأرض لأن الرجل الذي رأته كان مرشد السفينة، ولكنه لم يكن اصفر الوجه ولم يكن في أذنه حلقة ولم يكن مسترسل الشعر بل كان بوجه الماجور أفاتار الذي القى في قلبها هذا الرعب . فالتفت اليها روكامبول وقال ببرود : إني انتظرك يا سيدتي منذ حين .

ولما رأى ما كان من انذعارهــا قدم لها كرسياً وقال : اجلسي يا سيـدتي واطمئني فإنك في حاجة الى صفاء الذهن فلقد نصحتك في باريس خالص النصح فلم تكترثي لنصحي لأنك توهمت انك تستطيعين النجاة من قبضتي مع علي رجاه شريكك في الجريمة فبرحتما باريس تحت جنح الظلام وصحبتما لوسيــان وخطيبته واباها .

فأطرقت ميلادي برأسها دون ان تجيب وبقيت واقفة ، فقـــال لها روكامبول : إسمحي لي يا سيدتي ان اخـــبرك عما جرى بإيجاز كي تعلمي حرج موقفك

ثم قص عليها ما عرفه القراء من استيلائه على السفينة بمساعي جورج ستوي وإرسال ثلثي بحارتها الى لندرا ، الى ان علمت انه هو الآمر الناهي في السفينة وان بحارتها لا يخالفون له امراً فقال لها : والآن لقد عزمت على الوفاء بوعدي فأسلم علي رجاه وعامله السير جمس الى الحكومة الهندية ومس الن قاتلة ابيها واختها الى الحكومة الانكليزية لترى رأيها في عقابها .

وكأن ميلادي لم تثق بحديث روكامبول فقالت له : انت تدعي ما لست قادراً عليه لأنك لا تعلم من هو علي رجاه

فابتسم روكامبول وقال لها : إنك مخطئة يا سيدتي فإن علي رجاه الذي تعتمدين عليه هو الآن مقيد بقيود الحديد وملقى في عنبر السفينـة مع اولئك

البحارة اللذين كنت تسممين اثنينهم .

فارتعدت ميلادي ثم قالت : كلا ان هذا محال وانك من الكذابين .

فنادى روكامبول عند ذلك فرنز وقال له : تعـال أيها الماجور واثبت لميلادي اني من الصادقين

فدخل فرانز ولما رأته ميلادي اوشكت ان تجن وحاولت الفرار غير انها وجدت ان فرانز أقفل البـاب من الداخل ، فركعت أمامه وقالت له : أسألك الرحمة والعفو .

أما فرانز فانه ضحك ضحكاً شديداً وقال لها : لا يحق لي يا سيدتي ان ارحمك وأعفو عنك فليس امرك في يدي ، وما انا صاحب السلطة في هذا المكان . انك تخليت عني وانضممت الى علي رجاه ، فانضميت انا الى اعدائك واصبحت عبداً لهم لا اخالفهم فيما يأمرون

فجعلت ميلادي تنظر نظرات الذعر والرعب الى هذين الرجلين وهي لا تعلم من سيكون القاضي عليها .

وعاد روكامبول الى الحديث فقال لها : لقد عرضت عليك يا سيدتي طرق الخلاص والعيش عيشة سعيدة إذا كان ضميرك يساعدك على هذا العيش فابيت وتصاممت عن نصائحي .

فعادت إلى ميلادي حميتها وقالت : كيف أقبل وأنت تريد نهب ولدي ؟

ــ كلا ، لا أريد نهبه بل أريد تجريده من ثروة ليست له .

ــ ان هذا محال ولو قطعت ارباً فليس من يعلم هذه الثروة إلا أنا فلا تصل اليها يد مغتصب .

فانبرى لها فرنز وقال : لقد اخطأت يا ميلادي فاني أعرف موضعها أيضاً.

إرتعشت ميلادي وقالت أنت ؟

- نعم ، فاني عشت معك عشرين عاماً فما فاتني سر من اسرارك وأنا اعلم الآن انه إذا عرض على السير جوهن ماك فرسون المقيم في ادنبورج هذه

المدالية المعلقة بعنقك يعطي حاملها تلك الثروة المودعـة في بنك همبري دافيس وشركاه .

فاضطربت ميلادي اضطراباً عظيماً وجعلت تنظر إلى الأثنين نظرات نمر وقع في فخ وتقول ولدي .. انهم يريدون نهب ولدي .

فقال لها روكامبول أخفضي صوتك لئلا يسمع لوسيان .

– وإذا سمع ؟

– نضطر الى ان نطلعه على الحقيقة .

– ولكنه لا يصدق اقوالك .

– ربما كان ما تظنين ولكنه لا يلبث بعد بضعة اشهر حين يحكم عليكم القضاء بالشنق امام سجن نوجات ان يصدق ما قلناه .

فاختلجت ميلادي وركعت أمام روكامبول وقالت انك يا سيدي لا أثر للرحمة في قلبك .

فأجابها بصوت يتهدج انك مخطئة يا ميلادي ولكنها مهمـة يجب علي قضاءها ، فاعلمي الآن ان الوقت ضيق وقد دنونا من شواطىء انجلترا فهل تريدين المضايقة ؟

– ماذا تعني بها ؟

– أعني اني اكتم جرائمك وأدع لك حب ولدك وابقي لك شيئاً من هذه الثروة التي سأرجعها الى صاحبها .

– أتفعل هذا ؟

– ليس لي حق التصرف بهذا المال ولكني اثق ان ابنـة اختك توافقني على ما أفعل .

– وبعد ذلك ؟

– هذه شروطي وهي ان تعطيني هذه المدالية المعلقة بعنقك وعندما نصل الى انجلترا تخرجين من السفينة مع ابنك وخطيبته وأبيها وميلون خادمي

الأمين ، فيأخذ ميلون المدالية ويبقى معك في انجلترا الى أن يقبض المال ويعود معك الى فرنسا حيث تقيمين فيها مع ابنك وهو لا يعلم شيئاً من سابق أعمالك وعند ذلك يعطيك ميلون من هذه الثروة مليوناً وهو يكفيك للعيش مع إبنك وامرأته عيشة سعة

فأطرقت ميلادي برأسها الى الأرض وهي لا تزال مترددة ثم رأت ان لا حيلة لها ولا رجاء بالمقاومة فانتزعت المدالية من عنقها ودفعتها الى روكامبول وهي تتنهد وتقول : وعلي رجاه ؟

فأخذ روكامبول المدالية وقال : إنك لن ترينه بعد الآن ؟

— كيف ذلك ؟

— إني سأذهب به الى كالكوتا وأسلمه الى حاكم الهند .

ثم التفت الى فرانز وقال له : أرى ايها الماجور اننا قد دنونا من الشاطىء فاصعد الى الربان الثاني وقل له ليبعد القارب .

فخرج فرانز وقالت ميلادي : لكن كيف تفرق ولدي عن أبيه ؟

فابتسم روكامبول وأجاب : سوف ترين لقد أعددت كل شيء .

فأحنت رأسها وجعلت الدموع تتساقط من عينيها .

وبعد ساعة أنزلوا القارب الى البحر وأنزلوا فيه جميع أمتعة ميلادي ولوسيان وخطيبته بأمر روكامبول .

وكان روكامبول أمر ان يقدم الشاي للوسيان وخطيبته ، فوضع فيه مخدراً حتى إذا شربه مع خطيبته تخدروا جميعهم وناموا . أما ميلون فانه لما تم نقل الأمتعة عاد الى روكامبول قائلاً : لقد تم كل شيء .

— إذاً لقد حانت ساعة الفراق .

فتنهد ميلون وسأله : العلك تسافر ايها الرئيس سفراً طويلاً ؟

— لا أعلم

— ولكننا نلتقي بعد ذلك على الأقل ؟

ـ لا أعلم أيضاً ، إسمع الآن تعليماتي وخذ هذين الكتابين الى لندرا فأعط أحدهما الى مس سيسيليا وهو يتضمن الشكر لها عن مساعدتها لي على مقاومة الخناقين وحسن توصيتها بي لدى وزير البحرية ، والثاني للطبيب كرشوف الألماني الشهير .

ثم تصحب ميلادي ولا تفارقها إلا حين سفرها ، وبعد ذلك تذهب الى ايكوسيا ومعك هذه المدالية فتقبض من الرجل الذي أخبرتك عنه جميع ثروة جيبسي ثم تعود الى فرنسا .

ـ وماذا عسى تستفيد جيبسي من هذه الثروة وهي مجنونة ؟

ـ إني واثق من شفائها ومتى شفيت فإنها تتزوج مرميس وهو ينفق ريع هذه الثروة في أحسن وجوه الخير .

فقال له ميلون بصوت يتهدج من الحنو : إن قلبي ينذرني بأنك مفارق أوربا فراق الأبد .

ـ وأنا أيضاً أعتقد بالأقـــدار مثلك ، وقلبي يحدثني إني لا أموت إلا في باريس . واصغ إلي يا ميلون: إني كنت شر الناس ثم تبت ، ولكن الله لا يقبل توبتي إلا إذا كرست ما بقي لي من حياتي لصنع الخير . وقد كنت حسبت بعد حادثة فاسيليكا ان مهمتي قد انقضت فحاولت الراحة بالانتحار لكني نجوت فكانت تلك الحادثة وحادثة نجاتي من لغم تيميلون أعظم برهان على ان الله لم يرد لي الموت وان مقاومتي للخناقين في لندرا وباريس يجب ان أتمها في الهند مقر هذه الطائفة

فغطى ميلون وجهه بيديه وبكى ثم التفت اليه وسأله : ألا تصحبني معك أيها الرئيس ؟

ـ كلا إذ يجب أن تبقى في اوروبا لتنفيذ أوامري .

ثم دفع اليه غلافاً ضخماً مختوماً كتب فوقه اسم مرميس وقال له والآن قد حان الفراق ايها الصديق فأستودعك الله .

فأخذ ميلون يد روكامبول فقبلها وغسلها بدموعه وهو يقول: قل يا سيدي الى اللقاء ، واسأل الله معي ان نلتقي .

وبعد ذلك ببضع دقائق أنزلوا الى القارب لوسيان وخطيبته وأباها وهم مخدرون لا يعون على شيء . ثم نزلت في أثرهم ميلادي فقال لها روكامبول: لقد أمرت ميلون ان يدفع لك مليوناً بعد شهر .

فنظرت اليه نظرة ملؤها العظمة والكبرياء .

فقال لها : لا ينبغي يا سيدتي أن تنظري إلي هذه النظرات ، بل يجب ان تحمدي الله الذي أنعم عليك بابن باسل شريف كان السبب في إنقاذك من عقاب الله وعقاب الناس . لأن الله لا يعاقب الأم المجرمة كي لا ينسحق قلب ولدها البريء .

فلم تجبه ميلادي بحرف ونزلت الى القارب ، واندفع بهم إلى البر بقيادة ميلون .

أما روكامبول فإنه التفت الى نويل وقال له : سر بنا الآن في طريق الهند .

- ٥٠ -

بعد ذلك بأربعة أشهر كانت جيبسي مع فاندا جالستين على مقعد في حديقة ذلك المنزل الذي أخذته فاندا من السير جمس نيفلي ومعهما رجل هو ذلك الطبيب الألماني الذي أرسل اليه روكامبول كتاباً الى لندرا مع ميلون يدعوه فيه الى معالجة جيبسي .

وكانت فاندا تحادث الطبيب بصوت منخفض لا تسمعه جيبسي فتقول : أتظن يا حضرة الطبيب ان جيبسي قد شفيت من مرضها ؟

– كل الشفاء .
– ألا ترى خطراً عليها بارجاع الشاب الذي تهواه ؟
– بل ان وجوده معها الآن يبعد عنها كل خطر في المستقبل .

فقامت فاندا لفورها ونادت ميلون وقالت له: إذهب في الحال الى مرميس وقل له يحضر .

وكان الطبيب أمر بابعاد مرميس عن جيبسي مـــدة معالجتها ، فأقام في منزل خارج المدينة ، وقد تغيرت حالته في هذه المدة وتبدلت أخلاقه فباتت مظاهره وطباعه تدل على الخير بعد ان كان من زمرة اللصوص .

فلما وصل اليه ميلون وأخبره بوجوب عودته الى جيبسي أوشك ان يجن من فرحه . فما صدق ان سمع حديث ميلون حتى غادر المنزل غير مكترث به فامتطى جواده وأطلقه ينهب الأرض الى منزل من يحب .

وكانت فاندا تنتظره عند باب الحديقة فلما وصل اليها ترجـل ، فأخذت فاندا بيده ودخلت به الى المكان الذي كانت فيه جيبسي .

فلما رأته جيبسي قادماً من بعيد ارتعشت ثم احمر وجهها والطبيب بعيـد عنها يراقب حتى اذا وصل اليها مرميس مدت اليه يدها وقالت : اجلس بجانبي ايها الصديق فلم أعد مجنونة ، وأنا الآن اذكر كل ما مضى ، فإنك انت الذي أنقذت النورية المسكينة وأنت الذي جئت بي الى فرنسا وأنت تحرسني مـدة جنوني وتسهر علي سهر الأخ على اخته .

ثم جذبته اليها وقبلت جبينه وقالت له بصوت يضطرب : هذا دليــــل امتناني وعربون حبي لك .

وكان الطبيب وفاندا واقفين على مسافة بعيدة عنهما يراقبانهما ، فقـال لها الطبيب : إن الخطر قـــد زال ولكنه قد يعود ، إلا إذا أسرعتم بعقد زواج هـذين العاشقين ، فإن جيبسي إذا صارت أماً زال عنهـا كل خطر .

— سنسرع جهد الإمكان لا سيا وان هذه هي إرادة الرئيس .

وقد تنهدت فاندا حين ذكرت روكامبول ، فإنها منذ خمسة أشهر أي منذ غادر باريس لم تره ولم يصل اليها شيء من أخباره

* * *

مر على ذلك شهر والعاشقان مقيان في منزل واحد ولكنهما لم يتزوجا ، وعاد الطبيب الألماني الى محل إقامته في لندرا وشفيت جيبسي شفاء تاماً إلا من غرامها بمرميس فإنها بلغت بحبها إياه حد الهيام

على انها كانت تبدو دائماً بمظاهر السويداء على ما هي عليه من الغنى والجمال والصبوة والشباب . فلم تكن فاندا ومرميس يعلمان سر هذه الكآبة . وقد سألتها فاندا مراراً كثيرة ، فكانت تندفع في البكاء ولا تجيب بحرف . وكانت حين تباحثها بقرب زواجها بمرميس تتنهد تنهداً عميقاً وتسكت فسرت هذه الكآبة الى مرميس والحزن أقرب جار لليأس .

وبينا كان مرميس جالساً يوماً مع فاندا يتحدثان بكآبة جيبسي ، قطب مرميس جبينه وقال . لقد عرفت الآن سر هذا الحزن وهو ان جيبسي لا تزال تهوى السير أرثر نويل .

— إنه فكر بعيد عن الصواب ، فإن جيبسي تحتقر عاشقها القديم . والمرأة لا تحب من تحتقر .

— من يعلم ، إن الطباع تختلف !

— ألم ترها كيف اضطربت حين رأتك ، وكيف قبلت جبينك وقالت لك أحبك ؟

— نعم ، ولكن هذا الحب قد يكون حب إخاء وإن قلبها لا يزال يهوى السير أرثر .

ـ أيمكن ان تهوى هذا الذي أهانها وتخلى عنها في ساعة الخطر ؟
فاصفر وجهه وقال بلهجة الواثق : كل شيء ممكن !

وكان اضطراب مرميس يحمل على الاشفاق . ولم يزل لفاندا بعض السيادة عليه فقالت له : إن كل ما تقوله مبني على الظنون إذهب الليلة الى منزلك ولا تبيت معنا ، وأنا أقسم لك إني سأقف على الحقيقة ، وأطلعك عليها صباح غد .
فامتثل مرميس صاغراً وركب جواده وانصرف .

ولم يكد مرميس يتوارى عن أنظارها حتى ذهبت الى غرفة جيبسي وطرقت بابها فأذنت لها جيبسي بالدخول بصوت يضطرب ، ولم تكن قد رقدت بعد بل انها كانت تكتب . فجلست فاندا قربها وأخذت يديها وقالت لها : أتحبين مرميس يا جيبسي ؟
فصبغ وجهها بلون الاحمرار وقالت : إن حبي له فوق كل حب ، وكل جوارحي تهواه .

ـ إذا كان ذلك ما تقولين ، فما هذا الحزن عند قرب موعد زواجكما ؟ وما لورد خديك قد ذبل كأنك مكرهة على الزواج ، بل كأنك مقدمة ضحية على هيكله ؟
فنظرت جيبسي الى فاندا نظرة تشف عن فؤاد ملؤه اليأس وقالت : انك يا سيدتي أحسنت إلي إحساناً عظيماً وعاملتني بحنو الأمهات منذ عرفتك، فهل تسمحين لي بمثل هذه المعاملة بضع ساعات ؟
ـ ماذا تريدين بهذا القول ؟
ـ أريد ان أستمهلك الى صباح غد ، فإذا عدت إلي غداً صباحاً تعلمين حقيقة السر الذي أشكل عليك .

وكانت تتكلم هذا الكلام بلهجة القانطين ، وقد اتقدت عيناها فجأة فخشيت فاندا أن يعاودها الجنون ، ولم تلح عليها بالسؤال . فقامت على

أن تعودَ اليها في الصباح ، فعانقتها جيبسي عناقاً طويلاً وضمتها الى صدرها ضماً شديداً .

وأحست فاندا بدمعتين حارتين سقطتا على عنقها فخرجت فاندا من غرفتها وهي تخشى ان يكون قد عاد اليها الجنون ، وباتت تلك الليلة على أحر من الجمر لخوفها عليها حتى انها جاءت الى غرفتها مرات لتتفقدهـــا فرأت انها أطفأت مصباحها ولم تسمع لها حساً .

وعند الصباح جاء ميلون الى فاندا قائلاً لها : لقد شاهدت هذه الليلة جملاً في الحلم ، وما شاهدت هذه الرؤيا مرة إلا فجعت بموت محب

فتركته فاندا وذهبت الى غرفة جيبسي حسب الاتفـاق وطرقت بابها فلم تجب ، فوالت القرع ولم يجبها أحد وكان المفتاح في قفله ففتحته ودخلت ، فرأت جيبسي في سريرها بملابسها ورأت يديها منبسطتين فوق صدرها فحسبتها نائمة ، غير ان ميلون دخل في أثرها ونظر الى جيبسي وقال : رباه ماذا أرى ؟ إنها ميتة لا رجاء فيها .

- ٥١ -

ولم يخطىء ميلون لأن جيبسي كانت ميتة . فأخذت فاندا يدها فوجدتها باردة ولكن آثار السكينة بادية على وجهها كأنما هي قد ماتت فجأة دون نزع. وكان قرب السرير مائدة رأت فاندا عليها كتابين أحدهما بعنوان فاندا والآخر بعنوان مرميس ، وبالقرب من الكتابين خاتم كانت جيبسي تلبسه دائماً وتقول انه وصل اليها من النور الذين ربوها ، ولهذا الخاتم وعاء يشبه القبة ويظهر بظهر الفص فرأته فاندا مفتوحاً فأيقنت انه كان فيه سم زعاف وان جيبسي شربت هذا السم .

وبينما كان ميلون يعول ويصيح كانت فاندا تفض غلاف الكتاب المعنون باسمها بيد تضطرب وقد اصفر وجهها فقرأت ما يأتي :

« أسألك العفو يا سيدتي فما تكتمت عنك إلا لأني لم أجسر أن أبوح لك بمكنونات قلبي .

« إني أموت يأساً وغراماً . لقد أحببت مرميس هذا الفتى الباسل الذي كنت بالأمس تدعيه خطيبي حباً ليس بعده حب فما تجاسرت على ان أكون امرأته لأني أحببته أصدق حب .

« إن جيبسي النورية تستطيع ان تتزوج أي رجل يريد زواجها كيفما اتفق غير أنها إبنة مس أنا ، إبنة أعظم نبيل بين الانكليز ، فإذا أرادت أن تتزوج من تحبه وجب عليها ان تكون نقية كالزهرة طاهرة كالملاك ولم تكن جيبسي النورية على شيء من هذه الطهارة فإنها كانت ترقص في الحانات وكانت عشيقة أرثر نويل .

« إني إذا تسميت باسم أسرتي عرفني من حضر رقصي ، وإذا تزوجت مرميس فقد يراني أرثر نويل ، وكلا التذكارين مؤلم شديد فرأيت ان أخلص منهما بالموت .

« إني أهب كل ثروتي لمرميس بعد الموت كما وهبته قلبي في الحياة .

« وأعتمد عليك يا سيدتي في تبريد لوعته وتخفيف أشجانه وشفائه مما سيصيبه من اليأس ، فأنت خبيرة بطب القلوب . وهو فتى فقد تشفين فؤاده بتوالي الأيام .

« ورجائي أن يتناساني وان يشغل فؤاده بحب سواي ، فإنه غني جميل وسيجد فؤاداً للغرام في قلوب الفتيات .

« هذه أماني تلك الفتاة المسكينة ، التي ستموت بعد هذه السطور ، وأسأل الله أن يحقق هذه الأماني ، فأستودعك الله يا سيدتي ، وداعاً أبدياً .

« والتمس منك المغفرة والتمس غفران الله لي ، وأختم كتابي معتمدة عليك بتعهد مرميس » .

(جيبسي)

وسقط هذا الكتاب من فاندا ووقفت تتأمل وجه تلك الفتاة النائمة فوق سرير الموت نوم الطفل في مهده . ثم توجهت لها وقالت · هنيئاً لك فقد عذبت في الحياة واسترحت بالموت .

وقال ميلون : ما زلت أعتقد انها لم تشف بعد حق صدق ظني واأسفاه إن انتحارها لهذه الأسباب لا يدل على عقل رجيح .

وبينما كان ميلون وفاندا راكعين أمام سريرها يصليان معا وقع حوافر جواد وقف عقد الباب وعلما ان القادم هو مرميس فأسرع ميلون الى خارج ووقف في طريقه قائلا له . لا تدخل .

والمرء ساعات تصدق فيها أحاديث قلبه كل الصدق حتى يصبح كالأنبياء فصرخ مرميس يقول : إن جيبسي ماتت !

ثم دخل بالرغم عن ميلون إلى غرفة الميتة فوجدها مسجاة على السرير ووجد فاندا راكعة تصلي .

وإن من اليأس ما تنفد له الدموع وينحبس به اللسان ، وهذا ما أصيب به مرميس ، فإنه لم يفه بكلمة ولم يذرف دمعة ، بل أخذ الكتاب المعنون باسمه ففضه وتلاه .

وقد تضمن هذا الكتاب وداعاً يقطع القلوب . ورجت فيه جيبسي من حبيبها أن يقبل ملايينها ، وأن ينفق منها باسمها ما استطاع في سبيـل الخير . ثم التمست منه في الختـام أن يشغل فؤاده عنهـا ، وأن يعيش سعيـداً .

فلما أتم تلاوة الكتاب أخذ يد جيبسي الباردة فقبلها وخرج من غرفتها الى غرفته دون ان يفوه بكلمة ، وأخرج من خزانته مسدسـاً وضعه على

صـدغه بملء البرود وأطلقـه ، ولكن يداً شديـدة حولت يده عـن صدغه ، فوقعت رصاصة المسدس في الجدار فاخترقته ، وكانت هذه اليد يد فاندا .

فلما رآها مرميس غضب لتعرضها له فقال لها : دعيني أموت ، لا رجاء لي بعدها في الحياة .

وحاول ان يطلق النار على نفسه أيضاً ، غير ان فاندا تمكنت بمساعدة ميلون من تجريده من المسدس وقالت : لا يحق لك الموت ، لان الرئيس لا يريد ان تموت !

فاصفر وجه مرميس عند ذكر روكامبول وقال : الرئيس ... وماذا يريد الرئيس ؟

– إنه ترك لك كتاباً متى تلوته تعلم ما يريد .

ثم أعطته كتاباً ضخماً مختوماً كتب على غلافه هذه الكلمات :

« إن هذا الكتاب يحتوي على تعليماتي لمرميس ، ولا يحق له ان يضطلع عليها إلا إذا غبت عاماً كاملاً عن باريس » .

بعد بضعة أيام من الحوادث المتقدمة ، نشرت جريدة الهافر هذا الخبر الآتي :

بينما كانت السفينة ماري وربانها قونديران قادمة من جزيرة الاتحاد الى الهافر وجدت قرب جزيرة القديسة هيلانة زجاجة مختومة ففضت ختامها ووجدت فيها الكتب الأربعة الآتية وهي :

« كتب هذا الكتاب في السفينة سيوا المسافرة الى الهند بقيادة الربان أفاتار تحت راية إنكليزية . وقد كشف على مظهر السفينة في الساعة السابعة من مساء ١٤ يوليو سنة ٨١ .

« إن المطافىء تشتغل منذ ٤٨ ساعة لإطفاء النار الملتهبة في السفينة ، فقد لعبت في عنبر الزاد ولا تزال تشتعل ببطء .

« إن الرياح هادئة والبحر يشبه بسكونه البحيرات والسفينة لا تستطيع السير لسكون الرياح .

« ونحن نبعد الآن خمس وأربعين مرحلة عن السنغال ومنذ أمس وقفت السفينة ولم تعد تسير .

« وقد عللنا أنفسنا عند ظهر أمس بشيء من الرجاء ، فإننا رأينا سفينة تسير في عرض البحر على مسافة بعيدة منا ، فأطلقنا مدفعاً إشارة إلى ما نحن فيه من الخطر . ولكنها لم تقف وسارت تخترق المياه حتى توارت عن أنظارنا .

« لا تزال النار تشتعل وستصل بعد أربع وعشرين ساعة الى مستودع الذخائر فتنسفنا وينتهي الأمر .

« في ١٥ يوليو الساعة السادسة صباحاً .

« ساد اليأس في السفينة فإن المطافىء لم تفلح وأنهكت قوى البحارة فانقطعوا

عن العمل وهم ينتظرون الموت بسكينة .

« وعادت الرياح الى الهبوب ولكنها هبت متأخرة فإن السفينة لا تجتاز أكثر من ميلين في الساعة وهي تبعد عن الشاطىء ٤٠٠ ميلا .

« الدخان الأسود يخرج من العنبر ، وقد قربت النار من مستودع الذخائر ولا حيلة لنا بعزله ، ونحن ننتظر أن تنسف بنا السفينة من حين إلى آخر .

« إذا وصلت هذه السطور الى اوروبا فنرجو من يعثر بها أن ينشرها في الجرائد السيارة ، فإن اسم أفاتار لا يعرفه غير القليل من الناس ولكن يوجد في باريس من يهتم له .

« في اليوم نفسه . الظهر .

« رأينا مركباً شراعياً فأشرنا اليه إشارات الخطر ، ولكنه توارى عن أبصارنا دون أن يرانا . فأنزلنا الى البحر القارب الوحيد الذي معنا فلم يسع هذا القارب الصغير غير ستة أشخاص ونحن ١٩ رجلا في السفينة ، فأمرتهم أن يقترعوا دوني على من ينزل في القارب ، لان الربان يجب ان يبقى في السفينة إلى آخر ساعاتها ، فأصابت القرعة ستة من البحارة ، فنزلوا الى القارب وهم يبتعدون الآن عنا ويبكون أتراهم يصلون سالمين الى البر ؟ ان الله وحده يعلم .

« في اليوم نفسه . الظهر أيضاً .

« القارب يبتعد ونحن نشيعه بالنظر . توارى الآن عن أبصارنا فلم نعد نراه. تفقدنا النار بالنظر فعلمنا انها ستصل الى مستودع الذخائر بعد ساعة فتنسفنا مع السفينة ليكن ما يريده الله » .

« الربان الأول : أفاتار »
« الربان الثاني : نويل »

إنتهى تقرير روكامبول الذي كان موجوداً في الزجاجة وقد أضافت جريدة الهافر على هذا التقرير ما يأتي :

« كانوا يتحدثون أمس في قهوة الأميرالية أن السفينة مويت سمعت في الساعة العاشرة من ١٥ يوليو دوياً شديداً وهي قريبة من السنغال فحكم ربانها ان هذا الدوي صوت انفجار حدث في سفينة دون شك ولكنه تعذر عليه أن يعلم مسافة بعد الانفجار عن البر» .

انتهت رواية « ملايين النورية »

ويليها الجزء العاشر من روكامبول « البستانية الحسناء »

الجزء العاشر

البستانية الحسناء

البستانية الحسناء

- ١ -

في الساعة الثانية بعد منتصف الليل كان بعض فتيان الباريسيين الاغنيـاء مجتمعين في ناد لهم يدعونه نادي كريفيس .

وكانوا جالسين في القاعة العمومية يتحدثون بشأن اختفاء دي مورفر أحد أعضاء هذا النادي فانه احتجب منذ عامين ولم يعلم أحد كيف كان اختفاؤه.

وكان بينهم فتى يدعى كازمير وهو حديث الدخول في هذا النادي فأشكل عليه فهم هذه الحكاية فقال للمتحدثين : عفواً أيها السادة فاني حديث العهـد بينكم فهل يتفضل علي واحد منكم بتفصيل هذا الاختفاء الغريب ؟

فانبرى له الفيكونت دي مونتجرون وقال : اني أنا ادخلتك الى هـذا النادي وأنا اقص عليك ما تتوق اليه من معرفة اختفاء دي مورفر فاسمع .

ان غاستون دي مورفر كان في السادسة والثلاثين من عمره وهـو أديب جميل حلو الحديث وافر الثروة وكان طلق الوجه فرح القلب فـلم يحزن مرة ولم يتدله بغرام ولم يحدث له في ادوار حياته الآمنة ما يدعوه الى الانتحار

— ومع ذلك العله انتحر ؟

— ليس من يعلم شيئاً من أمره وحكايته انه خرج ليلة من هذا النادي مـع

شارل هدنوت ابن الصراف الشهير فذهبا ماشيين الى شارع مـــدلين فشارع سيرسنس حيث يقيم المركيز دي مورفر وهنـــاك افترقا على ان يلتقيا في اليوم الثاني فذهب شارل في شأنه ودخل المركيز الى منزله .

وقد اخبر بواب منزله في اليوم التالي انه اعطاه حين عودته تلك الليلة كتاباً أرسل اليه ففضه وقرأه وقد بدت عليه علائم التأثر فالقي الغلاف على الارض ووضع الرسالة في جيبه ثم خرج لفوره من المنزل وقال لبوابه : اني لا أعـود في هذه الليلة .

وفي اليوم التالي لم يحضر ثم توالت الأيام دون أن يعود فتداخل البوليس في أمره ونشرت الجرائد خبر اختفائه وأرسلت صورة المركيز الى جميـع الانحاء فذهبت كل هذه المساعي ادراج الرياح وقد ارسلت عائلته عمالاً على نفقاتها الى انكلترا وروسيا والولايات المتحدة كي يبحثوا عنه فلم يهتدوا الى أثر من آثاره ولم يعلموا إذا كان ميتاً فيبكي أو كان حياً فيطمع بلقائه .

– وهذا الكتاب الذي ورد اليه فكان علة اختفائه ، ألم يعثروا به ؟

– انهم لم يعثروا به بل عثروا بالغلاف فعلموا ان خطه خط امرأة .

– إذن كان عاشقاً دون شك فكيف تقولون انه لم يعشق ؟

– انه كان يحب احدى فتيات المسارح كما يحب الرجل جواده وقد كلفتـه كثيراً من النفقات ولكنه كان واسع الثروة .

– ألم يكن منغمساً بالدسائس ؟

– ذلك ما لا يعرفه أحد غير ان طرق عيشه لا تدل على شيء من هذا .

– أحد اللاعبين : أنا لا اعتقد انه انتحر .

– دي منتجوون : وأنا اعتقد هذا الاعتقاد أيضاً وحقيقة رأيي في هـذا الاختفاء الغريب انه ناتج عن جناية هائلة وان يداً اثيمة قد عبثت به فقـــد كثرت هذه الجرائم في باريس منذ عشرة اعوام وكلها خفية هائلة تكتنفهـــا الاسرار فلقد اتفق انه بينما كان العمال يهدمون منزلاً رأوا في أحد اقبيته هيكلاً

من عظام الانسان ولا يبعد ان يكون المركيز مورفر حبس في قبو من هذه الاقبية السرية فيتحدث كهول باريس في مستقبل الأيام حين ينقض البنـــاء ويقولون هذه جثة المركيز الذي طالما خاضت الجرائد في سر اختفائه الغريب

وعند ذلك نهض أحد الحضور وقال : لقد مر بنا عـــام بجملته ونحن لا نتحدث في كل ليلة إلا بحديث هذا المركيز فتنقبض صدورنا لنكبته ولا نحلم في الليل إلا بالجرائم والآثام فبالله إلا رجعتم عن هذا الحديث المحزن وهلم نتحدث بغرام صديقنا مريون عاشق البستانية الحسناء .

فوافق الجميـع على هذا الرأي وقال مونتجرون للعضو الجديد : ان غوستاف مريون الذي سنتحدث بأمر غرامه وهو فتى حلو الشمائل واسع الثروة عشق البستانية الحسناء منذ عهد قريب ولا يزال ساعياً لاسترضائهـا .

– ومن هي البستانية الحسناء ؟ فاني ما سمعت بها قبل الآن .

– لم نعلم شيئاً من امرها قبل ثمانية أيام وغاية ما علمنا انها بائعة زهر تقيم في شارع بلفي ويقول عاشقها مريون انها لو ظهر في الاوبرا لكشف جمالها جميع تلك الشموس الساطعة فيها .

– العله تحبه ؟

. كلا ويظهر انها لا زوج لها ولا عشيق فانها دائماً تلبس السواد فيزيدها جمالا وجميـع خدامها يحترمونها كل الاحترام وليس بينهم من يعلم موطنها فان مريون قد انفق الى الآن عشرين الف فرنك في سبيل معرفة شيء من أحوالهـا أو أغواء أحد خدامها فلم يفز بمراد .

فقاطعه أحد الحضور وقال . لقد فاتتك اخبارها يا مونتجرون فان مريون تمكن امس من اغواء أحد خدامها وهو الخادم الوحيد الذي ينام في منزلهـــا فاعطاه مائة دينار وأخذ منه مقابل ذلك مفتاح الحديقة ومفتاح المنزل وعليه أن يجد وسيلة للوصول اليها فقد قال هـذا الخادم انه منذ دخل في خدمتهـا لم يراها اذنت لرجل بالدخول الى منزلها

– إذن ما عساه يصنع ؟

– انه اختار أربعة من اصدقائنا وأنا منهم كي نرافقه في هذه الليلة الى منزل الحسناء فنقف في الطريق موقف الحراس ويدخل هو الى المنزل .

– مونتجرون . ولكن البوليس ايها الصديق منتشر في كل مكان حتى في شارع بلفي .

– وماذا يهمنا من البوليس فاننا سنقف خارج المنزل وهو يدخل اليه فاذا رضيت تلك الحسناء انيختطفها كان ذلك من حسن توفيقه وإذا أبت واستغاثت هربنا فما علم بأمرنا أحد .

– مونتجرون ، إذا كان ذلك كما تقول فانا اذهب معكم أيضاً .

وفيما هو يقول هذا القول دخل مريون الذي يتحدثون عنه فقال . عافاك الله يا مونتيجرون فأصحبك معنا فالتفت جميع الاعضاء عند ذلك فرأو مريون داخلاً فقال له أحدهم : ماذا تقول يا مريون أجد ام انت مازح ؟

– بل أقول الجد وقد جئت بمركبة تنتظرني عند الباب وهي تسع خمسة أشخاص فمن أحبني فليتبعني

– مونتيجرون ضاحكاً : أيجب أن يكون معنا سلاح .

– كما تريدون أما أنا فان مسدسي لا يفارق جيبي .

فقام عند ذلك الخمسة الذين عولوا على الذهاب فلبسوا قبعاتهم وخرجوا الى المركبة الواقفة عند باب النادي وكانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل فقال لهم مريون : اننا نصل الى منزل هذه البستانية الحسناء بعد نصف ساعة ، وفي الساعة الثالثة نجتمع على المائدة كلنا في القهوة الانكليزية فدعا الرفاق له بالنصر وركبوا المركبة فسارت بهم الى شارع بلفي وهم يضحكون ويمازحون مريون .

- ٣ -

وكان الظلام مدلهماً والبرد شديداً ، والهواء زمهريراً ، غير أن هولاء الفتيان لم يكونوا يكترثون لمثل هذه العوارض الجوية وقد التهبت في أحشائهم نيران الخمر المعتق .

وما زالت المركبة سائرة بهم حتى وصلت إلى بلفي فأوقفها مريون فقال له مونتيجرون : العلنا وصلنا .

— كلا ، ولكن صوت المركبة في هذا الشارع المقفر قد ينبه أنظارهـا وإنما أريد أن أباغتها فهلم بنا نسير على الأقدام فإن البيت قريب .

وقال مونتيجرون : إني لا أرى شيئاً فأين هو ؟

— أنظر أمامك إلى هذا النور الضعيف فانه ينبعث من غرفة رقادها .

— ألا يوجد منازل مجاورة له !

— كلا . إن أقرب منزل منه يبعد عنه مئة متر على الأقل ، فهو يعتبر في معزل عن البيوت .

ونزل شبابنا الخمسة من المركبة وساروا في هذا الشارع ، الوحل إلى الركب حتى وصلوا اليه ، ورأوا حديقة كبيرة تكتنفه والسكينـة سائدة في جميع جهاته ، ولم يروا غير نور ضعيف ينبعث من النافذة في الدور العلوي .

وقال مريون : قفوا هنا أيها الرفاق وادعوا لي بالتوفيق ..

ثم أخذ مفتاحاً من جيبه وسار إلى باب الحديقة ، ففتحه ودخل واجتـاز رواقاً فيها إلى باب المنزل ، فأخرج مفتاحاً آخر من جيبه وفتحه .

كان الظلام شديداً ولديه علبة من الكبريت الشمعي ، فانكشف له على نورها سلم فرش فوق درجاتها بساط ضيق ، وصعد على هذه الدرجات فكان البساط يخفي صوت وقع أقدامه حتى انتهى إلى آخر السلم فوصل إلى الرواق ورأى

في آخر الرواق نوراً فأطفأ شمعته ومشى مخففاً وطأه كما يمشي اللصوص وهو يسترشد بهذا النور .

ولما وصل الى حيث ينبعث النور رأى غرفة نصف بابها الأعلى من الزجاج فقال في نفسه : هذه غرفة رقادها فلنرى .

وعند ذلك مشى الى الباب بملء الحذر، ونظر من زجاجه الى داخل الغرفة فلم يكد نظره يستقر ، حتى وقف شعر رأسه وانصب العرق البـــارد من جبهته ووقف الريق في حلقه ، وانقلب الى الوراء وقد صاح صيحة رعب بصوت مختنق .

ذلك أنه رأى هذه الغرفة مفروشة بالأثاث الأسود كغرف الأموات ورأى في وسطها سرير فوقه جثة وأمام هذا السرير إمرأة واقفة تنظر الى الجثة والدموع تنهمل من عينيها .

أما المرأة فكانت البستانية الحسناء ، وأما الجثة فكانت جثة رجل عرفه مريون حالاً إنه المركيز غوستاف دي مورفر الذي اختفى منذ عام وذهبت مباحث البوليس وأهله أدراج الرياح بعد ان بحثوا عنه عاماً كاملاً في جميع أنحاء الأرض .

- ٣ -

ولم يكن مريون قد أغمي عليه حين سقوطه ، ولكنه كان قد أصيب بشلل في جسمه وعقله لهول ما رآه . فلم تعد ساقاه تحملانه وانعقد لسانه ولم يعـــد يستطيع الوقوف بعد سقوطه .

ثم رأى أن الباب قد فتح وخرجت منه تلك الفتاة التي رآها واقفة أمـــام جثة المركيز . ولم تكن تبكي بل كانت عيناها تتقدان كالجمر وكانت صفراء

الوجه مضطربة الأعصاب تدل هيئتها على الغضب الشديد حتى ان جمالها قد استحال الى قبح وكاد مريون ينكرها .

فدنت منه وقالت له بلهجة الامر : قم .

فنهض مريون لفوره وقد أثرت به نظراتها النارية أشد تأثير فأخذت يده وجذبته الى تلك الغرفة السوداء وهي تقول . ما زلت تريد فادن وانظر .

وكانت تجذبه الى الغرفة بعنف وتعيد عليه هذا القول بلهجة التهكم فما مر بهذا الفتى ساعة رعب أشد من هذه الساعة ، فأدار وجهه ولم يستطع أن يرى فجذبته أيضاً الى الشموع الموقدة حول الجثة وقالت له : قلت لك أنظر ألم تأت الى هنا كي تقف على أسراري ؟

فنظر مريون عند ذلك الى الجثة والرعب ملء فؤاده . فأيقن انها جثة المركيز ورأى أن هذا المركيز لا يزال بملابسه التي كان يلبسها يوم اختفائه ، ولكن صدرته كانت مفقودة وقميصه مفتوحة تكشف عن صدره . فرأى في ذلك الصدر جرحاً فوق الثدي الأيسر ورأى الدم عليه فلم يدر اذا كان أصيب بخنجر فمات غدراً واغتيالاً أو أصيب بسيف فمات موت الأشراف .

وكان يرى من أثر الدم وهيئة الوجه أن المركيز لم يمت إلا منذ بضع ساعات فكيف اتفق ذلك والبوليس يفتش عنه منذ عام ، وماذا حدث لهذا المركيز في مدة سنتين كاملتين وهو لم يقتل إلا منذ ساعات ؟ إن ذلك مما تحار في إدراك كنهه العقول .

وكان ينظر الى جثة المركيز مورفر والبستانية الحسناء واقفة بالقرب منه تقذف من عينيها لهباً وتقول لمريون بلهجة المتهكم : ما بالك خائفاً ؟ ولماذا لا تدقق النظر ؟

فكانت أسنانه تصطك من الرعب وقد خاف من هذه المرأة الحية أكثر مما خاف من ذلك الرجل الميت .

ثم أخذت يده فجأة وهزته بعنف ونظرت اليه نظرة هائلة فقالت له :

والآن أصغ إلي ..

فحاول مريون ان يتكلم فتلجلج لسانه وتمتم ببعض كلمات لا معنى لها ، فقالت له : قلت لك إصغ إلي ، فانك تأتي كل يوم إلى منزلي منذ شهر بحجة شراء الزهور ، ثم لم تر ميلاً مني اليك فأغويت أحد خدمي وتمكنت بفضله من الوصول إلى هذا المكان وكنت تحسب انك آت لترى امرأة حسناء تهواها فوجدت جثة قتيل ، هل شفتك هذه الجثة من ذاك الغرام .

ولما رأت انه لم يجبها بحرف قالت له : أشفق عليك لأنك لا تزال في مقتبل العمر وغرور الصبى ، ولو لم أكن آليت على نفسي أن لا اسفك دماً بشرياً إلا في سبيل الدفاع لما كنت الآن في عداد الأحياء ، فاذا شئت ان تحيى سعيداً وتبلغ سن الكهولة فأقسم لي بهذه الجثة انك لا تبوح بحرف مما رأيت .

فكان مريون يرتجف ويضطرب دون ان يجيب ، فهزته هزاً عنيفاً دل على شدة أعصابها وقالت له بلهجة المتوعد : قلت لك أقسم بهذه الجثة .

فخيل لمريون من لهجتها أن حياته بين أيديها وأنها إذا فاهت بكلمة بات من الأموات وكان فتى لم يتجاوز العشرين من عمره فزاد اضطراباً ولكنه لم يقسم فهزته مرة ثالثة ونظرت اليه نظرة هائلة تبين منها صدق وعيدها وقالت له : قلت لك أقسم ..

فوضع مريون يده مكرهاً فوق الجثـــة وقال بصوت مختنق : أقسم على الكتمان .

وعند ذاك أطفأت جميع الأنوار بغتـــة كأنما يداً سحرية أطفأتها وساد الظلام في تلك الغرفة ، فأوشك مريون أن يجن من رعبـــه لما هاله من هذه الأسرار ، ثم شعر ان يدها مسكت يـــده وسمعها تقول له : اتبعني فتبعها وهو لا يعرف أين يسير حتى وصلت إلى سلم فنزلت أمامـــه وهي تقوده كما يقاد العميان ، ولما بلغت آخر السلم فتحت باباً وأخرجت مريون وعادت فأقفلت الباب .

وكان هذا الباب موصلاً إلى الحديقة فلم يمش مريون خطوتين حتى شعر أن قواه قد تلاشت فسقط مغمياً عليه لا يعي على شيء .

- ٤ -

بعد ذلك بمدة ٤٨ ساعة كان أعضاء نادي كريفيس مضطربين اضطراباً عظيماً فانهم لم يروا مريون ولا رفاقه الأربعة منذ يومين فسهروا ليلتهم بطولها منتظرين قدوم واحد منهم يخبرهم بما جرى فلم يحضر أحد .

وكان أحد الأعضاء ذهب إلى منزل مريون ومونتيجرون وبقية الرفاق فأجابه البوابون انهم لم يعودوا إلى منازلهم منذ ليلتين .

وطال تحدثهم في سبب اختفائهم فقال أحد الأعضاء : أرى ان هؤلاء المجانين قد اصيبوا بمكروه فاني ضعيف الثقة بجسارة وشجاعة مريون وعندي ان لهذه المرأة التي ذهب اليها زوجاً او عشيقاً وان هذا العاشق ألقى مريون من نافذة المنزل حين دخوله اليه .

فقال أحدهم : أن ذلك ممكن الحدوث .

وقال آخر : انهم إذا ألقوه من الشباك لا يموت ، ان للعشاق وللسكارى إلهاً يحرسهم فاذا صح ذلك فقد يكون أصيب بجرح او برضوض فنقـل إلى أحد المنازل المجاورة ولكن ماذا حدث لرفاقه الأربعة كما تعلمون ؟

فقال أحدهم : أن معظم سكان شارع بلفي من الأسافل ، فقد يتفق انهم أساؤا اليهم او جرى بينهم خصام فشوهوا وجوههم وخجلوا أن يظهروا امامنا بمظاهر الخذلان .

وعند ذلك سمعوا صوتاً يقول . لقد أخطأت ايها الصديق ، فالتفتوا رصاحوا جميعهم هوذا مونتيجرون

أما مونتيجرون فقد قال لهم : لقد أخطأتم أيها الأصحاب فان أهل بلفي لم يشوهوا وجوهنا ولم يسيئوا الينا كما ظننتم ..

- ومريون ماذا جرى له ؟

- انه مجنون ..

- العله جن جنون غرام ؟

- كلا . بل أنه جن جنوناً مطبقاً ، وأرجوا أن لا تضحكوا أيها السادة فاني لا أقول ما أقوله على سبيل المزاح بل هي الحقيقة بعينها وأوردها لكم بملء الأسف .

فانكمشت نفوسهم وبدت على وجوههم علائم الحزن وجعل مونتيجرون يحدثهم بما جرى لهم وأخبرهم كيف ذهبوا إلى منزل البستانية الحسناء وكيف دخل مريون وحده إلى ذلك ، ثم أخبرهم كيف أن النور انطفأ بعد أن دخل بنصف ساعة دون أن يسمعوا صوت استغاثة ، فقلنا لقد فاز مريون فيما أراد وان هذه الحسناء كانت تخدعه بمظاهر نفورها للاستزادة من هيامه لما رأت من حداثة سنه .

وعزمنا عند ذلك على الرحيل ، لكني أردت قبل ذلك أن أخبر الخادم أننا عدنا إلى شؤوننا كي يخبر مريون بانصرافنا عند انصرافه .

وكان باب الحديقة مفتوحاً فدخلت اليها ومشيت إلى الباب ولكني ما سرت بضع خطوات حتى عثرت بجسم ملقى على الأرض فنظرت وإذا هذا الجسم جسم صديقنا مريون وهو بلا حراك .

فصحت عند ذلك صيحة رعب وأسرع الرفاق إلي حين سمعوا صياحي ، ووجدنا مريون مغمياً عليه ولم يكن في جسمه أثر جرح أو رضوض ، فأشكل علينا سبب هذا الأغماء ، وخطر لنا أن نطرق باب هذه المرأة وأن نكسره إذا أبت أن تفتح لنا ، غير ان الحكمة تغلبت على حدتنا لحسن الحظ فقلنا يجب أن نهتم بصديقنا قبل كل شيء ، ثم نعلم منه بعد أن يستفيق علة هذا الاغماء ،

فننهج في أعمالنا مناهج الحكمة ، وفوق ذلك، فانه هو الذي أساء إلى نفسه بدخوله إلى منازل الناس في ظلام الليل دخول اللصوص ، وإذا دخلنا دخوله عرضنا أنفسنا للأخطار ..

واستقر رأينا أن نخرج مريون من الحديقة فحملناه وخرجنا به إلى الشارع ففعلنا كل ما استطعناه ولم نتمكن من أن نرجع اليه هداه ، ولو لم نكن نشعر بدقات نبضه الضعيف لحكمنا أنه من الأموات .

وكان الفجر أوشك أن يلوح وخشينا أن يرانا أحد من البساتين فيقف البوليس على أمورنا ، فحملنا مريون إلى المركبة وسرنا به إلى فندق الرأس الأسود ووضعناه فوق سرير واستدعينا له طبيباً فأقام ساعة يعالجه بالدعك وشم الأرواح المنعشة حتى فتح عينيه وجمد الدم في عروقنا لأنه جعل ينظر الينا نظراً تائهاً ولم يعرف أحداً منا .

وكانت أسنانه تصطك من الرعب وبلغ منه الهذيان شر مبلغ ، ثم جعل يبكي ويضحك في حين واحد ويقول : إياكم أن تذهبوا اليها .

ودام هذيانه متصل إلى مساء أمس فخف ما به وعادت اليه السكينة ، وكنا لا نزال حول سريره ، وعرفنا جميعنا ودنوت منه عند ذلك وحاولت أن أسأله عما جرى له فعاد اليه رعبه القديم وقال : إحذروا من الذهاب اليها.

- سنمتثل ، لكن قل لنا على الأقل ماذا جرى لك ..

– لا أستطيع أن أقول شيئاً ، لقد أقسمت يميناً محرمة ..

ثم عاد اليه الهذيان ، ولم يعد يحدثنا بشيء

وجاء الطبيب ففحصه فحصاً مدققاً وقال : انه مجنون وأخشى أنه لا يشفى من هذا الجنون .

وقاطع أحد الأعضاء مونتيجرون وقال له : أظن أنكم أبلغتم البوليس بما جرى .

فهز مونتيجرون كتفيه وقال : إن من يعمل ما عملناه ويدخل البيوت كما

دخل اليها مريون لا يسعه الافتخار بعمله ، ولا ينظر البوليس إلى عمله نظرة استحسان .

– هو ما تقول ، ولكن لا بد ان يكون في هذا المنزل سر هائل ذهب بصواب مريون ويحسن الوقوف على هذا السر .

– وأنا أرى رأيك ، ولكني أقسمت أن اكتشف هذا السر بنفسي قبل البوليس ، وأن أدخل منزل البستانية الحسناء بالرضى أو بالعنف مهما كابدت في هذا السبيل من الأخطار .

– أتقضي هذه المهمة وحدك ؟

– كلا ، بل يصحبني من يريد منكم لكني لا أقبل غير واحد .

فأقبل كل واحد منهم يقول أنا لها ، حتى اضطروا إلى الاقتراع فأصابت القرعة ذلك العضو الجديد الذي يدعى كازمير ، فدنا من مونتيجرون وسأله: متى تريد أن أذهب إلى هذه السيدة ؟

– الآن فإن مركبتي تنتظرني عند باب النادي .

وقال لهم : استحلفكم بالشرف أيها الأصدقاء أن تكتموا هذا الأمر كل الكتمان إلى أن أعود .

فأقسم له الجميع كما طلب وخرج لفوره مع كازالير إلى النادي

– ٥ –

وكانت هذه الحادثة قد أهاجت فضول مونتيجرون فعزم على اكتشاف سر الحسناء غير مكترث لما هنالك من الأخطار ، ورأى أن رفاقه الثلاثة الذين ذهبوا مع مريون قد ذعروا ذعراً شديداً لما رأوه من جنونه ، فلم يكاشفهم بقصده ولكنه أخذ مفتاحي الحديقة ومنزل البستانية وذهب إلى النادي كي

يختار رفيقاً له في هذه الرحلة ، فأصابت القرعة كازمير كما تقدم .

وخرج وإياه فركبا المركبة التي كانت تنتظره وسلحه بخنجر فسارت بهما المركبة حتى بلغت إلى ذلك المنزل .

وكانت السكينة سائدة والمصباح ينير في نافذة الغرفة كما كان في تلك الليلة ، وأخذ مونتيجرون أحد المفتاحين من جيبه ففتح باب الحديقة وقال لكازمير اتبعني ، فتبعه وسار بين الأشجار مائة خطوة فرأى مونتيجرون شبحاً أسود يدنو منه ، فهمس في أذن صاحبه وقال له : انتبه .

ووضع يده على قبضة خنجره .

أما الشبح الأسود فانه ما برح يتقدم حتى تبين لمونتيجرون أنه رجل ، ثم سمع صوت هذا الرجل يقول من هنا ؟

فلم يجب ، فدنا الشخص أيضاً ورأى مونتيجرون وكازمير فقال لهما : من أنتما ؟

فانقض عليه مونتيجرون فجأة انقضاض الصاعقة وضغط على عنقه حتى كاد يخنقه وهو يقول : إذا فهت بكلمة فأنت من الهالكين .

فذعر الرجل وقال بصوت مختنق رحماكم لا تقتلوني إذا كنتم من اللصوص.

– اني أعرف كثيراً من الخدم يقتصدون .

– ولكني أقسم لك بكل مقدس اني لست منهم .

غير ان اضطراب صوته كان يدل على انه كاذب في ادعائه الفقر

وذكر مونتيجرون ان صديقه مريون قد رشاه بمائة دينار مقابل اعطائه المفتاحين فقال له إذا لم يكن لديك غير المائة دينار التي أخذتها من مريون لكفى .

فاضطرب الخادم وقال . أتعرف هذا ؟

– بلا ريب ، والبرهان اني فتحت باب الحديقة بالمفتاح الذي بعته إياه .

وغير الخادم خطته للفور وزالت عنه آثار الرعب فقال : أسألك العفو يا

سيدي لقد حسبتك قبلاً من اللصوص ولكني أرى سيدي من النبلاء
– إذن علمت السبب في مجيئي إلى المنزل .
– علمت بعض الشيء ..
– إذاً اجمع حواسك واستشر نفسك .
– ماذا يريد سيدي ؟
– أريد أن أخيرك بين أمرين ، إما ضربة خنجر أو مائة دينار .
– لا شك أن سيدي يمزح ، لأنه يعلم يقيناً أن المائة دينار خير من طعنة خنجر ..
– اتختار المال ؟
– بلا ريب ..
– إذن تكلم ..
– ماذا يريد سيدي معرفته ؟

فمد مونتيجرون يده إلى النافذة التي يشع فيها النور وقال له : ماذا يوجد فوق ؟

فأجابه الخادم بصوت يضطرب : إني يا سيدي أب لخمسة أولاد لا معين لهم إلاي ، وقد بعث المفتاح إلى المسيو مريون فنهج مناهج المجانين ، أما أنت يا سيدي فيظهر انك من العقلاء، فاذا أسديتك نصيحة رجوت أن تعمل بها وتقبل نصحي .

– ما هي هذه النصيحة ؟
– هي يا سيدي أن تعود إلى منزلك فان الليلة باردة والضباب كثيف ، وأخشى عليك من الزكام .

فغضب مونتيجرون وقال : ويحك أيها الشقي أهذا وقت المزاح والحديث عن الطقس ، قل لي ما أسألك عنه أو أقتلك شر قتل . ثم عاد الى الضغط على عنقه وانذاره بالخنجر .

فلما شعر الخادم بوخز الخنجر عاد اليه ذعره فقال . ليسألني سيدي عما يشاء أجبه .

– لمن هذا المنزل ؟

– للسيدة .

– من هي هذه السيدة ؟

– ليس هنا من يعرف اسمها ، فان جميع أهل الشارع يدعونها البستانية الحسناء ..

– كم بقي لها هنا ..

– عامين ..

– من أين أتت ؟

– لا أعلم ..

وكانت لهجة الخادم تدل على الصدق ، فأشار مونتيجرون بيده إلى النافذة التي ينبعث منها النور وسأله : أهذه هي الغرفة التي تبيت فيها تلك السيدة ؟

– أظنها غرفتها .

– كيف تظن ؟

– ذلك لأني لم أصعد إلى الدور العلوي من هذا المنزل ولم يصعد اليه أحد غيري من الخدم أو العمال ، الذين يشتغلون عند سيدتي في النهار وكل ما أستطيع أن اقوله لك هو ان شارل مرسيه بات من المجانين .

– من هو شارل مرسيه هذا ؟

– هو فتى من فتيان باريس توله بحب سيدتي فجاء وتسلق جدار الحديقة ثم أسند سلماً الى جدار المنزل وتسلق درجاته إلى هذه النافذة التي ترى النور ينبعث منها .

– وماذا جرى له . العلها القته من السلم ؟

كلا .. ولكنه نزل من تلقاء نفسه وقد جمد الدم في عروقـــه ووقف

وجحظت عيناه فجن لساعته ولا يزال مجنوناً إلى الآن .

— ولكن ماذا رأى في تلك النافذة ؟

— لا أعلم ، لكن سيدي يحسن عملاً اذا عاد من حيث أتى .

— كلا ان ذلك لا يكون ..

— إذن ألا تزال مصراً على الدخول الى المنزل ؟

— دون شك ويجب عليك ان تكون في مكانك والويل لك إذا خطر لك أن تتبعني .

— لا خطر علي يا سيدي فاني لا اجسر على الدخول الى هذا المنزل .

— إذا وجدتك في مكانك بعد ان اعود اعطيتك مائة دينار .

— ستجدني ان شاء الله جالساً تحت هذه الشجرة في انتظارك .

وقد كان خطر لمونتيجرون ان يبقى كازمير في الحديقة حارساً على الخادم غير ان كازمير أبى ألا ان يدخل واياه ففتح مونتيجرون باب المنزل ودخل يتبعه كازمير كما دخل مريون منذ ليلتين ثم اقفل الباب من الداخل ووضع الزلاج كي يأمن دخول الخادم في أثرهما وصعد درجات السلم الى الدور العلوي حتى انتهيا منه الى ذلك الباب الزجاجي فاطل منه ونظر من خلال زجاجه فذعر ذعراً شديداً لأنه رأى نفس ما رآه مريون أي جثة المركيز دي مورفر ولكن البستانية الحسناء لم تكن في تلك الغرفة السوداء

ورأى كازمير ما كان من اضطراب رفيقه فدنا من الباب وصاح صيحة رعب حين رأى تلك الجثة فشد مونتيجرون على يده وقال اسكت :

وكان مونتيجرون شجاع القلب فلم تمر به بضع ثوان حتى عادت اليه سكينته فتفرس بالجثة ملياً ثم همس في اذن رفيقه وقال لقد عرفت الآن السبب في جنون مريون فانه رأى هذه الجثة وعرف انها جثة المركيز دي مورفر ونحن الآن لم نكتشف سراً بل اكتشفنا جريمة هائلة ويجب ان نستقصي الى النهاية .

وكان الباب الزجاجي مقفلاً فحاول ان يفتحه فلم ينجح فقال · مهما يكن من النتيجة فلا بد لي من الاستقصاء الى النهاية

ثم رفس الباب بشدة فتحطم زجاجه وفتح .

غير انه حدث عند ذلك ما يشبه السحر فان الشموع التي كانت موقدة حول الجثة اطفأت فجأة وساد في تلك الغرفة ظلام مخيف .

ولم يبال مونتيجرون بما حدث فجرد خنجره وقال لرفيقه : جرد خنجرك ثم تأبط ذراعه ومشى الاثنان الى الجثة لكنهما لم يمشيا خطوتين حتى صاح مونتيجرون صيحة منكرة ذلك ان الارض قد هبطت تحت قدميه فسقط مع رفيقه في هوة لم يرها .

- ٦ -

وشتم مونتيجرون شتماً قبيحاً وقال بصوت جلي يدل على انه لم يسقط من علو شاهق : ما هذه الاسرار التي تكتنفنا في عالم السحر ؟

فاجابه كازمير وقد سقط بالقرب منه ، بل نحن في حكايات الف ليلة وليلة.

– مونتيجرون : أأصبت بكسر او رض ؟

– كلا فاني سليم وأنت ؟

– وأنا أيضاً .

– ولكن اين نحن ومن أين سقطنا ؟

– لا أعلم ولكننا سنعلم ثم فتش في جيوبه فوجد علبة كبريت فأنار عوداً منها ونظر مع رفيقه الى ما حواليه فوجد كثيراً من الاواني مرصوفاً بعضها قرب بعض قد زرعت فيها الازهار الشتوية ثم رأى مستوقداً ووجد فوقه شمعة قد ذاب نصفها فاسرع اليها وأنارها وجعل الاثنان ينظران بجلاء الى المحل

الذي سقطا فيه فوجدا انهما في غرفة تشبه الحديقة وفيها ازهار غريبة لا توجد في اوروبا .

ثم نظرا الى السقف الذي هبطا منه فوجدا ان ارض الغرفة العليا التي خسفت بهما كانت من الخشب وانها كانت شبه باب يفتح بلولب سري فلما أدير اللولب فتح الباب الى الجهة السفلى فسقطا .

وجعل يفحص الغرفة والحديقة فوجد فيها باباً متيناً لا يمكن فتحه إلا بمفتاحه أو بالآلات الضخمة ونافذة لم يهتد الى طريقة فتحها فخطر له ان يكسر برغياً من براغيها ثم يعالج رواقدها الخشبية بخنجره فيكسرها ويفر منها الى الحديقة الكبرى .

غير انه وجد بعد الفحص ان هذه النافذة من الحديد وانها كانت مدهونة بلون الخشب فلم يبقى لديه غير رجاء كسر البرغي

ثم خطر له ان يرجع كما سقط لأنه رأى طاولة فوضعها قرب الجدار وصعد فوقها ومد يده فلم تبلغ السقف وكان الجدار مصقولاً فلا سبيل الى تسلقه فلم يجد منفذاً للخلاص إلا بكسر البرغي فاخذ خنجره وكان كازمير ينير له وحاول كسر البرغي فانكسر الخنجر فاستعمل خنجر كازمير فانكسر ايضاً فقال : لا سبيل الى كسره إلا بمبرد ومن اين نجيء به في هذا السجن

ففطن كازمير ان لديه مدية ذات شفرات كثيرة وان احدى شفراتها مبرد فعرضها على مونتيجرون فسر بها سروراً عظيماً وأخذ يبرد البرغي بصبر عجيب .

وكان كازمير يحمل الشمعة فقال لرفيقه : ان نورها لا يدوم أكثر من نصف ساعة فقد التهب معظمها .

— لا حاجة لي بها الآن فاطفئها ومتى اتممت كسر البرغي عد الى انارتها فاطفأها كازمير وعاد مونتيجرون الى كسر البرغي .

ولبث على ذلك نحو ربع ساعة وعلائم الفوز تبدو له كل ما اشتغل حتى

اوشك أن يفوز بمرامه فقال له كازمير : ألا تشعر بما أشعر به فاني أشعر بدوار عظيم ؟

– كلا وربما كان ذلك من رائحة الازهار فتجلد فان الفوز قريب .

فجلس كازمير على احدى اواني الزهر وقد زاد دوار رأسه فلم يستطع الوقوف وجعل مونتيجرون يبرد البرغي فلم تمر به هنيهة حتى شعر هو أيضاً بنفس الدوار فقال . لقد أصبت يا كازمير فقد أصابني ما اصابك فاني أشعر ان الأرض تدور بي .

فلم يجبه كازمير بحرف فخاف مونتيجرون وسقطت المدية من يده وقال لكازمير : أنر الشمعة فاني لا أرى شيئاً في هذا الظلام فلم يجبه أحد فايقن ان رفيقه قد فقد الحس ومشى في تلك الغرفة يبحث عنه فعثر به وسقط فوقه فجعل يصيح صياح المختنق ثم حاول أن ينهض فلم يستفق ثم اطبقت عيناه فلم يعد يشعر بشيء .

وعند ذلك فتح باب سري في تلك الغرفة لم يكن مونتيجرون و كازميرقد اهتديا اليه ودخل منه رجل وامرأة أما المرأة فقد كانت مقنعة ولكن مونتيجرون لو رآها لعلم أنها البستانية الحسناء وأما الرجل فقد كان ذلك الخادم الذي لقيه مونتيجرون في الحديقة منذ ساعة وحذره من ان يتبعه

فقال الخادم للبستانية . اننا لو تركناهما في هذه الغرفة يا سيدتي لما استفاقا الى الأبد .

– كلا فاني اقسمت أن لا أسفك دماً بشرياً إلا حين الاضطرار فقل هل أعددت المركبة ؟

– نعم فانها عند الباب منذ ربع ساعة .

– احضر ورفيقك واحمل هذين المجنونين الى أحد شوارع باريس المقفرة فانهما إذا تنشقا الهواء المطلق يستفيقان من هذا الاغماء .

– إذا لم تحذري يا سيدتي فان فجميع ما تجريه لا ينتهي بسلام . فهزت

كتفيها وقالت له بلهجة الآمر ، أصدع بما أمرت

ثم تركته وانصرفت فأمر الخادم رفيقه فحملوا مونتيجرون وكازمير وخرجوا بهما الى المركبة التي كانت واقفة عند باب الحديقة .

- ٧ -

بعد ذلك بيومين كان رئيس البوليس السري جالساً في مكتبه في الساعة الثامنة من الصباح وهو منهمك في تلاوة كثير من الرسائل التي وردت اليه في ذلك اليوم وكلها مكتوبة بالأرقام الاصطلاحية ، وهو رجل حاد البصر تدل هيئته أنه خلق لهذه المهمة وهو يدعى المسيو ليبرافيه .

وكانت الحكومة تثق به ثقة شديدة لما أظهره من الحذق في الأعمال الخطيرة الدالة على مهارته ، فلما انشأت قلم البوليس السري ،وهو حديث العهد في فرنسا عهدت اليه برئاسة هذا القلم فحقق الظن به .

غير انه من يوم توليه هذا المنصب الدقيق لم يرد عليه مشكلة أصعب من مشكلة اختفاء المركيز دي مورفر ، فانه لم يدع محلاً في باريس لم ينقبه وأرسل عماله السريين إلى جميع أقطار الدنيا فلم يعلم شيئاً من أمر هذا الاختفاء الغريب إلى أن قنط من إيجاده فترك البحث عنه ، ولكن دلائل الهم كانت بادية عليه لما أصابه من الفشل في هذه المهمة .

وفيما هو منهمك في تلاوة التقارير السرية إذ دخل اليه حاجب بابه وأعطاه رقعة زيارة مكتوب عليها اسم الفيكونت دي مونتيجرون وقال له : إن صاحب هذه الرقعة يا سيدي يرجو أن تأذن له بمقابلتك .

– ليصبر قليلاً .

– انه يلح يا سيدي بالدخول ويقول ان الأمر خطير .

فانتهره الرئيس وقال قل له أن يصبر إلى أن أفرغ مما أنا فيه .
فخرج الخادم وعاد رئيس البوليس إلى مطالعة التقارير .

وقد رأى بين هذه الرسائل المكدسة على طاولته رسالة علم من طابع غلافها انها من لندرا ، ورأى في زاوية من زوايا الغلاف علامة سرية فارتعش وأسرع إلى فض هذا الغلاف فسقطت منه صورة فوتوغرافية ما لبث أن تبينها حتى قال بلهجة الدهش : هذا هو بعينه .

وكان هذا الرسم يمثل رجلاً في الثلاثين من عمره ، بل يمثل جثة رجل جالس على كرسي وقد مال رأسه إلى كتفه الأيسر وفوق ثديه الأيسر طعنة خنجر أو سيف . .

ففتح رئيس البوليس درجاً وأخرج منه رسماً شمسياً يمثل رجلاً واقفاً حاملاً قبعته وأثار الصحة بادية عليه ، ثم جعل يقابل بين الرسمين فرأى انهما واحد وان كليهما يمثلان المركيز دي مورفر ، فوضع الرسمين على الطاولة وأخذ الرسالة المرسلة من لندرا فتلا فيها ما يأتي :

« أن هذه الجثة التي أرسلت اليك رسماً في طي هذا الكتاب وجدت أمس في خمارة الملك جورج ، في وينغ ، وهذه الناحية من شر النواحي في لندرا .

« وصاحب الخمارة يدعى كالكراف ، كما يدعى الجلاد في لندرا ، ويقال انه ابن عمه ، وللخمارة شهرة غريبة يخافها الناس خوفاً شديداً ، حتى ان البوليس يخافها ولا يجسر على الدخول اليها بعد منتصف الليل وقد اتفق مرات كثيرة أن البوليس كان يدخل اليها فلا يخرج منهـا ، لذلك لم يكتشفوا هذه الجثة إلا بما أذاعه صاحب الخمارة وهذا ما قاله :

« كان رجل فرنسي نجهل اسمه يأتي كل ليلة إلى هذه الخمارة وتصحبه امرأة إيرلندية ، وافرة الجمال ، وكان ينفق معها جانباً من الليل في تلك الخمارة على معاقرة الشراب .

« ولم يكن يكلم أحداً ولا يسيء إلى أحد ، ولم يروه مرة في حالة سكر ولكنه كان مفتوناً بتلك الارلندية .

« ومن الغرائب ان تلك المرأة كانت ترتدي ثياب تدل على الفقر في حين أنه كان يرتدي خير الثياب ، وينفق في تلك الخمارة بملء السخاء ، فلم يدفع غير الذهب .

« ففي ليلة أول أمس (كما يقول صاحب الخمارة) تخاصم الرجل الفرنسي والمرأة الارلندية ، فجأة فطعنته بخنجر ، وقد حاول صاحب الخمارة أن يقبض عليها ، غير انه كان يوجد كثير من البحارة فحالوا دون قصده وساعدوها على الفرار .

« هذا ما رواه صاحب الخمارة إلى بوليس تلك الناحية فأخبرني البوليس وذهبت إلى الخمارة فرأيت الجثة وعرفت في الحـــال انها جثة غوستاف دي مورفر الذي نبحث عنه منذ عهد بعيد ، ومع ذلك فقـــد رأيت أن أصوره وأرسل اليك الرسم وأكتب لك ايضاً عما أعلمه » .

« مانويل »

ولما فرغ رئيس الشرطة من قراءة هذا التقرير دخل الحاجب ايضاً وقال: ان الفيكونت مونتيجرون يا سيدي يقول أن لديه أموراً خطـيرة خــاصة بالمركيز دي مورفر يجب أن يطلعك عليها .

فاهتز الرئيس حين سمع هذا الاسم وقال : ليدخل في الحال .

ثم وضع الرسم طي التقرير وخبأه في الدرج

وعند ذلك دخل مونتيجرون فأحسن استقباله وسأله عما يعلم فقال له : اني يا سيدي كنت من أصدقاء المركيز دي مورفر الذي نبحث عنه منذ عــام دون أن نجده .

غير اني عرفت باتفاق غريب ان صديقي قد مات مقتولاً وقد رأيت جثته بعيني منذ ٤٨ ساعة

فقال له الرئيس : الملك قادم يا سيدي الفيكونت من لندرا ؟

– كلا فاني لم أبرح باريس ..

– ورأيت جثة المركيز دي مورفر ؟

– نعم ..

– متى ؟

– منذ ٤٨ ساعة كما قلت لك ..

– أين ؟

– على مسافة مرحلتين من باريس في بيت كائن في الخلاء .

فاضطرب الرئيس ثم فتح درجه وأخرج الرسم الذي جاء من لندرا فعرضه على مونتيجرون وقال : أتعرف صاحب هذا الرسم؟

– هو هو بعينه وقد رأيته في الحالة التي رسم فيها .

فنهض الرئيس نهضة الحائر وقال : اسألك المعذرة يا سيدي الفيكونت فان ما ترويه لي يدعو الى الجنون .

– ٨ –

وجعل كل منهما ينظر إلى الآخر منذهلا فيقول الرئيس : ما هذه الحكاية التي يرويها الفيكونت ويقول مونتيجرون : ماذا يدعو سرد روايتي إلى جنون رئيس الشرطة ؟ إلى أن افتتح مونتيجرون الحديث فقال : ارى ان الشرطة قد زارت هذا المنزل بينما كنت مغمياً علي لاختناقي برائحة الأزهار ودليل ذلك انه وجد الجثة وأخذ رسمها .

فقاطعه رئيس الشرطة فجأة وقال : لم ارسل احداً إلى هذا الشارع ولم يكبس أحد هذا المنزل ولم افهم كلمة مما تقول .

فتراجع مونتيجرون مبهوتاً وقال : إذا كنت يا سيدي لم تجد الجثة كما تقول فكيف وصل اليك رسمها ؟

فبهت رئيس البوليس ونظر اليه نظر الفاحص وقال : إني لا أرى مع ذلك عليك شيئاً من دلائل الجنون .

– كلا والحمد لله لست من المجانين .

– ولا أنا أيضاً .

– هذا ما أرجوه لك .

– ولكني أرى أننا كلانا من المجانين .

– كيف ذلك يا سيدي ؟

– تقول انك رأيت جثة المركيز دي مورفر ؟

– نعم .

– في بلفي قرب باريس ؟

– نعم .

– من هي صاحبة المنزل ؟

– هي إمرأة يدعونها البستانية الحسناء ، ولا يعرفون لها غير هذا الأسم .

– وهذه الجثة ؟

– هي نفس الجثة التي يمثلها الرسم ، وقد رأيت الجرح بعيني فوق الثدي الأيسر .

فجمع رئيس البوليس هداه وقال له لنفرض يا سيدي الفيكونت أنني لم أقل شيئاً ، فلا تهتم لكلامي ولا لانذهالي ، بل قص علي جميع ما اتفق لك بالتفصيل

فحكى له عند ذلك مونتيجرون جميع ما حدث من غرام مرتون بالبستانية الحسناء ، وما أصيب به من الجنون . ثم قص عليه ذهابه الى ذلك

المنزل مع كازمير الى أن هبط به سقف الغرفة وأغمي عليه وعلى رفيقه من رائحة الأزهار وأنه حين استفاق من إغمائه وجد نفسه في منزله على سريره والطبيب واقف يعالجه . فعلم ان البوليس لقيه في شارع مقفر مع رفيقه مغمياً عليهما ، ففتش جيوبهما وعرفهما من رقاع الزيارة فحملهما الى منزلهما ثم قال له: إني أقمت في منزلي الى المساء وزارني صديقي كازمير وأخبرني بما جرى له فاتفقنا على ان نخبر البوليس بما كان ولهذا أتيت اليك .

وكان الرئيس مصغياً اليه كل الإصغاء فلما أتم حديثه فتح الدرج وأخذ الرسالة التي وردت اليه من لندرا وعرضها على مونتيجرون .

ولما أطلع مونتيجرون على هذه الرسالة ، ذهل ذهولاً شديداً فقال له الرئيس : أرأيت يا سيدي ؟ أيمكن أن تكون جثة المركيز في لندرا وباريس في وقت واحد ؟

— إني أقسم لك بشرفي اني رأيت جثة المركيز ، كما هي ممثلة في هذه الصورة !.

— حسناً ولكن هذه الصورة أما هي صورة المركيز ؟

— دون شك .

— تقول أنك رأيت جثة المركيز ؟

— نعم .

— أتذكر في أية ساعة ؟

— عند منتصف الليل .

فوضع الرئيس إصبعه فوق أحد سطور الرسالة الواردة من لندرا وقال له : إقرأ ألم يقل عاملي أنه صور الجثة ليلة اول أمس ، ثم ألم تكن ليلة أول أمس ليلة الخميس ؟

فظهرت علائم الاضطراب على مونتيجرون وقال: لا أعلم ما أقول ! إلا إذا اتفق وجود رجل يشبه المركيز هذا الشبه بالوجه والتقاطع والثياب وبالموت ميتة

واحدة في ليلة واحدة بجرح في موضع واحد . لقد صدقت يا سيدي لا شك ان واحداً منا مصاب بالجنون .

– هذا ما أراه . ولكن قل لي أيضـــا أأنت واثق من أنك رأيت المركيز نفسه ؟

– كل الوثوق .

فجعل كل منهما ينظر الى الآخر وهو لا يدري ما يقول .

وعند ذلك رن صوت آلة تلغرافية كانت في غرفة رئيس البوليس، فقام الرئيس الى الآلة وعلم ان التلغراف وارد اليه من لندرا إذ كان له سلك خاص يتصل من غرفته الى تلك العاصمة . فحل رموزها وهو كما يأتي :

« لندرا – السبت في الساعة الثامنة صباحاً

« نقلت الجثة مساء أمس الى المحل الذي يعرض فيه القتلى المجهولون وكان يحرسها نفران من البوليس فشربا مخدراً ممزوجاً بالتبغ وهما لا يعلمان فناما ، وسرقت الجثة . التفاصيل بالبريد » .

(مانويل)

فلما تلاها الرئيس عرضها على مونتيجرون وقـال له : إقرأ ! ثم قال له بعد أن قرأها ، إني أشتغل في مهنتي هذه منذ عشرين عاماً فما وردت عليَّ جناية أعقد من هذه الجناية !

فقال له مونتيجرون : ألا تنوي يا سيدي تفتيش هذا المنزل قبـل أن يرد اليك كتاب عميلك ؟

– دون شك وسأذهب وإياك في الحال وما دام يوجد جثتان لا بد لنا أن نظفر بواحدة !

- ٩ -

بعد ذلك بساعتين كانت مركبة تجتاز شارع بلفي، فوقفت عند باب منزل البستانية الحسناء فخرج منها المسيو ليبرفيه رئيس البوليس السري واثنان من رجال البوليس وهم متنكرون بالثياب الرسمية السوداء .

وكان وراء مركبتهم مركبة جميلة فيها مونتيجرون وصديقه كازمير .

فطرق الرئيس باب المـنزل ، وهو ينظر نظرة الفـاحص الى الحديقـة المحيطة به ، فوجد كثيراً من العمال يشتغلون بقطف الأزهار وتنسيقهـا وجعلها طاقات معدة للبيع ، وبينهم رجل ضخم الجثة يسير ذهاباً وإياباً ويلقي عليهم الأوامر . فـلم ير الرئيس في ظواهر هذا المنزل شيئـاً يدل على الريبة .

فلما طرق الرئيس الباب أسرع اليه الرجـــل الضخم ففتح الباب وحيى الرئيس وجماعته بملء الاحترام لاعتقاده أنهم من الزبائن .

فقال له الرئيس : إننا نريد أن نرى صاحبة المنزل .

ـ لا شك يا سيدي أنكم من زبائن مدام ليفيك .

فحفظ الرئيس هذا الاسم في ذاكرته وقال : نعم إننا من زبائنها ولكننا نحب أن نراها .

ـ عفواً يا سيدي ، العلك لم تضطلع على النشرة التي أذاعتها هذه الأرملة أمس فإنها أعلنت انسحابها من الأعمال وباعتني كل حدائقها وتخلت لي عن هذا المنزل .

فقطب الرئيس حاجبيه وقال ماذا تدعى أنت ؟

ـ خادمك بوليدور كروسيجان

ـ إذن أنت خلفت مدام ليفيك ؟

ـ نعم يا سيدي

- متى ؟

– إن عقد الشراء قد تم بيننا منذ خمسة عشر يوماً ولكني لم أستلم المنزل وحدائقه إلا أمس .

– ومدام ليفيك العلها باقية في المنزل ؟

– كلا يا سيدي فإنها برحته ليلة أول أمس إلى باريس فإذا شئت أعطيناك عنوانها فإنها تقيم في شارع تامبل نمرة ٦٩ .

ثم تنهد لخيبة رجائه فيهم إذ كان يعتقد أنهم قادمون لشراء الأزهار .

فتأبط الرئيس ذراعه وسار به إلى الحديقة وقال له : أرى أنه يجب أن أخبرك من أنا فإني أدعى ليبرفيه ، أي رئيس البوليس السري

فارتعش بوليدور وقال بلهجة دلت على براءته : ماذا عملت يا سيدي وأي شأن لي مع البوليس ؟

– إني تبينت براءتك من عينيـــك . وأنا واثق من أنك لا دخل لك فيما اضطرني إلى زيارة هذا المنزل وقد يسوءني إزعاجك . غير أني لا أجد بدأً من إجراء واجباتي .

– واجباتك ؟

– نعم .

– وكيف ذلك ؟

– ذلك أنه يجب علي تفتيش هذا المنزل .

تفتيش منزلي أنا ؟

– أي تفتيش هذا المنزل الذي كنت أحسب إني أجد مدام ليفيك فيه لذلك أسألك أنلا تدع أحداً يعلم ما أنا آت لأجله وأن تستقبلني استقبال صديق تمويهاً على هؤلاء العمال .

فاحمر وجهه وتندى بالعرق ، وقال بصوت يضطرب إني يا سيدي مقيم في هذه الناحية منذ ثلاثين عاماً فليس فيها من لا يعرفني ولم أعمل في حياتي ما

يحمل على الشك

– لقد قلت لك إني واثق بك ويظهر أنك أسأت فهم كلامي . إني لا أبغي تفتيش منزلك بل منزل المرأة التي يدعونها البستانية الحسناء ونعم إنك اشتريت منها المنزل وذلك لا يمنعني عن تفتيشه .

– لماذا تريد تفتيشه ؟

– لحدوث جريمة فيه

فاضطرب الرجل اضطراباً شديداً وقال . إذا صح ما روي لك عن حدوث جريمة فليست مدام ليفيك التي ارتكبتها لأنها من أشرف النساء .

– العلك تعرفها منذ عهد بعيد ؟

– إني أعرفها منذ عشرة أعوام . وقد توفي زوجها بين يدي ، فإنه كان من أصدق إخواني . وإذا أردت يا سيدي بعد هذا التأكيد أن تفتش المنزل ، فهلم أدخلك اليه ولكنك لا تجد فيه شيئاً ، لأني لم أحضر أثاثي اليه بعد .

– لا بأس فهو واجب لا بد من قضائه

فمشى بوليدور الى المنزل وتبعه رئيس البوليس والبوليسان ومونتتجرون وكازمير ، فلما فتح الباب وصعدوا السلم المؤدي الى الدور العلوي قال رئيس البوليس لمونتتجرون . هذا هو السلم الذي صعدت اليه ؟

أجابه : هو بعينه . وإذا شئت مشيت أمامك إلى الغرفة التي كانت فيها الجثة .

– إفعل !

فمشي مونتيجرون حتى بلغ تلك الغرفة ذات الباب الزجاجي ففتح بابها وولج اليها فتبعه الجميع . لكنه لم يجد الجثة بل وجد أن جدران تلك الغرفة التي كانت موشحة بالسواد زال السواد عنها وبرزت بلون أزرق جميل كانت تزيده أشعة الشمس جمالاً .

فاستاء مونتيجرون أشد الاستياء وخشي أن يشكك رئيس البوليس في روايته . لكن استيائه لم يطل فقال الرئيس لا شك أن البستانية الحسناء بعد خروجها من المنزل لم تترك الذي نبحث عنه في هذه الغرفة ولكن الذي أراه أن إخراج الجثة من منزل ليس بالأمر اليسير ولا بد لهذه الجثة التي رأيناها ان تكون باقية هنا في محل خفي .

فذعر صاحب المنزل وقال بلهجة المستنكر جثة في هذا المنزل !

فنظر اليه رئيس البوليس نظرة الفاحص فما وجد في ملامحه غير الصدق فقال له : نعم كان يوجد جثة في هذا المنزل .

– ولكن أين كانت ؟

– في هذه الغرفة التي نحن فيها وكانت مغطاة بوشاح أسود وكذلك جدران هذه الغرفة .

– إني لم أر هذه الغرفة إلا كما ترونها الآن .

فقال الرئيس لمونتيجرون : أذكر أنك قلت لي أن أرض هذه الغرفة قد سقطت بك ، فسقطت إلى حديقة تحت هذه الغرفة ، وأغمي عليك من رائحة زهورها .

– هو ما قلته لك وأظن أن أرض الغرفة مقسومة الى قسمين قسم ثابت وقسم يتحرك ويفتح بلولب أو غير ذلك

– وأنا أرى ما تراه فلنبحث عن سر هذا الباب

وجعلوا كلهم يبحثون في أرض تلك الغرفة الخشبية فلم يهتدوا إلى طريقة فتح الباب، ولكن رئيس البوليس لاحظ أن الألواح الخشبية المبسوطة في أرض الغرفة جديدة ، فخطر له أن البستانية الحسناء قد وضعتها قبيل خروجها من المنزل إخفاء لآثار الباب . فأمر من معه في المنزل ان ينزعوا تلك الألواح ، فنزعوها وظهر تحتها أرض خشبية قديمة .

وبعد البحث الطويل وجد في اسفل الجدار لولباً صغيراً مصبوغاً بلون

أرض الغرفة بحيث لا تراه العين فما أوشك أن يديره حتى خسف قسم من أرض الغرفة فجأة ، وسقط مونتيجرون وكازمير دون ان يصاب أحد بمكروه لأن العلو لم يكن شاهقـاً . فسر رئيس البوليس وأسرع فوثب إلى حيث سقطت جماعته ، فلما اجتمعوا كلهم في أرض تلك الغرفة الجديـدة التي هبطوا اليها ، شاهدوا في زاوية منها سجفـاً فأزاحوه فوجدوا وراءه ذلك السرير الذي رآه مونتجرون ، وعليه تلك الجثة التي أصيب مريون من أجلها بالجنون .

أما رئيس البوليس فإنه اضطرب اضطراباً شديداً إذ أيقن أنها جثة المركيز دي مورفر ولكنه ما لبث أن دنا منها ولمسها بيده حتى صاح صيحة انذهال فأسرع اليه مونتيجرون وقال ماذا ؟

– ما هي جثة إنسان ، بل هي جثة من الشمع . وقد هزأت بنا هذه المرأة كما تشاء .

ولقد أصاب الرئيس ، لأن هذه الجثـة كانت تمثالاً من الشمع يشبه المركيز أتم الشبـه ، وهي من تلك التماثيل العجيبة التي تفتخر بها المعامل الأنكليزية .

– ١٠ –

« من البوليس مانويل الى رئيس البوليس السري المسيو بيرفيه

« يا حضر الرئيس

« أرسلت اليك أمس نبأ برقياً لا أجد بداً من إتمام تفصيله بهذا الكتاب أنت تعلم تعصب الشرائع الانكليزية بتسليم المجرم إلى حاكمه الشرعي وبتسليم

جثة القتيل قبل عرضه في محل خاص .

« وقد كتبت اليك إني لقيت جثة المركيز دي مورفر وأرسلت اليك رسمها ولكني لم أستطع إستلام الجثة لأن الشريعة تقضي بعرضها في مكان خاص يدخلْ اليه من أراد .

« وقد عرضت الجثة فعرفها أحد اللوردية وقال : إنه من أصحاب المركيز وعرفتها أيضاً إمرأة فقالت ان المركيز كان مقيماً في منزلها فكتبت عنوان هذه المرأة ، وفي المساء ذهبت اليها وأدخلتني الى الغرفة التي كان يبيت فيها المركيز . فرأيت في المستوقد كثيراً من الأوراق الممزقة والمحروقة ، فجمعت منها بعض قطع لم تصل اليها النار ، وضممتها إلى بعضها فاتضح لي منها هذه الكلمات : (. وعد لي أيها الحبيب ، لقد عفوت عنك وسامحتك) .

« ورجعت من عندها إلى دار الحكومة ، وحصلت على الأذن بنقل الجثة إلى فرنسا في اليوم التالي ، ثم ذهبت لإعداد معدات السفر . وفي الصباح دخل علي البوليس الانكليزي وقال لي بلهجة المضطرب : إن الجثة قد سرقت

« أما تفصيل سرقة الجثة فهو : أنها كانت موضوعة في غرفة لها نافذة تشرف على البحر ، وكان يتولى حراستها بوليسان إنكليزيان وفيما همـا جالسان أمامها يدخنان ، تثاقلت أجفانهما وناما نوم تخدير فتسلق سارقوا الجثة إلى نافذة الغرفة ، فكسروا روافدها وأنزلوا الجثة إلى قاربهم وهربوا بها .

« أما البوليسان فلم يستفيقا إلا في الصباح ، ووجدوا الجثة قد سرقت .

« واتضح بعد التحقيق أن التبغ الذي كانا يدخنان منه كان فيه مادة مخدرة ، فقبض على بائع التبغ . وقـد شغلت هذه الحادثة جميع بوليس

لندرا ، فلم يهتد الى شيء بعد ولكننا لا نزال نرجو أن نجد الجثة وسأخبرك غداً بما يكون . »

« مانويل »



ولنعد الآن الى رئيس البوليس ، فإنه عندما ظفر بهذا الوجه الشمعي الذي خدع به كل من رآه وحسب انه وجه المركيز دي مورفر ، أمر البوليسين اللذين كانا معه بحراسته وبمراقبة صاحب المنزل فلا يأذن له بالخروج . ثم خرج من ذلك المنزل مع مونتيجرون وكازمير وهو يقول لهم : إني سأقبض على هذه المرأة ، فإما أن يكون هذا الشخص الذي دلنا على منزلها صادقاً فيكون بريئاً أو يكون كاذباً فيكون شريكاً لها في الجريمة .

وذهب مع رفيقه الى المنزل وسأل البواب عن البستانية الحسناء فأجابه : إنها سافرت وقالت إنها لا تعود إلا بعد ثمانية أيام .

فأخذ الرئيس مفاتيح المنزل منه بعد أن أخبره بصفته ، ودخل مع مونتيجرون وكازمير فلما دخلوا إلى غرفة النوم وجدوا صورة المركيز دي مورفر معلقة بالجدار وهو بثياب الفلاحين ، ثم رأى رئيس الشرطة رسالة مختومة فوق منضدة وعليها هذا العنوان « إلى الفيكونت دي مونتيجرون » فدفعها اليه ففضها وقرأ ما يأتي :

« إن هذا الكتاب سيصلك دون شك ، بل ربما أخذته بيدك من الموضع الذي تركته فيه فإنك أردت ان تميط الحجاب عن أسراري ولما أعجزك الأمر استعنت برجال الشرطة ، ولكنك لن تقف ولن يقف الشرطة على شيء من دخائل سري وسيذهب جهدك وجهدهم عبثاً باطلا لا فائدة فيه لا سيما وانه لا يوجد بينكم من يعرفني إذ لا يوجد بين عصابتكم غير رجل واحد رأى وجهي لكنه أصبح من المجانين

« والآن إسمح لي يا سيدي الفيكونت أن أسديك نصيحة وهي انك غني ولا تزال في مقتبل الشباب فارجع عن قصدك من اقتفاء أثري أو أصيبك بنكبة تنغص عليك الحياة .

« أما البوليس فسيفرغ جهده في البحث عن دي مورفر الميت أو الحي ، ثم يرى أنه لا يظفر بمراد ، فيمل ويرجع عن البحث . فاقتد بالبوليس ذلك خير لك

« وإني لا أنصحك هذا النصح إلا لما أعلمه من صداقتك مع المركيز دي مورفر ، فاقبل النصيحة . أما أنا فإني سأبرح باريس ولا أعود اليها قد أعود وقد نلتقي كل يوم عشرين مرة وفي عشرين مجلس ولا تعلم من أنا . وفي الختام أعود ما بدأت به من النصح ، فاقبله من امرأة أحبت صديقك وتدلهت بغرامه » .

« البستانية الحسناء »

وفتش رئيس الشرطة بعد ذلك كل المنزل تفتيشاً دقيقاً فلم يعثر على أقل أثر لهذه البستانية . وأفرغ جهده بعد ذلك فلم يظفر بالجثة ولا بالمرأة . وذاع هذا الخبر في العاصمة فاضطرب له الناس وحاد الشرطي مانويل من لندرا بعد أسبوع دون أن يقف على شيء .

ومر على هذه الحادثة عام فتناساها الناس وكفت عنها الشرطة . غير أنه أشيع بعد عام أنهم شاهدوا المركيز دي مورفر حياً في بلاد الهند واتفق عند انتشار هذه الإشاعة أن إحدى المركبات صدمت الشرطي مانويل فسحقته ، والح وهو في حالة النزع ان يرى رئيس الشرطة في المستشفى وأسرع اليه الرئيس ولم يعلم أحد اذا كان حديثهما خاصاً بالمركيز دي مورفر لأن هذه المداولة بقيت في طي الكتمان .

- ١١ -

يذكر قراء الجزء السابق ، أي رواية ملايين النورية ، أن روكامبول ترك رسالة لمرميس تتضمن تعلياته وأمره أنلا يفتحها إلا إذا مضى على سفره عامان دون أن يعود .

وقد كان مضى على سفره إلى الهند نحو عامين دون ان يعلم أحد شيئاً مما حدث له ، ولم يعلم أحد في أوروبا ، إذا كانت السفينـــة التي ذهبت به وبالأسرى الهنديين التهمتها النار أو سلمت ، وإذا كان روكامبول بقي حياً أو ابتلعته الأمواج .

وكانت فاندا ومرميس متلازمين لم يفترقا ومعهما ميلون وكأنهم ينتظرون عودة الرئيس بفارغ الصبر ولا يتحدثون إلا بأمره .

وكان ميلونأشدهم جزعاً عليه وأعظمهم يأساً من لقائه فكانيهز رأسه بعض الأحيان ويقول . إنه مات واأسفاه دون شك .

فتجيبه فاندا : إن هذا محال وأنا واثقة انه لا يزال من الأحياء . أتريد أن تعلم ما يحملني على هذا الوثوق ؟

- كيف لا أريد وأنا أكاد أجن من يأسي ؟

- إني عصبيـة المزاج شديدة التـأثير ، ومن أعظم الناس قبولاً للنـوم المغناطيسي وإذا كثرت هواجسي بالذين أحبهم ظهروا لي في الحلم بالحال التي يكونون فيها .

- وهل رأيت روكامبول في حلمك ؟

- رأيته نحو عشر مرات منذ فراقه

فهز ميلون رأسه وقال . إنها أضغاث أحلام ، لا تظهر خفياً ، ولا تبين غيباً .

- لو كان يوجد هنا من يعرف طريقة التنويم المغناطيسي ، لنومني أمامكم

وأظهرت لكم أين يقيم روكامبول ؟ وماذا يصنع الآن ؟ وإذا كان في نيته أن يعود

فتنبه مرميس لقولها وقال : إذا كنـا لا نحتاج إلا إلى منوم لمعرفـة حقيقة حالة روكامبول ، فإن الأمر سهل ميسور لأني أعرف أين أجـد هذا المنوم .

– إذهب يا بني وائتني به .

فقرع مرميس جرساً وأسرع اليه أحد الخدم وقال له : قل للسائق ليهيىء لي المركبة في الحال .

وكان مرميس قد تغيرت أخلاقه وحالته بعد موت جيبسي ، فبات من الذين يشار اليهم بالبنان لحسن أدبه ولين أخلاقه وشرف طباعه . وان حبه لجيبسي ونكبته بفقدها وملازمة فاندا له كل ذلك أدبه خير تأديب وقد زال اليأس من قلبه ولم يبق من آثاره غير ظواهر السويداء وإن القنوط لا يتمكن من قلب الفتى وهو لم يتجاوز العشرين

وقد كان أتم دروسه في مدة هذين العـــامين ، أي في غياب روكامبول ، فتخرج على أشهر الأساتذة بفضل ثروته وبات جميع أصحـابه ومعارفه من النبلاء وخيرة المتأدبين

وكانت النساء تتوددن اليه ، والأوانس يخطبن وده لأدبه وجماله وماله ، غير ان قلبه لم يكن يتسع لغرام بعد نقده من يحب فكان إذا مال فؤاده الى التهتك أو دفعه غرور الصبى الى الاسترسال إلى الملاذ تمثلت له تلك الفتاة التي كان يهواها وعاد الى الاكتئاب وكبحت هذه الذكرى جماح ذلك الغرور (راجع رواية ملايين النورية) .

ثم انه كان يحترم روكامبول احترام الآباء ، وكان يعلم أنه عهد اليه بمهمة سرية مختومة لا بد له من قضائها . وإن هذه الثروة التي خلفتها له جيبسي لا يحق له أن ينفقها إلا في وجوه الخير فكان يقتصد منها كل الاقتصاد إلا في حين

إغاثة ملهوف أو إعانة بائس مسكين .

هذه هي حالة مرميس الذي استحال بفضل روكامبول من حال الى حال ، وقد تركناه ذاهباً الى المنوم المغناطيسي ، وهو رجل أميركي اشتهر بهذا الفن شهرة واسعة في باريس ، ولما وصل اليه أخبره بالغاية التي جاء من أجلها فخرج وإياه وعاد به الى فاندا .

ولما استقر به المقام قالت له فـــاندا : إفحصني يا سيدي لنرى إذا كنت خاضعة للتنويم .

ففحصها وقال لها : بل أنت أشد الناس خضوعاً له .

— إذاً نومني وأذن لمرميس ان يسألني ما يشاء أثناء نومي .

فأجلسها المنوم على كرسي كبير ووضع يديه فوق يديها ، وجعل ينظر اليها تلك النظرات الخاصة . ولم يمر حين وجيز حتى أطبقت عينــاها وانحنى رأسها وتنهدت تنهداً عميقاً فعلم الأميركي ان التنويم قد تم وقال لها : أنظري . إني أريد ان تنظري .

فارتعشت فاندا هنيهة وظهرت على وجهها علائم المقـــاومة ثم زالت هذه العلائم فجأة ففتحت شفتيها وقالت : أرى ...

وكان العرق ينصب من جبين مرميس وميلون لوثوقهما أنهما سيعلمان مـــا حدث لروكامبول .

وبدأت فاندا بالكلام وجعلت تفوه بكلمات متقطعة مبهمة مضطربة كأنما نفسها كانت في عراك لاغتصابها حجاب تلك الظلمات السرية التي تكتنف روح النائم حين طيرانها الى عالم الأرواح واجتيازها تلك المسافات الشاسعة على بقائها متصلة بجسم النائم .

ثم انقشع الاضطراب عن وجهها وانبسطت نفسها ، وظهرت عليهـــا علائم الهدوء والسكينة وبات كلامها واضحاً جلياً لا يداخله شيء من الابهام وقالت : إني أراه .

– من هو الذي ترينه ؟

– هو .

فأشار مرميس إلى المنوم إشارة مفادها اننا نعرف الذي تعنيه ثم همس في أذنه قائلا : سلها أين هو .

فقال المنوم : أين ترينه ؟

– إن السماء مرصعة بالكواكب ، ومع ذلك فهي قاتمة سوداء .. الحر شديد .. وهذه الرياح التي تثير الأمواج كأنها من نار .. إنهـــا تهب من الغرب .. خط الاستواء غير بعيد .. إن شراع السفينة تكاد تمزقه الرياح والأمواج تنشق أمامها فتسير في وديانها . هذا هو .. إنه جالس في مجلس الربان رابط الجأش عالي النفس ..

إنه يحسن قيادة السفن كما يحسن قيادة الرجال .. الرياح موافقة وكل شيء منتظم في السفينة .

ثم سكتت فقال لها الأميركي : قولي ماذا ترين أيضاً ؟

– لا شيء سوى الضباب ...

وعادت الى السكوت .

وقال الاميركي همساً لمرميس : إن الحالة ستتغير بعد قليل لنصبر .

وبعد عدة دقائق عادت فانذا الى الارتعاش ولكن علائم الرعب الشديد ارتسمت فجأة فوق وجهها وصاحت صياح المستغيث وقالت : رباه !

فقال لها المنوم : ماذا ترين ؟

– النار في السفينة .. إنها ناشبة في العنبر . ويلاه !.. إنها ستصل إلى مستودع البارود ..

ثم سكتت هنيهة وعادت فقالت : لا تزال النـــار تتأجج .. إنهم أنزلوا القارب إلى البحر .. نزل فيه الناس . إنهم يبتعدون عن السفينة المحترقة ...

– وهو ؟

— هو لا يزال باقياً في السفينة .. اني أراه واقفاً على سطحها يشيع القارب بالنظر . رباه . ان لسان النار يندلع . قرب اللهيب من مستودع البارود .

ثم تحركت حركة عنيفة فوق كرسيها وصاحت بصوت هائل . الانفجار .

فجعل الأميركي ومرميس وميلون ينظر كل منهم إلى الآخر نظرات الذعر غير ان فاندا انقطعت فجأة عن الارتعاش واشرق وجهها بنور البشر وتنهدت تنهداً طويلاً دل على الأرتياح .

فقال لها المنوم : ماذا رأيت ؟

— اني ما رأيت ولكني أرى .

— ماذا ترين ؟

— أراه .. انه يسبح في المياه مستعيناً بخشبة كبيرة من بقايا السفينة .. طلع النهار . لا يزال يسبح .. البحر هادىء .. هوذا سفينة قد ظهرت في عرض البحر وهي تدنو منه . ها هي وصلت اليه فأنزلت القارب .. واطرباه ! انه نجا .

فصاح ميلون ومرميس أيضاً صيحة فرح ، اما فاندا فانها صمتت ولم تعد تفوه بكلمة فقال ميلون يجب أن نوقظها .

فاعترضه مرميس وقال كلا ، إذ يجب ان نعلم أين هو فلا يكفينا انه حي . ثم أشار إلى الأميركي ان يسألها

فوضع الأميركي يده فوق جبهتها فعادت سلطته عليها وقال لها . أنظري فاني أريد أن تنظري .

فاختلجت فاندا ، ولكن وجهها ظهرت عليه علائم الأرتياح مما يدل على انها ترى أموراً تسرها ، ثم قالت : انه فوق صهوة جواد أبيض مسرج بسرج مذهب وهو يسير بجانب فارس يلبس لباساً أحمر وعلى كتفيه رمانات من ذهب وامامهما رجال ملابسهم حمراء أيضاً وهم يسيرون امامهما بالموسيقى ووراءهما جنود مختلفة الملابس وهم قادمون من معركة قاتل فيها « هو » قتال الأسود

والجميع يسيرون في حقول خضراء .

فقال مرميس : هذه بلاد الهند دون شك .

وقال لها الأميركي : إلى أين هو ذاهب ؟

— لا أعلم ، فان الليل قد هجم والشمس قد توارت في الحجاب ولكن لا أزال اسمع صوت الموسيقى .

فالتفت عند ذلك الأميركي إلى مرميس وقال له : ان السيدة قد تعبت وصار يجب ان تستفيق .

— كما تريد .

فوضع الأميركي يديه على رأسها وذراعيها وكتفيها وحركها تباعاً ففتحت عينيها وأجالت في الحضور نظراً حائراً ثم ذكرت ما كانت هي فيه فقالت ماذا جرى للرئيس ، أما هو حي ؟

قالوا : بلى .

— أين هو ؟

— في الهند .

— ألعلي قلت اذا كان يعود ؟

فقال لها الأميركي : كلا ، فقد تعبت وسأنومك مرة أخرى .

فنظرت فاندا إلى مرميس نظرة سرية مفادها اننا لا نستطيع أن نتكلم بحرية بوجود هذا الرجل .

وبعد حين ذهب مرميس بالأميركي فقالت له فاندا : لا تنس يا مرميس ان غد موعد فتح كتاب روكامبول .

— سأحضر في الساعة الثامنة من صباح غد ، ثم انصرف مع الأميركي .

فقالت فاندا لميلون : أوثقت الآن يا ميلون ان روكامبول لم يمت ؟

أما مرميس فانه أوصل الأميركي بمركبته إلى منزله ثم أمر الخادم ان يعود بالمركبة إلى المنزل وسار مساشياً يتنزه في شوارع باريس ويفتكر بروكامبول وبموعد فتح الرسالة وبما عسى أن يكون قد عهد اليه من المهمات.

وكانت الساعة الحادية عشر مساء وقد راقت السماء واعتل النسيم وكثر المتنزهون في الشوارع فبينما كان يسير قرب الأوبرا شعر بيد وضعت فوق كتفه فالتفت فرأى الفيكونت مونتيجرون .

وكان هذا الفيكونت قد رجع عن البحث عن المركيز مورفر ليأسه من لقائه فحيا صديقه مرميس وقال له : لقد أحسنت بالتنزه فان الهواء عليل .

— نعم فإن هذه الليلة تشبه ليالي الربيع فيحسن استنشاق هوائها .

— بشرط أن يكون الفكر نقياً كسمائها طليقاً كهوائها ، ثم تنهد .

فقال له مرميس : ما بالك تتنهد أيها الصديق العلك فوجئت بسبأ محزن ؟

— كلا ، ولكنه الغرام يا مرميس فقد بدء به قلبي حين تفرغ منه القلوب .

— كيف ذلك فاني لا أفهم ما تقول ؟

— إن التمثيل في الأوبرا ينتهي عند انتصاف الليل ولا يزال الوقت فسيحاً لاطلاعك على سري ، تعالى معي ايها الصديق إلى هذه القهوة المجاورة للأوبرا أبيح لك باسراري

— ليكن ما تريد فليس لي شاغل يمنعني عن أن أذهب معك .

وذهب الاثنان إلى القهوة فجلس مونتيجرون في مكان يرى منه كل من يخرج من الأوبرا ، ويدخل اليها ثم بدأ حديثه مع مرميس فقال . اني كنت من سن العشرين إلى الثلاثين أبعد رفاقي عن الاندفاع بتيار الشهوات فكنت انفق دخل ثروتي بالحكمة والسداد ، وأنهي نفسي عن كل غي ، ولا أشغل قلبي بهوى حسناء حذراً من مغبات الغرام ، ولا أتجاوز المدى في شأن من الشؤون

حذراً من العواقب ، ولكني حين تجـاوزت سن الطيش والغرور جريت في حلبة هاتين الآفتين كأنها من حقوق الصبى ، وكأني ندمت لتجـاوزي عن هذا الحد فجعلت أنغمس في كل ملذة وأتداخل في كل شأن ، ألا تذكر حكاية المركيز دي مورفر ؟

– اتعني بها حكاية اختفائه ؟

– نعم ، فقد شغلت نفسي عامين لم يكن همي فيهما إلا اخـتراق حجب هذا السر . .

– العلك وقفت على الحقيقة ؟

– كلا ، وفوق ذلك فقد أوعزت إلي عائلته نفسها أن انقطع عن الابحاث وذلك ان لهذا المركيز وريثاً فجاءني في صباح يوم وقال لقـد قابلت رئيس الشرطة واتفقنا على عدم البحث عن ابن عمي المنكود واعتباره من الأموات ، ورجائي أن تكف مثلنا عن البحث عنه .

– العلك امتثلت وامتنعت ؟

– لم أجد بداً من الوقوف عند حدي لاسيا اني مللت البحث ويئست من لقاء ذلك الصديق ، لكني كنت تعودت المشاغل والفت الاهتمام فرأيت ان قلبي بات بحاجة إلى شاغل جديد .

– أوجدت هذا الشاغل ؟

– دون شك إذ أصبحت من العشاق .

فابتسم مرميس وقال : من هي هذه الفاتنة التي ملأ حبها فراغ قلبك ؟

– اسمح لي ايها الصديق قبل ذكر اسمها أن اخبرك كيف أعيش منذ شهور أي منذ باض وفرخ هذا الحب في قلبي فـاني احضر ثلاث مرات في الأسبوع إلى الأوبرا إذ أجد التي أحبها فيها ، وإذا رأيتها أخال ان دقات قلبي تبلغ مسامع الناس ، فاذا أشرق الصباح امتطيت جواداً ومررت به مرتـين أو ثلاثاً من تحت نوافذ منزلها في الشانزليزه دون ان أطمع برؤياها ، فانهـا

تكون نائمة ، ولكن يرضيني ان أرى نوافذ غرفتها ، وأقنع حينئذ أن أرى من يراها .

ثم اني أذهب كل ليلة لا تمثل فيها الروايات في الأوبرا إلى المنزل الذي أعرف انها تقضي السهرة فيه ، فألقاها ولا أكلمها ، ولم أكلمها مرة إلى الآن ولكن عيني كانت تنوب عني فتعرب عن غرامي بأفصح لسان ولا أدري إذا كانت فهمت لغة عيني وعلمت انها رسول قلبي ، ولكني لو سئلت الحياة بساعة من قربها لرضيت وما أسفت على الحياة .

فقال له مرميس بلهجة الكآبة : إذن أنت مريض هوى ؟

— مجنون غرام لا يرجو الرشاد وصريع وجد لا يود أن يستفيق .

— إذاً ان هذه المرأة بارعة في الجمال ؟

— لا أعلم فان عين المحب لا ترى جمال المحبوب ، وليس الجمال رائد الهوى إلى القلوب غير انها ذات عينين ساحرتين .

إذا نظرت قلباً خلياً من الهوى تقول له كن مغرماً فيكون

فهل تريد أن تراها ؟

— دون شك ، إذ لا موضع في قلبي لهيام العيون .

— إذاً اذهب الآن إلى الأوبرا وانظر إلى اللوج الأول تجدها طالعة فيه بين الجميلات طلوع القمر بين النجوم وانك تجد بقربها رجلاً ينيف عمره على الخمسة وأربعين وهو زوجها .

— أهو فرنسي ؟

— كلا ، بل هو اسباني .

— إذاً هي إسبانية مثله ..

- كلا ، بل أظنها روسية والحقيقة انه ليس من يعلم شيئاً من امرها ، فانها جاءت باريس منذ شهرين ولا يعلمون من أين أتت ولكنها تزور أشرف البيوت وما جرت حفلة في سفارة إلا ودعيت اليها

فنهض مرميس وقال : لقد هجت فضولي فأنا ذاهب لأراهـا في الحال . أتريد أن تكون معي ؟

– كلا بل أبقى هنا وستجدني عند عودتك في مكاني .

– كما تشاء ..

ثم تركه وانصرف توا إلى الأوبرا وجلس في لوجه الخاص به وكان مجاوراً للوجها ، فلما رآها ذهل لجمالها الباهر وكانوا يتحدثون عنها في اللوج المجـاور للوجه فأصغى إلى الحديث دون أن ينقطع عن النظر اليها .

- ١٣ -

وقد رأى مرميس من جمال هذه المرأة ما يفتن الزهاد فعذر صديقـه مونتيجرون لافتتانه بها وأصغى إلى ما يتحدثون عنها باللوج المجاور للوجه .

وكان اثنان مقيمين في هذا اللوج وهما يتحدثان باللغة الانكليزية ، غير انه كان قد أتقن هذه اللغة منذ عهد حبه لجيبسي ، فلم تفته كلمة من حـديثهما وسمع ما يأتي :

قال أحدهما إذن أنت لا تثق ايها الصديق بزواج دون رميو ؟

– على الاطلاق .

– ولكنه رقص أول أمس في السفارة الاسبانية ؟

– على أي شيء يدل رقصه فيها ؟

– يدل على انه زوج هذه المرأة إذ لا يجسر ان يصحب خليلته إلى بيت السفير ويدعي انها امرأته .

– إذا كان دون روميو حقيقة تزوج هذه المرأة فهو إذن زوجها الرابع .

– كيف ذلك ؟

– ذلك اني عرفت أزواجها الثلاثة ، وان هـذه المرأة ليست روسية ولا انكليزية كما يتوهمون ، بل هي فرنسية وأنا واثق انها ولدت في باريس ومع ذلك فقد رأيتها أول مرة في لندرا .

– متى كان هذا ؟

– منذ خمسة أعوام وكانت في ذلك العهد زوجة اللورد هرنج فادعت، أنها تزوجته في لندرا وكانت تعيش في لندرا عيشة رخاء كما هي عائشة هنا .

– وكانت تدعى اللادي هرنج ؟

– كما تدعى هنا دونا روميو وكما تدعى في الاستانة البرنسس كولوتين وفي مرسيليا مدام كاتلان .

– إن ما تقوله عجيب يبعد تصديقه أيها البارون .

– ولكنه الحقيقة بعينها وأنت تعلم اني تركت باريس منذ عهد بعيد فـلا أزورها غير مرة أو مرتين في العام ولا تطول زيارتي اكثر من يومـين فقد لا تراني في المرة لأني مسافر غداً .

وإذا رأتك ؟

- يصفر وجهها وتغدو كالاموات .

– العل ذلك لما تعلمه من علائقك مع أزواجها ؟

- كلا بل لعلائقي معها فقد وقفت على الكثير من أسرارها .

– لقد هجت فضولي أيها البارون .

– ولكني أقسمت ان لا أبوح بشيء مما عرفته من أسرارها .

– الست بصديقك المخلص ؟

ومن أجل انك صديقي أريد ان أكتم عنك ما عرفته عن هذه المرأة كي لا تلقى بسبب ذلك ما يسوءك على اني سأخدمك بقدر ما أستطيع فهـل أنت حقيقة مغرم بها ؟

– ومن ذا الذي يراها ولا يهواها ؟

– إذن فاسمع أن الفصل الأخير من هذه الرواية سينتهي تمثيله وستخرج قريباً من الاوبرا فتتأبط ذراعي وتقف عند الباب الى أن تمر .

-- تريد بذلك أنها تراك وتراني معك ؟

– نعم ..

– وبعد ذلك ؟

– عليك أن تسعى لمقابلتها في المسرح والمتنزهات أو المنازل فاذا اجتمعت بها قل لها اني أحبك يا سيدتي وأنا صديق البارون س .

- اتظن اني اظفر برضاها بعد هذا ؟

- ربما . وقد قال البارون هذه الكلمة وهو يبتسم ابتسام الساخر فلم تخف الابتسامة عن مرميس كما انه لم تفته كلمة من هذه المحادثة فلما انتهى تمثيل الرواية سبق الرجلين الى باب الاوبرا ووقف ينتظر .

وبعد هنيهة أقبل البارون . س . ورفيقه ثم جاءت بعدهما دونا روميو وهي متكأة على ذراع زوجها فجعل مرميس يحدق بها وبالبارون .

أما هذه المرأة فانها عند بلوغها الى الباب رأت فجأة هذا البارون فاصفر وجهها ووضعت منديلها في فمها كي تكتم صيحة دهش خرجت من صدرها ثم نظرت نظرة بغض هائلة الى البارون وسارت مع زوجها فاقتفى مرميس أثرهما

– ١٤ –

وما مشى مرسيس في أثرهما خطوات حتى وجدت الفيكونت مونتيجرون واقفاً في عرض الطريق وقد اصفر وجهه حين رآها مرت أمامه ووهت قواه حتى اوشك ان يسقط .

وكانت هي قد ركبت المركبة مع زوجها وابتعدت فشغل مرميس بصديقه

مونتيجرون عن لحاقها فانه حين رآه مقبلاً اليه تحول لون وجهه من الاصفرار الى الاحمرار .

فقال له مرميس : ماذا أصابك الملك رأيتها ؟

فتأبط مونتيجرون ذراعه وجره بعنف الى القهوة وهو يقول : تعال معي فاني أظن ان صوابي قد فقد واصبحت من المجانين .

فاضطرب مرميس للهجة كلامه وقال له : ماذا دهاك وما دعاك الى الجنون؟

– انها ابتسمت لي حين مرورها

– لك أنت ؟

– نعم أيها الصديق فانني أشعر ان البراكين النارية تتأجج في صدري . انها نظرت إلي وابتسمت لي وما كنت اطمع بأكثر من هذا الابتسام .

– إذن أي سبب يحملك على الجنون فان ابتسامها لك دليل رضاها عنك وغاية ما يقال عنك انك رجل سعيد

– نعم غير ان من فرح النفس ما يقتل .

ثم نظر اليه محدقاً وقال : أنت مخلص لي يا مرميس ؟

– اعندك شك في اخلاصي ؟

– إذن لا تدعني وحدي فاني أخشى على صوابي وتعال معي الى القهوة فنتعشى ونبقى فيها الى ان يطلع الصباح . أتريد ان نبقى معي ؟

وكان مونتيجرون في أشد حالة من الاضطراب فما وسع مرميس مخالفته وقال له : هلم بنا ولكني لا أجد داعياً لهذه الاضطراب بعد ان ابتسمت لك

– بل ان هذا الابتسام يرعبني .

– لماذا ؟

– لأنها قد تسألني بعده حياتي وثروتي وشرفي فأبذلها .

فابتسم مرميس وقال : انه ثمن فاحش .

وفيما هما جالسان حول مائدة يأكلان ويشربان دخل اليهما الخادم يحمل

رسالة على صينية من الفضة وقال : لقد اتى الآن خادم الى القهـــوة وسأل إذا كان الفيكونت مونتيجرون يتمشى هنا فلما اجبناه بالايجاب دفع الينا هـــذه الرسالة وقال يجب ايصالها اليه في الحال .

فاصفر وجه مونتيجرون واشار مرميس الى الخـــادم ان ينصرف ثم نظر الفيكونت الى الرسالة وهي لا تزال على الصينية كأنه لا يجسر ان يفتحهـــا فاختلج وارتعش وقال : لا أجسر ان افضها .

مرميس : ماذا اصابك أمن اجل ابتسامة تبلغ هذا الحد من الضعف ؟

– ولكنك لا تعلم ممن أتت هذه الرسالة التي لا اجسر على فتحها .

– اتحسبها منها ؟

– دون شك فخذها وافتحها عني .

فأخذ مرميس الرسالة وفتحها وقرأ بصوت منخفض ما يأتي

« إذا كان الفيكونت دي مونتيجرون لا يزال شجاعاً كما يعهد به أهل باريس فليحضر في الساعة الثانية بعد منتصف الليل الى وراء كنيسة العذراء يجـــد مركبة ذات جوادين »

ولم تكن الرسالة مذيلة بتوقيع فقال مونتيجرون : انها منها دون شك فقد انبأتني دقات قلبي .

– العلك نويت الذهاب اليها ؟

– كيف تشكك في ذلك ؟

فقطب مرميس جبينه وخيل له ان هذه الرسالة شرك نصب لصديقـــه ولكنه لم يظهر له شيئاً من ريبة فنظر مونتيجرون في ساعته وقال : يجب ان انتظر ساعة أيضاً ستكون كالادهار

فأجابه مرميس : لا بأس فسنتعاون على قتلها ولكني لا اعلم بعد ذلك ما ينبغي ان اصنع فلقد عاهدتك ان ابقي معك الى الصباح فاذا ذهبت الى هذا الموعد فماذا أفعل ؟

- تنتظرني هنا .
- وإذا لم تعد ؟
- إذا لم أعد الى الساعة السادسة فانت مطلق السراح .

سأنتظر كما تريد ولكني أرجوك ان تأخذ معك هذا المسدس من قبل الحذر فاننا في أيام المرافع والحذر في مثل هذه الأمور محمود .

فأخذ مونتيجرون المسدس من مرميس ولما دقت الساعة الثانيـــة ركب مركبته وسار الى كنيسة العذراء .

أما مرميس فانه لبث في تلك القهوة فجعل تارة يتلهى بالالعاب وتارة بقراءة الجرائد حتى بزغ الصباح ودقت الساعة السادسة فلبس قبعته وحـاول الانصراف ولكنه رأى ان باب الغرفة التي كان فيهـا قد فتح فجأة ودخـل مونتيجرون وعيناه تتقدان كالجمر فقال لمرميس . اني سأتبارز بعـد ساعة في الغابات وأنت شاهدي فهلم بنا الى صديقي كازمير .

- ولكن قل لي على الأقل من هو خصمك قال : هلم فسأخبرك باسمه على الطريق فان المركبة تنتظرنا على الباب وفيها السيوف .

حين خرج مونتيجرون من القهوة الانكليزية وغادر فيها مرميس كان شديد الاضطراب حتى انه خشي ان يلقاه أحد اصدقائه في الطريق فيعـلم امره او يثنيه عن قصده فركب مركبة مقفلة حتى إذا وصل بها الى قرب كنيسة العذراء اوقفها ونزل منها فسار الى وراء تلك الكنيسة فوجد المركبـة التي وصفت له بالرسالة واقفة في انتظاره .

فمشى مونتيجرون الى تلك المركبة مشية السكران وهو يخشى كلمـا دنا منها ان يسقط لتزايد اضطرابه فلما وصل اليها برز منهـا رأس امرأة مبرقـع بحجاب كثيف فلم يعرفها مونتيجرون إلا من دقات قلبه .

ثم شعر ان يداً ناعمة مسكت يده وسمـع صوتاً رخيماً يقول له اصعـد فامتثل مونتيجرون وصعد الى المركبة وهو بين حي وميت .

وكان السائق قد تلقى الاوامر من قبل دون شك فاطلق عنان الجياد فسارت الى جهة الشانزليزه .

وعند ذلك بدأت المرأة الحديث فقالت : اني اعلم يا سيـدي الفيكونت انك باسل وانك تهواني .

– ماذا تريدين يا سيدتي اتريدين ان اموت من اجلك ؟

– بل اريد ان تخاطر بحياتك الثمينة عندي . ثم نظرت اليـــه نظرة من تحت نقابها اخترقت صميم قلبه فقال : اني مستعد يا سيدتي ان ابذل في سبيـل رضاك اكثر من هذه الحياة

– إذن اعلم يا سيدي ان مبارحتي باريس غداً وعدم رجوعي اليها الى الابد منوط بك فعليك يتوقف بقائي في هذه العاصمة وانت وحـدك تستطيع ان تحملني على حبك .

وقد قالت هذا القول بلهجة اولئك الاسبانيات اللواتي يعرضن حبهم على البواسل جزاء الانتقام لهن عن اهانة . فبرقت اسرة مونتيجرون بأشعة الفرح وقال : مري يا سيدتي افعل ما تريدين

– يوجد رجل تجاسر على اهانتي بعد ان يئس من رضاي فاستحال حبــه الى كره وتبدل غرامه بحقد عظيم دفعه الى الانتقام مني فهـــو يختلق النمائم والاكاذيب وكلما رأيته في بلد هربت منه ولكنه لا يلبث ان يعلم المكان الذي فررت اليه فيدركني فيه

فأجابها مونتيجرون بملء البساطة ، إذن سأقتل هذا الرجل .

– ان زوجي غيور وحشي ولكني لا أحبه ولا أريد أن اعتمد عليه بانتقامي

– اذكري يا سيدتي اسم هذا الرجل وعلي البقية .

– ان هذا الرجل باسل شديد الميل الى الخصام لا يرهب عدواً ولكنه إذا علم اني انا التي سلحت يدك يأبى مبارزتك ولو اهنته كي لا يفوته الانتقام مني حتى انه قد يهرب منك ولا يخشى العار .

فتحمس مونتيجرون وقال : تباً له من نذل جبان .

– اقسم لي انك ستجد حجة تمتنع بها عن ذكر اسمي .

– اقسم لك اقدس قسم .

فضغطت على يده ضغطاً لطيفاً وقالت إنك إذا قتلت هذا الرجل أصبحت عبدة لك وتركت كل شيء في هذا الوجود من أجلك وسرت معك الى أقصى مكان في الارض

فطاش رأس مونتيجرون من الوعود وقال : اذكري لي اسمه يا سيدتي بالله.

فأظهرت المرأة شيئاً من التردد ثم قالت : وإذا كان هذا الرجل من أصحابك

– لا أبالي .

– وإذا كان من أصدقائك المخلصين ؟

– انه الآن ألد عدو لي بعد أن تجاسر على إهانتك .

– إذاً فاعلم يا سيدي إن هذا الرجل الذي أهانني والذي أريد له الموت ، والذي سأبيعك قلبي بالانتقام منه هو البارون هنري س .

فارتعش مونتيجرون لأن هذا البارون من أصدقائه وهو من أعضاء نادي اسبرج ، وكان يعرف عنه انه غريب الأطوار ، سافر أسفاراً كثيرة منذ عدة أعوام ، ثم انقطع إلى الاقامة في أراضيه فلم يكن يزور باريس إلا في القليل النادر ، لكنه إذا زارها فلا بد له من الحضور إلى النادي .

ولم يكن بين البارون وبين مونتيجرون علائق وداد متينة ، بل كان يعرفه كما يعرف جميع أعضاء ذلك النادي، فلما ذكرت له اسم البارون تنهد تنهد المنفرج وقال لها : سأقتله يا سيدتي أو يقتلني .

فأوقفت المركبة عند ذلك وقالت لمونتيجرون : إذن إلى اللقاء بل إلى الغد فاني أرجو أن أراك .

– أين أراك يا سيدتي ؟

– في نفس المكان الذي رأيتني فيه الليلة وفي الساعة ذاتها .

ثم أعطته يدها فجعل يلهبها بقبلاته الحارة وقالت له : إذهب بأمن الله فان روحي تحميك .

وخرج مونتيجرون من المركبة وهو يكاد يفقد الرشد وجعلت عينه تتلفت الى المركبة فمضى بعدت عنه تلفت قلبه .

ووقف حيناً وقفة الحائر المضطرب ثم ثاب اليه رشده فسار ماشياً كي تطول المسافة ويجد وقتاً لتقرير الخطة التي يجب أن ينهجها مع البارون هنري .

وما زال سائراً حتى وصل إلى نادي اسبرج فوجد أعضاءه يقامرون ويلعبون الباكارا ، وكان البنك بيد البارون هنري عدوه الجديد .

- ١٥ -

وكان اللاعبون منهمكين في المقامرة وجميع أعضاء النادي مشتركون به فكان كلهم يربحون ما خلا أصحاب البنك أي البارون هنري فان الخسارة كانت مختصة به وحده ، فكان حين دخل مونتيجرون منقبض الصدر لفداحة خسارته مقطب الحاجبين ، على انه كان وافر الثروة ، ولكنه كان من اولئك الذين تؤثر بهم خسارة القمار أشد تأثير فكان يتململ ويقول : أف لهذه الليلة ما أنكد بختي فيها فاني لم أربح مرة واحدة .

ثم لما رأى ان الخسارة مستمرة قال : اني أطلب تغيير هذا الورق فهو شؤم علي .

فنظر اليه الحاضرون بجملتهم نظرات الانكار فقال لهم : ما بالكم تنظرون الي هذه النظرات ألا يحق لي تغيير الورق ؟ اني لا أطلب إلا حقي .

فانبرى مونتيجرون من وراء اللاعبين وقال : أرجوكم أيها السادة أن تعذروا حضرة البارون فانه صار من أهل الاقتصاد .

وقد ضحك أثر هذا القول ضحك تهكم واستهزاء فقطب البارون حاجبيه وقال : كيف تقول يا حضرة الفيكونت اني بت من أهل الاقتصاد ؟

فأجابه بلهجة المتهكم : هذا ما يقوله الناس يا سيدي وأنا أرويه عنهم .

– العلك تحسب الاقتصاد جريمة ؟

– كلا ، بل هو واجب ولا سيما على من يكون في حالتك .

فنظر اليه البارون ببرود وقال : ماذا تعني بما تقول ؟

– لا أقول شيئاً إذ ليس ذلك من شأني .

– أتريد بما قلته اني اصبحت فقيراً فاضطررت إلى الاقتصاد ؟

– كلا بل اني أعتقد انك لا تزال من كبار الأغنياء .

– إذاً ماذا أردت بما قلت ؟

– أردت به يا عزيزي البارون إني سمعت الناس يتحدثون انك محتاج إلى حفظ ثروتك لورثائك .

– أما ورثائي فليس لي وارث غير ابن أخت هو أغنى مني وأنا أرجو أن لا يرثني إلا بعد دهر طويل .

– وأنا أرجو معك هذا الرجاء غير ان الناس لا يقصدون بورثائك هذا الوريث .؟

– ماذا يقصدون ؟

- يقولون يا سيدي انك عشت زمناً طويلاً في أراضيك .

– ذلك لأني أحب الخلاء وأفضل العيش فياللورين .

– ولأن بنات اللورين بارعات في الجمال .

فظهرت على البارون علائم نفاد الصبر وقال : ما هذا الهزء يا فيكونت ، وأي غرض لك فيه ونحن في مقام اللعب ؟

– إذا كان لم يرق لك فعد إلى اللعب وافترض اني لم أقل شيئاً .

وكان مونتيجرون يشفع كل كلمة بلهجة تهكم ظاهرة فوقف البارون هنري

وقال : كلا فانك جريت شوطاً بعيداً ولم يعد بد من التوضيح .

– أي إيضاح تريد ؟

– أريد أن تقول لي من هم هؤلاء الورثة .

– ولكنك تعرفهم اكثر مني أم تريد ان يعرفهم جميع الحاضرين ؟

وقد قال هذا القول وهو يبتسم ابتسام التهكم والهزء بحيث اتضح لجميع الحاضرين انه يقصد مخاصمة البارون بانتحال الأسباب .

فاصفر وجه البارون وقال : نعم ، أريد أن يعلم جميع الحاضرين وجميع الناس .

– إذاً ، ليعلموا ان ورثاءك خادمة منزلك وأولادها .

فوقع هذا القول على البارون وقع الصاعقة وقال بصوت متهدج من الغضب إنك كاذب نمام وما هذه الفرية إلا من مختلقاتك .

أما مونتيجرون فانه أخذ قفازه بملء البرود وضرب به البارون وهو يقول : إن كلمة كاذب كبيرة يا بارون وسأعيدها إلى صدرك .

فأخذ البارون القفاز عن الأرض فوضعه على المائدة وقال : إنك تجدني يا فيكونت في الساعة السابعة من هذا الصباح في الغابات وأحضر معك سيوفك وغداراتك إذ يجب أن يموت أحدنا أو كلانا في هذا الصباح .

– هو ما تقول وسألاقيك في الموعد المعين .

ثم خرج من النادي والناس حائرون لهذا الخصام .

وجعل الحاضرون يستغربون إعتداء الفيكونت الظاهر ويسألون البارون هنري عن الأسباب إلى أن أقسم لهم بانه لا يعلم شيئاً من أسبابه وان الفيكونت كان كاذباً فيما اتهمه به ، فكفوا عن سؤاله وعادوا يلعبون إلى إلى الصباح فخرج البارون هنري وذهب إلى صديقين له من الضباط وطلب اليهما ان يكونا شاهديه ، وسار الثلاثة الى الغابات والبارون يفكر ويقول في نفسه : لقد فاتني أن أسأل أصحاب مونتيجرون إذ كان مصاباً بداء الفرام

فاني أخاف ان يكون لتلك المرأة يد في هذا الخصام .

وعند الساعة السابعة وصل مونتيجرون مع شاهديه مرميس وكازمير فوجد البارون ينتظره مع شاهديه .

- ١٦ -

عندما خرج الفيكونت مع مرميس من القهوة الانكليزية الى بيت كازمير حاول مرميس وهما على الطريق ان يقف على سر صديقه والسبب الذي دعاه الى المبارزة فلم يجبه الفيكونت ولكنه قال له بعد الحاحه : افرض اني اتبارز مع زوج امرأة احبها .

فأضل هذا الجواب حساب مرميس وظن ان مونتيجرون ذهب لمقابلة المرأة فباغتهما زوجها واضطر الى مبارزته ، ولكنه كان يقول في نفسه : العل ذلك خيانة أم هو فخ نصبته تلك المرأة التي سمع ما كان يقول عنهـا البارون هنري في الأوبرا .

وحاول مرات كثيرة وهما على الطريق ان يقف على الحقيقة ولكنه لم يظفر بمراده الى ان وصلا الى بيت كازمير فدعاه الفيكونت وذهب الثلاثة في مركبة الى الغابات .

وحاول كازمير ايضاً ان يستجلي الحقيقة فما لقي غير ما لقيه مرميس من الخيبة .

ولما دنوا من المكان المعين للمبارزة قال مونتيجرون لشاهديه : اني أسألكما ان تقسما لي بشرفكما انه مهما كانت نتائج هذه المبارزة فلا تحاولا البحث عن أسبابها .

فقال كازمير : إذاً انت تريد ان تكون نتيجة هذه المبارزة قتل احدكما ؟

ـ دون شك وكل ما أطلبه اليكما أن تقسما لي هذا القسم كي أقاتـل مطمئن البال .

فاقسما له ..

وبلغت المركبة بهم الغابات فوجدوا مركبة في انتظارهم تقل ضابطـين والبـارون هنري فلم يعلمـوا أيهم خصم صديقهم مونتيجرون حتى نزلوا من المركبة ورأى مرميس أن الخصم هو البارون هنري صاحب الحديث عن المرأة في الأوبرا فالتفت منذعراً الى مونتيجرون وقال له مشيراً الى البارون : أهذا هو خصمك ؟

ـ نعم ...

ـ إذا كان ذلك فاني اسألك أن تسمع ما سأقوله لك قبل المبارزة .

فنفر الفيكونت وقال : أية فائدة من ذلك ؟

ـ لو لم تكن هذه المباحثة واجبة لما طلبتها اليك .

ـ وإذا كنت لا أريد ؟

ـ إني التمسها منك التماساً .

فأفلت منه وانضم الى الجماعة وهو يقول : ارجوكم ايها السادة الاسراع .

غير ان مرميس لم يقنط من صديقه فدنا منه وقـال له بصوت منخفض : لقد علمت الآن لماذا دعتك هذه المرأة الى مقابلتها فانها لم ترد بذلك غير حملك على قتل البارون هنري .

ـ حسناً وبعد ذلك ؟

ـ لا يحق لك أن تبارزه .

فضحك مونتيجرون ضحكاً عالياً وقال : العلك تطلب إلي ان استرضيـه ونحن في ساحة المبارزة ؟

فتنهد مرميس وأيقن انه لا رجاء له باقناعه فتركه وشأنه .

أما مونتجرون فانه دنا من كارمير وقال له : إصغ إلي ، واسمع إرادتي الأخيرة ، إني أريد ان تكون شروط المبارزة ان لا ينفصل أحدنا عن الآخر إلا بالموت .

فأطرق كازمير وكانت شروطاً هائلة وخلاصتها ان يقف كل من الخصمين على مسافة ثلاثين خطوة من رفيقه ويطلق عليه رصاصتين وإذا لم يسفر القتال عن قتل أحدهما عادا إلى إتمام المبارزة بالسيف .

وكان مرميس مصفر الوجه ينذره قلبه بمصاب اليم ، فوقف المتبارزان في المواقف المعينة . وأشار أحد الشهود ببدء المبارزة ، فتقـــدم البارون هنري خطوتين وأطلق غدارته ، فـلم يتحرك مونتيجرون لأن الرصاصـة مرت من فوق رأسه فأخطأته ولم يطلق غدارته لأنه انتظر أن يطلق خصمه غدارته الثانية .

وبعد لحظة أطلق البارون غدارته الثانية ، فسقطت يد مونتيجرون التي كان يقي بها رأسه فجأة الى جنبــه ، لأن رصاصة البارون كانت قد اخترقتها .

فأخذ مونتيجرون غدارته بيده اليسرى وأطلقها على خصمه فلم يصبه . فصاح صيحة غضب وأطلق الثانية فاضطرب البـارون لكنه لم يقع . فأسرع الشهود ورأوا ان رصاصة مونتيجرون قد اخترقت ساقه وقال أحدهم : كفى ! إنكما لم تعودا تصلحان للقتال .

أما مونتيجرون فأبى وقال . إننا نتم المبارزة بالسيف حسب الاتفاق .

فقـال له مرميس : إن يدك اليمنى قـد أصيبت ، ولا تستطيـع إدارة السيف بها .

ــ لا بأس ، فإني أحسن استعمال اليسرى ، إلا إذا كان البارون قد عجز عن القتال .

فأجابه البارون بسكينة : كلا إني لا أزال أستطيع الوقوف .

ولم يجد الشهود سبيلاً إلى معارضتهما ، فأعطوا كلاً منهما سيفاً وعادا الى القتال .

وجرى بينهما قتال هائل طال زمنه لمهارة الاثنين في قتال السيف .

وفيما هما يتقاتلان ، وقد أخذ منهما التعب كل مأخذ ، سمع الشهود صيحتين في حين واحد .

وذلك أن مونتيجرون هجم على خصمه هجمة منكرة فاخترق بحسامه صدر خصمه . ولكن سيف خصمه اخترق صدره أيضاً عند هجومه ، فسقط الاثنان على العشب في حين واحد .

- ١٧ -

في الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم الذي حدثت فيه تلك المبارزة الهائلة ذهب مرميس الى نادي أسبرج فوجد جميع أعضائه يبحثون في سر هذه المبارزة الخفي وكلهم منقبضوا الصدر لأنهم علموا ان مونتيجرون قد مات والبارون في حالة النزع .

وكان مرميس قد بقي أمام صديقه مونتيجرون إلى ان ذهبت روحه وقد توسل اليه قبل موته بالدموع كي يخبره شيئاً عن المرأة التي سببت قتله ، فأبر بقسمه ولم يبح بحرف ولكنه قال له قبل الوفاة: خذ خصلة من شعري بعد موتي وأرسلها الى تلك المرأة فإنك تعلم أين تقيم .

ثم مات وهو يناجيها فكان آخر كلمة قالها : أحبك .

فهاج فضول مرميس لأنه أيقن أن تلك المرأة التي كانت سبب المبارزة هي نفس المرأة التي سمع البارون هنري يتحدث عنها في الأوبرا . ولكنه أحب أن يعلم من هي . فجاء إلى نادي أسبرج علّه يقف على شيء من

تاريخها .

وكان الأعضاء يتحدثون عن هذه المبارزة كما قدمناه ، فاتفقوا جميعهم على القول أنه لم يكن بين المتبارزين سبب ظاهر يدعو الى القتال إلى ان قال أحدهم: إن السبب فيه المرأة وان كليهما كانا يعشقانها .

فأجابه مركيز من الأعضاء: وأنا أرى ذلك محالاً لأن البارون هنري لم يكن مقيماً في باريس ولا يزورها إلا نادراً .

– ليس في ذلك ما ينفي غرامه بإحدى نسائها .

– إنه كان يهوى الفتاة جورجيت ، ولكنه جفاها وتناسى غرامها منذ عامين .

– قد يكون عالقاً بامرأة من البيوت الكريمة .

– ولكن المأثور عنه انه لا ينتاب المنازل ، واذا جاء باريس لا يذهب إلا إلى الأوبرا وهذا النادي .

فتداخل عند ذلك مرميس وقال : أما أنا فإني أؤكد لكم ، أيها السادة ، ان سبب هذا القتال لم يكن إلا المرأة ، لأن مونتيجرون كان من عشاقها

فقال المركيز : من هذه التي كان يعشقها ؟

– هي امرأة حسناء لا أعرف اسمها ، ولكني رأيتها وعلمت أنها واعدته على اللقاء في الليلة الماضية . وقد بقيت معه الى الساعة الثانية من الصباح ، أي إلى حين فارقني وذهب للقائها ، وعاد في الصباح ينذرني بتلك المبارزة .

فقال له المركيز تقول أن مونتيجرون ذهب للقائها في الساعة الثانية ، وفي هذه الساعة كان البارون هنري في النادي معنا ، ولم يفارقنا إلا بعد خصامه مع مونتيجرون . فكيف اتفقت هذه الغيرة والعاشقان لم يجتمعا لدى المرأة ؟

– هو ما تقول غير ان البارون هنري كان في الأوبرا عند نصف الليل وكنت أنا في لوج مجاور للوجه فسمعتهم يتحدثون عن تلك المرأة التي يعشقها مونتيجرون .

– إذاً من هي هذه المرأة ؟

– لا أعلم ! ولكني سمعت البارون يذكرها بكل سوء ، وأنا واثق من صدقه في ما قاله عنها لأنها كانت السبب الوحيـد في تلك الجزرة . ثم اني أعتقد انه يجب ان ننتقم لمونتيجرون ، وأن نعاقب هذه المرأة أشد عقاب ، ولهذا أتيت اليكم .

ونظر الجميع إلى مرميس نظرة انذهال وقال له المركيز : كيف ننتقم منها ونحن لا نعرفها ؟

– لكن البارون يعرفها وهو لم يمت بعد .

– بل إن جرحه مميت وهو في حالة الاحتضار لكنه لم يفقد الرشد .

- إذاً ليذهب بي أحدكم اليه لأني أثق انه يخبرني باسم تلك المرأة متى أخبرته بما عرفته عنها .

- أنا أذهب بك اليه فإن منزله قريب .

وعند ذلك خرج مرميس والمركيز من النادي ، وبعد عشر دقائق وصلا الى منزل البارون وطلبا مقابلته ، فقال لهما أحد أصدقائه : لقد جئتما بعد فوات الأوان وأسفاه .

فاضطرب مرميس وقال : ألعله مات !

– كلا لكنه يحتضر فلندعه يموت بسلام .

– ولكن يجب ان ننتقم له بعد الموت لأنه مات ضحية خيانة امرأة وكلمة تصدر من فمه تكشف لنا السر وتمهد لنا سبل الانتقام فدعني بالله أراه فقد أسمع منه هذه الكلمة .

وكان مرميس يكلمه بلهجة المتوسل فلم يسعه إلا إجابته إلى ما أراد فأخذه

بيده ودخل به إلى البارون .

وكان البارون في حالة النزع غير انه لم يفقد رشده فلما رأى مرميس عرف أنه كان شاهد خصمه فابتسم له وتمتم كلمة شكر .

أما مرميس فإنه دنا منه وقال له : لقد كنت يا سيدي البارون في الأوبرا ليلة أمس فسمعتك تذكر إمرأة دون روميو ، وان مونتيجرون كان يحب تلك المرأة .

فاتقدت عينا البارون كأنما قد نفض عنه غبار الموت وأصغى اليه كل الاصغاء فقال له مرميس إن هذه المرأة يا سيدي هي التي سلحت مونتيجرون ودفعته الى مبارزتك فاستحلفك بالله يا سيدي أن تذكر لي اسم هذه المرأة كي تنال عقابها قبل ان تعاقب في السماء .

فتأثر البارون تأثراً لا يوصف حين سمع أقوال مرميس واستوى جالساً في سريره واتقدت عيناه بلهب ثم انطفأت تلك الشعلة فجأة وسقط ميتاً لا حراك فيه ولكنه قبل ان يموت خرجت من فمه تلك الكلمة مع نفسه الأخير وكانت تلك الكلمة « البستانية الحسناء » .

- ١٨

وكان مرميس يعرف شيئاً من تاريخ هذه المرأة منذ عام ، فإنه عرف من أعضاء نادي كريفيز حكاية هذه المرأة مع المركيز دي مورفر الذي أعجز الشرطة أمر اختفائه كما تقدم في أول هذه الرواية. فلما سمع من فم البارون حين موته اسم تلك المرأة الهائلة ارتعش ارتعاشاً عظيماً ، غير ان البارون لم يذكر الاسم إلا لمرميس فلم يسمعه إلا تلميذ روكامبول .

أما المركيز الذي صحب مرميس والأطبا الذين كانوا في ذلك المنزل فإنهم

لم يعلموا إلا أن البارون قد توفي . فلما خرج اليهم مرميس من غرفة الميت قال لهم لقد أتيت بعد فوات الأوان .

وبعد هنيهة برح ذلك المنزل مع المركيز

وكان مرميس يقول له وهما على الطريق: إني واثق من انه لو علم البارون ان مونتيجرون يريد مبارزته من أجل تلك المرأة لأكره خصمه بكلمة واحدة ان يرجع عن هذا القتال وأن يصافحه مصافحة الأصدقاء .

- ومن هي تلك المرأة السرية ؟

- إصغ إلي أيها المركيز ألا ترى على وجهي علائم الاضطراب ؟

- نعم وأرى أيضاً علائم العزم الأكيد على أمر يجول في خاطرك .

- هو ما تقول ايها المركيز ، لقد أقسمت يميناً منذ خمس دقائق أمام جثة البارون .

- وما هذه اليمين ؟

- هي ان أنتقم لمونتيجرون وللبارون .

- ولكن كيف تنتقم لهما ؟

- أتقسم لي بالشرف ان تبقي ما أقوله لك طي الكتمان ؟

- نعم أقسم .

- إذاً إعلم ان البارون قبل ان يموت ذكر إسماً وهذا الاسم سيرشدني باذن الله الى كشف جريمة هائلة .

- العلك محتاج إلي ؟

- لا أحتاج إلى مساعدتك الآن ، ولكني إذا احتجت اليها أذهب اليك .

- وأنا أكون سعيداً لخدمتك .

- إذاً إلى اللقاء ايها المركيز .

- ألا تذهب معي الى النادي ؟

— كلا .

— وإذا سألوني عما جرى فماذا أقول لهم ؟

— قل إنه مات حين دخولنا اليه فلم نقف منه على شيء

ثم افترق الاثنان فعاد المركيز الى النادي أما مرميس فانه نظر في ساعته وقال : لا تزال أمامي ساعتان لفض رسالة روكامبول .

ثم ذكر ان مونتيجرون أعطاه خصلة من شعره كي يعطيها بعد موته لتلك المرأة ، فقال : لا يزال الوقت فسيحاً لدي ، فلأذهب اليها بهذه الحجة .

وركب مركبة من مركبات الأجرة ، فأمر سائقها ان يذهب به الى الشانزليزيه رقم ٦٩ .

وبعد حين وصلت المركبة الى ذلك المنزل ، فأطلقها مرميس وجعل يفحص ذلك المنزل الذي وقف أمامه ، فشاهد منزلاً جميلاً كائناً في وسط حديقة تكتنفها أشجار باسقة ، ولم ير غير نور واحد ينبعث من خلال إحدى النوافذ .

وعول مرميس على الدخول وطرق الباب ، فأقبل خادم وفتح له . فلما رآه الخادم أظهر الانذهال ، وقال بأدب : أظن ان سيدي مخطئاً ضل عن القصد .

— كلا اليس هذا منزل دون روميو فيجير ؟

— نعم .

— العل دون روميو في المنزل ؟

— كلا يا سيدي فهو في النادي .

— والسيدة ؟

— هي في المنزل ولكنها لا تقبل زيارة أحد حين غياب زوجها

فأخرج رقعة زيارة وقال له : إذهب بها الى السيدة ، فمتى وصلت اليها

تستقبلني دون شك .

ثم دخل الى الحديقة غير مكترث للخادم ، ولكنه بدلاً من ان يعطيه رقعة زيارة باسمه أعطاه رقعة من رقاع مونتيجرون .

فسار بها الخادم الى سيدته وهو يتبعه حتى دخلا الى المنزل فسبقه الخادم الى غرفة السيدة فأعطاها الرقعة ثم عاد اليـــه وقال له : إن مولاتي تنتظر سيدي الفيكونت .

فدخل مرميس الى تلك المرأة التي قتلت رجلين بكلمة من فمها ، فوجدها جالسة على مقعد شرقي ، فنظرت اليه نظرة تدل على السلامة وقالت له :يسرني أن أراك يا سيدي الفيكونت مونتيجرون ، لأن زوجي دون روميو طالما حدثني عنك

فقال في نفسه لقد بدأت تمثل دهاءها فلنحذر . ثم دخل وأخذ يتمعن في وجهها فوجدها مبتسمة ساكنة ولم يبد عليها شيء يدل على التأثر .

وبعد ان جلس قالت له . لقد عرفت يا سيدي ، ما دعاك إلى هذه الزيارة ؟

– كيف عرفت ذلك يا سيدتي ؟

– لقد أخبرني زوجي انه ربح منك في النادي ليلة البارحة مبلغاً كبيراً ، وانك آت لوفائه حسب العادة المتبعة بينكم فإن دين القمار يجب وفائه قبل مرور ٢٤ ساعة عليه .

فلما رأى مرميس تماديها في التنكر أراد أن يضع لها حداً فقال : لقد اشتد بيننا سوء التفاهم يا سيدتي .

– كيف ذلك ؟

– ذلك لأني لست الفيكونت مونتيجرون

فوقفت وقالت له بلهجة الأنكار : إذا لم تكن الفيكونت مونتجرون فمن أنت ؟

- صديق له

- إذاً أنت قادم من قبله .

- دون شك يا سيدتي ، ثم أخرج من جيبه محفظة صغيرة فأخرج منها خصلة الشعر التي أعطاه اياها الفيكونت وقدمها لها ، فتظاهرت بالانذهال العظيم وقالت : ما هذا المزاح ؟

- اني لا امزح يا سيدتي ، فان الفيكونت تبارز في صباح اليوم مع البارون هنري .

فلم تظهر المرأة شيئاً من علائم التأثر وقالت : من هو البارون هنري ؟

- هو رجل كان قبل هذه المبارزة من اصدقاء خصمه

- ولماذا تبارزا ؟

- من أجل امرأة كان البارون يقول انها من شر النساء وكان الفيكونت يحبها حب جنون .

- وما كانت نتيجة المبارزة ؟

- مجزرة يا سيدتي ، الفيكونت مات بعد ظهر اليوم .

- والبارون ؟

- مات منذ ساعة .

- انك تروي لي خبراً هائلاً يا سيدي ، أحقيقة ان هذه المبارزة كانت مجزرة ؟

- اصغي إلي يا سيدتي ان الفيكونت عهد إلي قبل موته أن أذهب إلى تلك المرأة فأقول لها انه مات سعيداً لأنه مات من أجلها وكلفني أن أقص خصلة من شعره وأعطيها لهذه المرأة . ثم قدم لها خصلة الشعر .

فتراجعت المرأة إلى الوراء ونظرت اليه نظرة هائلة ثم قالت: لا شك انك منخدع يا سيدي فما أنا تلك المرأة التي مات من أجلها الفيكونت .

- ولكنه ذكر اسمك يا سيدتي .

- هذا محال

- ألست امرأة دون روميو ؟

- دون شك .

- إذاً أنت هي المرأة التي مات من أجلها الفيكونت .

فقالت له بلهجة دلت على اضطرابها : ان موعد رجوع زوجي من النادي قد اقترب واننا وان كنا في زمن المرافع فقد لا تعجبه منك هذه المهازحة التي جسرت عليها .

- قلت لك يا سيدتي اني لا أمزح وإذا شئت برهاناً على ما أقول فاعلمي ان الفيكونت كان له صديق يدعى المركيز مورفر .

فاضطربت المرأه اضطراباً خفيفاً وقالت : اعذرني يا سيدي فاني غريبة لا أعرف أعيان العائلات الفرنسية .

- اصبري يا سيدتي فان هذا المركيز قد اختفى ويظنون انه قتل

فظهرت عليها علائم نفاد الصبر وقالت له . ماذا تهمني هذه الأمور ؟

- ألم أقل لك ان المركيز كان صديق الفيكونت ؟

- حسناً وبعد ذلك ؟

- لقد كان المركيز المختفي او المقتول صديق آخر يدعى البارون هنري ولإحدى النساء يداً في اختفائه بل في قتله على الأرجح .

فوقفت عند ذلك وقالت : يظهر لي انك مختل الشعور فحوادثك قد تراكمت حتى بت مكرهة لأسألك ارجاءها إلى الغد .

- كلمة أيضاً يا سيدتي قبل أن تطرديني ، ثم وقف بينها وبين الباب كي يحول عدم خروجها وقال : هذه المرأة التي سببت قتل الفيكونت ومورفر قد ذكر لي البارون هنري اسمها الحقيقي قبيل وفاته وهذه المرأة تدعى البستانية الحسناء أي أنت يا سيدتي .

فتراجعت منذعرة إلى الوراء وقالت : من أنت أيها الرجل ؟

- أنا هو الرجل الذي سيريح الأرض من شرورك وينتقم للموت بالموت .
فذعرت البستانية حين رأت الخنجر يلمع في يد روكامبول .

- ١٩ -

وكان ذعر البستانية شديداً فقالت له بصوت يتهدج : رحماك لا تقتلني .
ثم ضمت يديها وجعلت تنظر اليه نظرة المتوسل فقال لها : ليس الفضول الذي جاء بي اليك ولكني أقسمت يميناً لا بد لي من البر بها ..
- ماذا تريد مني ؟
- أريد أن أعلم
- ماذا ؟
- إذا كنت حقيقة تلك المرأة الملقبة بالبستانية الحسناء .
- نعم أنا هي .
- إذاً أنت تعلمين ما حدث للمركيز دي مورفر ؟
وركعت وقالت : لا تسألني عن هذا المركيز .
- بل أريد أن أعرف كل خفي من أمره أو أقتلك في الحال شر قتل.
وكانت علائم الرعب بادية في وجهها حتى أيقن مرميس أنها باتت في قبضة يده. فقال لها . أننا الآن في الغرفة وفيها نافذة تشرف على الحديقة فان خطر لك أن تستغيثي قتلتك وهربت من النافذة قبل أن يصل اليك أحد .

فعضت يديها من اليأس ثم قالت . ولكن أسرار هذا المركيز ليست أسراري ..
- سيان عندي فقد أقسمت ان أعلم أين مات المركيز وكيف مات

ولا بد لي أن أعرف كل شيء .

ولما تبينت هذه المرأة صدق العزم من لهجة مرميس وعلمت من اتقاد عينيه أنه يقتلها لا محالة إذا أصرت على الانكار قالت له ان حكاية المركيز مورفر طويلة يا سيدي ، وقد كتبتها بجملتها ووضعتها في هذه الخزانة التي تراهـا وهذا مفتاحها .

ثم أخرجت مفتاحاً صغيراً كان معلقاً في عنقها فدفعته اليه وقالت : إذا كنت غير واثق بي فافتحها بيدك .

فأخذ مرميس المفتاح وذهب إلى باب الغرفة وأقفله من الداخل وعاد إلى الخزانة ففتحها . فقالت له . ألا ترى درجاً صغيراً في الجهة اليمنى ؟

— نعم . .

— افتحه تجد فيه تلك الأوراق .

ففتحه دون حذر ولكنه ما لبث ان فتح حتى خرج منه دوي شديد ، وبرزت من جوف الجدار المسندة اليه الخزانة آلتان من الحديد امتدتا كالذراعين طوقتا بغتة مرميس ثم انضمتا عليه فلم يعد يستطع حراكاً .

وذلك ان هذه الخزانة كانت من تلك الخزائن التي اخترعوها للوقاية من اللصوص فوضعت فيها تلك الآلة السرية للقبض على السارق وجعل الدوي للتنبيه اليه فإذا فتح الدرج يضغط على لولب فيه متصل بالآلة السرية فتمتد الذراعان الحديدان ويلتفان على من يعثران به .

ويوجد كثير من الصناديق الحديدية التي توضع فيها أموال المصارف إذا فتحت على غير طريقتها المعروفة خرج منها رصاصة قتلت السارق غير ان خزانة البستانية الحسناء كانت آلتها معدة للقبض على السارق والتنبية اليه فقط دون اذيته .

ولما علم مرميس بالمكيدة وأحس بتلك الآلة الضاغطة صاح صيحة منكرة أجابته البستانية عليها بقهقة الساخر .

وبينما هو يحاول التخلص من هذا القيد الشديد عبثاً دنت منه وقالت له . إنك أصبحت يا سيدي في قبضة يدي وبكلمة واحدة تخرج من فمي يقضى عليك ولكني أشفق على شبابك وأسديك النصيحة نفسها التي اسديتها إلى مونتيجرون من قبلك وهي « لا تتدخل في شؤوني »

ونظر مرميس إلى وجهها فوجد عليها علائم الهزء ولكنه رأى عينيها تتقدان وكان الخادم قد سمع دوي الآلة فأقبل وطرق الباب فقالت له البستانية من داخل الغرفة : عد إلى شأنك فلست محتاجة اليك .

ثم ذهبت إلى النوافذ فأقفلتها إقفالاً محكماً وأسدلت عليها الستائر ودنت من الجدار فضغطت على لولب ، ففتح باب سري لم يره مرميس من قبل وخرجت منه .

وبقي مرميس وحده يحاول التخلص من قيده فلا يستطيع وقد انهكت قواه ، ودخل الرعب قلبه ، ثم رأى نوراً قد اتقد فجأة بالقرب منه وجعل يخرج منه دخان أبيض كدخان تبغ فيملأ الغرفة ثم يتكاثف ويصبح كالغيوم المتلبدة

وأنذهل لهذا الدخان الفجائي ورآه يدنو وهو يحمل رائحة عطرية تملأ خياشيمه ، ثم تكاثر الدخان وأحاط به ، فسر برائحته العطرية ووجد بها لذة عجيبة سكنت غضبه ، وكان شأنه شأن من يعالج همه بشرب الراح ، فلا يشرب بضع كاسات حتى تنجلي الغمامة السوداء عن مستقبله ويراه بلون الورد إذ ينظر اليه من خلال أقداح الخمر .

ثم جعل ذلك النور الذي رآه قد اتقد فجأة يضعف ويأخذ بالخمود حتى أصبح كالجمر ، ثم انطفأ ولكن الدخان كان لا يزال يتكاثف وهو يتنشق رائحته بملء الارتياح ويشعر بتخدير جسمه تباعاً .

وبعد ربع ساعة أطبقت عيناه فأطلقت الآلة الحديدية سراحه وارتدت إلى موضعها . غير انه لم يخطر له الفرار في بال ، وانطرح في أرض الغرفة

وجعل يتلذذ بتلك الرائحة العجيبة وقد استرخت مفاصله وانحلت قواه ومع ذلك فقد كان يشعر أنه اسعد إنسان

- ٢٠ -

وكان مرميس في حالة سكر شديد تشبه حالة متعاطي الحشيش فكانت عيناه مطبقتين ولكنه لم يكن نائماً ، بل كان يشعر بكل ما يجري حوله .

وقد حاول أن يقف مرتين فلم يستطع ولكنه أفرغ جهده في المرة الثالثة فمشى خطوتين وهو يتمايل حتى وصل إلى الكرسي الذي كانت جالسة عليه البستانية فسقط أمامها خائر القوى وعاد إلى حالته القديمة .

ثم شعر فجأة ان الدخان قد تبدد وشعر بنور جديد دخل إلى الغرفة ففتح عينيه ولم ير شيئاً ولكنه شعر أن جميع حواسه منصرفة إلى البستانية الحسناء وان تلك المرأة التي هجم عليها بخنجره قد تمثلت له بجمال باهر يدهش الأبصار فأغمض عينيه وقال : ما أجمل هذه المرأة وكم يجب أن تحب ؟

وعند ذلك سمع وقع خطوات في الغرفة ففتح عينيه ورأى البستانية تدنو منه وهي تبتسم ابتساماً يفتن العابد، فجلست على الكرسي وهو منطرح تحت قدميها وقالت : ألا تظن انه يجب أن يحبني الناس ؟

— نعم فانك أجمل إمرأة على الأرض ولعلك هاربة من السماء .

فأخذت يده بين يديها وقالت له بدلال : وأنت ألا تحبني ؟

فلم يدر ماذا يجيب ، وحاول ان ينهض ويطوق عنقها بذراعه فلم يستطع الوقوف .

— أرى انك تحبني ، فكيف أحببتني أما كنت منذ هنيهة عازماً على قتلي ؟

ـ لا أعلم سوى اني أحبك ، مري أطع فاني أصبحت من عبيدك . .
وطوقته البستانية بذراعيها وقالت : إنك فتى جميل باسل تستحق أن تحل في قلبي ولكني أحب أن أعلم لماذا تريد أن تنتقم لمونتيجرون ؟

وكأنما هذا الاسم قد أثر تأثير الكهرباء بمرميس فاتقدت عيناه ببارق من الصواب وحاول أن يجمع هداه ، لكن الخدر كان مؤثراً به شر تأثير فقال : مونتيجرون من هو هذا الرجل فاني لا أعرفه ؟

وعلمت البستانية أن جسمه قد تخدر تماماً ولا سبيل إلى الوقوف على الحقيقة منه ، وعادت إلى مداعبته والهزء به إلى أن أطبق عينيه وطاز فكره إلى عالم الأرواح



ولما استفاق مرميس من هذه السكرة وفتح عينيه شعر بهواء بارد ورأى انه كان نائماً على أرض رطبة ، وتطلع إلى ما فوقه ورأى السماء ملبدة بالغيوم وأن الفجر قد انبثق ، وكل ما كان يراه من آثار البستانية قد زال .

وقد وجد نفسه مستلقياً على ظهره في أرض يبنون فيها منزلاً ، وقد رض جسمه ووجد أن حواسه لا تزال مضطربة من آثار ذلك الدخان الذي كان يستنشقه فأسكره تلك السكرة التي أضاعت رشاده .

ونهض وجعل يحرك أعضاؤه حركات عنيفة كي يعيد اليها لينها العادي ثم خرج من ذلك المكان الرطب الذي نام فيه ليلته فافترش الأرض والتحف السماء .

وكان أثناء سيره يذكر ما مر به من الحوادث فذكر قتل مونتيجرون والبارون هنري ، ثم ذهابه إلى البستانية الحسناء وتلك الآلة الحديدية التي قبضت عليه وجعلته عاجزاً عن الدفاع ، ورائحة الدخان العطرية ونظرات تلك المرأة التي كان منطرحاً تحت قدميها ، فثار غضبه وهاج فؤاده وقال :

ان هذه المرأة قد عبثت بي كما عبثت بمونتيجرون والبارون هنري ودي مورفر غير اني تلميذ روكامبول وسترى هذه الحسناء ما يكون مني .

وما مشى بضع خطوات حتى اهتدى إلى طريقه فسار توا إلى منزل فاندا.

وكانت فاندا تنتظره بفارغ الصبر فقالت له : كيف تــأخرت إلى الآن العلك نسيت كتاب الرئيس ؟

- لقد أصبت فقد كان موعد فتحه أمس في منتصف الليل فاعذريني فليس الذنب ذنبي .

ثم جلس بقربها دون أن يخبرها بشيء ممـا جرى له وفض ذلك الكتاب المحتوي على أوامر روكامبول .

- ٢١ -

ان الغلاف الذي فضه مرميس كان محتوياً على رسالة وكراس ضخم فوضع الكراس على حدة وقرأ الكتاب وهو كما يأتي :

« يا أصحابي .

« اني بعد دقائق قليلة أكون قد برحت باريس إلى الهند فاذا صدق حسابي عدت من تلك البلاد بعد عامين على اني إذا لم أعد فعليكم أن تنفــذوا إرادتي فاصغوا إلي .

« إنك يا فاندا كنت سيدة عظيمة ثم هبطت إلى الحضيض قبل ان أعرفك

« وأنت يا مرميس كنت لصاً سفاكاً قبل ان التقي بك واهديك

« وأنت يا ميلون إنك الوحيد بيننا الذي لم ترتكب إثمــاً فيما مضى من أيامك الطاهرة ، ولكنك أصبحت مثــل رفيقيك شريكاً لروكامبول الذي انقلب من الشر إلى الخير ويجب أن تعمل ما يعملانه .

« إني عندما هربت من سجن طولون ايها الأصحاب علمت ان الله لم يطلق حريتي إلا على ان انفق كل ساعة من ساعات حياتي في صنع الخير استغفاراً عن زلاتي ، وانتما يا فاندا ويا مرميس قد اذنبتما مثلي وتبتما توبة صادقة مثلي فوجب عليكما ان تضحيا حياتكما في سبيل الخير مثلي ، فإن حياتنا لم تعد لنا ، بل لكل بائس منكود وشقي مظلوم .

« إذاً إسمعوا ، إني بينما كنت أمس أعد معدات سفري جاءني كتاب دون توقيع فقرأت فيه ما يأتي :

« (إذا كان الرجل الذي يدعو نفسه روكامبول والماجور أفنتار لا يزال نصير المظلومين وعدو الظالمين فليتفضل بالحضور إلى شارع منيلمونتان نمرة ١٦ حيث يجد أتعس انسان في الوجود) .

« فلما تلوت الكتاب ذهبت مسرعاً إلى ذلك الشارع ولما بلغت المنزل أسرع الي غلام صغير هزيل تدل عيناه على الذكاء وسألني هل أنت يا سيدي الذي يدعونه روكامبول ؟

« — نعم ..

« إذن اتبعني فان امي كانت واثقة من حضورك .

« ثم سار أمامي فتبعته إلى غرفة حقيرة في آخر دور من أدوار المنزل ودخل الغلام إلى الغرفة وقال هوذا روكامبول يا أماه .

« ودخلت في أثره ووجدت سريراً خشبياً في زاوية الغرفة وعليه امرأة صفراء الوجه هزيلة الجسم تدل عيناها على الضنك ، غير ان آثار الجمال النادر لا تزال بادية عليها .

« وجعلت تلك المرأة تنظر الي وتبتسم ثم مدت الي يدها وقالت لم يكن عندي شك بحضورك . أما أنا فقد خيل لي اني أعرف هذه المرأة منذ عهد بعيد ، ولكني لم اذكرها ، ولما رأتني أحدق بها هذا التحديق قالت لي: انك لم تعرفني ، ولكني عرفتك ، ألا تذكر الفيروزة يا روكامبول ؟ (راجع

رواية التوبة الكاذبة) .

« فانذهلت وقلت : انت هي الفيروزة ؟

« – نعم إنك عرفتني منذ عشرة أعوام حين كان عمري ٢٠ عاماً .

« ولكن ماذا أصابك وكيف بلغت إلى هذا الشقاء ؟

« – ان حديثي طويل لا استطيع ان اقصه عليك لأني أشعر بدنو الأجل لكني كتبت جميع حكايتي

« ثم مدت يدها الى تحت وسادتها وأخرجت هذا الدفتر الذي ترونه في طي الغلاف واعطتني إياه وقالت : اتعلم اني كنت آخر خليلة المركيز « دي مورفر » ؟

« فانذهلت انذهالاً عظيماً لأني كنت عرفت اختفاء هذا المركيز ،فابتسمت وقالت : لقد كنت خاطئة كما كنت انت وارتكبت ذنوباً هائلة كما ارتكبت انت ولكني تبت توبتك ، وبت ارجو عفو الله ولا أبالي بالموت ولكني مشفقة على هذا الصغير الذي اوصلك إلي .

« العله ابنك ؟

« – كلا ، انه يعتقد اني امه ولكنه ابن المركيز دي مورفر

« – ولكن المركيز دي مورفر قد اختفى .

« نعم ..

« – العله قتل ؟

« – كلا ..

« ولكنه مات .

« – كلا فإنه لا يزال حياً يرزق

« – إذاً اين هو وماذا جرى له ؟

« – إقرأ هذا الدفتر تعلم منه كل ما تريد

« واعطتني الدفتر وقد اصفر وجهها وغارت عيناها فقالت : اني واثقة من

اني سأموت هذه الليلة .

« – بل تعيشين عمراً طويلا وسأهتم بك كل الاهتمام .

« – بل اقصر همك على هذا الغلام ، أما أنا فاني سائرة الى الأبدية ، أما ترى الموت يجول بين عيني ؟ فاقسم لي بالله انك تقرأ ما كتبته في الدفتر وانك تنتقم للمظلوم .

« ولما اقسمت لها قالت : لقد أصبت باعتمادي عليك . ثم مدت يدها إلي شاكرة واغرورقت عيناها بالدموع .

« أما أنا فقد رأيت علائم الموت بادية بين عينيها وانها لا تعيش إلا بضع ساعات ولكني مع ذلك احضرت لها طبيباً وممرضة وقلت لها اني سأعود صباح غد لأراك .

« ثم خرجت من عندها ومعي الدفتر .

« وفي صباح اليوم التالي أعددت معدات السفر الى الهافر وذهبت لعيادة الفيروزة ، ووجدت انها قد ماتت في الليل ، وكان الغلام واقفاً يبكي فدفعت الى بواب المنزل نفقات دفنها ، واخذت الغلام الى دير الراهبات في شارع البوسطة فوضعته فيه ودفعت عنه راتب ثلاثة اعوام مقدماً وقيدت اسمه بدفاتر الدير باسم « مكسيم لوران » فقبلوه بهذا الاسم .

« والآن إذا فتحتم كتابي بعد مضي عامين ، اي إذا لم اعد من الهند قبل انقضاء هذه المدة فاعلموا انه يجب عليكم ان تفعلوا ما عهد الي بفعله وإذا كنتم قد فتحتم هذا الكتاب فاعلموا اني قد مت في الهند وخلفت لكم هذه المهمة إرثاً تتقاسموه على السواء فاحذروا من التهاون في قضائها فاني أقسمت يميناً للفيروزة قبل ان تموت »

« روكامبول »

- ٢٢ -

لما تلا مرميس كتاب روكامبول دفعه الى فاندا وقال لها اقرأني .

فقرأته فاندا بصوت مرتفع امام ميلون ، فتحمس ميلون وقال : لنفعل ما يريده الرئيس

فقال مرميس : اظن اني بدأت بانفاذ اوامر الرئيس دون ان اعلم .

فقالت له فاندا : كيف ذلك ؟

- اصغيا الي فسأوضح ما قلت : ان هـــذا الكتاب الذي قرأناه الآن يدل ، على ان هذا الدفتر الذي لم نقرأه بعد ، خاص بالمركيز دي مورفر ، وقد رويت لكم في العام الماضي حكاية اختفاء هذا المركيز ، وما كان له من التأثير .

ثم ازيدكما على ما تعلمانه ان صديقه مونتيجرون قد بـذل جهده للوقوف على اثاره فلم يفز ، وقد قتل هذا المسكين امس في مبارزة ، والذي قتله صديق له يدعى البارون هنري .

فقالت فاندا : وما سبب المبارزة ؟

- ان مونتيجرون كان يهوى امرأة تكره البارون هنري .

ومن هي هذه المرأة ؟

- هي تلك البستانية الحسناء التي وجدوا في منزلهـــا ، منذ ثلاثة اعوام ، مثالاً من الشمع يشبه المركيز دي مورفر شبهاً عجيباً خدع به رئيس البوليس نفسه .

- إذاً هذه المرأة مقيمة في باريس ؟

- نعم ، وقد انفقت جانباً من الليل بقربها

ثم حكى لهما جميع مـــا اتفق له تلك الليلة مع البستانية الحسناء التي انتحلت لنفسها اسم دونا روميو .

ولما انتهى من سرد حكايته قال لفاندا : والآن فاني استشيرك فيما يجب ان افعله : فهل ينبغي ان نقرأ هذا الدفتر الضخم ، ام نستوثق قبل قراءته إذا كانت البستانية لا تزال في باريس .

فقالت فاندا : اني ارى الرأي الأخير اولى بالاتباع فـاننا نستطيع ان نقرأ الدفتر في كل حين .

فقال عند ذلك مرميس لميلون : هلم معي لنغير زينـا ونذهب الى بيت البستانية .

وامتثل ميلون ودخل الاثنان الى الغرفة وبعد ربع ساعة خرجا منها وهمـــا متنكران اشد التنكر . بحيث ان فاندا نفسها ، أوشكت ان لا تعرفهما .

فقال مرميس : ان هذه الحسناء التي كنت عـاشقها بالأمس إذا عرفتني بعد هذا التنكر لا اكون من تلامذة روكامبول .

ثم سار مع ميلون الى بيت البستانية فقال له على الطريق : إنك ستقول في ذلك البيت الذي نحن ذاهبان اليه اني ابن اخيك ، واني من الماهرين في سوق المركبات ، وقد بلغك ان دون روميو محتاج الى سائق لمركباته فجئت بي لادخالي في خدمته . وفي خلال الحديث نعلم إذا كانت البستانيـة الحسناء باقية في باريس أم لا .

وذهب الاثنان حتى وصلا الى ذلك المنزل فقرع مرميس بابه الخارجي ففتح الباب واستقبلهما الخادم وسألهما عما يريدان .

- بلغنا ان الدون روميو محتاج الى سائق ، اليس كذلك ؟
- لا اعلم

– اني جئت كي أعرض عليه خدمة ابن أخي هذا فانه من حذاق الماهرين في هذه الصناعة

– ان سيدي قد خرج الآن من المنزل على جواده .

– متى يعود ؟

– في الساعة الحادية عشرة .

وعند ذلك فتحت نافذة الغرفة المشرفة على الحديقة وبرز منها وجه البستانية الحسناء فرآها مرميس وقال لميلون بلغة اصطلاحية : هذه هي ، فرآها ميلون أيضاً .

ثم خرج الاثنان وقالا للخادم : اننا سنعود حين عودة سيدك . ولما بعدا بضع خطوات عن المنزل قال مرميس لميلون : يجب أن تبقى هنا لمراقبة المنزل.

– وإذا خرجت منه ؟

– اتبعها إلى حيث تسير فلا يفوتك اثرها ، أما أنا فاني عائد إلى فاندا .

ثم تركه وانصرف .

وجلس ميلون فوق حجر ضخم على بعد عشرين خطوة من المنزل فكان بابه ظاهراً له بحيث لا يخرج أحد منه دون أن يراه . ولبث على ذلك ساعتين ورأى الخادم خرج كثيراً فكان يغيب حيناً ثم يعود دون ان يقتمه اليه .

ثم رأى فارساً وصل إلى باب المنزل فترجل عن جواده ودخل وقد تمعن به ميلون فوجده رجلا قوياً يبلغ الأربعين من العمر أسمر الوجه تدل ملامحه على انه من الأسبانيين .

فلما رأى ميلون انه دخل إلى المنزل ورآه ممتطياً جواداً أيقن انه دون روميو نفسه، فاقبل إلى البواب ففتح له وقال. انك تريد أن ترى دون روميو.

– نعم ، فاني أحب أن أعرض عليه خدمة ابن أخي .

– أين هو ابن أخيك ؟

– لقد طال عليه الانتظار فأرسلته يتجول في باريس، ولكنه سيعود قريباً

فأرجوك أن تذكرنا أمام مولاك

— بل ستكلمه أنت ، فانه سيخرج قريباً مع السيدة ، ألست أنت حوذياً كابن أخيك ؟

— نعم .

— إذا لم يكن لديك عمل فقد وجدت الك عملا

— كيف ذلك ؟

— ذلك ان سائق مركبات سيدي مريض والذي يسوق مركبته الآن يخشى منه لا سيما وان الجياد قوية فاذا جمحت لا يستطيع كبحها .

فقال ميلون في نفسه : أن مرميس أمرني أن اقتفي أثر هذه السيدة أين ذهبت وهذه خير فرصة لاقتفاء أثرها دون مشقة . ثم قال للخادم : اني اعتزلت هذه المهنة منذ عهد غير بعيد ولكني سأعود اليها راجياً أن تروق خدمتي لسيدك فيعين أبن أخي .

— إذن تعال معي إلى الأصطبل لإعداد المركبة . فامتثل له ميلون .

وبعد ساعة كان ميلون جالسا مجلس السائق في مركبة البستانية الحسناء وبقربه خادم . ثم أقبل دون روميو والبستانية الحسناء وصعدا إلى المركبة

فسأل ميلون الخادم إلى أين يريدان الذهاب ؟

— إلى سانت مالديه ، فانهما استأجرا منزلاً في الغابة للمصيف فيه وأرسلت اليه العمال لاصلاحه فهما ذاهبان لتفقد الأعمال

فقال ميلون في نفسه : لم يبق سبيل للخوف من سفر هذه البستانية وهي قد استأجرت منزلاً للمصيف

وأطلق أعنة الجياد فانطلقت تنهب الأرض من شارع إلى اخر حتى بلغ بها إلى منزل معتزل تحيط به الأشجار من كل الجهات ، أوقفه الخادم عند بابه وقال : لقد وصلنا .

ثم نزل وفتح باب المركبة فخرج منها دون روميو والبستانية ودخلا إلى

ذلك المنزل .

وكان بالقرب من ذلك المنزل حانة يختلف اليها العمال حين فراغهم ، فأشار الخادم لميلون اليها وقال له : هلم بنا إلى هذه الحانة نشرب كأساً من الخمر فان سيدي لا يخرجان من المنزل قبل ساعة .

— حباً وكرامة . ونزل ميلون من المركبة فتركها عند باب المنزل وسار مع الخادم إلى الخمارة فدخلا اليها .

وكانت تلك الخمارة مقفرة لا يوجد فيها غير صاحبتها وهي عجوز شمطاء ، فطلب اليها الخادم زجاجة بيرا وجلس حول مائدة مع ميلون يشربان .

ولم يفرغا من شربها حتى دخل اثنان من العمال إلى الخمارة، ثم دخل عامل اخر ، ثم تلاه اثنان أيضاً فجلس جميعهم حول المائدة التي كان جالساً عندها ميلون والخادم .

وعند ذلك قامت تلك العجوز إلى باب الخمارة فاحكمت اقفاله من الداخل فداخل الريب قلب ميلون وقال لرفيقه : لماذا تقفل المرأة هذا الباب ؟

— سوف تعلم أيها الرفيق .

ثم أشار إشارة إلى اولئك العمال الذين دخلوا فانقضوا فجأة على ميلون وألقوه على الأرض بالرغم عن دفاعه الشديد وقوته الهائلة .

— ٢٣ —

وبينما ميلون قد وقع في الفخ كما تقدم كان مرميس قد ذهب إلى فاندا وجعلا يقرآن دفتر الفيروزة الضخم ، وكان عنوان هذا الدفتر (الميت الحي) وهو منقسم إلى أبواب وفصول كالكتب المعدة للطبع .

ففتحه مرميس وبدأ يقرأ ما يأتي :

الفصل الأول من كتاب الفيروزة

في ليلة اشتدت انواؤها من ليالي الشتاء الباردة سنة ١٨٢٣ وقفت مركبة في شارع لوفوا ونزل منها رجل وكان هذا الرجل متشحاً برداء كبير فدفع أجرة السائق وأطلق سراحه .

ثم سار في ذلك الشارع ، وهو كلما سار خطوة يلتفت إلى الوراء كأنه يخشى من يقتفيه إلى ان اجتاز شارع لوفوا ودخل في شارع شابانيس فوقف عند المنزل رقم ١٤ وطرق بابه .

ففتح له البواب ودخل في رواق مظلم انتهى منه إلى سلم .

وكان البواب نائماً عند الباب ففتحه دون ان ينهض عن مضجعه وقال : من الداخل ؟ فلم يجبه الرجل ، واستمر في صعوده السلم وحسب البواب انه من سكان المنزل وانه تأخر في أحد المراسح ، وتركه وشأنه وعاد الى النوم .

أما الرجل فانه حين انتهى من صعود السلم سار في رواق طويل الى باب كان ينبعث منه نور ضعيف .

وكان مفتاح الباب في قفله من الخارج ، ففتحه ودخل الى ردهة وجد في يمينها ويسرتها بابين ففتح أحد هذين البابين ودخل منه إلى غرفة معدة للنوم وسمع منها أنيناً .

غير ان هذا الأنين انقطع حين سمع صاحبه وقع أقدام الرجل . ثم سمع هذا الرجل صوت امرأة تقول بلهجة مضطربة تدل على الألم الشديد : أهذا أنت يا أرمان ؟

ولم يجب الرجل بحرف ولكنه دنا من السرير الذي كانت المرأة نائمة فيه وأزاح الستائر .

ولم يكن من نور في الغرفة غير نور اللهب المنبعث من المستوقد ، ورأى الرجل على هذا النور الضعيف امرأة تعض يديها وعلى وجهها علائم الألم الشديد.

وعادت المرأة فقالت : أهذا أنت يا أرمان . ويلاه من هذه الساعة ،

فاني أحسبها ساعتي الأخيرة . ثم جعلت تعض اللحاف كي تمتنع عن الصراخ .

أما الرجل فانه خلع عنه الوشاح فجأة وكان يستر وجهه ، فلما رأته المرأة ذعرت ذعراً أنساها آلامها وصاحت صيحة منكرة ارتجت لها جوانب الغرفة .

غير ان الرجل لم يدعها تصيح غير هذه الصيحة فضغط على عنقها بيده وقال لها إذا فهت بكلمة واحدة قتلتك دون اشفاق .

وكان خوفها عظيماً حتى انها نسيت ما هي فيه من آلام الولادة ، لأن هذا الرجل الذي رأته لم يكن ارمان الذي كانت تنتظره بفارغ الصبر .

ولما رأت هذا الرجل وما كان منه جمد الدم في عروقهـــا وقالت له : اهذا أنت ؟

أما هو فانه ذهب إلى الباب واقفله من الداخل وعاد اليها فقال بصوت الهازىء المتهكم اني أعلم شيئاً من علم الطب والجراحة ، وسأغنيك عن الطبيب الذي ذهب ارمان لاحضاره .

وقالت له اقتلني كما تشاء لأن ذلك من حقك لأني خنتك وأنا امرأتك ، ولكن لا تهزأ بي بالله في هذه الساعة

– اني لا أهزأ ولا يدور المزاح في خاطري وأنا في هذا المقام بل اني أعيد عليك ما قلته لك وهو اني ملم بفن الطب والجراحة وسأنوب عن الطبيب الذي تنتظرينه كما سترين .

– اواه إني اقرأ بين عينيك صورة العقاب بموتي..

وأجابها ببرود : انك مخطئة ايتها السيدة ، فلا اريد لك الموت .

– أين أرمان ، ولماذا لم يعد ؟

– لأني قتلته ، فهو لن يعود

فاضطربت اضطراباً شديداً ونهضت وهزت هزاً عنيفاً ذلك الرجل الذي كان زوجها فخانته واتت تستر زلتها في بيت حقير . واتقدت عيناهـــا بلهب الحقد وجعلت تهزه وتقول له : تباً لك من قاتل سفاك .

غير انه لم يغضب لما سمعه من اقرارها ، بل جلس على كرسي أمام سريرها وقال بملء السكينة : لقد عدت يا سيدتي اليوم من اسبانيا ، ولم يعلم احد من الناس بعد اني في باريس ، وجميع الناس هنا يحسبون انك الآن مقيمة في أراضينا في نورمانديا ..

ثم ان زلتك لم يعلم بها أحد بعد ولا يجب ان يدري بها احد ويقول ان الدوقة دي فنسترانج خانة زوجها وولدت بالاثم والخيانة .

وهي خيانة يا سيدتي لا يعلمها غير ثلاثة في الوجود وهم ارمان وانت وانا

أما أرمان فقد قضى السهرة بقربك ، ولما شعرت بقرب الولادة أسرع لاحضار الطبيب ، لكني لقيته في الطريق قبل ان يصل اليه وتصديت له وقلت : إني عالم بكل شيء .

ففهم ما أردت وذهب معي إلى مكان معتزل وتبارزنا ولقي الموت من حسامي جزاء بغيه ، ولكنه تمكن من ان يخبرني قبل مماته بما انت فيه وارشدني إلى مكانك .

بقي ذلك الخادم الذي اخبرني بسر خيانتك ، لكني سأصحبه معي إلى اسبانيا وهناك اتخذ الاحتياطات اللازمة كي لا يعود ، ولا يبقى من المطلعين على هذا السر غير انا وانت ، فلا تروق لك الفضيحة مهما صغرت نفسك بهذه الحياة فلا تبوحين بسر تكون فضيحتك بعده اكثر من فضيحتي . واما انا فاني رجل كثير الطموح إلى المعالي فلا اشغل نفسي بالاهتمام بخائنة وقد صغرت في عيني فلا اتدانى إلى الانتقام منك . إذاً ثقي اني لا اقتلك .

وانت الآن مقيمة في هذا المنزل متنكرة باسم غريب فاتخذي ما تجدينه صالحاً من الاحتياطات لتعودي غداً إلى قصرنا في شارع سانت دومنيك دون أن يعلم أحد شيئاً .

وكان الدوق يقول لها هذه الأقوال بملء السكينة ، غير ان تلك المرأة كانت قد اشتدت عليها آلام الولادة فلم تفقه حديثه .

اما الدوق فقد كان عارفاً بفن التوليد كما قال فأخذ يعالج امرأته إلى ان ولدت في الساعة الثانية من الصباح مولوداً ذكراً واغمي عليها .

ولف الدوق الطفل بملاية السرير وخبأه تحت وشاحه وانصرف . فلما استفاقت الدوقة من اغمائها لم تجد زوجها ولا ذلك المولود .

الفصل الثاني من كتاب الفيروزة

بعد شهر من هذه الحادثة الغريبة التي وردت في كتاب الفيروزة كانت فرقة من الجنود الفرنسية تحتل قرية من جبال كاتولون تدعى اوجاكا .

وكان احتلالهم لهذه القرية اثر الحرب الثانية التي نشبت مع اسبانيا سنة ١٨٢٣ .

وكانت هذه الفرقة مؤلفة من فصيلتين من الفرسان بقيادة الكولونيل فنسترنج ، وهو الدوق دي فنسترنج الذي جرى له مع امرأته ما رويناه في في الفصل المتقدم .

وكان هذا الدوق يناهز الثلاثين من العمر شديد القوى عرف بالقسوة وقد خدم في روسيا في عهد الامبراطورية الأولى وجرد السلاح على مواطنيه الفرنسيين ، ولم يكن الجيش الفرنسي يميل اليه غير انه كان معروفاً بالشجاعة فلم ينكرها عليه أحد .

على انه مع شجاعته كان ذكي الفؤاد حسن التدبير شديد الصرامة في تنفيذ النظام العسكري ، وإذا غلب لا يعرف قلبه الرحمة بالمغلوب .

وكان قد احتل قرية اوجاكا في الصباح فأصدر امره باعدام اثني عشر رجلاً من اهلها اتهموا باجراء حرب المناوشات ومشاكسة الفرنسيين ، ولم يمهلهم غير يوم وليلة ، فقبض على هؤلاء المساكين وزجوا في سجن مظلم

كانت تتولى خفارته الجنود ، إلى ان تحين ساعة الاعـدام ، وهي في فجر اليوم التالي .

وكان بين هؤلاء الأسرى شيوخاً وفتياناً ، حتى انه كان بينهم غلام لا يتجاوز خمسة عشر ربيعاً جاءت أمه باكية معـولة وانطرحت على قدمي الدوق تستعطفه ابنها ، فرفسها هذا الدوق الوحشي برحله وأمر أن يكون ابنها اول المقتولين .

وكان أيضاً بين اولئك الأسرى رجل يناهز الأربعين ، صبغت أشعـة الشمس وجهه الأبيض بـلون الذهب ، فصار يشبه وجـوه العرب ، وهو يدعى مينوس .

ومن صفات هذا الرجل ان عينيه كانتا تدلان على الجرأة والميل الى الفتك وهو عصبي المزاج أنوف قليل الكلام وقد انطرح في زاوية من السجن بعيداً عن رفاقه لا يكلم أحداً وإذا كلموه لا يجيب .

وحكايته انه لم يكن من اولئك الاسبانيين الذين يدافعون عن بلادهم ، ولم يكن أعداؤه تلك الجنود الفرنسية بل كان ربيب الجبال وعدو الهيئة الاجتماعية باسرها والناس بجملتهم ، فقد كان من مشاهير زعماء اللصوص .

وكان السبب في أسره ، أنه كان يهوى فتـاة في تلك القرية ، فكان يزورها في كل ليلة ، ولم يكن أحد من رجال عصابتـه يعتدي على القرية إكراماً لها .

وكانت الفتاة قد أحبته أيضاً حباً شديداً ، ثم علمت انه أحب سواها . فأضمرت له الشر وعزمت على الفتك به ، إلى ان حـانت لها الفرصة يوم احتلال الفرنسيين لقريتها . فسقته مخدراً ممزوجـاً بالخمر ، وذهبت الى قائد الفرقة فوشت به انه من الخوارج .

فلما صحا وجد نفسه مقيد الرجلين ، مكتوف اليـدين ، في سجن مظلم وبقربه كثير من الأسرى المقيدين .

وقد علم كما علم بقية الأسرى أن موعد إعدامه عند الفجر . وكان جميع رفاقه قد ناموا في الليل واستسلموا الى الأقدار . أما هو فلم يغمض له جفن طول ذلك الليل .

وفيما هو يفكر في مصيره ، فتح باب السجن ودخل اليه جنديان فرنسيان ، وبيد أحدهما مصباح ، فأيقظ النائمين وقال لهم : من منكم يدعى مينوس ؟

فانبرى له اللص قائلاً : هو أنا ، فماذا تريد ؟

فدنا منه الجندي ففك قيد رجليه وقال له : قم واتبعنا .

فأجابه مينوس قائلاً : إلى أين ؟. العلكما تريدان شنقي قبل أن يطلع الصباح ؟

– كلا ولكننا ذاهبان بك الى قائدنا لانه يريد ان يراك .

فمشى مينوس بين الجنديين وهو موثق اليدين حتى وصلا الى حيث يقيم الدوق فنسترنج فدخل شامخ الرأس غير مكترث بما رآه من دلائل العظمة ، فنظر اليه الدوق وقال : أتريد أن أعفو عنك ؟

فانذهل مينوس وقال: إني أريد العفو دون شك ، إذ لم أقنط بعد من الحياة ولكن لماذا تريد أن تعفو عني ؟

– لأني محتاج اليك .

– قل إذن شروطك

وكان يوجد في الغرفة التي كان فيها الدوق مهد فيه طفل لا يزيد عمره عن شهر ، وهو الطفل الذي ولدته امرأته فأشار بيده الى المهد وقال لمينوس : انظر هذا الطفل ، إنني أكرهه كرها لا حد له حتى إني أريد له الموت ، ولكني لا أحب ان أقتله .

– إذاً تريد ان تعتمد علي .

– نعم ، ولكن إصغ إلي . أتعلم ما أريد منك ؟ وكيف انك تشتري

حريتك ؟ ذلك اني أريد أن تأخذ هذا الطفل إلى الجبل الذي تقيم فيـــه ، فتربيه بين رفاقك اللصوص . وتأتي كل عام الى بوسطة بايون ، وذلك في يوم عيـد الميلاد ، فتجد كتاباً باسمك يحتـوي على مئتي ليرة ، نفقـات الطفـل .

فانذهل مينوس وقال : إذن لا تريد قتله ؟

– كلا ، بل أريد ان تعلمه مهنتك وتجعله لصاً مثلك . فقد يأتي يوم يحكم عليه فيه بالشنق .

– وإذا نجا من المشنقة ؟

– إنك تأتي في كل عام الى البوسطة فتقبض النفقات التي أرسلها اليك إلى أن يبلغ هذا الطفل ٢٠ عاماً فيأتي ويجد كتاباً باسمه .

– رضيت وسأفعل ما تريد .

– أتقسم لي على الوفاء ؟

– أقسم بما تشاء

– حسنـاً ، فخذ الطفل ، وسأرسـل معك بعض الجنـود كي يخفروك الى الجبل

ثم نادى أحد الضباط فأمره بارسال مينوس والطفل مخفورين الى الجبل . وبعد ساعه برح مينوس تلك القرية وهو يحمل بيديه ذلك الطفـل الذي ولدته إمرأة الدوق دي فنسترنج وبلغ أمر اختفائه جميع أهل باريس

الفصل الثالث من كتاب الفيروزة

مر على هذه الحادثة ١٤ عاماً والغلام يربو بين عصابة مينوس .

وكان ذلك في عام ١٨٣٧ ففي أحـــد أيام فبراير من هذا العام ، كانت

مركبة بوسطة قادمة من بيون ، فوصلت في الصباح الى قرية أوجاكا التي تقدم ذكرها

وكانت سياسة البلاد قد تغيرت في هذا العهد ، فوضعت الحرب الأجنبية أوزارها ، ونابت منابها الحروب الداخلية . فانقسم الاسبانيون قسمين قسم تحزب للدون كارلوس وأراده ملكاً على الاسبان ، وقسم مال إلى تأييد الملكة ايزابيل ، ولكل من الحزبين زعيم شديد يدفع البلاد في تيار الحرب الأهلية .

ولذلك كان السفر في اسبانيا شديد الخطر على المسافرين فلما وصلت المركبة إلى أوجاكا دنا منها أحد الضباط وأزاح ستارها فوجد فيها امرأة ناحلة مصفرة يظهر انها مصدورة ، وبقربها غلام يبلغ الخامسة عشرة وعلى الاثنين دلائل النعمة والترف .

فسأل الضابط تلك السيدة عن البلدة التي تسافر اليها. فقالت له : إني أدعى المركيزة دي مورفر وهذا ولدي يدعى بعد قتل والده ، المركيز غوستاف دي مورفر (هو ذلك المركيز نفسه الذي تقدم خبر اختفائه في أول هذه الرواية) ونحن مسافران ياسيدي الى قاديس للاستشفاء بهوائها من دائي كما وصف لي الأطباء .

– إني أدعو لك بالشفاء العاجل يا سيدتي ، غير ان الطريق غير آمنة ، وسأعطيك جواراً يقيك اعتراض الجنود غير اني لا آمن عليكما مكر اللصوص في الجبال إذ لا بد لكما من اجتيازها ، ومن يمر بها لا يسلم من قبضة مينوس إلا بفدية عظيمة .

فاصفر وجه المركيزة وظهرت عليها دلائل الخوف . ورأى ولدها علائم خوفها ، فاتقدت عيناه وقال : ما بالك خائفة يا أماه وأين أنا ؟ ألا أستطيع أن أحميك ؟

فتنهدت وقالت : لا أنكر بسالتك يا بني . ولكن ما عساك ان تصنع مع

عصابة لصوص ؟

ثم استأنفت الحديث مع الضابط وقالت : من هو مينوس هذا ؟ وكيف السبيل لاتقائه ؟

— إنه يا سيدتي زعيم لصوص هائل . وقد عقد حزبنا اتفاقاً معه ، فهو لا يعتدي على جنودنا ، ونحن لا نخفر المسافرين الى الجبال التي يقيم فيها .

— وإذا وقعنا في شركه فهو يطلب فدية كما تقول .

— نعم ولكنها فدية جسيمة فهو لا يقنع بالقليل .

— وإذا عجزت عن دفعها ؟

فأطرق الرجل برأسه دون أن يجيب . وكان جندي واقفاً معه يسمع الحديث فقال : من لم يدفع الفدية يا سيدتي يقتل دون إشفاق .

فنزلت المركيزة مع ولدها من المركبة الى الفندق الذي وقفت أمامه وهي مفكرة مهمومة ، وكانت صاحبة الفندق علمت بأمرها فدنت منها وقالت لها بصوت منخفض : إنك إذا بت يا سيدتي هذه الليلة في فندقي فقد أرشدك إلى طريقة تنقذك من هذا الأخطار .

فرضيت المركيزة شاكرة وأقامت يومها في غرفتها ولم تخرج منها .

ولما أقبل المساء ، وترصعت سماء تلك القرية بالكواكب اللامعة ، تفرقت الجنود ، ولم يبق في ذلك الفندق غير صاحبته والمركيزة وابنها وبعض الخدم

وعند ذلك دخلت صاحبة الفندق الى غرفة المركيزة وقالت لها : لقد وعدتك يا سيدتي أن أسهل لك سبل الوصول إلى قاديس دون خطر ، وها أنا سأفي بوعدي .

ففرحت المركيزة وقالت . كيف ذلك ؟

— إننا في هذه القرية يا سيدتي نحب اللصوص ، فان زعيمهم مينوس لم يسيء

الينا بشيء .

وكانت صاحبة الفندق جميلة وهي في ريعان الشباب ، فأدركت المركيزة قصدها وابتسمت فقالت الفتاة : إن هؤلاء اللصوص لا يأتون الى قريتنا في النهار بل يأتون في الليل للادخار والتموين فيتغاضى الجنود عنهم لما بين الفريقين من الاتفاق .

– نعم لقد عرفت أمر هذا الاتفاق من الضباط .

– وان بيدرو يأتي كل ليلة الى هذا الفندق .

– من هو بيدرو هذا ؟

– هو نائب الزعيم مينوس في رئاسة العصـــابة وان الزعيم يحبه كما يحب الغلام برديتو .

– ومن هو برديتو ؟

– هو غلام تبناه مينوس منذ ١٤ عاماً .

فالتفت المركيز إلى أمه وقال لها باحتقار : أيكون لهؤلاء اللصوص أولاد كسائر العائلات ؟

فنظرت اليه أمـه نظرة الموبخ ، وعادت صاحبة الفنـدق إلى الحديث فقالت : لا بد أن يأتي بيـدرو هذه الليلة ، ومتى أتى طلبت اليه أن يحميكما فيفعل

– أنستطيع عند ذلك اجتياز الجبل آمنين ؟

– إذا وعد بيدرو بحمايتكما فلا خطر عليكما ، وسأحمله على أن يعد ، صبراً إن زمن حضوره قد دنا

وبعد هنيهة سمعت صاحبة الفندق وقع حوافر جواد فاحمر وجهها وقالت: هوذا قد حضر .

ثم أخذت مصباحاً ووضعته على النافذة ، إشـــارة إلى أنه يستطيع الدخول الى الفندق . فلم يمض زمن وجيز حتى فتح باب الغرفة ودخل منه

هذا اللص .

وكان هذا اللص فتى يبلغ الثلاثين من العمر ، رشيـــق القوام ، حلو الشمائل ، تدل عيناه على السلامة ، وعلى أنه لم ينخرط في سلك اللصوص إلا لأسباب أكرهته على امتهان هذه المهنة السافلة . ولما رأى المركيزة وابنها قطب حاجبيه ، ولكنه ما لبث ان أرتاح لرؤيتهما لما رأى عليهما من مخائل النبل والدعة .

أما صاحبة الفندق فإنها خرجت به من تلك الغرفة وتداولت معـــه هنيهة ، ثم عادت الى المركيزة وقالت لها : إن بيــدرو رضي يا سيدتي أن يتولى حمايتكما وأقسم لي على الوفاء بالقديس يعقوب حامي اسبانيه ، لكنه يقول انه يجب ان تسافرا الآن لان الزعيم مينوس عازم على الغارة على الضواحي عند الفجر .

– أية علاقة لغارته بسفرنا ؟

– ذلك لانك لا تستطيعين اجتياز الجبل آمنة إلا بجواز من مينوس، ويريد بيدرو أن يدركه قبل الفجر للحصول على هذا الجواز .

فوافقت المركيزة على السفر ونفحت صاحبة الفندق بمبلغ من المال جزاء إخلاصها . وبعد حين سارت المركبة بها وبولدها وهي واثقة ملء الثقة بيمين هذا اللص

الفصل الرابع من كتاب الفيروزة

وسارت بهم المركبة فكانت المركيزة وابنها جالسين في داخلها ، وبيدرو جالساً بجانب السائق .

وبينما كانت المركـبة تسير في ظلام الليل في تلك الطرق المقفرة دار بين

المركيزة وابنها الحديث الآتي ، فقال المركيز :

– إنني قد بلغت السادسة عشرة من عمري وصرت رجلاً ، اليس كذلك يا أمـاه ؟

فتنهدت والدته وقالت : نعم يا بني .

– إنك تستطيعين الآن ان تخبريني بكل شيء

فبدت عليها علائم الاضطراب وقالت ماذا تعني بهذا القول ؟

– أحب يا أماه ان أعرف .

أريد ان أعرف كيف مات أبي لاني حين كنت صغيراً وكنت أسأل يجيبوني إنه في الجيش .

– وهو كذلك يا بني ، فقد كان ضابطاً في الجيش .

– وبعد ذلك قيل لي انه قد مات .

– وهذا أكيد أيضاً .

– ولكن كيف توفي ؟

فتنهدت المركيزة وسكتت . فقال لها بلهجة احترام : بالله لا تخفي الحقيقة عني يا أماه ، فقد علمت ان أبي قتل غدراً ، وإنما أقول غـدراً لأن الأطباء وإن كانوا قرروا أنه قتل بضربة سيف ، غير أننـا لم نعثر على الشهود ولا الخصم . وأنا أنتظر يا أماه أن أعرف الحقيقة منك ، لاذك تعلمينهـا دون شك .

فتنهدت والدته أيضاً وقالت : إن دائي قد استفحل يا بني ، وأنا أعلم ان ساعات حياتي باتت معدودة وكنت أنتظر الى ان تبلغ العشرين من عمرك لأبوح لك بهذا السر ، غـير اني لا أعيش وأأسفاه الى ذلك اليوم ولا أجد بـداً من الاباحة لك بالسر .

– تكلمي يا أمـاه ، فإني لا أبلغ غـير الخامسة عشرة من عمـري ، ولكني أعد نفسي في مصاف الرجال ، ولا بأس من إطلاعي على الحقيقـة

قبل الاوان .

– اني يا غوستاف أبكي أباك منذ أربعة عشر عاماً ، وكنت أعبده عبادة مع انه كان مسيئاً إلي ، واعلم يا بني انك ولدت بعد ان مضي على زواجنا عامان ، كنا في خلالها أسعد خلق الله ، لتبادل الحب بيننا . وكنا عائشين كالحمامتين في قصرنا في مورفان ، وكنا نحسب حدائقه جنات أعدت لنا .

ثم انتهت إجازة أبيك فعاد الى منصبه في الجيش وعدت معه الى باريس . فما مر بنا ثلاثة أشهر حتى أصبحت أتعس امرأة في الوجود . ذلك ان امرأة اخرى جذبت فؤاد أبيك وحلت في قلبه مكاني .

ودام ذلك نحو عام وأنا مقيمة حول مهدك متآسية بقربك لا أراك تبتسم لي حتى أتوجع لشقاء أبيك . وكان لا يجيء الى المنزل إلا في آخر الليل ثم انقطع عنه عدة أسابيع لم أره فيها مرة .

وفيما أنا ساهرة ذات ليلة وقد ثارت هواجسي لاحتجابه ، وبزغ الفجر وأنا جالسة أبكي قرب مهدك ، سمعت طرق البـاب الخارجي فأوجست شراً ، وقلت : من عساه يجيء في هذه الساعة ؟

ثم أسرعت إلى النافذة المطلة على الباب فرأيت البواب يفتحه ثم رأيت جنوداً يتقدمهم بوليس دخلوا بعده وتلاهم أربعة رجال يحملون جثة وضعوهـا فوق محمل وكانت الجثة جثة أبيك .

وهنا لا أذكر لك ما أصابني من اليأس . فسألت البوليس عن القاتل فقال انه لا يدري . وذهبت الى الملـك وانطرحت على قدميه والتمست منـه إجراء التحقيق فأصدر أوامر مشددة ، وبحث البوليس ثلاثة أشهر فلم يهتدوا الى القاتل .

غير ان رئيس البوليس جاءني مساء يوم وقال لي : إن زوجك يا سيدتي لم يقتل غيلة بل أثر مبارزة .

— ومن كان خصمه ؟

— زوج المرأة التي كان يهواها .

فقال المركيز : لكن ألم يخبرك رئيس البوليس عن اسم هذا الرجل ؟

— كلا لانه أبى ان يخبرني لكني عرفته من سواه .

— بالله إذاً أذكريه لي

وفيما كانت تحاول إخباره إذ وقفت المركبة فجأة وأحاط بها كثيرون من لصوص الجبال وجميعهم مسلحون .

وكان هؤلاء اللصوص قسماً من عصابة مينوس ، والمكان الذي وصلت اليه المركبة محطتهم الأولى فلما عرفهم بيدرو وثب من المركبة ، وأسرع اليهم قبل ان يطلقوا نيرانهم ، فعرفهم بنفسه ، فامتثلوا له وأذنوا للمركبة بمواصلة السير . فاطمأنت المركيزة وعادت إلى حديثها فقالت لابنها ما يأتي :

— مر على مقتل أبيك يا بني خمسة أعوام ، ففيما أنا مقيمة في قصرنا في باريس ذات يوم ، جاءني خادم عجوز بيضت السنون شعره ، وقال لي : يوجد يا سيدتي امرأة على فراش الموت ، تحب ان تراك قبل وفاتها ، لامر خطير .

وتفرست في وجه الخادم فرأيت علائم السلامة تجول بين عينيه فقلت له : من تكون هذه المرأة ؟

— لا أستطيع أن أذكر لك اسمها ، وإنما تريد أن تستغفر منك قبل الموت !

— أين هي ؟

— في بيت قريب من هنا إذا شئت يا سيدتي سرت بك اليه .

وكان يتكلم بلهجة المتوسل المستعطف ، ودلائل الصدق بادية في حديثه ، فما وسعني إلا الامتثال له ، لا سيا وقد خطر لي ان هذه المرأة قد تكون هي

التي سببت قتل أبيك لأنها تقول انها تريد أن تستغفر مني . ولم يسيء إلي أحد سواها .

فأمرت الخادم ان يسير أمامي وتبعته حتى وصلنا الى ذلك المنزل ففتح بابه بمفتاح كان معه ودخل بي إلى منزل كبير سرنا به من رواق الى ردهة فانتهينا الى غرفة أدخلني اليها وانصرف

ورأيت في تلك الغرفـــة امرأة مضطجعة فوق سرير ، فكانت آثار الجمال بادية عليها ، غير أن دلائل قرب الموت كانت ظاهرة على وجهها المصفر .

فلما رأتني اتقدت عيناها كأنما قواها قد عادت اليها وقالت لي: حسناً فعلت يا سيدتي المركيزة بقدومك إلي لأني أنا هي تلك المرأة التي كان يهواها زوجك، وأنا الدوقة دي فنسترنج .

فنظرت إلى تلك المرأة التي كانت السبب في قتل أبيك نظرة شفت عما في قلبي من الاحتقار، وكأنها أدركت معنى هذه النظرة فقالت لي. رحماك لا تنظري إلي هذه النظرات ، إني على فراش الموت .

فتهيبت هذا الموقف وزالت من قلبي آثار الضغينة فمددت يدي إلى يدها وقلت لها : إني غفرت لك فموتي بسلام وعسى ان يغفر الله لك .

فاغرورقت عيناها بالدموع وقالت : أشكرك خالص الشكر يا سيدتي ، ولكني لا أموت قبل ان أطلعك على سر هائل

— تكلمي يا حضرة الدوقة إني مصغية اليك .

ثم دنوت منها لما رأيت من خفوت صوتها كي لا أحملها مشقة الكلام فقد كان صوتها خفت وتجمعت كل دقائق حياتها في عينيها .

واعترفت لي عند ذلك بكل ما حدث وقالت : إنه حين سقط المركيز قتيلاً من سيف الدوق فنسترنج ، كانت تعاني آلام الولادة في منزل استأجرته خاصة لستر زلتها . وجاءها زوجها بعد ساعتين وولدت بحضوره غلاماً هو

في الحقيقة ابن المركيز دي مورفر لا ابن زوجهـا الدوق ، فهو يا بني أخوك من أبيك .

فارتعش المركيز وقال : إذاً لي أخ ؟

فأجابته أمه : لا أعلم إذا كان لا يزال حياً او أنه بات من الأموات لأن الدوقة لم تكن تعلم حقيقة أمره قبل وفاتها لأنها عندما ولدته أغمي عليها ولما استفاقت من اغمائها لم تجد زوجها ولم تجد الطفل وقد طالما سألت زوجها الدوق عن الطفل فلم يجبها بحرف .

واتقدت عينا المركيز بأشعة الغضب وقال : أرجو على الأقل أن يكون هذا الدوق باقياً في قيد الحياة .

– دون شك ، وفوق ذلك لقد ترقى في مراتب الجنـدية حتى بلغ الى رتبة جنرال

– ليكن مارشالاً إني لا أدعوه إلا بقاتل أبي .

– هو ذاك يا بني . إن أباك قتل دون ان ينتقم له أحد .

– سأكون أنا هـذا المنتقم ، يا امـاه ، وإني أقسم لك عـلى ذلك بتربة أبي .

وفيما هو يقسم هذا القسم وقفت المركبة لإحاطة اللصوص بها في محطة ، فأسرع اليهم بيدرو وعرفهم بنفسه ، وتابعت المركبة سيرها لكنها عادت الى الوقوف بعد ربع ساعة .

وفي هذه المرة دنا من المركبة أحد هؤلاء اللصوص ففتح بابها وقال باللغة الأسبانية : من أنتم ؟

وقد انعكست أشعة مصباح المركبة على وجهه ، فلم تلبث أن رأته المركيزة حتى صاحت صيحة دهش ممتزجة بالرعب وذلك ان هذا الوجه الذي رأته كان وجه غلام في الرابعة عشر من عمره أسمر الوجه أسود الشعر براق العينين وكان يشبه ولدها المركيز شبهاً عجيباً لا يتفق إلا بين الأخوين .

وكذلك الغلام فإنه لما رأى المركيز صاح مثل تلك الصيحة لانه رأى ما رأته المركيزة من الشبه العجيب .

الفصل الخامس من كتاب الفيروزة

كان مينوس قد شاخ لتقدم الأيام به وابيض شعره ، ولكن رونق الشباب كان لا يزال جائلا بين عينيه ولا يزال لصوته الرنان لهجة السيادة لانه يتولى منذ ٢٠ عاماً السيادة المطلقة على الجبل .

فكان الاسبانيون بجملتهم يخافونه ، حتى قواد الأحزاب . فكان كل منهم يخطب وده كي يضمه اليه ويستمين بعصاباته على خصمه ، فتردد مدة طويلة في الأمر ، ثم قرر ان يكون مستقلاً .

ومن أقواله المأثورة في هذا المعنى ان الملوك لا يستحقون أن نقاتل لأجلهم وان مهنة نهب المسافرين أشرف من مهنة القتال من أجل الملوك . فبقي لصاً مع افتخاره بان الملوك تكاتبه وتسترضيه .

وكان في جباله يشبه الملوك في عواصمهم ، إذ كان له بلاط وحاشية وأعوان .

وكان في عهد شبابه كثير الشغف بالنساء وله في كل قرية حظية . وقد اتفق مرة ان عصابته عثرت بستة من البدو وأربع نساء من البدويات بينهن فتاة في الرابعة عشرة من عمرها وفتاة في العاشرة فقتل الرجال السته وتزوج إحدى المرأتين على الطريقة النورية وهي كسر الابريق وأمر رجاله أن يقترعوا على المرأة الثانية .

أما الفتاتان فإنه أنعم بواحدة منهما على نائبه بيدرو فأبى قبولها مدعياً انه مولع بحب سواها فاتخذها الزعيم لنفسه وأدخل في ذلك الجبل مبدأ تعدد

الزوجات . أما الفتاة الصغيرة التي عمرها ١٠ أعوام فإنه جعلها خطيبة لبرديتو. ولنذكر الآن من هو برديتو .

يذكر القراء تلك الليلة التي كان فيها مينوس سجيناً في قرية أجاكا يتوقع تنفيذ إعدامه عند الفجر وكيف ان جنديين أتيا به الى الدوق دي فنسترنج فأعطاه طفلاً وعهد اليه ان يربيه مقابل إنقاذه من الاعدام .

وكان برديتو ذلك الطفل فتبناه مينوس وكان يذهب في عيد الميلاد من كل عام الى بوسطة بايون فيجد كتاباً باسمه وفي طي الكتاب نفقة هذا الغلام التي كان يرسلها الدوق .

وقد وفى الدوق بما وعده به من إرسال النفقة وكذلك مينوس فقد أبر بيمينه وربى الغلام كما أراد الدوق فقد قال له حين دفعه اليه : أريد ان تجعله لصاً مثلك فجعله كما أراد ولم يخل بشيء من الوصية .

وافضى الأمر بمينوس انه بات يحب برديتو كإبنه ، وعلمه جميع أسرار مهنته باخلاص ، فشب الغلام على القسوة والجرأة ، وما بلغ الـ ١٤ من سنيه حتى فاق معلمه

وكان حين يقضي مينوس بقتل اسير لم يدفع الفدية ، يبادر برديتو الى مينوس ويلتمس منه ان يأذن له بقتله ، إذ كان يجد لذة عظيمة بسفك الدماء .

وكانت تلك الفتاة النورية التي جعلها مينوس خطيبة لبرديتو فتاة متوقدة الذهن بارعة الجمال تدعى روميا وكانت معجبة بخطيبها كل الاعجاب حتى أنها كانت تصحبه في غزواته ، وتبدي من دلائل التفنن والدهاء على حداثة سنها ما يدل على انها خليقة بهذا اللص وأنه اهل لها . فكان مينوس يحب الخطيبين حباً مفرطاً لاعتقاده انهما زرع يده وانهما يدعيان الى المباهاة .

وكثيراً ما كان يتفق ان مينوس يضطجع في ظل شجرة فتجلس روميا

عند قدميه وتنشد له أناشيد البدويات حتى ينام متلذذاً بصوتها الرخيم .

لذلك كان برديتو وروميا الوحيدين بين اهل العصابة الحائزين على ثقة الزعيم وحنوه فكانا يدلان عليه كل الادلال ويحكمان في ذلك الجبل كما يريدان دون ان يرد لهما حكم

ففي تلك الليلة التي كانت فيها المركيزة تجتاز الجبال مع ولدها في مركبة بحماية بيدرو كان مينوس جالساً بظل شجرة يمد خطة غزو ضيعة مجاورة ، وأسر شيخها طمعاً بثروته . فاختار من رجال العصابة من يصلح لهذه الغزوة وأمر نائبه بيدرو الذي كان يذهب كل ليلة الى ضيعة اجا كما ان يعود قبل الصباح .

وقبل الصباح كان مينوس قد صحا من رقاده وجعل ينتظر عودة بيدرو فجاءه برديتو وهو تام العدة والسلاح فقال له مينوس : لماذا تأهبت هذا التأهب الملك تريد ان ترافق الغزاة ؟

وكانت روميا واقفة بجانبه فقالت : وانا أذهب معه .

فحاول مينوس ان يمنعها قائلاً : إنه قد تحدث معارك اخاف عليك فيها إذ لا بد من تبادل إطلاق الرصاص .

فاتقدت عيناها وقالت . إنه مشهد جميل وهذا جل ما اتمنى ان اراه .

وقال برديتو : الا تصحب اللبوة الأسد يا ابي في طلب القنص ؟

– إذاً إذهبا يا ولدي وكونا حذرين .

فذهب الاثنان وبعد ذلك بربع ساعة عادت روميا وحدها الى مينوس ، وكانت عيناها متقدتين بلهب وشعرها منبوش تعبث به الرياح وعليها علائم الهياج الشديد .

فاضطرب مينوس عندما شاهدها ، وقال لها : ما هذا الهياج ؟ ولماذا عدت وحدك ؟

– إن برديتو وبيدرو يتخاصمان .

– لماذا ؟

– لأن بيدرو يريد حماية امرأة وغلام عثرنا بهما في مركبة وان برديتو يريد قتل أحدهما فيمنعه بيدرو .

– لماذا يريد قتله العله لم يدفع الفدية ؟

– كلا انه لا يريد قتله لهذا السبب . .

– إذاً لماذا يريد قتله ؟

– لأن الغلام المسافر يشبهه شبهاً عجيباً . . ثم قـــالت بكبرياء : ويحق لبرديتو أن لا يشبهه أحد من الرجال

فارتعش مينوس لذكر هذه المشابهة وقال : هلمي معي إلى محل الحادثة فاني أريد أن التحقق بنفسي

الفصل السادس من كتاب الفيروزة

لما وصل مينوس إلى حيث كانت المركبة دهش دهشاً عظيماً لـــا رآه من التشابه بين المركيز وبين برديتو ولم يشكك أنهما أخوان .

وقد رأى الاثنان ينظر كل منهما إلى الآخر نظرات العداء والحقد ويحاول الهجوم على خصمه لو لم يكن بيدرو حائلاً بينهما يمنع الخصام والمركيزة واقفة تضطرب اضطراب الريشة في مهب الريح ، وهي لا تدري ما يكون .

وكان برديتو يقول للمركيز : بأي حق أيها الكلب الفرنسي تشبهني ؟

فيقول المركيز: لا أعلم أي اتفاق سيء جعل بيننا هذا الشبه ولكني أمنعك أن تمد يدك الي . .

ولم يكن للمركيز سلاح غير نظراته ولكن هذه النظرات الدالة على الغضب والاحتقار كانت تهيج برديتو كل الهياج ولولا بيدرو لأطلق عليه النار .

وكانت المركيزة تتوسل إلى ابنها أن يعود إلى المركبة فيجيبها بيدرو

ويقول لا تخشي يا سيدتي فقد وعدتكما بالسلامة ووعدي مقدس لا ينكس .

وعند ذلك دخل مينوس بين اللصوص وقال . ما بالكم وماذا جرى ؟

وابتعد اللصوص حين سمعوا صوت زعيمهم بملء الاحترام حتى أن برديتو نفسه انقطع عن انذار المركيز .

فتقدم بيدرو وقال إني وجدت يا حضرة الزعيم في قرية أجاكا هذه السيدة وابنها وهي مريضة كما تراها ، وقد وصف لها الأطباء الذهاب إلى قاديس استشفاء بهوائهـا ، وقد أخذت جوازاً من زعيم حزب دون كارلوس ومن زعيم حزب الملكة اليزابيث غير انها لا تستطيع اجتياز الجبال إلا باذن منك .

فقال مينوس العلك توليت حمايتها ؟

– نعم ..

– أتعهدت لها بحمايتها ؟

– نعم يا حضرة الرئيس وأقسمت لها

فنظر الزعيم إلى برديتو نظرة تأنيب وقال يجب احترام العهود يا ابني .

فتراجع برديتو منخذلاً صاغراً ولكنه التفت بعد أن تراجع بضع خطوات وتهدد المركيز بنظرات هائلة فأجابه المركيز بنظرة احتقار .

أما مينوس فانه دنا من المركيزة وقال لها اطمئني يا سيدتي فان نائبي قد تعهد بحمايتك وستخرجين من هذا الجبل آمنة كما دخلت اليه .

فانحنت المركيزة شاكرة وعاد مينوس إلى التأمل بالمركيز فقـالت له المركيزة : أراك تعجب نفس اعجابي لما تراه من الشبه بين الغلامين فهل هـذا الغلام ولدك ؟

– كلا ..

– من أين أتى إليكم وكيف اتفق وجوده بينكم !

– ذلك سر لا سيدتي لا أستطيع الاباحة به وقد تعهدت بكتمانه للرجـل الذي عهد الي بهذا الغلام .

- لا أحاول اكتشاف أسرارك يا سيدي ولكني التمس منك أن تخبرني في أي عهد دفع اليك هذا الغلام .

- منذ أربعة عشر عاماً وكان طفلاً في المهد .

فذكرت المركيزة ما قالته لها الدوقة دي فنسترنج وقالت : لقد عرفت الحقيقة الآن فان الرجل الذي دفع اليك الغلام هو فرنسي يدعى الدوق دي فنسترنج وهو برتبة كولونيل في الجيش .

- يسوؤني يا سيدتي اني لا أستطيع أن أبوح بشيء .

فقالت له بلهجة المتوسل : بقيت لي كلمة واحدة عن هذا الغلام أرجو أن تأذن لي بقولها .

- العله ابنك ..

- كلا ، بل هو ابن زوجي ، وقد خلفت له أمه ثروة عظيمة في فرنسا فاذا رضي ان يسير معي إلى فرنسا لاستلام تلك الثروة أتعترضه ؟

فارتعش زعيم اللصوص وامتعض لون وجهه وبات فريسة الاضطراب الشديد ، فانه كان يحب برديتو حب الآباء للأبناء ، ولكنه تغلبت عليه عوامل المروءة فقال : كلا يا سيدتي ، لا أعترضه وأذن له بالذهاب معك إذا شاء .

بعد ذلك بساعتين أمر مينوس أن يعدوا مركبة المركيزة وابنها وأمر بيدرو أن يخفرها مع عشرة من أعوانه إلى آخر الجبل ، وجعلت المركيزة تكلم برديتو بواسطة مينوس فقالت له : اني أعرف اهلك فاذا رضيت ان تسير معي إلى فرنسا تغدو من النبلاء الأغنياء .

فنظر اليها باحتقار وقال : لماذا تريدين أن أسير معك ؟

- لأني كنت صديقة لأبيك ..

- ليس لي أب غير مينوس .

فقالت له بلطف : إني عرفت أمك يا بني .

فهز كتفيه وقال : ولكنك لست أمي في كل حـال لأن الانسان لا يكره أمه وأشعر اني أكرهك وأكره ابنك أشد الكره .

ثم نظر إلى المركيز نظرة حقد فأجابه المركيز بمثلها وكأن كليهما كان يقول للآخر : سوف نلتقي .

ولما رأت المركيزة أن لا رجاء لها بحمله على السفر أمرت المركبـة بالمسير وانطلقت تجري بخفارة بيدرو .

الفصل السابع من كتاب الفيروزة

بعد خمسة أعوام على هذه الحوادث التي بسطناها كان شاب وصبية يظهر من ملابسهما انهما من الأسبان يدخلان مدينة بايون في يوم من أيام الصيف الشديد الحر وطافا في شوارعها حتى انتهيا إلى مطعم فدخلا اليه .

كان الشاب في الثانية والعشرين من عمره ، والفتاة في السابعـة عشرة ، وكلاهما جميل الوجه ، غير ان جمالهما كان مختلفاً ، فكانا يستلفتان اليهـما أنظار الناس .

وكان الفتى طويل القامة أبيض الوجـه اسود الشعر ، براق العينـين تدل عيناه على القسوة والشراسة ، على انه بالرغم عن ملابسه الدالة على الفقر المدقع فانه كان يمشي مشية المعجب بنفسه المحتقر لأبناء جنسه كأنما كل ما في الوجود تحت مطلق سلطانه .

وكانت الفتاة تسير متوكئة على ذراعه وهي شقراء الشعر يتدفق النور من محياها وقد لوحت الشمس وجهها فصبغته بأشعتها الذهبية ، ولها عينان سوداوان تنفثان السحر وتبسطان نفوذهما في كل قلب وهي ربعة القوام عصبية المزاج أحسن ما فيها ان كل ما فيها حسن .

وكان الناس ينظرون اليها معجبين بهذا الجمال فينظر اليهم الفتى نظرات وحشية كأنه يخشى عليها العين من تلك العيون .

وجلس معها حول مائدة في ذلك المطعم وجاءهما الخادم ليسألهما ما يأكلان فقال الفتى : خبز وجبن وخمر . وقد قال هذا القول بلهجة المباهـــاة كأنه طلب أثمن مأكولات المطعم ، وامتثل الخادم وأحضر لهما ما طلبا

وجلسا يأكلان ويتحادثان فقال الفتى : يا روميا أرى هؤلاء الناس كثيرو الفضول فلنتحدث بلغة النور التي علمتني إياها أيام الحداثة .

-- ليكن ما تريد يا برديتو فـاني بعد موت مينوس لم اعـد احب سواك فأنت حبيبي وسيدي

فتنهد برديتو متأسفاً على زعيمه وقال لقد سلبتنا إياه الأقدار وكنت أرجو ان يكون معنا في هذه المدينة .

فقالت الفتاة : ليست يد الأقدار التي سلبتنا إياه بل يد الخيانة فانه كان يثق بجواني كل الثقة ، فخانه وباح بسر قدومنا إلى الجيش الملكي .

– لقد صدقت وان نجاتنا نحن كانت من العجائب .

-- هو ذاك فان رجال عصابتنا ابيدوا بين قتيل واسير ، اتظن انهم شنقوا مينوس ؟

– دون شك فانه حاول ان يقتل نفسه ولكنهم طوقوه وأعدموه شنقاً.

– ان بيدرو كان أشد منه حظاً فانه قتل في ساحة المعركة .

فقاطعها برديتو وقال لها بعنف : لا تذكري لي اسم هذا الرجل .

– العلك لا تزال حاقداً عليه ؟

– دون شك إذ لولاه لما منعني مينوس عن قتل ذلك المركـيز الفرنسي الذي يشبهني .

– تريد به أخاك ؟

- لا اعلم إذا كان اخي ، ولكن الذي اعلمه اني إذا لقيتـه في أي مكان

قتلته لا محالة ..

— أعلمت السبب الذي يدعوك إلى هذا الحقد عليه والسعي لقتله؟

— كلا ولكني اشعر اني اكرهه كرهاً لا حد له حتى اني قد التذ بمص عروقه وشرب دمائه .

— إذاً فسأكرهه انا ايضاً نفس الكره واتمنى له الموت

— بل لا بد لي من قتله متى ظفرت به فان حياته قد طالت .

— ارى هذا الكره دليلاً على انكما اخوان .

— قلت لك لا اعلم ولكني سأعلم هذه الحقيقة بعد ساعة .

فانذهلت روميا وقالت . كيف ذلك ؟

— إصغي الي ، فانه منذ عشرين عاماً ، اي منذ ولادتي كان يحضر مينوس في كل عام مرة إلى بابون فيأخذ كتاباً يحتوي على مبلغ كبير من المال لنفقاتي ، ولأجل هذا اتيت بك إلى هنا مشياً على الأقدام كي استعلم عن امر هذا الكتاب

— ايعطونك الكتاب ؟

— دون شك فانه سيكون هذه المرة معنوناً باسمي

— كيف علمت ذلك ؟

— من مينوس ، فان الرجل الذي دفعني اليه في عهد طفوليتي قال له : سأرسل لك نفقاته باسمك عشرين عاماً وبعد ذلك ارسل اليه كتاباً باسمه يتضمن تعليماتي .

— اتظن ان الكتاب يحتوي على المال حسب العادة ؟

— هذا ما ارجحه ، لكن اهتمامي بهذا الكتاب ليس من اجل المال ، بل لأني ارجو ان اقف منه على اسرار مولدي ، بل ارجو ان تصدر لي الأوامر فيه بالتفتيش على ذلك الفرنسي الذي يشبهني واقتله .

— إذاً هلم بنا إلى البوستة .

ونادى برديتو الخادم فدفع له ثمن الطعام وانصرف مع روميا وهو يقول لها : هذا آخر فلس بقي لدي .

وخرجا من المطعم تشيعهما الأبصار .

ووصل الاثنان إلى البوسطة فلقيا موزع البريد جالساً قرب شباكه يطالع جريدة فنظر إلى برديتو بازدراء وقال له : ماذا تريد ؟

– اني ادعى برديتو ابن مينوس ولا بد ان يكون لديك كتاب باسمي فاني جئت اطلبه .

– الديك اوراق تثبت انك صاحب هذا الاسم .

– كلا .

– إذهب من حيث اتيت إلى ان يتيسر لك الحصول على هذه الأوراق .

ثم عاد إلى مطالعة الجريدة دون ان يكترث له ، فتداخلت عنـد ذلك روميا في امره وقالت للموزع وهي تبتسم خير ابتسام : اننا لا نعرف احداً يا سيدي في هذا البلد وقد جئنا من محل بعيد وكابدنا كثـيراً من المشاق فلا سبيل لنا الى الرجوع

فلما رأى الموظف ذلك الجمال الفتان رق فؤاده وعاد إلى برديتو وقال له · اعد ذكر اسمك .

فذكر له اسمه ، فأخرج الموظف غلافاً ضخماً واعطاه إياه فشكرته الفتاة وخرجت بخطيبها .

وخرج الاثنان الى الشارع فذهبا إلى منعطف مقفر وفتح برديتو الكتاب فتناثرت منه اوراق التقطتها روميا وفرحت بها فرحاً لا يوصف إذ وجدت انها اوراق مالية .

إما برديتو فانه اخرج الكتاب من الغلاف وقرأ ما يأتي :

(ان الغلام الذي تبناه اللص مينوس إذا وصل اليه هذا الكتـاب يجب عليه ان يخلع ملابسه الاسبانية ويتزيا بزي الفرنسيين ثم يذهب إلى فندق تولوز

فيستأجر خير غرفة فيه .

وفي طي الكتاب، كتاب آخر مختوم فاذا لم يحضر اليه أحد بعد ثمانية أيام فليفتح الكتاب الثاني ويطلع على ما فيه) .

وكان الكتاب خالياً من التوقيع ، لما قرأه أمام روميا قال لها : ماذا تشيرين عليّ أن أفعل ؟

ـ أرى انه يجب ان تمتثل لما جاء في هذا الكتاب .

فوافقها برديتو على ذلك وذهب الأثنان إلى أشهر محلات بيع الملابس فاشتريا أفضلها وخلعا ثيابهما الرثة ثم انطلقا بذلك الزي الجديد إلى الفندق الذي ذكر لهما في الكتاب فنزلا فيه وجعلا كل يوم يخرجان إلى النزهة بأجمل المركبات فتحوم عليهما الأبصار كالنطاق .

إلى أن قال برديتو لروميا في ليلة : لقد حان لنا أن نفتح هذا الكتاب ونرى ما فيه .

ـ كلا ، إذ لم يبق لنا في هذا الفندق غير ثمانيـة أيام وموعد فتحه غداً ، فلنصبر إلى الغد .

وقبل أن تتم كلامها دق باب الغرفة التي كانت فيها مع برديتو فقام برديتو إلى الباب ففتحه فظهر له رجل طويل القامة وخط الشيب رأسه وقد وضع في عروة سترته زراً أحمر إشارة إلى انه من اصحاب الرتب فدخل إلى الغرفة وقال لبرديتو أنا هو ذلك الرجل الذي تنتظره .

الفصل الثامن من كتاب الفيروزة

لندع هذا الرجل يتباحث مع برديتو وروميا في فندق تولوز في بايون ، ولنعد الى باريس فنقول :

كانت المركيزة دي مورفر قد توفيت مصدورة لم يجدها نفعاً هواء قاديس وكان ابنها المركيز دي مورفر قد بلغ الحادية والعشرين من عمره .

وكان غنياً جداً تقضي عليه تلك الثروة والحرية بالجري في مضمار الشباب غير انه لم يكترث بملاهي الصبى ولم يغتنم اللذات بل كان دائم الهم كثير التفكير لأنه كان أقسم على أن ينتقم من قاتل ابيه ، لم يتيسر له البر باليمين ولبث الدوق فنسترنج في قيد الحياة تكتنفه المهابة والاحترام .

ولم يكن ذلك جبناً من المركيز فقد كان مشهوداً له بالبسالة غير ان السبب في ذلك انه يوم وفاة امه لم يكن قد بلغ بعد سن الرشاد فذهب الى منزل الدوق وكان يعيش في الشانزليزه عيشة العزلة فلقيه وقال له لقد دفنت يا سيدي أمي التي ما قتلها غير الحزن على أبي الذي قتلته أعلمت السبب في قدومي اليك ؟

- نعم فانك تريد الأنتقام لأبيك ومعرفة السبب في قتله .

- دون شك .

- ان طلبك حق لا سبيل الى مراجعتك فيه غير اني اسألك الأذن بابداء ملاحظة بسيطة وهي انك لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرك بعد .

- وماذا يهمك عمري ؟

- يهمني إذ لا يحق لي أن أبارزك قبل سن البلوغ ، فاذهب وعد إلي بعد خمسة أعوام تجدني طوعاً لأمرك .

فعلم المركيز أن الدوق مصيب في اعتراضه فتركه وانصرف .

وبعد خمسة أعوام أي في اليوم الذي جاء فيه برديتو وروميا الى بايون بلغ المركيز سن الرشد فدفع اليه الوصي أمواله وسلمه حساباته ووصية أمه ففتح الوصية وقرأ فيها ما يأتي .

(اكتب يا بني هذه السطور من قاديس فلا تقرأها إلا حين بلوغك سن الرشد أي حين يكون الموت اقصاني عنك وحكم علينا بفراق الأبد .

واني أطلعتك على كل شيء حين اجتيازنا الجبل ولكني أخبرتك عن مقابلتي

مع الدوقة دي فنسترنج وهي على فراش الموت ، واعلم الآن بقيـة حديث هذه الدوقة :

أنها اعطتني قبل وفاتها اوراقاً مالية أودعتها باسمك عند وكيل أعمالك وقالت ان الولدالذي سلبني إياه الدوق دي فنسترنج هو ابن زوجك المركيز أرمان دي مورفر فاقسمي لي باسم هذا المركيز الذي أحببناه كلانا وبكيناه انك تفعلين كل ما أطلبه اليك .

فلما اقسمت لها قالت لي اني بعت جميع ما لدي وحولت ثروتي إلى هذه الأوراق المالية التي اعطيتك إياها وهذه الأوراق تبلغ قيمتها ثلاثة ملايين فرنك وهي لابني ، فأسألك ان تبحثي عنه فاذا وجدته فادفعي اليه هذا المال وإذا وثقت من موته فان هذه الأموال ترجع اليك وتكون ملكاً حلالاً لك ولابنك من بعدك

إذاً فاعلم يا بني بأنك رأيت كما رأيت انا ذلك اللص الذي عهد بتربيته إلى مينوس وهو ابن الدوقة وابن أبيك ، فمتى فتحت كتابي هذا فابحث عنه جهدك وادفع اليه هذه الأموال وإذا وثقت من موته فاحفظ الأموال لنفسك) .

هذا هو الكتاب الذي كتبته المركيزة قبل وفاتها ، فلما اطلع عليه المركيز قبله باحترام وقال : سأصدع بأمرك يا أماه ولكني قبل ذلك يجب أن انتقم لأبي .

ثم وضع الكتاب في محفظة بين أوراقه وخرج من منزله إلى منزل الدوق دي فنسترنج فسأل البواب عنه فقال : انه مسافر .

- إلى أين ؟
- لا أعلم .
- متى يعود ؟
- بعد شهر ..

– حسناً ، سأنتظر عودته .

وعاد من حيث أتى . .

وفي المساء ذهب إلى النادي وجعل يطالع الجرائد فـاستلفت نظره المقطع الآتي وهو :

(تمكنت الحكومة بعد الجهد من القبض على مينوس زعيم اللصوص الشهير وجميع عصابته فقتل بعضهم بالبنادق وقتل الآخرون شنقاً بحيث لم يبق أحـد من أولئك اللصوص واستراح الناس من شر تلك العصابات التي تعيث فساداً في جبال اسبانيا منذ ٢٠ عاماً) .

فأيقن المركيز ان برديتو قد هلك مع رجال العصابة وقال: إذاً قد أصبحت تلك الملايين لي .

الفصل التاسع من كتاب الفيروزة

ولنعد الآن إلى برديتو الذي غادرناه مع روميا والدوق دي فنســترنج في فندق طولون ، فانه حينما دخل عليهما هذا الرجل الأشيب وقـال لبرديتو : أنا هو الرجل الذي تنتظره .

حاولت روميا تأدباً أن تخرج من الغرفة كي تخلي لهما المكان فمنعها الدوق وقال لها : ابقي بيننا يا ابنتي فانك الفتاة التي طالما كنت أبحث عن مثلهـا كي تكون عوناً لهذا الصديق العزيز فاجلسي بيننا واسمعي حديثنا .

وكان يقول هذا القول بلهجة الساخر وهو يبتسم ابتسام الأبالسة وينظر إلى برديتو نظرات كهربته فلم يستطع مقاومته على الرغم مـا عرف به من الجسارة .

ثم جلس بجانب روميا وأخذ يدها بين يديه وقال لها . إن جمالك فتان

تستطيعين أن تغوي به كل قلب

فاضطرب برديتو ونظر اليه نظرة وحشية فقال . لا تقل لها مثل هذه الأقوال .

فأجابه بلهجة الساخر : لماذا يا بني ؟

– لأنها إذا خانتني فلا يكون جزاؤها غير القتل .

– لقد أحسنت ولكننا لا نريد الآن البحث في هذه المواضيع .

– إذاً ماذا تريد ؟

– لقد قلت لك اني أنا الرجل الذي تنتظره .

– ولكني لم أعلم من هذا القول من أنت .

– أنا الرجل الذي عهد بك إلى مينوس منذ ٣٠ عاماً .

– إذاً انت المركيز دي مورفر ؟

كلا . .

– لقد حسبت انك أبي .

– كلا لم يكن لي هذا الشرف

– إذاً لماذا عهدت بي إلى مينوس وكنت تدفع نفقاتي في كل عام !

– هذا سري .

– إذا كنت تكتم عني هذا السر فلماذا أردت أن تراني ؟

فارتعش الشيخ وقال لقد كانت تمر بي ساعات ارتاب فيها بفساد أخلاقك فلقد كنت أقتفي آثارك منذ ولدت إلى اليوم وعلمت من نفسك فوق ما تعلمه منها إلى أن بلغت العشرين من سنيك وصرت من مشاهير اللصوص والسفاكين حتى أوشكت أن تقتل أخاك .

– إذاً انت تعرف اني ابن المركيز دي مورفر ؟

دون شك .

– أي أخو ذلك الفتى الذي يشبهني كل الشبه ؟

– هي الحقيقة بعينها ..

فقال له برديتو بلهجة وحشية ارتعش لها الدوق : اني إذا لم أقتله فليس الذنب ذنبي ، ولولا مينوس لما كان الآن في عداد الأحياء .

– أكنت تكرهه إلى هذا الحد ؟

– بل وددت لو شربت دمه

– ألا تزال تكرهه الآن ؟

– لا أزال على كرهه ما زال بين جنبي قلب ينبض.

– ولكن هذا الفتى لم يسيء اليك بشيء .

– إني رأيته مرة فأثار الحقد في نفسي عليه والبغض مثل الحب قد يكون من أول نظرة .

– اذاً لو علمت أن هذا الفتى قد اختلس ثروتك فماذا كنت تصنع؟

– هو سرقني ؟

– دون شك وقد اختلس منك ثروة عظيمة تقدر بالملايين .

ففتح برديتو سترتهفظهر من تحتها قبضة خنجر هائل وقال: إني اذا التقيت به أغمدت هذا الخنجر في قلبه .

فابتسم الدوق وقال : اني لا أمنعك عن قتله غير ان الوقت لم يحن بعد .

– ماذا تريد بهذا القول ؟

– أريد انك محتاج الآن إلى إتمام تربيتك .

– كيف ذلك ؟

– لأن طعنة الخنجر لا يقدم عليها غير العوام فإنها تقتل الخصم بلحظة فتريحه ، وما هكذا يكون الانتقام .

– وكيف تريد أن اقتله ؟

– أريد ان تميت المركيز دي مورفر . لكن بعد نزع طويل هائل ترتعد لذكره الفرائص .

– يبدو انك تكرهه مثلي ..

-- بل إن كرهي له فوق كل حد .

– ولما هذا الكره ؟

– لأنه ابن الرجل الذي ثلم عرضي ودنس شرفي .

– إذاً قد عرفت من أنت فإنك زوج أمي .

– هو ما تقول ..

فنظر اليه برديتو نظرة مستطيلة وقال : أرى اننا خلقنا لنتفق

– لأني لم اقتصد في تربيتك يا ولدي العزيز . أريد بعد أن أفسدت نفسك وجعلتك من أفظع اللصوص أن أنير فكرك وأهذب عقلك فـــانك الآن لص جاهل ، وأنا أريد أن تكون ممتازاً على أقرانك في كل شيء .

– وبعد ذلك ؟

– بعدها أخبرك بذلك الانتقام الرهيب الذي أعددته لأخيك المركيز دي مورفر .

ثم أخذ الدوق يد روميا وقال لها وأما أنت أيتها الحسناء فاني اريد أن تكوني بين العالم مثال الهول فتلقي الذعر في القلوب وتزرعين الابتسام فتجني الجثث فانك خير امرأة صالحة لالقاء المفاسد والشرور فاستعدي للسفر فاننـــا مسافرون غداً جميعنا .

– إلى أين .

– إننا سنطوف اوروبا واني قد تبنيتكما منذ اليوم فأنتما ولدي .

وفي اليوم التالي برح الدوق دي فنسترنج وبرديتو وروميا مدينة بايون إلى ايطاليا .



لما وصلت فاندا ومرميس إلى هذا الحد من كتاب الفيروزة توقف مرميس

هنيهة عن القراءة ونظر إلى الساعة وقال : لقد بلغت الساعة الأولى بعد الظهر ولم يعد ميلون بعد وأظنه باقياً في موقفه يراقب البستانية الحسناء .

وجعلت فاندا تقلب صفحات الكتاب وتقول : إننا لم نعلم أمراً جوهرياً مما طالعناه إلى الآن .

فقال لها مرميس : لقد أخطأت فاني علمت منه أمراً خطيراً وهو أن البستانية الحسناء هي نفس روميا

- وأنا أرى رأيك

- إذاً لنتم قراءة الكتاب

قالت فاندا : أظن ان الأولى بنا أن نعلم ما فعل ميلون في مراقبته البستانية الحسناء .

- اني واثق من أنه لا يزال في موقفه .

- إذاً عد إلى القراءة .

فأخذ مرميس الدفتر وقرأ ما يأتي .

الفصل العاشر من كتاب الفيروزة

وبينما كان الدوق دي فنسترنج مسافر إلى إيطاليا مع برديتو وروميا ، كان المركيز دي مورفر ينتظر بصبر عودة قاتل أبيه ولكن الوقت الذي عينه الخادم لعودته انقضى دون أن يعود الدوق ثم مضى شهر وتلاه آخر الى ان مضى عام ولم يعد .

وكان المركيز قد أفرغ جهده في سبيل البحث عن عدوه فلم يعلم مكانه .

ثم أشيع في باريس ان هذا الدوق قد مات ولكن هذه الاشاعة لم تثبت ، فلم يعول عليها المركيز الى ان ورد الى باريس جريدة اسمها اوريان اي الشرق

وهي جريدة عثمانية فقرأ فيها الباريسيون ما يأتي :

خرجت الباخرة مركيز من ميناء كندا أمس مستظلةبالراية العثمانية وثارت عاصفة شديدة أغرقتها بمن كان فيها على مسافة ١٠ أميال من الشاطىء .

وقد حدثت هذه الفاجعة في الليل وكان الضباب كثيفاً فمرت بها باخرة حين غرقها وحاولت انقاذ ركابها فلم تستطع فغرق جميع البحارة والركاب وكان فيهم كثير من أهل الوجاهة والشهرة بينهم الجنرال الفرنسي الدوق دي فنسترنج الذي كان مسافراً إلى ازمير لأسباب صحية ولا شك أن فقـــد هذا الجنرال سيكون له دوي شديد في فرنسا فقد كان من مشاهير رجال الجيش .

ولما اطلع المركيز دي مورفر على هذا النبأ تنفس الصعداء وقال لقد عاقبه الله عني فالحمد لله .

وصفا باله بعد ذلك وجعل يعيش عيشة هادئة مطمئنة وهو واسع الثروة بما خلفه له أبوه وقد زاد ماله بثروة برديتو لاعتقاده ان هذا اللص قد شنق فضم ماله إلى أمواله .

وقد بدأ بالتجول والسياحة فساح نحو أربعة أعوام في جميع أنحاء الأرض ثم عاد الى باريس وعاش عيشة راضية لا تكدرها الهموم ، ولا تعكر صفوها الحوادث ، الى ان بلغ الثامنة والعشرين من عمره فنفذت إلى قلبه أشعة الغرام وغيرت عيشه كل التغيير .

وحكاية غرامه انه كان عائداً في احدى الليالي من النادي إلى منزله فلمـا وصل الى الشانزليزه سمع صوت امرأة تستغيث وهي في مركبة قريبة منه كان يراها على ضوء القمر فأسرع ورأى رجلين واقفين عند بابها يحاولان ارغام المرأة على النزول منها .

وكان السائق قد اركن الى الفرار لأنهما تهدداه بالقتل وكانت المرأة تصيح مستغيثة منهما وقد ملأ الخوف قلبها .

ولم يكن لدى المركيز من السلاح غير عصا في داخلها حربة فجردها من

غمدها وهجم بها على الرجلين فدافعا في البدء وطعنه أحدهما بخنجر فخدش كتفه خدشاً صغيراً ثم تركاه مع المرأة وهربا .

فلما آمن المركيز كيدهما أقبل على هذه المرأة فرآها تضطرب اضطراباً عظيماً وقد بللت دموعها ثيابها .

وكانت صبية بارعة في الجمال وقد زادها الخوف والبكاء جمالاً فقالت له بصوت حنون : اشكرك يا سيدي الف شكر فقد انقذتني من مخالب الموت ولولاك لما أبقى علي هذان الرجلان

– ماذا كانا يبغيان منك يا سيدتي العلهما يريدون سرقة ما عليك من الحلى .

فهزت رأسها وقالت : كلا فان احدهما زوجي الثاني أخي

- لا بأس عليك اني سأتولى حمايتك فهلمي معي نذهب سيراً على الأقدام ، فان سائق المركبة سيعود اليها .

فامتثلت وتأبطت ذراعه فسار وإياها

أما هذه المرأة فانها ابنة تاجر في انفرس وقد تزوجت جوهرياً هولاندياً فسلب الزوج مهرها بعد أن عاملها اسوأ معاملة ثم تخلى عنها .

وكان لها اخ طلبت اليه ان يحميها فجاءها الى باريس لأن زوجها كان فيها وكانت لا تزال تحبه فاعتقدت ان اخاها سيصلح بينهما .

غير ان أخاها كان فاسد الأخلاق فاتفق مع زوجها على قتلها لاتهامها بالخيانة ، ودس لها السم في الطعام فلم تمت إلى ان لقيها هذه الليلة في الشانزليزه فجاهر بقصده وحاول قتلها وكاد يقتلها لو لم ينقذها المركيز .

هذه هي حكايتها التي قصتها عليه فصدقها ورأى انه لم يعد له بد من حمايتها فعرضها عليها فقبلتها شاكرة وأتت معه الى منزله ٠

الفصل الحادي عشر من كتاب الفيروزة

وأحبها المركيز حباً عظيماً وأحبته فاستأجر لها منزلاً معتزلاً وجعل يزورها فيه وولدت منه غلاماً ولم يكن يكدر صفوهما مكدر .

وقد مضى على عهد حبهما عام لم يلق الحبيبان فيه غير الغبطة والنعيم الى ان جاءها ليلة ورآها واجفة جازعة وقرأ بين عينيها صورة الرعب الشديد فقال : ما بالك ايتها الحبيبة وما أصابك ؟

– لقد خفت يا غوستاف خوفاً شديداً هذه الليلة فاني رأيت رجلان يدوران حول المنزل وينظران اليه نظرات منكرة ، فما شككت أنهما يريدان قتلي .

– ان ذلك محال فانك لا تخرجين من هذا المنزل المعتزل ولا سبيل لهما اليك وبعد أفلست أنا جنبك ومن يجسر ان يمد اليك يداً ؟.

– انهما إذا رأياني يغتنمان الفرصة ويقتلانني دون اشفاق وانا احبك يا غوستاف حباً لا يحيط به وصف كاتب ، ولكني بت ميالة إلى الهرب .

فارتعش وقال : لماذا ؟

– لأن لي سراً خفياً أحب ان يبقى طي الكتمان .

– اني اقسم لك بشرفي اني لا اسألك عن سرك ولا اسعى اقل سعي الموقوف عليه .

– وانا واثقة من قولك ولكني ارجوك ان تنقذني فلست آمنة على نفسي في هذا المنزل

– ممن تخشين امن زوجك ؟

– لقد خدعتك ايها الحبيب قبل ان احبك فليس لي زوج .

– اذن تخشين من الذي كان يحبك ؟

– لم يكن لي عشيق وقد اقسمت لي انك لا تسألني عن سري .

- واني اجدد القسم .
- إذاً ، اذا كنت تحبني فانقذني .
وكانت تقول هذا القول واسنانها تصطك من الخوف فارتعش المركيز وقال لها : ولكن ممن تريدين ان انقذك ؟
- لا أستطيع ان اقول ..
- اتريدين ان ابقى معك في الليل والنهار فلا افارقك لحظة ؟
- كلا بل يجب ان اسافر من هنا وان تخبئني في مكان خفي خارج باريس.
وكان المركيز يحبها حباً شديداً ولا يطيق بعادها ، فاتفقا على ان يوهما على الخدم بأنهما قد انفصلا فتسافر هي الى بلجيكا فتقيم فيها اسبوعاً ثم تعود متنكرة فيطردان الخدم بعد ان يذيعوا ان العاشقين قدانفصلا وان العشيقة قد سافرت ، وتعود الى المنزل بزي جديد ، ويعينان خدم جدد فيعتقد الذين تخشاهم ويزول عنها الخطر .

وفي الحال تظاهرا امام الخدم بالانفصال فأعطاها امامهم مئة الف فرنك تمويهاً عليهم انه ارضاها بهذا المبلغ من المال ثم ركبت القطار في الليلة نفسها وسافرت الى بلجيكا .

وبعد اسبوع عادت الى المنزل نفسه وهي متنكرة بزي الانكليزيات واحضرت معها خادمين انكليزيين وعاد المركيز معها الى عيشهما السابق وهو يحسب ان كل خطر قد زال .

وقد احترم المركيز يمينه فلم يسألها شيئاً عن أسرار حياتها وغاية ما كان يعلمه عنها انها تدعى جوليا وانها لا عائلة لها ، وان اللذين كانا يريدان قتلها لم يكونا زوجها واخاها .

ولكن جوليا على ما كانت فيه من الأمن كانت تخشى دائماً هذين الرجلين وتقول : انهما إذا عثرا بي فلا بد لهما من قتلي .
وكان المركيز يأتي ممتطياً جواده فاتفق انها بينما كان ليلة بانتظاره في النافذة

سمعت صفيراً فهلع قلبها ثم رأت شبحاً أسود ظهر في الحديقة على اثر الصفير فتراجعت خائفة إلى الغرفة وأيقنت بوقوع المصاب .

أما هذا الشبح الذي رأته جوليا فقد كان يدنو من النافذة وهو شبح رجل معتدل القامة خفيف الحركات ، فانه حين وصل إلى النافذة وثب اليها كما يثب النمر وولج منها الى تلك الغرفة التي كانت فيها جوليا بين حية وميتة لما تولاها من الرعب .

وكان رعبها شديداً حتى انها لم تفطن الى دق الجرس ومناداة الخدم به ، وعقد لسانها فلم تستطع أن تستغيث ولكنها ركعت أمام الرجل الذي كان يتهددها وقالت : رحماك لا تقتلني .

أما الرجل فقد كان مشهراً خنجراً بيده فنظر اليها نظرة هائلة وقال لها : أبحث عنك أيتها الخائنة منذ عام .

فجعلت تستجير به وتقول : رحماك لا تقتلني .

– كيف لا أقتلك أيتها الخائنة وقد هزأت بنا ونكثت بعهودك .

– اني لم أجسر على تنفيذ اوامركم .

– لماذا ؟

فنهضت بعد ان كانت جاثية ورجعت إلى الوراء وقد عادت اليها جسارتها فقالت : اقتلني كما تشاء فاني أؤثر الموت على أن أكون آلة لتنفيذ أغراضكم السافلة .

– ولكن لماذا لا تجسري على تنفيذها ؟

– لأني أحبه .

فزأر هذا الرجل زئير الوحوش الضارية وقال : انت تحبينه ؟

– وسأحبه ما بقيت في قيد الحياة .

فبرق الخنجر بيده وهوى عليها وكاد يطعن أحشاءها بخنجره ولكنه صاح فجأة صيحة دهش وتوقف عن قتلها إذ رأى بقربها مهد طفل فأن انين الموجع

وقال : لقد عرفت السبب الآن ..

وكأنما جوليا أدركت قصده فأسرعت إلى طفلها وحومت حول مهده كأنها تريد أن تحميه .

وكان هذا الرجل برديتو تلميذ مينوس وشقيق المركيز دي مورفر فقال: لقد علمت السبب الآن وسيكون هذا الطفل الذي حملك على خيانتنا رهينة عندنا إلى ان تعودي إلى الوفاء .

وكان الخنجر قد سقط من يد برديتو حين انذهاله لرؤية الطفل فلما علمت جوليا قصده التقطت الخنجر عن الأرض ووقفت بين برديتو وطفلها وهي تقول : ادن منه الآن إذا استطعت .

فضحك برديتو ضحك الساخر وقال : اني استطيع قتلك متى شئت ولكني أحب ان أحادثك قبل استعمال القسوة فقد أصبحت أماً كما يظهر .

– انك ترى ولدي الذي أدافع عنه .

– وانت تحبين مورفر ؟

– أعظم حب .

– أهكذا تبرين بقسمك وبمثل هذه الخيانة يكون وفاء الوعود ؟

– لا انكر اني وعدتكم ان اكون آلة بيدكم لتنفيذ أغراضكم ولكني ما حسبت قلبي يهوى المركيز .

– أظن ان هذه هي المرة الأولى التي عرف قلبك فيها الغرام .

فأطرقت جوليا هنيهة ثم رفعت رأسها وقالت : اني لا أعلم ما كنت فيه حين ساقتني الأقدار اليكم ورمتني بين أيديكم ولا انكر اني كنت فتاة سافلة لا اتردد في الاتفاق مع امثالكم على ارتكاب كل منكر فأقمت مع المركيز ثمانية أيام وأنا عازمة على تنفيذ مقاصدكم ثم ...

– ثم أحببته اليس كذلك ؟

– نعم أحببته وأحبه وسأحبه إلى آخر ساعة من حياتي .

– ستصحبينه كما تشائين ولكن لا بد لك من الامتثال لنا .
– هذا محال . .
– ولكني اراه سهلاً ميسوراً ، اليس هذا ابنك الذي أراه ؟
– إذا كنت تجسر على الدنو منه فافعل .

فهز برديتو كتفه إشارة إلى الاحتقار وقال : دافعي بخنجرك ما تشائين فاننا إذا لم نأخذ ابنك اليوم أخذناه غداً وهو يكرهك على الخضوع لنا متى بات في ايدينا .

قال هذا وتقدم منها خطوة فوقفت جوليا في موقف الدفاع فقال لها : أجيبي اتخضعين لنا ؟
– كلا .
– لم يبق علي لوم ، فقد حذرتك .

ثم انقض عليها انقضاض الصاعقة غير مكترث لخنجرها فجعلت تصيح وتستغيث وتضربه بخنجرها بيد مضطربة وجرحته بذراعه وكتفه جراحاً اسالت دمه على ثيابه فهاج برديتو لمنظر الدماء وحمل عليها حملة منكرة وهي تصيح وتطعنه حتى قبض على وسطها والقاها إلى الأرض .

وعند ذلك سمع وقع خطوات الخدم وقد أسرعوا مذعورين لصياح مولاتهم وجردها من خنجرها ، وأغمده في صدرها وهو يقول : انك لا تبوحين بشيء على الأقل .

ثم أسرع إلى النافذة فهوى منها إلى الحديقة وتوارى عن الأنظار .

أما الخدم فقد جاءوا بعد فوات الأوان فلم يستطيعوا القبض على القاتل ووجدوا سيدتهم غارقة بدمائها ويداها ممدودتان إلى مهد طفلها كأنها تحاول ان تحميه حتى بعد الموت .

الفصل الثاني عشر من كتاب الفيروزة

بينما كانت خادمة غرفة جوليا تحاول إنهاضها، وثب أحد الخدم من النافذة في أثر القاتل وجعل يستغيث، ولكن المنزل كان معتزلاً فلم يسمع صياحه أحد وكان برديتو قد احتجب .

أما جوليا فإنها كانت لا تزال حية فلما سمعت صياح الخادم قالت لخادمتها: نا-يه لا فائدة من صياحه .

وكان الدم ينصب غزيراً من جرحها، فتمكنت الخادمة من إنهاضها فأجلستها على كرسي وقالت لأحد الخدم : أسرع وائتنا بطبيب .

فأوقفته جوليا وقالت إن جرحي قاتل لا تنفع فيه حيلة الأطباء فاقفلوا النوافذ والأبواب واصغوا إلي

وكان الطفل نائماً في مهده نوم الملائكة فقالت جوليا : إني قد أعيش ساعة بعد فاجتهدوا أن تسدوا الجرح بما يمنع سيل الدماء .

فأخذت الخادمة منديلها وضمدت جرحها ، فنظرت جوليا نظرة حنو إلى طفلها وقالت لمن حولها من الخدم أحرصوا عليه كل الحرص الى أن يعود المركيز دي مورفر ولا تفارقوه لحظة حتى يأتي .

وكان صوتها يخفت وبدأت قوتها تتلاشى فنظرت الى الخادمة وقالت لها : إنك تجدين في عنقي مفتاحاً صغيراً ، وهو مفتاح صندوق صغير في غرفتي فاذا مت إنزعيه من عنقي واعطيه للمركيز ، وقولي له إنك تجد في الصندوق إيضاح السر .

وكان هذا آخر ما قالته فتلاشت قواها وتجمعت حياتها في عينيها التي كانت تنظر بهما طفلها النائم ثم أطفىء نظرها وأطبقت عيناها فأدركتها الوفاة وعادت تلك الروح الى مبدأها .

وجعل كل من اولئك الخدم ينظر الى رفيقه نظرات تدل على الرعب ،

وكانوا حديثي العهد بخدمتها ، فلم يتعلقوا بها بعاطفة الاخلاص . غير انهم كانوا شاعرين بثقل وطأة تبعة هذه الحادثة عليهم ، فجعلوا يتساءلون عما يجب أن يصنعوه .

فقالوا إن سيدتنا أوصتنا بالحرص على الطفل ، وهو ما يدل على ان الطفل معرض للخطر . وإذا بقينا بقربه ، ألا نتعرض نحن أيضاً لهذا الخطر ؟

فاعترضتهم الخادمة وقالت : لقد وعدنا هذه السيدة القتيلة أن نحمي طفلها وان لا نبرح هذه الغرفة حتى يأتي المركيز .

فخجل الخدم حين رأوا تحمسها وحملوا القتيلة الى سريرها وعادوا الى الغرفة التي كان فيها الطفل . فلم يطل انتظارهم حتى سمعوا وقع حوافر جواد فأيقنوا أنه جواد المركيز .

ودخل المركيز الى ذلك المنزل وهو يتوقع أن يرى جوليا في الدار ، فلم ير أحداً .

وكان الخدم حين حملوها الى غرفتها مروا بها من الدار ، فسالت دماؤها عليها . ولم يكن هناك نور فشعر المركيز ان قدميه تدوسان فوق مادة سائلة . فأخذ علبة الكبريت من جيبه وأشعل عوداً من عيدانها ، فرأى الدم وصاح صيحة منكرة وجعل ينادي جوليا فلم يجبه أحد .

فأسرع عند ذلك الى غرفتها ، وفتح بابها بيد تضطرب ، فوجد شمعتين منارتين حول سريرها ، ورأى حبيبته مسجاة على السرير مائتة لا حراك فيها . فأيقن ان أحد هذين الرجلين الخفيين قتلها ، فتهدد السماء بقبضته وأقسم على الانتقام من قاتلها وكانت ساعة يأس هائلة .

ثم جاءه الخدم وأخبره بما كان وأعطته الخادمة مفتاح الصندوق فأمر الخدم ان ينصرفوا الى غرفهم وأخذ الصندوق ففتحه وأخرج منه كتاباً مختوماً مكتوباً على غلافه هذا العنوان

(إن هذا الكتاب الى غوستاف دي مورفر الذي طالما أحببته بعد وفاتي ولا يحق له فتحه ما زلت في قيد الحياة) .

وجلس المركيز على كرسي بجانب سرير القتيل ، وفض الكتاب وقرأ فيه ما يأتي

(حبيبي غوستاف

كنت كل ليلة حين تفارقني أخاف ان لا يكون بعد الفراق لقاء فينقبض صدري ويستولي علي رعب شديد .

إني محكوم علي بالقتـــل ، أيها الحبيب ، وإنما هم يريدون قتلي لأني عصيتهم فيك .

ألم تسمع بتلك الجمعيات السرية التي كانوا يـــدعونها في العصور الوسطى بجمعيات القضاة الأحرار ؟

إن قوانين هذه الجمعيات كانت تقضي بإعدام كل من لا ينفذ أوامرها إذا ما عينته لقتل عدو لها .

وأنا أصبت بهذا الحكم لأنهم أمروني بقتلك ولكنهم لم يريدوا ان تموت موتاً سريعاً بل موتاً بطيئاً سرياً فعصيتهم وكنت أقسمت لهم على تنفيذ أوامرهم فنكثت بهذه اليمين .

وبدلاً من ان أقضي عليك ذلك القضاء الهائل أحببتك وعبدتك وكان قلبي يحدثني اني سأموت من أجلك وفي سبيل هواك .

ولقد خدعتك يا غوستاف شهراً كاملاً وكذبت عليك لأني لم أكن تلك المرأة المسكينة التي يضطهدها زوجها وأخوها كما قلت لك ، لان ما حدث يوم لقيتني في الشانزليزيه لم يكن غير فخ نصبناه لك

ويا ليتك لم تمر تلك الليلة في تلك الساعة ويا ليتني لم أرك فمن يراك ولا يهواك وانت على ما عرفتك به من النبل والجمال ؟

اني كنت من شر خلق الله نفساً وأدباً ، فلما أحببتك طهرت نفسي من آثامها

وتمثل لي ذلك الاثم الفظيع الذي عهد الي تنفيذه بأقبح الصور . فأنفت من الجرائم كأني لم ارتكبها في حياتي .

ولو علمت ماضي سيرتي وكيف اتصلت بأولئك الذين استخدموني لقتلك العجب مما طرأ علي من الانقلاب .

وهذه خلاصة سيرتي فاسمعها :

إني في جميع ما رويته لك من الأكاذيب لم أكن صادقة إلا فيما رويته لك عن أصلي فإني بلجيكية وقد ولدت حقيقة في بروكسل .

وبدء سيرتي أن أحد الألمان اختطفني وأنا في السادسة عشرة من عمري وكان يحبني حب جنون فأنفق علي أموالاً كادت تذهب بثروة أهله .

وكان في مقتبل الشباب فلما رأى أهله ما فعل بسببي فصلوه عني وحبسوني في أحد السجون عامين .

ثم خرجت من السجن فعدت الى بلدي فقيرة معدمة ولم يكن لي أهل ولا أصدقاء ، فنزعت منازع الفساد وسرت أقبح السير . فبدأ سواد تاريخي منذ ذلك العهد .

ثم برحت بروكسل الى باريس ، وبرحت باريس الى هولاندا مع رجل كان يعيش عيشة السعة ويدعو نفسه الكونت بت وحقيقة أمره انه كان رجلاً يهودياً من فيليسيا برع براعة عظيمة في سلب باعة الجوهرات .

وكان لديه عصابة منظمة لا تخالف أمره ، فتسير معه الى عواصم اوروبا ويرتكبون فيها أقبح المنكرات .

وقد كنت خليلة هذا الرجل ولكني كنت أجهل جرائمه وأحسب أنه حقيقة من الأشراف فكان يحسب الناس انني امرأة له .

فاتفق أننا كنا مرة في لاهاي ، فذاع خبر سرقة محل من أعظم محلات باعة الألماس .

ولم يكن من سبيل الى الظن بالكونت بت لاتصاله بالعائلات الكبرى

ورفعة منزلته ولكن أحد رجال عصابته خانه ، إذ لم ينل ما يستحقه من الغنيمة ، فهرب من هولاندا بعد ان ترك كتاباً لرئيس البوليس يخبره فيها بتفاصيل السرقة .

وفي اليوم التالي كبس البوليس المنزل الذي كنا فيه فوجد المجوهرات المسروقة وقبض على هذا الكونت الكاذب وعلى من معه . فحاولت إثبات براءتي ولكنهم لم يصغوا إلي وبعد التحقيق علموا أن هذا الكونت يهودي من لصوص فينيسيا وإني شقية من بنات الهوى .

وقد صدر الحكم علي وعليه بالسجن وبالكي في الكتف إشارة إلى جرائمنا إنما كان الحكم علي شديداً لا يحتمل ، فقد كان منه انه بعد ان يكوى كتفي بتلك الاشارة الخاصة بالمجرمين ، أنفى الى إحدى المستعمرات وأزوج على الكره مني بأحد المجرمين المنفيين ، وهو حكم هائل لو وجدت سبيلاً للانتحار حين صدوره لفعلت .

والعادة في هولاندا ان تسفير المجرمين الى المنفى يجري مرة كل ثلاثة أشهر وقبل السفر بليلة يحضرون آلة الكي الى السجن فيحمونها بالنار ويكوون المجرم الذي يريدون تسفيره أمام المسجونين .

فأقمت في ذلك السجن أحد عشر اسبوعاً أنتظر ذلك العقاب الهائل في سجن فسد هواؤه ، وقل الطعام فيه . فكنت في أسوإ حالة من القنوط . غير ان رفيقاتي في ذلك السجن المظلم ، كن يقضين النهار والليل ضاحكات لاعبات ، يترنمن بالأغاني والأناشيد ، كأنهن في حفلة طرب ، بل كن يتغزلن بأولئك الأزواج الذين سيتزوجن بهم في المنفى ، كأنهن سائرات الى نعيم .

أما أنا فكنت إذا تمثلت يد الجلاد يكوي كتفي ، وما سألاقيه في المنفى يجمد الدم في عروقي من الرعب

وفيما أنا على هذه الحال أرسلت الي الأقدار شيطانة بصورة إنسان فعرضت

علي إنقاذي من السجن على ان أعدها بقتل رجل أعرفه .

ولما وصل المركيز الى هذا المقطع من الكتاب خيل له انه سمع وقع خطى في الحديقةفقام الىالنافذة وأطل منها فلم ير أحداً فحسبنفسه واهماً لاضطرابه وعاد الى الكتاب يتم تلاوته فقرأ ما يأتي :

إن هذه المرأة التي اقترحت علي هذا الاقتراح كانت تلقب المصرية ، وهي في الثانية والعشرين من عمرها بارعة الجمال،وكانت مسجونة مثلي ومحكوم عليها كما كان محكوماً علي . إنما لم يعلم أحد منا نوع جريمتها التي سيقت من أجلها الى السجن .

ولما جاء مأمور السجن ، وأبلغنا ان موعد كي أكتافنا غداً ، شعرت بخوف هائل ، وتمكن مني الذعر فجعلت أبكي بكاء شديداً وأعض كفي من اليأس .

فدنت مني تلك التي يلقبونها بالمصرية ، وقالت لي وهي تبتسم : يظهر انك خائفة .

- كيف لا اخاف وموعد تنفيذ العقاب غداً ؟

فتمعنت بي هنيهة ثم قالت لي : إنك بارعة في الجمال ولا بد ان تكونيفتنت كثيراً من القلوب .

فأجبتها : ولكني سيقضى علي غداً ! ولا احسب اني أحيى الى تنفيذ العقاب .

- بماذا تكافئينني إذا انقذتك من السجن ؟

— أهبك حياتي واسفك من أجلك دمائي بشر ان لا يسمني الجلاد وان لا ينفوني الى مستعمراتهم فيروجوني بأحد اللصوص .

فنظرت إلي نظرة طويلة ثم قالت : ألديك سر مقدس تقسمين به فلا تنكثين ؟

— ليس لدي أقدس من تذكار امي التي توفيت حين ولدتني .

– اتريدين النجاة ؟
– لا اريد سواها ولكن من عساه ينقذني ؟
– أنا !

فنظرت اليها نظرة انذهال ، ثم غلب علي الشك بأمرها وحسبتها تهزأ بي . فعمدت الى البكاء وقلت لها : ولكنك سجينة مثلي فكيف تستطيعين إنقاذي ؟

– إني انقذك وأنقذ نفسي

وقد قالت لي هذا القول بلهجة تبينت منها الجد فأجبتها: إذاً اشترطي علي ما تشائين . إني ارضى بما تقترحين .

– أتقسمين على الوفاء ؟

ورفعت يدي وحاولت ان اقسم فأوقفتني وقالت : لا تقسمي الآن إذ يجب ان تعلمي قبل القسم ما أريده منك .

– تكلمي إني مصغية اليك .

– لي عشيق يهواني ويغار علي غيرة شديدة حتى انه ليقتلني اذا نظرت الى سواه ، وانا أهواه كما يهواني . غير ان له عدواً شديداً نغص عيشنا وقد اقسمنا على قتله .

ولكن طريقة الموت التي أعدها له لا تتم الا عن يد امرأة تحمله على الوقوع في شرك هواها وهي ميتة بطيئة هائلة .

وقد عرضت نفسي لهذه المهمة فرفض طلبي باحتقار وقال لي : انه اذا لمس يدك فإني اقتلك قبله .

وإنما رفض طلبي لشدة غيرته علي وشغفه بي . فهل تريدين ان تكوني تلك المرأة التي نطلبها ؟

فارتعشت لهذا الاقتراح وقلت : ما هذه الجريمة التي تعرضينها علي انها عظيمة هائلة ؟

فقالت لي ببرود . اذا أبيت الامتثال لنا اني أجد كثيرات يقبلن بشرطي بين هؤلاء السجينات واني امهلك ساعة فاختاري بين ما تعده لك الحكومة من العقاب وبين ما اعده لك من النجاة .

فاضطربت وتازعت نفسي الى ان تمثل لي ذلك الجلاد بناره فذعرت وهانت لدي الجرائم .

وبعد ساعة عادت تلك المرأة وقالت : ان الصباح اوشك ان ينجلي وقرب وقت مجيء الجلاد فوافقيني على النجاة قبل فوات الأوان .

فتغلب الرعب على عواطفي وقلت : اني ارضى بما تريدين .

ثم أقسمت لها على الوفاء والخضوع مدة سنتين لها ولعاشقها وشيخ هو صديق العشاق فقالت لي : إذاً قري بالاً ، فستخرجين من هذا السجن بعد ساعة .

فاندهلت وقلت : كيف يكون خروجنا ؟

-- انه سهل ميسور . فإننا رشونا السجان بالمال الجزيل وسوف ترين اننا نخرج منه دون ان يعترضنا احد كما يخرج المرء من منزله .

وقد وفت بوعدها فإنها غادرتني هنيهة ثم عادت إلي وقالت : أسرعي فقد حان موعد قدوم الجلاد .

فاضطربت لذكر هذا الاسم وخرجت معها متأبطة ذراعها الى ردهة السجن فلم يعترضنا احد ثم دنونا من السجان وانا لا أصدق بالنجاة ، ورأيت السجان قد غض نظره كأنه لا يرانا

فخرجنا وقد بدأت اشعة الصباح تنجلي ، وركبنا مركبة وانطلقنا بها الى الميناء وركبنا قارباً صغيراً وسرنا به الى سفينة شراعية كبيرة كانت متأهبة للسير فاستقبلنا فيها عاشق تلك المرأة. وسارت بنا السفينة الى فرنسا فبلغناها بعد ثمانية ايام .

وبعد شهر عزم اولئك الأشقياء على قتلك قتلاً فظيعاً ، لا يخطر في

بال الأبالسة .

أتريد ايها الحبيب ان تعرف كيف كانت طريقة هـذا القتل الهائل ؟ إذاً فاسمع

* * *

وكانت الصفحة قد انتهت عندما وصل بالقراءة الى هذا الحد . وبينما هو يقلب الصفحة التي بعدها ليقف على حقيقة هـذا السر الرهيب سقط فجأة على قفاه

وذلك ان الشمعتين اطفئتا ، وسمع دوي غدارة ، وشعر بمادة مائية أصابت وجهه . فسقط على الأرض طائش الرشد ، وأفلت كتاب جوليا من يده .

وعند ذلك دخل رجل من النافذة المفتوحة ، فأسرع الى المركيز والتقط الكتاب ثم عاد مسرعاً من حيث أتى قبل ان يثوب المركيز الى رشده ويتمكن من النهوض .

أما ما أصاب المركيز فقد كان مؤلماً وغريباً في حين واحد. ووجه الغرابة فيه أنه سقط على الأرض بقوة غير منظورة إلا انه لم يرها . واما كونه مؤلماً فإنه شعر ان جميع جسمه كأنه قد احترق بمياه غالية ، وأحس بمادة أكالة قد دخلت في عينيه .

وقد أصيب بألم شديد حتى أنه بقي عدة دقائق ضائع الرشد لا يعي على شيء ولم يستفق من إغمائه إلا بعد ربع ساعة . فشعر باختناق وشم رائحة في هواء الغرفة تهيج القيء .

وكان اول ما فعله أنه أسرع الى النافذة وهي لا تزال مفتوحة ، فاستنشق الهواء النقي وعاد اليه صوابه فافتكر بما حدث له وأيقن ان ذلك من نتائج مادة

أطلقت عليه ففعلت هذه الفعال .

وحاول أن يدنو من المستوقد ليقرع الجرس فلم يستطع للاشاة قواه ، ولأن هذه الرائحة المقيتة قد زادت فلم يجد بداً من الالتجاء الى النافذة التماساً للهواء النقي

وكانت الغرفة المقيم فيها مشرفة على الحديقة والخدم يبيتون في غرفة لهم في تلك الحديقة. فنادى أحدهم بصوت أبح فأجابه فقال له إصعد الي حالاً بمصباح فلا نور عندي .

فأنار الخادم مصباحاً ، وصعد به الى مولاه . ولكنه ما خطا خطوة في تلك الغرفة ، حتى حدثت أعجوبة أخرى ، ارتعدت لها فرائص المركيز والخادم .

ذلك انه حدث انفجار عظيم والتهبت النار تلك الغرفة فجأة كأنما كانت مملوءة من الغاز ،فعلقت النار بشعر الخادم وملابسه فترك المصباح وهرب منذعراً وهو يصيح صياح الألم لا يلوي على شيء .

ثم علقت النار بعده بالمركيز دي مورفر ، لكنه لما رأى ان الغرفة بجملتها قد التهبت وأنها أصبحت كانون ، أسرع والقى بنفسه من النافذة الى الحديقة فوصل اليها سالماً وأطفأ ما علق بثيابه من النار .

لكنه على ما أصابه من هذه الكوارث الفجائية لم يفقد رشده ففكر بطفله وركض الى الغرفة التي كان نائماً فيها ، فوجده في مهده ورأى الخادمة جالسة بقربه وهي لا تعلم ما حدث .

فأخذه من مهده وخرج به فتبعته الخادمة ، ولو تغافل عنه هنيهة لذهب فريسة للنار .

وامتد اللهيب بسرعة من غرفة الى غرفة حتى التهم المنزل بجملته وباتت تلك القتيلة المسكينة كتلة من رماد .



وقد مضى زمن طويل على تلك الحادثة الهائلة التي خفي سرها على المركيز الى أن ذهب عنه تأثير وراق باله فذكر أنه قرأ مرة في إحدى الصحف الهولاندية عن اختراع علم من سر ذلك الحريق .

وهذا الاختراع هو ان احد علماء هولندا اكتشف طريقة لصيد الطيور بالبنادق دون ان تقتل او تجرح او تصيب بأذى .

وذلك انه يحشو البنادق بالبارود حسب العادة المعروفة . ثم أنه بدلاً من أن يضع فوق هذا البارود قطعاً من الورق والقماش حسب المعتاد ، يضع قطعة من الشمع تسد مخرج البارود سداً محكماً ، ويملأ أنبوبة البندقية من الماء ثم يسد فم الأنبوبة بقطعة أخرى من الشمع . فتمنع القطعة الأولى اتصال البارود بالماء ، وتمنع القطعة الثانية خروج الماء من أنبوبة البندقية ، قبل إطلاقها .

ثم يخرج بعد ذلك الى الصيد ، فاذا رأى طائراً أراد صيده وحفظه سالماً ، صوب عليه البندقية وأطلقها ، فينفجر البارود ويطرد بقوته المياه . فتخرج شبه إعصار وتسقط على الطائر ، فتضيع رشده ، وتبل أجنحته فلا يستطيع الطيران ويسقط على الأرض . فيأخذه الصياد حياً بفضل هذه الحيلة الغريبة .

* * *

فلما ذكر المركيز دي مورفر هذا الاختراع ، أيقن انهم أطلقوا عليه بندقية حسب الطريقة نفسها . ولكنهم بدلاً من أن يضعوا فيها ماء وضعوا مادة غازية . فلما أطلقوها انتشر الغاز بالغرفة ، ثم دخل الخادم بالمصباح فالتهب .

غير أن هذه الحيلة لم تخطر له في تلك الليلة لشدة ما أصابه من الاضطراب فلم يكن يعي على شيء

ولقد تقدم لنا القول ان هذا المنزل الذي كان يقيم فيه المركيز مع جوليا كان معتزلاً في شارع مقفر . فلما أنقذ الطفل من الحريق خرج به الى الحديقة وتطلع الى المنزل ورأي ان النار قد علقت بجميع جوانبه ولم يجد سبيلاً لاطفائها فهرع مع الخدم الى الخارج وجعلوا يصيحون ويستغيثون فأسرع الناس لنجدتهم .

ولكن النار كانت قد التهمت المنزل بجملته ، وجعلت تأكل نفسها إذ لم تجد ما تأكله .

أما جثة جوليا فقد ذهبت طعمة للنار ، كأنما الأقدار أرادت كتمان سر مقتلها الذريع . وعاد المركيز دي مورفر الى منزله في باريس وقد أخذ منه الاضطراب كل مأخذ .

ثم أطلق سراح الخادمين الانكليزيين والخادمة الذين كانوا في خدمة جوليا ، بعد أن أنعم عليهم بالمال الجزيل ، وسألهم كتمان سر مقتل سيدتهم

قالت الفيروزة : وفي اليوم التالي عهد المركيز بطفله الى مرضع ، فمنيت بهذا الطفل دون ان تقف على سره الهائل ، الذي لا يزال الى الآن ، من الألغاز الخفية .

الفصل الثالث عشر من كتاب الفيروزة

إني أكتب هذا الكتاب اليك يا روكامبول ، لأنك موضع ثقتي . وأنت رجائي الوحيد .

انك علمت ماضي حياتي حين كنا ننغمس سوية في حمأة الجرائم والآثام ، وحين كنت وإياك آلة لتنفيذ أغراض اندريا السافلة .

وأنت تذكر دون شك تلك الضربة الهائلة التي ضربتنا إياها باكارا فكانت السبب في توبتنا الصادقة .

وأما انا فإني جننت بعد تلك الضربة الشديدة فنقلوني الى مستشفى المجانين وأقمت فيه خمسة ايام .

ثم قدر لي الشفاء فخرجت تائبة مستغفرة ، التمس عفو الله عن ذنوبي السابقة ، وأرتزق بالعمل الشريف . وإن تلك الحسناء التي كانوا يلقبونها بالفيروزة والتي لعبت بفرناند روشي وليون رولاند ، والتي كانت تجرح خطرات النسيم خديها ويدمي الحرير بنانها ، باتت عاملة فقيرة تشتغل الليل والنهار فتعيش من كسب يديها وتنفق ما زاد عنها على الفقراء لايثارها عيشة الصلاح على عيشة الفجور .

إن ما لقيته من المتاعب والمشاق لم يؤثر على جمالي فكنت أبذل كل جهد كي أحجب هذا الجمال فلا أتأنق بملبس ولا احفل بزينة . ولكن كل ذلك لم يمنع ازدحام العشاق فكانت رسائلهم ترد الي من كل صوب فلم أكترث لأحد منهم لاعتقادي ان قلبي ماتت فيه عواطف العشق .

وكان بجوار منزلي أرملة تناهز الأربعين ، وعندها غلام في الثانية أو الرابعة من سنيه ، فاستحكمت اواصر الصداقة بيننا . وكنت احسب في البدء أن الغلام ولدها ولكنها أخبرتني انه ليس ولدها ، وانها لا تعرف اسمه ولا أهله لان رجلا عهد به اليها وعين لها نفقته مائة فرنك في الشهر فكانت تعيش وإياه من هذه النفقة .

وكان يجيئهـا في الأسبوع رجل شاب ، يرتدي بملابس العمال ، فيتفقد الغلام

وقد قال لهذه الأرملة : إني لست والد الطفل لكن أهله عهدوا إلى بمراقبته والاعتناء بأمره وهم من غير هذه البلاد .

وكنت أزور جارتي في كل يوم فاتفق مرات كثيرة إني رأيت عندها ذلك

الرجل فكنت أتمعن به وأتفرس في وجهه فلا أرى هيئته توافق ملابسه الرثة ، وعلمت من يديه الناعمتين انه من أهل الترف وليس من اهل المهن في شيء . وإنما كان متنكراً بازياء العمال لغرض من الأغراض خفي علي في ذلك الحين .

وكان صبوح الوجه جميل الطلعة رشيق القوام حلو الحديث ولا يتسع المقام الآن لتفاصيل الحب فأقتصر على القول اني شعرت بعد ستة شهور اني جذبت اليه وان قلبي تنبهت فيه تلك العواطف القديمة فأحببت هذا الرجل ، وهو المركيز دي مورفور .

وكان المركيز قد اسف أسفاً شديداً على جوليا وبكاها زمناً طويلاً ، ثم دملت الأيام جرحه وتحول حنانه الى غلامه . وبقي مفكراً مهموماً لانه كان يخشى على الغلام من الذين قتلوا امه ولهذا كان يتنكر بملابس العمال حين يتفقده كي لا ينبه اليه أنظار اولئك الاعداء الذين لم يعرفهم فلا يعرفون مكان الطفل .

وبعد عام كنت اراه في خلاله معظم الايام ، فقد ماتت تلك الأرملة وعهد بغلامه الي ، فعشت معه وأحبني حباً شديداً ، وباح لي بجميع تلك الاسرار التي بقيت خفية ، ولو لم ينتزعوا منه كتاب جوليا لزال الخفاء عن كل هذه الغوامض

وكان كلما كبر الولد ونما يزيد قلق المركيز عليه ، ويكثر اهتمامه بمستقبله وقد قال لي يوماً . إصغي إلي ، إن الذين قتلوا امه هم أعدائي ، وذلك لا ريب فيه عندي .

غير إني لا أعرف هؤلاء الاعداء فإنني اعرف انه كان لي عدوان لدودان ، وهما الدوق دي فنسترنج وبرديتو وكلا الاثنين ماتا . فإن احدهما مات غريقاً والآخر أعدم شنقاً . فلا بد إذاً ان يكونوا غير هذين العدوين وقد يكون اعدائي محيطين بي وانا لا اعلم اذ لا أعرف لي عدواً غير هذين .

وان لي ثروة عظيمة ولست بمتزوج، فإذا مت فجأة وقتلت دون ان اكتب

وصيتي يرث هذه الثروة الطائلة اقارب بعيدون عني يتسمون باسم عائلتي لكني لا اعرف منهم احداً .

ولذلك اتخذت الاحتياطات اللازمة حتى اذا مت فجأة لا يصبح ولدي من غير مال .

فقلت له : ماذا فعلت ؟

– إني اخذت ثروة الدوقة دي فنسترنج وأضفت اليها كل ما لدي من المال بحيث لم أبق غير ما عندي من المنازل والاراضي .

وقد بلغ هذا المال الذي جمعته اربعة ملايين فرنك وكله اوراق مالية فخبأته في مكان لا يستطيع احد ان يدري به إلا انا وانت واني احب ان ادلك على المكان كي تدفعي المال لولدي اذا اصبت بمكروه .

وكانت الساعة العاشرة حين كان يقول لي هذا القول وكان الغلام نائماً فقال لي : هلمي معي الى منزلي في الشانزليزيه فقد خبأت المال فيه .

وكان عندي خادمة شديدة الاخلاص فعهدت اليهــــا بالطفل وسرت مع المركيز فركبنا مركبة وذهبنا الى منزله في الشانزليزيه .

الفصل الرابع عشر من كتاب الفيروزة

وكان للمركيز قصر في ذلك الشارع له باب خاص في شارع سيرسنس لا يدخل منه سواه ويكتنفه حديقة متسعة الارجاء .

فدخل بي المركيز من الباب الخاص واجتاز بي الحديقة ثم دخلنا الى المنزل ولم يكن فيه احد فسر المركيز وقال : يسرني ان لا يراك احد عندي كي لا ينتبه احد الى ولدي .

ثم دخل بي الى غرفة متسعة فأنار شمعة كانت على المستوقد وقال لي : يوجد

في هذه الغرفة ٤ ملايين فرنك أتعلمين اين هي ؟

– اين لي ان اعلم العلها في هذه الخزانة ؟

– كلا .

– أفي هذا الدرج ؟

– كلا ولكنك تقضين العمر باحثة على هذا المال في هذه الغرفة دون ان تهتدي الى مكانه .

ثم اشار بيده الى آنيتين من الاواني التي توضع فيها الاغراض المنزلية وقال لي : ان المال في إحدى هاتين الآنيتين فابحثي عنه .

– في أيها ؟

– لا أعلم ، ان الخدم يغيرون مواضعها في كل يوم .

فدنوت من احداها ورفعت منها صندوق الصفيح الذي توضع فيه الأزهار فلم ار تحته شيئاً .

ابتسم وقال لي ابحثي علك تجدين .

حسبت انه يوجد أيضاً صندوق سري فمددت يدي وجعلت أبحث راجية ان أظفر بلولب سري فلم أظفر بشيء .

وكان بجانب الآنية عمودان من الخشب ملتصقان بها بالظاهر فدنا المركيز من أحد العمودين فضغط على زر يشبه طابع المسمار فانفصل العمود عن الآنية فأخذه المركيز وقال لي : ان هذا العمود مثقوب من الداخل وقد خبأت فيه المال فانظري . .

ثم ضغط على زر آخر في العمود ففتح غطاء الثقب فمد يده وأخرج لفافة من الأوراق المالية قيمتها ٤ ملايين فرنك وبعد ذلك ردها إلى موضعها وأرجع العمود إلى جانب الآنية فالتصق بها كما كان .

فقلت له : لقد أجدت غاية الاجادة باختيار هذا المكان لتخبئة المال إذ لا يخطر هذا الموضع لأحد في بال ولكننا لنفرض انك مت ذلك الموت الفجائي

الذي تخشاه الا يبدأون بوضع الأختام على منزلك ؟

– دون شك .

– ألا يستولي ورثاؤك على ما فيه فكيف انال هاتين الآنيتين ؟

– لقد اخطأت ، اني توقعت كل شيء وذلك اني كتبت وصيتي فاوصيت بجميع أملاكي وأطياني لعائلتي التي تسمى باسمي ولكني وهبت كثيراً من اصدقائي هدايا مختلفة مثال ذلك اني وهبت مكتبتي للفيكونت مونتيجرون ومجموعة أسلحتي للبارون هبنسون ووهبتك أنت هاتين الآنيتين باسم حنة دلاكور الملقبة بالفيروزة فمتى أطلع ورثائي على هذه الوصيــة يقنعون بأموالي ويسلمون هذه الهدايا لأصحابها فتأخذي الآنيتين وفي احداهما المال .

– لقد علمت الآن ، وقاك الله ما تخشاه ولا أصابك بمكروه .

ومر على ذلك العهــد عدة شهور وكان الولد يشب وينمو والمركيز يهدأ ويطمئن إلى ان ورد اليه ذات يوم كتاب من لندرا اضطربت له حواسه فدفعه إلى بعد تلاوته وقرأت ما يأتي :

(بينما المركيز دي مورفر يتنعم بملذاته امناً مطمئناً في باريس وهو يعتقد انه ليس عليه واجب يقضيه نجد عدوه الهائل وعدو كل اسرته يهزأ به وهو مقيم في انكلترا على أتم الهناء والغبطة .

أن المركيز دي مورفر حسب أن الدوق دي فنسترنج قد مات وأكلته أسماك البحار ولكنه اخطأ في زعمه فان هذا الدوق لا يزال حياً يرزق ، وقد أوهم المركيز دي مورفر انه مات كي ينجو من انتقامه .

فاذا كان المركيز دي مورفر لم ينس اليمين التي أقسمها لأمه قبل موته واذا كان لا يزال راغباً في الأنتقام لأبيه فليبرح باريس في الحال وليسرع الى لندرا فاذا وصل اليها فليذهب توا الى خمارة الملك جورج في ناحيــة وينغ وليقل لصاحب هذه الخمارة واسمه كالكراف أنا ذلك الذي كتب اليه أن يحضر وهو يخبره عند ذلك أين يقيم الدوق دي فنسترنج وكيف يجده)

وكان هذا الكتاب دون توقيع فلما قرأت ما فيـــه حدثني قلبي أن هذا الكتاب فخ نصب للمركيز وقلت له : أياك أن تذهب الى لندرا

انذهل لكلامي وقال : لماذا ؟

– لأني أخاف أن يكون الكتاب مكيدة .

لم يكترث لكلامي وقال إذا كان الدوق حياً كما يقولون في هذا الكتاب لا بد لي من الأنتقام لأبي .

وقد بكيت كثيراً وتوسلت اليه أن لا يسافر فلم يجد البكاء ولم ينفع التوسل وسافر في الليلة نفسها .

وفي اليوم التالي وردني منه هذه الرسالة :

(الكتاب زور وكالكراف لم يفهم شيئاً مما قلت له ولم يسمع في عمره اسم الدوق دي فنسترنج سأعود في هذه الليلة واكون غداً في باريس) .

ولكنه لم يعد في اليوم التالي كما قال وتوالت الأيام وكنت أعد ساعاتهـا دون ان يعود .

وبعد ثمانية ايام بينما كنت مسترسلة إلى عوامل اليأس إذ دخل علي المركيز فصحت صيحة لم تكن صيحة فرح لعودته ، بل صيحـة ذعر لرؤياه فـاني وجدته قد نحل حتى بات كأنه خيال نفسه

الفصل الخامس عشر من كتاب الفيروزة

ولقد قلت ان مورفر قد نحل وبات خيالاً وهي حقيقة لا مجاز فيها فـإن لون وجهه كان يشبه الأموات ، وإذا مشى يسقط لضعفه ولا تستقر قدماه ، وقد شخص بصره واسترخت شفتاه .

ولما رأيته على هذه الحالة ذعرت ذعراً شديداً وقلت بالله قل لي ما دهاك؟

ولكنه لم يجبني بل ذهب إلى الغرفة الثانية التي كان فيها ولده .

وكان الغلام نائماً فدنا منه وجعل ينظر اليه ويتأمل وجهه دون أن يفوه بكلمة كأنه كان يلتمس من النظر إلى ولده قوة تعينه على الكلام .

وبعد حين عاد الي وعيناه مغرورقتان بالدموع فمد يده لمصافحتي وقال : اغفري لي .

– عن أي شيء تريد ان أغفر لك ؟

فارتعش المركيز وقال : لا أعلم ..

ثم ابتسم ابتسام الأبله وعاد فقال : لا أعلم . اني مجنون . لا تسأليني عن شيء الآن .. أخبرك بكل شيء .

ولم تعد ساقاه تحملانه فسقط على كرسي واهي القوى .

وأقام في منزلي مدة شهر لم يخرج منـه ، وكان ذلك في زمن صيف ومعظم أصحابه برحوا باريس للاصطياف فلم ينتبه أحد لاحتجابه وكان الناس يعتقدون أنه لا يزال في باريس .

وبعد شهر عاد اليه هداه وعادت معه العافية فزالت آثار البلاهة والجنون ، وانطلق لسانه بالكلام فقال لي يوماً : اتعلمين أيتها الحبيبة أني كنت في عداد المجانين ؟

فنظرت اليه ولم أجسر على سؤاله .

– نعم إني كنت مجنونـاً وكان جنوني من الغرام حتى نسيتك ونسيت ولدي بل اني نسيت نفسي ولم اذكر اسمي .

والآن فقد زال والحمدلله ما كنت أشكوه على اني لا أزال اعتقد ان هذه المرأة ليست من البشر ولا شك أنها من الأبالسة فقد سحرتني .

فاضطربت لكلامه ورأى مني دلائل الاضطراب وقال اطمئني أيتهـا الحبيبة فسأخبرك بكل شيء كي تعلمي انـ جنوني قد زال وعاد الي الصواب وهذه خلاصة ما رواه من قصتها .

انه سافر إلى لندرا من باريس في الساعة الثامنة مساء فبلغ اليها في الساعة الخامسة من الصباح واستراح هنيهة وأكل ثم ركب مركبة وأمر السائق ان يذهب إلى وينغ .

وقد ذهل السائق حين رأى رجلاً تدل ملابسه وملامحه انه من الأعيان يحاول الذهاب إلى تلك الناحية التي لا يذهب اليهـا غير الرعاع وقد زاد انذهاله حين أمره المركيز ان يذهب به إلى خمارة الملك جورج ، لأن هـذه الخمارة كانت مشهورة لدى الخواص والعوام ، لا ينتابها غير اللصوص وكبار المجرمـين .

غير انه لم يسعه إلا الامتثال فأوصله إلى باب تلك الخمارة ودفع له المركيز أجرته وأطلق سراحه

ودخل المركيز إلى الخمارة فذهب تواً الى صاحبهـا كالكراف (الذي تقدم ذكره في الروايات السابقة) فقال له : أأنت كالكراف صاحب هذه الخمـارة ؟

– نعم يا سيدي .

– إذاً أنا هو الرجل الذي تنتظره ..

وقد قال له نفس العبارة التي قرأها في الرسالة الواردة اليه .

أما كالكراف ظهر منه الاندهاش وقال له : اني لا انتظر أحـداً يا سيدي .

فأخذ المركيز الرسالة من جيبه واطلعه عليها ·

فزاد اندهاشه وقال . انه لا يعلم شيئاً من هذا الحديث .

– ولكن ألا تعرف الدوق دي فنسترنج ؟

– هذه أول مرة يا سيدي سمعت فيها هذا الاسم .

وكان يتكلم بلهجة تدل على الصدق لم تدع أقل مجال للشك بصدقه .

وعاد المركيز الى الفندق الذي كان نازلاً فيه وارسل الي ذلك التلغراف

الذي ذكرته من قبل .

وأقام في غرفته بقية يومه إلى أن حان موعد السفر ، وذهب إلى المحطة كي يعود إلى باريس فوجد القطار قد سافر فاضطر للانتظار الى الصباح .

وعاد إلى الفندق وقال في نفسه : لا ريب أن هذا الدوق لا يزال حياً وقد أجده في خمارة الملك جورج ، فإن الرجل الذي كتب لي هذا الكتاب قد يكون أراد أن يخبر كالكراف بما كتبه لي ثم حال حائل دون قصده ، إذ لا يعقل ان يكتبوا لي مثل هذا الكتاب كي أحضر فلا أجد أحداً ولا شك ان كاتب هذا الكتاب عارف بجميع أمري ولا بد إذن ان يكون في الأمر سراً سأكتشفه في الخمارة .

وكان يعلم انه لا بد له من التنكر إذا أراد الذهاب إلى تلك الخمارة فإن من يذهب اليها من كرام الناس في الليل كان الخطر عليه شديداً وذهب إلى بائع ملابس فاشترى بدلة بحار قديم ثم خلع ملابسه ولبسها وبعد ساعة كان في تلك الخمارة الهائلة .

ولما وصل اليها وجدها غاصة بالشاربين ورأى من فظاعة أولئك السكارى وروائح شرابهم ماهاله ولكنه صبر راجياً ان يقف على شيء من أمر الدوق فجلس على مائدة وطلب من الخادم أن يأتيه بكأس من الشراب .

الفصل السادس عشر من كتاب الفيروزة

وكان المركيز لا يرى شيئاً من حوله حين دخوله لكثرة دخان التبغ المتكاثف في تلك الخمارة .

ولكن نظره لم يلبث ان الف ذلك الدخان فجعل ينظر إلى زبائن الخمارة فلم يجد بينهم غير بحارة ولصوص ومومسات وكلهم يشربون ويضحكون فلم

ينتبه أحد منهم اليه لأنه كان متنكراً بملابسهم حتى ان صاحب الخمارة نفسه تظاهر انه انخدع بتنكره فلم يلتفت اليه .

وكان بين النساء فتاة ارلندية شقراء الشعر ذات جمال فضاح استلفتت اليها جميع العيون .

وكانت تغني غناء بدوياً بصوت رخيم ، فيصفق لها الحضور تصفيقاً عظيماً لافتتانهم بها وبصوتها ، والمركيز ينظر اليها مع الناظرين دون ان يفهم كلمة من أناشيدها

وكان يتطلع اليها ويشعر باضطراب كأنما عيناها قد سحرتاه وجذبتا فؤاده بمغناطيسهما .

وكانت ظواهر الفتاة تدل على انها متسولة وانها تغني في تلك الخمارة للارتزاق . فكانت لا تنقطع عن الغناء إلا لشرب كأس يقدمه لها أحد المفتونين بها ، فتنظر اليهم نظرات تدل على عدم الاكتراث حتى إذا رأت المركيز نظرت اليه نظرة خاصة كأنما قد راق في عينيها فتكهرب جسمه لهذه النظرات .

ثم تعود إلى الغناء فإذا انشدت نغماً حنوناً شفعته إلى المركيز فكان يغض من طرفه كأنه لا يطيق احتمال تلك التطلعات .

وطال غناؤها وتواترت تطلعاتها واشتد اضطراب المركيز حتى انه حاول الفرار لخوفه من عواقب جمالها الفتان فتحفز للقيام وكأنما أدركت قصده فنظرت اليه نظرة تشف عن غنج ودلال فلم يطق الوقوف وعاد إلى الجلوس حيث كان .

وتابعت الارلندية غناءها ورأى المركيز أن يقتدي بالحاضرين فطلب كأساً ثانية من الشراب فجاءه الخادم بما طلب واشعل له سيكارة دون ان ينتبه المركيز إلى نظرة سرية تبودلت بين الارلندية وبين الخادم .

ولما جعل يدخن بها أحس أن تبغها أشد مما كان تعوده فلم يبال وجعل

ينظر الى الفتاة بشوق واعجاب .

ثم احس بانحطاط عام في جسمه كان يتزايد بالتدريج كأنما هذا الانحطاط قد تولاه من تأثير عينيها ، أو من مخدر وضع في شرابه أو في النار التي أشعل منها سيكارته .

ولم يطل به العهد على هذه الحالة حتى احس بطنين في اذنيه وتثاقل جفناه فبذل جهداً عظيماً كي يتمكن من فتح عينيه ولكنهما اطبقتا وغلبه النعاس فسقط ذراعاه على المائدة ونام ، وتابعت الفتاة غناءها وحسبه الحاضرون قد سكر ولم يكترث به أحد .

غير ان نومه لم يكن نوماً طبيعياً فإن عيناه كانتا مقفلتين ولم يكن يستطيع حراكاً ، ولكنه كان يسمع كل حديث يدور حوله ويفقه كل معانيه في حالة صحو تام .

ثم انقطعت الارلندية عن الغناء وأعلن كالكراف لزبائنه ان الليل قد انتصف فأمر باطفاء المصابيح وانصرف الزبائن واحداً بعد واحد واحس المركيز أنه بات وحده في هذه الخمارة وحاول جهده كي يتمكن من الحركة وفتح عينيه فلم يستطع وكان كالنائم أصيب بكابوس .

ثم سمع كالكراف يقول ، لندعه نائماً .

فقال له الخدم : اليس الأولى بنا ان نلقيه خارج الخمارة؟

ثم سمع صوتاً يقول كلا فإني سأخذه انا .

فارتعش المركيز اذ علم ان هذا الصوت صوت الارلندية .

ثم أحس ان يداً قوية أوقفته وسمع الارلندية تقول : اني أعطيك مائة جنيه إذا أوصلته إلى شاطىء التاميز حيث تنتظرني مركبتي

فبذل المركيز كل ما أمكنه من الجهد كي يستفيق فلم يستطع وقال في نفسه : اني حالم لا شك وإلا فكيف تكون هذه المتسولة على ما رأيتها من الفقر ، ثم تهب مئات الدنانير ويكون لها مركبة ولا ريب إني حالم مصاب

بكابوس وعند ذلك احس انه محمول على كتف كالكراف وانه خرج من الخمارة فاستنشق الهواء النقي .

الفصل السابع عشر من كتاب الفيروزة

وكان المركيز على هذه الحال وهو لا يدري إذا كان حالماً أم مخدر .

وأحس ان كالكراف وقف وسمع الارلندية تقول : قد وصلنا .

فوضعه في المركبة التي كانت تنتظر عند شاطيء التاميز وكان سمعه قد رق وانجلى وانصرفت اليه قوى حواسه بجملتها وكان يسمع كل شيء وهو نائم نوم الأموات لا يستطيع حراكاً .

وسمع صوت السائق يقول : اين تريد ان تذهب ميلادي ؟

فأجابته الارلندية : إلى القصر .

فانطلقت المركبة تنهب الأرض بجيادها المطهمة .

أما المركيز فقد كان انذهاله عظيماً من هذه الحادثة الغريبة فانه رأى هذه الارلندية في أشد حالة من الفقر ، ثم رآها تهب صاحب الخمارة مئة جنيه ثم رآها تركب مركبة فيدعوها السائق ميلادي ، وهولقب النبيلات فكيف هذا التناقض وما كان غرضها بالتنكر وأي شأن لها في اختطافه ؟

كل هذه الغرائب اشكلت عليه وشغلته حتى انه تمنى لو خسر كل مـاله وتمكن من فتح عينيه .

ولكن التخدير كان بالغاً منه اقصى حدوده وظلت المركبة تسير نحو عشر دقائق فوقفت وسمع المركيز ان بابها قد فتح وأحس ان شخصاً وقف ببـاب المركبة ودار بينه وبين الارلندية الحديث الآتي :

قال الرجل : ماذا فعلت ؟

- هذا هو فقد أتيت به .
- العلك خدرته ؟
- دون شك فانظر اليه .
- نعم هو بعينه .

فقال المركيز في نفسه اذكر اني سمعت هذا الصوت ولكنني لا اذكر أين ومتى .

وعاد الرجل إلى الحديث فقال : لو تعلمين مقدار غيرتي لما اقدمت على اختطافه .

- ما هذه الحماقة ؟
- ليس ما أقوله حماقة فاني موقن انه سيهواك .
- ربما ..
- وأنت ؟

فأجابته الارلندية ضاحكة ضحك الساخر من قوله ثم سكتت هنيهة وقالت : يجب علي قضاء هذه المهمة التي لا يقدم على قضائها أحد .

فأن الرجل أنين الموجع وقال: انما لا تنس إنك إذا نقضت عهودك أقتلك شر قتل ..

فضحكت أيضاً وقالت : اني لا أخافك .

وعند ذلك أطبق باب المركبة فمادت إلى سيرها

فزاد اضطراب المركيز إزدياد الاشكال وشدة تعقد هذا اللغز إذ لم يذكر هذا الرجل الذي كلمها ولم يعلم ما يريد ولم يدرك ما قصده من هذا التهديد .

وكان المركيز شجاع القلب غير انه أحس بخوف شديد في تلك الساعة فـذكرني وذكر ولده .

وظلت المركبة تسير حتى وقفت عند باب فأحس ان الباب قد فتح وان رجلين أقبلا اليه فأخرجاه من المركبة وحملاه فصعدا به سلماً حتى انتهيا إلى

قاعة مفروشة بالطنافس فوضعاه على مقعد فيها وخرجا بأمر الارلندية .

وعند ذلك سمع الارلندية تعزف على البيانو وتغني ذلك الغناء البدوي نفسه الذي كانت تغنيه في خمارة الملك جورج .

وبعد حين أحس المركيز أن حواسه بدأت تعود وكان أول ما عاد اليه حاسة الشم ، فشم رائحة عطرية وجد بها لذة خاصة غريبة .



وهنا توقف مرميس عن القراءة وقال : لقد عرفت هذه الرائحة .

فقالت له فاندا : كيف ذلك ؟

– عرفتها حين كنت في أسر البستانية الحسناء فانها تنتج عن ضباب كثيف تخرج منه هذه الرائحة العطرية المسكرة ولا شك عندي الآن ان هذه الارلندية المتسولة هي نفس تلك المرأة التي يراقبها ميلون ، أي البستانية الحسناء بعينها .

فقالت له فاندا : ربما صح قولك فأتم القراءة لنرى .

فعاد مرميس إلى القراءة وتلا ما يأتي :

الفصل الثامن عشر من كتاب الفيروزة

وكان الدخان يتصاعد في تلك القاعة التي كان فيها المركيز ويتكاثف فيحيط به . ويملأ خياشيمه ورئتيه ، فيرد اليه الحياة ويشفيه تباعاً من ذلك التخدير .

وبعد أن عادت اليه حاسة الشم عادت اليه حاسة النظر ففتح عينيه ورأى ضباباً كثيفاً رطباً شفافاً فكان يرى من خلاله جميع موجودات تلك القاعة .

وقد رأى انه في قاعة بديعة مفروشة بأثمن الأثاث الشرقي ورأى مصباحين جميلين موضوعين فوق المستوقد .

وكانت الارلندية لا تزال جالسة على البيانو تعزف عليها تلك الألحان البدوية ، ولكن المركيز كان نائماً على مقعد وراءها فلم ير وجهها وجعل يقول في نفسه : أيمكن ان تكون هذه المرأة تلك الارلندية التي لقيتها في خمارة الملك جورج ؟

اني سمعت صوتها وأناشيدها فهي ذات الأناشيد التي سمعتها في خمارة الملك جورج .

والصوت نفس صوتها الرخيم ، ولكن ما هذا الثوب الذي تلبسه وما هذا الجلال الذي تبدو فيه وما هذه القاعة التي أنا فيها ؟

ثم قال بصوت مرتفع وقد اشكل عليه حل هذه الألغاز ولكن أين أنا؟

فسمعت الفتاة صوته وانقطعت عن الغناء ثم التفتت اليه فصاح صيحة دهش عظيمة وقال : هي .. هي !

وقد رأى تلك المرأة التي خلبت لبه ، لكنه لم يجدها تلك الارلندية ذات الثياب الخلقة الرثة بل رآها بمظهر السيدات العظيمات وقد لبست ثوباً من الحرير الأبيض يشف عن معصمين كالمرمر وصدر كالعاج وهي تبتسم ابتساماً يفتن النساك فلم يتمالك عن الدهشة وترديد ذكر تلك المحاسن .

كان الدخان قد تكاثف واحس برائحة عطرية تنبعث منه فتخدر دماغه وحدث له نشوة الشاربين .

أما الارلندية فإنها اقبلت اليه بتيه ودلال فمدت له يدها المترفة الناعمة وقالت السلام على المركيز .

فارتعش المركيز حين لمست يده كأنه قد مس آلة الكهربة فوثب عن المقعد وركع أمامها وقبل يديها وجعل ينظر اليها نظرة هيام ويقول لها : ما أبدع هذا الجمال !

فابتسمت له وقالت : لقد سمعت من غيرك هذا القول .
ثم أخذت كرسياً فأدنتها منه وجلست بقربه فقالت له : ربما ظننت انك حالم ولكنك في أتم اليقظة فانك نمت في خمارة كالكراف واستفقت عندي .
– إني لم أكن نائماً يا سيدتي .
– هو ما تقول فانك كنت تسمع مدة رقادك كل ما كان يقال حواليك وقد ذهلت حين علمت ان هذه الارلندية الفقيرة تهب المئات ولهـا قصور ومركبات .
– هو ذلك ولكني لا أفهم شيئاً من جميع الألغاز .
ثم جعل ينظر اليها نظرات دهش وحيرة تشير إلى ان كل ما يجري حواليه هو فوق عقول البشر .
فابتسمت له وقالت : ألم تقرأ قصة الف ليلة وليلة ؟
– نعم .
– إذاً افترض اني السلطانة شهرزاد، وانك بدلاً من أن تقرأ حكاية مكتوبة ترى حكاية ممثلة. ولا تسألني كيف عرفت اسمك وكيف جئت بك الى هنا فإن جهدك يذهب سدى .
– إن جمالك الفتان يشغلني عن كل سؤال .
– إذاً أنا جميلة في عينيك ؟
– بل انت حورية هربت من السماء .
– ألا تخشى ان أكون من الأبالسة ؟
– كوني كما تشائين فأنت أجمل من تقع عليه العيون .
وكان الضبـــاب لا يزال يتكاثف ، وسكر المركيز يتزايد . فوضعت يدها بين يديه وقالت له : أحبـك .. نعم أحبك منذ عهد بعيد ، وأنت لا تدري
فانذهل المركيز وقال : أنت تحبينني ؟

– نعم أحبك حباً ليس بعده حب .
– ولكني لم أرك مرة قبل اليوم .
– لقد أخطأت ايها الحبيب فقد رأيتني في اسبانيا .

فانكشف للمركيز في الحال حجاب الماضي وتمثلت تلك الارلندية لعينيه فتاة صغيرة فذكر تلك النورية التي رآها في عصابة مينوس مع برديتو حين كان ذاهباً مع أمه الى قاديس

وكأنما تلك الفتاة عرفت من عينيه فكره ، فقالت له . أرى من عينيك انك قد عرفتني ، فإنني روميا النورية خليلة برديتو . ولكن برديتو كان أخاك ، وكان يشبهك كل الشبه . وهو قد مات وأنا أحبك . أعلمت الآن ؟

ثم طوقت عنقه بذراعيها وقبلته قبلة عاشق وهي تقول . ان برديتو قد مات ولكني أقسمت يميناً لخياله .

فقال المركيز وقد تمكن منه السكر . ما هذا القسم الذي أقسمته ؟

فأجابته : أقسمت ان لا أستسلم لك إلا بعد مرور عامين على وفاته ، وقد كاد ينقضي هذا الزمن ، فلا أنكث بيميني إذا استرسلت في هواك .

وكان المركيز ينظر اليها نظر المفتون دون أن يجيب فقالت : واعلم أيها الحبيب إني من بنات ذلك الشرق الذي تكثر فيه الأوهام ويتغلب الخيال على الحقيقة . فهلم نشترك معاً في التدخين بهذه النرجيلة . خذ ، إنها ذات أنبوبتين .

ثم وضعت أحد الأنبوبتين في فمه وقالت له : إشرب ، إني أريد .

ولم يبق للمركيز إرادة لدى هذه الفتاة فجعل يدخن فيملأ دخان الحشيش والأفيون رئتيه .

وذهبت روميا وغادرته صريع سكره في تلك الغرفة ، وكان يخال له

وهي بعيدة عنه ، انها معانقة له . فيقبل الهواء وهو مطبق العينين لسكره ، ويعتقد انه يقبلها ويخاطبها بأرق الفاظ الغرام .

الفصل التاسع عشر من كتاب الفيروزة

قالت الفيروزة: إني أنا التي أخبرت المركيز عن مدة أسره في قبضة روميا ولولاي لما عرف شيئاً من هذا ، لان الأفيـون قد أثر به تأثيراً شديداً وأضل صوابه. فكانت تمر به الساعات دون ان يشعر وهو لا يعلم اذا كان حبه لروميا في اليقظة أم في الحلم ، ولا يدري اذا كانت هذه المرأة حقيقة أم خيال . وهذا ما يحدث لكل من يشرب الأفيون .

وكان كلما صحا من سكره يعتقد اعتقاداً راسخاً ان روميا تحبه ، ثم تعود وتسقيه من ذلك السم الزعاف فيعود الى غيبوبة السكر .

وبقي على ذلك سبعة أيام وهو لا فرق عنده إذا حضرت أم غابت لأنها كانت ممثلة له بكل مخيل ، تناغيه بلفظها الحنون وتشنف سمعه بصوتها الرخيم ، وفي هذه الأيام السبعة لم يذق طعاماً ، لأن من يشرب هذا النوع من المسكرات قلما يتناول الطعام .

وكانت روميا تنزع الأنبوبة من فمه من حين الى حين، وتطعمه حبة مصنوعة من مادة مخدرة فلم يذكر انه دخل الى فمه غـير هاتين الحبتين في جميع تلك المدة .

ثم انقضى هذا الحلم في صباح يوم ، إذ صحا عند الفجر فشعر ببرد شديد ورأى نفسه ملقياً على أرض كثر فيها الجليد وهو بملابس البحارة على مثل ما كان عليه في خمارة الملك جورج .

والعجيب ان اللصوص لم يسلبوه عدة نومه ، وهو ما يعد عجيباً في لندرا .

فقد كان في جيبه مائة جنيه ذهباً وأوراق مالية ، وكان لابساً ساعة بسلسلةمن الذهب فبقيت في جيبه ولم تمد اليها يد السارقين .

غير ان المركيز لم يذكر شيئاً من ذلك ، فإنه بعد ان مر به سبعة أيام لا يتغذى إلا بالحشيش والأفيون أصبح معتوهاً أبله ، فلم يذكر عند صحوه غير روميا وبقي يناجيها وهو يعتقد انها لا تزال وإياه .

ومر في ذلك الحين بوليس ورأى ظواهر بلاهته وسمع أقواله ، فحكم عليه بالجنون . وسار به إلى دائرة البوليس فحكم البوليس بجنونه ايضاً ، وقرر إرساله الى المستشفى .

غير انه اتفق وجود طبيب في الدائرة رأى المركيز فعلم حالته وأنكر جنونه ، وأثبت لرئيس البوليس أن ما أصابه كان من تأثير الأفيون ، ولا حاجة الى إرساله للمستشفى . وانه إذا أرسل الى منزله شفي من تلقاء نفسه بعد بضعة أيام .

فوافق الرئيس على قول الطبيب وفتشوا جيوبالمركيز علهم يجدون أوراق تدل على اسمهفوجدوا جواز سفره وعرفوا الفندق الذي كان مقيماً فيه فأرسل اليه وعرفه صاحب الفندق .

وفي الليلة نفسها أرسلوا معه من أوصله الى فرنسا فخفف السفر شيئاً من اضطراب دماغه . ولما وصل إلى باريس كان لسانه قد انطلق بالكلام ، فدل الرجل الذي كان يرافقه على منزلي وجاءني به وقد علمت كيف وصل .

قالت الفيروزة : والآن ايها العزيز روكامبول لم يبق لدي شيء أخبرك بـه سوى تتمة ما جرى للمركيز .

وذلك انه مرت ستة أشهر فشفى المركيز أتم الشفاء وعاد اليه صوابه ، بل عاد اليه زهوه القديم ، ولكن خـوفه على ولده كان يزيـد لاعتقاده أنه له أعداء يريـدون قتله واختطـاف ولده . فكان يزورني كل يوم ليتفقده عندي

وكان يذهب الى النادي ، ويحضر سباق الجياد ، ولا يفوته تمثيل رواية جديدة . غير اني كنت ألاحظ منه أثر انكماش في نفسه ، على ما كان يبدو من ظواهر ارتياحه ، فقلت له مرة : ما بالك هاجساً العلك لا تزال تفتكر بهذه المرأة ؟..

فقاطعني وقال لي بعنف : ربما !.

ثم تركني وانصرف وفي اليوم التالي عاد وهو يبتسم ، فلم أذكر له تلك المرأة بعد ذلك .

ومضى على ذلك عدة أيام . الى أن جاءني ليلة وعليه ملامح الاضطراب الشديد ، فنظرت اليه نظرة رعب وما جسرت على سؤاله. ثم رأيته انعكف على تقبيل ولده بلهف ، فلم أجد بدأ من سؤاله عن هذا الاضطراب فقال لي : إنني رأيتها .

فذعرت وقلت : من هي التي رأيتها ؟

– روميا ! وقد مرت بي مرور البرق في الشانزليزيه وهي في مركبة مقفلة فعرفتها وهي هي بعينها .

فما جسرت على ان أجيبه . ولبثت أنظر اليه نظرات تشف عما داخل قلبي من الرعب .

ولكنه لم يكترث بي وعاد الى حديثه فقال : نعم هي بعينها ! وقد حاولت أن أقتفي أثرها بجوادي الى الشارع الملكي ، وهناك احتجبت عن نظري . . إنها دون شك في باريس ... ولكن باريس متسعة فأين أجدها ؟

فاضطربت لقوله وقلت له : ايها التعس كيف تهتم بلقائها العلك نسيت ما أصابك منها ؟

وكأنما عادت اليه ذكر ذلك الجنون فذعر وقال : كلا إنني لن أراها ولا أهتم بها .

وأقام في المنزل ثلاثة أيام لم يخرج منه لحظة الى ان قال لي لقد شفيت الآن تماماً ولم يعد علي أقل خطر من هذه المرأة .

وكنا في ذلك الوقت في زمن الربيع فقال لي : أتريدين ان نسافر ؟

– إلى أين ؟

– نسوح في اوروبا أو نذهب الى جبال سويسرا كما تشائين .

فتلقيت اقتراحه بالسرور لحذري من ان يرى تلك المرأة مرة ثانية في باريس وقلت أسافر معك الى حيث تشاء .

– إذاً تأهبي للسفر فسنسافر غداً .

ثم تركني وانصرف الى النادي .

وكان آخر العهد به وأسفاه ، فقد جاء الغد وتعاقبت الأيام دون ان يعود وفي ذلك العهد شاع خبر اختفائه الغريب

الفصل الأخير من كتاب الفيروزة

لقد سمعت يا روكامبول دون شك بخبر اختفائه وعلمت ان البوليس بحث عن المركيز في جميع انحاء المعمور ، فلم يهتد الى أثره

وسيضيع كل جهد في البحث عنه ، إذ ليس من يعلم حقيقة ما جرى له إلاي ، ولكني كنت مضطرة الى الكتمان ، لانني كنت أقسمت يميناً محرجة للمركيز دي مورفر أن لا أذكر لأحد ولا اتكلم عنه أمـــام أحد ، وذلك لفرط خوفه على ولده ، إذ لو علم أعداؤه علائقي معه لوجدوا الولد ما عدموا وسيلة للفتك به

ومضى شهر على اختفائه دون ان أقنط من رجوعه .

على انني كنت واثقة من انه في قبضة روميا ، ولكني كنت مترددة بين ٣

مسائل وهي هل تقتله بطريقة السكر ؟ وهل يحبها حباً أكيداً ؟ وهل مات بورديتو حقيقة ؟ فلم يتيسر لي حل مسألة منها .

وكان الولد يسألني كل يوم عن أبيه فلا أدري بماذا أجيبه .

إلى ان ورد إلي بعد عهد بعيد ، كتـــاب علمت من طابعه انه من مرسيليا ، وعلمت من خطه انه من المركيز . ففضضته بيد ترتعش من الفزع وقرأت ما يأتي :

« أسألك العفو أيتها الحبيبة ، فإن الأقدار قد عبثت بي ، وبراثن روميا قد نشبت في ، لأن تلك المرأة التي أخشاها وأعبـدها قد تمكنت مني كما تشاء . وأنا لا أعلم اذا كانت ملاكاً أرسل من السماء ، أو شيطاناً رجيماً قذفته جهنم .

قد أفرغت كل جهد للافلات من قبضتها ، فما وجدت الى ذلك سبيلاً وهي تقودني الى حيث تشاء ولكني لا أعلم الى اين

إن باخرة تنتظرنا في الميناء سنسافر عليها غداً . وقد سألتها متى نعود الى باريس فقالت : بعد عامين

إني تركت ولدي ، وقد تمكنت من ان أكتب اليك هذا الكتاب السري خفية عن روميا لانها منعتني عن الكتابة وانها لا تريد ان يعلم احد اين انا وإذا كنت ميتاً او في قيد الحياة

ولا بد ان تقلق الحكومة وأصحابي لاحتجابي ، فإني اتخذت كل الوسائل لإخفاء آثاري .

على ان الحكومة لا تهتم بالبحث عني إلا بعد عدة أيام ، لكن يجب عليك السرعة في كل حال .

إن الحكومة ستبحث عني دون أن تجدني ، فيحسبونني ميتاً ويضعون الأختام على منزلي فابحثي في جيب سترتي تجدي مفتاح حديقــة منزلي ، فخذيه واذهبي الى المنزل وترقبي خروج الخدم منه فادخلي وخذي المال من آنية الزهر

التي أرشدتك اليها .

وإنما أرجوك ان تسرعي بأخذ المال لأني أشعر ان هذه المرأة قد ملكت فؤادي وتملكت عواطفي ولا بد لي من ان أبوح لها بكل أسراري لأنها تريد ان تقف مني على كل شيء .

أودعك وداعاً قد يكون أبدياً ، فاندبي بختي العاثر واشفقي علي ، وأحبي ولدي »

(غوستاف)

وكان هذا الكتاب يا روكامبول آخر ما وقفت عليه من أخبار المركيز ، لكنه يكفي لحملي على الاعتقاد بأن المركيز لم يمت. أما هذا الكتاب الذي أرسله إلي فقد وصل الى إدارة البريد في ٢ أبريل ولم يصلني إلا في ٣٠ يونيو . وكانت الأختام قد وضعت في خلال هذه المدة على منزل المركيز ، فلم أتمكن من الحصول على المال .

ولم يكن عندي غير ٣ آلاف فرنك وبعض الجوهرات فعشت بها عامين مع ذلك الغلام .

وقد تمكن مني الحزن على هذا الحبيب ويأست من لقائه وساعد الحزن واليأس ما كنت أعانيه من شظف العيش فمرضت وشعرت بدنو الأجل .

وأقمت عامين أنتظر رجوعه دون جدوى ، وكنت أخاف أن يكون قد مات . ولكن صوتاً سرياً كان يحدثني بأن المركيز حي ، غير انه يعذب عذاباً شديداً يفضل عليه الموت ، وإنه لا يستطيع إنقاذه غير انت يا روكامبول .

فإذا تمكنت يا روكامبول من الحصول على الآنيتين من منزل المركيز دي مورفر ، فافعل فإنك تضمن بذلك مستقبل الغلام وتطمئن نفسي فتباركك من العالم الاخير .

الوداع فإني متوكلة عليك » . (الفيروزة)

هنا انتهى كتاب الفيروزة ، ولكن يد روكامبول قد خطت عليه هذه الحاشية وهي :

(إن الأختام لا ترفع عن منزل المركيز دي مورفر إلا متى ثبتت وفاته ثبوتاً قضائياً .

أمــا ابن المركيز فهو آمن الآن شر العوز ، ولا حاجة إلى التعجيــل لنيل مال أبيه ، ولا بأس من الصــبر مدة عامين ، ثم نسعى بالحصول على الآنيتين) .

فلما تمت قراءة ذلك الكتاب الغريب جعل مرميس ينظر الى فاندا وهي تنظر اليه ، فقالت له : إننا لم نقف على شيء مهم من هذا الكتاب .

— لكنني علمت منه امراً لم يعد لدي به ريب على الاطلاق .

— ما هو ؟

— هو ان روميا والبستانية الحسناء شخص واحد

— وبعد ذلك ؟

— أما وقد باتت البستانية الحسناء في أيدينا فسنكرهها على إخبارنا بما حدث المركيز .

وبينما هو يقول هذا القول فتح الباب فجأة ودخل منه ميلون مصفر الوجه ممزق الثياب وعليه علائم الذعر فقال : لقد أخطأت يا مرميس لأن هذه المرأة لم تقع في قبضة يدك .

فذعر مرميس وقال ماذا تقول ؟

— إن الطير قد فر من القفص

ثم جلس ميلون على كرسي وهو منهوك القوى بينما كانــ مرميس وفاندا ينظران اليه نظرات الانذهال .

وكانت تلاوته كتاب الفيروزة قد طالت الى الليل في حين ان مرميس كان يسرع بغية الوقوف على النتيجة .

وكان له ثقة تامة بخضوع ميلون فلم يخطر له في بال ان ميلون يبرح المركز الذي عينه فيه لمراقبة البستانية الحسناء .

فلم يجد مع فاندا كلمة يقولها حين رأى ميلون على هذه الحالة وجعل كل منهما ينظر الى الآخر .

ثم افتتح مرميس الحديث وقال له ماذا دهاك يا ميلون ؟

وكان ميلون شديد الاضطراب يتكلم ويتلعثم فلم يفهما حكايته إلا بعد الجهد وهذا بيان ما حدث له :

يذكر القراء أنه بينما كانت البستانية الحسناء مع زوجها يتفقدان الأعمال في ذلك المنزل الذي استأجراه للمصيف كما قدمناه ، دعا خادم المركبة ميلون الذي كان يسوق جيادها كما قدمناه ، إلى شرب كأس من البيره في خمارة مجاورة للمنزل .

ويذكر القراء انه حين دخل ميلون مع الخادم الى الخمارة ، وشرب وإياه الكأس الأول أشار الخادم إشارة خفية الى العمال الذين كانوا في الخمارة فانقضوا على ميلون والقوه الى الأرض وقيدوا يديه ورجليه بالرغم عما أظهره من الدفاع الشديد .

وكان في تلك الخمارة قبو مظلم ، فأنزلوه اليه وربطوا فمه بمنديل ثم تركوه وانصرفوا . فبذل كل ما لديه من القوة للتخليص من قيوده ، فلم يفلح .

على أنه تمكن من تمزيق المنديل بأسنانه فانطلق صوته وجعل يصيح مستغيثاً مستنجداً . فلم يجبه غير الصدى ولم يسمع صراخه غير الذين قيدوه

لكنهم لم يقيدوه لينجدوه .

ومضى النهار كله وهو ملقى في أرض القبو والزبد يخرج من شدقيه دون أن يجد وسيلة للخلاص .

ولما أقبل الظلام رأى نوراً ينبعث من سلم القبو ثم رأى صاحبة الخمارة قادمة اليه وفي يدها مصباح .

فلما رآها ميلون هاج ثائره وصاح بها صيحة أرعبتها فتراجعت عنه قليلا وقالت له إن الصياح لا يجديك نفعاً وخير لك ان تسمعني .

فانقطع ميلون عن التهديد وسألها : ماذا تريدين ؟

أجابته . إنهم هزأوا بك وأساءوا اليك ، ولكني أستطيع نفعك ، إذا كنت تريد .

فحملق ميلون بعينيه وقال : العلك تفكين قيودي ؟

– ذلك منوط بك .

– كيف ذلك ؟

– إني يا سيدي امرأة فقيرة لا أكسب رزقي إلا بشق النفس ولذلك أرضى بالكسب كيفما اتفق مهما اختلفت وجوهه فإذا جاءني رجل وعرض علي مائتي فرنك فكيف أستطيع الرفض ؟

– العلهم دفعوا لك المال مقابل حبسك إياي في قبو خمارتك ؟

– هو ما تقول يا سيدي . ولكن كان الشرط بيننا ان أبقيك في السجن الى ان تغيب الشمس ثم أطلق سراحك فأنا الآن قادمة لفك قيودك ورجائي أن لا تسيء إلي .

فاحتدم ميلون غيظاً وقال تباً لك من شقية كيف لا تريدين ان لا أسيء اليك بعد ما بدر منك ومن أصحابك ؟

- ذلك موكول اليك فاذا كنت عازماً على ضربي فإني أبقيك هنا وأعود الى شأني .

فشعر ميلون انه أخطأ بوعيده وقال لها : لا بأس فكي قيودي وأنا أتعهد أن أسيء اليك .

– لا أقنع بالتعهد بل أريد منك يميناً .

– إني أقسم بالله اني لا أمد اليك يداً .

– إني أثق بيمينك لأني تبينت من عينيك علائم الصلاح ولكن الحرص واجب في كل حال .

فاضطرب ميلون وقال : ما هذا الحرص ؟ العلك رجعت عن حل قيودي ؟

– كلا ، ولكني سأحل قيد رجليك . ولست في حاجة الى إطلاق يديك لتمشي .

ثم أخذت مقصاً وقطعت الحبل الذي كان يوثق رجليه فوثب ميلون واقفاً. أما صاحبة الخمارة فقد كان خوفها عظيماً من ميلون فهربت منه حذراً من ان يسحقها برجليه .

أما ميلون فلم يكترث لها ، إذ كان كل اهتمامه منصرفاً الى البستانية الحسناء ليعلم اين هي فصعد الى الخمارة بسكينة ولقي صاحبتها فيها فقال لها : سيان عندي الآن إذا أطلقت يدي او أبقيتهما مقيدتين . ولكني أرجوك أن تقولي لي إذا كنت تعرفين من هم هؤلاء الناس الذين أساءوا إلي هذه الإساءة .

– إني لم أكن أعرف أحداً منهم أمس وقد جاءني في صباح اليوم رجل بناء وقال لي : أتريدين ايتها العجوز ان تكسبي ٢٠٠ فرنك ؟

فسألته ما يجب ان أعمل مقابل ذلك ؟

أجابني · لا شيء سوى ان تدعينا نفعل في خمارتك ما نشاء وان تسمحي لنا بقبو الخمارة .

فقال ميلون : ولكن السيد والسيدة اللذين كنت أسوق مركبتهما ماذا

حدث لهما ؟

– ألم يكونا سيديك ؟

– كلا .

– إنني لم أعرفهما وما رأيتهما من قبل .

– وهؤلاء العمال الذين قيدوني ؟

– إنهم لم يشتغلوا في ذاك البيت قبل اليوم .

– من هو صاحب البيت الذي يشتغلون فيه ؟

– نبيل من أهل سانت جرمان .

– ماذا يدعى ؟

– الدوق دي فنسترنج .

فعلم ميلون انه لا يستطيع ان يستطلع منها فوق ما علم ، فقال لها بلهجة تبينت منها الصدق : إني لا أريد بك سوءاً لأنك كنت مكرهة على التغاضي عن هؤلاء الأشرار ، وان يجيبي ٥٠ فرنكاً فاذا حللت وثاقي أعطيتك هذا المال .

فاطمأنت العجوز لكلامه وحلت وثاق يديه وأبت أن تأخذ المال مكتفية بما كسبته فغادرها ميلون وأسرع الى الشارع وركب مركبة وسار بها الى منزل البستانية الحسناء .

ولما وصل اليه نظر الى نوافذها فلم يجد أثراً للنور ، فطرق الباب ففتحته امرأة وقالت له : ماذا تريد ؟

– أريد ان أكلم سيدة المنزل .

– انا هي يا سيدي .

ولما رأته ينكر عليها هذا القول ، تبسمت وقالت له : العلك تريد محادثة تلك الاسبانية ، التي كانت مستأجرة منزلي بأثاثه ، ولكنها سافرت مع زوجها ، في الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم ، في القطار المسافر

الى بلجيكا

فانصرف ميلون عنها وقد انقتم وجهه بظلمة اليأس وعاد بمركبته الى فاندا ومرميس حيث لقيهما على ما وصفناه .

فلما سمعت فاندا حديثه انصرف فكرها الى روكامبول فقالت : إنه مضى على سفره عامان وهو لم يعد الى الآن .

فتنهد مرميس وقال : لو كان الرئيس هنا لما لقينا هذا الفشل ولما وقعنا بهذا الاشكال .

وفيما هو يقول هذا القول طرق الباب الخارجي طرقاً يدل على قدوم زائر فارتعش الثلاثة كأنما قلوبهم قد اشتركت بعاطفة واحدة .

- ٢٤ -

وسكت الثلاثة هنيهة ، وكل منهم ينظر الى الآخر نظرات تشف عن الرجاء بأن يكون القادم روكامبول . فإنهم كانوا يعتقدون ، بعد ان نامت فاندا ذلك النوم المغناطيسي ، أن روكامبول لا يزال حياً وقد حان موعد رجوعه .

وكان اول من تكلم معهم مرميس فقال : العله الرئيس عاد الينا ؟

ثم قام مسرعاً الى الباب ففتحه ودخل ذلك الزائر ، فرأى أنه لم يكن روكامبول ، ولكنه كان رجلاً لابساً ملابس الأوروبيين وهيئته تدل على انه من الهنود .

وكان بيده كتاب مختوم ، فانحنى امام مرميس وحياه تحية شرقية ، ثم دفع اليه الكتاب . فما اوشك ان قرأ العنوان حتى صاح صيحة دهش ، إذ عرف من خطه انه من روكامبول ، وكانت فاندا وميلون قد أقبلا

وكان الكتاب معنوناً باسم فاندا ومرميس فأخذته فاندا وأسرعت الى فضه فقرأته وهو كما يأتي :

« أيها الرفاق

إنكم قد اطلعتم دون شك على كتاب الفيروزة وعرفتم الآن من هي هذه المرأة التي تدعى البستانية الحسناء وعلمتم ضرورة البحث عن المركيز دي مورفر فابحثوا فقد دنت ساعة العمل .

إنك يا مرميس وانت يا فاندا جديران بان تكونا من أعواني فاعملا يداً واحدة مع ميلون .

إن الرئيس من ورائكم وهو ساهر عليكم فلا تخافوا »

(روكامبول)

ولم يكن لهذا الكتاب تاريخ ولم يكتب فيه المكان الذي صدر منه ، فلم يعلموا اذا كان ورد اليهم من باريس او من أقاصي الهند .

فنظرت فاندا الى الهندي وقالت له بلهف : اين روكامبول ؟ العله في باريس ؟

فلم يجبها الهندي بحرف

فهز مرميس ذراع ذلك الهندي وقال له بصوت يتهدج : بربك قل لنا اين هو الرئيس ؟

فرفع الهندي عينيه وهز كتفيه إشارة انه لا يفهم ما يقول .

فقال له مرميس : أتفهم اللغة الانكليزية ؟

فبرقت عين الهندي وأشار برأسه إشارة إيجاب فقال له مرميس : أين هو روكامبول ؟

فلم يجبه الهندي ، ولكنه أشار اليه إشارة علم منها أنه إما أن يكون غير عارف بقر روكامبول ، أو انه يعرف اين هو ولكنه لا يقدر

أن يقول

غير ان مرميس لم يكتف بهذه الاشـارات فقال له : ما بالك لا تجيبنـا العلك أخرس ؟

وعند ذلك فتح الهندي فمه فذعر الثلاثة ذعراً شديداً إذ رأوا هذا المنكود مقطوع اللسان

ولما رأوا هذا المنظر الهائل قال له مرميس : من قطع لسانك ؟ العلهم الانكليز ؟

فأشار الهندى إشارة نفي .

فقال مرميس ام هم الخناقون الذين شنعوا بك هذا التشنيع ؟

فأشار الهندي إشارة إيجاب،ثم أشار اشارات اخرى فهم منها مرميس ان الخناقين أوشكوا ان يخنقوه وان نجاته منهم كانت من العجائب .

فقال له مرميس : من الذي انقذك من مخالبهم ؟

فوضع الهندي يده على كتاب روكامبول إشارةعلى انه هو الذي أنقذه فقال مرميس : والآن ألا تريد ان تقول لنا اين هو الرئيس ؟

فأشار اشارة نفي ، ثم رسم علامة الصليب على فمه فعلموا انه اقسم يميناً على الكتمان .

فقال ميلون . كفى لا تسألوه ولنحترم يمينه وإرادة الرئيس .

فقالت فاندا بيأس : كيف ذلك ؟ أيكون الرئيس قريباً منا ولا نستطيع أن نراه ؟

أما الهندي فانه انحنى امامهم وانصرف .

فقالت فاندا : لا بد لي ان أعرف اين ذهب .

ثم دخلت مسرعة الى غرفتها فلبست قبعتها وخرجت في أثر الهندي لكنها لم تدركه إذ كان قد توارى عن الأنظار .

فقال لها مرميس حين عودتها : لقد أخطأت في اقتفاء آثاره لان الرئيس لم

يكتب لنا إلا لأنه لا يريد أو لا يستطيع أن يرانا فلنمتثل له ونبدأ في كشف الظلمات عن سر اختفاء المركيز دي مورفير .

والآن ، فان فاندا ومرميس قد وقفا على كتاب الفيروزة فعلما منه حقيقة أمر البستانية الحسناء واتصالها بالمركيز انما بقيا جاهلين ما جرى لهذا المركيز وهو ما طالما سعى اليه البوليس وأهل باريس .

وسنتولى كشف هذا السر للقراء فنعود بهم إلى عهد عامين من قبل أي منذ خرج المركيز دي مورفر من نادي أسبرج إلى منزله فاعطاه البواب ذلك الكتاب الذي يذكره للقراء فاختفى بعده ذلك الاختفاء .

- ٢٥ -

عندما تناول المركيز الكتاب من يد البواب وتمعن في عنوانه ارتعش إذ رأى خطه يشبه خط ذلك الكتاب الذي ورد اليه قبل ذلك بشهرين من لندرا .

ورأى من الطابع أن الكتاب وارد من لندرا أيضاً فزاد اضطرابه وأسرع إلى فضه فنظر إلى التوقيع فقرأ اسم روميا .

وقد اصفر وجهه حين قرأ اسم هذه المرأة ولم ينس بعد ما أصابه منها وقرأ الكتاب وهو كما يأتي :

(حبيبي غوستاف

غداً يمر عامان على موت برديتو فاصبح حرة وحق لي أن أهواك .

إذا كنت لا تزال تهواني اخرج من منزلك دون أن تدع أحداً يعلم إلى أين أنت ذاهب واذهب الى شارع مدلين تجد في اول منعطف منه مركبة اجرة ذات جوادين احدهما اسود والآخر أبيض ونمرة المركبة ١٧٦٣ اصعد اليها

وقل للسائق أن يسير بك الى شاليون فلا يمر بك بضع دقائق حتى تغدو بين ذراعي من تحبك الى الموت) .

(روميا)

وبينما كان المركيز يقرأ الكتاب كان البواب قد ذهب الى غرفته فلم ير اضطراب المركيز .

فلما أتم تلاوته تردد حيناً وذكر الفيروزة وابنه وتازع قلبه حبهما وحب روميا فكان الفوز لهذه الفاتنة فنادى البواب وقال له : اني ذاهب وقد لا أعود قبل صباح غد ، ثم ذهب الى حيث دفعت به الأقدار .

وكان يمشي بخطوات سريعة مضطربة وهو كأنه مصاب بحمى حتى وصل الى المكان الذي عينته له روميا فوجد تلك المركبة بعينها وعرفها من جواديها وغرتها فدنا من السائق وقال له : الى شاليون .

علم السائق انه هو الرجل المنتظر وقال له : تفضل .

وصعد الى المركبة فصعد المركيز وسارت به تقطع الأرض نهباً وكانت المركبة محكمة الأقفال وزجاجها مدهون بدهان أبيض منعه أن يكون شفافاً بحيث لم يعلم المركيز الى أين يذهب به السائق غير انه لم يكترث لشيء من ذلك لشغفه بتلك المرأة ولاعتقاده انها مكتنفة بالأسرار ، وما زالت المركبة تسير حتى شعر بعد نصف ساعة انها وقفت ، ثم سمع صوت فتح باب كبير فدخلت منه المركبة وأقفل بعد دخولها وعند ذلك وقفت ودنت خادمة من بابها وفتحته وقالت له : تفضل واتبعني يا سيدي المركيز .

فخرج المركيز من المركبة فرأى انه بوسط حديقة باسقة الأشجار وفي نهاية الحديقة منزل جميل ، ثم سار في أثر الخادمة فصعدت به الى الدور الأول من المنزل وأدخلته الى قاعة ، ثم قالت له : تفضل يا سيدي فان السيدة ستحضر قريباً .

فجلس المركيز على مقعد من مقاعد تلك القاعة وأجال فيها نظر الفاحص

وذهل مما رآه إذ أن هذه القاعة كانت تشبه القاعة التي كان فيها مع روميا في لندرا شبهاً غريباً ، كأنها قد نقلت من لندرا إلى باريس ، وأغرب ما رآه مصباحان كانا على المستوقد ، كانت تنبعث منهما نفس تلك الرائحة العطرية المسكرة التي شمها وسكر منها في قاعة لندرا .

ولما ملأ الدخان رئتيه وبدا السكر يتمكن منه دخلت روميا فلم يراها أجمل مما رآها في تلك الساعة وأسرع اليها وهو يتهادى من سكره ، فابتسمت له ابتساماً أضاع رشده ، وجلست معه على مقعد واحد فنظرت اليه نظرة عاشق مفتون وقالت وهي تبتسم : اني لا أستطيع أن أحبك قبل الغد في مثل هذه الساعة .

وركع المركيز أمامها وقال : كيف أصبر إلى الغد ولماذا ؟

ـ إن غداً سيكون يوم مرور عامين على وفاة برديتو ، ألم تقرأ كتابي ؟

ـ قرأته وأنت تقولين فيه غداً أكون لك ، ألم يكن تاريخ الكتاب أمس؟

ـ هو ذاك ولكني لم أعتبر تاريخ كتابته ، بل تاريخ وصوله اليك .

فقبل يدها بلهف وقال : إن ساعات هذا الغد تعد بالأعوام والعصور ومن لي بمرورها .

وكان السكر قد تمكن منه وبدت دلائله بتلعثم لسانه واتقاد عينيه ، ولم يكد يقول هذا القول حتى افلتت منه فجأة وقالت بلهجة المضطرب · ويلاه ان خوفي شديد .

فاضطرب المركيز وقال على م الخوف أيتها الحبيبة وممن تخافين ؟

ـ لا أستطيع أن أقول ... كلا لا يجب أن تعلم ... ولكنني لا أستطيع أن اكتم أمراً عنك .. ويلاه يخـــال لي انه معنا في هذه الغرفة ... اني أشم رائحته .. اني أشعر بأنفاسه تحرقني . وأرى نظراته تنفـذ إلى قلبي كالسهام .

فاضطرب مورفر وقال : من هو هذا فإني لا أرى أحداً .

– برديتو .
– ألم تقولي لي انه مات منذ عامين ؟
– عامان ينقصان يوماً .
– إذاً اطمئني فإن الأموات لا يبعثون في الأرض .
– إن هذا اعتقادكم أهل الكتب المنزلة ، أما أنا فلست منكم واعتقادي ان الغيرة إذا اشتدت تبعث العشاق من القبور
– ولكن برديتو ليس له قبر .
– كيف ذلك ؟
– ذلك انه شنق ولم يدفن فكان قبره بطون العقبان .
فزاد اضطراب روميا ووقفت، مذعورة وقالت : اني أشم رائحته ..انه هنا . إن أنفاسه تهب على شعري .
– اطمئني ايتها الحبيبة فإن الأموات لا يتنفسون .
– هوذا عيناه تنظران إلي نظر الحقد والوعيد .
– إن الأموات لا ينظرون فاهدأي .
– إني أراه ، بل أسمع دقات قلبه .
– قلت لك اطمئني أيتها الحبيبة فإنها خيالات تمثلها لك الأوهام ومتى كان للأموات قلوب تنبض ؟
ثم هاج اضطرابها ،وهاج ثائر غرامه فقام اليها وضمها إلى صدره ضماً عنيفاً وللحال اصفر نور المصباحين، وسمع في تلك الغرفة قهقهة شديدة لم يعلم المركيز مصدرها لأنها كانت تسمع من كل مكان .
فقابلت روميا هـذا الضحك السري بصياح الرعب ثم انطفأت الأنوار وانقطع الضحك
وظهر فجأة في تلك الغرفة لهب أحمر تحول بعد ظهوره إلى لون بنفسجي ثم أبيض ، وظهر في وسط هذا اللهب خيال أسود .

وكان هذا الخيال خيال برديتو وسمعه المركيز يصيح بروميـا ويقول لهـا احـذري أيتها الخائنة .

- ٢٦ -

كان المركيز باسلا ، ولم يكن من أهل الأوهام ، ولكنه شعر بأن الدم قد جمد في عروقه لما تولاه من الرعب ، فأفلتت روميا من يده دون أن يمنعها ، وصاحت صيحة منكرة وهربت فتبعها صوت الخيال يقول : إحـــذري ايتها الخائنة .

ثم تحول النور الأبيض إلى نور بنفسجي ، ثم احمر ، ثم تلاشى ، فسادت الظلمة في الغرفة ، واختفى الخيـــال ولم يبق غير ذلك الدخان وتلك الرائحة العطرية .

وجعل المركيز ينادي روميا ، ولكنها لم تجب وحاول أن يخرج من الغرفة ولكنه لم يستطع ، فإن ذلك اللهب انبعث منه عند انطفائه رائحة كبريتية قضت على حواسه ، فما مشى خطوتين حتى سقط على الأرض وجعل ينـادي روميا فلم يجبه أحد .

ثم اشتدت عليه تلك الرائحة فأغمي عليه وأطبقت عيناه .

ولما استفاق من إغمائه زالت رائحة الكبريت ورأى أشعة المصباح قـــد نفذت إلى الغرفة وأحس بتخدر دماغه ، غير انه كان مالك الرشد فقـام إلى إلى النافذة ففتحها وجعل يتنشق الهواء النقي .

وكانت تلك النافذة تطل على الحديقة التي رآها حين دخوله إلى المنزل وهي عالية الأسوار ، فلم ير ما بعدها ، وعند ذلك تذكر تلك الليلة الغريبة التي مرت به ، وذكر ذلك الخيال الذي ظهر له بين اللهب ، وانه خيال برديتو .

ولم يكن لديه شك أن برديتو قد مات شنقاً مع عصابة مينوس فلم يسعه إلا أن يعلل ظهور هذا الخيال كأعجوبة أراد الله بهـا أن يعاقب روميـا على خيانتها .

ولقـد يتفق المرء في بعض أحواله ان فكره يضطرب حتى لا يعـلم إذا كانت الحقيقة قد استحالت إلى حلم ، أو ان حلم هو حقيقة الحياة ، وهذا ما أصاب المركيز ، غير أنه ذكر تماماً كل ما حدث له في تلك الغرفة ، وأنـه حين ظهور الخيال كان يضم روميا إلى صدره .

وفيما هو على ذلك إذ فتح الباب وظهرت روميا، وصاح المركيز صيحة فرح أما النورية فقد كانت مصفرة الوجه تدل عيناها على بكائها ، فدنت منـه وقالت له : إني أكاد أجن مما حدث .

– إذن إن ما حدث كان حقيقة ولم أكن من الحالمين .

– كلا أيها الحبيب فإننا لم نحلم ، وان برديتو بعينه ظهر لنا ولا بد لنا بعـد الآن من هذا الافتراق .

فركع المركيز أمامها وقال : أي افتراق تعنين فإني أهواك ولا يفرق بيننا غير الموت

– وأنا أيضاً أهواك ولكني أخشى برديتو .

– ما يهمنا الخيال أيتها الحبيبة فإن برديتو من الأموات .

– ألا تخاف الأموات أنت ؟

– اني أهواك ولا أخشى غير فراقك .

ففكرت هنيهة ثم قالت . اذكر اني سمعت في حداثتي عجائز قبيلتي تقول ان الأموات يلتمسون الاذن أحياناً بالخروج من القبور ولكنهم لا يستطيعون الذهاب إلا إلى محل معين ، وقد ظهر لنا برديتو في هـذا المنزل فاذا تركنـاه وصح قول العجائز فهو لا يستطيع أن يدركنا في موضع آخر

– إذن لنهرب .

– إلى أين ؟

– إلى حيث تريدين .

ففكرت هنيهة ثم قالت : إني أعرف مدينة لا أجد أبدع منها كأنها خلقت للعشاق

– العلك تريد بها نابولي ؟

– هي بعينها فمتى تريد ان نسافر اليها ؟

– اليوم بل الآن لأني لا أطيق أن أراك على هذا الاضطراب .

فهزت رأسها وابتسمت ابتسام الحزين ثم قالت : ان خيال برديتو قد انذرنا وربما لقيت حتفي بحبك فإذا كنت أخاطر من أجلك بحياتي بل إذا كنت أهبك هذه الحياة الا تهبني أنت مثل هذه الهبة ؟

– دون شك .

– إذن أريد أن تبرح باريس دون أن تدع أثراً يدل عليك ودون أن يعلم أحد من اهلك واصحابك أين انت فإذا وافقتني على ذلك نبرح باريس هذا المساء إلى أن اتخذ كل احتياطاتي .

فوافقها المركيز على كل ما ارادت ، وفي الليلة نفسها أمرت المركيز أن يتنكر ، ففعل وذهب الاثنان إلى المحطة فسافرا إلى مرسيليا ، ولما وصلا اليها لم يذهبا إلى فنادقها ، بل ذهبت به إلى منزل صغير معتزل مشرف على البحر وقالت له : ان السفينة التي ستسير بنا إلى نابولي تنتظرنا في هذه الميناء .

- ٢٧ -

إن من كان الشقاء قسمته لا يرى إلا الشقاء كيف سرى ، وهذا ما أصاب المركيز دي مورفر فقد ذهب الحب برشده فعمي عن مكائد هذه

المرأة وبات آلة بيدها تديره كيف تشاء ، فشغلته عن الافتكار بالفيروزة وأنسته ولده .

وكانت روميا قد تركته وحده في ذلك المنزل بحجة انها ذاهبة لتتفقد السفينة التي سيسافرا فيها وأقفلت عليه الأبواب .

فلما خلا المركيز في ذلك المنزل عاد اليه هداه وذكر ابنه ومع ذلك لم يخطر له خاطر الفرار من روميا لشدة شغفه بها ولكنه ذكر المال الذي عينه لابنه وقال في نفسه لا بد للفيروزة ان تستولي على هذا المال ، فان هذه الرحلة قد تكون آخر رحلاتي ، فكتب عند للفيروزة ذلك الكتاب الذي تقدم ذكره ، ولم يصلها إلا بعد شهر ، أي بعد فوات الأوان .

ولما كتب الكتاب أخذ يفكر في طريقة إرساله إلى البوسطة ، إذ لم يكن يستطيع الخروج من المنزل ، ففتح نافذة مطلة على الشارع ورأى سائساً يسير الهوينا ، وتبين في وجهه علامة السلامة والوفاء ، فناداه والقى اليه ذلك الكتاب مع قطعة من الذهب وكلفه أن يضع الكتاب في إدارة البريد ، فأخذ السائق الكتاب فرحاً بالعطية مثنياً على كرمه وانصرف .

وبعد هنيهة عادت روميا فعاد المركيز الى نسيان ولده وكل ما في الوجود حتى إذا أقبل الليل قالت له : إننا سنسافر في الليلة في السفينة ، وسنبرح المنزل بعد ساعة .

— كما تشائين أيتها الحبيبة فاني لا أخالف لك امراً .

وبعد ساعة قامت به إلى النافذة وقالت له . انظر إلى النور الأحمر انه نور السفينة التي سنسافر عليها .

ثم سمعت صفير ، فأخرجت صفارة من جيبها وصفرت بها ثم قالت له : ان هذا صفير القارب الذي جاء لنقلنا إلى السفينة فهلم بنا الآن .

وخرج الاثنان من ذلك المنزل إلى حيث كان القارب فنزلا به ومخر بهما إلى السفينة فلما وصلا اليها رأى المركيز على ظهرها شيخاً عجوزاً ذو لحية طويلة

بيضاء ظهر لحة ثم اختفى فقال المركيز : إني رأيت هـذا الشيخ فمن هو وأين رأيته ؟

وكان جميع البحارة قد أسرعوا إلى استقبال روميا باحترام عظيم يدل على انهـا السيدة المطلقة في تلك السفينة ، وكانوا ينظرون إلى المركيز نظرات الانذهال ويكلمون سيدتهم بلغة سرية لم يفهمها المركيز .

فسارت روميا إلى غرفة فسيحة مفروشة بأفضل الأثاث وقالت له هذه غرفتك . ثم أقفلت الباب وقالت له هلم بنا إلى العشاء .

وبعد ساعة كان المركيز صريع سكر وغرام لا يستفيق فقرعت روميا جرساً فدخل ذلك الرجل ذو اللحية البيضاء الذي رآه المركيز حين صعد إلى السفينة وهو يبتسم ابتسام الأبالسة .

وجلس الرجل أمام روميا وقال لها . إننا نستطيع أن نتحدث الآن فإنه لا يستفيق إلا بعد ساعتين .

— أانت واثق أنه لا يسمع حديثنا كما كان يسمعه حين اغمائه في لندرا .

— نعم فإن مخدر اليوم غير مخدر امس

فنظرت روميا إلى هذا الشيخ نظرة تهكم وقالت له إن الخدمة بأوامرك مجيدة يا أبي فإنك لست من البشر ، بل انت شيطان في صورة إنسان .

فهز كتفيه وقال إني أنتقم إذ لا أجد بداً من الانتقام .

— انتقم كما تشاء فإن هذا الرجل لا يهمني شأنه ، ولكن كل ذلك يقضي علي بالحذر منك .

— لماذا ؟

- اصغ الي تعلم فقد كنت تحب امرأتك حباً قوياً ، وقد هفت امرأتك فولدت برديتو من هذه الهفوة ولذلك يكون انتقامـك من برديتو وليس من مورفر .

— هذا ما يلوح لك بالظاهر وأما بالحقيقة فلا ونعم ..

اني قتلت مورفر الذي كان والد برديتو ، ووالد هذا المركيز الطريح عند قدميك ، ولكني لا أقتصر على قتل الرجـــل الذي دنس شرفي ، ولا يشفي آلامي غير الانتقـــام من أسرته بجملتها كي لا يبقى من يدعي مورفر بالوجود .

فقالت روميا : لا أنكر عليك يا حضرة الدوق حق الانتقام غير ان انتقامك من عائلة مورفر لا يمنعك أن تكره برديتو أيضاً ، فهو ابن تلك الزلة التي دعت إلى كل هذا الانتقام .

فقال لها الدوق دي فنسترنج : هو الحق مـــا تقولين فإني كنت أكره حبيبك برديتو من قبل كما أكره الآن هذا المركيز ولم أخنقه يوم ولادته لأني أردت أن أعد له عذاباً هائلاً ، لذلك عهدت به إلى مينوس وقلت في نفسي ، اما أن ينشأ شريف العواطف فيلقى شر عذاب لوجوده مع اللصوص ، واما ينشأ لصاً مثلهم فلا يكون نصيبه غير المشنقة .

وكان مينوس يخبرني بكل حوادثه وعلمت منه يوماً انه التقى بالمركـيزة وابنها في الجبل ، وما كان من تباغض الغلامين فخطر لي انتقام جميل وهو ان أثير أحقاد برديتو على أخيه ، ثم أجمع بـــين الاثنين فيمزق كل منهما الآخر ، ولكنك حلت أنت دون هذا المشروع .

فاندهشت روميا وقالت : أنا ؟

– نعم انت فـــاني حين توليت تربيتك وتربية برديتو رأيت انكما متساويان بفساد المبدا ، وانكما متحابان فكرهت أن افرق بينكما وزال من قلبي كره برديتو .

فنظرت اليه روميا نظرة المرتاب وقالت : احق ما تقول ؟

– دون شك فقد حصرت بغضي بالمركيز ، وانت تعلمين اني لا أريد ان يموت موتاً بسيطاً ، بل أريد ان يكون موته بطيئاً هائلاً ونزعـــه شديداً طويلاً لا ينتهي .

فضحكت روميا وقالت : إنك اعظم سفاك رأيتـه في حياتي يا أبي ، وسأفعل ما تريد .

— وأنت أعظم شيطانة عرفتها ولو لم ينقص عهد شبابي لأحببتك .

ثم صب من زجاجة شراب في كأسين وشرب وإياها فقالت له روميا : أيجب أن نبدأ الليلة ؟

— دون شك ، ولكن متى أصبحنا في عرض البحر فقد أمرت الربان أن يسير بالسفينة عند انتصاف الليل .

ثم كشف ساعته وقال : اي بعد ربع ساعة .

— متى يفيق المركيز ؟

— بعد ساعتين .

وعند ذلك قرع الباب قرعاً خفيفاً فقالت روميا : ان الطارق برديتـو دون شك .

— ليدخل فلا بأس من دخوله .

ودخل برديتو وكان لا يزال يشبه المركيز شبهاً عجيباً فقال اني جائع .

فقالت هوذا الطعام معد فكل .

فنظر اليها نظرة منكرة وقال : اكرهك اليوم بقدر ما كنت أحبك أمس .

فارتعشت روميا وقالت . لماذا تبغضني ايها الحبيب ؟

— لأن فم هذا الرجل النائم قبل شفتيك .

— ما هذه الغيرة التي لا محل لها ألا تعلم اني لا احب سواك في هذا الوجود

فجلس برديتو معهم على المائدة فصب لنفسه كأساً وشرب ، ثم أخـــذ سكيناً عن المائدة وجعل يتطلع الى الدوق وإلى روميا والى المركـيز النائم تطليعات ملؤها الحقد وقال يجول في خاطري فكر هائل .

فقال له الدوق ببرود ما هو هذا الخاطر ؟

– هو ان اقتلكم جميعاً .

فارتمشت روميا امـا الدوق فلم يظهر عليه شيء من علائم الاضطراب وقال : إنك إذا قتلت هذا الرجل فلا تكون قد انتقمت .

– حسناً ولكني أكون قد سكنت ثائر غضبي .

– وإذا حملك الغضب على الفتك بروميا ، فإنك تيأس بعد قتلهـا لأنك تهواها ..

– هذا ممكن .

– وأخيراً ان قتلتني أنا تحرم أموالي الطائلة التي سأورثك إياها .

فسكن هذا القول غضب اللص وقال : لقد اصبت .

ثم القى السكين إلى الأرض .

وعند ذلك شعروا بأن المائدة ترتج فعلموا ان السفينة رفعت مراسيهـا وقامت من الميناء .

– ٢٨ –

ولبث المركيز نائماً ساعتين كما قال الدوق ثم انتبه من تلقاء نفسه كما ينتبه من ينام نوماً طبيعياً .

ولما استفاق وجد روميا بقربه ولم يكن في الغرفة غيرهمـا فـابتسمت له وطوقت عنقه بيديها ، فقال لها : العلي كنت نائماً ؟

– نعم ايها الحبيب فقد شربت كثيراً من الخمر الاسباني المعتق فأفضى بك الافراط في شربه إلى النوم .

– كيف ذلك العلك كنت معي ؟

نعم فلم افارق مكاني .

ثم شعر ان السفينة تسير فقال . ان السفينة تمخر في البحر فهل هي سائرة بنا الى نابولي ؟

فابتسمت له ابتساماً خلب لبه وقالت : إنها تسير بنا الى حيث تشاء فأنت الآمر هنا ايها الحبيب .

ـ بل انت الآمرة الناهية لأني عبد هذا الجمال

ـ إذا أردت أن أتولى انا إدارة هذه الرحلة ، ذهبت بك الى بلاد الشرق ، بلاد أجدادي ، فنسير الى مصر وتركيا ، ونشاهد أزمير والاستانة ، ونجتاز بلاد العجم ونبلغ الى شواطىء الكنج . أتوافق على هذه الخطة ؟

ـ إني اريد ما تريدين ايتها الحبيبة .

ثم جذبها اليه بلطف يريد ضمها فشعر فجأة ان أرض الغرفة قد انشقت وظهر منها ساحة متسعة الأرجاء ..

فصاحت روميا صيحة ذعر وأفلتت من يديه ، ونظر المركيز الى تلك الهوة التي فتحت أمامه فرأى ذلك المنظر الذي رآه في منزل روميا في باريس ، أي ذلك اللهب الذي يبدو أحمر ثم يصبح بنفسجياً ثم أبيض ، ويظهر من خلاله خيال برديتو .

وكانت روميا تصيح صيحات منكرة والمركيز يحاول ان يضمها اليه لكنها هربت وانطفأ مصباح الغرفة فلم يعد يراها .

ثم حدثت أعجوبة أعظم من تلك وهو أنه رأى روميا واقفة تحت ذلك اللهب الذي كان ظاهراً فيه برديتو وقد مسخت مسخاً فصارت قامتها لاتتجاوز نصف ذراع ورأى برديتو يشير اليها بيده إشارة المنتقم وسط ذلك اللهب ويقول لها بصوت يتهدج من الغضب : « هذا هو انتقامي أيتها الخائنة ، فلتكوني عبرة لسواك » .

ثم احتجب الخيال وتحول اللهيب الى دخان انبعثت منه رائحة كريهة ،

ضيقت أنفاسه ، فأسرع يريد الهرب من تلك الغرفة . فاصطدم بجسم ملقى على الأرض وأغمي عليه لقوة هذه الرائحة فسقط بين ذراعي روميا التي تحولت من جسمها الممسوخ الى جسمها العادي .

وعند الصباح صحا من رقاده وهو مضطرب الحواس محموم ، فكان يذكر حادثة الليل كحلم مزعج . وقد وجد نفسه في سرير من أسرة السفينة فلم يعلم اذا كان ما رآه حلماً او حقيقة . ولكنه كاد يقتنع انه كان حـالماً حين رأى روميا على ظهر السفينة بهيئتها العادية .

فلما رأته روميا أقبلت اليه تبتسم وتقول : لقد أطلت الرقاد .

فنظر اليها منذهلاً وقال . إذاً لست انت ؟..

– ماذا ؟

– الست من الأقزام ؟

– بل إني على عكس ما تقول فإني من طويلات القوام

– لكني رأيت مع ذلك في هذه الليلة ..

– ماذا رأيت ؟

– رأيت برديتو قد مسخك وحولك الى قزم .

فاصفر وجه روميا وقالت : برديتو ؟

– نعم فإني حين كنت هذه الليلة معي أضمك الى صدري فقد ظهر لنا برديتو في السفينة كما كان يظهر في باريس .

– إني ما رأيت شيئاً .

– عجباً ألم تري أمس خيال برديتو ؟

– كلا وجميع ما شاهدته انك تعشيت ونمت .

– أعلم اني نمت ولكني صحوت بعد هذا النوم .

– كلا إنك ما صحوت الى الآن .

– كيف ذلك ألم تكلميني عن الخمر الأسباني ؟

ـ ألم أقل لك شيئاً ايها الحبيب فقد كنت نائماً نوم السكارى حتى اضطررت الى الاستعانة ببحريين لنقلك الى فراشك .

وكانت روميا تتكلم بلهجة صادقة ، حتى وثق المركيز كل الوثوق انه كان حالماً .

ومضى ذلك النهار والسفينة سائرة حتى أقبل الليل ، وجلس المركيز مع روميا على مائدة العشاء ، فشربت وشربت ثم صبت له آخر كأس بقي في الزجاجة وجعلت تناديه وتشاغله حتى وضعت له في الكأس مخدراً ، فما استقر شرابه في جوفه حتى تثاقلت عينيه وسقط على الكرسي لا يعي . غير أن إغمائه في هذه المرة كان شبيهاً بإغمائه في لندرا ، أي انه كان فاقداً كل حواسه ما عدا حاسة السمع .

فذكر تلك الليلة التي سقط فيها صريعاً في خمارة كالكراف ، حين كانت الارلندية تغني ، وسمع ان الباب قد فتح ودخل منه رجل فقال : أهو نائم الآن .

فعرف انه صوت برديتو .

ثم سمع روميا تقبله وتقول له : إنك مخطىء يا برديتو باساءتك إلي ، لأني لا أحب سواك .

ـ إذا كان ذلك فلماذا لا تؤذنون لي بقتله في الحال ؟

فارتعش المركيز لانه كان يسمع كل ما يقال أمامه . ثم سمع صوت ذلك الشيخ ذي اللحية البيضاء ، يقول وهو واقف على عتبة الباب : هلم ، أيها العاشقان الجميلان ، الى سطح السفينة ، فقد دنونا من شواطىء ايطاليا الجميلة ، لأن لديكما فرصة كافية . إذ لا نعود الى تمثيل دور الخيال إلا بعد ساعتين .

فخرج العاشقان وصعدا الى ظهر السفينة .

أما الدوق فإنه بقي في الغرفة ودنا من المركيز ووضع فمه عند أذنه وقال له : أيها المركيز ، إنهم يهزأون بك .

- ٢٩ -

ولا تحيط وصف كاتب بما كان يكابده هذا المركيز من العناء حين كان يسمع كل هذه الأقوال فقد كان يسمع ويفتكر ويعي كل شيء لكنه لا يستطيع أن يتكلم ولا ان يفتح عينيه .

ولم يقتصر الدوق على ما قاله له ، بل انه جلس بقربه وجعل يتلو عليه الحديث الآتي :

– أيها المركيز انك حين صعدت الى السفينة رأيتني ، وخشيت أن تكون قد عرفتني بالرغم عن هذه اللحية الطويلة البيضاء التي غيرت كل ملامحي . ولكن ظهر لي بعد ذلك انك لم تعرفني ، فلا بـــد لي الآن من أن أعرفك بنفسي فاسمع :

أيها المركيز اني ذلك الرجل الذي دنس أبوك عرضي فقتلته . أنا الجنرال الدوق دي فنستريج الذي جئته يوماً تريد مبارزته انتقاماً لأبيـك ، فأبيت مبارزتك حتى تبلغ سن الرشد .

ثم غادرت باريس وأظهرت أمام العالم أجمع اني مت غرقاً في البحر تمويهاً عليك . ولكني لا أزال حياً ، وكذلك برديتو ابن ابيك وابن امرأتي فانه لم يعدم شنقاً كما تتوهم ، فتحالفت وإياه على قتلك ، كما اني أقسمت على قتـله أيضاً، وهو لا يعلم ويحسب اني له من المخلصين. ولكنك أنت ستقتل هذا اللص لا أنا فاصغ إلي .

إنك الآن نائم نوم تخدير ، لأني وضعت لك في الشراب مخدراً تعلمت

صنمه في الشرق ، وهو يخـدرك ساعتين دون ان تفقد حاسق السمع والإدراك .

أما روميا وبرديتو فانهما يعتقدان انك نائم الآن كا كنت نائماً أمس ، أي انك لا تسمع ولا تعي وستعود اليك روميا بعد ساعة ، فمتى فتحت عينيك تجدها بقربك وسترى أشعة الحب تتقد في عينيها وتراها تبتسم لك الطف ابتسام وتناديك بأعذب الألقاب .

ثم يعود تمثيل دور الخيال على ما عهدته ، فيتقد اللهب ويظهر منه خيال برديتو ، وعند ذلك ترتعد روميا وتفر مذعورة ، فمتى ابتعدت عنك رأيتها قد مسخت قزماً .

إنها لا تمسخ أيها المركيز ، ولكنها تظهر لك بهذا المظهر الغريب بفضـل انعكاس أشعـة المرائي ، وهي طريقة مشهـورة لا بد أن تكون قد عرفتها من قبل ، أعلمت الآن ايهـا المركيز كيف يظهر لك الخيـال وكيف تمسخ روميا ؟

وهنا نصيحة أيها المركيز تتبعها اذا شئت وهي انك عندما تفيق من إغمائك تجد مسدساً محشواً بقربك فإذا ظهر لك الخيال وهربت روميا منك فأطلق المسدس على برديتو واقتله قبل ان يقتلك .

ثم ضحك ضحكاً عالياً وتركه وانصرف .

أما روميا وبرديتو فكانا واقفين على ظهر السفينـة ينظران الى الشواطىء الايطالية متعجبين بجمالها وكان برديتو يقول لروميا: لقد ندمت لاتفاقي مع هذا العجوز الذميم

– لماذا أيها الحبيب ؟

– لأني أكابد عناء شديداً من الغيرة ، فـإن فم هذا الرجل قد قبل شفتيك .

– كيف تسوءك هذه القبلة وانت تعلم ان قلبي لك ؟

– لأني لا أطيق ان أنظر هذا المركيز يقبلك ويضمك .
– ما هذه البلاهة ؟
– ليس ما أقوله بلاهة فقد بت أخشى ان تختم هذه الرواية بما يجعلها فاجعة إذ لا أطيق الصبر فقولي متى نفرغ من تمثيلها ؟
– لا أعلم .
– ألم يقل هذا الشيخ الذي بعناه حياتنا وأجسامنا ببيع السلع ؟
– كلا إنه لم يطلعني على نواياه .

وعند ذلك ظهر لهما الشيخ وقال : إنكما لن تعلما ولا تريان ختام الرواية ، والآن إن الوقت قد حان إذ دقت الساعة الثانية .

فقالت روميا : أنا نازلة .

ثم تركتهما ونزلت الى غرفة المركيز .

وكان المركيز قد بدأ يصحو من رقدته ، فطوقت عنقه بذراعيها وقالت له : أيها النائم الأبدي ألا تنفك عن عادة النوم بعد العشاء ؟

فصحا المركيز عند كلامها كل الصحو وقال : أسألك العفو فهذه آخر ليلة أنام فيها .

– أحق ما تقول ؟
– أقسم لك .

فجعلت تناغيه وتداعبه كما فعلت أمس ، ثم ظهرت فجأة مناظر أمس فانكسر المصباح وخسفت الغرفة وظهر اللهب في وسطه برديتو وجعلت روميا تمثل الذعر وتصيح صيحة الرعب .

غير ان المركيز ذكر في الحال ما قاله له الدوق وهو نائم ، ومد يده فعثرت بالمسدس ، فأخذه في الحال وأطلقه على برديتو الظاهر بين اللهب ، فوقعت الرصاصة في قلبه ، وصاح صيحة منكرة وانقلب قتيلاً على الأرض .

ثم حاول المركيز ان يطلق رصاصة ثانية على روميا . لكن روميا ما لبثت ان رأت برديتو قتيلاً ، حتى هاجت هياج اللبوة ، وسبقت المركيز فجردت خنجراً وانقضت عليه انقضاض الكواسر فطعنته به طعنة هائلة وهي تزمجر زمجرة الأسود . وحاولت ان تشفعها بطعنة أخرى كي تجهز عليه . لكن بحارة السفينة هجموا عليها ، وجردوها من الخنجر ، وقيدوا رجليها ويديها بأمر الدوق .

- ٣٠ -

مضى عشر ساعات على هذه الحادثة كانت روميا في خلالها مقيدة اليدين والرجلين وهي تصيح وتعول وتطلب ان ترى جثة حبيبها برديتو فلا يجيبها غير صدى الغرفة التي كانت مسجونة فيها .

وكان الدوق خبيراً بفن الجراحة ، فكان يسمع عويل روميا ولا يكترث لها لأنه كان مهتماً بتحنيط جثة برديتو . فإنه أخذ الجثة وحنطها منعاً لانحلالها ثم نزع الرصاصة منها وجعل الجرح المستدير مثلث الزوايا حتى يحسب من رآه انه جرح خنجر او سيف لا جرح رصاصة

وبعد ان انتهى من تحنيطه جاء بموسى وحلق له لحيته ولم يبق له غير شاربيه فقصهما على شكل شاربي المركيز دي مورفو وكان المركيز يشبه اللص شبهاً غريباً كما تقدم . فلما حلق لحية اللص أصبح اللص تماماً بحيث لا يشك من رأى جثته انها جثة المركيز .

أما المركيز فقد كان مصاباً بالحمى من جرحه وهو ضائع الرشد ، فذهب الدوق الى سريره وجعل ينظر اليه بفرح وحشي ويقول: إنني لم أنل غير نصف انتقامي بل أقل من النصف لان برديتو مات دون ان يتألم . ولا مشاحة ان

هذا اللص كان ابن الجريمة لكنه لم يكن يدعى مورفر .

وما أوشك ان ذكر هذا الاسم حتى اضطرب صوته وقال : إذا كنت لا أعتقد بخلود النفس فكيف أكون انتقمت ؟

لكني أعتقد بخلود الأرواح ، وان أرواح المائتين تهيم بالفضاء وتحوم حول من كانت تحبهم فتفرح لسرورهم وتحزن لأحزانهم .ولا شك ان روح تلك الخائنة حائمة الآن حول جثة ولدها برديتو ، وروح هذا اللص حائمة حول سجن روميا وكلاهما في عذاب .

ثم ترك المركيز وشأنه وذهب الى روميا فقال لها كفاك أنيناً وعويلاً فقد كنت أحسبك قوية ولكني أراك تبكين بكاء الأطفال .

– كيف لا أبكي أيها الشقي وقد قتل برديتو . وأي رجاء لي بعده بالحيـاة ؟

فهز الدوق كتفيه وقال : أتموتين قبل ان تنتقمي ؟

– لقد إنتقمت بقتل القاتل .

– إنك منخدعة لان المركيز لم يمت .

– ولكنه سيموت لاني طعنته بخنجر مسموم .

فضحك الدوق وقال إنك منخدعة أيضاً ايتها الحبيبة فقد بدلت خنجرك المسموم حين كنت نائمة بخنجر مثله غير مسموم ولذلك لم يمت المركيز بل انه سيحيى لان جرحه غير خطر .

فأنت روميا أنين الموجع وكادت تفترس الدوق بنظرات حقدها غير أن الدوق لم يكترث لنظراتها وقال لها : أتعدين موت المركيز السريع انتقاماً ؟ إني لا أرى رأيك أيتها الحسناء وعندي انه يجدر بك ان تقتليه كل يوم بالعذاب حتى تروي غليلك .

– ربما كنت مصيباً .

– وأنا واثق من انك تعملين برأيي ، لا سيما متى علمت أن المركيز

غلاماً يرث منه أربعة ملايين . فتمتعي بهذه الثروة ، وانتقمي من صاحبها كما تشائين

ثم تركها مقيدة اليدين والرجلين وصعد الى ظهر السفينة ، فأخذ نظارة مكبرة ونظر بها الأرض التي أشرفت عليها السفينة ، وهي أرض جزيرة مالطة .

ورأى ان السفينة كادت تصل اليها فنادى الربان وأمره ان يعد القارب لنزوله الى البر ففعل . ثم وقفت السفينة وأنزل القارب فأنزلوا فيه أمتعة الدوق وبعد ذلك قال الدوق للربان : بعد ساعتين تحل وثاق روميا وتقول لها ان السفينة وبحارتها تحت أمرها .

ثم أمر الدوق بحارة القارب ان يسيروا به الى مالطة ، منفصلاً عن السفينة . واستمرت السفينة في سيرها الى الشرق ، وهي تحمل جثة برديتو المحنطة ، والمركيز المحموم من جرحه ، وقد بات في قبضة تلك المرأة الهائلة .

- ٣١ -

ولنعد الآن الى باريس لنرى ما فعل مرميس وفاندا فإنهما أقسما ان يخضعا لأوامر روكامبول ويجدا جثة المركيز

في اليوم التالي لفراغ فاندا ومرميس من تلاوة كتاب الفيروزة ، عقد تلامذة روكامبول اجتماعاً في منزل فاندا ، وجعلوا يتباحثون في طريقة الشروع في العمل .

وقد افتتحت فاندا الحديث فقالت : إن لدينا ثلاثة أمور يجب علينا إجراؤها أولها وأخصها الحصول على الآنيتين اللتين وضع فيهما المال

فقال مرميس · إن هذه المهمة من أصعب المهام وأدناها الى السرعة أما وقد أمر الرئيس بتنفيذها فلم يعد بد من الامتثال .

– والأمر الثاني ضرورة إيجاد تلك المرأة . والثالث تفقد الغلام الذي قال روكامبول أنه وضعه في دير في شارع البورصة، فقد مضى على إقامته فيه عامان وقد يحدث كثير من الأمور في عامين .

– لقد خطر لي الآن ان أعارضك

– كيف ذلك ؟

– ذلك انه يجب ان يكون اول ما نهتم به هو البحث عن الغلام ، ونرى إذا كان أحد قد بحث عنه قبلنا لأني أخشى ان تكون البستانية الحسناء قد وقفت على جميع أسرار المركيز ، ومنها سر هذا الغلام . والذي أراه هو أنه يجب ان يذهب ميلون في الحال الى هذا الدير ، فيسأل رئيسته اذا كان أحد قد سأل عن الغلام ، من قبل الذي وضعه في الدير ثم يخبرها بأنها ستحضر اليوم سيدة شقراء تدفع ما تأخر دفعه من نفقات الغلام وتخرجه من الدير .

– إذا كان ذلك فلماذا لا يخرجه ميلون ؟

– ذلك لأن هذا الغلام قد كابد كثيراً من المشاق والمخاوف ، فبات كثير الحرص ، ولا شك انه يطمئن الى امرأة ويثق بها أكثر من ثقته برجل .

فوافقته فاندا وذهب ميلون فقال مرميس· أما أنا فسأعلم من الآن الى الظهر أين يوجد منزل المركيز دي مورفر .

– والبستانية الحسناء ؟

– إطمئني فسأجدها في باريس بالرغم عن اتساعها .

أما ميلون فإنه لبس خير ملابسه وذهب تواً الى الدير فاستقبلته الرئيسة خير استقبال وسألته عما يريد فقال لها : إني آت بشأن الغلام الذي عهد اليك

منذ عامين .

- من الذي عهد به إلي ؟

- رجل أنا وكيله .

- ماذا يدعى ؟

- الماجور أفاتار .

- حسناً إن الغلام عندنا وهو في أتم العافية ويتقدم في الدروس كل يوم لفرط ذكائه

- ألم يسأل عنه أحد في هذين العامين ؟

- كلا ولماذا تسألني هذا السؤال ؟

- لا أعلم ! فقد أمروني ان أسألك فامتثلت ثم أمرت ان أخبرك ايضاً ان والدة الغلام ربما حضرت اليوم لدفع حسابه وإخراجه وهي شقراء تناهز الخامسة والثلاثين من العمر .

- ليكن ما تريد . ولكني أشفق ان يخرج هذا الغلام الذكي من ديرنا قبل إتمام دروسه لانه أذكى جميع من لدينا من البنين .

وعند ذلك دق جرس مؤذناً بخروج الأولاد من غرف الدرس الى الحديقة للرياضة فأطلت الرئيسة من النافذة وقالت لميلون تعال وانظره فانه على ذكائه العظيم وافر الجمال .

فدنا ميلون من النافذة ورأى الغلام على ما وصفته له وهو بين ١٢ و ١٣ من العمر فانطبع رسمه في ذاكرته .

بعد ذلك بساعة جاءت الى هذا الدير مركبة عليها إشارة النبلاء وخرجت منها إمرأة جميلة شقراء ، فقابلت رئيسة الدير وقالت : إني والدة الغلام الذي أخبرك وكيلي منذ ساعة إني سأحضر لأخذه .

ثم أخرجت ورقة مالية قيمتها الف فرنك ، فدفعتها لها وسألت إحضار الغلام .

فأمرت الرئيسة باحضاره ، فجعلت تقطمه ضماً وتقبيلاً وهو منذهل مما يراه لأنه لم يكن رآها من قبل فقالت له : إني امك يا بني وقد فارقتني طفلاً فنسيتني هلم بنا الآن الى أبيك .

ثم أخذته بعد ان ودعت الرئيسة وشكرتها وخرجت به الى مركبتها

وبعد ساعة ايضاً جاءت إمرأة اخرى شقراء ، وطلبت الغلام باسم الماجور أفاتار .

وكانت هذه المرأة فاندا فلما علمت ان الغلام خرج من الدير صاحت صيحة منكرة وعلمت انه بات في قبضة البستانية الحسناء .

- ٣٢ -

أما مرميس فإنه ذهب الى النادي حين ذهب ميلون الى الدير فاجتمع باصحابه وجعلوا يعاتبونه لانقطاعه عنهم يومين فاعتذر اليهم بما يجده من الحزن على الفيكونت مونتيجرون والبارون هنري .

فقال له أحد الحضور : إننا جميعنا لا نزال آسفين غير أن جميع أحزان العالم لا تخرج الأموات من قبورهم ، والعاقل من شغل عنهم بالأحياء .

على ان هذه الفلسفة لم تمنع الحضور عن البحث في هذه الحوادث. فقد خاض بها مرميس حتى وصل الى المركيز دي مورفر فقال:لا تزال مسألة هذا المركيز من المشاكل التي لم يحلها أحد

فأجابه ذلك المتفلسف : لا أرى حاجة الى حلها بعد ان حلها الموت .

– ولكنهم لم يعثروا على برهان يثبت موته

فأجابه صديق له يدعى البارون فيليب وقال وأي دليل أعظم من إيجاد جثته .

– إنهم لم يجدوا جثته بل وجدوا تمثال شمع .
– ولكن في لندرا .
– يدعون انهم وجدوا جثة تشبهها ، ولكن لم يثبت شيء لذلك لا أزال أعتقد ان المركيز دي مورفر حي إلى أن يثبت موته. وقد أتيت اليوم خصيصاً لأكلمكم بشأنه .

فنظر الجميع اليه بانذهال ، فقال مرميس : ان دي مورفر قد اختفى منذ خمسة أعوام ، ولا بد أن تكون أزيلت الأختام عن منزله للاطلاع على وصيته .

فقال البارون : إن موعد فتحها غداً .
– أعرفت وريثه ؟
– نعم فهو ابن عم له يدعى بوكدر موزفر وهو من أصدقائي
– إذاً أسألك يا حضرة البارون ان تعطيني كتاب توصية له .

فانذهل البارون وقال : أي شأن لك مع هذا الرجل وهو غريب عن باريس لا يعرف أحداً فيها ؟

فابتسم مرميس وقال : هو سر من أسراري ، وقد تعلمونه في مستقبل الأيام .

فكتب له البارون وذهب الى حيث يقيم ابن عم المركيز .

وكان هذا الرجل في الخامسة والأربعين من عمره وكان من قبل ضابطاً في الجيش ثم اعتزل الخدمة وأقام في أرض له في الريف فكان يعيش من ريعها القليل عيشة القانعين على انه كان وافر الأدب كثير الظرف . فلما جاءه مرميس وأطلعه على كتاب البارون استقبله خير استقبال وقال له : إني طوع لك فيما تريد فمرني يا سيدي بما شئت

– علمت انك سترث تركة المركيز دي مورفر .

– نعم . إن أباه ابن عم ابي ولكني لم أرد في حياتي وما كنت أتوقع مثل

هذا الارث فإن موته لم يثبت بعد ولا يجيز لي القانون ان أرث التركة بل يحق لي أن أتصرف بريعها الى ان تمضي سنوات هينة .

-- اني ما تشرفت يا سيدي بزيارتك إلا بشأن هذا الارث لاني واثق ان المركيز قد كتب وصية وهو قد أوصى بثروته لأقربائه أي انت يا سيدي لكنه وهب بهذه الوصية بعض الهبات .

– إذا كانت هذه الوصية موجودة كما تقول لا بد من احترامها وتنفيذ كل ما فيها ولا استطيع ان أحقق شيئاً قبل الغد حين ترفع الاختام عن المنزل ، فاذا شئت يا سيدي إحضر اليه ظهر الغد

– سأحضر يا سيدي

– أتأذن لي يا سيدي ان أسألك اذا كنت من أصدقاء المرحوم ابن عمي ؟ وهل عرفت بهذه الوصية منه ؟

- كلا ولكني آت من قبل امرأة كانت خليلة له وقد منحها بوصيته هبة أحب أن تبقى عندها تذكاراً منه .

– ثق يا سيدي إني لا أخل بحرف من هذه الوصية وغداً نلتقي فأسلمك تلك الهبة .

فشكره مرميس ثم ودعه وانصرف وهو يقول في نفسه : إن الذي نسعى اليه هو نيل الآنيتين ، وقد ماتت الفيروزة . ولكن فاندا تقوم مقامها وتتسمى باسمها الوارد في الوصية فإنه لا يوجد بين أصدقاء المركيز من كان يعلم بحبه الفيروزة .

ثم ذهب الى فاندا فلم يجدها إذ كانت ذهبت الى الدير .

وقد وجد ميلون فأخبره بما فعل بالدير ، وإن فاندا ذهبت لاحضار الغلام . فانتظر ساعة فلم تعد ثم ساعتين ثم ثلاثاً ، حتى سئم الانتظار وخشي أن تكون أصيبت بمكروه . فقال له ميلون . أتريد ان أذهب الى الدير لأرى ما حدث لها ؟

– كلا فلننتظر الغروب فاذا لم تعد ذهبت وإياك .

وغابت الشمس دون ان تعود فاندا ، فزادت هواجس مرميس وذهب مع ميلون الى رئيسة الدير ، فألقاها جازعة مضطربة ، ووصفت له المرأة التي سبقت وأخذت الغلام ، فعلم من وصفها انها البستانية الحسناء ، وأيقن ان فاندا تتبعها . فخرج من الدير مع ميلون وهو لا يعي من فرط غمه واضطرابه .

وكان الظلام قد أقبل والهواء بارداً والشارع مقفراً والمطر ينهمر غزيراً ، فوقف مرميس خارج الدير يعمل الفكر في طريقة البحث عن فاندا ، غير مكترث للأخطار .

وفيما هو ينظر يمنة ويسرة رأى خمارة قرب الدير فحدثه قلبه انه قد يقف على أثر فاندا من تلك الخمارة فرأى فيها جماعة من البنائين يسكرون ، ورأى صاحبة الخمارة تنظر اليه نظرة خاصة فدنا منها وجعل يحادثها أحاديث مختلفة وهي تنظر اليه نظرات تدل على انه وصف لها من قبل .

وفطن مرميس لهذه النظرات فقال لها : انك تستطيعين أن تفيديني ببعض الافادات .

– سل يا سيدي ما تشاء .

– أيجيء الى هذا الدير المجاور لخمارتك كثير من الناس ؟

– نعم وذلك في يومي الخميس والأحد

- وفي غير هذين اليومين ؟

- يندر قدوم الزائرين ، غير أنه جاءت اليوم امرأة جميلة شقراء فدخلت اليه وخرجت بغلام جميل ، وبعد ساعة جاءت إمرأة أخرى شقراء فدخلت الدير وخرجت منه مسرعة وعليها علائم الاضطراب الشديد ، فغابت نحو ساعة وعادت

فعلم مرميس انها فاندا فقال . العلها عادت الى الدير ؟

- كلا ، ولكنها عادت إلى الشارع ودخلت هذه الخمارة .

ثم نظرت اليه نظرة الفاحص وقالت له : اسمح لي يا سيـدي أن أسألك عن اسمك .

فاطمأن مرميس وذكر لها اسمه فقالت له . إذاً خذ هذه الرسالة فهي لك من هذه المرأة .

فأخذ مرميس الرسالة وعلم من عنوانها انها خط فاندا ففضها وقرأ ما يأتي:

« ان الغلام اختطفته البستانية الحسناء ، ولكنهـــا تركت أثراً لا أزال اقتفيه ، فإن أحد الحمالين رأى مركبتها وقفت عند كنيسة سانت جنفياف ، فدخلت إلى الكنيسة مع الغلام . ثم عادت وركبة وإياه في المركبة وأمرت السائق أن يسير إلى سانت مانديه .

وأظن انها ذهبت إلى المنزل الذي ذهبت اليه ادت وميلون فأخذت مركبة وسرت في أثرها إذ لا بد لنا من استرجاع الغلام .

وربما عدت في المساء إلى منزلي ولكني قد لا أعود ولما كنت واثقـة من حضورك مع ميلون إلى الدير للسؤال عني تركت هذه الرسالة في الخمارة لتعلم اين أنا فاذا مضت الساعة التاسعة دون ان أعود أيقن اني في خطر وأسرع إلى انقاذي في سانت مانديه » .

(فاندا)

فلما قرأ مرميس الرسالة دفع لصاحبة الخمارة عشرين فرنكاً ثم خرج إلى ميلون وكان ينتظره في مركبته ، فأطلعه على الرسالة ثم قال له : يجب ان ننهج مناهج الحكمة في هذه المشكلة ، فإن فاندا إما أن تكون حقيقة قداقتفت آثار البستانية ، وعند ذلك فلا بد لها من الفوز لذكائها وجرأتها ، وإما ان يكون الحمال قد خدعها فسقطت في فخ نصبته لها تلك الداهية .

- إذاً لنسرع الى سانت مانديه .

- كلا بل نرسل سائق مركبتنا إلى منزل فاندا ليعلم إذا كانت عادت اليه ، ونحن نرود في هذا الشارع ، فإن قلبي يحدثني اننا سنقف فيه على شيء لم يكن في الحسبان .

ثم أمر السائق ان يذهب الى المنزل فيتفقد فاندا ويعود اليه في الحال ، فامتثل السائق وسار مرميس وميلون في ذلك الشارع .

وكان الشارع خالياً من الناس لانهيار الأمطار فسارا حتى وصلا إلى مدرسة الحقوق ورأى مرميس ثلاث مركبات للاجرة واقفة هناك ، فما لبث ان مر بها حتى ارتعش ففتح بابها فجأة وقال للسائق : إذا كنت غير مأجور فسر بنا إلى الشانزليزه .

فامتثل السائق وتأهب للسير ، فدخل مرميس وميلون ، وسارت المركبة ، فهمس مرميس باذن ميلون قائلاً : لقد عثرنا بواحد من عصابة تلك المرأة الهائلة .

فانذهل ميلون وقال كيف ذلك ؟

- الا تذكر ذلك الاسباني الذي كان يظهر انه زوج البستانية ؟

- نعم .

- انه نفس السائق الذي نركب مركبته الآن فاصبر ولا تفه بحرف بل اصغ الي فان البستانية علمت ان فاندا ستجيء بعدها إلى الدير لأخذ الغلام وانا واثق الآن ان هذا الحمال الذي رأته فاندا كان جاسوس البستانية وانها سقطت

في الفخ، ولكن هذا الفخ لم ينصب لها وحدها بل نصب لنا ايضاً بدليل وجود هذا السائق المتنكر في هذا المكان .

فقال ميلون ولكننا إذا ركبنا المركبة نكون قد دفعنا بأنفسنا الى الفخ.

– هذا ما يظهر لك ولكن اصبر وسترى .

وسارت المركبة بهما من شارع الى شارع حتى دخلت في شارع مقفر لا يمر به احد عادة في الليالي المظلمة فقال مرميس لميلون لقد دنا الوقت فانتبه.

ثم نادى السائق وأمره بالوقوف فامتثل ، فأخرج مرميس عند ذلك ووضعه على صدغ السائق وهو يقول : احذر ان تفوه بكلمة او اقتلك في هذا الشارع المقفر شر قتل

ثم وثب ومسدسه بيده الى جانب السائق وهو نفس الاسباني الذي كان يصحب البستانية الحسناء الى الأوبرا فيحسب الناس انه زوجها وقال له : إذا أردت السلامة فلا بد لك من الامتثال .

وبانت على الاسباني علائم الذعر وقال : ماذا تريد أن أفعل ؟

– أريد ان تترك مكانك وتنزل الى المركبة فتقيم فيها مع رفيقي .

ثم نادى ميلون وقال : انتبه لهذا الرجل واذا بدرت منه بادرة اقتله دون اشفاق .

فنزل السائق وهو يضطرب من الخوف فقبض ميلون على عنقه باحدى يديه ، وجرد خنجره باليد الثانية ، ودفع مرميس المركبة فسارت تنهب الأرض حتى وصلت الى منزل فانذا فدخل الثلاثة اليه دون ان يبدي الاسباني شيئاً من المقاومة .

ثم دخلا به الى غرفة فأنار مرميس شمعتين وأقفل البــاب ونظر الى الاسباني فقال . اظنك تعلم ان من كان من امثالنا وسقط في قبضة خصمه لا يشتري سلامته الا بالاقرار .

ثم كشف ساعته وقال: اني امهلك ثلاث دقائق لتقول لنا أين هي البستانية وأين هي فاندا وماذا كنت تصنع قرب الدير وأنت متنكر بزي سائق .

وكان الأسباني قد ملك روعه في هذه المدة وقال له: وإذا أبيت ان أجيب.

- اننا في شارع كثير السكان فلا أقتلك بالرصاص كي لا يسمع الناس دوي المسدس ولكني أقتلك بهذا الخنجر .

نظر اليه الأسباني نظرة يأس وقـال : اني مائت في الحالين فاذا كتمت عنك الحقيقة تقتلني وإذا بحت بها قتلوني .

– من هم الذين يقتلونك ؟

– رجال عصابتها فانهم يقتلوني بأمرها دون إشفاق .

– ولكني سأحميك .

فاتقدت عينا الأسباني بأشعة الأمل ، ثم انطفأ هذا الشعاع فجأة وقال : لا شك عندي انك تحاول حمايتي ، ولكن لا يستطيع انسان مقاومة هذه الداهية .

– سترى بعد اقرارك كيف أستطيع أن أحميك ، والآن فقـد أوشكت الدقائق الثلاث أن تنقضي قبل أن ينفذ فيك العقاب ، ثم سار إلى ميلون فجرد خنجره ووقف فوق رأس الأسباني ينذره بالقتل .

فاستعد الأسباني وقال : سأعترف بكل شيء ، انهـا هي التي أقامتني في المركبة قرب الدير .

– متى ؟

– بعد أن اختطفت الولد .

– ماذا كان قصدها ؟

– انها كانت عالمة ان امرأة غيرها ستحضر إلى الدير لتطلب الغلام فلما أتت تلك المرأة إلى الدير وخرجت منه قانطة من لقـاء الغلام رأت حمالاً على الطريق وهو من أتباع البستانية الحسناء ، سألته فأرشدها كا تلقن ولم يكن في

ذلك الشارع غير مركبتي صعدت اليها وأمرتني أن أسير إلى حيث أرشدها الحمال أي إلى سانت مانديه حتى إذا وصلت بها إلى محل معين مقفر أوقفت المركبة فخرج رجلان من اتباعنا كانا كامنين في منعطف فدخلا إلى المركبة وربطا فم المرأة كي لا تستغيث وسارت بهما إلى سانت مانديه .

فقال مرميس . وبعد ذلك ؟

– بعد ذلك أمرتني أن أعود إلى موقفي الأول قرب الدير وأن اراقبكما لأني أعرفكما وما كنت أحسب انكما تعرفاني وأنا متنكر حتى إذا عرفت ما تريدان ان تصنعاه أعود اليها وأخبرها

– إذن هي الآن في سانت مانديه ؟

– نعم مع الغلام والمرأة الشقراء .

– ماذا تصنع بهما ؟

– لا أعلم .

– إذاً لا بد لي من اخبارك ان الدقائق الثلاث قد انقضت .

فاضطرب الأسباني لهذا الانذار وقال : ولكني يا سيدي لست سوى خادم بسيط استخدمتني تلك المرأة لأغراضها غير اني لا أفهم أسرارها .

فقال مرميس ببرود : يسؤني ان تكون جاهلاً لهذه اسرار ، ثم أشار الى ميلون وقال له : أقتل هذا الرجل إذ لم يبق لنا فائدة فيه ، فلم يكد يتم كلامه حتى صاح الاسباني وقد رأى بريق خنجر ميلون : رحماك يا سيدي فاني أعترف بكل شيء وأقسم لك على الصدق فيما أقول .

فجلس مرميس بازائه وقال انى مصغ اليك فقل ما تعلم ..

وكانت هيئة الأسباني تحمل على الاشفاق وتدل على انه سيضحي بكل شيء للفرار من الموت فتطلع الى مرميس وقال له : أتحميني وتحبسني في منزلك إذا أخبرتك بكل شيء ؟

- نعم ...

- إذاً فاعلم إن البستانية الحسناء تدعى روميا .

- قد علمنا ذلك من قبل .

- وهي عشيقة برديتو الذي قتله المركيز دي مورفر ..

- ماذا جرى لهذا المركيز ؟

- انه معها ..

- إذاً فهو حي ؟

- انه حي إذا صح أن يدعى من كان في حالته من الأحياء فإنه معتوه مجنون يتقلب بين الفرح والكآبة ، ويمزج بين الضحك والبكاء ، فهو يموت في كل يوم الف ميتة لفرط ما يلقاه من العذاب الذي لا نهاية له ، وسيكون لابنه ، والمرأة التي قبضت عليها ، نفس نصيبه ، ولو عثرت بك لمذبتك نفس العذاب .

- ولكنها لم تظفر بي بعد .

- وأنا أشير عليك أن لا تدخل معها في معترك ، وإذا لم تقبل نصحي ، وقدر لك الظفر بها فاقتلها قتل الحيوانات المفترسة ولا تعاملها كما تعامل النساء فانها ليست من الناس .

فقال له مرميس : سأقتلها دون شك ، ولكن يجب أن أعرف أين هي قبل أن أقتلها .

- قلت لك انها في سانت ماندیه .

— وحدها .

— كلا ، بل هي مع رجلين من النور يخضعان لهـا كل الخضوع ، ولكني أعرف طريقة تمكنك من قتلها دون ان يستطيع النوريان حمايتها ، وهي ان هذا البيت الذي تقيم فيه مزدوج ، أي انه ذو دورين، يظهر الدور الأول منه للعيون ، وأما الدور الثاني فهو في جوف الأرض لا يراه أحد ، ولا يهتدي إلى مدخله أحد، فلو قضيت العمر باحثاً عن مدخله لما علمت ان تدخل اليه، وذلك انه يوجد في حديقة المنزل بئر لا ماء فيها ، وفي أسفل البئر سرداب سري يدخل منه إلى ذلك المنزل ، ولكن البئر كائنة في وسط الحديقة ، وهـي عميقة وفيها جميع معدات الاستقاء ، فلا يخطر في بال أحد انها باب هـذا المنزل السري .

ثم يوجد هناك سر آخر وهو أن باب السرداب يقفل دائماً من الداخل فلا يفتح إلا متى سمعت البستانية كلمة اصطلاحية تلقنهاجميع أعوانها كل يوم، وهي تبالغ هذه المبالغة في الاحتياط كي لا يأخذها أحد على غرة ، ولا يعلم مدخل المنزل إذا سقط اتفاقاً في البئر .

فسأله مرميس : وما هو هذا الاصطلاح ؟

— انك متى وصلت الى البئر تقف عند فمها وتصفر ثم تصبر هنيهة إلى أن تسمع صفيراً من داخل البئر مثل صفيرك ، فإذا سمعت هذا الصفير تقلد صوتي وتقول هذه الكلمة الاصطلاحية التي لقنتنا إياها اليوم وهي — الانتقام - وعند ذلك ترى جوف البئر قد استنار وترى البستانية قد خرجت اليه من الباب ، فإذا كنت تجيد الرماية أطلقت عليها مسدسك وقتلتها .

ولما سمع مرميس قول هذا الرجل جعل يفكر وكان يتراوح بين ان يأخذ معه الاسباني لتحقيق صدقه وبين أن يدعه مقيداً بحراسة ميلون إلى أن استقر فكره على الرأي الأخير فسأله: كم يقتضي من الوقت للذهاب إلى سانت مانديه والرجوع منها .

ـ ساعتين .

ـ بل أمهلك أربع ساعات فاذا انقضت، ولم أعـــد فأنت رجل ميت لا محالة .

ودخل مرميس إلى إحدى الغرف فجاء بحبال وأمر ميلون أن يقيد رجلي الاسباني ويديه ويقيم جنبه ولا يفارقه لحظة ثم كشف ساعته وقال لميلون: نحن الآن في الساعة العاشرة من المساء فاذا حانت الساعة الثانية بعد انتصاف الليل ولم أعد فاقتل هذا الرجل دون اشفاق .

فامتثل ميلون وقيده وجلس بقربه ، أما مرميس فانه أخذ مسدسين فسلح سائق مركبته باحدهما وذهب وإياه إلى سانت مانديه وهو يرجو أن يظفر بالبستانية وبانقاذ أسراها .

أما ميلون فانه أقفل الباب من الداخل بعد ذهاب مرميس ثم وضع كرسيه عند الباب وجلس عليها وعيناه تراقبان الاسباني المقيد وتنظران إلى الساعـة من حين إلى حين .

وكان الاسباني ملقياً على ظهره وقـد منعتـه قيوده من الحركة ، فمضت ساعتان ، ثم ثلاث دون ان يعود مرميس فثارت هواجس ميلون وبـــدأ يقطب حاجبيه .

وعند ذلك ذابت الشمعة التي كانت تنير الغرفة وانطفأت فقام ميلون إلى غرفة ثانية لاحضار شمعة ثانية وهو آمن على الأسير لأنه مقيداً أشد التقييد ، غير ان هذه الفترة الوجيزة كانت كافية للاسباني فانه بذل جهداً عظيماً فانقلب على بطنه بشدة ، وكان في صدره زجاجة صغيرة فانكسرت لصدمة الانقلاب وسال ما كان فيها على الأرض ففاحت رائحة شديدة كاد يختنق بها ميلون عند رجوعه فأخذ علبة الكبريت من جيبه وحكها على العلبـة كي يشعل الشمعة ، فما لبث أن ظهر نورها حتى ظهرت فجأة تلك العجيبة الغريبة التي قرأناها في كتاب الفيروزة فان هذا السائل الذي سال من زجاجة الاسباني التهب على

الفور فالتهبت الغرفة بجملتهـــا ولفحت تلك النار المستعرة ميـلون فصاح صيحة الم وذعر ، واحترق وجهه ولحيته وشعره وخرج منذعراً من الغرفـة الى الرواق .

ولما رأى اللهب يتبعه وانه علق بجميع البيت جعل يصيح مستنجداً ولكن المنزل كان خالياً من الخدم فان مرسيس وفاندا كان يتوقعـان حدوث أمور خطيرة فيه فأطلقا سراحهم كي لا يعلموا بشيء مما يجري ولم يبقيا غير السائق والسائس لثقتهما من رفقائهما .

ثم ذكر ميلون انه لا يوجد في المنزل سواه ورأى البيت أصبح أتوناً فنسي ذلك الأسير الذي كان مقيد وسط اللهب وأسرع إلى الشارع يصيح بصوتـه الجهوري مستغيثاً من النار .

فتجمع الناس من حوله وبعد هنيهة اتصل الخبر برجال المطافيء فأسرعوا بضخاتهم واستمروا يعالجون النار بالمياه وغيرها من وسائل الاطفاء إلى الساعة الثالثة حيث تمكنوا من إطفائها وانصرفوا .

وعند ذلك ذكر ميلون ذلك الاسباني فقال في نفسه : مـــا عسى أن يكون جرى له ، العله تمكن من قطع حباله بواسطة النـار فنجا ، أم أصبح فريسة اللهب ؟

فصعد إلى الغرفة التي تركه فيها فوجد جميع أثاثها رماداً ، ولم يجـد اثراً للاسباني ..

وأقام ميلون وحده في ذلك المنزل الذي اكلته النار فذكر تلك الرائحـة التي شمها حين دخوله إلى غرفة الأسير ، وأيقن ان ذلك كان من صنعه ، وانه احتال هـذه الحيلة للنجاة ، فأيقن بالتالي ان مرميس اصابه ما اصاب فاندا ، وكل ذلك بخطئه وعدم احتراسه ، فجلس على عتبة الباب الخـارجي ووضع رأسه بين يديه وهو يكاد يجن من يأسه ، ثم جعل يمزق ثيابه من القنوط ويبكي بكاء الأطفال ، وفيما هو على ذلك شعر بيد وضعت فجأة على كتفه فالتفت وهو

يوشك أن لا يرى فانقبض ووقف على الفور كأنما آلة كهربائية قد حركته وصاح صيحة فرح غريبة خرج معها اسم روكامبول . .

عاد روكامبول بعد سفره الطويل ، ورآه ميلون رأي العين فجعل يقبل يديه وينظر اليه فيضحك ويبكي في حين واحد .



ولنترك الآن روكامبول وميلون ونقص على القراء ما جرى لمرميس حين ذهب إلى منزل روميا متبعاً تعليمات ذلك الاسباني الخائن فنقول :

ذهب مرميس مع سائق مركبته إلى منزل روميا فدخل معه إلى الحديقة وذهب تواً إلى البئر كما أرشده الاسباني فوقف عند بابها واشعل عود كبريت والقاه في جوف البئر كما أرشده الاسباني فوقف عند بابها واشعل عود كبريت والقاه في جوف البئر ليتأكد إذا كانت خالية من الماء فسقط وظل مشتعلاً بحيث أيقن مرميس ان البئر لا ماء فيها .

ثم أشعل عوداً ثانياً من ذلك الكبريت الشمعي وانحنى به على البئر وجعل ينظر إلى أسفله ورأى أثراً يشبه أثر الباب فأيقن من صدق تعليمات الاسباني ، وانه اضطر إلى خيانة البستانية الحسناء لاشفاقه على نفسه من الموت .

ثم أخذ صفارة من جيبه وصفر بها كما قال له الاسباني فما مرت دقيقة حتى خرج من جوف البئر صفير يشبه صفيره ، فتراجع مرميس خطوة عن فم البئر كي لا يرى ، وحمل بيده مسدسه ، ثم قلد صوت الاسباني وقال كلمة السر وهي (الانتقام) ورأى على الفور ان جوف البئر قد استنار وان يداً برزت من بابها السري تحمل مصباحاً ، ثم تلا ظهور اليد ظهور رأس ، وحدق مرميس بالرأس ، ورأى بنور المصباح رأس روميا وأيقن ان الاسباني لم يكذب بشيء مما رواه .

وعند ذلك صوب مسدسه على الرأس وأطلق النار ودوى في جوف البئر

وانطفأ المصباح ، وسمع مرميس صيحة ألم فخفق فؤاده خفوقاً شديداً ليقينه انه قتل المرأة . .

ونظر مرميس إلى ما حوله وإلى المنزل المبني فوق الأرض ، فلم ير فيه أثراً للنور ، فالتفت الى الخادم وقال له : إني سأنزل إلى البئر ، إلا تزال مصمماً على ان تتبعني ؟

– دون شك .

– إذاً سأتقدمك ثم تنزل بعدي .

وكان للبئر خرزة معلق فيها حبل يصل إلى أسفل البئر ، فتعلق مرميس بالحبل ونزل عليه ، ثم تلاه السائق ، فأشعل مرميس شمعة ورأى باباً مفتوحاً يدخل منه إلى سرداب طويل ، ورأى أثر الدماء متصلاً في ذلك السرداب ، ولكنه لم ير جثة البستانية فقال في نفسه : لا شك انها دخلت إلى داخل وهي في نزع الموت .

ثم التفت إلى السائق وقال له : إذا كنت خفت فان الوقت لا يزال فسيحاً لديك فاصعد وعد من حيث اتيت

– انك تحتقرني يا سيدي فما أنا من اللذين يرهبون في مواقف الشدة .

– إذاً هلم بنا وليحرسنا الله .

ثم دخل الاثنان إلى ذلك السرداب وفي يد كل منهما مسدسه .

وكان مرميس يتقدم السائق في الدهليز ، وكلما اطفئت الشمعة أنار غيرها فيرى أثر الدم متصلاً ، ولكنه ما تقدم ٢٠ خطوة وهو يمشي مشي الحذر المتأني حتى سمع صوتاً غريباً يشبه صوت هدم منزل ، ورجع الى الوراء فانذعر إذ رأى قبة السرداب قد سقطت حجارة من ورائه بحيث سدت الطريق وبات يستحيل عليه الرجوع وأيقن في الحال ان سقوط القبة لم يكن من قبيل الصدفة والاتفاق بل انها هدمت خاصة كي يقطع على الرجلين خط الرجعة ، فلم يعد يشعل الشمعة ، واستمر سائراً أمام السائق في الظلمات وهو يقف مصغياً منصتاً

من حين إلى حين ويقول في نفسه : لا شك ان البستانية قد أصيبت بجرح خفيف ولو كان جرحها بالغاً لما تمكنت من اجتياز هذه المسافة .

ثم احس فجأة بتنفس إنسان بالقرب منه فوقف ، فانقطع التنفس وقال للسائق : الا تزال تتبعني ؟

— نعم .

فقال مرميس في نفسه : يجب ان اعلم أين انا .

وأخذ علبة الكبريت الشمعي من جيبه ولم يكن باقياً فيها غـــير ثلاثة عيدان ، فأنار احدها ونظر ، ورأى السرداب طويلاً لا نهاية له ورأى الأرض مفروشة بالرمال وعليها بعض نقط من الدماء ، ومد نظره الى آخر ما يتصل اليه من السرداب فلم ير من أثر روميا غير نقط دمائها . فقال لرفيقه : لم يبق في العلبة غير عودين

— ابقهما يا سيدي إلى حاجة أشد من حاجتنا الآن الى النور .

وكان السائق طويل القامة فكان يضطر إلى السير منحني الظهر في السرداب وفيما كان مرميس سائراً أمامه سمع فجأة صوت رعب وألم فالتفت وقــال منذعراً ماذا حدث ؟

فلم يجبه السائق فقال له اين انت وما حدث لك ؟

ولم يجب ايضاً فأشعل عند ذلك شمعة ونظر إلى ما وراءه ورأى الرمال قد انزاحت ورأى مكانها أثر باب هوة ، وعلم ان الباب قد فتح تحت قدمي السائق وسقط الى الهوة وعاد الباب الى ما كان عليه .

وقد اضطرب مرميس اضطراباً عظيماً وايقن انه سقط في فخ تلك الداهية فاستسلم للقضاء ومشى فسمع ضحكاً شديداً يدل على الهزء به وكانت الشمعة قد انطفأت وادلهم الظلام فمد يده بمسدسه إلى الجهة التي صدر منها الضحك واطلق النار واستنار السرداب لحظة بنار الرصاص ولكنه لم ير احداً في حـــين ان صوت الضحك كان يدل على ان الضاحك قريب منه

ثم توالى الضحك ، فأن مرميس أنين الموجع لغضبه وأطلق المسدس مرة ثانية على جهة مخرج الصوت فانقطع الضحك وجعل قلبه يدق دقات شديدة لحسبانه انه أصاب المرمى .

غير أن ذلك لم يطل ، وسمع صوت روميا تقول له بصوت الهازىء : لقد اقتصدت يا سيدي بعيدان الكبريت ، فاقتصد برصاص المسدس فقد تحتاج اليه .

فصاح مرميس ، وقد عرف صوتها : ألم تقتلي أيتها الأفعى ؟

وأسرع الى علبة الكبريت فأنار الشمعة الأخيرة الباقية فيها فرأى هذه المرأة عدوته واقفة على مسافة عشر خطوات منه وهي تبتسم ابتسام الهازىء وتنظر اليه نظرات الاحتقار .

فصوب مرميس مسدسه وأطلق النار عليها فانطفأت الشمعة وسمع روميا تقول له ببرود : لم يبق لديك غير رصاصتين .

وأطلق مرميس الرصاصة الخامسة ، فأجابته بضحك المتهكم : أطلق السادسة أيها الأبله عساك تصيب .

فقنط مرميس ، وأطلق الرصاصة الأخيرة ، وهو يرجو أن لا يخطىء المرمى .

وعند ذلك بزغ النور فجأة فأنار السرداب ورأى مرميس البستانية الحسناء واقفة أمامه ضاحكة هازئة

- ٣٥

ولا يسع القلم وصف ما أصابه من اليأس بعد هذا الفشل وفراغ مسدسه من الرصاص . غير أنه كان لديه خنجر وكان ذلك النور الذي لم يعلم من اين أتى

لا يزال ساطعاً ينير السرداب ، فجرد خنجره وانقض على البستانيــــة وهو يحسب انه يدركها إذا هربت منه ، غير انها لم تتحرك ولبثت واقفة في مكانها تنتظر بملء السكينة ، فحمل عليها حملة منكرة وطعنها بصدرها طعنة نجلاء ، فأصاب الخنجر جسماً حديدياً وانكسر .

وعــلم مرميس انها لابســة درعاً من الفــولاذ ، فهجم عليها يريــد خنقها بيديه .

وكاد مرميس يجن من غيظه ، فقـــد أضاع مسدسه وخنجره ونوره . فجعل يبحث عن عدو غير منظور في دهليز لم ير فيه غير العجائب المدهشة ، وهو يتوقع كل حين أن يصاب بما أصيب به السائق فيسقط في هوة او يفاجأ بمكيدة أخرى .

وكان يسير الى الأمام بملء الحذر ، وكلما مشى عرف من صوت روميا أنها لا تزال تتقدمه وتضحك عليه ضحك الهازئين

ثم انقطع هذا الضحك فجأة وظهر لمرميس نور ضعيف عن بعد . فجعــل هذا النور نصب عينيه وسار اليه ثابت القدم رابط الجأش غير مكترث لما كان يتوقعه من المكائد بسبب ما تولاه من القنوط

وما زال يسير حتى وصل الى هذا النور ، فوجــده نوراً ضعيفاً ينبعث من خلال باب .

ولم يتردد هنيهة وفتح الباب ، فانفتح وظهر له نور عظيم . فوقف على عتبة البــاب وجعل ينظر ، ورأى قاعــة متسعة تشبه كل الشبــه تلك القاعة التي وضعت فيهـــا روميا المركيز دي مورفر في لندرا ، كما قرأ في كتاب الفيروزة

ورأى في وسط القاعة سريراً ، وفوق السرير امرأة مضطجعة فلما رآها مرميس صاح صيحة فرح وأسرع اليها لأن هذه المرأة كانت فاندا .

ولم تكن فاندا نائمة فلما سمعت مرميس يناديها باسمها التفتت اليه وقالت له :

ماذا تريد أيها الرجل ؟

فأجفل مرميس وارتد مذعراً ورأى بين عيني فاندا علائم الجنون وانها لم تعرفه

أما فاندا فإنها لم تكترث لانذعاره وقالت له بلهجة لطيفة : إنك لم تخطىء أيها الفتى ، فقد كنت أدعى فاندا من قبل ، أما اليوم فإني أدعى السلطانة فاطمة وسأتزوج البرنس علي شقيق السلطان زوجي الأول ، وسيتولي خطيبي السلطنة فأكون سلطانة مثله . وسترى ما يعده لي من الملاهي المدهشة .

ثم حدقت بمرميس وقالت : يخال لي اني أعرفك أيها الرجل فأين رأيتك من قبل . أما أنت رئيس التشريفات في بلاط البرنس علي ؟

فصاح مرميس صيحة منكرة وقال لها بلهجة اليأس : فاندا كيف لا تعرفينني وأنا مرميس ؟

— إني ما سمعت هذا الاسم من قبل .

— روكامبول .

فارتعشت فاندا عندما سمعت اسم روكامبول ونزلت من سريرها فوضعت يدها فوق كتف مرميس وقالت له بحنو : ماذا قلت لي ؟

— روكامبول .

فقطبت حاجبيها ووضعت رأسها بين يديها وبذلت جهداً عظيماً كي تذكر هذا الاسم ثم قهقهت ضاحكة وقالت : لا أذكر شيئاً

وكان في تلك القاعة بيانو فذهبت اليه وجعلت تعزف عليه غير مبالية به . فلطم جبينه بيده وقال : ويلاه إنها مجنونة

فأجابه صوت من ورائه يقول : وستجن مثلها بعد بضع ساعات

فالتفت ورأى البستانية الحسناء واقفة على عتبة الباب فقال لها : تباً لك من شقية .

وحاول ان ينقض عليها ولكنه شعر فجأة بأن رجليه لا تستطيعان السير ، كأنما قوة خفية حالت بينه وبينهـا فقال لها لا بـد من سحقك أيتها الأفعى .

فقالت له روميا : ستسحقني في غير هذا المكان ، وأما الآن إصغ إلي : إنك أردت ان تتداخل في شؤوني وهي غير شؤونك ، وحاولت ان تقف على أسراري ولا شأن لك بها ، وأردت ان تميط ذلك الحجاب السري المنسدل على حادثة المركيز دي مورفر كما حاول ذلك من قبلك البارون هنري والفيكونت مونتيجرون .

أما البارون والفيكونت فقد قتلا كما علمت . وهذه المرأة أرادت أن تقف على أسراري أيضـاً ، فانظر اليهـا تراها مجنونة جزاء مـداخلتها في شؤوني .

والآن إني أخيرك بين أمرين وهما إما أن تعرف كل شيء وتموت او تكتفي بما رأيت فتعيش ولكن مجنوناً كهذه المرأة فاختر إذ لا مناص لك من أحـد هذين الشرطين .

ولحظت روميا انه ارتاع من الجنون فقـالت له : إذا أردت الوقوف على أسراري ، أطلعك على كل شيء وأريك المركيز دي مورفر . ولكنك حين تراه تموت

وإذا كنت تريد الحياة وفضلت الجنون ، وهو قد يكون خيراً من العقل ، إني أقضي على صوابك بلحظة بل بادارة لولب . أنظر ..

ثم ضغطت على لولب في الحـائط ، فخرج منه في الحال دخان رطب أبيض عرفه مرميس للفور ، إذ ذكر ما لقيه منه حين كان في قبضتها في المرة الأولى .

وعادت روميا فضغطت على لولب آخر فانقطع الدخان حالاً وقالت له : إختر الآن

– أريد ان أعرف كل شيء .

– وتموت ؟

– نعم

– إذاً ليكن ما تريد وسأطلعك على كل شيء .

وصفقت بيديها ثلاث مرات فدخل عند هذه الاشارة رجلان .

– ٣٦ –

ونظر مرميس الى هذين الرجلين فلم يعرفهما . ولكنه ما لبث ان نظر الى الآخر حتى دهش دهشاً غريباً ، إذ عرف انه هو ذلك الأسباني الذي تركه مقيد اليدين والرجلين بحراسة ميلون . ولم يكن لديه أقل مجال للشك ، لان الأسباني كان لا يزال مرتدياً بالملابس نفسها ، أي بملابس سائق المركبة .

وكان أحد الرجلين مسلحاً بمسدس والآخر بخنجر ، فقالت له البستانية : أنظر أنهما مسلحان وأنت أعزل ، فأنت في قبضتي ولا مناص لك من يدي وبكلمة تصدر من فمي ينقض عليك هذا الرجلان ويقضيان عليك .

ورأى مرميس ان الخطر قد استفحل فزاده الاقدام على الموت جرأة ، وما راعه غير فاندا جالسة تعزف على البيانو وهي رافعة نظرها الى السماء ، فنسي موقفه وقال : وارحمتاه عليك ايتها المنكودة .

فقالت له روميا : تقول انك تريد ان ترى وإذا كنت لا تزال تؤثر الموت على الجنون إتبعني .

- نعم فسيري بي إلى حيث تشائين

وأخذت يده بيدها وأمرت الرجلين ان يسيرا أمامها ، وسارت بأثرهما

مع مرميس الى غرفة أخرى . ولما فتح الرجلان بابها ودخـــل مرميس مع روميا تراجع الى الوراء ، إذ رأى نفس ما رآه ماريون ومونتيجرون من قبله منذ أربعة او خمسة أعوام ، أي انه رأى جثة ممدودة على منصة وحولها أربع شمعات مضاءة .

فقالت له روميا بلهجة الحزن الشديد : أنظر أنت اردت ان ترى .

— من هذا العله مورفر ؟

فهزت رأسها وقالت : كلا ليس هذا مورفر الذي تراه ، فقد خدعت به كا خدع سواك . أدن من هذه الجثة الراقدة والمسها بيدك تجد انها جثـــة بشرية لا تمثالاً من الشمع . إن هذه الجثة جثة الرجل الوحيد الذي أحببته في هذا الوجود

ثم دنت من الميت فقبلت جبينه وعادت الىمرميس وعيناها تتقدان فقالت: إن هذا الرجل الذي تراههو برديتو الذي قتله مورفر، برديتو الذي أحببته منذ حداثتي وانا أنتقم بموته في كل ليلة بل في كل ساعة .

إنك أردت ان تقف على أسراري وستعلم كل شيء .

ثم أخذته بيده وسارت به إلى باب آخر ، ولما فتحته شعر مرميس ان الدم قد جمد في عروقه إذ رأى غرفة شبيهة بغرف السجون ورأى مصباحـاً معلقاً في سقفها وفي آخر الغرفة فراش من القش عليه رجـــل شيخ وفي وسطه سلسلة من الحديد معلقة بالجدار .

فلما رأى الشيخ روميا بدت عليهعلائم الرعب فضم يديه شأن المتوسلوقال بصوت يتهدج : رحماك أعفي عني

ولم يكن هذا الرجل مجنونـاً ، بل كان يشعر بحقيقة كل ما يقاسيـه من العذاب .

فضحكت روميا ضحك المتهكم وقالت له : العلك عفوت انت عن برديتو. هل رحمت شبابه لارحمك وأعفو عنك ؟

ثم التفتت الى مرميس وقالت له : ما زلت قد قرأت كتاب الفيروزة فأنت تعرف هذا الرجل بل هذا الشيطان المتنكر بصورة إنسان .

إن هذا الوحش الكاسر قد رباني وربى برديتو وزرع في نفوسنا الحقد على المركيز دي مورفر ، هذا هو الدوق دي فنسترنج الذي علمني أن أقتل النفوس بالروائح العطرية وان أسلب العقول بالقبلات وهو الرجل الذي سلح المركيز دي مورفر بمسدس وحمله على قتل برديتو .

وأخرجته من ذلك السجن وهي تضحك هازئة بالدوق ، فتبعها مرميس وهو لا يعلم إذا كان في يقظة او حلم ، ويعجب كيف علمت بكتاب الفيروزة

ثم جعلت تضحك ضحك الأبالسة وتقول : لقد حسب هذا الأبله اني رضيت من الانتقام بتعذيب مورفور ، وانه نجا مني . ولكن لا أكون انتقمت لبرديتو إذا انا لم أعذب هذا الشيخ الضئيل ، فإنه أعطاني كثيراً من المال ووهبني السفينة ، وجعل بحارتها طوعاً لأمري . فبذلت المال للبحارة واستعنت بهم فنصبت له فخاً وقع فيه ، فقبضت عليه . وانظر ما أعددت له من العذاب .

وكان في زاوية الغرفة اتون ناري لا يراه الشيخ فأشارت الى الأسباني إشارة فهمها فأخذ قضيباً من الحديد ووضعه في النار .

وسمع الشيخ هذه الحركة فبكى وأن وقال : رحماك .

— العلك رحمتني بمن أحب ؟

ثم جعلت تدير القضيب الحديدي في النار حتى احمر فانتزعته ودنت من الشيخ فكوت به كتفه وذراعه ، وجعل الشيخ يصيح بصوت يقطع القلوب من الاشفاق حتى ان مرميس نسي موقفه والتمس العفو للشيخ . فضحكت روميا ضحكاً عالياً ورمت القضيب الى الرجل .

ثم عادت الى مرميس وقالت له : بقي عليك ان ترى مورفر هلم بنا .

وسارت به الى غرفة اخرى ولما فتحت بابها نظر مرميس ورأى غرفة تشبه معابد الهنود علقت فيها مصابيح مختلفـة كانت أشعتها تتراقص على جدران صورة فيها الرسوم الغريبة بحيث كانت تشبه معبد الالهة سيوا الذي كادت تحترق فيه جيبسي النورية .

ثم سمع صوت انفاس انسان بالقرب منه فالتفت ورأى رجلا جـالساً على مقعد شرقي في زاوية الغرفة ، وهو بارز الوجنتين غائر المقلتين مرخي الشفة وبيده غليون طويل كان يدخن به وتنبعث منه رائحة الأفيون .

فدنا منه مرميس وحدق به فرأى رجلا يشبه الخيال غير انه على تجعـد وجهه وهزاله كان يشبه جثة برديتو التي رأها كل الشبه وقال في نفسه : إذاً لا بد ان يكون هذا المنكود المركيز مورفر .

وتحرك شارب الأفيون غير ان تحركه لم يكن لأنه رأى مرميس فانه كان لا يرى غير ما يوحيه اليه سكره ويتمثل له شخص يحبه ولا يراه فيناغيه بأرق الفاظ الغرام .

وقد تمثل له ذلك الحبيب وجعل يقول . نعم أحبك ولو عشت معك إلى الأبد لرأيت الأبد قصير المدى سريع الزوال .

ثم بسط ذراعيه وضمها إلى صدره وكأنه يعانق شخصاً حقيقياً .

وجعل مرميس يتأمله وهو يوشك ان يجن من الشفقة عليه فدنت منـه روميا وقالت له : ما رأيك بهذا الرجل ؟

فارتعش مرميس وقال أهو المركيز دي مورفر ؟

– هو بعينه . .

– أهذا كل انتقامك ؟

– نعم . .

فضحك مرميس وقال: أحمد الله فقد كنت أحسبك أشد عنفـاً وأغلظ

فؤاداً فان هذا الرجل قد ذهب الأفيون بصوابه فهو لا يدرك معنى انتقامك بل أراه سعيداً يقضي ساعاته بين الأحلام وخيالات الغرام .

فابتسمت روميا ولم تجب .

فقال لها : لا انكر انك ستقتلين جسمه قتلاً بطيئاً ، ولكن لا سلطان لك على نفسه .

– اتظن ؟

– إنك قتلت شعوره بالادمان على السكر فلم يعد يشعر بعذابك حتى انك لو اردت قتله لاستقبل الموت دون أن يدري انه يموت .

– أراك ذكي الفؤاد فإن كل ما تقوله أكيد بالظاهر غير انك مخطىء في الحقيقة ، فإن هذا المركيز تمر به ساعات هائلة يذكر بها اسمه وولده وكل حياته السابقة ، فيخافني خوفاً لا يوصف ، واتمثل له بمثال الأبالسة ، ثم يعود فيحبني كما تراه الآن ..

– هذا محال ، لأن الأفيون يخمد الذاكرة .

– هو ذاك غير انه لدي دواء يبطل تأثيره مؤقتاً

ثم أخرجت زجاجة صغيرة من صدرها تحتوي على رشاش أبيض فأخذت شيئاً من هذا الرشاش ووضعته في الغليون ثم قدمته للمركيز ووضعته في فمه ، وقالت له . أريد ان تدخن .

فامتثل المركيز وجعل يدخن دون ان يعي . فنظرت البستانية إلىمرميس وقالت له : اصبر هنيهة وسترى ما يكون .

وكان مرميس ينظر إلى هذا الشبح الذي يدعونه المركيز دي مورفر وروميا جالسة بقربه ، ولم يكن معها أحد من اتباعها .

ونعم انه قد فقد مسدسه وخنجره ، غير انه كان رجلاً شديداً والرجل أشد من المرأة في كل حال فقد كان يستطيع ان ينقض عليها ويقتلهـــا قبل ان تتمكن من الاستغاثة ، غير ان هذا الفكر لم يدر في خاطره ، فان هواء تلك الغرفة التي كان فيها ، أضعف أعصابه ، وسكن ثائر غضبه ، ففقدت نفسه كل حمية ، ولذلك كانت روميـــا واقفة بقربه دون شيء من الحذر .

وكان المركيز عاكفاً على التدخين بشوق شأن الشرقيين الذين يلتمسون الملاذ في عالم الخيال وبدأ ذلك الرشاش يؤثر فيه فامتنع عن التمتمة وكف عن المناجات وجعل ينظر من حين إلى حين دون ان يعرفها .

فقالت روميا : انه لم يعرفنا بعد .

— العله يستطع معرفتنا .

— دون شك متى تم تأثير هذا الرشاش .

وبعد هنيهة رأى عيني المركيز تضيئان شيئاً فشيئاً باشمة تدل على العقل ثم القى الغليون من يده إلى الأرض مغضباً وتحرك حركة فوق مقعده وقال : اين أنا ؟

فقالت روميا بصوت التهكم : السلام عليك يا حضرة المركيز .

فعرفها المركيز وضم قبضة يده يحاول ضربها وهم ان يثب عليها وهو ينظر اليها نظرات حقد هائل ورشقته بالحاظها الساحرة وقالت له : إحذر فـأنت تعلم ان رجليك لا يحملانك وانك لا تستطيع الوقوف .

فأن انين الموجع وقال : هو ما تقولين .

ثم سقط على مقعده وقد ذهب جهده في الوقوف عبثاً .

وكان صوت البستانية يصل الى اذنيه كفحيح الأفعى وقالت له : أيها المركيز أتعرف اين انت ؟

- نعم ، أعلم اني ضحيتك وشهيد انتقامك ، وانك شيطان في صورة انسان .

- إذاً تعلم انك المركيز دي مورفر .

- ما أنا بشيء الآن ولا اسم لي .

- ولكنك كنت المركيز دي مورفر اليس كذلك ؟

- نعم ..

- وكان لك خليلة تدعى الفيروزة .

فتنهد المركيز وقال : مسكينة فقد يقضي عليها الغم .

- بل قضي عليها ..

- لقد أخبرتني من قبل بهذا النبأ المشؤوم ولكني لا أصدق قولك .

- ولك ولد اليس كذلك ؟

فتنبه المركيز عند ذكر ولده تنبهاً شديداً وقال : كلا ليس لي ولد ولم يكن لي اولاد .

- أتريد ان تقول انك لم تقل لي اين هو هذا الغلام ولكني اعرف مكانه .

- كذبت ايتها السافلة .

ولما قال هذا القول نظر الى مرميس فقال : من هذا ..

- كيف ذلك ألم تعرفه ؟

- كلا ، لكنه أحد أتباعك أو أحد شركائك في الجرائم .

- لقد خدعت ايها المركيز فان هذا الرجل من اصحابك .

فنظر اليه ملياً ثم وضع رأسه بين يديه وقال : لا أعرفه ولا أذكر اني رأيته .

– اذا لم يكن صديقك مباشرةفهو صديق صديقك مونتيجرون ، ألم أقل لك مرة ان مونتيجرون قد مات ، اماهذا الرجل فهو صديق له وقد اراد مثله أن يبحث عنك ووجد غلامك .

فنظر اليها المركيز نظرة غضب وقال : قلت لك ليس لي اولاد .

فالتفتت روميا إلى مرميس وقالت له : قل لهذا المركيز ان ابنه كان حتى هذا الصباح في الدير الكائن في شارع البوستة .

فأطرق مرميس برأسه إلى الأرض وقال : هذا أكيد .

فاتقدت عينا المركيز ووقف وهو يكاد يحرقها بنظراته وقال : نعم لي ولد ولكنك لا تستطيعين الاهتداء اليه .

– قلت لك اني اعلم مكانه .

– وانا قلت لك انك كاذبة فيما تدعين .

– انه في قبضة يدي ايها الغشيم وسترى بعينيك .

ثم صفقت ثلاث مرات ففتح فجأة باب في جدار الغرفة ،لم يكن منظوراً وارتفعت اصوات صراخ الغلام .

فالتفت مرميس مذعراً .ورأى في وسط الغرفة الجديدة التي فتح بابها غلاماً عاري الأكتاف ، مقيد اليدين والرجلين ، ورأى رجلان ينهالان عليه بالضرب بالسياط وهو يصيح صيحات تقطع القلوب من الاشفاق دون ان يجد قلباً يحن عليه ويرحم ذلك الجسم الصغير .

وكان هـذا الغلام ابن المركيز دي مورفر الذي اختطفته روميا من الدير.

وقد كان الرشاش الذي وضعته روميا في غليون المركيز رد اليه بعض الصواب .

أما مرميس فقد ردت اليه قوته المتخدرة حين رأى دموع الغلام وصياحه فانقض على اللصين اللذين كانا يضربانه .

وعند ذلك أشارت روميا إشارة إلى الرجلين فتركا الغلام وهجما على مرميس فجرى بينهم عراك هائل وقد ضاعف الغضب قوة مرميس فكانا يفوزان عليه ويلقيانه على الأرض ثم ينهض متغلباً عليهما إلى أن وهت قواه وظفرا به فالقياه إلى الأرض وركع احدهما فوق صدره واشهر خنجره ، ثم قـال لسيدته : أتريدين أن أطعنه ؟

- كلا ، بل قيداه .

فتعاون الرجلان على تقييده ولم يفه بكلمة إذ كان من تلامذة روكامبول وهو يعلم أن الاستغاثة في هذا المقام لا تفيد .

أما البستانية فانها أمرت الأسباني أن يفك قيود الغلام وكان المسكين لا يستطيع أن يصيح حذراً من الضرب ، ففك قيوده ثم أمرته أن يذهب به ، فامتثل

وبقي مرميس وحده مع البستانيـة الحسناء مقيداً ودنت منه وقالت له : اني لا أحب أن اباحثك وانت ملقى على الأرض ، ثم أمسكت كتفيه ورفعته بخفة عجيبة دلت على شدة قوتها البدنية ووضعته على المقعد فقالت : لنتحدث الآن .

فنظر اليها نظرة احتقار على ما كان فيه من الخطر ولم يجبها .

أما المركيز مورفر فكان لا يزال مغمياً عليـه لأنه حين رأى ابنه في قبضة البستانية وسمع صراخه ورأى انه لا يستطيع ان يغيثه صاح صيحة هائلة

وسقط على الأرض لا يعي .

وجلست روميا قرب مرميس ورفست المركيز برجلها وقالت : لا حاجة إلى الاهتمام به فحين يستفيق من اغمائه يعود إلى ذهوله القديم ، واما انت ايها الفتى إنني اعرف من أنت ، انك تدعى مرميس ورئيسك لص يدعى روكامبول ، غير ان روكامبول مسافر ، وقد مات دون شك ، وما أنت بكفوء لأن تحمل اعماله .

انك كنت في بدء امرك لصاً ثم اصبحت غنياً ولم يخطر لي ان اتداخل في امورك ولكن الغرور قد تولاك فاحببت ان تعرف كل شيء فاضطررت الى المداخلة في امرك فوضعت العيون عليك وأغريت احد خدمك فأخبرني بالكتاب الذي كنتم تقرأونه بملء الاهتمام فامرته ان يسرقه ففعل وهو كتاب الفيروزة سرق منك أيها الأبله وأنت من الغافلين .

اني انتقم من الرجل الذي كنت أحبه ، وهو حق من حقوقي ، فأردت ان تنزع مني هذا الانتقام فقبضت عليك وهذا من حقوقي أيضاً .

وكان لك شريكة بهذا العدوان فجعلتها مجنونة كما رأيت ولا يستطيع سواي أن يرد اليها الصواب ولكني ما تعودت هذا الكرم .

اني سأبرح باريس بعد خمسة ايام ، وبعد ثمانية ايام اكون بين الماء والسماء ومعي هاتان الضحيتان فلا يشغل بالي بعدها من يهتم بشؤون المركيز .

وبعد خمسة أيام يجدون بين انقاض هذا المنزل امرأة مجنونة واقفة قرب جثة وان المجانين لا تصدق اقوالهم أما المجنونة فهي فاندا واما الجثة فهي أنت .

ثم ضحكت ضحك الهازيء وقالت : لا أخالك ترجو ان أعفو عنك .

– اقتليني فاني احتقرك .

فعادت إلى الضحك وقالت : تعجبني منك هذه الجرأة فقد طالما اعجبت النساء بالابطال ولذلك فانى لا اقتلك بمسدس او بخنجر كما قد يتبادر إلى ذهنك فان اراقة الدماء محرمة علي ولكني اميتك ميتة تنطبق على جرأتك وتوافق

بسالتك واقدامك .

إنك رجل ذكي الفواد قرأت تواريخ الأمم وعلمت دون شك ان الصينيين أغلظ الأمم قلوباً وأشدهم تفنناً بالتعذيب ، وقد تعلمت منهم طريقة للقتل أنفذها فيك ، وهي اني سأميتك باليقظة الدائمة فلا ينطبق جفناك إلا على الموت .

وكان مرميس باسلاً لا يكترث بالموت ولكنه لم يسعه حين علم هذه الميتة الهائلة إلا أن يذعر وتظهر عليه علائم الخوف فضحكت روميا وقالت : إن من يعذب هذا العذاب يموت بمدة خمسة أيام ، ولكن من كان باسلاً مثلك لا يجد هذه المدة طويلة .

ثم صفقت بيديها ثلاثاً فحضر اليها رجلان ، واضطرب مرميس فقال في نفسه : أين أنت يا روكامبول فتنقذني من هذا البلاء .

- ٣٩ -

ولما جاء الرجلان قالت لهما : يجب أن تبقيا مع الرجل فلا تفارقانه .

وقالت لمرميس اطمئن أيها الباسل فسأزورك في هذه المدة من حين إلى حين ثم تركته وانصرفت . فجلس الرجلان بقرب مرميس .

وجعل مرميس ينظر اليهما ويفتكر بالطريقة التي سيميتانه فيها ثم يفتكر بروكامبول ويقول : اني لو كنت أعلم أنه في باريس لما يئست .

ومضى على ذلك ساعتان فضعفت قوته الطبيعية وبدأ النعاس يدب إلى جفنيه .

والرجلان أمامه ينظران عينيه منفتحتين فلا يفعلان شيئاً إلى أن تغلب عليه النعاس فأطبق جفنيه .

وفي الحال سمع دوياً فجائياً ففتح عينيه منذعراً وتحرك متململا بقدر مـا تسمح له قيوده ، وكان هذا الدوي من قضيب حديدي قرع به الاسباني طبلا من النحاس فعلم مرميس ان العذاب قد بدأ .

ومضى على ذلك خمس ساعات اغمض مرميس عينيه في خلالها عشرين مرة وكلما اطبق جفنيه أيقظه فجأة دوي الطبل .

غير انه تعود هذا الدوي واشتدت حاجته إلى النوم فلم يعد يوقظه صوت الطبل فقال الاسباني لرفيقه إذهب وأتني بالاناء .

فخرج رفيقه وعاد بعد هنيهة يحمل اسفنجة وإناء فيه مياه مبردة بالثلج ، وجعل يغمس الاسفنجة بالمياه المبردة ويعصرها على رأسه كلما أطبق عينيـه فيهب المسكين منذعراً لا يجد الراحة إلا بالموت.

ومضت ساعتان على هذه الطريقة الثانية فأتت البستانية الحسناء وقالت للرجلين : إذهبا وناما فأنا أتولى السهر عليه عنكما .

وقد بدأ مرميس يشعر بطنين في أذنيه وثقل في دماغه ، ولكنـه حين رأى تلك المرأة هاج أشد هياج وجعل يشتمها اقبح شتم وهي تضحك كأنـه يثني عليها .

ثم انقطع عن الشتائم وتجلد نحو ساعتين إلى أن أغمض عينيه بالرغم عنه فأخذت البستانية دبوساً طويلا من دبابيس البرانيط ووخزته به فصاح مرميس متألماً وأحس انه سيفقد رشده .

كل ذلك وروميا جالسة أمامه تراقب عينيه بصبر عجيب ، فإذا اطبقهما وخزته بالدبوس وما مالت على ذلك حتى صبغ الدبوس بدمه وأصيب بالذهول ولكنه على ذهوله كان يسمع صوت حفر فوق رأسه ، وربمـا خيل له ذلك لتزايد طنين أذنيه ، أما البستانية الحسناء فكان يظهر أنها لم تسمع شيئاً ، وقد اضطجعت على مقعد بالقرب منه ، وحملت كتاباً بيدهـــا وجعلت تقرأ مقطعاً في الكتاب وتنظر نظرة إلى مرميس .

ومضت ساعات كثيرة على هذه الحالة واستحال ذهوله إلى ضعف شديد ، وتغلب عليه سلطان النوم حتى كانت روميا تضطر إلى وخزه مرتين أو ثلاثاً كي يستفيق .

وعند ذلك دخل الرجلان وهما يحملان كانوناً كبيراً تتقد فيه النار وقضيباً من الحديد ، فجن مرميس من رعبه حين رأى النار إذ خطر له عقاب الدوق دي فنسترنج .

ولكن النوم تغلب عليه بالرغم من رعبه ، وكان القضيب الحديدي قد وضع في النار ، وجاء الاسباني ونزع الثياب عن كتفي مرميس فلم يكد يطبق عينيه حتى شعر بأن النار قد كوت كتفه ، فهب مذعوراً كالمجانين ودام هذا العقاب الثالث عشر ساعات لم ير مرميس في خلالها البستانية الحسناء وكان كلما غفا تكوي النار جسمه فيصيح ويتوجع وقد تخضب جسمه بالدماء . وتمكنت منه الحمى ولكنه كان مع ذلك كله يسمع حركة فوق رأسه لا يعلم ما هي .

وفيما هو على ذلك إذ نظر الاسباني إلى رفيقه نظرة انذهال فانه سمع ما كان يسمعه مرميس وقال له : يجب أن نوقظ السيدة ونخبرها .

فتأكد مرميس عند ذلك بصدق سمعه وعلل نفسه بالنجاة .

وبعد حين عادت البستانية الحسناء فأشار لها الاسباني إلى السقف حيث سمع الصوت .

فأصغت روميا وسمعت تلك الحركة فاصفر وجهها ، وزاد رجاء مرميس ، وعند ذلك سقط قسم من السقف فجأة ووقع حجر ضخم عند قدمي روميا فتراجعت مذعورة إلى الوراء

ثم تلا هذا الحجر حجر ثان فثالث ففتحت كوة في السقف وسقط منها رجلان . فصاحت البستانية صيحة ذعر ، وصاح مرميس وهو بين حي وميت صيحة انتصار .

ذلك ان هذين الرجلين الذين انقضا انقضاض الصاعقـــة كانا روكامبول وميلون ، وكلاهما يحمل خنجراً في فمه ومسدساً في يده .

- ٤٠ -

وكان اضطراب مرميس شديـداً حتى انه اوشك ان يغمى عليه من شدة الفرح ، وأسرع ميلون وقطع قيوده بخنجره .

أما روكامبول فانه وضع يده على كتف روميا وقال لها انك لا تعرفينني ولكني سأخبرك باسمي .

وتحمس مرميس وقال : روكامبول .

غير انروكامبول هز رأسه وقال : اني لا ادعىأمام هذه السيدة روكامبول ولا الماجور أفاتار . ثم حدق بها وقال بل اني ذلك الرجل الذي يجب أن يحضر من الهند .

فحدث عند ذلك ما يحدث في مباغتـات المراسح فإن هذه المرأة العاتيـة الهائلة التي قضت على مرميس بموت اليقظة ، وهـذا الشيطان الرجيم الذي يعذب المركيز منذ خمسة أعوام ، بل هذا الوحش الكاسر الذي يجلد الأطفال بالسياط ، ويكوي الشيوخ بالنار ،إن هذه المرأة ركعت فجأة أمام روكامبول ولكنها لم تركع ركوع مجرم يلتمس العفو ، بل ركوع عبد ينتظر الأوامر ، فجعل روكامبول ينظر اليها نظراته الحادة ، وكان المركـيز دي مورفر لا يزال منطرحاً على الأرض وهو مخدر بالأفيون

فنظر اليه روكامبول وقال : إنه لم يمت بحمد الله وسيعود إلى ما كان عليه فاذا كان لديك سموم تقتل فان لدي منها ما يعيد الحياة .

ثم نظر إلى مرميس وقال : وأنت كم بقي لك هنا ؟

– لا أعلم بالتدقيق ولكني أظن اني هنا منذ يومين على الأقل .

– وفاندا أين هي ؟

فأشار مرميس بيده إلى غرفة وراءه وقال : إنها في تلك الغرفة ولكنها مجنونة واأسفاه .

فنظر روكامبول نظرة جفاء إلى روميا فاضطربت وقالت له : رحماك اني اعيد اليها الصواب .

فقال لها ببرود : هذا ما أرجوه على الأقل والويل لك إذا أصيبت بمكروه

وكان مرميس لا يزال له بقية من الرشد على ما لقيه من العذاب ، وكان يتوقع من روكامبول أن يعاقب البستانية واعوانها في الحال ، ولكن روكامبول لم يفعل شيئاً من ذلك ، بل انه أعاد مسدسه إلى جيبه ، وخنجره إلى منطقته وقال للبستانية : اني اتيت في الوقت الملائم لانقاذهم ، ولو كان أصيب أحد منهم بمكروه لما كنت أبقي عليك .

وكانت روميا لا تزال جاثية أمامه فقال لها : انهضي ايتها العبدة فاني محتاج إلى خدمتك .

فوقفت وقالت : مر ايها الرئيس .

وتمتم مرميس قائلاً : لا شك ان ما أراه مثلته لي الحمى !

فسمعه روكامبول وقال له : بل انك في يقظة وقد زال عنك الخطر وانت في حاجة للرقاد فنم .

– اني اشد حاجة إلى الشرب مني إلى النوم فان النار تتأجج في صدري .

فنظر روكامبول إلى البستانية نظرة خاصة فالتفتت إلى الاسباني وكان منذهلاً أتم الانذهال مما يراه وكلمته بلغة سرية لا يعلمها غير النور فذهب الاسباني وعاد بعد هنيهة بكأس مبردة من الخمر وقدمه لمرميس بملء الاحترام .

فتردد مرميس عن شربها إلى ان امره روكامبول فشرب الكأس مطمئناً جرعة واحدة ، ثم سقط على الأرض لا يلوي على شيء واطبق جفنيه فنام

نوماً هنيئاً بعد ذلك العذاب الشديد .

ولما رأى روكامبول أنه غفا قال للبستانية : اتبعيني الآن فتبعته صاغرة وخرجا من الغرفة .

* * *

ولم يدر مرميس حين استيقظ من رقاده كم كانت مدة نومه ولكنه وجد نفسه لا يزال في تلك الغرفـــة التي أنقذه منها روكامبول دون أن يجد أثراً لروكامبول والبستانية والمركيز ، بل كان وحده في تلك الغرفة المنارة بضوء ضعيف فنظر إلى ما حواليه وقال : أين ذهبوا وأين أنا !

وعند ذلك فتح الباب وظهر له ميلون ففرح مرميس لرؤياه وقال : اين نحن الآن يا ميلون ؟

– في منزل سانت مانديه تحت الأرض .

– وفاندا ؟

– ان الرئيس صحبها وإياه .

– وهي ؟ (يريد البستانية الحسناء) وقد ظهرت عليـه علائم الذعـر حين ذكرها .

– سافرت ايضاً مع الرئيس .

فاندهل مرميس وقال . ما هذه الأسرار ؟

فقال ميلون : وانا مندهــل دفس اندهالك ، ولكن الرئيس لا يظهـر أسراره لأحد .

وكأن مرميس كان لا يزال يخشى ان يكون حالمـــاً لفرط ما لقية من العذاب ، فقال لميلون : إذن أحق ما رأيته وان الرئيس عاد من الهند وانه هو الذي انقذني ؟

– ذلك لا ريب فيه

– أسافر بعد ذلك كما تقول ؟

– نعم وقد تركني بقربك واعطاني اليك هذا الكتاب الضخم وهـذه الرسالة .

فأخذ مرميس الكتاب ونظر في صفحته الأولى فوجد فيه هذا العنوان .

« كتاب كنوز الهند بقلم الماجور افاتار »

ثم فض الرسالة المعنونة باسمه وقرأ ما يأتي .

– ٤١ –

« ولدي العزيز .

« اني لم أعاقب ذلك الوحش المفترس الذي يدعونه « البستانية الحسناء » ولكنها مع ذلك قد عذبت المركيز دي مورفر عذاباً قضي على صوابه والأسفاه وأخشى أن لا يعود اليه رشده إلا بعد زمن طويل ، وعذبتك أنت عذاباً هائلاً يحلو بعده كل انتقام فاني لو تأخرت عن نجدتكم بضع ساعات لما كنت انت والحبيبة فاندا في قيد الحياة .

« غير اني لم أضرب هذه المرأة ضربة قاضية تستحقها ، بل أعددت لهـا وسائل التوبة والاستغفار لسر دقيق ستدرك تفاصيله متى قرأت كتاب كنوز الهند وهو الكتاب الذي كتبته بيدي وأرسلته اليك مع ميلون .

« انك سمعت دون شك بأخبار الهند التي يعبث فيها الخناقون وبخفاياهـا وأسرارها الهائلة .

« على ان هذه البلاد ليست قاصرة على رجال الشر ، بل ان فيها كثيراً

من رجال النبل والخير ، وكثيراً من الجمعيات العظيمة المتحدة لمقاومة مظـالم الانكليز .

« وان بين أحرار الهند الذين أبوا الخضوع للانكليز أميراً يؤثر الف موت على العبودية ، وهذا الأمير كان من أصحابي

« إن روكامبول اللص السفاك عاش عامين جنباً إلى جنب مع أعظم نبيل في الوجود فشاطره البؤس والنعيم ولم يفصل بيننا غير الموت .

«وقد أقسمت لهذا الأمير النبيل وهو ينظر الي للنظرة الأخيرة يميناً حرجة لقضاء شأن خطير أؤمل أن أنال بعد قضائه ما أرجوه من عفو الله وستكون أنت عوني على البر بهذ اليمين .

« ومن أجل هذا غفرت عن « البستانية الحسناء » وعينتهـا في خـدمتي لحاجتي اليها في هذه المهمة الخطيرة . إنها آلة هائلة فلا يفل الحديد إلا الحديد.

« إذاً إقرأ الكتاب الذي أرسلته اليك وموعد لقائنا قريب »

(روكامبول)

- ٤٢ -

فلما قرأ مرميس هذه الرسالة قال لميلون : متى سافر الرئيس إلى لندرا ؟

– أمس مساء ..

– وهل أمرك أن تبقى معي ؟

– نعم وأنا معك منذ غفوت ، اي منذ ساعتين ، ساعة نمتها دون أن تتحرك ، لأن الرئيس سقاك مخدراً كي يسهل عليك الرقاد ويسهل علينا ضمد جراحك .

– وماذا يجب ان اصنع الآن ؟

– يجب ان تبقى هنا بأمر روكامبول فقد قال لي : لا يجب ان يبرح مرميس هذا المنزل قبل ان يقرأ جميع كتاب كنوز الهند ولدينا هنا كل ما نحتاج اليه .

– إذاً سأبقى امتثالاً لأمره ، ولكني على فرط شوقي لمطالعة كتابه اؤثر الطعام على المطالعة الآن لأني اوشك أن أموت جوعاً .

فخرج ميلون وعاد بعد هنيهة يحمل مائدة صفت عليها صحون الطعام فأكل مرميس بشراهة لا توصف وسأل ميلون خلال الطعام كيف اهتدى الى السرداب الأرضي ، فأخبره ميلون عند ذلك بجميع ما جرى له بعد خروجه من المنزل ، وكيف احترق المنزل ، وكيف فاجأه روكامبول وهو يمزق صدره من قنوطه فأخبرت الرئيس عند ذلك بجميع ما قاله الاسباني لك ، فلم يتوقف روكامبول لحظة وجئنا إلى البئر فاهتدينا إلى مدخل السرداب ، ولكنه رأى ان القبة قد تهدمت وسدت المدخل ، فخطر له عند ذلك ان يصعد الى المنزل ويفتح منه المنفذ الى السرداب فدام ذلك يومين كاملين .

– وماذا جرى للسائق المسكين الذي كان يصحبني ؟

– وجدناه في هوة يكاد يموت من الجوع فأنقذناه وهو الآن في المنزل .

فشكر مرميس الله لانقاذه ولما فرغ من الطعام اخذ كتاب روكامبول وبدأ يقرأ فكان عنوان فصله الأول .

« محرقة الأرملة »

انتهت رواية « البستانية الحسناء »

ويليها الجزء الحادي عشر من روكامبول « كنوز الهند »

الجزء الحادي عشر

كنوز الهند

كنوز الهند

- ١ -

عرف القراء من رواية البستانية الحسناء التي تقدمت هذه الرواية أن روكامبول مسافر إلى لندرا مع روميا وفاندا .

وقد عرفوا ايضاً أن مرميس نام ستين ساعة متوالية في ذلك السرداب المخيف في منزل البستانية الحسناء فلما استفاق لم يجد شيئاً من آثارها الهائلة ، فلم ير المركيز المعتوه ولا فاندا المجنونة ولا الدوق الذي كان يكوى بالنـــار ، ولا الطفل الذي كان يجلد بالسياط ، بل وجد أمامه ميلون فأخبره كيف أنقذه روكامبول وأعطاه كتاباً ضخماً عنوانه « كنوز الهند » وأمره باسم روكامبول أن لا يبرح هذا السرداب قبل أن يتم تلاوة الكتاب ، فلم يسع مرميس إلا الامتثال وجلس يقرأ كتاب روكامبول فكان عنوان اول فصل من فصوله :

« محرقة الأرملة »

ان هذا الكتاب وضعه روكامبول وكتبه بخطه فضمنه جميع ما جرى له من الحوادث في الهند خلال اقامته فيها عامين متصلين لم يلق فيهما غير العجائب النادرة من كل ما يطير بالنفس إلى عالم الخيال ويشغل المطالع بتلاوتها عن كل ما

في هذا الوجود ، اما هذا الكتاب الغريب فقد بدأ كما يأتي :

ملت الطير صياح البشر وراعها احمرار الشفق فاستقرت على الغصون واختبأت بين الورق .

وغابت الشمس في البحر وذهب معها حرها المحرق واستبدلت رياح السموم التي تتساقط من أعالي الجبال بنسمات بليلة كانت تهب من جهة البحار .

وبزغت النجوم في سماء الهند الصافية فبدأ النــاس يتهادون في الشوارع ويسيرون متنزهين في سهول كالكوتا يستنشقون ذلك النسيم العليل بعد أن كان يصهر أجسامهم حر النهار .

والعادة في الهند أن معظم قومها ينامون في النهــار أيام الحر الشديد فلا يستيقظون إلا حين تتوارى الشمس في الحجاب حتى إذا هجم الظلام خرجوا من بيوتهم وهبوا من ذلك الرقاد الإكراهي وتجولوا في الشوارع بين ساع وراء رزقه وبين متنزه مرتاح إلى رطوبة الليل .

وهناك بيت بني من القصب الهندي عند أبواب كلكوتا في سهل قسم من المدينة يدعى « المدينة السوداء » كان فيــه اربعة من ضباط الانكليز مجتمعين حول طاولة يشربون الشاي .

وكان بينهم ضابط فرقة وهو أصغرهم سناً فقال لرفاقه . أرأيتم في صباح اليوم حين عودتكم من المناورات موكب الأرملة المفجع ؟

فقال أحدهم أي موكب هذا ؟

– موكب أرملة الرجاه نجد كوران .

– كلا ، لم أر شيئاً من هذا .

فقال أكبرهم سناً : ألعل أرملة الرجاه قد توفيت ؟

– كلا .

– إذن لماذا تقول انه مفجع ؟

وكان الضابط الصغير يدعى جاك بلاكويلد ابتسم وقال له : يظهر جلياً

يا صديقي هاريس انك قادم حديثاً من اوروبا وانك لا تعرف شيئاً من تقاليد أهل هندنا المحبوبة .

فابتسم هاريس أيضاً وقال : لتكون محبوبة قدر ما تشاء ولكن حرها غير محبوب فانه لا يطاق .

– انك إذا قارنت بين حر كالكوتا وضباب لندرا يهون عليك أمر هذا الحر ، على اني من أهل لندرا يتصل نسبي بجد ولده الملك غليوم سفاحاً أي اني انكليزي بحت من الاسرات القديمة ، ومع ذلك فلو خيرت بين أن ابقى في حامية كلكوتا وبين أن اكون في ثكنة من ثكنات لندرا لأخترت البقاء في هذه البلاد .

– ربما كان ذلك لتعودك مناخها وعسى ان أتعوده مثلك ، فلنعد الآن إلى الأرملة واذكر لنا مما تعرفه من أمرها .

– انها هندية في السادسة عشرة من عمرها ومن كانت في هذا العمر في بلادنا تحسب من الفتيات وأما في الهند فانها توشك ان تحسب من العجائز .

– نعم ، فقد قرأت شيئاً من هذا في الكتب ، ولكن هذه الصبية العجوز هل هي جميلة ؟

– انها لا تزال في نضارة الجمال .

– وهي أرملة ؟

– انها ارملة الرجاه نجد كوران ، وهو أمير من امراء الجبال ، أبى حق وفاته الخضوع للانكليز ولا يزال يوجد ستة امراء لم يخضعوا لنا بعد .

فابتسم الضابط وقال : ولكنك تعلم ان انكلترا لا تحب العجلة لأنها تورث الندم كما يقول المثل العربي فهي تقاتلهم من حين إلى حين بسلاح النار ولكنها تقاتلهم كل يوم بسلاح الأفيون وهو أشد فتكاً من طعن السيوف وكرات المدافع .

والآن قل لنا أمات هذا الامير ؟

– نعم أنه توفي منذ شهر ، وقد وصلت أرملته مساء البارحة تصحبهـا حاشية عظيمة إلى أبواب المدينة ، فتجولوا بها كل الليل يصدحون لها الالحان الهندية المحزنة .

وفي هذا الصباح أركبوها جواداً وأدخلوها إلى المدينة باحتفال عظيم .

– وما أتت تعمل في هذه المدينة ؟

– أتت لتموت ..

– العلهم يريدون إحراقها بعد موت زوجها حسب عوائد الهنود؟

– هو ما تقول .

– ولماذا يريدون إحراقها في كلكوتا دون سواها ؟

– لأن زوجها الأمير من أعظم اشراف الهنود ، ولأن مدفن عائلتـه في كلكوتا .

– مسكينة هذه المرأة التميسة فانها لو خيرت لما اختارت هذه الميتـة الشنعاء ..

– هو ما تقول ، ومن يريد الموت لنفسه ؟ فقد مر موكبها اليوم من تحت منزلي ، ورأيت تلك المنكودة صفراء الوجه والدموع تملأ عينيهـــا ، ولكن سيان عند أولئك الجلادين الغلاظ الأكباد رضيت أم لم ترضى ، إذ لا بد لها من صعودها إلى المحرقة ، وإذا تمنعت أصعدوها اليها بالقوة

– ومن ينفذ هذه المهمة ؟

– أهلها وخدام زوجها الميت .

– كيف تجري مثل هذه الأمور الهـــائلة الهمجية في كلكوتا ، أما هي مدينة انكليزية ؟

– دون شك .

– إذاً كيف تأذن الحكومة الانكليزية بهذه الفظائع ؟

– أعيد عليك ما قلته لك في بدء هـذا الحديث ، وهو أنك قادم حديثاً

من أوروبا فاعلم أنه أولاً لا يحب حكمدار الهند ، أن يتداخل في شؤون الهنود الدينية .

— وثانياً ؟

— وثانياً أننا نعلم يقينــاً أن أرملة الرجاه ستموت في كلكوتا ، ولكن الحكومة والشعب والبوليس يجهلون الساعة والمكان المعين للقتل .

ولذلك انهم يطوفون بتلك المنكودة في أرجاء المدينة المتسعة يوماً أو يومين ، وقد يطوفون بها ثلاثة ايام ، ثم يحتجبون كلهم عن الأنظار فلا يعلم أحد مقرهم إلى أن يعثر البوليس بعد بضعة أيام في شارع من الشوارع الوطنية المعتزلة على رماد المحرقة فنعلم أن القضاء قد نفذ فيها وانها قد أحرقت بالنار .

فاهتز القائد لهول ما سمع وقال لو كنت حاكم الهند لعرفت كيف أحول دون هذه الفظائع التي يسود لها وجه الانسانية ، وعار علينا نحن الانكليز أن لا نقتلع جذور هــذه الهمجية ونحن في طليعة الأمم المتمدنة .

فهز القائد الصغير كتفيه وحاول أن يجيبه ، ولكن حال دون ذلك دخول ضابط آخر عليهم فشغل عن الاجابة باستقباله وقال له اهذا أنت يا حضرة الماجور ؟

— نعم أنا بعينه .

— وما لوجهك مصفر وصوتك يتهدج ؟

— لأني اجتزت خمسين مرحلة على جوادي دون أن أقف ، ثم جلس على كرسي واهي القوى فقال الضابط الصغير لرفاقه . أعرفكم أيها الأصحاب بالسير ادورد أشد رجل عرفته في البلاد الانكليزية وأعظم الناس جراءة واقداماً .

فانحنى الجميع أمامه وتم التعارف

وعند ذلك قال له الضابط إن هيئتك يا حضرة المــاجور لا تدل على التعب وحده بل على الاضطراب أيضاً .

- هو ذاك فإني محتاج إلى أربعة رجال أشداء لقضاء شأن خطير .

ـ هو ذا نحن أربعة نعينك فيما تريد فاخبرنا عن هذه المهمة

- ٢ -

إن هذا الرجل الذي دخل على الضباط الأربعــة دون ان يتوقعوا قدومه كان في الثامنة والعشرين من عمره

وكان دون الربعة ،اي ان جسمه أميل إلى القصر منه إلى الطول، وهو أسود الشعر اسمر الوجه وقد لوحت شمس الهند وجهه فبات يشبه الشرقيين اكثر مما يشبه الانكليز .

ولقد تقدم تقدماً سريعاً في الجيش وكان السبب في تقدمه ما أظهره من الجرأة والبسالة في كثير من المعارك التي كان يسيرها الانكليز على أمراء الهنود .

بل ربما كان سر هذا التقدم حسن اتقانه اللغة الهندية إذ كان من المجيدين فيها تكلماً وكتابة ، فكان يتنكر بازياء الهنود ويمتزج بالثائرين على الانكليز فلا يزال يعاشرهم ويتزلف اليهم حتى يتمكن من سرقة مشروعاتهم والوقوف على خططهم الحربية وقواتهم ومراكزهم ، فيعود بجميع هــذه التفاصيل إلى الجيش الانكليزي ، فيتأهبون لمحاربة أولئك العصابـــة بأعظم من قواتهم ويهجمون عليهم هجوم الواثق المطمئن فلا يكون لهم غير النصر الأكيد .

على ان قواد الانكليز كانوا مختلفين في تقدير أعماله والحكم عليها ، فكان بعضهم يعتبرون أن أعمال الماجور ادورد تدل على الجرأة والاقدام لمخاطرتـه بحياته في سبيل أمته وبلاده .

ويرى آخرون ان أعمــاله على ما فيها من الجرأة لا تخلو من شبه مهنـة

الجاسوسية ، وهي مهنة مستنكرة . فيرد عليهم آخرون أن التجسس غير منكر في الحروب .

ولذلك كان لهذا الماجور بين القواد من يحبونه ويعجبون به ومن يحتقرونه .

ولكنهم على اختلافهم في تقدير أعماله ، كانوا متفقين على الاعتراف له بالبسالة النادرة .

وكان هذا الماجور على بسالته وافر الذكاء رحب الصدر كثير الدهاء ، فكان يتخلق بما يريد من الأخلاق ويظهر غير ما يضمر .

غير ان الحلد خانه في هذه المرة فقد كانت دلائل الاضطراب ظاهرة على وجهه حتى اضطر القائد الصغير إلى سؤاله مرة ثانية عن سبب اضطرابه .

فعاد الماجور تباعاً إلى سكينته العادية وقال : تقدم لي القول أيها الرفاق اني اجتزت خمسين مرحلة دون أن أقف إلا لتغيير الجواد ، فقد قتلت أربعة جياد .

— من أين أنت آت ؟

— من جبال الهند التي تتألف منها مملكة الرجاه نجد كوران .

— أهو هذا الرجاء الذي جيء بامرأته إلى كلكوتا لتحرق فيها ؟

— هو بعينه ، واني ما قتلت الجياد الأربعة وجئت بهذه السرعة إلا من أجل هذه الأرملة .

فثار فضول الضباط الأربعة لهذا النبأ وصاحوا جميعهم بصوت واحد : كيف ذلك ؟

— أتعرفون كيف مات الرجاه ؟

— كلا . .

انه كان في حفلة صيد فسقطت على رجله حربة مسمومة من تلك الحراب التي يسممها الهنود في قتال النمور وغيرها من الوحوش الضارية فلا يفيد سمها

دواء ولها تأثير في القتل أشد من تأثير سلاحنا الناري .

فجرح الرجاه جرحاً خفيفاً ، لكن جسمه تسمم في الحال فما عاش غير بضع ساعات .

فقال الضابط : أمات دون أن يخضع للانكليز ؟

– نعم ، وكذلك أخوه عثمان الذي خلفه على الامارة أثر وفاته .

– قل لنا يا حضرة السير أية علاقة بين سرعتك في سفرك وبين أرملة الرجاه الحسناء ؟

– ذلك إني كنت في مهمة لدى الرجاه الميت وهي اني عرضت عليه بعض اقتراحات ما لها أن يحالف انكلترا ويكون عدواً لأعدائها بشرط ان تضمن له استقلاله .

فضحك القائد وقال : لا جرم فهذه عادة انكلترا النبيلة في مخابراتها والآن قل لنا ماذا جرى بعد ذلك

– مما لا ريب فيه اني لم أدخل إلى بلاط ذلك الأمير بملابسي الأوروبية بل اني تزييت بازياء الهنود .

ولما كنت عارفاً بلغة الهنود وسكان ضفاف الكنج تنكرت بملابس هندي من مدينة بناريس ، ولم يكن عارفاً بحقيقة حالي غير الرجاه نجد كوران وشقيقه عثمان .

أما الرجاه الميت فانه لم يرض باقتراحي ، لكنه لم يرفضه وفيما نحن نتخابر فاجأه الموت ..

وعند ذلك ، ارتقى سرير الإمارة شقيقه عثمان فدعاني اليه وقال لي ما يأتي :

– إني أرفض مطالب الانكليز ولكني أوافق على أن لا أشهر السلاح ضدها إذا كنت قادراً على قضاء مهمة سرية أعهد بها اليك

– ما هي ؟

– أرأيت أرملة أخي ؟
– نعم ...
– انه حكم عليها حسب عوائدنا الهمجية أن تموت حرقاً بالنار .
– عرفت ذلك .
– لتنقذها انكلترا من هذا العقاب فلقدأصبح موالياً لها .
فقاطع القائد الصغير السير ادورد وقال له : لقد بدأت أن أفهم .
– كلا فاصغ الي لتعلم الحقيقة فان الرجاه الجديد عثمان حينما عهد الي بهـذه المهمة كانت الأرملة قد أرسلت إلى مدينة كلكوتا يصحبها أمل وأصدقـاء زوجهـا .

وهي تدعى كولي تانا ، ومعنى هذا الاسم باللغة الهنـدية « اللؤلؤة السمراء » .

فلما علمت أنها سافرت خشيت أن يفوت الأوان فوعـــدت الأمير بأن انكلترا ستنقذ الأرملة وجئت كما علمتم من السرعة .

فقال الضابط إذاً أنت محتاج الى أربعة رجال أشداء لانقاذ الأرملة ؟
– هو ذاك .
– لماذا تريد أن يكونوا أربعة فقط ؟

– لأني وضعت خطة لي في نجاحها ملء الثقة ، ولكن زيادة عدد الرجال الذين يعينوني على تنفيذها يفسدها .
والآن أرجو أن تصرحوا لي إذا كنت أستطيع الاعتماد عليكم .
فصاح الجميع بصوت واحد مشيرين إلى قلوبهم .
– إذاً أصغوا الي ..
ثم شرب جرعة من الشاي وجعل يحدثهم بما يأتي :

قال . تعلمون ايها السادة اني اتقن اللغة الهندية اتقاناً عجيباً حتى اني اتكلم بلهجة الهنود ، فلا يعرف أحد منهم اني غريب عنها .

واني وإن كنت ولدت في لفربول وكانت أسرتي من الأسرات القديمة الانكليزية فاني أتيت إلى الهند في عهد الحداثة فتعلمت لغة قومها واقتبست عوائدهم حتى صرت كواحد منهم .

ثم اني حبست عامين عند ملك الأهور فكان جميع ذلك مع هيئتي الشرقية كافياً لأن يحسبني الهنود واحداً منهم فاذا تنكرت بملابسهم لا أفرق عنهم بشيء .

وكذلك جملت اجتاز الهند بجملتها تارة امتطي الجياد ، وتارة على ظهور الفيلة ، فأدخل إلى معابد البرهمة فاقتبس أسرار الديانات ، وأحج في المساجد فأصلي مع المسلمين ، فأتنكر مرة بلباس رجل من أهل دلهي ، وأتزيا مرة بزي تجار الأفيون ، وأقلد أحياناً أغنياء كشمير فلا يعلم أحد من الهنود اني انكليزي من بلاد الانكليز .

قال الضابط : اننا نعرف منك جميع ما تقوله يا حضرة الماجور .

— عفواً فاني أفصل لكم هذا التفصيل ، إذ لا بد منه لمعرفة الخطة التي اتفقت عليها مع الأمير عثمان .

— إذاً اصغوا لنعلم هذه الخطة .

فقال ادورد : إن أرملة الرجاه وصلت إلى كلكوتا مساء امس .

فاعترضه الضابط وقال : كلا فانها كانت مساء أمس مع موكبها في السهول عند أبواب كلكوتا ولم تدخل اليها إلا صباح اليوم .

— لا بأس وان الموكب قد طاف النهار كله من معبد إلى معبد في المدينتين البيضاء والسوداء .

وهم سيستريحون هذه الليلة في فندق من تلك الفنادق الهندية التي يدعونها شولتري

وفي اليوم التالي يعودون إلى الطواف كما فعلوا اليوم حتى إذا أقبل الليل احتجبوا عن الأنظار فلا يدري البوليس الانكليزي أين يذهبون مهما بالغ في البحث عنهم .

ذلك أنهم يذهبون بطرق ضيقة إلى مكان معتزل يتفقون عليه سراً على شاطىء البحر أو في السهل فينصبون فيه المحرقة .

ولكن هذا السر الذي خفي عن جميع الناس لم يخف علي وسأعرف مكان اجتماعهم دون سواي .

فقالوا جميعهم : كيف ذلك ؟

– ذلك اني سأتنكر منذ صباح غد بملابس الهنود واختلط بالموكب فلا افارقه .

وهم سيحتفلون بي ولا يشكون بامري لأنهم رأوني في بلاط الرجاه الفقيد ورأوا انه كان يعاملني خير معاملة فيعتقدون اني أشاركهم في حفلتهم تجملاً ووداداً فلا يكتمون عني أمراً .

وفي المساء اكون معهم في المحل السري الذين سيجتمعون فيه فاذا أقبل الليل ساعدتهم على نصب المحرقة ، وفي هذه الساعة يأتي دور الحاجة اليكم إذا كنتم لا تزالون على وعدكم .

فنظر اليه الضباط الأربعة نظرات تدل على الانذهال . أما هو فانه تابع حديثه فقال :

– انه في الليلة التي تتقدم الاحراق ، إذ ان الأرملة لا تحرق إلا عند الفجر ، توضع تلك المنكودة المحكوم عليها بالموت إحراقاً في خيمة وحدها وتوضع امامها لآلئها ومجوهراتها ، وجميع زينتها ، فاذا حملوها الى المحرقة أخذت تلك المجوهرات واللآلىء الثمينة ، فجعلت تلقيها قطعة قطعة الى النار

قبل أن يلقوها وسط أجيجها .

وفي هذه الليلة الهائلة يجتمع الموسيقيون حول تلك الخيمة وينشدون الأناشيد الغريبة الشجية فتنقبض لها النفوس وتسيل المدامع .

أما تلك المنكودة فان هذه الساعة تكون من أشد ساعاتها إذ تعلم ان ساعتها الأخيرة قد دنت ، فلما تصدح تلك الموسيقى بالحانها المحزنة تفقد صوابها من التأثر ويتعقد لسانها من الخوف .

وقد جعلت جل اعتمادي في انقاذها على حالتها في تلك الساعة إذ لا يحيط بها في ذلك الحين غير تلك الجوقة الموسيقية

وسأخبركم في المساء عما أعزم عليه ولكنني لا أعلم الآن الطريقة التي سأتمكن بها من مخابرتكم

على اني سأجد طريقة مضمونة ، فعليكم أن تقربوا عند انتصاف الليل من محل اجتماع الهنود ، وانكم ستجدون جميع اولئك الهنود الذين يرافقون موكب الأرملة سكارى من الحشيش والأفيون ، منهوكي القوى من الرقص والطواف ، حتى ان الموسيقيين أنفسهم يكونون أشبه برفاقهم ، بل أشد منهم الى الرقاد .

ولكن سيكون أربعة رجال بين اولئك الهنود ، لا يسكرون ولا ينامون وهم أخوة الأرملة المحكوم عليها بالاحراق فان عوائد الهنود أن اخص أقرباء المحكوم عليها يتولون التنفيذ وتقضي عليهم شرائعهم الدينية بالصوم والسهر الى أن ينفذ الاعدام ، وسيكون شأنكم مع هؤلاء الأربعة ، إذ لا تجدون سواهم من يقاومكم .

فقال أحدهم : العلنا نحن الذين نتولى اختطافها ؟

– كلا ، بل انكم تتولون مقاومة اولئك الرجال الأربعة الذين سيدافعون عنها أشد دفاع ، إلا إذا قتلها الرعب وحال الموت بينها وبين ذلك الدفاع .

– إذاً يجب أن نتقارع بالسيوف ونتقاتل بالمسدسات .

- ربما .

- وهؤلاء الهنود ألا يقدمون لنجـدتهم فإنهم مهما بلغ من سكرهم لانهم يستفيقون في مثل هذا الخطر ؟

فابتسم السير ادوارد وقال : إني لمثل هذا أردت ان يكون لدي أربعة من البواسل الأشداء ، وفوق ذلك فإن أربعة من الانكليز يعادلون عشرة من الهنود على الأقل .

فتحمس الضابط الصغير وقال : بل عشرين .

وانصرف أحدهم الى الحديث عن الأمير عثمان فقال : يظهر ان هذا الأمير الجديد من المتمدنين .

- كلا بل هو أعظم همجية من أخيه .

- إذا كان ذلك كما تقول فكيف أشفق على امرأة أخيه، بل كيف يخالف تقاليده المقدسة ويحاول إنقاذها من النار ؟

فابتسم السير ادوارد وقال : ذلك لأن في فؤاده ناراً سعيرهـا أشد من سعير نار المحرقة ، لأنه هائم مفتون باللؤلؤة السمراء ، أي بامرأة أخيه التي ستحرق .

- إذن تطلب الينا قضاء مهمة غرام ؟

- وماذا يهمنا ذلك أيها السادة ، لاننا إذا أنقذناها نكون قد قضينا واجباً إنسانياً إذ لا ذنب لهذه المرأة غير موت زوجها وجور تلك التقاليد وفوق ذلك فاني إذا أنقذتها يصبح هذا الأمير الجديد صديقاً لي ولكم ولانكلترا التي نفارق أوطاننا العزيزة لخدمتها

- أحسنت وإني أجد قضاء هذه المهمـة ميسوراً مـا خلا امراً فإني أجده كثير التعقيد .

- ما هو ؟

- إني واثق من استطاعتنا إنقاذها .

- هذا ما أرجوه .

- ولكن ماذا يصنع الأمير الجديد، فإن رعيته ورجال بلاطه يعرفون انها امرأة أميرهم القديم فاذا عادت الى بلاط الأمير الجديد علموا إنها امرأة أخيه وانه خان بانقاذها تقاليدهم المقدسة .

فقال السير ادوارد : إن جميع هذا قد توقعناه وتلافيناه من قبل ذلك . إن لهذه الأرملة أختاً تشبهها في تقاطيع وجهها ولا تختلف عنها إلا بلون شعرها فإن شعر أختها أشقر وشعر الأرملة أسود .

وكلتاهما ابنتا غني من تجار الأفيون .

وان الأمير عثمان خاطب للفتـاة الشقراء فهو سيسافر الى بلد أبيها في أول هذا الشهر للقدوم بخطيبته بموكب عظيم .

على ان تاجر الأفيون وشقيقة الأرملة عالمان بنية الأمير عثمان واقفان على هذا السر .

فمتى اختطفنا الأرملة نذهب بها الى منزل أبيها، وهناك طبيب هندي خبير بصبغ الشعر فيصبغ شعر الأرملة حتى يغدو كشعر اختها وبذلك يتم الشبـه بينهما وتزف الارملة الى الامير بدلاً من اختها .

ثم نهض واقفاً وقال : استودعكم الله الى الغد .

- ٤

وقبل ان يسير سأله الضابط قائلا : إلى اين أنت ذاهب ؟

- إني ذاهب لأختلط بموكب الأرملة ولأجل ذلك ينبغي ان أنزع ملابسي وأتزيا بزي الهنود .

- حسناً ولكنك لم تقل لنا أين نجدك في الغد .

– ذلك لأني إلى الآن أجهل اين أكون ، ولكن خطر لي خاطر وهو أن الموكب بعد ان يطوف هذا القسم من كلكوتا الذي ندعوه المدينة السوداء لا بد له أن ينتهي من طوافه عند المعبد الكائن في المدينة البيضاء ، أي في القسم الأوروبي .

وذلك ان هذا المعبد مبني منذ عصور بعيدة ، وهو مقدس عند الهنود ويؤثرون الصلاة فيه على سواه من المعابد ، وانا واثق ان الموكب ينتهي بزيارة هذا المعبد .

– الملك تريد ان يكون التقاؤنا هناك ؟

– نعم ، إني أحب ان يذهب أحدكم منذ صباح الغد فيقف عند باب المعبد حتى يراني ، فمن يذهب منكم ؟

قال الضابط الصغير : أنا لها .

– إذاً تذهب إلى باب المعبد وتنتظر وانك ستراني بين المحتفلين ، ولكنك لا تعرفني لشدة تنكري ،فاذا رأيت الناس قد خرجوا جميعهم من المعبد فادخل أنت اليه .

– وبعد ذلك ؟

– تجد في إحدى زوايا المعبد تمثالاً عظيماً يمثل الإله سيوا ، وتجد عند قدم التمثال صرة صغيرة فيها حبوب من القمح ، تعود الهنود أن يضعوا أمثالها في المعابد ، فخذ الصرة وافتحها تجد فيها رسالة مكتوبة بقلم رصاص وفيها تعليماتي .

ثم قام وودع رفاقه وانصرف .

ولما بلغ الباب الخارجي امتطى جواده ودخل به الى كلكوتا ، فاجتاز المدينة السوداء ، أي مدينة الوطنيين، إلى المدينة البيضاء، أي مدينة الافرنج. ووقف عند باب منزل كبير ففتح مصراعه للحال وأسرع الى خدمته عبدان أسودان فوقفا أمامه بملء الاحترام وكان هذا المنزل منزله .

وكان ضباط الانكليز في الهند يعيشون بسعة ورخاء لارتفاع رواتبهم فان راتب الماجور يبلغ مئة الف فرنك في العام .

وفوق ذلك فان الماجور ادوارد كان معدوداً من الأغنياء بفضل ثروته الخاصة فكان ينفق عن سعة .

على ان الناس كانوا يختلفون في ثروته ، فنهم من يقول أنها من أبائه ومنهم من يقول أنها من مصادر سرية ، ولذلك لم تكن سمعته خاليـــة من الشوائب والعيوب .

بل كانوا يدعون انه باع الانكليز ، بطريقـــة شائنة ، أسرار أمراء كانوا من أصحابه . فكانوا يأتمنونه على أسرارهم ، وان هذه الخيانة وأمثالهـا مصدر تلك الثروة .

ولكن الافرنج تؤثر سماء الهند في نفوسهم فتضعف اهتمامهم بشؤون سواهم وتدعو كل مهاجر منهم الى الاهتمام بشؤونه الخاصة .

وبمثل هذه الثروة كان يقاوم أعدائه فيساعد فقراء الضباط بماله فيشتري صداقتهم بالمال .

وترجل الماجور عن جواده ودخل إلى منزله فخلع ملابسه واغتسل ثم نادى خادماً هندياً مخلصاً في خدمته وقال له : أحدث شيء جديد ؟

— كلا .

— أرأيت موكب الأرملة ؟

— نعم رأيته في الصباح .

— أين يكون الآن فيما تظن ؟

— أظنهم يستريحون الآن في فندق الحية الزرقاء .

وكان الماجور يحادث خادمه الوفي ، ويلبس ملابســه الهندية . فلما أتم تنكره ظهر أنه من تجار أفغانستان ، الذين يتـاجرون بالأفيون واللؤلؤ والأحجار الكريمة .

وعند ذلك فتح باباً سرياً وخرج منه الى الشارع . فلم يعلم بتنكره أحد من خدم المنزل ما خلاخادمه الأمينالهندي الذي كان له به ملء الثقة خلافاً لسائر الخدم فإنهم ما رأوه إلا بملابس الضباط .

وبعد ساعة دخل الى فندق الحية الزرقاء ، فوجد فيه الأرملة ورجال الموكب .

وكان الرقص قد بدأ فوضعوا تلك الأرمـلة المنكودة على بسـاط تحت قبة من الخيزران ، وجعلوا يرقصون حولها وهي تنظر اليهم نظرات تشف عما دخل فؤادها من الرعب ، واخوتها الأربعة محدقون بها ينشدون حولها الأناشيد الغريبة . فاختلط الماجور بأهل الموكب ، ثم شق الجموع ودنا من مجلس الأرملة .

- ٥ -

على ان معظم رجال الموكب عرفوا الماجور ، ولكنهم لم يعرفوا أنه ذلك الضابط في جيش الانكليز ، بل عرفوا أنه ذلك التاجر الهندي الذي طالما رأوه في بلاط الرجاه الميت .

وقد أعد أقرباء الأرملةحضوره حفلتهم لطفاً منه وتودداً فشكروه واستقبلوه خير استقبال ، ثم قدموا له من ثمارهم الجافة فجلس بينهم يدخن معهم وينظر الى رقص الراقصين .

ولما توارت الشمس في حجابها انتهى الرقص وسقط الراقصون لايعون لفرط إجهادهم في الرقص .

وعند ذلك وقف أهل الأرملة إيذاناً بانتهاء حفلات النهار وابتدأت حفلات الليل وهي الطواف بالمشاعل والأنوار المختلفة .

أما تلك الأرملة المنكودة الحظ ، فانهم خبلوا عقلها بأحاديثهم الدينية ، وباظهار ما ستلاقيه في السماء بعد ان ضحت نفسها في حب زوجها ، فاختبل عقلها وتمثلت لها تلك السماء بمظاهر مختلفة ، فلم تعد تفرق بين الحقيقة والخيال وجعلت تتكلم عن زوجها وعن الفردوس وعن الإله وشنوا فيختبل عقلها وتتمثل تلك الحفلات السماوية التي تنتظرها وهذه الحفلات الأرضية التي تعيشها ، فتبكي وتضحك وتغني في وقت واحد

وكانوا في النهار قد أركبوها جواداً فلما بدأت حفلة الليل أركبوها فيلاً أسود وضعوا فوق ظهره بناية تشبه الأبراج .

وكان رجال الموكب يخفرونها من مشاة وفرسان فعادوا الى الطواف في المدينة تتقدمهم المشاعل والمباخر تفوح منها أزكى الروائح

ولبثوا على ذلك الطواف الى أن اصفر وجه النجم وأشرق الفجر ، فعادوا إلى الفندق وأقاموا فيه التماساً للراحة من تعب الليل ، وفراراً من هجير النهار .

وانقضى ذلك النهار وهبت نسمات البحر ، فخرجوا من الفندق وكان ذلك آخر حفلاتهم فبرح الموكب المدينة السوداء الى الشارع الافرنجي ثم ذهبوا منه إلى معبد الحية الزرقاء

وكان هناك كثير من الناس على اختلاف الأجناس والطبقات ، ينتظرون الأرملة عند أبواب المعبد فلقي أهل الموكب عناء شديداً في اختراق الزحام والدخول الى معبدهم .

أما السير ادوارد فانه لم يفارق الموكب لحظة وكان ملازماً لأخوة الأرملة كل وقته ، فرأى بين الجموع المحتشدة عند باب المعبد السير جاك ، وهو أحد الضباط الأربعة الذي واعده على الاجتماع به في هذا المكان .

غير أن السير جاك وقف مدة طويلة بقربه ، ونظر اليه مرات كثيرة فلم يعرفه .

وأدخلوا الفيل وعليه الأرملة إلى المعبد ، فبدأ البراهمة بالصلاة ولما انتهوا منها بدأ الدراويش بالدوران ، ثم تلاهم الكهنة فجعلوا يهزون رؤوسهم يمنة ويسرة وينشدون أناشيد غريبة بلغتهم السنسكريتية المقدسة ، وكان ذلك ختام الحفلات .

أما السير ادوارد فانه عرف ما كان يريد أن يعرفه ، وذلك ان إخوان الأرملة سروا لتكرمه بحضور حفلتهم ، فأخبروه عن المكان السري الذي عينوه لاحراق أختهم .

ولما خلا المعبد من أولئك المحتفلين ، دخل السير جاك ، أحد الضباط الأربعة ، وذهب توا الى تمثال الاله سيوا . فوجد عند قاعدة التمثال صرة من القمح ، فأخذها وفتحها وأخرج منها ورقة كتب عليها السير ادوارد ما يأتي :

« إن المحرقة ستنصب على مسافة مرحلتين من شمال المدينة في واد مقفر يقال له وادي اللآلىء الوردية وسنكون هناك عند انتصاف الليل » .

فوضع الضابط الرسالة في جيبه وسار إلى رفاقه الثلاثة وعاد الموكب بالأرملة إلى المدينة السوداء حتى وصلوا إلى الفندق .

وهناك تفرقوا فعاد قسم منهم إلى منازلهم وتبودلت بين القسم الآخر إشارات سرية فذهب بعضهم يمنة وبعضهم يسرة .

أما الأرملة فقد دخلوا بها إلى الفندق وأقفلوه . وعند ذلك دنت مراقبة البوليس الانكليزي ، وهي مراقبة لا يراد بها غير المظاهرة ، إذ لم يكن من سياسة الانكليز أن يتعرضوا لتقاليد الهنود الدينية مهما بلغت تلك التقاليد من الهمجية والفظاعة .

وقد جاءت ثلة من الجند يقودها ضابط إنكليزي فطرق باب الفندق فبرز له رجل هندي وسأله عما يريد

– أريد ان أرى أرملة الرجاه .

- إنها لم تعد من عالم الأرض .
وأقفل الباب فلم يفتحه ومنع الضابط عن الدخول .

فأمر الضابط عند ذلك بكسر الباب فكسروه ودخلوا عنوة فوجدوا الفيل وذلك البرج العظيم الذي كان فوق ظهره ، ولكنهم لم يجـــدوا الارملة في ذلك البرج .
وفتش البوليس جميع غرف الفندق والمنازل المجاورة فلم يجدوا أثراً للأرملة وكان هذا القائد قد اقتنع انه قد أتم واجباته فأمر رجاله بالانسحاب وعاد بهم إلى الثكنة .

أما رجال الموكب فانهم كانوا ينسلون في ذلك الحين واحداً أثر واحد ، ويسيرون في طرق مختلفة إلى المكان المعين للاجتماع .
وأما الضباط الاربعة فانهم امتطوا جيادهم وتدججوا بسلاحهم وساروا إلى ذلك الوادي الذي أرشدهم اليه السير ادوارد لانقاذ تلك الارملة التي كانت مشردة العقل تحسب، أن هذه الليلة آخر لياليها .

- ٦ -

إن هذا الوادي الذي كانوا يدعونه وادي اللآلىء الوردية لم يكن اسمه ينطبق على مسماه في شيء إذ كان وادياً تحدق به جبال كثيرة الصخور من الشرق والغرب ولم يكن فيه غير الهشيم .

وتكتنفه من الجنـوب ، أي من طريق كلكوتا اليـه ، سلسلة غابات كثيفة لا يـأوي اليها غير النمور المفترسة ، والافاعي الهائلة ، والفهـود الكاسرة .
وفي تلك الغابات كان يريد إخوان الارملة أن يختبئوا لاحراق اختهم ،

وإنما اختاروا هذا الوادي حذراً من الجنود الانكليزية إذ لا يستطيعون الوصول اليهم إلا بعد ان يجتازوا هذه الغابات وخوف الانكليز من الوحوش الكاسرة مشهور .

وقد ادلهم الظلام وبدأ رجال الموكب يتوافدون واحداً بعد واحد إلى ذلك الوادي فينصبون خيامهم فيه حول خيمة الأرملة التي كانت منصوبة وسط الخيام

والعادة في مثل هذا المقام ان يقف البراهمة والموسيقيون خارج الخيمة ، فيعزفون على الآلات وينشدون أناشيد التهنئة لتلك المرأة السعيدة في الدار الآخرة لبسالتها ولحاقها بزوجها بعد الموت .

ولم يكن يحق لأحد من البراهمة والموسيقيين الدخول إلى خيمة الأرملة ولا لأحد من رجال الموكب ما خلا إخوتها .

وفي ذلك الحين دخل إخوتها إلى خيمتها فجعلوا يتفقدون كل بدوره صندوق من الأبنوس كانت فيه مجوهرات الأرملة .

وكان مع الأرملة إمرأة سوداء تدعى مانورا ، وهي شقيقة كولي نانا بالرضاع ، فكانت تبكي بكاء شديداً ، لاشفاقها على الأرملة التي ستموت .

أما الاخوان فإنهم تبادلوا نظرات خفية تشير إلى الرضى مما رأوه من تأهب أختهم الى الموت ، وأيقنوا أنها ستصعد الى المحرقة وهي تنشد نشيد الوداع المقدس ، فخرجوا من عندها وهم يقولون : إننا نستطيع نصب المحرقة مطمئنين

وعادت مانورا الى البكاء والشهيق ، لتيقنها ان كولي نانا ستحرق عند شروق الشمس

ولكن الأرملة أقفلت صندوق جواهرها بسكينة بعد ذهاب إخوتها ودنت من مانورا فقالت لها كفي عن البكاء أيتها الحبيبة .

فنظرت اليها السوداء نظرة انذهال وقالت · كيف لا أبكي وأنت ستموتين بعد قليل ؟

فابتسمت الأرملة وقالت . ربما نجوت من الموت .

فصاحت السوداء صيحة فرح . غـــير ان الارملة وضعت سبابتها على فمها وقالت لها : أسكتي ولا تظهري شيئـاً من علائم الرجاء كي لا يقفوا على أمرنا .

- ولكن على أي شيء عقدت هذا الرجاء ؟

- قلت لك إني لا أريد ان أموت ولن أموت على هذه المحرقة .

فهزت مانورا رأسها وقالت لكنهم يصعدونك عليها بالقوة .

- كلا إن عثمان ساهر علي .

فارتعشت مانورا عند سماعها هذا الاسم ولم تفه بحرف فقالت لها الأرملة : إن الرجاه عثمان يحبني حباً صادقاً وقد تحالفنا على الولاء وأقسم أنه ينقـذني من المحرقة ومثل هذا الأمير لا ينكث بيمينه .

وكأنمـا مانورا كانـت لا تزال في ريـب من صدق هـذه الوعود ، فرفعت سجف الخيمة وقالت : إن النجوم قد اصفرت ، ويكاد يمحقها الفجر .

- لا بأس .

- إني أرى إخوتك يا سيدتي ذاهبين إلى الغابة .

- ليذهبوا حيث شاءوا .

- لكنهم ذاهبين لاحضار حطب المحرقة .

- ليفعلوا ما يريدن فإن عثمان يصل قبل أن تنصب المحرقة

وكانت تقول هذا القول بلهجة الواثق المطمئن .

غير ان لهجتها لم تؤثر على مانورا فقالت : وكيف يستطيع عثمان أن يعلم أين نحن ؟

إنك تعلمين يا سيدتي انه حين تفرق الموكب ساعة الغروب ، لم يكن من يعرف المكان الذي سنجتمع فيه غير إخوتك ، وإنهم ما عهدو بسرهم إلا الأخصاء .

— هو ما تقولين . ولكن إصغي إلي ، أرأيت بين المحتفلين ذلك التاجر الأفغاني ؟

- أتعنين به ذلك الرجل الذي كان يلازم بلاط زوجك الفقيد ؟

— هو بعينه

نعم رأيته قد اختلط بالموكب الملك جاء بأمر عثمان ؟

فدنت الأرملة منها وهمست في أذنها قائلة · إنه اقترب مني حين كانوا يطوفون بي وقال لي : « لا تخافي إني ساهر عليك » .

فوثقت مالورا بعض الوثوق وجلست معها تراقب انبثاق الفجر وهي تتراوح بين اليأس والرجاء .

وبعد حين بدأ أولئك الهنود يستفيقون من رقادهم · وقد ثقلت أدمغتهم من الأفيون ، وعاد إخوان الأرملة من الغابات ، فجعلوا ينصبون المحرقة بمساعدة عبيدهم .

فلم تكد مالورا تنظر اليوم حتى جنت من يأسها وقالت : سيدتي لم يبق لدينا غير ساعة فأين الرجاء ؟

وقبل ان تجيبها انقطع غناء البراهمة فجأة وسمعت المرأتان وقع حوافر الخيل وتلا ذلك دوي إطلاق مسدسات وصيحات فصاحت الأرملة تقول بملء الفرح : هوذا عثمان قد حضر

غير أن الأرملة قد أخطأت، لأن هؤلاء الفرسان لم يكونوا من رجال عثمان ، بل كانوا أولئك الضباط الانكليز الأربعة انقضوا على الهنود انقضاض الصاعقة ففرقوا شملهم ومزقوهم كل ممزق .

وقد قاوم إخوان الأرملة مقاومة عنيفة غير أن ذلك التاجر الأفغاني، أي

السير ادوارد ، إنضم الى الجنود وجرى بين الفريقين معركة شديدة . فكان إخوان الأرملة يسقطون واحداً تلو واحد ، وأسرع من نجا من الهنود إلى الفرار .

وعند ذلك هجم السير ادوارد على الأرملة فأردفها وراءه على جواده وانطلق بها يسابق الرياح إلى كلكوتا ، وهي توشك أن تجن من سرورها وتترنم باسم حبيبها عثمان .

- ٧ -

مضى عشرة أعوام على اختطاف الأرملة ونجاتها من ذلك العقاب الهمجي الفظيع .

وكان إخوتها الأربعة قد قتلوا فلم يبق من يستطيع إكتشاف سر الاتفاق بين الرجاه عثمان وبين الأرملة .

أما السير ادوارد فإنه ذهب بها تواً إلى أبيها ، فأقامت مختبئة عنده عدة أشهر ، وقد صبغ الطبيب شعرها الأسود بلون شعر أختها الأشقر فتم الشبه بين الأختين .

على انه أشيع في تلك المدينة أن كولي نانا أرملة الرجاه أنقذها من المحرقة جنود من الانكليز . ولكن لم يشكك أحد بأن للرجاه عثمان يداً في ذلك الانقاذ .

ولذلك ذهب عثمان بعد ستة أشهر الى منزل والد الأرملة ، في موكب حافل وتزوج بها والناس يحسبون أنه تزوج اختها لأن الشبه بين الاختين كان كثيراً لا سيما بعد صبغ الشعر .

ثم أن الهنديات يضعن فوق وجوههن نقاباً ثخيناً من الحرير ، فلم يتمكن

الناس من رؤية وجه الأرملة حين زفافها وسار الأمير بزوجته كولي تاتا وهم يحسبونها أختها

ولقد حدث في العشرة الأعوام المتقدمة أمور كثيرة ، فإن الامير عثمان جمع تحت رايته جميع القبائل الجبلية المحيطة به للحرب دفاعاً عن الاستقلال فعظم شأنه .

وكان الفرق بينه وبين أخيه ان أخاه كان شبه رئيس حزب ، فلم يكن خاضعاً له غير بعض القرى خلافاً لعثمان فقد انضم اليه أهل الجبال وخضع لرايته نحو عشرين مدينة من المدن الكبرى فبات له جيش عظيم خشي الانكليز بأسه وزاد طمعه بالاستقلال .

غير أن القراء يذكرون ما قاله عثمان للسير ادوارد وهو «لتنقذ انكلترا أرملة أخي من المحرقة وأنا أخضع لها » .

ولكنه حين رأى ما بلغ اليه من القوة ، وعلم ان الارملة لم تنقذها إنكلترا بل السير ادوارد ، نكث بوعوده ووالى السير ادوارد وجعله وزيره الاول لمملكته .

وكان هذا كل ما يسعى اليه الماجور ادوارد ، فانه حمل الامير عثمان على الوثوق به حتى جعله لديه في هذا المقام وأشاع في كلكوتا بعد اختطاف الارملة الحسناء أن السير ادوارد قد قتله الهنود . فلم يعد أحد يسمع شيئاً من أخباره على الاطلاق .

وجعل ، حينما تقلد هذا المنصب ، يدرب جنود الرجاه عثمان على التقليد الاوروبي ، ويخفف وطأة العوائد الهمجية ، ويمدن ذلك الشعب تباعاً .

ولم يكن من يعلم الى الآن إذا كان هذا القائد الانكليزي قد خان حكومته أم أنه يمهد لها سبيلاً خفياً

غير أن ظواهر سياسته كانت تدل على الخيانة لا سيما وان كثيراً من

الشعوب التي كانت خاضعة للانكليز جنحت إلى العصيان وجعلت تنضم الى جنود الرجاه .

وكان عمر الماجور في ذلك العهد ٤٠ عاماً . وهو شديد البسالة ، حارب الانكليز مرات باسم الرجاه عثمان ففاز عليهم وابلى فيهم حتى القى الرعب في قلوبهم .

وكان الماجور متنكراً أشد التنكر ، لا يعرفه أحد إلا باسم تريبوينو ما خلا عثمان ، وأرملة أخيه كولي ناتا ، فانهما كانا وحدهما يعرفان حقيقة أمره وأصله .

وكان عثمان قد رزق من زوجته غلاماً أتى ذكي الفؤاد كوالده فكان يبشر بمستقبل حسن وعمره يومئذ ١٠ أعوام .

وفي ذلك العهد جاء إلى بلاط الرجاه رجل أوروبي فرنسي ، وكان هـذا الرجل روكامبول

ويذكر القراء فيما قرأوه من الروايات السابقة ان روكامبول كان قد ذهب الى الهند لتسليم علي رجاه زعيم الخناقين الى حكومة الهند

فلما قضى هذه المهمة ، أصبح متحيراً بين أن يعود إلى أوروبا ، وبين أن يبقى في الهند ، يترقب الحوادث تحت سماء تلك البلاد المحرقة ، وعلى ضفاف الكنغ والفرات . واختار البقاء في بلاد طالما هاجت أسرارها عواطف قلبه ودفعته إلى درسها .

فاستقبله الرجاه عثمان خير استقبال وعينه قائداً في جيشه فقبل روكامبول هذا المنصب وتولى مهامه منذ ذلك اليوم .

غير أنه لاحظ أن تيبورينو ، أي السير ادوارد ، لم يكن راضياً عن هذا التعيين لحذره من وجود مزاحم له في بلاط الامير .

على ان الامير كان يثق به ثقة لا حد لها ، لكنه لم يعترض على تعيينه ، بل كتم غيظه وأظهر الرضى

أما روكامبول فانه علم لاول مرة رآه أنه من الانكليز ، فنفر منـــه ووقع كرهه في قلبه وقال في نفسه : إن هذا الرجل قد خـان الانكليز وهو منهم ، فلا بد له من خيانة الرجـــاه . في حين ان الامير كان يغدق عليه إنعامه ويطلق له مجال النفوذ ، بحيث لم يدع في سبيل إكرامه زيادة لمستزيد .

ولكن هذا الرجل كان كثير المطامع شديد الميل الى العلاء ، فلم يرضه ان يكون الوزير الاول بل أراد ان يكون الحاكم المطلق .

وفي كل بلاط يوجد متآمرون واكثر ما يكون اولئك المتآمرون من اصحاب صاحب البلاط واهله .

وكان للرجاه ابن أخ من كولي نانا والعـادة في اوربا ان الولد يخلف أباه في الملك وأما في الهند فالعادة أن الأخ يخلف أخاه في اكثر الأمارات .

وكان عمر ابن أخيه ٢٠ عاماً فطمع بهذه الامارة التي لم تبلغ إلى هذا الحد إلا بفصل عمه غير انه لم يكن له قوة ولا أعوان ولم يجد حول عمه غير الامناء المخلصين .

فكان يكتم قصده عن سائر النـاس فلم يدرك بغيته غير تريبورينو فاتفق الاثنان سراً على خلع الأمير عثمان .

وكانت القوة العسكرية بادارة تريبورينو فمهد اسباب الثورة على الأمير وكاد يفوز بقصده غير أن اسرارها انفضحت فتنصل منها والقى كل تبعاتها على ابن أخي الأمير فأمر باعدامه ولم يخطر في باله أقل ريبة بوزيره تريبورينو بل زاد به وثوقاً لاعتقاده انه هو الذي كشف اسرار الثورة .

ولم يطلع على حقيقة سر هذه المكيدة غير روكامبول ولكنه رأى أن الأمير شديد الثقة بوزيره فلا يصدقه إذ أخبره بمكيدته وفوق ذلك فقد كان تريبورينو كثير الدلال على مولاه شديد النفوذ في بلاطه فرأى ان الدخول معه في هذا المأزق محفوف بالخطر .

غير انه عول على مناوأته وتضحية نفسه في سبيل انقاذ الأمير عثمان من مخالبه غير مكترث بما سيلقاه من الصعاب ويعترضه من الأخطار فقد اوقف نفسه منذ تاب توبته الصادقة لصنع الخير ومساعدة كل مظلوم إلتماساً لعفو الله عن ذنوبه الماضية .

وكان الأمير قد أعد له قصر يقيم فيه منذ ولاه منصب القيادة في الجيش فبينما كان يوماً في منزله جاء ضابط من قبل تريبورينو يدعوه إلى زيارته فيقصره على شواطيء الكونغ فلم يمكنه إلا تلبية الدعوة فامتطى جواده وسافر .

- ٨ -

كان الأمير تريبورينو بعد الأمير عثمان صاحب الكلمة النافذة في البلاد وكانت بيده قيادة الجيش العليا ولما كان روكامبول من قواد الجيش فقد اصبح تحت امرته فلا به له من الامتثال .

غير انه كان واثقاً ان هذا الوزير يكرهه ويخافه وانه لم يدعه اليه إلا وقد نصب له فخاً يغتاله به تخلصاً من كيده .

ومع ذلك لم يتردد لحظة في الخضوع فامتطى جواده ولم يصحب معه غير نفر قليل من الفرسان والخدم وسافر مع رسول الوزير إلى شاطيء الكنغ .

ولما توارت الشمس وصل إلى غابة كثيفة مكتظة بالاشجار واقعة علىضفاف النهر فرأى كثيراً من الفرسان وبعضهم على ظهور الفيلة فاندهش لمرآهم وزاد اندهاشه حين علم انهم مرسلون من قبل تريبورينو لانتظاره

وسأل الرسول عنهم فقال : انهم فرسان الوزير الأكبر وقد ارسلهم لأستقبالك دلالة على انه يحبك ويريد تعظيمك في العيون .

فقال روكامبول في نفسه بل ليقبضوا علي فيزجني في أعماق سجونه .

غير انه لم يكترث لجميع ما رآه وتوكل على الله في امره وقد كان ذلك شأنه منذ توبته فلم يعد يخشى خطراً من الأخطار .

واستقبله الفرسان وساروا به يخفرونه إلى منزل الوزير الأكبر وهو يتوقع في كل حين ان ينقضوا عليه وعلى رفاقه فلم يفعلوا بل كانوا يؤانسونه ويكرمونه حتى وصلوا به إلى منزل تريبورينو ودخلوا به اليه .

وكان هذا الوزير القائد الهائل مضطجعاً على حصير في قاعة وحواليه فريق من العبيد بعضهم يحرقون البخور وبعضهم يروحون بمراوح تخفيفاً لوطأة الحر ، وفي وسط القاعة بركة مترعة بالمياه إلتماساً للرطوبة .

فلما رأى الوزير روكامبول نهض من مضجعه وأسرع اليه فحياه على الطريقة الأفرنجية أجمل تحية ، ثم أمر جميع من كان في القاعة بالخروج فامتثلوا وبقي الاثنان منفردين .

ولما خلا بهما المكان ولم يبق أحـد من الجنود نظر إلى الوزير فرآه غـير خطته فجأة فجلس على كرسي بعد أن كان مضطجعـاً على الحصير وأشار لروكامبول بالجلوس ، فجلس ودار بينهما الحديث باللغة الفرنسية فقال الوزير :

— اني أحببت أن أراك لوثوقي من إمكان اتفاقنا .

فنظر اليه روكامبول دون أن يجيب .

واستطرد تريبورينو حديثه فقال انك فرنسي اليس كذلك ؟

— نعم .

— ان من طبع الفرنسيين كره المهاجرة ، ومن يبعد ثلاثة آلاف مرحلة عن بلاده يكون من طلاب الصدفة ، أي أولئك الذين يلتمسون الرزق والـثروة بالدسائس والفتن .

ثم ابتسم ابتسام احتقار وقال : اني لا أبحث عن برهان عمـا أقول ، فإن قدومك إلى بلاط الرجاه ، وانتظامك في سلك جيشه أصدق برهان على قولي .

فقال روكامبول : هب اني من طلاب الصدفة وأهل الفتن

فابتسم الوزير وقال : ومن أجل هذا وثقت أن اتفاقنـــا ممكن ، كما قلت لك .

– اني مصغ اليك فاوضح عما تريد .

– اعلم أن الرجاه عثمان امير قادر بالظاهر ..

فقال روكامبول : وأظن انه قادر بالحقيقة أيضاً .

فتظاهر الوزير أنه لم يسمع كلامه وقال : إن كل أمير هندي تكون انكلترا على أبوابه تصبح قوته هباء منثوراً لتعرضه للأخطار في كل يوم .

– ولكن الأمير يستطيع الدفاع دهراً طويلاً بحمد الله

– أتظن أنه يستطيع الثبات ؟

– إلا إذا نكب بخيانة ..

– إذاً تظن أن خيانته ممكنة ؟

– عجباً ألم يخونوه قبل الآن ؟

وقد قال له روكامبول هذا القول وهو يحـدق به ، فرمى الوزير سيكارة كان يدخن بها وقال بلهجة احتقار شديد أتظن أيها الرجل اني دعوتك الي كي أحدثك بجلاء ؟ ألا تعلم أني عارف بما تفتكره بي ، فانك تعتقد أن يدي قد انغمست في مؤامرة ابن الرجاه السابق على عمه ؟

– بل إني أعتقد أعظم من ذلك .

– ماذا تعتقد ؟

– أعتقد أنك أنت الذي دبرت المؤامرة ، ثم تنصلت منها حين خفوقهـا والقيت تبعتها على ذلك المنكود فقتل شر قتل ..

فقال له ببرود : لقد أصبت ..

فنظر اليه روكامبول نظرة تشف عن بأسه وتدل على أنه لا يكترث لنفوذه وقال له : والآن ماذا تريد مني ؟

ـ أريد قبل كل شيء أن أقص عليك تاريخي ..

ـ وأنا مصغ اليك ..

ـ إذاً فاعلم أني لست هندياً ولا أدعى تريبوريتو .

ـ أعرف ذلك وأعرف انك من الانكليز .

ـ كيف عرفت ؟

ـ بل أعرف أنك تدعى الماجور إدورد لنتون .

ـ أرى أنك عارف بأمري ولكني أرجوك أن تفترض أمراً .

ـ ما هو ؟

ـ هو اني لا أزال أميناً وفياً لانكلترا .

ـ أنت ؟

ـ نعم أنا فإني في هذا المنصب منذ عشرة أعوام ويعتقدالهنود أني هندي ولكني مخلص للانكليز .

ـ وأنت تحاربهم في كل يوم ؟

ـ ذلك لأن الغاية تبرر الواسطة وما ضرهم إذا حاربتهم وأدركوا قصدهم في النهاية .

ليعذرني سيدي الوزير إذا كنت لا أفهم الألغاز .

ـ إذاً اصغ إلي لأكشف لك سر هذه الألغاز ، إن الرجاه تجد كوران كان أميراً ضعيفاً يسهل على الانكليز سحقه في كل حين .

ـ العلك من أجل ضعفه ساعدت أخاه عثمان فجعلته من كبار الأمراء الأشداء ؟

ـ بل اني استخدمت عثمان وجعلته واسطتي في إضعاف جميع صغار الأمراء الخارجين على الانكليز .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ وبعد ذلك أصبحت تلك الشعوب التي تحارب الانكليز حرب مناوشات

في قبضة يدي ، أدبرها كما أشاء ، والآن فإن معركة واحدة منظمة يثيرها الانكليز على الرجاه عثمان تمحق قوته وقوة جميع الأمراء الصغار الذين جمعتهم تحت رايته منذ عشرة أعوام إلى الآن .

ثم سكت هنيهة وجعل ينظر الي فقلت له : لقد أدركت قصدك وعلمت سياستك ولكني لم أعلم بعد ماذا تريد مني .

– اصغ إلي فاني مخبرك بما أريد .

– ٩ –

وكان ثبات روكامبول وتجلده قد أثرا على هذا الداهية ، وعلم انه لا يؤخذ بالخدعة والاحتيال فعزم على مباحثته بجلاء فقال :

– إنك ترى بأني أحسنت التخلق بأخلاق الهنود وبالغت في تقليد عاداتهم حتى لم يعد يخطر لأحد منهم اني قد أكون من الانكليز .

ولكني على فرط ما القاه من الغبطة والنعيم ، وعلى نفوذي الذي لا يضاهيني أحد فيه في هذه البلاد ، فقد مللت شمسها المحرقة ، وضجرت هذه العيشة الشرقية التي اتكلفها تكلفاً منذ ٢٠ عاماً .

فقال روكامبول : إذاً لا تريد خيانة الرجاه إلا لضجرك من العيش في بلاده ؟

– ربما ، كان هذا السبب ، وفوق ذلك فاني انكليزي ، ويجب علي تسليم عثمان إلى انكلترا ، فاذا فعلت غير ذلك أكون قد خنت أمتي وخدعت بلادي .

– وما تمنحك انكلترا مقابل هذا الوفاء

فابتسم وقال هذه هي غاية الغايات فاني شديد الطمع بالغنى .

- ولكن خزائنك غاصة بالذهب

- وأي ضرر إذا زادت انكلترا في ثروتي ؟

- لا شيء من الضرر ، ولكن الرجاه عثمان واسع الثروة وثروته بين يديك .

- من أطاق التماس شيء علاباً واغتصاباً لم يلتمسه سؤالاً فاني إذا سلمت الرجاه للانكليز سلموني خزائنه فأعود إلى أوربا وأعيش في باريس أوفي لندرا عيشة يحسدني عليها الملوك

- لقد فهمت يا سيدي الوزير كل ما تقول ، ولكني لم أعلم بعد لماذا دعوتني اليك .

- لأقترح عليك أن تكون معي .

- على من ؟

- على الرجاه دون شك ..

فهز روكامبول رأسه وقال : لقد دعوتني يا سيدي من طلاب الصدفة والحوادث ، وأنا منهم ، غير اني لست من الخائنين ..

- إذاً تأبى ما اقترحه عليك ؟

- كل الأباء .

فلم يظهر شيء على الوزير من علائم الغضب والاستياء بل نظر إلى روكامبول وقال له بملء السكينة : إنك تستطيع الآن أن تعود ، ولكني لا أدعك تسافر قبل ان تقيم في ضيافتي وتأكل من طعامي .

فقال روكامبول في نفسه : انه يريد أن يقتلني بالسم دون شك .

ثم تركه وانصرف الى منزل أعد لاقامته .

وأقام روكامبول في ضيافة تريبورينو ثلاثة أيام ، كان الوزير يعامله فيها خير معاملة .

وكانا يأكلان على مائدة واحدة ، فكان الوزير يبدأ بالأكل من صحن

كأنه قد أدرك مخاوف روكامبول فأراد تطمينه .

فاطمأن روكامبول ولكنه بقي مرتاباً في أمر الضباط الذين قدموا معه من العاصمة ، فإنه لم يعلم شيئاً منهم ولم يدر إذا كان قد قتلهم أو اكتفى بسجنهم لأنه لم ير أحداً منهم مدة إقامته عند الوزير .

وفي اليوم الثالث دعاه تريبورينو فجامله خير مجاملة وقال له لقد كان لكلامك خير تأثير في نفسي ، فاستنار به فؤادي ورجعت عما كنت عازماً عليه من خيانة الرجاه ، فانه من المحسنين إلي ولم أبلغ هذه النعمة إلا من فضله .

وكان يقول هذا القول بلهجة تشف عن الصدق الأكيد حتى أوشك روكامبول أن ينخدع به لو لم ير من اتقاد عينيه ما يكذب هذه اللهجة .

أما تريبورينو فانه لم يتكلف مراقبة روكامبول فقال له لا أرى حاجة إلى إخبار الرجاه بما كان بيني وبينك فلا تزعجه بشيء من ذلك واعتمد على وفائي .

فقال له روكامبول : وأنت فاعتمد على سكوتي فاني لا أريد القاء النفرة بينكما ما زلت صادقاً في خدمة مولاك .

ولما خرج روكامبول من حضرة الوزير وجد عند بابه أولئك الضباط الذين صحبوه في سفره ، ففرح بهم فرحاً شديداً ، إذ كان يعتقد ان الوزير قتلهم جميعاً .

غير أنه رأى أن واحداً منهم كان مفقوداً فسأل عنه فأجابه أحد الضباط بلهجة تشف عن الحزن : إنه ذهب أمس لصيد النمر فافترسته الوحوش الكاسرة .

وكان هذا الضابط الذي أخبروه بموته شاباً هندياً يدعى موسامي أخلص في خدمة روكامبول إخلاصاً عجيباً فحزن لوفاته أشد الحزن .

وكان تريبورينو قد خرج معه يشيعه الى الباب الخارجي وهو يلاطفه

ويجامله خير ملاطفة .

فلما حان وقت السفر قال له الوزير : إن للهنود عادة في ضيافتهم قديمة لا تزال متبعة إلى الآن

وهي أنه حين يزور عظيم منهم عظيماً مثله يقيم في ضيافته ثلاثة أيام وعند السفر يحفظ جواده أو فيله تذكاراً ويعطيه جواداً أو فيلاً من عنده .

ولما كنت في عيون هؤلاء الناس من عظماء الهنود فلا بد لي من اتباع هذه العادة حفظاً للتقاليد .

– إذاً عزمت على أخذ جوادي ؟

– نعم ، ولكني سأعوضك عنه فيلاً من خير افيالي . انظر إلى هذا الفيل الواقف بقربنا فهو المعد لسفرك وهو هدية مني اليك .

فنظر روكامبول ورأى فيلاً أبيض عظيم الجثة هائل الخلقة ، يندر وجوده في بلاد الهند ، ورأى فوق ظهره برجاً من العاج مرصعاً بالحجارة الكريمة ، فاستعظم الهدية ، ورابه أمرها ، ولكنه اثني على الوزير ثناء طيباً ثم ودعوه وامتطى ظهر الفيل فسار عائداً إلى الرجاه لا يصحبه غير الفرسان الذين جاءوا معه .

وبعد ذلك جعل روكامبول يفتكر في أمر الوزير وكيف انه اوقفه على أسرار خيانته الهائلة ، ثم برحه آمناً مطمئناً فقال في نفسه لا بد ان يكون أضمر الشر ودبر لي مكيدة هائلة ، او انه أمر اتباعه ان يكمنوا لنا في الطريق فيقتلونا شر قتل ، إذ لا يعقل ان تبلغ السلامة إلى هذا الحد من هذا الداهية فيرجعني إلى مولاه وانا احمل اسرار خيانته

وظل روكامبول سائراً مع رفاقه إلى ان وصل في المساء اليوم الأول إلى غابة كثيفة فقال في نفسه . لا بد ان يكون الكمين في هذه الغابة ، وامر رجاله بالتأهب

غير انه أخطأ هذه المرة ايضاً فانه سار كل الليل دون ان يتعرض

له أحد ، حتى أشرق الفجر وهو لا يزال سائراً على فيله في الغابات .

وكان الفيل يسير بملء السكينة ، ويخضع كل الخضوع لراكبه فلا يسير إلا في الجهة التي يشير اليها روكامبول بقضيبه ، ولكنه انتفض فجأة واهتز اهتزازاً عنيفاً حتى كاد روكامبول يسقط عن ظهره ، ثم رفع خرطومه وجعل يتنفس بعنف وجميع جسمه يرتجف فظن روكامبول انه شم رائحة نمر فأصابه هذا الاضطراب .

وكذلك رفاقه فقد حسبوا نفس الحساب وجعلوا ينظرون منذهلين إلى اضطراب الفيل ويتأهبون لمقاومة ما يعترضهم من الوحوش ، غير انهم ساروا مدة طويلة دون ان يروا اثراً للوحوش .

اما الفيل فانه ظل مندفعاً في سيره ولكنه كان كلما تقدم خطوة يزيد اضطراباً .

ودام على ذلك وروكامبول يتوقع شراً قريباً إلى ان خرج من وسط الغابة صوت غريب لم يدرك سره ولكنه علم انه صوت انسان فهاج الفيل عند سماع الصوت هياجاً شديداً ، وانطلق في تلك الغابات انطلاق السهم فقتل بارجله احد رفاقه واستمر على عدوه لا يلوي على شيء .

وان سرعة الفيلة لا تقاس اليها سرعة الجياد ، فكان يعدو بسرعة البرق يجتاز تلك الغابات المكتظة بالأشجار دون ان يلتطم بها ويسير في طرق خاصة كأنه قد تعود اجتيازها من قبل .

فأدرك روكامبول الخطر وحاول ان يثب عن ظهر الفيل مؤثراً ان تنكسر يده او رجله على ان يتعرض لخطر القتل ببقائه على ظهر الفيل .

وكأنما الفيل قد احس بقصده فانه مد خرطومه إلى روكامبول ووضعه على كتفيه ضاغطاً عليها فقيده في محله ولم يعد يستطع حراكاً واستمر يعدو عدوه السريع .

غير ان روكامبول لم تضعضع الحادثة صوابه فالتفت الى ورائه فلم يجد رفاقه

وعلم أنهم لم ينطلقوا في أثره، ولم يطاردوا الفيل فأيقن أن تريبورينو قد اشتراهم بماله وضمهم إلى حزبه فباتوا من أعوانه على الرجاء.

وقد صدق ظنه فان هؤلاء الخائنين لم يقتصروا على عدم مطاردة الفيل الثائر بل انهم تركوه وشأنه.

وساروا في طريق آخر ضاحكين كأنهم كانوا يعلمون بمصير قائدهم.

وقد ذكر روكامبول وهو مقيد على ظهر الفيل بخرطومه الشديد ان الهنود يستفيدون من ذكاء هذا الحيوان الذكي فيستخدمونه جلاداً لانفاذ عقابهم في من يريدون قتله.

وذلك انهم يضعونه فوق ظهر فيل خاص مدرب فيسير الفيل بالمحكوم عليه ويقيده بخرطومه بحيث لا يستطيع النزول عنه.

ويظل سائراً في طريق خاصة إلى أن يسمع مروضه يناديه نداء خاصاً فيندفع بالسير، ولا يعلم أحد إلى أين يذهب بذلك الرجل المحكوم عليه بالقتل.

ولهذا النوع من الفيلة ذكاء وحكمة عجيبان فإن الفيل الجلاد يسير بالمحكوم عليه إلى مكان خفي كأنه يبغي إخفاء الجريمة، وهو يسير به ساعات بل اياماً إلى أن يصل إلى المكان الذي يكون قد اختاره لانفاذ العقاب فينفذه على طرق شتى.

وذلك انه إما أن يقبض عليه بخرطومه فيجلد به الأرض بعنف شديد فيتحطم، أو يلقيه على الأرض ثم يسحق صدره برجله الهائلة فيطحنه طحناً أو يأخذه بخرطومه فيقذفه بالهواء فيسقط على الصخور الناتئة، أو يضرب به غصن شجرة غليظ فيخترق جسمه أو يخرق قلبه بنيابه.

وفي كل حال فإن من يركبه لا ينجو من الموت باحد هذه الطرق الهائلة.

وقد ذكر روكامبول هذه العادة فارتعش ولم يشكك انه سائر إلى الموت وانه راكب ظهر فيل جلاد ولاسيما حين سمع ذلك الصوت الانساني الغريب

الذي خرج من جوف الغابة فأيقن أنه صوت المروض،وان تريبورينو قد خدعه شر خداع وانتقم منه شر انتقام .

واستمر الفيل يعدو حتى اجتاز الغابة وانتقل إلى سهـل واسع كثير الأعشاب النامية ، وفي بعض أماكن من هـذا السهل الواسع آثار الحصاد وبعض المنازل .

فقال روكامبول في نفسه : لا يزال الوقت فسيحاً لدي فان هذا الفيل الذكي لا ينفذ عقابه بي في هذا المكان المأهول .

وكان تريبورينو قد توقع كل شيء ، فحسب لكل شيء حسابه ، ولكن فاته أن يجرد روكامبول من سلاحه إذ كان يعلم ان رصاص المسدس لا يقتـل الافيال الضخمة على الفور .

غير أن روكامبول قد أحضر معه من أوربا مسدساً من طراز جديد يحشى برصاص دمدم الذي إذا أطلق ونفذ في الجسم ، انفجر فيه ومزقـه شر ممزق .

أما الرصاصة العادية فـانها تنفذ إلى جسم الفيل ولكنها لا تقتله على الفور ، أو قد لا تصيب منه مقتلاً ، خلافاً للرصاصة المنفجرة ، فانها أين وقعت في جسمه ، انفجرت ومزقته شظاياهـا ، وهي أفضل من الرصاصة ذات الرأس الفولاذية المحـددة التي يستعملونها في قنص الأسود والنمور والتماسيح .

وكان الفيل الجلاد قد ضغط عليه وقيده بخرطومه كما تقدم ، ولكن بقيت يده اليمنى مطلقة السراح ، لم يصل اليها خرطوم الفيل ، فمدها روكامبول إلى جيبه وأخرج منها ذلك المسدس .

ثم قال في نفسه : إني إذا تمكنت من قتل الفيل على الفور فقد نجوت من الموت وإلا انتقم مني إثر الانفجار وداسني برجليه فطحنني طحناً .

ولم يمر على روكامبول ساعة خطر كهذه الساعة على فرط مـا لقيه في

حياته من أخطار الموت

ولكنه لم يضع رشده وصوب مسدسه بمـلء السكينة إلى عنق ذلك الفيل الضخم .

- ١٠ -

ولم تكن اصابة المرمى من الأمور السهلة الميسورة ، وذلك لأن جلد الفيل شديد الغلظة ، وفوق ذلك فهو كثير التجعد يشبه حلقات بعضها فوق بعض بل يشبه قشوراً تتجعد وتتلوى شبه رمال الصحاري إذا نسفتها الرياح .

ولذلك فقد وجب على روكامبول أن يختار حينـاً يمتد فيه ذلك الجلد وتنبسط تلك التجعدات كي تجد الرصاصة منفذاً أميناً الى الجسم فتنفجر فيـه ويحدث ما كان يرجوه من الموت المعجل .

فجعل يترقب الفرصة وهو مصوب مسدسه الى جهـة الشمال كي تنفجر رصاصته في جهة القلب .

وكان الفيل يسير فوق العشب بخفة النمر ،وفي هذا السهل كثير من الهوات كان يثب من فوقها وثوب الخيل المدربة على الصيد .

وفيما هو يتأهب للوثوب من فوق هوة كبيرة انبسط جلد عنقه وانتثرت طياته فانتهز روكامبول هذه الفرصة وأطلق النار .

وعند ذلك ، اهتز الفيل اهتزازاً عنيفاً هائلا ، تقطعت له حلقات البرج فقذفه هذا الاهتزاز الى خارج الحفرة وفيه روكامبول ، أما الفيل فانـه سقط في الهوة .

وذلك ان الرصاصة نفذت الى جهة القلب وانفجرت فقتلته على الفور ، ونجا روكامبول من الموت .

أما روكامبول فإنه نهض بعد سقوطه وقد رد حسمه خرطوم الفيل وذلك السقوط ولبث هنيهة مضعضع العقل .

ثم ثاب اليه رشده فبحث عن مسدسه ووجده ملقياً على الأرض أمامه وقد سقط من يده لهول سقوطه عن الفيل فوضعه في جيبه وجعل ينظر إلى مـــا حواليه ليفحص المكان الذي كان فيه .

فوجد نفسه في سهل عظيم لا تبلغ العين نهايته ورأى تلك الغابات الكثيفة التي اجتازها الفيل بعيدة جداً عنه فقال في نفسه : لا بـد لي للاهتـداء إلى شواطىء الكنغ أن أعود أدراجي وأجتاز تلك الغـابات وأعرض نفسي لأخطار لا حد لها . ولكنه رأى أنه لا يسعه إلا إتباع هذه الخطـــة ، إذ لا يعرف غير هذه الطريق ، فعاد يمشي في تلك السهول إلى الغابات ملتمساً ضفاف النهر .

ومشى ساعة فوق عشب السهول متبعاً آثار الفيل الى أن وصل إلى نبع ماء ، وكانت قواه قد وهت ، فجلس فوق العشب ليستريح ويروي ظمأه من ماء ذلك النبع .

ثم استلقى على تلك الأعشاب ، ومن المعروف ان من وضع أذنـــه على الأرض تبلغ الأصوات إلى مسمعه أكثر من بـلوغها اليه ، إذا كانت الأذن معرضة للهواء .

فسمع روكامبول وهو على هذه الحالة صوت عدو سريع ، أيقن انه عدو فيل فاضطرب وقال في نفسه العل تريبوريتو أرسل في أثري رسولاً يعود اليه بحقيقة أمري ويبشره بتنفيذ العقاب بي ؟

وقد ترجح لديه هذا الظن فلم يفتم له ورجا ان يعبث بهذا الرسول ، فيأخذ فيله بالقوة أو بالحيلة ، ويعود عليه الى الرجاء . ولذلك أخذ مسدسه ووقف موقف المتأهب .

وكان صوت عدو الفيل يدنو منه ، وبعد حين رأى الفيـــل قادماً إلى

جهته ، فاضطرب فؤاده وتأهب لمناداة راكبه . ولكنه ما أوشك أن يدنو منه ، ويرى ذلك الراكب حتى اهتز اهتزاز النشوان من السرور وصاح صيحة فرح .

ذلك انه رأى راكب الفيل وعلم انه خادمه الهندي الأمين موساني الذي أشاع عنه تريبورينو انه خرج لصيد النمر فافترسته الوحوش .

وكان الفيل لا يزال على مسافة ٤٠ متراً منه فجعل ينادي بأعلى صوته ويشير اليه بيديه .

فأسرع موساني اليه ولما رآه صاح مثله صيحة فرح ، فأوقف الفيل وقال له : إن هذا الفيل يعدو بي منذ ثلاثين ساعة باحثاً عنك وما كنت أطمع بلقائك حياً .

فعجب روكامبول لافلاته ونجاته ، وقال له : كيف تمكنت من البحث عني ؟

– إني كنت أسيراً عند الوزير فتمكنت من النجاة وعلمت إنهم دفعوك إلى الفيل الجلاد . فكيف نجوت منه ؟

– إني قتلته .

فنظر اليه ببلاهة وقال : كيف يمكن ان يكون ذلك ، لأن الرجل لا يستطيع قتل فيل ؟

– سأخبرك فيما بعد كيف قتلته . فقص علي أنت ما جرى لك ، ومن أين أتيت ؟

– من سجن تريبورينو .

– ألم تذهب لصيد النمر ؟

– كلا .

– إذن ماذا حدث لك ؟

– حدث لي أنه منذ وصولنا إلى بلاط الوزير حاولوا ان يتخذوني من حزبهم

لأنهم كانوا يعرفون شدة إخلاصي لك .

ولما رأوا إصراري على الوفاء حبسوني بأمر الوزير لأنه أبى قتلي بشفاعة جارية عنده كانت تحبني حباً شديداً ، وهي التي أطلقت سراحي . فإنها لما علمت انهم دفعوك إلى الفيل الجلاد ، فتحت لي باب السجن ، وأخبرتني بأمرك وبأمر هذا الفيل ، وقالت لي : إبحث عن طريقة تنقذ بها سيدك .

وأخبرتني أيضاً ان جميع رفاقك الضباط خانوا الرجاء وانضموا إلى الوزير فانقطع رجائي منهم .

على أني علمت أن الفيل الجلاد أنثى ، فبقي لي شيء من الرجاء بانقاذك .

ولهذه الجارية نفوذ عند الوزير فأعطتني خاتماً من الذهب وأرسلتني به إلى منزل أحد كبار الضباط .

فلما انتهيت اليه أظهرت له ذلك الخاتم فعلم إني آت من عند الجارية وقال لي: قل ماذا تريد ؟

- أريد فيلاً وما يحتاج اليه من عدة .

فنادى أحد أتباعه وأمره باعداد ما طلبت .

وبعد هنيهة رأيت الفيل واقفاً عند الباب ، فامتطيته وسرت في أثرك أسابق الرياح .

وللفيل حاستان قويتان فيه وهما حاستا السمع والشم ، فما سار بي ساعة حتى علمت من اضطرابه أنه أدرك أثر الفيل الجلاد وانه يسير في نفس الطريق التي كنت تسير فيها .

واشتد عندي الرجاء بانقاذك ، وسار بي ذلك الفيل ينهب الأرض نهباً ، وقد رأيت الآن أن فيلي لم يخطىء . ولكن أين تركت فيلك الذي قتلته كما تقول ؟

فأخبره عند ذلك روكامبول بجميع ما جرى له . وأراد أن يبرهن له عن فعل رصاص مسدسه ، فأخذه وأطلق رصاصة منه على شجرة فدخلت في جذعها حتى تفجرت وسقطت الشجرة قطعاً متفرقة ، كأنما قد انفجرت تحتها الألغام .

وبعد ذلك ركب روكامبول الفيل مع موساني وسار بهما .

لكنهما لم يعودا الى الكنغ كما كان يحاول روكامبول قبل ان يلتقي بخادمه بل سار بهما في طريق الجبال الكائنة وراءها عاصمة عثمان .

وبعد مسير بضع ساعات وجدا منزلاً فوقفا عنده ، وقد عضهما الجوع بنابه ، فأكلا فيه ما تيسر . وأسرعا الى مواصلة السفر كي يخرجا من دائرة نفوذ تريبورينو العسكرية ، إذ كانا معرضين لاعادة القبض عليهما .

واستأنفا السير حتى إذا أمنا اعتداء الوزير جعلا يتحدثان فقال موساني : إن هذا الوزير المنافق عامل على خيانة الرجاه عثمان

فقال روكامبول : لقد عرفت هذه الخيانة .

- إنه ضم اليه جميع قواد الحصون حتى إذا جاء الانكليز فتحوا لهم أبوابها فدخلوها آمنين .

- لكن لحسن الحظ لا يزال الوقت فسيحاً لدينا فسنخبر الأمير بأسرار هذه الخيانة .

فهز موساني رأسه وقال : كلا لقد فات الأوان .

— لماذا ؟

— لأن هذا الوزير عامل على خيانة مولاه منذ عهد بعيد وقد أصبح نصف الجيش من حزبه لا يخالفونه فيما يريد .

— وماذا يفيده ذلك إذا بقي النصف الآخر موالياً للأمير عثمان ؟

فقال موساني بلهجة الارتياب : لكن أتظن ان الرجاه يصدق ما نقوله عن

خيانة وزيره ؟

- دون شك متى شفعت أقوالي بالبراهين .

- إنك مخطىء يا سيدي ، لان الرجاه يحب تريبورينو حبـــاً عظيماً وأنا أعلم السبب

ما هو السبب ؟

- إني عرفته من جارية الوزير ، فإنـــه مولع بها وهي واقفة على معظم أسراره ، وقد أطلعتني عليها ومما قالته لي عن سبب حب عثمان للوزير أن الوزير أنقذ كولي نانا من اللهب ، وكان الأمير عثمان يهواها فتمكن حبها من قلبه .

وأما الوزير فإنه يكره الأمير كرهاً شديداً يعادل ذلك الحب ، لأنـه غيور منه .

- على من ؟

- إن كولي نانا زوجة الأمير عثمان باتت شبيهة بالعجائز لأنها بلغت السادسة والعشرين من عمرها وهو سن الكهولة في الهند .

لكنه على حبه إياها وإكرامه لها قد تزوج بفتاة تبلغ ١٤ من عمرها ، لم تر العيون أبدع منها وهي تدعى دابي كوما .

- أهي التي يحبها الوزير ؟

- إنه يحبها حباً لا حد له وهو لا يريد خيانة عثمان وتدمير بلاده على فرط إحسانه اليه إلا طمعاً بسلبه هذه المرأة .

ونعم إن الانكليز قد وعدوه بالأموال الطائلة إذا سلمهم الأمير عثمان وولي عهده . لكن الذي دفعه الى الخيانة ذلك الغرام لا المال .

- لكن كيف تمكنت الجارية من معرفة أسرار الوزير ؟

- لأنه كان يهواها من قبل وكانت تهواه ، فكان يطلعها على أسراره في ساعات سكره وغفلات غرامه . وما زالت موالية له إلى ان علمت بحبه لامرأة

عثمان فلدغتها عقرب الغيرة ، وهي ساعية الآن كل جهدها في سبيل الانتقام منه لنكثه بعهوده

وقد قالت حين أطلقت سراحي : إذهب واجتهد في إنقاذ سيدك قبل ان يقتله الفيل الجلاد ، فاذا لم تستطع إنقاذه إذهب الى الأمير عثمان وانطرح عند قدميه وقل له ان تريبورينو من الخائنين .

فلما أتم موساني حديثه رأى روكامبول أنه سيستفيد من حديث غرام الوزير بامرأة الأمير لاقناع الرجاه على خيانة وزيره فإن هذا الغرام سيؤثر عليه أعظم تأثير .

واستأنف الاثنان السير كل تلك الليلة وقسماً من اليوم الثاني .

حتى إذا توسطت الشمس في كبد السماء ونجت الارض من هجيرها المحرق برزت لهما مدينة بيضاء مستظلة بظل جبل شاهق يقيها شر الحر وغابة كثيفة تحيط بها عند سفح الجبل .

وكانت هذه المدينة البيضاء ، المدينة المقدسة كما يدعوها أهل تلك الجبال ، وقد اختارها الرجاه عاصمة له تبركاً بها وإرضاء لاهل الجبال .

لكن الرجاه لم يكن في حاجة الى براهين روكامبول لاثبات خيانة وزيره كما سيتضح من الفصول التالية .

- ١١ -

إن عاصمة الرجاه كانت تدعى نارفور وهي محصنة أعظم تحصين إذ كان يحيط بها ثلاثة أسوار بعضها وراء بعض .

وهي مبنية في سفح جبل شاهق ، يحيط بها نطاق من البراري يمتد الى سهول الهند الخصيبة ، وفي وسطها غابة باسقة الاشجار تقيها

حر الشمس .

فاذا اجتاز القادم اليها السور الثالث ، يجد بيوت بيضاء سميت المدينة باسمهـا . وفي كل شارع من شوارعهـا نبع يتدفق منه المـاء ، فيترطب به الهواء .

وهناك حدائق غناء لا يخلو منها بيت تدلت أثمارها وزكت أزهارها ، فكانت جنة للناظرين .

وفي وسط المدينة سراي الامير ، وهي قصر ضخم محصن كأنه مدينة ضمن مدينة . وكان محصناً أقوى تحصين وهو عظيم الاتســاع ، بحيث لو تمكن العدو من اجتياز الاسوار الثــلاثة ، يستطيع أهل المدينة بجملتهم أن يقيموا في هــذا القصر ، ويحـاصروا ما بقيت لهم ذخـيرة تمكنهم من الدفاع .

وقد حـدث مثل ذلك في تاريخ هذه المدينة منــذ قرن . فان الملك أدو حاصر نارفور عدة أشهر ، فخرق الاسوار الثلاثة واحداً تلو واحد ، فالتجأ أهل المدينة إلى السراي ، أي الى الحصن ، ودافعوا فيه زمنــاً طويلاً ، حتى مــل ملك أدو محاصرتهم واضطر إلى الرجوع عنهم بالخيبة والخذلان .

وهذه السراي التي كان يقيم فيها الامير عثمان كان فيها شوارع وحدائق ومحلات عمومية .

ولكن لم يكن يستطيع الدخول اليها إلا من كان معروفاً انه في خدمة الامير ومن رجاله الحربيين . فلو أراد هندي من العوام الدخول اليها قبض عليه او طرد .

وكان في وسط هذه السراي بناية مربعة لا نوافذ فيها تصل اليها أشعــة الشمس من السقف وهي دار الحريم .

وعلى بابها حارسان من الخصيان يحرسانها في الليل والنهار .

وكان من عادات حرم الامير أن لامرأته الشرعية وحدها الحق بالخروج من السراي وإظهار وجهها للعموم . وأما الجواري وسائر النساء فكان يحق لهن الخروج إلى الحمام والمنتزهات لكنهن لا يخرجن إلا مبرقعات ولا يحق لاحد الدنو منهن .

وكانت دار الحريم في محل فسيح وبالقرب منها خمارة يختلف اليها جنود حرس الامير الخاص ، فيشربون ويتنـــادمون ويبثون ما في أفئدتهم من لواعج الغرام .

ففي ذات ليلة قبل وصول روكامبول الى نارفور بيومين ، كان جنديان جالسين على مقعد عند باب الخمارة يتحدثان بصوت خفيض .

وكان أحدهما هندياً بحتاً لا غش فيه والآخر عبداً أسود . وقد دار بينهما الحديث الآتي :

قال الهندي لرفيقه : أتعتقد أيها الصديق بفردوس الاله وشنو ؟

فأجابه الاسود بملء البساطة : لا أعلم .

— لكن يجب أن يحسن اعتقادك بهذا الفردوس .

— لماذا ؟

— لانه موجود ومن يدخل اليه يجد لذات لا حد لها ونعيماً خالداً لا يحيط به وصف .

فاسترخت شفة العبد وظهرت أسنانه البيضاء وبدت عليه علائم الشر .

فقال له الهندي : أرأيت زوجة الامير الاخيرة ؟

— الحسناء ؟

— نعم .

— كيف أستطيع ان أراها ؟ إن الرجاه لا يأذن لها بالخروج سافرة الوجه حتى في ظلام الليل .

— لكن الخصي رومافلي يقول انها أجمل ملكات الهند .

– لقد أصاب هذا الخصي لان نور جمالها يكسف كل شمس .
– كيف عرفت ذلك ؟
– لاني رأيتها .
– أنت رأيتها ؟
– نعم لقد رأيتها سافرة الوجه فعلمت انها خلقت كما اشتهت .
– إعلم إذاً أن الاله وشنو له في فردوسه آلاف النساء أجمل من هذه المرأة وهو يزفهن لمن يدخل الفردوس .
فاتقدت عينا العبد وقال : كيف السبيل إلى بلوغ هذا الفردوس ؟
– يجب على من يريد الدخول اليه ان يخاطر بحياته من أجل رجل يحبه الاله وشنو . فاذا مات في سبيل المخاطرة ذهب تواً إلى الفردوس ، وإذا سلم من الموت فان الاله وشنو يحميه إلى آخر ساعة من حياته إلى ان يموت الموت الطبيعي .
– وبعد ذلك ؟
– وبعد ذلك تفارق نفسه الجسد فيفتح الاله أبواب فردوسه ويأتي لمقابلة تلك النفس مع نسائه الحسان وكل واحدة منهن خير من الف إمرأة من ملكات الهند ونساء الرجاه .
فصمت العبد هنيهة وأطرق مفكراً ثم قال : من هذا الشخص الذي أحبه الاله وشنوا ؟
– هو تريبورينو الاكبر .
– أحقاً ما تقول ؟
– دون شك فان من يموت في سبيل تريبورينو يذهب تواً إلى فردوس وشنو فتدخل نفسه في جسم فتى جميل أبيض كالحليب .
– كيف يمكن ذلك وأنا أسود ؟
– إنهم يعطون نفسك جسماً أبيض أنقى من العاج .

ففكر العبد أيضاًثم قال حسناً سأموت في سبيل تريبورينو. ولكن أتؤكد لي أن هذا الفردوس موجود حقيقة ؟

– إني لو لم أكن واثقاً كل الثقة من هذا النعيم لما خدمت تريبورينو ولما خاطرت بحياتي في سبيله ثم ألا تعلم ان هذا الوزير أنفذ سلطاناً وأعظم بأساً من الأمير فان ما يريده الوزير لا بد ان يكون .

– وماذا يريد الوزير ؟

– إنه يهوى إمرأة ويريد الحصول عليها .

– لكنه كثير المال وافر الكنوز فلماذا لا يشتريها ؟

– لأنها ليست من النساء التي تباع فهي امرأة الرجاه الأخيرة الحسناء التي يدعونها مورتار .

فانذهل العبد انذهالاً عظيماً من هذا السر الهائل الذي ائتمنه عليه حتى وقع الكأس من يده وجعل ينظر إلى الهندي بملء الذهول .

فقال له الهندي : إن تريبورينو قد أقسم بالهه ان ينال إمرأة الرجاه ولا بد أن ينالها .

– لكن أسوار سراي الحريم عالية وأبوابها من الحديد .

– ورغم ذلك سيفتحونها

– من الذي يفتحها ؟

– إصغ إلي أيها الصديق ، لقد تماديت معك في القول حتى لم يعد بد لي معك من واحد من أمرين وهما إما أن أقتلك فأكون آمناً على أسراري أو تقسم لي على كتمان ما قلته وما سأقوله لك فيرضى عنك الاله وشنو وتدخل إلى جناته .

ثم جرد خنجره من غمده وأنذر به العبد

أما العبد فانه لم يخف من الخنجر خوفه من حرمانه الجنان فقال له: إني أقسم لك بحظي من ذلك الفردوس بأني أكتم كل ما تلقيه إلي وأكون في خدمة الوزير

أطوع من البنان ، فقل ما تريد .

– لقد صدقتك ووثقت بوفائك ، إعلم الآن أن الإله وشنو يحب تريبورينو حباً شديداً ، حتى أنه أوحى الاخلاص إلى قلوب كل الذين يخدمون هذا الوزير ، فيأتوا يضحون في خدمته تضحيات أهون منها الموت .

– ألا تذكر لي شيئاً من هذه الخدمات ؟

– نعم ، سأروي لك حكاية تكون خير مثال لاخلاص أتباع هذا الوزير وهي أنه كان للوزير عبد يدعى كوجلي وهو أسود مثلك غير انه من الأقاليم الغريبة أي ان سواده مشرب بالحمرة وهو من اولئك العبيد الحسان الذين ط لما هامت بهم الجواري وقضين بهم حباً .

وان في كلكوتا راقصة حسناء تدعى مونا ، هامت بهذا العبد وهام بها ، فتوافقا على الزواج ورضي به تريبورينو . فسر العبد سروراً لا يوصف لفوزه بمن يحب .

وبعد حين نادى الوزير هذا العبد الولهان وقال له : إني أحب إمرأة الرجاه واعتمد عليك بالدخول إلى دار نسائه .

أتعلم ماذا فعل هذا العبد الوفي ؟

إنه امتثل لمولاه وترك عروسه وتنازل عن الرجولية في الحال إذ لا يدخل دار نساء الأمير غير الخصيان .

– إني لا أفهم ما تقول .

– ألا ترى هذا الخصي الأسود الجديد الذي يخرج أحياناً من دار الحريم فيجالسنا في الخمارة ؟

– نعم .

– هذا هو كوجلي الذي رضي ان يكون خصياً على فرط عشقه لعروسه لاستمالته في خدمة الوزير فهل رأيت أصدق من هذا الاخلاص ؟ إن هذا مثالاً

من ألوف مثله على ما يلاقيه الوزير من وفاء أتباعه ولا يتيسر ذلك إلا لمن تعضده الآلهة .

فقال له العبد : لقد فهمت وأرجو ان يوحي إلي الاله وشنو مثله هـذا الاخلاص . لكني أرى ان وجود كوجـــلي في دار حريم الامير لا يكفي لاختطافها .

– انك تقول الحقيقة ، لان كوجلي وحـده لا يستطيع اختطافها ، لان الخصيان يستطيعـون الخروج مـن دار الحريم ، ولكنهـم لا يستطيعون الخروج من القلعة ، ولا يحق للنساء أن يخرجن منها أيضاً إلا بصحبة أزواجهن

– إنك تثبت إعتراضي فيما تقول .

– نعم ، ولكن كوجلي سيخرج غداً من دار الحريم ومعه زوجة الرجاه فيسلمها لنا .

– لنا نحن ؟

– نعم لي ولك وعلينا عند ذلك ان نخرجها من الحصن فاذا فزنا بما نسعى اليه نصبح من كبار الاغنياء بفضل تريبورينو .

– وإذا باغتنا الحرس وقبضوا علينا ؟

– يقطع الرجاه رأسينـا ، ولكن روحينـا تطيران إلى فردوس الاله وشنو .

وكأنما جميع هذه البراهين لم تقنع العبد فقال له : تقول أن كوجلي يخرج بزوجة الرجاه من دار الحريم ويدفعها الينـــا . فهل ترضى زوجة الرجاه أن يختطفها ؟

– دون شك .

– لماذا ؟

– لأنها حين باعها ابوها للرجاه بعشرة آلاف كيس كانت عاشقة فتى هندياً

جميلاً من بناريس وقد تحالفا على الوفاء .

وكان تريبورينو عارفاً بجميع ذلك فعلم كوجلي ماذا يفعل ولذلك فان كوجلي سيقول لزوجة الرجاه انه قادم من قبل عشيقها لاختطافها وهي ستوافقه دون شك على الفرار .

– ونحن ماذا نفعل ؟

– نخدعها بنفس الحيلة ونقول لها إننا رسولا عاشقها .

فبقي العبد متردداً وقال له : أتظن اننا نستطيع الخروج من الحصن ؟

– نعم .

- كيف ؟

– ذلك ان زوجة الرجاه تخرج من دار الحريم مبرقعة . وفوق ذلك فان كوجلي يصبغ جسمها بلون السواد . اليس لك زوجة سوداء ؟

– نعم .

– إذاً تأخذ زوجة الرجاه بيدها وتصل بها إلى باب الحصن فتكشف شيئاً من النقاب عن وجهها وتقول : إنها امرأتي فيأذن لك الحارس بالخروج بها . فتخرجا حالاً .

– أتظن انه يأذن لي ؟

– دون شك ، لأن هذا الحارس سيكون الذي يحادثك الآن ، أي أنا .

– إذا كان ذلك فان الأمر سهلاً . ولكن ماذا اصنع بها بعد الخروج من الحصن ؟

– تذهب بها إلى خمارة اللؤلؤة الزرقاء وهناك تجد مركبة وخفراء ارسلهم تريبورينو فتقول للمرأة ان هذه المركبة وهؤلاء الخفراء ارسلهم عشيقك. والآن هل عزمت عزماً اكيداً صادقاً على خدمة الوزير ؟

- نعم إذا كنت تقسم لي ان فردوس وشنو كائن حقيقة .

– إني اقسم لك بكل عزيز في الأرض ، ومقدس في السماء عـلى صدق ما اقول .

- واذا اقسم لك بفردوس وشنو اني سأكون من اخلص المخلصين في خدمة الوزير .

وعند ذلك فتح باب دار الحريم وخرج منه الخصيان .

- ١٢ -

كان الهندي صادقاً في تلك التفاصيل التي رواها للعبد ، فان إمرأة الرجاه الجديدة ، وهي دابي كومـا ، لم تجف لها دمعة منـذ دخولها إلى بلاط الرجاه .

وكانت تحب فتى جميلاً نبيلاً من بناريس عاهدها وعاهدته على الزواج برضى عائلتيهما اللتان احتفلتا بعقد الخطبة ، فسر سكان المدينة بجملتهم لفرط جمال الخطيبين .

غير ان سلطان المال نافذ في الشرق نفوذه في الغرب ، وهو يفعل في كلكوتا كما يفعل في باريس .

وقد اتفق يوم عقد الخطبة وجود ضابط من ضباط الرجـاه عثمان في بناريس فحضر الخطبة واكرمه والد الخطيبة إكراماً عظيماً ، فخرج الضابط مفتوناً بجمال الصبية .

ولما عاد الى نارفور اخبر مولاه الرجاه بما رأى ووصف له الفتاة وصفاً اخذ بمجامع قلبه فأمر الأمير عثمان ان يعود إلى بناريس ويشتري الفتاة من ابيها بما يريده من المال .

وجزعت الفتاة جزعاً شديداً وتوسلت الى ابيها بالدموع السخينة فلم يفدها

الدمع ولم تغنها الشفاعة فباعها للامير بعشرين لك"روبيــة واللك في اصطلاح الهنود والأعجام مائة الف والروبية فرنـكان ونصف فيكون قد باعها بخمسة ملايين فرنك .

وأخذها الضابط وجاء بها إلى مولاه ولكنه قبل وصوله إلى نار فور مر بالمدينة التي يقيم فيها تريبورينو فرأى امرأة الأمير وفتن بها فلم يهدأ له بال من تلك الساعة .

وكان قد عرف امرها فزاد انشغافاً بها وهاجت كوامن عشقه وحقده على الامير عثمان بما غرس في نفسه من بذور الحسد والمبادىء السافلة ولكنه لم يظهر للفتاة شيئاً من هذا الغرام والهيام حذراً من ان يتصل امره بالأمير عثمان .

وسار بها الضابط إلى بلاط الأمير فرآها فوق ما وصفت له ولكنه لم يلق منها غير النفور ولم تقابله بغير البكاء فهاجت كوامن عشقه وتمكن حبها من قلبه ولكنه كان واسع الصدر كثير الصبر فكان يقابل صدها باللين والملاطفة وهو يرجو أن تألفه يوماً وتعلم انه أهل لحبها .

ومضى على الفتاة شهر وهي لا تنقطع عن البكاء إلى أن دخل إلى السراي خصي جديد يدعى كوجلي فتعين في الحال لخدمة دابي كوما .

وقد عرف القراء هذا الخصي انه خادم الوزير الأمين فجعل من يوم دخوله يدبر وسائل اختطاف الفتاة ويمهد السبل للذهاب بها إلى سيده الخائن .

وكان اول عمله اختلاطه بجنود الحرس الخاص واهتمامـــه باغوائهم بطرق مختلفة فلم يفلح إلا مع ذلك الهندي ولكن أغوى العبد كما تقدم فيكون أغوى اثنين لاختطاف الفتاة

ولقد قلنا أن كوجلي خرج من دار الحريم وأقبل إلى حيث كان الهندي والعبد ، فلما رآه الهندي غمزه بعينه فدنا منه كوجلي وقال له : أتريد أن تحادثني بشيء ؟

— نعم .

فنظر كوجلي إلى العبد المقيم مع الهندي وقال له من هذا ؟

ـ انه رجل يريد الصعود إلى فردوس الإله وشنو .

فنظر اليه كوجلي وقال : أحق ما يقول ؟

ـ نعم وقد اتقدت عيناه بشعاع الرجاء ، فأيقن كوجلي انه مخلص في تعهده وانه سيضحي حياته في سبيل الوزير .

وأقام مع الاثنين نحو ساعة فشربوا الشاي واتفقوا على ما سيصنعوه في الليلة القادمة لاختطاف الفتاة .

ثم تركهما كوجلي وعاد إلى دار الحريم فأقام فيها ينتظر هبوط الليل .

وكان الرجاه عثمان قد زهد في جميع نسائه لافتتانه بهذه الفتاة ، فجاء اليها وجعل يلاطفها ويؤانسها ولكنه لم يلق منها غير الصد والبكاء كما عودته منذ اشتراها .

فعزاها وخفف كربتها بالكلام اللين والوعود الجميلة ، ولكن أين للعشاق أن تشغلهم الوعود والأماني عما يكونون فيه من وجد ولوعة .

وبعد أن خرج الأمير من عندها دخل اليها كوجلي وهي لا تزال دامعة العين فقال لها : ما بك يا لؤلؤة الشرق تبكين ؟

ـ لأن أبي باعني بيع السلع وما أنا من الرقيق .

ـ لقد أصبت يا سيدتي ولكن لكل ضيق فرج وقد يمكن انقاذ الأسرى .

فهزت رأسها وقالت : وأسفاه اني أصبحت ملكاً للرجاه ولا بد لي يوماً للامتثال مكرهة .

فنظر اليها الخصي محدقاً وقال : كيف ذلك أتنقضين يمينك وتنكثين بعهودك ؟

فاهتزت الفتاة اهتزاز الورقة حركتها الرياح وقالت كيف علمت اني أقسمت يميناً وتقيدت بعهود ؟

ـ ألم تقسمي يمين الوفاء لخطيبك رمسيس في بناريس قبل أن تفترقا ؟

فأبرقت عينا الفتاة وخرج البريق من خلال دموعها كما تنفذ أشعة الشمس من خلال المطر ثم قالت الملك تعرف رمسيس ؟

– بل أقول خيراً من ذلك وهو أن رمسيس أرسلني اليك

فصاحت الفتاة صيحة فرح حاولت كتمانها فخرجت من صدرها كالزفير .

ومضي كوجلي في حديثه فقال : انظري إلي يا سيدتي فإني كنت قبل ثمانية أيام رجلا فرضيت أن أغدو من الخصيان كي أصل اليك ، لأني من خدام رمسيس

– وهو أرسلك الي ؟

– نعم ، وإذا رضيت أن تتبعيني تصبحين حرة وتفلتين من قبضة الأمير بعد بضع ساعات .

– أنا أصبح حرة ؟

– دون شك وتسيرين في طريق مدينة بناريس حيث ينتظرك خطيبك رمسيس .

فضمت الفتاة يديها وقالت ويلاه : أخشى أن تكون عابثاً بشقائي وأن تكون من جواسيس الأمير تحاول الوقوف على أفكاري .

– قلت لك يا سيدتي أني خادم رمسيس المخلص فثقي بقولي لان الأمير غير محتاج إلى الوقوف على نياتك فهو يعلم أنك تعشقين سواه .

فوثقت دابي كوما بما قاله ، وجعلت تتأهب للفرار وقلبها يكاد يطير سروراً .

وعند انتصاف الليل بينما كان جميع النساء نائمات في السراي دخل كوجلي إلى الفتاة وقال لها هلم بنا فقد آن الأوان .

ثم وضع على وجهها نقاباً كثيفاً كبير غطى كل جسمها .

وذهب بها إلى قاعة كانت تجتمع فيها بالنهار خادمات وجواري الرجاه ، وهي القاعة المعدة لاعداد مواد التزجيج والتخضيب

وهناك وعاء كان قد أعد فيه كوجلي صباغاً أسود ، فأخذ اسفنجة وأزاح النقاب عن وجه دابي كوما ، ثم مسح وجهها ويديها وعنقها وما ظهر من جسمها بهذه المادة السوداء ، فتبدل لونها الأبيض بلون الأبنوس .

وصبر هنيهة حتى جف السائل على وجهها فخرج بها من دار الحريم .

ولما كانت الخوادم كلهن من الجواري السود في ذلك القصر ، حسب رئيس الخصيان أنها واحدة منهن ، فأذن لها ولكوجلي بالخروج وفتح لهما الباب بيده ، فخرج الاثنان إلى الردهة الكائنة أمام الخمارة التي اجتمع فيها الهندي والعبد الذي أغراه .

وكان العبد يسير في تلك الردهة ذهاباً وإياباً وهو ينتظر خروج زوجة الرجاه من حين إلى حين ، فلما رآه كوجلي ناداه وقال له : خذ زوجتك واذهب بها إلى حيث اتفقنا .

فعلم العبد أنها زوجة الرجاه فأخذ بيدها وسار بها .

أما دابي كوما فإنها خافت حين رأت كوجلي عاد إلى القصر فالتفتت اليه وقالت : ألا تأتي معنا أنت !

— كلا ، ولكن لا تخافي فان العبد الذي يصحبك هو أيضاً من خدام رمسيس ، فثقي به كما تثقين بي ولا تخشي شيئاً ، فانك بالغة ما تريدين باذن الله .

فصدقت دابي ووثقت بالعبد فسار بها ، وهو آخذ بيدها حتى وصلا إلى باب السراي الخارجي .

وقد تم الفرار كما توقعه الهندي ، فقد كان الهندي نفسه على ذلك الباب يتولى الخفارة ، وكان رئيس الحراس واقفاً بالقرب منه حين وصلت زوجة الرجاه إلى الباب .

فنظر رئيس الحراس إلى العبد وقال له : من أنت ؟

— من جنود الرجاه .

— وهذه المرأة ؟

— هي إمرأتي ..

فقال الهندي للرئيس : هو ما يقول يا سيدي فاني أعرف الاثنين

فقال الرئيس للعبد : إلى أين أنت ذاهب بامرأتك في مثل هذه الساعة ؟

— إلى حفلة عرس في المدينة دعينا اليها فإن العروسين من اصحابنا

فأشار الضابط عند ذلك إلى الهندي أن يأذن لهما بالخروج ففتح الباب وخرج العبد بالفتاة وقد نجت من أسر الرجاه .

وسار بها العبد بضع خطوات ورأى المركبة المعدة لاختطافها يكتنفها الحراس فركبتها واثقة مطمئنة وهي تحسب ان الذي أرسلها ، ولم يخطر لها في بال أن ذلك من صنع ذلك الوزير الخائن . فما أشرق الصباح حتى بعدت بعداً شاسعاً عن مدينة تارفور المقدسة عاصمة الرجاه ، ولم يعد للرجاه يد تبلغ اليها .



ولم يشعروا في القصر بهذا الفرار إلا في اليوم التالي حين دخلت المواشط إلى غرفة دابي كوماً ولم يجدوها .

واتصل الخبر بسرعة إلى الرجاه فهرول وهو يستشيط غيظاً ويقسم على أن يقتل رئيس الخصيان أفظع قتل روي في تاريخ الهمجية

وفيما هو ينذر ويتوعد وقد أمر باحضار رئيس الخصيان إذ دنا منه كوجلي وقال له : لا تتهم يا سيدي هذا العبد فهو بريء وأنا أخبرك بحقيقة ما جرى .

ولم يكن كوجلي قد دخل في خدمة الوزير ورضي أن يختطف له زوجة الرجاه إلا لرجائه أن يقتله الأمير فيذهب تواً إلى فردوس وشنو .

أما الرجاه فانه ذهل لما سمعه من كوجلي ولما رآه من جرأته فقال له : أية حقيقة تعني وماذا جرى لدابي كوما ؟

فابتسم كوجلي ابتسام المتهكم ونظر اليه نظرة ملؤها الكبرياء ثم قال له : ان هذه الحسناء باتت خـــارج نفوذ سلطانك ، وهي الآن بين ذراعي تريبورينو .

فصاح عثمان صيحة منكرة عندما سمع اسم وزيره وقال له : ويحك اخبرني حقيقة ما جرى بالتفصيل .

فقص عليه كوجلي عند ذلك خيانة تريبورينو بلهجة تشف عن السرور . فنسي عثمان في تلك اللحظة المرأة التي كان يجن بهواها وتجسمت له خيانة وزيره الهائلة ، بعد أن أغدق عليه بنعمه وساواه بنفوذه ، وشاركه بمـاله فكبرت عليه هذه الخيانة الفظيعة وجعل يبكي بكاء الأطفال من غيظه ويهدد السماء بقبضته

وكأنما كوجلي لم يشأ أن يتمتع وحده بفردوس وشنو فذكر اسم شريكيه في اختطاف امرأة عثمان وهما الهندي والعبد .

فأمر عثمان ان يشنق الثلاثة في الحال وقد شنقوا في اليوم نفسه الذي دخل فيه روكامبول وموساني إلى نارفور عاصمة عثمان .

ولكن دابي كوما كانت قد أصبحت في دار الوزير فوجد روكامبول ذلك الأمير المنكود الحظ قد اسودت الدنيا بعينيه فلم يعد يرى غـــير القتل والانتقام .

وهنا نتجاوز عن كثير من الحوادث التي حدثت اثر هذا الاختطاف بمـا لا يفيد القراء ونقتصر على القول بأن الخفاء قد زال بين الأمير ووزيره ولكن بعد فوات الأوان ، أي بعد أن تمكن تريبورينو بدهائه وانخداع الأمير بوفائه من إغواء معظم الجند وضمهم إلى حزبه .

فجعل كل من الفريقين يتـأهب لمحق خصمه ولكن الوزير كان أشد من

عثمان ، فما مضي ستة أشهر على اختطاف الفتاة حتى احتدمت نار القتال في مملكة الرجاه .

وكان تريبورينو قد رفع راية العصيان وجاهر بتسليمه للانكليز ضاماً اليه ثلثي جيش عثمان

فما زال يزحف ظافراً منصوراً من بلد إلى بلد حتى بلغ إلى نارفور عاصمة عثمان فحاصرها .

ولم يبق لهذا الأمير من المخلصين حوله غير روكامبول وستة آلاف جندي كانوا جميعهم محصورين في العاصمة يقاتلون الجيوش المحدقة بها من فوق الأسوار .

ففي صباح يوم من أيام الحصار استعرض عثمان جنوده وخطب فيهم فحثهم على الدفاع وذكر لهم خيانة وزيره بعبارات القت الحماسة في قلوبهم فأقسموا على أن يدافعوا عن عثمان والوطن حتى الموت .

ولما فرغ من الاستعراض نادى روكامبول وسار به إلى مكان معتزل لا يراهما فيه أحد من الناس وقال له : اني في حاجة اليك ايها الصديق فتعال نتحدث .

وجلس واياه فقال له عثمان : انك آخر رجل أعتمدت عليه ووثقت بوفائه وإخلاصه ، لأنك فرنسي ولذلك أحببت أن أأتمنك على سر يتعلق عليه مستقبل اسرتي واسترسل اليك كما استرسل إلى أخ شقيق

فانحنى روكامبول وقال : قل أيها الأمير ما تشاء فانك وضعت ثقتك في موضعها وما أنا من الخائنين .

فقال له ان أول علم كان يتعلمه الأطفال من اسرتي منذ قرن هو النفور من انكلترا ، وعدم الركون اليها ، فكان أعظم غلطة غلطتها في حياتي هي وثوقي بتريبورينو ، ورفعه إلى مقام الوزارة على علمي انه من الانكليز

وكانت الهند منذ مائة عام يحكمها ملوك أشداء وكانت شعوبها حرة سعيدة تعيش بالأمن والرخاء من ضفاف الكنج إلى الفرات .

فأقبل الانكليز اليها وجعلوا يستعينون على قومها تارة بالقوة وتارة بالخداع والدهاء حتى استعبدوا قومها وأنزلوا ملوكها عن عروشهم وأبادوا كل سلطة فيها للعنصر الهندي .

أما انا فاني آخر أولئك الملوك المحافظين على استقلالهم ولكني أعلم مـــا سأصير اليه فاني أرى كما ترى ما يحدق بي من الأخطار .

وقد توقعت هذا الخطر منذ عرفت خيانة تريبورينو الذي أغدقت عليه بانعامي ، وأيقنت ان الأسد البريطاني سينشب بي براثنه ولكن إذا تمكـن الانكليز من إبادتي لا أحب أن تبيد أسرتي بجملتها .

أما أنا فقد يقضى علي اليوم أو غداً فاقتل في ساحة الدفاع عن وطـني وسلاحي بيدي .

فاذا قضيت قضي على آخر بقعة حرة من بقاع الهند ، ولكن يجب أن يعيش بعدي من يرثني من أسرتي . فقد يأتي يوم ينهض فيـه ذلك الوريث فيذكر أباه ويستعين برجال الهند فيطرد من البلاد عدوها ويعيد اليها حريتها السابقة ومجدها القديم ويكون هذا الفضل منسوب لأسرتي .

فقال له روكامبول : العلك تريد ان تعهد الي بولدك ؟

– نعم فاني أحب بعد موتي أن تسير به الى أوربا وان تعلمه أن يكره الانكليز .

فبدت على روكامبول علائم القلق ورأى عثمان تلك العلائم فقال له : لا تخف فقد جمعت لولدي في مدة عشرة أعوام ثروة عظيمة سرية تكفيه لأن يعيش حسب مقامه ومقام أسرته .

فقاطعه روكامبول وقال : ولكن يظهر يا سيدي انك نسيت ما نحن فيه .

– كلا لم أنس شيئاً .

- اننا محصورون وقد بلغ الأعداء أسوار القصر فاحدقوا به كالنطاق .
- اني أرى ما تراه .
- ولا بد لنا من الوقوع في قبضتهم مهما بلغ من دفاعنا .
- اني متوقع هذه الخاتمة ومن أجل ذلك عزمت على تضحية حياتي .
- إذن فإن ابنك يقع مثلنا في قبضة الانكليز .
فلم يجبه الرجاه ..
فقال روكامبول : وكذلك ثروتك فانها تصبح لهم .
فهز عثمان رأسه مبتسماً وقال : إنك منخدع .
- العلك وجدت طريقة لانقاذ ابنك ؟
- نعم ...
- وثروتك ؟
- وثروتي ايضاً فهي مع ولدي في آمان .
فجعل روكامبول ينظر اليه منذهلاً وينتظر ان يكشف له الحجاب عن هذا السر .
فقال له عثمان : إعلم الآن ان هذا الغلام الذي يحييه الشعب تحية الأمراء وتضمه كولي ناتا امرأتي الأولى إلى صدرها ، كما تضم الأم ولدها ، ان هذا الأمير الصغير الذي يعتقد جميع من يحيط بي انه ولي عهدي وأميرهم بعدي ليس بولدي .
فزاد انذهال روكامبول ولم يقاطعه استيفاء للحديث .
فتابع عثمان : اني كنت دائماً أتوقع أن يصيبني من الانكليز ما أصابني اليوم فاحتطت لنفسي من كيدهم وجعلت ولدي في مأمن منهم ، وذلك أنه بعد أن ولدت كولي ناتا بشهرين أخذت الغلام من مهده ووضعت مكانه غلاماً من عمره ، فكبر الغلام حتى بلغ الآن عشرة أعوام وأمه تحسبه ولدها والناس يحسبونه ولدي .

فصاح روكامبول صيحة دهش وقال : إذاً البرنس علي ليس ولدك ؟
– كلا بل هو ابن أحد اتباعي أخذته يتيماً من أبيه وقد ماتت أمه ايضاً.
– ولكن أين هو ولدك ولي عهدك ؟
– انه بعيد جداً عن هذه العاصمة وهو يجهل اني أبوه ولكنك ستخبره بكل شيء بعد موتي متى اجتمعت به في كلكوتا .
– أهو في كلكوتا ؟
– نعم في المدينة السوداء أي مدينة الهنود وهو عند رجل فقير خياط .
وهذا الرجل فقير في الظاهر ، يبدو للناس منه أنه يعيش من صناعته مع غلام له يبلغ العاشرة من العمر ، والحقيقة أنه يعيش مع ولدي عيشة سعة ورخاء .

أما هذا الرجل فهو مسلم عثماني يدعى حسناً ، كان من خدام بيتنا فائتمنته على ولدي وثروتي وما زالت ثقتي وطيدة بالمسلمين .

وقد أقام ولدي عنده منذ الطفولية فهو يحسب أنه والده ويناديه «أبي ».
والآن فاسمع ما أريده منك ، اني حين افقد كل رجاء ، وحين أنشب المعركة الأخيرة ، وأضرب آخر ضربة بحسامي ، بل حين يخرج من صدري النفس الأخير تبرح أنت العاصمة وتسير إلى كلكوتا فتذهب إلى حسن الخياط وتظهر له هذا الخاتم .

ثم أخرج من اصبعه خاتماً ، نقش على فصه كتابة هندية معناها « تذكر » .

فوضعه في اصبعه وقال : إنك حين تظهر هذا الخاتم للخياط يأتيك بالغلام ، ثم يذهب بك إلى قبو في منزله الحقير ، فترى فيه من أكداس الذهب والحجارة الكريمة ما لا يوجد مثله بين كنوز ملك لاهور ، وهذا الكنز هو ارث ولدي .

ثم عطف فقال : إنك شديد الاخلاص ذكي الفؤاد فلا تعدم وسيلة تنقل هذا المال بها إلى اوربا دون ان يعلم الانكليز .

ثم تذهب بولدي إلى تلك البلاد الآمنة فتعلمه ان أباه قد مات في سبيل استقلال الهند ، واني لم أورثه هذا المال ، بل أورثته الحقد على انكلترا فلينفق المال في سبيل وطنه .

فقال روكامبول : اني سأفعل كل ما امرتني به .

ـ وأنا واثق كل الثقة .

ثم مد له يده فقبلها وقام الاثنان إلى موضع الحصار .

وكان الانكليز يحاصرون المدينة بعنف شديد ..

والحامية تدافع بثبات أشد .

غير ان كثرة عدد الأعداء تغلبت على بسالة الأمير وجنوده ، فكانت جنود الوزير محدقة بالمدينة من كل جانب ، وقد ضيقت نطاق الحصار وجعلت الأسوار تتهدم واحداً تلو الآخر ، ومدافع الوزير تدوي دوي الرعود القاصفة فتدك المعاقل والحصون .

وكان المحصورين يزيد عوزهم إلى القوت والذخيرة في كل يوم ، حتى اضطر عثمان أن يقصي عن المدينة كل من لا يفيد في الدفاع اقتصاداً في قوت الحامية .

إلى أن اشتدت الأزمة على المحصورين ولم يبق لهم شيء من الزاد فدعا عثمان روكامبول وقال له : أرى ان الدفاع عن نارفور بات ضرباً من المحال وخير لنا أن نخترقها صفوف الانكليز ونعتصم بالجبال ، فإذا تمكنا من البلوغ اليها تيسر لنا أن ندافع دفاعاً مقروناً بالفوز .

وكانت الخطة خطة جرأة نادرة على انها كانت ممكنة إذا استعين عليها بالخداع والحيلة .

وكان ذلك العهد عهد الأمطار فكانت أبواب السماء مفتوحة والمطر ينهمر

كأفواه القرب .

فعقد عثمان مجلساً عسكرياً وشاور أعضاءه في الأمر فقرروا أن يترقبوا ليلة حالكة الظلام كثيرة الأمطار ، فيخرجون تحت جنح الليل إلى الجبال فلا يشعر بهم الأعداء .

وقد اتفق لهم ذلك في الليلة التي تلت عقد المجلس فقد اشتد فيها الحلك ، وبلغ سيلها إلى الركب والتجأ الانكليز المحاصرون إلى الخيام .

فتأهب عثمان للخروج وأمر فوضعوا النساء والأطفال على ظهور الفيلة في وسط المعسكر وقاية لهم من الأخطار .

ثم أمر بفتح الأبواب فخرج الجيش بجملته وفي مقدمتهم عثمان وروكامبول وساروا قرب جيش العدو صامتين يحاولون إخفاء حركاتهم .

ولكن حراس جيش الوزير تنبهوا لهم فنفخوا في أبواقهم وهب جيش الوزير مذعراً فلم يكن غير هنيهة حتى التحم الجيشان فخرجت السيوف من أغمادها وأبرقت الخناجر والحراب ، وأرعدت البنادق والمسدسات ، فكان قتالاً شديداً هائلاً خضب الأرض بالدماء ، ولم يتعارف فيه الخصمان إلا بتألق البروق .

وتمكن جيش عثمان بعد الصبر والاستبسال من الانسحاب إلى واد عميق في شمال المدينة ، ولكنهم وجدوا هناك جيش آخر فلقوا معه من العذاب أشد ما لقوه من الجيش الأول .

ودامت المعركة الهائلة ناشبة بين الفريقين حتى أشرق الصباح ورأى جيش عثمان قمم الجبال المجاورة ، ولكنهم رأوا آلافاً من الجنود قد هرولوا من تلك الجبال وطوقوا جيش الأمير

ولم يكن هؤلاء الجنود من الانكليز ، بل كانوا من جنود تريبورينو أقامهم في الجبال كي يمنعوا الأمير من الالتجاء اليها .

وهنا عاد القتال إلى أشد مما كان عليه فاستمر إلى المساء

وكان أعوان الأمير يسقطون أمامهم الواحد تلو الآخر ، وهو يقاتل في مقدمتهم قتال الأبطال وعن يساره روكامبول وقد أبلى في تلك الحرب خير بلاء ودفع الموت عن الأمير عدة مرات .

وظل هذا دأبهم حتى لم يبق لدى الأمير غير شرذمة من الرجال فأصابته رصاصة وقعت بين أحشائه فخر عن جواده صريعاً وسقط بين يدي روكامبول مخضباً بدمائه .

وقد أيقن عند ذلك بالموت فنظر إلى روكامبول بعين المحتضر وقال له « تذكر » .

ثم تنهد تنهداً طويلاً وهو يقول : « انتقم لي » .

فكانت آخر كلمة قالها واسلم الروح ، فعادت إلى مبدأها وهي تحمل وعد روكامبول بمطاردة ذلك الوزير الخائن والانتقام منه .

- ١٣ -

كان تريبورينو قد علم بأن روكامبول قتل الفيل الجلاد وسلم من الموت وعاد الى الأمير عثمان .

وكان يعلم انه كان يقاتل مع الأمير جنباً لجنب

فلما تم انتصاره على جنود عثمان وتمزق ذلك الجيش شر ممزق امر فرقة من الجند كي تبحث عن روكامبول فتوزعت في أنحاء مختلفة وسارت في جميع الطرق تبحث عنه .

غير ان روكامبول قد تمكن بدهائه من الافلات والنجاة ، فتنكر بزي لا يعرف به

وهام في الجبال طريداً شريداً عدة أسابيع

وكان يجتنب في سيره المدن حتى القرى ولا يسير إلا في الجبال والسهول ، لأن جميع المدن والقرى قد سقطت في قبضة تريبورينو ، فلو مر بها لما أمن القبض عليه .

ولبث هائماً يسير من جبل إلى سهل ومن سهل إلى جبل نحو شهرين حتى انتهى الى سهول هندستان ، حيث لا سلطان فيها لتريبورينو فأقام هناك بضعة أيام عند أحد الهنود ثم استأنف السير فوصل بعد شهر إلى كلكوتا فأمن كيد الوزير ومطاردة جنده .

وعند ذلك ذكر ما وعد به الرجاه وجعل يهتم بالبحث عن حسن الخياط الذي أودع عنده ابن الرجاه .

وكان جميع الذين يقيمون في المدينة السوداء من كلكوتا ، يعرفون هذا الخياط .

فسأل روكامبول عنه أحد غلمان الفندق الذي نزل فيه ، فأرشده إلى منزله .

وكان بيت حسن صغيراً لا يدل شيء من ظواهره على العظمة ولا يخطر في بال أحد ان ملايين الرجاه قد أودعت فيه .

فلما وصل روكامبول إلى هذا المنزل ، لقي حسن جالساً على عتبة بابه وهو شيخ جليل ، تدل معارف وجهه وسكينته ، على ما فرط عليه من السلامة والوفاء

فدنا روكامبول منه وقال له : العلك أنت الذي يدعونه حسن الخياط ؟

— نعم أنا هو فماذا تريد مني ؟

فأراه روكامبول خاتم الرجاه عثمان بإصبعه ، وقال له : أتعرف هذا الخاتم .

فارتعش حسن حين رأى الخاتم وأسرع فأدخل روكامبول الى المنزل وأقفل

الباب بسرعة كأنه يخشى أن يباغته أحد

فلما خلا به قال له : يظهر انك قادم من قبل عثمان .

— نعم .

— كيف حاله ؟

فسقطت دمعة من عين روكامبول ، عند هذا السؤال وقال له : لقد توفي الأمير .

ثم قص عليه خيانة تريبوريتو بالتفصيل ، وذكر له استبسال عثمان بالدفاع وانه توفي كالأبطال .

وكان حسن يصغي اليه وهو أصفر الوجه ، منقبض الصدر ، حتى إذا فرغ روكامبول من حديثه ، رفع يده الى السماء وقال : هي إرادة الله ولا رد لقضائه

وبعد سكوت قصير قال روكامبول · أين هو الغلام ؟

— إنه يغتسل يا سيدي وسيعود بعد ساعة .

— والكنز ؟

— سأريك إياه ، هلم معي .

ثم قام فأخذ مصباحاً وسار به الى الجدار ، فكشف عنه ستاراً فظهر سلم طويل يؤدي إلى قبو المنزل فنزل درجاته وروكامبول يتبعه حتى انتهيا إلى القبو وكان فارغاً لا شيء فيه .

وقد علم روكامبول أنه لا بد أن يكون لهذا القبو باب سري يدخل منه الى حيث خبأ الكنز . غير انه تعجب حين لم يجد أثراً لباب أو منفذ في حيطان القبو .

أما حسن فانه ابتسم وقال له : سوف ترى .

ثم دنا من أحد الجدران وبدأ ينقر عليه بيده في مواضع مختلفة ، وهو يصغي إلى صوت نقراته ، حتى سمع صوتاً رناناً يشبه صوت النقر على دف ،

فأخذ خنجره من منطقته وأدخل شفرته الدقيقة بين حجرين فانزاح أحدهما للحال وظهر في الجدار قفل فولاذي .

وعند ذلك أخذ حسن مفتاحاً كان يعلقه في عنقه وقال لروكامبول : إن هذا القفل من صنعي وقد وضعت لفتحه طريقة كثيرة الاشكال بحيث يقتضي عدة أيام كي أعلمك إياها .

ثم أدخل المفتاح في القفل وأخذ يديره يمنة ويسرة وهو يلفظ الفاظاً لم يفهمها روكامبول ويعد على أصابع يده اليسرى .

وما زال هذا دأبه عدة دقائق حتى فتح الباب . وهو باب متين من الحديد ، يتألف منه نصف الجدار ، وقد صبغ بلونه . فظهر لروكامبول قبو آخر .

ودخل الاثنان فوضع حسن مصباحه فوق سبيكة ذهبية وقال لروكامبول: أنظر الآن هذا هو كنز عثمان أمامك .

فأخذ روكامبول المصباح بيده وجعل يطوف في هذا القبو العجيب فلا تقع عينه إلا على سبائك الذهب وأكداس اللآلىء واليواقيت وغيرهما من أنواع الحجارة الكريمة .

فدهش روكامبول وابتسم ، كأنه ذكر عهد حياته السابق حين كان تلميذاً لأندريا فلو ظفر بمثل هذا الكنز في ذلك العهد لكان ظهر بريق خنجره في صدر حسن قبل ان يظهر لعينه بريق تلك اللآلىء .

وبعد أن تفقد ذلك الكنز وعرف مقدار تلك الثروة الهائلة قال لحسن : إن عثمان أمرني أن آخذ منك جميع الأموال وان أذهب بها وبولده الى أوروبا فأدربه على بغض الانكليز .

– إن خاتم مولاي عثمان باصبعك فلا يسعني إلا الخضوع لك .

ثم خرج الاثنان من القبو الداخلي فأقفل حسن باب الكنز وأعاد الحجر الى موضعه وصعد الاثنان إلى البيت .

وكان الغلام قد عاد من الحمام ، فلم يكد يراه روكامبول حتى أيقن أنه ابن الرجاه عثمان ، لفرط مـا وجد بينهما من الشبه وقال : هذا هو ابن كولي نانا الحقيقي دون شك ، وليس ذلك الغلام الذي كنا نراه في بلاط عثمان .

وكان الغلام ينظر إلى روكامبول باندهاش فقال له حسن هوذا مولاك يا بني منذ الآن فاتبعه إلى حيث يأمرك .

فقال له روكامبول : كلا لم يحن الوقت بعد فليبق الغلام عندك إلى أن أتم المعدات اللازمة لرحيلنا

فأطرق حسن برأسه وقال : ليكن ما تريد .

أما الغلام فـإنه لم يفهم من كل ذلك غـير معنى الافتراق ، فجعـل يبكي .

ثم نهض روكامبول يحاول الانصراف فقال لحسن إنك لا تراني بعد الآن إلا في اليوم الذي أكون قد تأهبت فيـه للسفر وأنا ذاهب الآن لأهتم بايجاد جماعة من أهـل الوفاء والاخلاص ، أستعين بهم على نقل الأمـوال الى سفينة بطريقة أمينة .

ثم ودعـه وانصرف ، فأقام عدة أيام في كلكوتا يبحث عن طريقـة تعينه على نقـل كنز عثمان الى أوروبا ، دون أن تشعر به الحكومة الانكليزية .

ولم يكن روكامبول قد صحب من خدامه الأوفياء الذين كانوا له في بلاط عثمان غير خادمه الوفي موساني .

وكان يقيم معه في أحد فنادق المدينة السوداء ، وقد رضي أن يغادر بلاده من أجله ويسافر معه الى أوروبا .

ففي ذات ليلة ، قال له موسـاني وعليه علائم الرعب : أرى ، يا سيدي ، أنهم قد عرفوا من نحن ، لأني أراهم يقتفون أثرنا حين خروجنا

كل يوم .

– من الذي يتبعنا ؟

رجل أسود أراه من أتباع تريبورينو .

فخطر لروكامبول ان يغير موضع سكنه فانتقل وخادمه من المدينة السوداء الى المدينة البيضاء حيث كان يقيم الانكليز .

وأقام هناك في فندق شهير فخلع عنه ثياب الهنود وارتدى الثياب الأوروبية فكان يظهر للناس انه سائح .

فبعد أن أقام في ذلك الفندق الجديد يومين شعر في الليلة الثالثة وهو يشرب الشاي أن الشاي لزج ، فلم يكترث لذلك لا سيما وانه كان قد شرب كل ما في الكأس .

غير أنه لم يمض عليه ساعة حتى تثاقلت أجفانه ، وشعر برغبة شديدة إلى النوم فأطبقت عيناه بالرغم عنه ونام نوماً عميقاً .

فلما استيقظ رأى ان أشعة الشمس قد ملأت غرفته . فنادى موساني الذي كان ينام في غرفة مجاورة لغرفته ، فلم يجبه ولكنه سمع أنيناً مزعجاً .

وكرر النداء فتوالى الأنين ، فوثب عند ذلك من فراشه وأسرع إلى غرفة موساني . فوجد منظراً تقشعر له الأبدان ، وترتعد منه الفرائص .

ذلك أنه وجد الخادم الوفي مكبل اليدين والرجلين ، ملقياً على ظهره والدم يسيل من فمه ، وقد فتح موساني فمه حين رأى روكامبول فوجد انه مقصوص اللسان .

وقد علم روكامبول أنهم قطعوا لسان خادمه ، وهو نائم في غرفته نوم تخدير

فأسرع إلى حل وثاقه ، وبينما هو يحل قيد ذلك المسكين صاح صيحة

منكره ، وتراجع منذعراً قانطاً ، لأن عينه وقعت على إصبعه فلم يجد فيه خاتم عثمان .

- ١٤ -

وكان موساني مقصوص اللسان فلقي روكامبول عناء شديداً بفهم حقيقة الذي حدث له إذ كان يكلمه بالاشارة .

أما الذي علمه منه فهو انه عند نصف الليل سمع ضجيجاً رابه ، فجاء إلى غرفة روكامبول يبغي إيقاظه ، ولكنه كان نائماً نوم تخدير فذهب كل جهد في إيقاظه عبثاً .

ولما يئس من إيقاظه ذهب إلى الباب كي ينادي خدم الفندق .

ولكنه لم يكد يخرج من غرفة روكامبول ويصل إلى باب غرفته حتى شعر بأن غطاء كثيفاً قد القي على وجهه ثم أحس برجلين قد حملاه وأوصلاه إلى غرفته وأقفلا بابها .

فدافع موساني دفاعاً شديداً ولكن الرجلين كانا أشد منه فألقياه الى الأرض ووضعا كامة في فمه كي لا يستغيث .

ولما صرعاه قيدا يديه ورجليه بحبل رفيع من الحرير ثم أزاحا الغطاء عن وجهه بحيث بات يسمع ويرى

فرأى موساني ان هذين الشخصين كانا من الهنود وعرف من ثيابهما أنهما من عباد الآلهة كالي ، أي من طائفة الخنـــاقين التي عرف القراء فظائعها في الأجزاء السابقة

وكان أحدهما لا يزال في عنفوان الشباب والآخر كهلاً ، فكان الكهل يأمر والفتى ينفذ تلك الأوامر .

فقال له الكهل دعه الآن في مكانه وهلم بنا إلى غرفة رفيقه فإن المخدر لا بد أن يكون قد فعل فعله فيه .

ثم تركا موساني وذهبا إلى روكامبـول ، فهزاه في سريره هزاً عنيفاً ، فلم يستفق

وعند ذلك إبتسم الفتى ابتساماً يشف عما داخل فؤاده من الحقد ، وقال للكهل : أهذا هو الذي غلب على رجاه ؟

— هو بعينه .

— ولماذا لا نخنقه فهي أفضل فرصة للانتقام ؟

— ذلك لأن الذين أرسلونا منعونا عن قتله ، لأن لهم في حياته مآرباً ، كما يظهر .

فهز الفتى رأسه إشارة إلى الأسف . أما الكهل فإنه أخذ يد روكامبول ونزع من خنصره خاتم عثمان .

وبعد أن دقق النظر في فحصه قال : هو بعينه فلندع الآن هذا الرجل نائماً ولنعد إلى رفيقه .

ثم وضع الخاتم في جيبه ، وخرج الاثنـــان من غرفة روكامبول إلى غرفة موساني .

وكان موساني قد تمالك رشده فجعل يفحص الشخصين بامعان كي لا يغيب رسمهما عن ذهنه متى أطلق سراحه

فدنا أحدهما منه وأشهر خنجره ، فوضعه على عنقه وقال له باللغة الهندية : إننا سننزع الكمامة عن فمك كي تستطيع الاجابة عما نســألك عنه ، فتأهب للجواب . واعـــلم أنه لا فائدة من صراخك ، لأن جميع خدام هـــذا الفندق أعوان للذي أرسلنا ، فلا تطمع أن يغيثك منهم أحد . وفوق ذلك فإن مولاك قد أسقي مخدراً ، فلو دوت المدافع قرب أذنه لا يستفيق

وإن من طبع الهندي الحكمة والسكينة والصبر فلما أيقن موساني أنه لا فائدة له في المقاومة تظاهر بالاستسلام للقدر ، وأشار بعينه إشارة تدل على تأهبه للجواب .

فنزع الكهل الكمامة عن فمه وبدأ بسؤاله فقال : إنك خادم هذا الرجل الأبيض اليس كذلك ؟

– نعم .

– ماذا يدعى ؟

– أفاتار

– أتعلم من أين أتى ؟

– كلا .

– متى دخلت في خدمته ؟

– من ثمانية أيام .

– إنك كاذب .

– بل أؤكد لكما اني لم أحضر الى كلكوتا قبل ثمانية أيام

– ربما كنت صادقاً فيما تقول ، ولكنك تعرف ذاك الرجل قبل هذه المدة .

– كلا

– إنك منافق كذاب .

فقال له موساني ببرود : لا حيلة لي في قول الحق ، لمن لا يريد أن يسمعه .

– بل أنت كاذب لا تقول الحق ، ألم يكن مولاك هذا الأبيض صديقاً حميماً للرجاه عثمان ؟

– لا أعلم .

– ألم يعطه عثمان خاتماً قبل قتله ؟

ـ لا أعلم .

-- بل تعلم وهذا هو الخاتم .

فتكلف موساني الانذهال وعاد الشيخ الى سؤاله فقال له . كن صادقاً في قولك اذا كنت تؤثر الحياة .

ـ لا أعلم إذا كان سيدي قد أخذ الخاتم من عثمان لأنه لم يقـل لي شيئاً ، لكنك أنت الذي قلت لي فصدقتك .

ـ إن هذا الخاتم أعطاه عثمان لمولاك كي يريه لشخص في كلكوتا .

فتكلف موساني هيئة البلاهة وقال من هو هذا الشخص ؟

ـ هذا الذي نبحث عنه لأننا لا نعرفه ولا بد من الاهتداء اليه .

-- يسوءني أني لا أعرفه أيضاً فلا أستطيع ان أدلكم عليه .

فاتقدت عينا الشيخ ببارق من الغضب وقـال له : إنك لو كنت تعلم العقاب الذي أعـددته لك لما تأخرت لحظـة عن الاقرار ، ولما أصررت على الكتمان .

ـ عاقبني بما تشاء فإني لا أعلم شيئاً .

فظهرت على وجه الشيخ علائم نفاد الصبر والتفت الى رفيقه الفتى وقال له: لم يبق لنا فائدة بلسان هذا الخادم فاقطعه .

فلم تظهر أمارات الخوف على موساني وأخذ الفتى خنجره فقال· إني متأهب لقطع لسانه .

- إفعل لأنه لا يزال مصراً على الكتمان .

وعند ذلك حاول موساني أن يقطع قيـوده ، فهب بقوة عظيمة فوقف على قدميه .

ولكن الهنديين انقضا عليه والقيـاه على الأرض ، فركع أحدهما فوق صدره وقال له : تكلم .

- إني لا أعلم شيئاً .
- قل لنا أين يقيم هذا الشخص ، الذي يريد مولاك أن يريه خاتم الرجاه عثمان .
- لا أعلم ! لكني لو كنت عالماً به لما أخبرت عنه .
- إذن قد جنيت على نفسك فلتعاقب بما تستحقه .

ثم ضغط بيديه ضغطاً شديداً على عنقه حتى اندلع لسانه فأسرع الفتى إلى اللسان فجذبه وقطعه بالخنجر .

* * *

وبعد ذلك لم يعد موساني يذكر شيئاً ، إذ قد أغمي عليه لفرط ما نزف من دمائه ، وأشغله الألم عن كل شيء سواه . فلما استفاق من إغمائه جعل يئن أنيناً مزعجاً ، إلى ان استفاق روكامبول من نومه وسمع أنينه ورآه على ما وصف .

وكان أول ما اهتم له روكامبول إغاثة هذا المسكين ، فضمد جراحه بقدر ما تيسر له .

ثم ذكر غلام عثمان وثروته وسرقة الخاتم من إصبعه ، فترك موساني في مكانه وخرج من غرفته بغية الذهاب الى الشيخ حسن وإخباره بسرقة الخاتم كي لا يخدعه السارق .

فلبس ثيابه وهم بالخروج، لكنه لم يبلغ باب الفندق الخارجي حتى فوجيء باثنين من البوليس الانكليزي وقبضا عليه .

وقد سأل أحد هذين البوليسين روكامبول قائلاً : أأنت الذي يدعونه الماجور أفاتار ؟

— نعم .

فقبض على أعلا ثوبه وقال له : إذن هلم معنا .

وكان روكامبول قد تعلم أيام جهله أن مقاومة البوليس ، في كل بلاد ، لا فائدة فيها .

وذلك لأن المجرم إذا حاول الفرار او الدفاع تزيد جريمته ثبوتاً في أعين القضاة . وأما إذا سار مع الذين يقبضون عليه ساكتاً هادئاً متكلفاً عدم الاكتراث فان ذلك قد يكون من أوفر الأدلة على براءته .

فلما رأى روكامبول ان البوليس قبض عليه وأيقن ان الجدال معه محال قال له . إني سائر معك الى حيث تشاء لكني لست من رعاع المجرمين فأرجوك ان ترفع يدك عني فأكون طوعاً لك .

فأجاب البوليس طلبه وسار البوليسان وروكامبول بينهما .

وبعد ان ساروا هنيهة قال لهما روكامبول: ألا تريدان إخباري إلى أين أنتما ذاهبان بي ؟

فقال له أحدهما . إلى قسم بوليس الناحية .

— العلك تعلم بماذا أنا متهم ؟

— كلا ، وكل ما نعلمه أنه صدر الينا الأمر بالقبض عليك ، وهذه صورة الأمر .

ثم أطلعه على صورة الأمر .

وكانت كلكوتا مقسمة الى عدة أقسام ، وفي كل قسم مركز للبوليس ينظر في أمور ذلك القسم

فحسب روكامبول ، في البدء ، أنهما ذاهبان به إلى أقرب مركز من الفندق .

غير ان ظنه أخطأ فإنهما مرا به بذلك المركز دون ان يدخلا به اليه ، ثم واصلوا السير فاجتازوا المدينة البيضاء الى المدينة السوداء

وكانوا يسيرون في الشارع الذي يقيم فيه الشيخ حسن ، فسر روكامبول حين عرف ذلك الشارع ، وقال في نفسه : إن السعد يخدمني دون شك ، إذ لا بد لنا من المرور بدكان الشيخ حسن فأراه ولا أعدم وسيلة من الاشارة اليه على فقد خاتم عثمان مني .

وكان أمله يزيد كلما تقدم في ذلك الشارع من دكان الشيخ

ولما كانوا في الطريق قال له أحد البوليسين : إنك قد تعجب لأننا لم نسر بك الى مركز البوليس التابع للجهة التي قبضنا عليك فيها .

– نعم ولا أعلم كيف غيرتم معي ذلك الاصطلاح .

– إني مخبرك بالسبب . ألم تكن مقيماً في المدينة السوداء منذ بضعة أيام ؟

– نعم .

– ألم تكن إقامتك في فندق الحية الزرقاء ؟

– نعم .

– إذاً ، إعلم أنه لا بد أن تكون الشكوى صادرة عليك من ناحية ذلك الفندق ، فان رئيس البوليس في ذلك المركز أمرنا بالقبض عليك .

فلم يجب روكامبول بشيء .

وقال البوليس الثاني : أظن أن للقبض عليك علاقة بقتل ملاعب الأفاعي .

– ما هي تلك الحادثة ؟

– إنه كان يقيم في فندق الحية الزرقاء رجل صناعته ملاعبة الأفاعي وقد

وجد قتيلاً في الليلة الماضية وربما كانوا يتهمونك بقتله .

فابتسم روكامبول وكان الى ذلك العهد موقناً ان لتريبورينو يداً في القبض عليه ، كما أنه كان واثقاً أن سرقة الخاتم وقطع لسان خادمه ، من صنع ذلك الوزير الخائن .

غير أنه رأى ان البوليس يذكر له تلك التهمة بملء البساطة ، فتزعزع ريبه ، وقال في نفسه : قد يكون القبض علي لهذه التهمة ، ولا يكون للوزير شأن فيها .

فاذا كان ذلك فقد يطلقون سراحي بعد استنطاق قصير المدى فأعود الى الشيخ حسن واخبره بحقيقة ما جرى .

لكنه كان يعلم بطء القضاء الانكليزي في الأحكام ، فخشي ان تطول مدة إيقافه والتحقيق في أمره فرأى ان الأولى الاسراع باخبار الشيخ حسن حذراً من ان يخدعه الوزير وهو في السجن .

وعند ذلك عزم على إدراك مآربه بالحيلة . ففيما هم سائرين مروا بخمارة فقال لهما روكامبول : إنني شديد الظمأ ، فهـــل تأذنان لي بشرب شيء من المبردات ؟

قالا : بل نشرب معك ايضاً فان الحر يكاد يقتلنا .

ودخلا معه وكانا يحدثانه بملء البساطة واللطف فزادت ثقته بهما وأيقن انهما ليسا من اتباع الوزير .

وكان مما قاله لهما في خلال الحديث : ان هذه التهمة جائرة فلست من القتلة المجرمين وفوق ذلك فقد تركت فندق الحية الزرقاء منذ أسبوع والقتل حدث فيه امس كما تقولان .

فقال له أحدهما : لا شك عندنا ببراءتك فان مخائلك تدل على الشهامة والنبل والترفع عن مثل هذه الموبقات غير انه صدر الينا الأمر بالقبض عليك ولا بد من تنفيذ اوامر الرؤساء كما تعلم .

وقال الآخر : اننا نسوقك مكرهين الى موقف القضاء لثقتنا ببراءتك ، وعندي ان رئيس البوليس لا يباحثك هنيهة حتى يثق من براءتك فيطلق سراحك بعد ان يعتذر اليك .

- وانا واثق مثلكما تلك الثقة .

وبعد حين مد يـــده الى جيبه ، ثم ضرب جبينه بيديه ، وتكلف الأسف العظيم .

فقال له احدهم : ماذا أصابك ؟

- لقد فقدت محفظة اوراقي وفيها جميع الأوراق التي تثبت جنسيتي ولا اعلم كيف أثبتها لدى رئيس البوليس .

ثم قال بملء اليأس : إن فيها ايضاً اوراقاً مالية قيمتها ۲۰۰ جنيه أهبها لمن يرد إلي المحفظة .

فنظر البوليسين كل الى الآخر نظرة سريعة وقال له أحدهما : أتظن انك فقدتها على الطريق ؟

وقال الآخر : الا يمكن ان تكون نسيتها في الفندق ؟

- كلا ، لقد ذكرت الآن اين فقـــدتها . إني كنت ليلة امس اتنزه في هذا الشارع فلقيت فتاة جميلة ارلندية من فتيات الهوى ، فذهبت وإياها إلى منزلها .

- العلها سرقت المحفظة ؟

- كلا انها ذهبت بي الى بيتها ، وانا واثـق ان المحفظة قد سقطت في ذلك المنزل .

- ذلك ممكن .

- وقد يتفق ان الفتاة لم تر المحفظة .

- واين بيت الارلندية ؟

- لا أعلم نمرته ولا اسم الشارع ، ولكني واثق انه في هذا الشارع الذي

نحن فيه .

– اتعرف الطريق اليه ؟

– دون شك فهل تأذنا بالذهاب اليه ؟

فتشاور الاثنان بالنظر ، ثم قال احدهما : لا اجد بأساً من ان ينتظر رئيس البوليس ، ربع ساعة ايضاً . وفوق ذلك ، فان البحث عن السرقات من واجباتنا . فهلم بنا الى بيت الارلندية للبحث عن محفظتك

فدفع روكامبول ثمن الشراب ، وخرج مع البوليسين . فتظاهر في البدء انه عرف الطريق ، ثم اوهمها انه ضل عنها . فكان يندفع بهما الى الأمام ثم يعود الى الوراء ، وهما يتبعانه بصبر عجيب دون ان يظهرا شيء من الملل .

الى ان اظهر علائم السرور وقال لهما : لقد اهتديت الآن فهذا هو المنزل الظاهر امامنا .

– إذاً لنذهب اليه .

وكان روكامبول رأى الشيخ حسن عن بعد جالساً على باب منزله فمثل الدور خير تمثيل ، حتى بات معتقداً انه اضل البوليسين عن قصده .

ولما وصل الى بيت الشيخ حسن وقف ، فقال له البوليس : اين هو المنزل ؟

فدلهما على بيت مجاور لدكان الشيخ حسن .

فقالا : هلم بنا اليه .

وكان الشيخ حسن جالساً عند بابه كما قدمنا ، فلما رأى روكامبول آتياً مع البوليسين نظر اليه نظرة انذهال لم تخف على الشرطيين، ووضع روكامبول سبابته على فمه يشير عليه بالاحتراس . فتظاهر البوليسان ايضاً انهما لم يريا تلك الاشارة .

وسار الثلاثة فلما مروا بالشيخ حسن رفع روكامبول يديه ، وظهرت على وجهه علائم الحزن الشديد .

فنظر حسن الى يديه فرأى ان خاتم عثمان مفقود وايقن انه سرق من روكامبول او انه اخذ منه بالعنف ، فغمز بعينه إشارة الى انه ادرك القصد والى انه لا يمتثل لسواه ولو اتى بالخاتم المفقود .

ولما وصلوا الى المنزل الذي عينه روكامبول قال له البوليس : اهذا هو بيت الارلندية ؟

قال : واأسفاه ، إني اخطأت ايضاً ، فليس هو المنزل الذي دخلت اليه امس

وعند ذلك اخذ الرجلان يضحكان وقال له احدهما : اني ناصح لك ان تقتصر اليوم على ما اجريته من الأبحاث فقد فعلت الذي تريد ان تفعله وعرفنا ما نريد ان نعرفه .

فاضطرب روكامبول وادرك بلحظة ان هذين الرجلين قد وقفا على سره وانهما ليسا على ما كان يعتقد فيهما من السذاجة .

وفيما هو ينظر اليهما نظرات الانذهال التفت أحد البوليسين إلى ورائه وأشار إشارة إلى مركبة فيها عبدان كانا يسيران بها في أثر البوليس دون أن يلتفت روكامبول اليها .

أسرع العبدان بالقدوم وقال البوليس لروكامبول بلهجة المتهكم : انك تعبت

دون شك من السير فاصعد الان إلى المركبة علك تستريح .

ثم فتح المركبة ولم يكن فيها أحد فصعد روكامبول وصعد بعده البوليسان.
وكان قد ذهل ذهولاً شديداً حين سمع البوليس يقول « قد فعلت ما تريد ان تفعله وعرفنا ما نريد ان نعرفه » فبات يطيعهما فيما يريدان دون روية .

وسارت بهم المركبة فقال لهما : إلى أين تسيران بي ؟

قال له أحدهما . إلى محل بعيـد ، ثم أخرج مسدسه فوضعه فوق صدر روكامبول وقال له : اننا نعرفك من أهل الدهاء والنشاط ، فلا بد لنـا من أن نتوقـاك ولذلك اشهرت عليك هذا المسدس فاذا حاولت الدفاع فأنت من الهالكين .

أما البوليس الآخر فانه أقفل باب المركبة بسكينـة وأنزل ستائرها ، ثم أخرج باشارة من رفيقه حبلاً من الحرير المتين وأوثق به يـدي روكامبول وثاقاً شديداً .

وبعد أن فرغ من تقييده أمره أن يخرج من المركبة فخرج وبقي فيهمـا روكامبول وبوليس واحد فقال له البوليس أما وقيدناك الآن فلم يبق خوف علي من البقاء معك وحدي

وسارت المركبة بهما فاجتازت المدينـة السوداء حتى وصلت إلى ابواب كلكوتا فوقفت وحسب روكامبول أن السير قد انتهى ، ولكنه أخطأ في حسابه فانه حين وقفت المركبـة أزاح البوليس ستارها وأسر إلى العبدين اللذين كانا يسوقانها كلمات لم يسمعها روكامبول ، فاستأنفت المركبة المسير وخرجت من المدينة .

وعند ذلك التفت البوليس إلى روكامبول وقال له وهو يبتسم . أنقذتك الآن من موقف حرج .

- كيف ذلك ؟

فضحك البوليس ضحك المتهكم وقال : ان البوليس لم يخطر له في بال أن

يتهمك بقتل ملاعب الافاعي .

– إذن بماذا يتهمونني ؟

– انهم لا يتهمونك لكن يريدون القبض عليك للاستيثاق منك ليس إلا . .

– ولماذا ؟

– لأنهم لا يريدون أن تقضي تلك المهمة الخطيرة التي عهد اليك بقضائها الرجاه عثمان .

فصاح روكامبول صيحة دهش دون أن يجيب .

فقال له البوليس : أرأيت كيف أن تريبورينو لا تخفاه خافية وان ولاءه خير من عدائه .

– ان الوزير رجل خائن .

– لا أنكر ما تقول .

– إذن أنت تعرف انه من الخائنين ؟

– دون شك ولكن البحث في خيانته أمر لا يفيدنا بشيء فاعلم الآن أن الوزير ، أو هذا الخائن كما تريد أن تدعوه ، يعلم أن الرجاه قد عهد اليك بقضاء مهمة .

– قد يكون ذلك ولكنه لا يعرف اسرار تلك المهمة .

– انك مخطىء فهو عارف بكل شيء .

– ايعلم بما وعدت به عثمان ؟

– بل يعلم انه اعطاك خاتماً .

– وهذا الخاتم ؟

– يعلم انك إذا اظهرته لرجل في كلكوتا يعطيك كنوز الرجاه عثمان المخبؤة عنده ولكن الوزير لم يكن يعرف اسم هذا الرجل ولا أين يقيم .

– وهو لن يعرفه أبداً .

انك مخطىء أيضاً فقد عرفناه بفضل خطائك وهو الشيخ حسن الخياط .

فاضطرب روكامبول اضطراباً عظيماً ، دون أن يظهر شيئاً من اضطرابه ثم ابتسم وقال : اني لا أفهم ما تريد أن تقول ، ولم أسمع باسم هذا الرجل قبل الآن .

وكان روكامبول مطمئناً فلم يكترث لما سمعه من البوليس ، لاعتقاده بأن عمال الوزير قد يعذبون الشيخ حسن أفظع تعذيب ، وقد يقتلونه ، ولكنهم لا يعلمون منه موضع الكنز ، وقد زاد اطمئنانه حين رأى أن هذا الرجل المتنكر بملابس البوليس لم يسأله كلمة عن ابن الرجاه عثمان ، فأيقن أن تريبورينو لم يكن عالماً بأمره ، وأنه يعتقد أن الغلام هو ابن الشيخ حسن وليس ابن الرجاه .

وطال بهما السير فقال له روكامبول : إلى أين أنت ذاهب بي ؟

إلى مكان بعيد كي يتيسر لتريبورينو الحصول على الكنز وهو في مأمن منك .

فعلم روكامبول أنه لم يبق له فائدة من سؤال هذا الرجل ، وأنه خير له أن ينصرف إلى التفكير في أمره ، ويبحث عن طريقة صالحة لنجاته فانزوى في المركبة يتظاهر بالنوم وهو يعمل الحيلة والتفكير .

واستمرت المركبة على سيرها ذلك اليوم كله فلم تقف إلا عند المساء .

وعند ذلك أزاح البوليس ستار المركبة فرأى روكامبول أنها وقفت في برية متسعة قرب غابة كثيفة

فنزل عامل تريبورينو من المركبة وأمر العبدين بالنزول ثم أخرج روكامبول وقال له بلهجة الساخر : انك قد تعبت من الجلوس دون شك ، وبت في حاجة إلى المشي والرياضة فهلم بنا نمشي في هذه الغابة فان المركبة لا تستطيع السير فيها .

ولم يكن لروكامبول سبيل للدفاع فان يديه كانتا مقيدتين وراء ظهره ، وذلك الرجل المتنكر بملابس البوليس مشهر عليه مسدسه فلو حاول الدفاع

قتل لا محالة دون أن ينفع قتله ابن الرجاه

فسار صاغراً بازاء الرجل والعبدان يسيران وراءهما فدخلوا إلى الغابة ، وساروا بين أشجارها نحو ساعة .

وكانت الشمس قد توارت في حجابها وأقبل الليل فوصلوا إلى شجرة عظيمة باسقة تكفي أغصانها وعمدها لبناء سقف منزل بجملته فوقفوا عندها وعلم روكامبول في الحال ذلك العقاب الهائل الذي أعد له .

ذلك ان هذه الشجرة كانت من النوع الذي يدعونه (Man cenillier) وهو شجر سام يكثر وجوده في الهند وأميركا وجزائر الأنتيل فاذا أقام المرء في ظلها ليلة واحدة نفذت سمومها إلى رئتيه فنام نومة أبدية .

فلما وقفوا عندها التفت البوليس إلى روكامبول وقال له وهو يضحك : قد وصلنا فلا نحملك بعد الآن مشقة السير .

- ١٧ -

وأشار عند ذلك إشارة إلى العبدين فانقضا في الحال على روكامبول وقيدا رجليه .

ثم ربطا حبلاً في وسطه وربطا هذا الحبل في الشجرة بحيث لم يعد يستطيع حراكاً وأيقن انه حكم عليه بالموت في ظل هذه الشجرة السامة .

ولما فرغ العبدان من تقييده قال له البوليس : إن تريبورينو دفعك إلى الفيل الجلاد فانتصرت عليه ، وقتلت ذلك الفيل العزيز ، والآن قد قضيت المهمة التي عهد الي قضاءها ، فأتمنى لك أن تسلم من هذا الخطر الجديد .

إنك رجل باسل مقدام تستحق خير من هذا الموت ولكن الموت واحد

مهما تنوعت أسبابه ومن كانت له بسالتك لا تروعه الشدائـد ويعرف طرق الصبر على الموت .

ثم قهقه ضاحكاً وانصرف بعبديه ..

وبقي روكامبول مقيداً بالشجرة لايستطيع حراكاً فجعل ينظر إلى الرجل والعبدين حتى تواريا عنه بين الأشجار فبات وحيداً مقيداً في غابة لا يسكنها غير الوحوش الضواري فإذا سلم من أنيابها لا يسلم من سم الشجرة .

ولبث على هذه الحالة حيناً وقد تمكن اليأس من قلبه وبذل جهداً عظيماً كي يقطع قيوده فلم يستطع لمتانتها ، فقد كانت من الحرير وهي معقودة بطرق يستحيل حلها إلا على عاقدها .

وهجم الليل وسطع نور القمر فأدرك روكامبول هول موقفه وعلم انـه لم يصب في حياته بأشد من هذا الخطر .

ولا يدرك هول هذا الموقف إلا من عرف غابات الهند الكثيفة فانها تكون في النهار هادئة ساكنة ، فإذا أقبل الليل هبت الرياح واهتزت الأغصان فخرج لاهتزازها صوت يضطرب له ذلك الهدوء

ثم يمتزج بتلك الأصوات أصوات أخرى تخرج كالرعد القـاصف وهي أصوات النمور .

ثم يشعر الجالس فيها ان الأرض تهتز به ، وذلك ان أسراباً من الفيلة لاعد لها تدخل إلى تلك الغابات بعد ان تكون قد أتلفت سهول الذرة والأرز في النهار، فتتساقط لاهتزازها الأشجار من سيرها والأوراق الذابلة وتحملها الرياح إلى السهول .

وهناك أصوات منتظمة رنانة تشبه أصوات (الصناجات) التي تنقر بهـا الراقصات المصريات ، وهي أصوات الأفاعي المعروفة بذوات الأجراس .

فإذا قدر لمنكود أن يقص موقف روكامبول في مثل هذه الغابة لا يلبث أن يضل رشده لما يتولاه من الرعب .

ولم يكن عناء روكامبول قاصراً على الفزع بل انه كان يتألم آلاماً شديدة من تأثير سم الشجرة المقيد بها .

فقد شعر حين بدأ هواء الشجرة السامة ينفذ إلى رئتيه بحرارة شديدة عقبها صداع اليم .

ثم زالت الحمى وتلاها برد شديد فجعلت أسنانه تصطك وجسمه يضطرب ويهتز ومعدته تنكمش وقلبه يتصاعد حتى خشي أن يخرج من فمه

ثم اشتد الصداع فكان يشعر كأن آلة من الحديد تضغط على صدغيه وأن مطارق غير منظورة تضرب رأسه ضربات غير متتابعة ، وان إبراً محددة الأطراف توخز رأسه من كل مكان

وبعد هذا الصداع الأليم أصيب بما يشبه النزع ، فقد تراكمت عليه الآلام حتى لم يعد يخص عضواً دون آخر ، ثم تلا ذلك الهذيان والبحران فأصيب بما يصاب به شارب الأفيون فكان يتألم ويسر في حين واحد .

وجاء بعد ذلك دور التخيلات فكان يرى نفسه تارة ممتطياً جواداً ينهب به الأرض في البراري الفسيحة ، ويرى مرة أن فتاة حسناء تداعبه وتلهب فمه تقبيلا

ثم تنعكس هذه التخيلات فيرى أفعى هائلة تسعى اليه ونمراً مفترساً فاغراً فمه راكضاً اليه وفهداً جائماً يمد اليه براثنه لافتراسه .

وفي جميع هذه المدة يسري الموت اليه ببطء ، وهو خير أنواع هذا العذاب .

وكان روكامبول يعود اليه الطمع بالحياة حين يسمع تلك الأصوات الهائلة المنكرة ، فيجد نفسه مقيداً أشد تقييد ، فيحاول أن يصيح ، أو يستغيث فلا يخرج صوته من صدره ، وقد خطر له أن يصلي التماساً للعزاء فلم يعلم ماذا يقول . .

وكانت الحمى تمثل له في البدء تلك الأصوات والضواري ، غير انه لم يلبث

بعد ذلك حتى استحال الخيال إلى حقيقة ، ورأى نمراً هائلا أرقش الجلد متسع البراثن ، كبير الشدقين دنا من تلك الشجرة وقد شم رائحة الانسان فأسرع لافتراسه ووثب حتى بات على عشرين خطوة منه ، فجعل ينظر اليه بعينين تتقدان كأنهما من لهب .

فانتفض روكامبول وقد أزال هذا المنظر الكريه آثار الحمى والهذيان وعاد اليه كل رشده لاستفحال الخطر لاسيما حين سمع زئير هذا الوحش الضاري ترتج له أرجاء الفضاء كدوي الرعود .

ولكنه وأأسفاه كان مقيد اليدين والرجلين مشدوداً إلى الشجرة فلا يستطيع دفاعاً ولا فراراً .

ووقف النمر بعيداً عنه ينظر اليه بعينيه الناريتين ، فما شكك أنه غدا فريسة هذا الوحش المفترس

غير أن النمر لم يتقدم ، ولبث في مكانه ثم فتح شدقيه وجعل يزأر زئيراً يشبه دوي المدافع وهو ينظر اليه دون أن يثب عليه .

وحملت الرياح زئيره الهائل فتناقله الصدى ودوى في تلك الغابة وفي الجبال المجاورة لها .

وبعد ذلك خيل اليه انه سمع زئير يشبه زئير هذا النمر من مكان بعيد ، فحول النمر نظره عن روكامبول والتفت إلى الجهة التي سمع منها ذلك الصوت .

وكأنه كان ينادي رفاقه كي يستعين بهم عليه ، فإنه لما سمع الزئير البعيد عاد هو الى الزئير المتصل

وكان نور القمر ساطعاً فلم تمض هنيهة حتى رأى نمراً آخر قد انضم إلى النمر الأول ، فقال روكامبول في نفسه : لا شك انه قد دعاها كي تشاركه في لحمي .

وكأنما للوحوش لغة سرية يتفاهمون بها فان النمرين حين التقيا جعل كل

منهما ينظر إلى الآخر كأنهما يتشاوران ثم عادا إلى التحديق به دون أن يدنوا خطوة منه

فحار روكامبول في أمرهما وترددهما وهو يتوقع انقضاضهما عليه كل حين إلى أن انجلت له أسباب هذا التردد .

وذلك أن القمر كان في كبد السماء فكان نوره يتدفق فوق الشجرة فبسط ظله حولها دائرة من النور .

وكان روكامبول مقيداً في الشجرة فلا يصل اليه النور الحاجز بينه وبين النمرين فكأنهما خافا من النور أو أنهما علما بالفطرة الغريزية أن الشجرة سامة فخشيا الدنو منها وهو أمر مشهور فإن الحيوان يدرك بالفطرة ما يضره كما يدركه الانسان بالعلم والاكتساب .

وربما كانا لا يعلمان انه مقيد اليدين والرجلين ولا يستطيع حراكاً ؟ فكانا يتوقعان أن يخرج من ظل الشجرة هارباً منهما فينقضان عليه ويفترسانه

أما روكامبول فقد أصابه من الرعب ما لا يوصف واشتدت عليه آلام التسمم حتى استفحل يأسه وفضل الموت العاجل بين أنياب هذه الوحوش الضواري على الموت البطيء بظل الشجرة المسمومة فلم يحتل على النمرين لارهابهما وإبعادهما بل عول على ان يثيرهما عليه كي ينجو من حياة يفضلها الموت

فجمع شفتيه وجعل يصفر وهو يرجو أن يثير النمرين بالصفير ويحملهما على الانقضاض عليه .

غير انه لقي عكس ما كان يرجوه فإن النمرين ابتعدا حين سمعا الصفير وهما يزأران حتى غابا عن نظره .

وحسب انه قد نجا منهما ولكنهما لم يلبثا أن عادا فكانا يسيران ويقفان كأنهما يرهبان أمراً أو ينتظران نجدة .

وكانا يزأران زئيراً تدوي له الأفاق فلم تمر هنيهة على ذلك حتى انضم اليهما ثلاثة نمور أخرى

وكانت آلامه قد اشتدت حتى بات يحسب الموت حياة فقال في نفسه : لا بد أن تحمل الجرأة أحد هذه النمور إلى اجتياز دائرة النور فأنجو مما أنا فيه واستريح .

ولكنه أخطأ في حسابه ايضاً فان النمور اصطفت شبه دائرة وجعل كل منها ينظر إلى رفيقه ثم ينظر إلى ظل الشجرة السامة دون أن يجسر على اجتياز الدائرة .

غير ان عيونها البراقة النارية كانت تفعل فيه اكثر من براثنها ، فعادت اليه الحمى والهذيان فتمثل له أن هذه الحيوانات الضارية لا حقيقة لها وأنها خيالات مثلتها له الحمى .

واشتد به الصداع فجعل يصيح متألماً فكانت النمور تجيبه عن صياحه بالزئير ، ولكنها لا تجسر على الانتقال من مواضعها فكانت تقتله بزئيرها ونظراتها والشجرة تميته برائحتها السامة .

وفيما هو على ذلك رأى حيواناً آخر قد انضم إلى النمور .

ولم يكن هذا الحيون نمراً ، بل كان فهداً هائلاً أصفر الظهر أبيض البطن فأفسحت له النمور محلاً بينها ، وجعلت تتطلع اليه ويتطلع اليها كأنها تقص عليه أمرها معه .

وكأنما هذا الفهد لم يكن يدرك ما كانت تدركه هذه النمور من خطر الشجرة ، فانه وثب من بينها فاجتاز دائرة النور غير هياب وانقض على روكامبول .

فأغمض روكامبول عينيه واستعان بالله على لقاء الموت إذ لم يبق له شك فيه .

أما الفهد فانه نشب براثنه في كتفي روكامبول وجذبه جذبة قوية قطعت

الحبل المشدود به وسطه إلى الشجرة ، ثم القاه فوق ظهره وفر به هارباً من النمور يعدو عدو البرق بين الغابات الكثيفة .

أما النمور فانها جعلت تعدو في أثره وهي تزمجر وتزئر وتطلب حظها من الفريسة .

وكانت النمور تعدو عدواً سريعاً حتى أوشكت ان تبلغ الفهد وتنزع منه روكامبول غير أنها قبل أن تصل اليه دوى في أنحاء الغابة صوت غريب لم تألف الوحوش سماعه في الغابات .

وكان هذا الصوت صوت طبل كبير له دوي شديـد فخافت النمور من هذا الصوت الغريب ، وأركنت إلى الفرار تاركة حقها من الفريسة للفهد .

ثم تلا صوت الطبل ظهور أنوار المشاعل فكانت هـذه الأنوار أدعى إلى فرار النمور من صوت الطبل

غير أن الفهد كان أشد منها جرأة ولعله لم يخف لأن وقوع الفريسة بـين يديه هاج نهمه فلم يبال بالأخطار .

ولذلك لم يهرب بل انه القى روكامبول على الأرض فوضع يده الهائلة فوق صدره والتفت الى جهة النور ومصدر الصوت وهو يتهدج من الغضب ويصيح صيحات تكفي وحدها لقتل أشد الناس جرأة من الخوف في مثل هذا الموقف الرهيب .

وكان صوت الطبل يدنو من الفهد وقد تألقت أنوار المشاعل فظهر حاملوها فانشغل الفهد عن النظر إلى روكامبول بالنظر اليها وجعل يزيد هياجه كلما اقتربت منه ويزيد ضغطه على صدر روكامبول .

أما روكامبول فإنه نظر إلى تلك الأنوار فرأى ثلاثة من الهنود يحملون المشاعل وآخر يحمل طبلاً ينقر عليه وكلهم مسلحون بالبنادق فاشتد رجـاؤه بالنجاة ، فلم يعد يحفل بضغط الفهد وغضبه .

وكان الهنود قد دنوا من الفهد وباتوا منه على بضعة أمتار فرأى روكامبول

أحدهم قد صوب بندقيته ، ثم سمع فجأة صوت إطلاقها فصاح صيحة ألم شديدة ، لأن الفهد ضغط عليه ضغطاً قوياً كاد يحطم عظام صدره ثم اطبق عينيه وأغمي عليه .

أما الرصاصة فقد أصابت قلب الفهد فسقط قتيلاً وكان ضغطه على روكامبول آخر انتقام .

- ١٨ -

ولما استفاق روكامبول من إغمائه وجد نفسه في مكان لا يعرفه ولم يجد أثراً للفهد والنمور .

وقد وجد نفسه في منزل هندي مبني من القصب وهو من المنازل التي يسكنها من يقيمون قرب الغابات من الهنود ويحصدون الذرة والارز .

فلقي أمامه ثلاثة رجال لم يعرف منهم غير رجل واحد ، لكنه ما لبث ان رآه حتى صاح صيحة فرح لأن هذا الرجل كان موساني خادمه الوفي الأمين .

أما خادمه فانه أكب على يديه ورجليه يقبلها بملء الفرح والاحترام .

ثم أخبره بالاشارة أنه كان يحسبه من الأموات ، وانه إذا كان باقياً في قيد الحياة فإنما ذلك بفضله وفضل هذا الرجل ، وأشار إلى أحد الرجلين الهنديين .

فنظر روكامبول الى الرجل الذي أشار اليه فاذا هو رجل عالي القامة أسمر الوجه أسود اللحية تدل مخائله على النبل والجرأة والاقدام

أما هذا الرجل فانه لما رأى روكامبول ينظر اليه كلمه باللغة الفرنسية فقال: انك تريد أن تعرف دون شك من أنا ؟

فانحنى روكامبول إشارة الايجاب :

فقال الرجل : إني أدعى نادر وانا زعيم تلك الجمعية القادرة التي تقـاوم الخناقين فان أولئك الخناقين من أبناء الآلهة كالي إلهة الشر أما نحن فاننا من ابناء الاله سيوا إله الخير والصلاح .

انك لا تعرف من أنا ولكني أعرف من أنت فانك خدمتنا اجل خدمة بانتصارك على علي رجاه زعيم الخناقين الأكبر ، فقد كان عـدونا اللدود وانمـا انقذتك من أجل هذه الخدمة ولسنا من الذين يضيع عندهم الجميل .

فجعل روكامبول ينظر إلى هذا الرجل باندهاش .

أما نادر فإنه مضى في حديثه فقال : إن براثن الفهد قد مزقت جلدك وأصابتك بجراح كثيرة غير اني فحصت جراحك بعد ان قتلت الفهد فعلمت أنها غير بالغة .

وقد ضمدت جراحك على الطريقة الهندية فوضعت في كل جرح مرهمـاً لا يعرفه غير الهنود وهو يشفي أشد الجراح ببضع ساعات .

وانك ستشفى اتم الشفاء بعد يومين وتصبح قادراً على العودة إلى كلكوتا وهناك لا خوف عليك فان نفوذي يحميك .

فنظر اليه روكامبول نظرة أعربت عن امتنانه العظيم وقال : اني اشكرك كفيما كنت .

وعاد نادر إلى الحديث فقال : لقد انقذتك اعترافاً بجميلك على جمعيتنا كما تقدم ولكن كان لي في انقاذك مأرب آخر وهو اني سأحتاج اليك يوماً ما .

— مر بما تريد فان هذه الحياة التي انقذتها باتت وقفاً لخدمتك .

— سأخبرك فيما بعد بحاجتي اليك ، وأما الآن فـدعني اقص عليك كيف انقذتك من ذلك الموت الهائل .

ثم جلس على كرسي قرب مقعد من القصب الهندي كان روكامبول نائماً عليه وقال :

إن لطائفة الخناقين جواسيس منتشرة في كل مكان ، وكذلك نحن فاننا لنا كثيراً من الجواسيس . ولنكد الطالع إني لم أكن في كلكوتا حين جئت أنت اليها ولم أعلم بمقاصد تريبوريتو إلا بعد فوات الأوان .

وذلك اني كنت في صباح امس في منزلي ، فدخل علي خادمي وأخبرني أنه على الباب رجل هندي ، يريد أن يطلعني على أمور خطيرة .

فأمرت بإدخاله ، فدخل الرجل وجثا على ركبتيه أمامي وقال : إني يا مولاي من أبناء سيوا مثلك ولكني دخلت في خدمة تريبوريتو ولا أحب ان يصاب من تحميه بمكروه .

ثم أخبرني انه باغت خادمين مخلصين في خدمة الوزير ، فعلم من حديثهما أنهما سرقا في الليل خاتم عثمان من إصبعك . وإنهما قطعا لسان موساني .

وقد علم ايضاً انهما عازمان على اختطافك والذهاب بك الى غابة وربطك إلى شجرة سامة كي تموت في ظلها .

ثم ذهب بي ذلك الرجل الذي أخبرني بهذا النبأ الى فندق باتافيا الذي كنت تقيم فيه حين سرقوا منك الخاتم فعلمت ان صاحب الفندق من أتباع الوزير وان بوليسين إنكليزيين قد قبضا عليك .

وقد رأيت في هذا الفندق موساني ، فضمدت جراحه وذهبت وإياه لاقتفاء أثرك فعلمت انك قد تقدمتنا وعرفت من الهنود انهم قد خرجوا بك من كلكوتا بمركبة مقفلة تجرها الجياد . فامتطيت مع موساني جوادين وخرجنا ايضاً من كلكوتا للبحث عنك .

وكنا كلما رأينا جماعة من المزارعين نسألهم عن المركبة فيرشدوننا الى الطريق التي سارت فيها .

لكن أقوالهم كانت متفقة على أنكم كنتم تتقدمونا بعدة ساعات .

وما زلنا نسير من محطة إلى محطة ، حتى انتهينـــا الى منزل في هذه الغابة ، فرأيت هناك المركبة التي حملتك وجيادها ، فعلمت انهم قد توغلوا بك في الغابة .

وكنت أعلم ان هذه الغابة كثيرة الطرق ، فليس من الحكمة أن أقفو أثركم فيها .

ثم اني كنت أعلم ان الأشجار السامة لا تقتل في أمد قصير ، ولذلك رأيت ان أكمن عند مدخل الغابة للذين ذهبوا بك اليها ، إذ لا بد لهم من العـودة الى المركبة التي تركوها عند المدخل .

فاختبأت مع موساني بين الأدغال نحو ساعتين .

وبعد ذلك رأيت ثلاثة رجال قد خرجوا من الغابة ، وهم عبدان أسودان ورجل أبيض ، لا فرق بين لونه ولون الانكليز . فعرفت للحال انه من أخلص الناس في خدمة الوزير وقلت في نفسي : إن هذا الرجل يؤثر الموت وكل عذاب على خيانة سيده ، فهو لا يهدينا الى الشجرة السامة التي قيدوك فيها ووجوده يضر بنا .

وصبرت عليه حتى رأيته يصعد الى المركبة فأطلقت عليه رصاصة من بندقيتي فأسقط منه مقتلا وسقط صريعاً .

وعند ذلك خرجت مع موساني من بين الأدغال وهجمنا على العبدين فركعا أمامنا وهما يطلبان العفو . فسألتهما ان يرشدانا الى الشجرة التي قيدوك فيها وأنذرتهما بالقتل .

أما أحدهما فأبى ان يرشدنا كل الإباء . فطعنـــه موساني بخنجره طعنة كانت القاضية .

وأما الثاني فإنه لما رأى ما كان من قتل رفيقه خاف من الموت ورضي ان يرشدنا اليك

وكان الليل قد أقبل فأحضرت المشاعل للاهتداء ، والطبل لطرد الوحوش

والأفاعي، ودخلنا جميعاً الى الغابة حتى اهتدينا اليك وأنقذناك من الفهد وأنت تعرف البقية .

فشكره روكامبول شكراً جزيلاً ثم قال له : إني مدين لك بالحياة ولم يبق إلا ان تخبرني بما تنتظره مني .

– ستعرف ذلك بعد يومين حين نصل الى كلكوتا ، وأما الآن فلا بد لك من الراحة

ثم تركه وانصرف .

– ١٩ –

وبعد ذلك بيومين كان روكامبول في كلكوتا فان المرهم الذي عالجه به نادر قد فاده فائدة عظيمة فلم يشعر بشيء من الألم .

وكأن حسن وفائه لعثمان قد أسرع في شفائه فإنه ذكر سرقة الخاتم منه فكاد يجن من إشفاقه على الكنز وابن عثمان .

وفيما هو يدخل باب المدينة مع نادر قال له نادر : إننا قد بلغنا كلكوتا فلا أفارقك بعد الآن . ومتى كنت معك فلا خوف عليك من الوزير مهما بلغ من السلطة والنفوذ .

– إني صدقتك ولي بك ثقة لا تتزعزع .

– إلى اين تريد ان نذهب الآن .

– إلى الشيخ حسن فاني مضطرب البال عليه .

– إذن هلم بنا

وسار الإثنان الى المدينـــة السوداء ، حتى إذا وصلا الى منزل حسن سرى الأمل إلى فؤاد روكامبول لأنه وجد الشيخ حسن جالساً كعادته عند

عتبة الباب .

وقال روكامبول في نفسه : لا شك إنه فهم إشارتي ، فلما جاؤوا بالخاتم لم يخبرهم بشيء .

ثم دنا روكامبول مع نادر منه ، فنظر حسن الى روكامبول نظرة تدل على عدم الاكتراث .

فعجب روكامبول لهذا الفتور وقال له : ألم تعرفني ؟

فنظر اليه الشيخ نظرة تدل على البلاهة دون ان يجيب

فقال له روكامبول : كيف لم تعرفني أيها الشيـخ ؟ أنا هو القادم من قبل الرجاه عثمان ؟

فارتعش حسن عند سماعه اسم عثمان ، ثم ابتسم ورفع يديه إشارة الى ان الأمير بات في السماء .

فقال نادر لروكامبول : إن هذا الرجل قد اختلط عقله فان عينيه تشيران إلى انه مصاب بالجنون .

وكان هناك فتاة جالسة عند باب المنزل المجاور لمنزل حسن فدنت من نادر وروكامبول وقالت لهما : العلكما من أقرباء هذا المسكين ؟

فقال نادر : نعم .

– يظهر أنكما لم تعلما ما أصابه ، فإن ثلة من الجنود قد طوقت منزله مساء أول أمس فخرج حسن اليهم وهو منذهل مما يرى فقبضوا عليه وأراه رئيسهم خاتماً كان في إصبعه .

أما حسن فانه نظر الى الخاتم باندهال قائلا : إني لا أعلم ما تريد .

فدخل الجنود عند ذلك به الى المنزل وأقفلوا بابه ، فجعل حسن يصيح صياحاً سمعه كل الجيران ، فسمعناه يقول إني رجل خياط فقير ا فمن أين تأتيني الكنوز .

وكان الجنود ينذرونه بالقتـل إذا لم يبح بسر الكنز ، فيقول لهم

اقتلوني في الحال ولا تعذبوني ، فاني شيخ كبير ولا طاقة لي على احتمال العذاب

لكن الجنود لم يقتلوه بل انهم أشعلوا النار في المنزل ، فكنا نرى نورها ينفذ من النوافذ ثم سمعناه يصيح صياحاً يدل على الألم الشديد ، ثم سمعنا غنائه فعلمنا أن العذاب أفقده الصواب .

وذلك ان الجنود قد حملوه بأمر رئيسهم وعرضوا قدميه للهب النار فلم يغنهم تعذيبه شيئاً

ولما يأسوا من إقراره ورأوا أنه كاد يشرف على الموت تركوه وجعلوا يفتشون المنزل فما تركوا شيئاً في مكانه .

ولكن يظهر انهم لم يجدوا شيئاً من تلك الكنــوز الوهمية ، فانهم خرجوا صفر اليدين .

فتنهد روكامبول عند ذلك تنهد المنفرج ، ليقينه من بقاء الكنز في موضعه وقال للفتاة : لقد كان للشيخ حسن غلام فأين هو وماذا جرى له ؟

– إن الجنود أخذوه ولم نره بعد ذلك .

فهمس روكامبول في أذن نادر وقال : إن هــذا الوزير الخائن قد قبض على الغلام

– سنجده إلا إذا كانت سولت له النذالة ان يقتله .

– لندخل الى منزل هذا المسكين المختل فقد نقف منه على شيء .

فوافقه نادر ودخل الاثنان فتبعهما حسن وعليه مظاهر القلق كي يمنعهما عن الدخول ، لكنه لم يسر خطوة حتى سقط لاحتراق قدميه .

فحمله روكامبول ودخل به الى المنزل ثم أشار الى نادر ان يقفل الباب فأقفله ودخلوا جميعاً فكان حسن ينظر اليهم نظرات الرعب

ثم نزلوا الى القبو ، فجعل روكامبول ينقر بيــديه على الجدار ، كي يهتدي من الصوت الى باب الكنز الدفين ، كما فعل حسن من قبل فاهتدى

من الصوت اليه وأخذ خنجره وأدخله بين حجرين فانزاح احـدهما وظهر القفل الفولاذي .

وعند ذلك جعل حسن يضحك ضحكاً عالياً كأنه كان يهزأ بهما لوثوقه من ان هذا الباب لايستطيع أحد غيره ان يفتحه ، ثم انقطع ضحكه واستولى عليه رعب رهيب فبكى بكاء الأطفال .

أما روكامبول فانه كان وثق من ان الجنود لم يهتدوا الى الكنز .
لكنه أراد ان يعالج هذا الباب عله يستطيع فتحه ليطلع نادر على ما فيه من الأموال .

وكان يعلم ان المفتاح معلق بعنق حسن فاستعان عليه بنادر وأخذ منه المفتاح بالرغم عن دفاعه الشديد .

ثم ذهب به الى القفل فأدخله فيه وجعل يديره يمنة ويسرة مرات كثيرة دون ان يتمكن من فتحه فنظر نظرة يأس الى نادر وقال له : إن لقفل هذا الباب سراً لا يعرفه إلا حسن لكنه مجنون واأسفاه .
فأجابه نادر : ثق بي ، فسأهتـدي إلى فتحه وإني لم أتولى زعـامة قومي عبثاً .

ثم ابتسم ابتسامة تدل على ثقته بنفسه ، فذهب عن روكامبول ما كان يشعر به من اليأس .

- ٢٠ -

وكان نادر قد أدرك صعوبة الوقوف على أسرار القفل فقال لروكامبول : إننا قد نشتغل أشهراً كثيرة في محاولة فتح هذا الباب بمفتاحه دون ان نهتدي إلى سره .

فإنكم معاشر الأوروبيين قد اخترعتم أقفالاً تفتح بحروف يصطلح عليها ، لكن الهنود قد سبقوكم بمراحل في مضمار هذا الاختراع .

وذلك أنكم جريتم بها على طريقة الحروف ، وجرينا بها على طريقة الأرقام ، وشتان بين الطريقتين ، فان الحروف محدودة وأما الأرقام فلا حد لها .

ولا بد أن يكون هذا الباب قد أقفل بارقام لا يمكن معرفتها إلا من الشيخ حسن وإلا فلا سبيل الى حلها .

— لكنه مجنون .

— إنني أعلم ما تعلمه من جنونه .

— إذاً العلك تريد ان تشفيه .

فهز نادر رأسه وأجاب : لا فائدة من ذلك .

فلم يفهم روكامبول شيئاً من قصده. أما نادر فانه ابتسم وقال له : هلم نبرح هذا القبو الى المنزل فاننا نتحدث فيه كما نريد .

فأخرج روكامبول المفتاح من القفل وأعاد الحجر كما كان ثم صعد مع نادر بالشيخ حسن الى المنزل فكان حسن يصفق بيديه تصفيق تهكم كأنما قد عاد اليه بعض صوابه وعرف انهما لا يستطيعان فتح الباب

ولما دخلوا الى المنزل وأقفلوا جميع أبوابه ، قال نادر لروكامبول : إن الوزير قد أتقن اللغة الهندية كل الاتقان ، بحيث لم تعد تخفاه خافية من دقائقها غير انه لم يتقن درس أخلاقنا وعاداتنا فهو إنكليزي النشأة ولا يمكن ان يكون هندياً محضاً .

— لماذا ؟

— لأنه يجهل بعض اسرارنا ، فان الهند بلاط السموم القاتلة والمخدرات الخفية فإذا كان الوزير قد عرف شيئاً منها فقد غابت عنه أشياء، ولو كان يعرف منها ما أعرفه لتيسر له الحصول على الكنز .

فعجب روكامبول وقال له : كيف ذلك ؟
- ذلك انه كان يستطيع الوقوف على سر الكنز من حسن نفسه ، بل انه كان فتح له باب الكنز بيده .
- أيفتح الشيخ حسن باب الكنز للوزير ؟
- دون شك .

فزاد عجب روكامبول ، أما نادر فانه مضى في حديثه قائلاً : إن الهندي اذا عطش عصر قطعة من الليمون في كأس من الماء فأروى ظمأه ، وان الهندي إذا أرق وتعذر عليه النوم أخذ حبة من الأفيون فابتلعها ، وإذا جرح داوى جرحه بمرهم يستخرجه من عصير نبات يدعى باللغة الهندية يوماً ومعناه لسان الحية ، وبهذا المرهم قد شفيت جراحك .

فاذا مزج الليمون المرطب مع الأفيون المنوم ولسان الأفعى الذي يشفي الجراح ، تألف من هـذا المزيج سم غريب لا يخطر في بال أحـد منكم ، معشر الإفرنج .

وذلك ان من يشرب جرعة من هذا المزيج يصاب بفرح عصبي غريب فينطلق لسانه بالكلام ، ومهما كان كتوماً حريصاً على أسراره فإنه لا يلبث ان يشرب هذا المزيج حتى يبوح بكل أسراره

فتنبه روكامبول لحديث نادر وذكر حادثة بعيدة جرت له حينما كان تلميذاً لأندريا ، وهو ذلك الشراب الذي أعطاه إياه اندريا فأرغمته باكارا على شربه ووقفت منه على جميع أسرار أستاذه

فبذل روكامبول معظم جهده كي يطرد تلك الذكرى المؤلمة ثم قال لنادر : كيف نستطيع الآن الحصول على مواد هذا المزيج ؟
- ذلك سهل ميسور فان ورق لسان الحية معي في جيبي

ثم أخرج من جيبه ضمة من أوراق صغيرة تشبه ورق الورد ووضعها أمامه على الطاولة

– والأفيون ؟

فابتسم نادر وقال : إن الهندي مهما كان فقيراً ومهما كان الأفيون غالياً فلا بد ان يوجد في منزله كمية منه .

ثم قام إلى طاولة كان الشيخ حسن يضع فيها أدوات الخياطة وفتح درجها وجعل يبحث فيها فوجد حبة صغيرة من الأفيون ، فأخذها ووضعها أمام الأوراق الجافة .

فرد روكامبول : بقي علينا الليمون .

– هلم بنا نبحث في البيت علنا نجد قطعة منه .

فبحثوا فلم يجدوا شيئاً فذهب نادر الى الباب ففتحه ، ووجد الفتاة الهندية لا تزال جالسة عند عتبة الباب ، فأعطاها غرشاً وسألها ان تشتري له به ليموناً لمعالجة الشيخ ، فامتثلت الفتاة وعادت بعد هنيهة بالليمون .

وعند ذلك اخذ نادر جرناً صغيراً من مطبخ المنزل فغسله ثم سحق فيه حبة الأفيون وفت لسان الحية فمزجها مع الأفيون ثم نقلها الى كأس ماء وعصر فوقها الليمون فظهر لون المزيج أحمر كشراب الورد .

وكان حسن ينظر إلى نادر نظر البلاهة

فدنا نادر ، وهو يحمل الكأس ، وقال له : إشرب فان هذا الشراب مفيد لك .

فأخذ حسن الكأس من يده وشرب نصفه جرعة واحدة كما يشرب الطفل ما يعرض عليه دون ان يعرف ما يشرب .

فالتفت نادر إلى روكامبول وقال له : راقب الآن هذا الرجل سوف ترى ما يكون تأثير هذا الشراب

أما حسن فانه لم يكد الشراب يستقر في جوفه حتى أصيب في البدء بذهول عظيم ثم جعل وجهه يتلون وعيناه تتقدان وانطلق لسانه بكلام لا يفهم فكان

كمحموم مصاب بالهذيان .

وعند ذلك قال نادر لروكامبول : إتبعني الآن .

فتبعه ونزل الإثنان إلى القبول ، فقال له نادر : أزح الحجر وضع المفتاح في القفل . ففعل .

أما حسن فإنه كان لا يزال في المنزل يهذي ، ثم بدت عليه مظاهر الفرح والارتياح فجعل يغني ويدعو نادر وروكامبول إلى سماع غنائه .

وكأنه لم يرق له ان يتمتع وحده بسماع غنائه فتبع روكامبول ونادر إلى القبو وهو يزحف زحفاً لآلام قدميه

والتفت روكامبول ، بعد ان وضع المفتاح في القفل ، فرأى حسن خلفه يضحك

أما نادر ، فانه جعل يدير المفتاح في القفل ، وهو يتظاهر بالاضطراب والقلق .

فلما رآه حسن على تلك الحال ضحك ضحك المتهكم ووقف ، فدفع نادر بكوعه ووضع يده على المفتاح ، ثم نظر اليهم نظر الهازىء وأدار المفتاح عدة مرات ، ففتح الباب وظهر الكنز وما فيه من الذهب الوضاح واللآلىء اللامعة .

- ٢١

أما حسن فانه بعد فتح الباب أظهر من غرائب الاحتيال ما أضحك الإثنين ثم حاول ان يقفله ولكن روكامبول حال بينه وبين الباب وحمله نادر فأدخله الى قبو الكنز والقاه على الأرض

فقاوم حسن مقاومة ضعيفة ، ثم لما رأى نفسه ملقياً على الأرض

نسي ما هو فيه ، وعاد الى هوسه فجعل يبكي ويغني ويندب ويستبشر في حين واحد .

فقال نادر لروكامبول : إننا إذا أقفلنا هذا الباب لا نستطيع فتحه بعد إقفاله ، ولا نستطيع البقاء على هذه الحالة الخطرة ، لأن عين الوزير غير غافلة . ولما كان واثقاً أن الكنز موجود في هذا المنزل فهو قد أحاطه بالجواسيس ، وبث حوله الأرصاد والعيون ، لأنه لم يكتف بتفتيش أعوانه لهذا المكان .

– هذا لا ريب فيه ، فماذا يجب ان نعمل ؟

فأطرق نادر هنيهة يفكر ثمّ قال : لدي رجال مخلصون لكن يقتضي لي وقت لجمعهم .

– ولو جمعتهم أتعهد اليهم بمراقبة هذا المكان ؟

– كلا ، ولكني أستعين بهم على نقل جميع ما في هذا القبو من الذهب والجواهر .

– إلى اين تنقلهم ؟

– أصبر فسأجيبك متى أمنّا صياح هذا الرجل فانه يقلقنا ببكائه وغنائه إحرص عليه الى ان أعود .

ثم تركه في القبو وصعد الى المنزل فأخذ من درج حسن كمية كبيرة من الأفيون فوضعها في غليونه وأشعله ثم عاد به الى حسن فأعطاه اليه فما طال تدخينه حتى سكت وتمكن منه الذهول .

وعند ذلك جلس نادر فوق برميل في القبو ، وقال لروكامبول : إصغ إلي الآن أيها الصديق ، إن هذه الأموال المودعة في هذا القبو كثيرة جداً ، بحيث يتعذر نقلها إلى أوروبا بالطرق العادية المألوفة ، لأن عمال الجمارك يفتشون السفن قبل سفرها ، واذا عثروا بهذه الأموال ضبطوها دون تردد

ـ لكني تعهدت لعثمان وهو يحتضر ان أنقلها .

ـ دون شك .

ـ إذاً يجب نقلها إلى أوروبا .

ـ إنك تستطيع نقل الأحجار الكريمة ، وأما الذهب فلا فائدة من نقله .

ـ لماذا ؟

ـ دعني أخبرك قبل ذلك كيف يسهل علينا نقل الجواهر . إعلم أن لطائفة أبناء سيوا التي أتولى رئاستها ثروة واسعة تزيد على ثروة أعدائهم أبناء كالي .

ولنا مثلهم عمال ووكلاء سريون بين الانكليز يخضعون لنا كل الخضوع ، ويمتثلون لأوامري كل الامتثال .

وإن بين أبناء طائفتي الذين يعتمد عليهم في المهمات ، ربان سفينة إنكليزية يدعى جون تان ، وهو لي من أصدق المخلصين . وسيسافر إلى لندرا بعد ثمانية أيام بشحنة من الحبوب . ولذلك رأيت أن أخبىء الجواهر داخل أكياس خاصة مشحونة حبوباً ، فاذا تفقدها عمال الجمارك لا يهتدون اليه .

ـ إذا كان ذلك كما أخبرتني فلماذا لا نشحن الذهب ايضاً داخل تلك الأكياس ؟

ـ لان الذهب كثير وهو أثقل من اللآلىء فاذا شحن على تلك الطريقة تعرض للخطر .

ـ إذاً كيف ينقل الذهب الى اوروبا ؟

ـ لا حاجة الى إرساله الى أوروبا بل يظل في الهند، وذلك اننا ندفعه الى خزينة طائفة أبناء سيوا وانا أعطيك حوالة بقيمته على مصرف من مصارف لندرا العظيمة فيدفعها اليك في الحال .

– إنها طريقة حسنة . غـير انه كيف يتيسر لنا نقـل تلك الأموال من القبو .

– هنا وجه الصعوبة إذ يستحيل علينا إخراج الأموال من باب هذا المنزل دون ان يشعر بنا الذين يراقبونه .

– إني لا أرى مـا تراه ، لأن الوزير كان منذ يومين يجهـل اسم هذا الرجل .

– ذلك ممكن غير ان البوليس الانكليزي لا تغفل له عين ومثل تلك القيمة من الثروة لا يسهل تهريبها أمام عينيه .

– هو ما تقول غير ان تلك الثروة لم تدخل دفعة واحدة الى القبو فهي تخرج منه أجزاء متفرقة كما دخلت اليه .

– ذلك ممكن ايضاً غير اني أعتقد ان لهذا القبو مخرجاً آخر من غير بابه الذي دخلنا منه . فهلم نفتش عن هذا المخرج فاذا وجدناه أخرجنا المال بجملته منه وذلك خير من إخراجه متفرقاً فان الوقت غير متسع لدينا وعلينا كثير من الرقباء والعيون .

– ليكن ما تريد فلنبحث .

ومشى نادر الى جدار القبو فجعل ينقر عليه بقبضة خنجره في أمكنة مختلفة حتى اهتدى الى مكان سمع منه صوتاً يدل على فراغ فقال : هوذا المخرج وسوف ترى .

ثم أخذ خنجره وجعل يزيح به الكلس المتجمد في الجدار حتى إذا كشطه ظهر له تحته ثقب تمد منه اليد فمد يده فشعر بزلاج وراء الجدار فرفع الزلاج ودفع الجدار بيده ، فاذا الجدار باب فتح وظهر منه سرداب طويل مظلم . فظهرت علائم السرور على وجه نادر وقال . هوذا المخرج الذي كنت أتوقع وجوده .

– الى أين ينتهي هذا السرداب .

– سوف نعلم إذ لا بد لنا من المسير فيه .
– لكن ما نصنع بحسن فانه قد يقفل علينا الباب .
– لا تخف لقد سقيته كمية كبير من الأفيون فهو لا يستفق منها قبل عدة ساعات ولا خوف علينا منه ، هلم بنا .

ثم أخذ المصباح الذي كانوا يستنيرون به في القبو ودخل الى السرداب ، فتبعه روكامبول .

– ٢٢ –

مما يؤثر عن الانكليز وتأثيرهم على البـــلاد التي يحتلونها ، والأمم التي يسيطرون عليها ، أن كل بلد تطأ أقـدامهم فيه تنتشر بين قومه عاداتهم وأخلاقهم ، ويجري قومه تقليـد الانكليز في كل شيء حتى في طريقـة إنشاء منازلهم .

مثال ذلك كلكوتا فان بعض شوارعها لم يكن يفرق بشيء عن شوارع لندرا حتى ان المدينة السوداء نفسها ، اي مدينة الوطنيين ، امتدت اليها يد الهندسة الانكليزية .

ومما فعله الانكليز في كلكوتا ، أنهم بنوا المجـــاري تحت الأرض ، وأنشأوا بركة عظيمة في المدينـة من جنوبها الى شمالها ، فكانت تشبـه ميناء داخلياً .

وكانت مياه المجاري تصب في تلك البركة من أقنية مبنية تحت الارض فاذا حان وقت الجزر دخلت مياهه الى البركة وحملت أقذار المجاري وكانوا يستعملون البركة أيضاً لإصلاح السفن .

وكان نادر يعلم دون شك بأمر البركة فكان يرجو ان يجد منفذاً اليها من

السرداب فمشى أمام روكامبول بمصباحه .

أما السرداب فكانت قبته عالية بحيث لا يضطر السائر فيه الى الانحناء ، لكنه كان ضيقاً فلا يستطيع إثنان ان يسيرا جنباً الى جنب .

فلما سار نادر بضع خطوات قال لروكامبول : إننا سنجد مجرى دون شك فان الإنكليز أنشأوا المجاري في المدينة السوداء .

– الى اين تنتهي تلك المجاري ؟

– الى حوض إصلاح المراكب .

وما سار الاثنان عشرين خطوة حتى وجدا منعطفاً فتنبه نادر لامر وقال: يجب ان نعود الى القبو لاني أخشى ان يكون لهذا السرداب منعطفات كثيرة تؤدي الى طرق مختلفة فاذا أردنا العودة لا نهتدي الى الطريق ولذلك لا بد لنا من دليل .

– أين تجد الدليل ؟

– سترى ، إرجع الآن أدراجك .

فرجع روكامبول وتبعه نادر الى القبو ، فلما وصلا اليه صعد نادر الى المنزل وعاد يحمل حبلا رفيعاً طويلا ثم دخل الى السرداب أمام روكامبول وقال : سر بنا فهذا هو الدليل وما زال الحبل بيدنا فلا نضل الطريق اذا أردنا الرجوع .

فاستصوب روكامبول صنعه وسار الاثنان في السرداب فانتهيا الى سلم تنزل درجاتها في جوف الارض .

وكان الحبل بيد نادر فقال لروكامبول : إننا اذا لم نصادف طريقين فلا حاجة بنا الى الحبل ، ولكن دلائل السرداب تشير الى اننا نلقى كثيراً من الطرق .

وكانت درجات السلم ثلاثين درجة فلما انتهيا منها الى آخر درجة وجدا سرداباً جديداً .

وكانا يسمعان صوتاً يشبه الهدير فوق رأسيهما فأصغى نادر الى الصوت ثم قال : أتعلم اين نحن الآن ؟

– كلا !

– إننا تحت الحوض .

ومشيا بضع خطى فظهر لهما طريقان في السرداب الجديد فقال له نادر : لقد حان وقت استعمال الحبل .

ثم أخذ خنجره فشكه في الارض وربط به طرف الحبل وسار في أحـــد الطريقين وبقية الحبل في يده .

وما زالا سائرين حتى انقطع هدير الحوض وكان الحبل قد بلغ نحو ثلثيه ، فاعترض سيرهما سلم آخر غير ان درجات هذا السلم يصعد عليها خلافاً لدرجات السلم الاخرى . فصعدا السلم وانتهيا الى قاعة متسعة غير ان سقفها كان واطئاً بحيث تمكن للواقف ان يمسه بيده فاستوقف سيرهما سماع حركة فوق السقف ، عرفا منها انها خطى انسان .

ولم يكن لهذه القاعة منفذ فقال نادر : يستحيل ان تكون هذه الطريق توصل الي البحر ولا بد ان يكون لهذه القاعة شأن .

وكان يصل الى مسامعهم من فوق القبة اصوات جماعة يتحدثون ولكنهما لم يفهما شيئاً من كلامهم المبهم .

فقال نادر : دعني أركب على كتفيك واعطني خنجرك علني أهتـدي الى معرفة هذه الاصوات .

ثم ركب فوق كتفي روكامبول وبلغ القبة فأخذ الخنجر وجعل يحفر بالسقف فما طال حفره حتى تنهد تنهد الرضى والارتيـــاح ، إذ وجد السقف مبنياً بالخشب وليس بالحجارة ورأى في هذا الخشب أثر باب فقال : هذا المنفذ الذي نبحث عنه فقد لقيناه .

- ٢٣ -

وعند ذلك وثب نادر عن كتف روكامبول إلى الأرض وقـال : لنبحث الآن عما نحن فيه : فاني قد وجدت المنفذ في هـــذا السقف وإذا دفعت بابه السري دفعة قوية فتح ، ولكننا لا نعلم إلى أين ينفذ هذا الباب ، فاني اسمع منه أصواتاً كثيرة .

فقال روكامبول: أرى ان أموال الرجاه لم تدخل إلى القبو من منزل حسن بل من هذا الباب السري ، ولذلك أعتقد ان هذه الأصوات التي نسمعها هي أصوات قوم مخلصين للرجاه عثمان .

– وأنا أرى رأيك ولكن كيف نستطيع أن نثبت لهم أننا نحن ايضاً من المخلصين للرجاه .

فتأوه روكامبول وقال : لقد أصبت فقد سرقوا مني الخاتم .

– وفوق ذلك فاني لا أستطيع الجزم بأن المال وصل إلى القبو من هـذا المنفذ ، فاننا قبل ان نصل الى هذه القاعة رأينا طريق السرداب قد تشعبت إلى طريقين ، ألا يمكن أن تكون الأموال وردت من الطريق الأخرى .

- هو ما تقول ، لكننا قد وجدنا منفذاً لاخراج الأموال .

– لا شك عندي ببسالتك فقد عرفتك حق العرفان ، ومن كان مثلنا لا تعترضه الصعاب

– على ماذا عزمت ؟

– على فتح باب السقف ، لكن لا بد لي من خنجري فانه قوي النصل ، فابق في مكانك إلى أن أعود به .

ثم تركه وعاد مسترشداً بالحبل الممدود إلى حيث شك خنجره وربط بـه طرف الحبل .

أما روكامبول فانه بينما كان ينتظر عودته جعل يصغي إصغاء تاماً عـله

يفهم شيئاً من تلك الأصوات التي كان يسمعها فقد اختلطت وارتفعت بعد ذهاب نادر .

وكان روكامبول يعرف جميع لغات أوربا ، ويعرف الهندية ولغاتها المختلفة، غير انه لم يفهم كلمة من تلك الالفاظ الغريبة التي كانت تخترق السقف إلى مسمعه .

فلما عاد نادر أخبره بما سمع وبأن القوم يتكلمون بلغة لم يسمعها مرة من قبل .

فابتسم نادر وقال له . سأكون أسعد حظاً منك فاني لا تخفاني خافية من جميع لغات الهند .

ثم صعد فوق كتف روكامبول ووضع اذنه على السقف فما أصغى هنيهة حتى أشرق وجهه بنور البشر وقال : لقد عرفتهم فهم أصدقاء .

– من هم ؟

– هم ابناء طائفتي أي أبناء سيوا .

– كيف عرفت ذلك ؟

– من اللغة التي يتكلمون بها فهي اللغة السرية المقدسة التي لا يفهمها العوام ، وإنما نحن الآن تحت معبد وهؤلاء الناس يصلون فيه فان هذه الساعة ساعة الصلاة .

– إذن نستطيع فتح الباب ولا خوف علينا .

– دون شك ولكن الوقت لم يحن بعد وخير لنا أن ننتظر فراغهم من الصلاة وخروجهم من المعبد .

– إذاً لننتظر كما تشاء .

فنزل نادر عن كتف روكامبول ونظر في زيت المصباح فرأى أنه لا يزال كافياً للانارة مدة ساعة فاضطجع على الأرض قرب روكامبول ينتظر انتهاء الصلاة .

ثم أخذت تلك الأصوات تضعف تباعاً إلى ان انقطعت فقال نادر هوذا

أبناء سيوا قد أخذوا يذهبون .

– العل الصلاة قد انتهت ؟

– نعم ، وسوف تسمع الكاهن يقول اذهبوا أيها المؤمنون فان الإله سيوا راض عنكم .

وقد تم ما قاله نادر فانه بعد هنيهة سمع الكاهن يقول لهم تلك العبارة فقال لقد تفرق المصلون فهلم بنا إلى العمل .

ثم عاد الى الصعود فوق كتف روكامبول فعالج الباب بخنجره ودفعه بشدة ففتح .

- ٢٤ -

وشعر روكامبول ان رجلي نادر قد فارقتا كتفيه ورآه قد اختفى في ذلك المنفذ الذي فتحه

ولكنه لم يلبث أن ظهر له بعد حين فمد له يده وقال له : تعلق بي وأصعد إلي .

فتعلق به روكامبول وصعد فلما صار داخل المنفذ نظر إلى ما حواليه فرأى قاعة فسيحة نقشت على جدرانها رسوم غريبة مختلفة .

وكانت هذه التماثيل والرسوم تشبه الرسوم التي تنقش في معابد الآلهة كالي غير أن الفرق بينهما أن رسوم الآلهة كالي تمثل الشر والفظائع والدماء وهذه تمثل الخير والرحمة والسلام .

وكان هذا المعبد الذي دخلا اليه مظلماً لا نور فيه ولكن نور الشفق كان ينفذ ضعيفاً اليه فرأى روكامبول في جوانب تلك القاعة الفسيحة بعض التماثيل الموضوعة على الأرض فحسبها هنوداً يصلون .

وكان في وسط هذه القاعة تمثال عظيم جداً وتحت قدميه مصباح ضعيف النور تنبعث منه رائحة ذكية .

أما نادر فانه أقفل الباب الذي فتحه ونظر إلى روكامبول فقال : إننـا الآن وحدنا في هذا المعبد .

فعجب روكامبول وقال : كيف وحدنا ؟ وأشار إلى التماثيل .

فابتسم نادر وقال : إنها تماثيل من الخشب والحجارة ونحن الآن في معبد من معابد الإله سيوا وهو كائن على شاطىء الحوض الأيسر في وسط المدينـة السوداء ...

– وهذه الأصوات التي كنا نسمعها !

– إنها أصوات المصلين وقد انصرفوا بعد انتهاء صلاة الغروب .

– والكاهن ؟

– انه يقفل الأبواب الخارجية ولا بد أن يرجع .

– أرأيته ؟

– كلا ولكنه سيذهل حين يرانا ..

– أيجب أن نستعمل الخنجر ؟

– لا حاجة اليه ، فإذا كان الكاهن هو الذي أعرفه فـإنه سيكون في خدمتنـا .

وفيما هما على ذلك سمعا صوت خطوات بعيدة ثم رأيا الباب قد فتح ودخل منه رجل يحمل مصباحاً .

وكان هذا الرجل مرتدياً بثوب أبيض وعلى حقويه منطقة زرقاء ، عاري الرأس أبيض الشعر تدل هيئته على أنه تجاوز الستين من العمر .

فلم يراهما حين دخل ، ولكنه حين تقدم منهما ورآهما ذعراً ذعراً شديداً وجمد الدم في عروقه ، وجعل ينظر اليهما نظرات حائرة تدل على ما داخل فؤاده من الرعب ولاسيما وقد رأى روكامبول وهو بملابس الافرنج فأيقن أن

المعبد قد تدنس .

أما نادر فانه تقدم منه وقال له « كوريب » .

وكان هذا الاسم اسم الكاهن فلما سمع أنهم ينادونه باسمه اطمأن ورفع مصباحه ناظراً إلى من يناديه فلما عرفه ركع فجأة ومرغ وجهه بالأرض عند قدمي نادر ، فعلم روكامبول مبلغ نفوذ هذا الرجل في تلك البلاد .

أما نادر فانه أمر الكاهن ان ينهض ، فنهض ووقف أمامه وقفة الخضوع والاحترام .

فقال له نادر : أتعرف من أنا ؟

– انك السيد وأنا العبد ..

– إذاً أمرتك ان تتكلم أتمتثل .

– دون شك ألم أقل لك اني العبد وانك السيد ؟

– أيها العبد إنك أقفلت أبواب الهيكل

– نعم يا مولاي ..

– ولكننا مع ذلك موجودين فيه وليس للمعبد غير مدخل واحد أتعلم من أين دخلنا ؟

فاضطرب الكاهن وقال : كلا يا مولاي ولكن الاله سيوا شديد الحول كثير الاقتدار .

– إن الإله سيوا لا يتداخل في شؤوني ثم ضرب برجله على الأرض فوق الباب الذي فتحه وقال : إننا دخلنا من هنا .

فاصفر وجه الكاهن وجعل يضطرب وينظر إلى الباب نظر الحائر .

فجرد نادر خنجره وقال : لقد وعدت أن تتكلم فلا بد لك من الوفاء .

غير أن خنجر نادر لم يرعب الكاهن كوريب ، بل أنه نظر إلى نادر بثبات وقال له : ايها السيد انك عاقل حكيم ومن كانت له حكمتك فهو يأذن لإتباعه بالإيضاح .

– إذاً تكلم ..

– إني بصفتي كاهناً للاله سيوا أكون عبـــدك لأنك رئيسنا الأعظم ، ولكن بصفتي إنساناً فإن لي علائق وعهود يقضي علي واجب الوفاء باحترامها فأنت إذا أمرت الكاهن أطاعك وأجابك إلى ما تريد ، وأما إذا أمرت الانسان ان يبوح بسر مؤتمن عليه فإن خنجرك لا يفيد في حمله على الاقرار .

فلم يغضب نادر لهذه الجرأة وقال : اصغ الي ، أنت أيضاً تعلم أني لا أريد حملك على الاقرار إلا لقصد صالح : واعلم أن الرجاه عثمان كان صديق هذا الرجل الذي تراه معي .

فنظر الكاهن إلى روكامبول نظرة حذر .

وعاد نادر الى الحديث فقال : وان الرجاه عثمان اعطاه خاتمه .

فقال الكاهن : أين الخاتم ؟

فقال روكامبول لقد فقدته

فابتسم الكاهن ابتسامة تدل على عدم التصديق فقـــال له نادر : ان تريبوريندو وزير الرجاه سرقه من هذا الرجل

وكأنما اسما تريبوريندو قد أثار العواصف في نفس الكاهن فقال . إن هذا ممكن فاني لا استعظم امراً من هذا الرجل الخائن ، لكني لا أستطيع أن أبوح بشيء إلا إذا رأيت الخاتم .

فقال روكامبول : إني إذا كنت قد فقدت الخـــاتم فإن أثاره لا تزال مرسومة في أصبعي فانظر علك تعرفه .

فنظر الكاهن في أصبع روكامبول فوجد ثلاث علامات حمراء نتجت من ضغط حجارة الخاتم على الأصبع فقال : ان الآثار قد تكون آثار خاتم الرجاه عثمان ولكنها قد تكون أيضاً من غيره .

فقال له نادر : إذا كنت لا تصدقنا فاني أقنعك ببرهان اخر .

— ما هو ؟

— هو اننا اكتشفنا كنز عثمان الذي كان بحراسة الشيخ حسن .

رأى نادر أن وجه الكاهن قد اصفر واضطرب فقال له : خفض من روعك فاننا اصدقاء عثمان مات واننا لا نريد إلا انقاذ ثروته من الوزير .

فقال الكاهن: إذا كنتم تعرفون مكان الكنز الذي عهد إلى عثمان حراسته مع الشيخ حسن فما تريدان أن أقول بعد ذلك وماذا تبغيان منها ؟

— اننا نريد أن تعيننا على اخراج هذه الأموال من مكانها .

فعاد الشك إلى الكاهن وقال لنادر : أتجيبني أيها الرئيس إذا سألتك أن تقسم لي يميناً ؟

— دون شك .

— ضع يدك على تمثال إلهنا سيوا

وضع نادر يده فوق التمثال .

-- أقسم لي بإلهنا أن خاتم الرجاه عثمان كان في اصبع هذا الرجل الذي يصحبك .

-- اني أقسم لك بالإله سيوا أن الرجاه عثمان أعطاه خاتمه وأوصاه أن يأخذ المال .

فتنهد الكاهن تنهد الراحة كأنه أنزل عن عاتقه حملاً ثقيلاً وقال : مر الآن أيها السيد بما تشاء فاني مستعد للطاعة والامتثال

— اني أريد نقل الأموال من مكانها فان الشيخ حسن فقد صوابه ولا بد للوزير من اكتشاف الكنز .

ـ ان ذلك سهل ميسور فاننا نخرج الأموال من حيث ادخلناها .

ـ نعم ، ولكن متى ؟

ـ في الليلة القادمة .

ـ ماذا نصنع بالباب الحديدي ، أنبقيه مفتوحاً إلى الغد ؟

ـ ولكن كيف تمكنتما من فتحه ؟

قص عليه نادر عند ذلك جميع ما اتفق له ولروكامبول مع حسن وكيف احتالا عليه حتى فتح الباب .

فقال الكاهن . اني لا أعرف سر قفل الشيخ حسن ولكن إذا أقفل بابه فاني افتح بابي وكلاهما يؤديان إلى الكنز . ألم تفتح باب السرداب بزلاج حين كنت في قبو حسن ؟

ـ نعم .

ـ وأنا أستطيع رفع الزلاج من داخل السرداب وفتح البـــاب الثاني فلا يمنعنا اقفال باب حسن عما نريد .

ـ إذن تعالى معنا .

ثم فتح نادر باب المعبد المؤدي إلى السرداب ونزل الثلاثـة منه فساروا يسترشدون بالحبل حتى وصلوا إلى مكان الكنز .

فكان البابان مفتوحين وهما باب السرداب أي باب الكاهن وباب حسن الذي يتصل اليه من قبو منزله .

فقال الكاهن : ادخلا الآن إلى قبو الكنز واقفلا الباب وانا أبقى خارجاً في السرداب وسترى كيف أفتح الباب .

فدخل نادر وروكامبول واقفلا الباب ووضعا الزلاج مكانه ووقفا ينتظران أما الكاهن فانه جعل يبحث في الظلام من الخارج عن باب خفي فلما عثر به أداره فارتفع الزلاج وفتح الباب فدخل الكاهن وقال لنادر : أرأيت كيف اني فتحته ؟

قال نادر: لم يبق علينا خوف من إقفال باب الشيخ حسن فتعال معنا الآن.
وكان حسن لا يزال صريع الأفيون فأخرجوه من القبو وأقفلوا باب الكنز وأعادوا حجر القفل إلى ما كان عليه ثم صعدوا بحسن إلى منزله .

فقال روكامبول : ماذا نصنع بحسن فانه مجنون ولا نأمن فلتات لسانه ؟
فقال نادر : إننا سنرسله إلى محل أمين .
— ولكنه نائم .
— لا بأس فسنرسله في مركبة مقفلة .
ثم أمر الكاهن أن يذهب ويأتيه بمركبة مقفلة فامتثل وعـــاد بها بعد حين وجيز .

- ٢٦ -

ولما جاءت المركبة حملوا حسن اليها وصعد الكاهن بعده فقال روكامبول لنادر : أين نذهب الآن ؟
- يجب أولاً أن نحكم إقفال المنزل ثم تسير معي إلى منزلي .
— ألك منزل في كلكوتا ؟
— نعم وستكون فيه بمأمن من خيانة تريبورينو.

ثم دنا نادر من الكاهن وكلمه بلغتهم المقدسة السرية كلمـــات لم يفهمها روكامبول وأشار له إشارة فانطلقت المركبة .
فقال له روكامبول : إلى أين أرسلت الشيخ ؟

— إلى المعبد الذي كنا فيه فإن الانكليز أنفسهم لا يدخلون معابدنا ، ومهما بلغت جسارة تريبورينو فهو لا يستطيع التفتيش عن الخياط فيه .
ثم أقفل نادر المنزل ونادى تلك الفتاة التي كانت لا تزال مقيمة عند عتبة

الباب المجاور فقال لها . إذا سأل أحد عن هذا الشيخ فقولي له ان أهله ذهبوا به إلى منزلهم لمعالجته .

وهذا هو مفتاح المنزل فابقيه عندك إذ قد يتفق أن يعود الجنود للبحث في هذا المنزل لاعتقادهم ان الشيخ حسن خبأ فيه كنزه فاذا عادوا فاعطهم المفتاح وليبحثوا قدر ما يشاؤون إذ لا يوجد شيء مما يتوهمون .

ثم تركها وانصرف مع روكامبول إلى المدينة البيضاء .

ولكنهما قبل أن يجتازا المدينة السوداء مرا بخمارة ووقفا عند بابها فرأى روكامبول دليلاً جديداً على مبلغ نفوذ نادر ، ذلك أن صاحب الخمارة أسرع اليه حين رآه وركع أمامه مقبلاً الأرض

فأمره أن يقف ثم دخل مع روكامبول إلى أحد غرف الخمـارة المعتزلة وخلع ملابسه الهندية ولبس ملابس الافرنج ثم نظر إلى روكامبول وقال له وهو يبتسم : العلك منذهل مما تراه؟

— لا أنكر عليك فانك قد تغيرت كل التغيير بهذه الملابس حتى لا يشك من يراك انك من الأوروبيين .

— اني كنت أقيم في لندرا وباريس بهذا الزي .

— كيف ذلك ، أسكنت في باريس ؟

— نعم وكنت مقيما فيها في فندق موريس ، واتمشى في القهوة الانكليزية حتى انه كان لي فيها حكايات غرام فقد عشقتني إمرأة تدعى روميا .

فصاح روكامبول صيحة اندهال فقال له نادر : ما سبب انذهـالك العلك عرفت هذه المرأة ؟

— لا أعلم ، اليس لها إسم آخر ؟

— نعم فانها تلقب بالبستانية الحسناء واني أرى من توالي انذهالك انـك تعرفهـا . .

— أعرف عنها أنها من أجمل النساء، ولكن ليست الحية السوداء التي تسمى

في غابات هندكم بأشد خطراً منها ..

– هو ما تقول فاني أعلم من هذه المرأة فوق ما تعلم ولكنها لا تخـاف في الوجود غير رجل واحد .

– ومن هو هذا الرجل ؟

– هو أنا ، وسأقص عليك جميع ذلك حين نصل إلى المنزل .

ثم عاد إلى ملابسه حتى أتم تنكره على ما يريد .

أن في الهند جنسين من الناس أحدهما الهندي البحت الذي لم تمتزج دماؤه بدماء الافرنج ، وهذا الجنس يشبه لون بشرته لون النحاس .

والجنس الآخر هو الجنس الذي تزوجت أجداده بنساء الانكليز فجـاء أحفادهم بيض الوجوه .

أما نادر فقد كان من هذا الجنس الأخير المختلط ، فلمـا لبس الملابس الأوروبية أصبح كأنه من الانكليز أنفسهم .

ولما أتم تنكره قال : هلم بنا الآن .

وخرج الاثنان من الخمارة وذهبا إلى المدينة البيضاء ، وكانت تتـألق في شوارعها المصابيح .

حتى إذا وصلا إلى آخر شارع الحكومـة ، وهو أعظم شوارع كلكوتا ، وقف نادر عند باب حديقة متسعة فأخذ مفتاحاً من جيبه وفتح الباب فأسرع خادمان من الهنود إلى استقباله

وقد عرف روكامبول من طريقة استقبالها لمولاهما انهما يعدانه من أشراف الانكليز ولا يعلمان أنه زعيم أبناء سيوا

فأخذ الهنديان مصباحين وسارا في تلك الحديقة أمام نادر وروكامبول حتى بلغا الى البيت فدخل نادر بصديقه إلى قاعة متسعة مفروشة على النسق الانكليزي ، فجلسا قرب مائدة وقال له : لنشرب الآن الشاي ثم أخـبرك بقصتي مع البستانية الحسناء .

وعند ذلك أمر أحد الخدم باللغة الانكليزية أن يحضر الشاي فلما أحضره بدأ نادر يقص الحكاية قائلاً :

- ٢٧ -

إن الهند مثل جميع البلاد التي يجتاحها الفاتحون ويتعاقب عليها الغزاة وتتوالى فيها الغارات الأجنبية ، فإن تتابع هذه الغزوات تكثر فيها الأحزاب السياسية والعقائد الدينية .

وهي مختلفة المنازع فانك تجد بين أحزابها من يؤيد السيطرة الانكليزية وبينهم من يحاول طرد الانكليز ، وهنا فريق يدافعون عن استقلالهم ولا يخضعون إلا لزعماء يختارونهم من بينهم ، وهناك جماعات لا تخضع إلا لامراء الهند، إذ يجدون أحكامهم أخف وطأة من أحكام الانكليز ، إلى غير ذلك من الأحزاب المتشعبة والمنازع المتفرقة.

ولذلك تجد في الشارع الواحد من شوارع كلكوتا عابد الآلهة كالي وعابد الإله سيوا والبوذي بجانب البراهمي والمسلم إزاء المسيحي .

ومن أجل ذلك أيضاً حجبت السياسة ببراقع الدين فانك قد تجد كاهناً من عباد سيوا وهو لا يعتقد بسيوا وتجد زعيما للخناقين لا يؤمن بالآلهة كالي لأنهم إنما يستخدمون هذه الأديان لبلوغ مآربهم السياسية .

على ان أشد هذه الطوائف الدينية واعظمها سلطة ونفوذاً طائفة الخناقين وطائفتي .

وقد رأيت علي رجاه لأنك أنت الذي سلمته للانكليز فعرفته هندياً ظريفاً ، وعرفت في لندرا السير جمس نافلي ، والسير جورج ستوي ، فوثقت أن بين الخناقين رجلاً من الذين يشار اليهم بالبنان في المجتمعات العالية

والنوادي الشريفة .

فقاطع روكامبول نادر قائلاً : من أين علمت اني عرفت السير جمس ، والسير جورج ستوي ؟

فابتسم نادر واجاب : لأني أتيت إلى لندرا بعد ان برحتها بثلاثة أيام ، وذلك منذ عامين وعلمت هناك ان جماعة ادعوا انهم من أبناء سيوا القوا الرعب في قلوب الخناقين .

وكنت أتيت إلى لندرا لمقاومتهم فيها ورأيت أنهم قد غابوا وتضعضع شملهم وأردت أن أعلم من هو هذا الغالب الجريء .

ان الانكليز والفرنسيين مهما بلغ بوليسهم من الذكاء والتفنن في استطلاع الخفايا ، فانهم لا يذكرون بازاء الهندي ، ولذلك فاني لم أقم في لندرا ثلاثة أيام حتى عرفت كل شيء بمساعدة هنديين قدما معي من الهند .

فانذهل روكامبول قائلاً : كيف عرفت كل شيء ؟

— نعم عرفت كل شيء حتى اسمك ، فانك فرنسي ، وقد انتحلت اسماً روسياً وهو الماجور أفاتار ، اليس كذلك ؟

- نعم ..

— ولكن اسمك الحقيقي روكامبول ؟

فاضطرب واجابه : أتعرف هذا أيضاً ؟

— بل أعرف أنك كنت من المجرمين ومن شر رجال الاثم والموبقات ، ولكنك تبت إلى الله توبة صادقة وأصبحت من أهل الخير والصلاح فدفعت كثيراً من الآثام بفضل ذكائك وبسالتك .

فانحنى روكامبول شاكراً لهذا الثناء .

وعاد نادر الى حديثه فقال : اني عرفت في لندرا جميع ما فعلته وعرفت

كيف أنك أخذت معك إلى باريس السير جورج ستوي زعيم الخناقين السابق في اوربا و كيف ان إمرأة مخلصة لك جذبت بمحاسنها ودهائهـــا السير جمس خليفة جورج ستوي في الزعامة .

إنك دمرت سلطة تلك الجمعية الهائلة وقضى أسرك لعلي رجاه على كل سلطتها في اوربا ، لكنها عادت الى تنظيم شؤونها وستعود إلى ما كانت عليه من الشرور الهائلة والآثام الفظيعة .

– وبعد لندرا الملك تبعتني إلى باريس ؟

- لم أتبعك على الفور

– لماذا ؟

– لأني كنت في حاجة إلى تنظيم جمعيتنا فانه يوجد لنا أعداء الداء في نفس عاصمة الانكليز .

– ولكنك بعد ذلك اجتزت المضيق واتيت باريس .

– نعم فقد جئتها بعد شهر من سفرك بعلي رجاه إلى الهند .

– وكم اقمت فيها ؟

– ستة أشهر .

– وفي هذه المدة عرفت البستانية الحسناء ؟

– نعم فاصغ الي الآن ..

وعند ذلك قرع باب القاعة التي كانا فيها ودخل خـــادم فسأله نادر : ماذا تريد ؟

– ان على الباب يا سيدي رجلا هندياً أبيض الشعر يريد أن يراك .

- قل له يحضر في الغد ..

– أنه يلح في مقابلتك وقد طلب مني أن أذكر لك اسمه .

– ماذا يدعى ؟

– كوريب ..

فارتعش نادر عند ذكر اسم الكاهن ، وطلب من الخادم ادخاله .

وبعد حين دخل الكاهن كوريب وعلى وجهه ملامح الاضطراب الشديد فأطلق نادر سراح الخادم وسأل الكاهن · ماذا دهاك ولماذا هذا الاضطراب ؟

– اني فقدت شارتي .

– أية شارة ؟

· الشارة التي أعلقها في عنقي .

فقطب نادر حاجبيه وقال لروكامبول باللغة الفرنسية : ان الشارة التي يتكلم عنها هي قطعة من النحاس يعلقها في عنقه بشريطة من الحرير وهي العلامة التي يعرف بها أنه كاهن ، فإذا اجتمع أبناء سيوا للصلاة في المعبد فلا بد له من اظهار هذه الشارة وإلا قتلوه .

– كيف ذلك ؟

– ذلك لأننا لا نستطيع استعباد هؤلاء الناس إلا بمثل هذه الأوهام والخرافات ولذلك فلا بد من إيجاد الشارة المفقودة .

ثم التفت الى الكاهن وسأله : اين فقدت الشارة ؟

– في بيت الخياط ..

– إذاً إذهب الى البيت وابحث عنها فيه وخذ مفتاحه من الفتاة المقيمة في البيت المجاور .

فانصرف الكاهن والرعب ملء فؤاده ، وعاد نادر الى تتمة حديثه مع روكامبول ..

أقمت في باريس أدرس أخلاق قومها وعاداتهم ، لأني لم أكن أتيتها من قبل فكنت أتنقل بين قهاويها ونواديها وملاعبهاوحدائقها العمومية وكل مكان يجتمع فيه الناس .

وقد ذهبت ليلة الى الأوبرا فرأيت في أحد ألواجها إمرأة لم تقع العيون على أبدع منها .

فجعلت أنظر اليها نظر المعجب بهذا الجمال النادر ، وقد ملكت شغـــافي وخلبت فؤادي بمحاسنها الفتانة .

وبينما كنت أنظر اليها رأيت أنها تنظر إلي نظرات لا تختلف عن نظراتي ، كأنها كانت تستحسن مني ما استحسنت منها .

ولقد كان يقـال لي ان لنظراتي سلطـة سرية ، تجذب اليهـا أقسى النفوس .

فما تحققت هذا الكلام إلا في تلك الليلة ، لأن هذه المرأة كانت تضطرب حين أنظر اليها إضطراب الحمامـة إذ رأت بازياً ينقض عليها ، حتى خيل لي أني إذا أشرت اليها إشارة بيدي تركت لوجها وأسرعت إلي وهي تقول : مر أطع .

ولما انتهى التمثيل ، خرجت وصدري يلتهب غرامـــاً ، فقلت في نفسي : إن النساء الأوروبيات لا ذمام لهن ، فلأسـلو هذه المرأة بشرب الحشيش .

ثم ذهبت الى فندق موريس الذي كنت مقيماً فيه متنكراً باسم أرثر كولدري ، وهو الاسم الذي أدعى به هنا ايضاً حيث أقيم في المدينة البيضاء ، فإن جميع قومها يحسبونني من أعيان الانكليز ولا يخطر لأحد في بال انني نادر رئيس أبناء سيوا الأكبر .

ولما وصلت الى الفندق دخلت الى غرفتي فلم أستطع الرقاد ففتحت النافذة وجعلت أنزه طرفي في الحديقة .

ومرت بي الساعات حتى أشرق الصبـاح ، وأنا واقف قرب النافذة ، أتأمل محاسن هذه الحسناء ، فما شككت أن حبها قد جرى مجرى دمي في مفاصلي .

وفيما أنا على ذلك وقد أشرقت الشمس وملأت بأشعتها الفضاء إذ طرق باب غرفتي ودخل إلي الخادم برسالة

ولم أكن أعرف أحداً في باريس لأني لم أكن فيها إلا منذ ثلاثة أيام ، فعجبت لهـذه الرسالة وأسرعت إلى فضها ، فقرأت فيها باللغة الإنكليزية ما يأتي :

« إذا كانت المرأة التي كانت أمس في الأوبرا قد أثرت بعض التأثير على السير أرثر كولدري ، وإذا كان السير أرثر كولدري شجاع القلب عزيز النفس كتوم اللسان فليحضر في الساعة العاشرة من مســاء اليوم وراء الكنيسة الكائنة في الشارع الكبير وهي كنيسة مدلين .

« وهناك يجد إمرأة غير المرأة التي رآهـا في الأوبرا ، ولكنها هي التي أرسلتها فليتبعها » .

ولم يكن للرسالة توقيع فكدت أطير من الفرح ، وجعلت أعد دقائق النهار وساعاته بفارغ الصبر حتى حسبتها كالأدهار .

ثم انقضى النهار وأقبل الليل وأتت ساعة الاجتماع فأسرعت الى المكان المعين فرأيت إمرأة مبرقعة الوجه دنت مني حين رأتني فقالت لي باللغة الانكليزية : أأنت السير أرثر ؟

فأجبتها بصوت يتهدج : نعم انا هو .

— أترضى ان تتبعني ؟

— إلى آخر الأرض .

فأخذت بيدي وسارت بي الى عطفة في الشارع .

وكانت هناك مركبة فأصعدتني اليها ثم صعدت بعدي ، فجلست بجانبي وأرخت ستائر المركبة وقالت لي . عليك شرط لا أستطيع ان أسير بك إلا إذا وافقتني عليه .

- ما هو ؟

- لا بد لي من عصب عينيك .

- لماذا ؟

- كي لا ترى فلا تعلم المكان الذي أذهب بك اليه .

- أعصبي عيني كما تشائين إني مستعد لكل شيء

فعصبت عيني ، وأمرت السائق بالمسير .

فسارت بنا المركبة نحو ساعة .

وكنت حديث العهد بباريس وشوارعها فلم أعلم أين انا .

وما زلنا نسير حتى شعرت من صوت المركبة انها دخلت تحت قبة ، ثم شعرت انها وقفت .

فقالت لي المرأة : لقد وصلنا هات يدك .

- إذا كنا قد وصلنا فلماذا لا ترفعين العصابة عن عيني ؟

- لم يحن الوقت بعد ، أخرج الآن من المركبة .

فنزلت وقادتني بيدي الى حيث لا أعلم

ولكني كنت أشعر اني أمشي فوق الرمل، ثم تلا هذا الرمل سلم فاجتزناها وشعرت ان الهواء قد خفت رطوبته . ثم شعرت اني أمشي فوق طنافس مفروشة في الأرض ، وبعد فتح باب ودخلنا منه فرأيت من خلال العصابة نوراً نافذاً .

وعند ذلك قالت لي المرأة : إرفع العصابة الآن عن عينيك .

وتركت يدها من يدي فسمعت خطواتها تبتعد عني .

وأستطرد نادر حديثه فقال :

- ٢٩ -

فتحت عيني فوجدت نفسي في غرفة نسائية، تدعونها أنتم معاشر الإفرنج، غرفة الزينة .

وكانت رائحة الطيب تفوح من الغرفة ، وقد فرشت أرضها بأفخر أنواع الطنافس وهي مزدانة بأجمل الرياش وأدق المصنوعات ، مما يدل على الثروة وحسن الاختيار .

ولما فتح الباب وخرجت منه المرأة أقفل حالاً ، ورأيت نفسي وحدي في الغرفة .

ولكن قلبي كان يحدثني بأن إلهة هذا المنزل تدنو من الغرفة التي أنا فيها وقد صدق حديث قلبي . فما مرت بضع ثوان حتى رأيت سجفاً كان يستر باباً قد أزيح ، وبرزت منه تلك الفاتنة التي شغلت قلبي بجمالها وبت بها من المغرمين .

وقد دخلت وهي تتهادى دلالاً وتبتسم ابتساماً يفتن النساك فمدت يدها الي وقالت لي باللغة الإنكليزية الحق يا سيدي إنك رجل شريف ، فقد رضيت بجميع شروطي .

فوقفت أتأمل تلك المحاسن الجاذبة ، وقد شغلت عن رد سلامها . فكان شغلي عنها بها .

أما هي فإنها جلست على مقعد شرقي وأجلستني بجانبها ، ثم نظرت إلي وقالت : أسألك العفو يا سيدي لقد جرت عليك بعصب عينيك على فرط ثقتي

باخلاصك ووفائك ، غير اني فعلت ذلك مكرهة مضطربة فإني معرضة نفسي بحبك لخطر الموت .

– كيف ذلك ؟

– نعم إن زوجي غيور وإذا علم بأمري لا أنجو من الموت .

– هذا شأن أغلب الأزواج يا سيدتي هل تريدين ان أقتله ؟

– لقد راق لي كلامك ، وهو يدل على ما توسمته فيك من البسالة .

ثم ابتسمت وقالت : كلا ، لا أريد ان يموت هذا الزوج ، ويكفيه ما هو فيه .

وكانت في تلك الغرفة التي تقيم فيها آنيتان غرست فيهما أزهار علمت من عطرها أنها أزهار هندية وقلت في نفسي : لا شك أنها عرفت من أنا فاختارت تلك الأزهار إرضاء لي ، وهي غاية ما تتناهى اليه سلامة الذوق .

غير ان رائحة الأزهار كانت شديدة حتى إني كنت أشعر أنها تفعل بي ما تفعل الخمر في رؤوس الشاربين .

وكانت جالسة بجانبي ووضعت يديها بين يدي وجعلت تبتسم لي ابتساماً حلواً وتقول . إني ما رأيتك غير ساعة أمس في الأوبرا ، ولكن قلبي تحت مطلق سلطانك .

فأجبتها بما أملاه علي الغرام من عبارات الحب الصادق .

وفيما أنا أناجيها وأغازلها قاطعتني فجأة وقالت : اني غريبة الأطوار كثيرة التقلب ولكني قد أحبك حباً طويلاً فهل تحبني أنت ؟

إني أحبك حباً لا تصفه أقلام الشعراء .

– أتثبت في حبي ؟

– ما بقي لي ذرة من الحياة .

فأطرقت هنيهة إطراق المفكر ثم قالت : لقد طالما سمعت مثل هذا الكلام ثم أسفرت الأيام عن ضده . ولكن يقال أنكم معشر الانكليز موصوفون

بالثبات وسنرى .

وأقمت معها ساعتين وأنا أسكر سكرين من ألحاظها وأزهارها .

ثم تغلبت رائحة الأزهار علي ، ونمت نوم السكران ، وأنا لا أعي على شيء

غير أنه خيل لي حين أطبقت عيني اني رأيت باباً قد فتح وبرز منه رجل أصفر الوجه نحيل يشبه الخيال ، فوقف على عتبة الباب ونظر إلي نظرات تشف عن الرعب والغضب .

ولم أعد أفقه شيئاً بعد ذلك ، إذ أطبقت عيناي ، واستغرقت في سبات عميق .

ولما فتحت عيناي شعرت بهواء بارد يهب على وجهي ، ويرتجف له كل جسمي .

ذلك اني وجدت نفسي نائماً على مقعد من مقاعد المنتزهات العمومية في باريس لا يظلني غير السماء .

وكان ذلك عند بزوغ الفجر فانتبهت مذعوراً مضعضع الرشد ولكن لم يطل بي الأمر حتى جمعت حواسي وذكرت حوادث ليلتي .

وكانت يدي موضوعة في جيبي كأنها وضعت خاصة وشعرت بأنها تلمس ورقة وأخرجت الورقة فاذا هي رسالة ففتحتها وقرأت ما يأتي :

« أخيرك بين أمرين وهما إما ان نفترق فراق الأبد فلا تراني بعد الآن او تقبل بشروطي .

« أنظر في خبايا قلبك واستشر فؤادك ، علك تجد من غرامه ما يدعوك الى الامتثال .

« واعلم انك إذا رضيت ان تكون عبداً لي أكون أمة لك .

« وشروطي هي ان لا تبحث كي تعرف من انا وأن تذكر اسمي أمام احد من الناس .

« ومن شروطي انك مهما رأيت من الغرائب في منزلي ، لا تحاول اكتشاف أسرارها وتنظر اليها نظرك الى الأمور العادية المألوفة .

« هذه هي شروطي ، وإذا راق لك الخضوع لها إحضر في الساعة العاشرة من مساء اليوم الى نفس المكان الذي أتيت اليه أمس تجد تلك المرأة نفسها تنتظرك في مركبتها وتحملك إلي .

« إذاً الوداع او الى اللقاء ، ولك الخيار » .

« روميا »

فقلت في نفسي حين قرأت الكتاب : اني ذاهب دون شك لان جمال هـذه المرأة لا يزال ضاغطاً علي وفوق ذلك فقد ذكرت ذلك الباب الذي فتح وذلك الخيال الذي ظهر منه ونظر إلي تلك النظرات ، فهـاج مني حب الاستطلاع وقلت : لا بد لي من الذهاب

- ٣٠ -

وفي المساء ذهبت الى الملتقى ، فرأيت المرأة نفسها في المركبة ، فعصبت عيني كما فعلت في الليلة السابقة ، وسارت بنا المركبة في الطريق التي سارت فيها ليلة أمس .

وجعلت أفتكر والمركبة سائرة بنا في أمر هذه المرأة فقلت في نفسي: إنها تريد ان تحبني بشرط أن لا أحاول الوقوف على أسرارها وهو شرط عادل لأن لكل إنسان حقاً بصيانة أسراره ، ولماذا لا أطيعها ؟

وكنت وأنا أفكر هذا التفكير مخلصاً لها عازماً عزماً أكيداً على الوفاء بوعدي وان لا أتعرض لشيء من أسرارها

ثم وقفت المركبة ، وأخذت المرأة المبرقعة بيدي ، وأدخلتني الى ذلك

المنزل السري .

وقد حدث كل شيء كما حدث في الليلة السابقة فاني دخلت الى الغرفة ورأيت النور من خلال العصابة وأمرت بنزع العصابة عن عيني فلما نزعتها وجدت نفسي منفرداً في نفس الغرفة التي كنت فيها امس .

وقد وجدت الآنيتين في موضعهما ودنوت منهما وجعلت أفحص الأزهار فحص الخبير وعلمت ان كل نوع منها خاص للتنويم .

وكنت أعرف هذه الأزهار من بلادنا وعلمت ان رائحتها إذا دخلت الى الرئتين لا يستطيع من يشمها مقاومة النوم مهما بذل من الجهد .

غير اني علمت ان لهذه الأزهـــار دواء خاصاً ، إذا شربه من يشمها أبطل تأثيرها .

ولكن اين لي ان استحضر الدواء وانا في الغرفة شبه سجين فقلت لا بد من الصبر الى الغد لاكتشاف تلك الأسرار .

وأقمت في الغرفة وحدي عشر دقائق ثم أقبلت روميا فتمثلت لعيني أجمل مما رأيتها امس وكان لي معها ما كان في تلك الليلة لأن الدوار جعل يتولاني شيئاً فشيئاً من رائحة الأزهار وطرت من عالم الحقائق الى عالم الأحلام ورأيت ذلك الخيال الذي برز لي أمس .

غير انني في هذه المرة سمعت الخيال يتكلم ولا أدري إذا كان ذلك لأن الأزهار لم تؤثر تأثيرها امس ، او ان الخيال جاء حقيقة ، او إذا كان ذلك مما مثلته لي سكرة الأزهار .

أما ما سمعته فهو ان الخيال دنا من روميا وقال لها بصوت يتهدج : إن قلبك لا يعرف الرحمة والإشفاق .

فكان جواب البستانية الحسناء انها ضحكت ضحك الهازىء

اما الخيال فقد سمعت وانا مطبق العينين انه ركع امامها وقال لها : لكنك تعلمين اني احبك .

ولم تجبه بل انها ضحكت ضحكاً عالياً .

ولم يكن قد بقي لي من حواسي غير حاسة السمع ، فسمعت الخيال يقول : ألا يكفيك انك تصدين غرامي ، فما بالك تقطعين قلبي بالغيرة وتعطفين على هذا الرجل امامي ؟ إنك لست من النساء ، بل انت حيوان مفترس .

وعادت روميا الى الضحك دون ان تجيب

اما انا فإنني بذلت كل ما في وسعي من الجهـــد ، كي أفتح عيني ، فذهب جهدي عبثاً وبدأ الطنـين في اذني ، فلم اعد اسمع غير اصـوات متقطعة من الخيال تدل على يأسه ، واصوات ضحـك المرأة وهزئها بهذا الرجل المنكود .

ثم تغلب علي النوم فلما استيقظت وجدت نفسي على مقعد خشبي في حديقة الشانزليزيه ورأيت في جيبي رسالة موجزة كتب فيها ما يأتي :

« الى اللقاء في هذا المساء في نفس الساعة والمكان . احبك » .

« روميا »

وعدت الى الفندق وقلت في نفسي سأعرف هذه الليلة كل شيء .

ولقد تقدم لي الكلام اني عرفت سر تلك الأزهار واني اعرف الدواء الذي يبطل تأثيرها .

فاستحضرت هذا الدواء ، وعزمت على الذهاب الى تلك الحسناء لوثوقي من كشف اسرارها .

ولما حانت الساعة المعينة ذهبت الى ما وراء كنيسة مدلين وركبت المركبة مع المرأة المبرقعة التي كانت تنتظرني وذهبت معها الى روميا .

وهناك رفعت العصابة فلم اجد احداً ووقفت عند الأزهار اراقبها .

وقد لقيت في الانيتين أزهاراً هندية ، ولكنها كانت غير الأزهار التي عرفتها امس ، واستحضرت الدواء الخاص لإبطال تأثيرها . فأيقنت ان لا

فائدة من هذا الدواء ، وان هذه المرأة الهائلة قد رأتني امس اراقب ازهارها فتوقعت ما فعلته واستبدلتها بسواها .

- ٣١ -

ولم يعد يخطر الدواء ببالي ، ولم اكن اريد استعمال العنف معها حذراً من العواقب ، لأني ما اتيت باريس لمثل هذه الشؤون

ثم خطر لي ان لهـــذه المرأة مطلق الحق بكتمان اسرارها ، لا سيما وانها اشترطت علي ان لا أتعرض لها، ورضيت بشروطها فإذا حنثت بعهودي أكون من الخائنين .

غير ان هذا الخيال الغريب ومظاهر يأسه وسائر أحواله قـد أثرت علي تأثيراً شديداً وهاجت بي عواطف الفضول فتغلبت على عهودي .

وكنت واثقاً ان الزهور الجديدة التي وضعتها روميا في الآنيتين ستؤثر بي نفس تأثير الزهور السابقة ، وانه لا سبيل إلى اتقاء تأثيرها ولا بد لي من النوم كما نمت من قبل .

فتأملت هنيهة ووضعت خطة للاستطلاع رأيتها ميسورة وذلك اني رأيت وراء الانيتين ستائر من الحرير ووراء الستائر نافذة من زجاج .

فأزحت الستائر وقطعت الزجـــاج بخاتم من الماس ووضعت القطعة التي كسرتها على الأرض برشاقة واعتناء فنفذ الهواء الى الغرفة ، والهواء الطلق خير واق من تلك الأزهار .

ثم أعدتَ الستائر إلى ما كانت عليه إخفاء للثقب وعدت الى مكاني أنتظر عودة تلك الحسناء .

وبعد حين فتح الباب ودخلت ولكنها لم تكن تبتسم حسب عادتها بل كنت

أرى النار تتوقد في عينيها

ومع ذلك فإنها جلست بقربي وقالت لي ببرود : إنك يا سير ارثر كولدري رجل سافل دنيء

فوقفت عند هذه الأهانة ، كأني قد تكهربت وقلت : سيدتي ! ماذا تقولين ؟

— أقول إنك رجل سافل ، لأنك نكثت بعهودك ولم تف بما تقيدت به من العهود .

فجعلت أنظر اليها نظرات الذهول دون ان اجيب .

أما هي فإنها استأنفت الحديث وقالت لي بلهجة ذكرتني هزئها بالخيال : إنك اردت ان تعرف ما منعتك عنه من أسراري .

— نعم ..

— ولذلك كسرت زجاج النافذة كي يدخل الهواء الطلق الى الغرفة فيمنع تأثير الأزهار ولا تنام بحيث تستطيع ان ترى الخيال ، اليس كذلك ؟

ثم ضحكت ضحكاً مغتصباً دل على مبلغ انفعالها وقالت : نعم انك سوف تنظر ما تريد ان تنظر ولكنك لا تنظر شيئاً بعده .

فقلت في نفسي إن هذه المرأة تؤنبني أشد تأنيب ولكن لا سبيـــل إلى اعتراضها فإنها مصيبة وإنما الذنب علي لنكثي عهودي .

وعادت روميا الى الحديث فقالت : إنك تريد ان تعرف يا سير أرثر هذا الرجل الذي أعذبه وأصليه نار حقدي وانتقامي . إذاً ، إعلم ان هذا الرجل يحبني وانه قتل من أجل حبه لي الرجل الذي كنت أهواه . العلك راض الان عن هذا الإقرار ؟

فخجلت لفضولي وعلمت إساءتي الى هذه المرأة فقلت لها : أسألك العفو يا سيدتي فلا أعود الى الفضول بعد الان .

فقاطعتني وهي تضحك ضحك الساخر وقالت : إنك تكلمني عن المستقبل

كأن المستقبل لك ولكن هيهات لقد فات الأوان

ثم قرعت جرساً كان أمامها وقالت لي وانا أنظر اليها مبهوتاً . إني لا احب يا حضرة السير ارثر ان تفشي أسراري ولذلك حكمت عليك بالموت .

ولم تكد تتم كلامها حتى فتح الباب ودخل منه رجلان وانقضا علي .

وإني أعهد بنفسي قادراً على مقاومة إثنين غير ان هجومهما علي كان فجأة دون انتظار فلم أتمكن من الدفاع .

والقياني على الأرض قبل ان أراهما .

وعند ذلك قالت لهما روميا بملء البرود : تعلمان إني لا احب الدمـــاء ، أخنقاه خنقاً .

فأخذ احد الرجلين العصابة التي عصبت بها المرأة عيني في الطريق ، ولفها على عنقي .

ولكنه قبـل ان يضغط على عنقي التقت عيني بعينيـه ، وصاح كلانا صيحة واحدة .

فقلت : هذا أنت يا ناجلي ؟

– من أرى ، أأنت الرئيس ؟

ثم نهض عني لفوره وقال لرفيقه : قم عنه ، هذا هو الرئيس .

فنهض الرجل مذعراً وجعل الاثنان يفكان قيودي .

اما روميا فإنها بهتت ونظرت الى الرجلين وقد وقفا امامي وقفة الاحترام فاضطربت وقالت : ويحكما ايها الشقيان ماذا تفعلان ؟

فقال لها ناجلي : إنه الرئيس !

ثم نظر إلي وقال : اتريد ان أقتل هذه المرأة ؟

فاتقدت عيناي عند ذلك ولم أعد ذلك الشريف الإنكليزي الخامل ، بل صرت الرئيس الهائل . فنفذت نظراتي النارية كالسهام الى الهندي وروميا وطأطأ كلاهما الرأس يسألان العفو .

- ٣٢ -

وهنا اختلف مقامنا وصارت العبدة وصرت السيد .

أما ناجلي فانه بعد أن التمس مني العفو جرد خنجره وركع أمامي فقال: أيجب أن أقتل هذه المرأة ؟

- كلا ، إذهب الآن وإذا احتجت اليك ناديتك .

وخرج ناجلي مع رفيقه وبقيت مختلياً مع روميا .

وكانت روميا تضطرب لنظراتي اضطراب الحمامة لنظرات الباري وتتوقع صدور حكمي . ولعلها أول مرة في حياتي لقيت مثل هذا الخوف .

فوضعت يدي على كتفها وقلت لها : من حسبت أني أكون ؟

فنظرت إلي مضطربة وقالت بصوت يتهدج ، لا أعلم من أنت ولكني مـا خضعت لنظرات رجل في حياتي كما أخضع الآن لنظراتك السحرية .

فابتسمت وقلت : كيف استخدمت هذين الرجلين ؟

- جئت بهما من الهند .

- العلك ذهبت إلى الهند ؟

- نعم ...

- متى ؟

- منذ خمسة أعوام ..

- ما كان غرضك من الذهاب اليها ؟

- معرفة طبائع الزهور السامة ودرس السموم على اختلافها .

- ولماذا التعذيب لهذا الرجل الذي لقيته عندك في الليلة الماضية ؟

- نعم ؟ ليس لي على سؤالك من جواب ..

- إذن تكلمي فاني أريد أن أعرف كل شيء.

وكانت واقفة أمامي مطرقة الرأس يدل إصفرار وجهها على ما لقيته من الخوف .

ثم ظهر انها قد تغلبت على خوفها ، فانها تجاسرت على النظر إلي وقالت :

من أنت أيها الرجل الذي يركع أمامك رجلان كنت أحسب أنهما يؤثران الموت على عصياني ؟

– لست انكليزياً بل أنا هندي واسمي نادر .

ورأيت أن اسمي لم يؤثر عليها فقلت لها سلي عني ناجلي يخبرك من أنا !

ثم ذهبت إلى النافذة التي كسرت زجاجها ففتحتها وجعلت أستنشق الهواء الطلق .

وكانت النافذة تشرف على حديقة فقلت · أين أنا ؟

– أنت في منزلك . .

وكانت نبرات صوتها حين قالت هذا القول تدل على الاخلاص الأكيد ، والحب الصادق ولعلها قدرت نفوذي وسلطاني عليها .

فتولدت في نفسها عواطف الخضوع والحب والاحترام لي ، وهي عواطف قد تنطبع في نفس المغلوب إزاء الغالب .

أما أنا فقلت لها بجفاء : اني أريد الخروج من هنا .

فنظرت إلي نظرة كشفت لي خبايا نفسها وقالت : كن من تشاء من الناس ومر بما تشاء فامتثل ، فاني غدوت أمة لك .

– انك أردت لي الموت فلا أحبك بعد الآن .

– ولكن إخلاصي سيشفع بجريمتي وسأتبعك إلى حيث تريد كما يتبع الكلب الأمين مولاه .

فقلت لها بلهجة الآمر : كلا بل أريد أن أخرج من هنا .

فتنهدت تنهداً طويلاً ورأيت الدمع يتساقط من عينيها ولكني تركتها ومشيت إلى الباب وناديت ناجلي

وأسرع إلى تلبيتي فقلت له : سر بي إلى خارج البيت .

والتفت قبل ذهابي فرأيت روميا جاثية وهي تنظر الي ، ولكني لم أحفل بها وخرجت من البيت يتقدمني ناجلي .

ولما وصلنا إلى الشارع قلت له عد إلى البيت وابق في خدمة هذه المرأة

— إذاً ألا تريد أن أقتلها ؟

— كلا ! وانصرفت .

وكان البيت الذي أدخلت اليه معصوب العينين كائناً في الشانزلـيزه كما رأيت عند خروجي منه .

وعرفت الطريق وعدت تواً إلى فندق موريس الذي كنت مقيماً فيـه ، وشعرت إني قد أخطأت مع هذه المرأة ، وأسأت اليها فان الانتقام حق مقدس ومن الظلم أن أحمي ذلك الرجل الذي قتل حبيبها ، فأقسمت على أن أعود إلى هذه المرأة ولا أتداخل بشأن من شؤونها .

وقد توهمت أن حبها زال من قلبي بعد أن أرادت قتلي ، ولكني كنت مخطئاً في هذا الوهم فاني أصبحت في اليوم التالي وأنا أشد بها افتتاناً من قبل .

ولكني تجلدت ونازعت نفسي ثلاثة أيام فما ذهبت اليها ولا حـاولت أن أراها .

وفي اليوم الرابع رأيت باب غرفتي قد فتح في الصباح ودخلت منه تلك البستانية الحسناء .

وهنا توقف نادر عن إتمام قصته مع روميا وقـال لركامبول : سأتمم لك قص هذه الحكاية ، وسأخبرك بما أريده منك اليوم الذي نسافر فيـه إلى أوربا .

أما الآن فقد تقدم الليل وأنت محتاج إلى الراحة لاسيما ونحن في حاجة إلى التفكير بطريقة نقل كنوز الرجاه غداً .

ثم نادى أحد خدمه وأمره أن يذهب به إلى الغرفة التي عينها لمبيته .

وفي مساء اليوم التالي جاء نادر وقال : كل شيء قد تهيأ فهلم بنا .

وكان قد تأهب في النهار واتخذ ما ينبغي من التدابير . فان روكامبول رأى رجلا لم يعرفه قد زاره في منزله .

ولكنه علم ان هذا الرجل الذي كان متنكراً بزي الانكليز لم يكن منهم بل كان من الهنود .

وقد علم انه من أعوان نادر السريين ، وان نادر أصدر اليه اوامر سرية بشأن كنز الرجاه .

وخرج نادر وروكامبول من المنزل فلما كانا في الطريق قال نادر : اني أعددت سفينة في الحوض لنقل الأموال اليها من السرداب السري .

ويوجد في هذه السفينة اثنا عشر هندياً من المخلصين في خدمتي فمتى نقلت الأموال إلى هذه السفينة تخرج بها من الحوض إلى السفينة الكبرى التي اعددتها للسفر بالأموال إلى اوروبا .

فاستحسن روكامبول الخطة واجتاز الاثنان المدينة البيضاء إلى المدينة السوداء حتى انتهيا الى تلك الحارة التي غير فيها نادر زيه .

فدخل نادر اليها وخرج منها بعد حين بملابس الهنود فسار الاثنان الى المعبد حيث كان ينتظرهما الكاهن كوريب .

ولما بلغا منتصف الطريق صفر نادر بفمه صفيراً خاصاً .

وكان هناك رجل هندي نائماً على الأرض فوقف عندما سمع الصفير وأسرع إلى نادر فرآه روكامبول وعرف انه هو ذلك الرجل الذي زار نادر في منزله وهو متنكر بملابس الانكليز .

أما نادر فأنه قال له : ليذهب رجالك تواً الى المعبد .

فانحنى الهندي إشارة إلى الامتثال وتوارى في الظلمات .

وبعد حين وصل الاثنان الى المعبد ، فوقف نادر وقفة الحائر وقال

لروكامبول : أرى المصباح مطفئاً في المعبد .

فقال له روكامبول : أي مصباح تعني ؟

– المصباح الذي يجب أن يضاء ليلاً ونهاراً في المعبد فان اشعته تنفذ عادة من خلال النوافذ ولكني لا أرى شيئاً .

وقد ظهرت على نادر علائم القلق فنـــادى الكاهن كوريب من الخارج مراراً فلم يجب .

وكان لديه مفتاح للمعبد ففتحه ودخل مع روكامبول فلم ير غير ظلمات وجعل ينادي كوريب فلم يجبه غير الصدى .

وعند ذلك انار مصباحاً ومشى به الى وسط المعبد حيث كان باب السرداب السري فاجفل وصاح صيحة يأس وقال يا للخيانة ! .

ذلك انه رأى ذلك البـاب السري الذي ينفذ منـه الى باب قبو الكنز مفتوحاً فما شكك بعد أن رأى انطفاء المصباح المقدس ان الخيـانة حدثت لا محالـة .

فقال لروكامبول : هلم معي فلا حاجـة الى التأمل ، ثم نزل أمامه الى السرداب وبيده مصباح وخلفه روكامبول فسارا في السرداب الذي تقدم وصفه حتى وصلا الى باب القبو الحديدي ، فتنهدا تنهـد المنفرج لأنهما رأيا الباب مقفلاً .

غير أن نادر ادنى مصباحه من الأرض وجعل يفحص التراب فصاح صيحة منكرة وعاد الى الوثوق من الخيانة وسرقة الكنز .

– ماذا رأيت في الأرض ؟

– رأيت أثر أقدام

فأخذ روكامبول المصباح منه وفحص تلك الآثار فحص العارف الخبير فتبين له انها كانت غارقة في التراب مما يدل على أن اصحابها كانوا يحملون احمالاً ثقيلة فتنغرس أقدامهم في الأرض لثقل الوطأة .

ومع ذلك فإن الباب كان مقفلاً فخطر لنادر أن يمتحن إمتحاناً آخر لا يبقى بعده مجال للشك .

وقد ذكر أن الكاهن كوريب قد أدار لولباً في الجدار من الخارج فسقط الزلاج وفتح الباب .

وجعل يبحث عن اللولب مدة طويلة حتى عثر به وأداره وفتح باب القبو على الفور .

ودخل نادر وروكامبول إلى القبو المخبؤ فيه الكنز ولكنهما ما لبثا أن دخلا حتى تراجعا منذعرين واجفين وذلك أنهما لم يجدا أثراً لكنز الرجاه عثمان .

- ٣٣ -

وبعد أن ثابا من دهشتهما الأولى جعل كل منهما ينظر إلى الآخر نظر الحائر المضطرب ، فان القبو لم يبق فيه شيء على الاطلاق من أثر الكنز .

فقال روكامبول : من تظنه سرق الكنز ؟

– إني واثق من وفاء الكاهن كوريب فان الخيانة لا تخطر له في بال ، وإن هذا الكاهن قد احتجب فكيف تمكنوا من الوقوف على سره ؟ إن هذا من المشكلات التي يعسر حلها ولا يتيسر لي إدراكها إلا متى علمت ماذا جرى له ..

وكان باب القبو المؤدي إلى بيت الشيخ حسن مقفلاً وهو من الحديد الضخم فلا سبيل إلى فتحه أو كسره . ولذلك رجع الاثنان على عقبيهما في السرداب ، وبعد نصف ساعة وصلا المعبد .

فجعل نادر يبحث ومصباحه بيده في جميع أنحاء المعبد عن الكاهن

كوريب فلم يجده .

ولما علم أنه لا فائدة من البحث خرج مع روكامبول من المعبد وهو مضطرب البال لاختفاء كوريب والخياط إذا كان أمره بوضعه في المعبد .

وكان هذا المعبد مبنياً في مكان معتزل لا يجاوره غير بعض بيوت معظم سكانها من المسلمين ، وهم لا يكترثون لعبادة سيوا ولا يهتمون بابنائه .

فدنا نادر من البيت المقابل للمعبد وطرق بابه ففتح له رجل بيضت شعره السنون وسأله عما يريد .

فقال له نادر : بأي دين تدين ؟

— أني أؤمن بالله واليوم الأخير .

— العلك تعرف الكاهن كوريب ؟

فابتسم الشيخ وقال :اني أعرفه منذ خمسة وعشرين عاماً وفي كل يوم نلتقي

— أتعرف أين هو ؟

— اني رأيته اليوم آخر مرة عند غروب الشمس وقد دخل إلى المعبد مع شيخ عرفته وهو الشيخ حسن الخياط ثم رأيته خرج وحده .

— وحسن ، أبقي في المعبد ؟

— نعم ..

— وكوريب ، ألم تعلم عنه شيئاً ؟

— كلا ، ولكني رأيته حين خرج من المعبد كثير الاضطراب .

فنظر نادر إلى روكامبول قائلاً : لقد كان اضطراب الكاهن لفقده العلامة وكان في ذلك الحين قادماً الي .

ثم عاد الى محادثة الشيخ فسأله : ألم تر أحداً دخل إلى المعبد ؟

— نعم فقد رأيت في الساعة العاشرة من المساء كثيرين من عباد سيوا دخلوا اليه ، وبعد أن دخلوا أقفلوا الأبواب ثم اطفأوا المصباح .

— اتذكر كم أقاموا في المعبد ؟

فانذهل الشيخ وقال : انهم لا يزالون فيه .
- كيف ذلك ألم ترهم خرجوا منه ؟
- كلا ..
فقال نادر لروكامبول : ان الأمر غريب ولكني عرفت الحقيقة فيما أظن .
- كيف ذلك ؟
- ذلك أنهم دخلوا من المعبد وخرجوا من السرداب .
- نعم ، ولكن جميع ذلك لا يهدينا الى كوريب وحسن .
- ان حسن كان سكران فقد يكونوا حملوه على الأكتاف .
- وكوريب ؟
- سنهتدي الى أثاره من بيت الشيخ حسن .
ثم تركا ذلك الشيخ وذهبا الى بيت الخياط ، وهناك وجدا تلك الفتاة التي أعطاها نادر مفتاح البيت وسألها عن المفتاح .
فقالت له : اني دفعته الى رجل شيخ جاء يطلبه باسمك .
- وماذا فعل .
- انه دخل الى المنزل .
- ألم تريه خرج منه ؟
- كلا ..
فزاد الاشكال وأعجم هذا السر على نادر غير ان الفتاة قالت : لقد دخل في اثره كثير من الرجال .
فقال لها نادر . ومن هم هؤلاء الرجال ، أعرفت أحداً منهم ؟
- نعم عرفت اثنين منهم ، وهما اللذان كانا يتوليان قيادة الجنود الذين كبسوا بيت حسن في طلب الكنز وأخذوا غلامه .
فقال نادر لروكامبول : لقد ظهرت يد تريبورينو ولم يبق مجال للشك .
ثم قال للفتاة : وماذا جرى بعد ذلك ؟

– انهم طرقوا الباب ففتح لهم الشيخ فدخلوا وبعد ساعة خرجوا من المنزل وساروا في طريق الترعة .

والشيخ ؟

– لم أره بينهم وهو في المنزل دون شك .

فتركا الفتاة وذهبا إلى منزل حسن وطرقا الباب فلم يفتح لهما أحد ولكنهما سمعا من ورائه صوتاً يشبه غطيط النائم .

وكان نادر قوي العضل شديد الأعصاب فدفع الباب بكتفه دفعة قوية فانفتح ودخل الاثنان إلى المنزل فوجدا الكاهن كوريب ملقياً على الأرض ووجدا بالقرب منه ذلك الكأس الذي وضع فيه نادر الشراب لحسن كي يحمله على الاقرار بسره بعد شربه .

وكان حسن قد شرب جرعة من ذلك المزيج وبقيت بقيته في الكأس .

فنظر نادر إلى الكأس فرآه فارغاً فعلم ان الكاهن عاد يبحث عن العلامة التي فقدها في منزل حسن وكان ظمآن فشرب ما وجده في الكأس .

ولما دخل أعوان الوزير الذين كانوا يراقبون المنزل كان الشراب قد أثر بالكاهن فوقفوا منه على سره بهذا الاتفاق الغريب .

وقد تأثر نادر تأثيراً شديداً مما أصابه من الفشل ولكنه نظر إلى روكامبول وقال : ان الأمر لا يدعو الى القنوط وإذا لم يكون الوزير قد برح الهند فلا بد لنا من استرجاع الكنز .

– ٣٤ –

وكان روكامبول قد بات شديد الثقة بنادر منذ أنقذه من براثن الفهد ولم يكن نادر يفارقه بعد ذلك العهد حذراً عليه من بطش الوزير فانه كان كثير الدلال على حكومة الانكليز .

فلما خرجا من منزل الخيـــاط وكلاهما مضطرب الخاطر قال له نادر : أتعرف يا روكامبول شوارع كلكوتا ؟

- حق العرفان .

- إذن اذهب الى منزلي في المدينة البيضاء .

- وأنت ؟

فابتسم نادر وقال : أما انا فلدي مهمة يجب قضاؤها .

ثم استطرد قائلاً : لقد قلت لك من قبل اني لا افارقك لشدة الخطر عليك أما الآن فلم أعد أخشى عليك شيئاً من الأخطار .

- كيف ذلك ؟

- ذلك لأن الوزير كان يريد قتلك من قبـل لخوفه من تأثير نفوذك عند الرجاه فلما مات الرجاه بات يريد الخلاص منك كي تنطلق يده في البحث عن الكنز وهو الآن قد ظفر بهذه الأموال فلم تعد تخطر له في بال .

- أتظنه لا يهتم بي ؟

- دون شك إذ لديه مهمات خطيرة تشغله عنك وأنت تعلم أن هذا الرجل يحاول منذ عهد بعيد أن يخلع زي الهنود ويعود إلى اوربا فيضم إلى الأموال التي غنمها من الهند الكنز الذي اختلسه ويعيش برخاء يحسده عليـه الملوك وأهم شاغل يشغله الآن نقل أموال الرجاه إلى إحدى البواخر فهو لا يفتكر بك بعد هذا الشاغل ولذلك اسألك أن تذهب الى منزلي تنتظرني فيه .

- ولكن أنت الى أين تذهب ؟

- اني ذاهب لاقتفاء أثر تريبورينو ، وخير لي أن اكون وحدي فأن لي كثيراً من المخلصين بين الهنود إذا رأوك معي امتنعوا عن الاباحة لي امامك بما يعلمون .

ثم أخذ كيسه من جيبه فأخرج منه قطعة ذهب مكسورة وأعطاه اياها وقال له إذا اظهرت هذه القطعـــة الى خدمي في منزلي أطاعوك في كل ما

تريده كما يطيعونني .

وبعد أن أعطاه القطعة تركه وانصرف فوقف روكامبول ينظر اليه وهو يبتعد عنه .

ولم يبتعد بضع خطوات حتى رآه وقف وصفق بيديه ثلاث مرات فأسرع اليه هنديان كانا نائمين على طريق عند باب أحد البيوت .

فتبادل واياهم كلمات لم تصل الى مسامع روكامبول ثم ذهب الثلاثة فبقي روكامبول ينظر اليهم حتى تواروا عن أبصاره فذهب الى المدينة البيضاء وهو مشتغل البال على الكنز ولكنه كان يرجو أن يظفر نادر به لما رآه من اهتمامه ولما علمه من مبلغ نفوذه بين قومه .

وبعد ساعة وصل الى بيت نادر وطرق بابه ولمـــا فتح له الخادم أراه القطعة الذهبيــة ، ففعلت به فعل السحر ، واتصل خبرها بجميـع الخدم فوقفوا بين يديه وقفة الاحترام وقالوا له : مر نطع ، فاننا نخدمك كما نخدم سيدنا في هذا البيت .

وأقام روكامبول في بيت نادر يومين لم يعلم عنه شيئاً حتى بدأ يخاف عليه .

ولكن خوفه لم يتجسم فانه بينما كان جالساً في غرفــة نومه يضرب اخماساً باسداس إذ فتح باب سري في تلك الغرفــة ودخل منه نادر وهو بملابس الهنود .

فكان أول ما قاله : اننا وجدنا ما نبحث عنه .

فظهرت علائم البشر على محيا روكامبول وقال : أوجدت الكنز ؟

— وجدت الكنز والغلام ولم يبق لنا غير الاستيلاء عليهما .

ثم أخذ روكامبول بيده وقال له . هلم معي .

وخرج واياه من الباب السري الذي دخل منه الى الغرفة .

وخرج نادر وروكامبول من سرداب مظلم ضيق انتهيا منه إلى سلم يؤدي إلى الحديقة .

فقال له نادر : اني لم أتمكن من تغيير ملابسي الهندية فاضطررت إلى الدخول بها من هذا الباب السري كي لا يعلم خدم منزلي حقيقة أمري فانهم يعتقدون اني من الانكليز ولا يعرفون سر هذا السرداب .

ولما وصلا إلى الحديقة اجتازاها إلى باب كان مفتاحه مع نادر ففتحه وخرج الاثنان إلى الشارع

وهناك وقف نادر وقال : إن تريبورينو يسافر غداً .

فارتعش روكامبول ارتعاشاً بدت علائمه على وجهه فقال له نادر : أتذكر حين دخلنا قبو الشيخ حسن إلى السرداب المؤدي إلى المعبد اننا رأينا طريقين مختلفين ؟

– نعم . .

– إن الطريق الذي لم نسلكه يؤدي الى الحوض ، وينتهي بثقب ينفذ منه الى الماء ، وقد أخرج تريبورينو أموال الرجاه عثمان من ذلك الثقب .

– وأين هي الآن هذه الأموال ؟

– إنها باتت في سفينة تجارية تشتغل بالتهريب منذ عهد بعيد ولها عنبران.

– وهي ستسافر غداً بالكنز ؟

فابتسم نادر واجاب : نعم ، ولكن من اليوم الى الغد يحدث كثير من الأمور فاتبعني وسوف ترى .

ثم ذهب الاثنان الى المدينة السوداء وسارا الى تلك الخمارة التي يغير فيها نادر أزياءه ودخلا اليها .

وهناك أصدر نادر بعض أوامر سرية ، فأخذ صاحب الخمارة بيد

روكامبول وذهب به الى غرفة مظلمة فوجد بها ثياباً خاصة ببحارة أهـالي ملقـا .

وكان يعلم ان البحارة الملقيين يؤثرون على البحارة الهنديين لاشتهارهم بالقوة والدربة ، ولكن لون روكامبول كان ناصع البياض خلافاً لسكان تلك الجزيرة .

غير ان صاحب الخمارة أحضر وعاء من النحـاس كان فيه سائل أسود ، وأشار اليه أن يخلع ثيابه ففعل ، حتى إذا أصبح عارياً أخذ اسفنجة وجعل يغمسها بالسائل ويطلي بها جسمه ، فأصبحت بشرته لامعة كلون النحاس بحيث لم يعد يختلف لونه في شيء عن لون أهل ملقا .

وبعد أن جف الطلاء لبس الثياب التي كانت معدة له ، فتم الشبه ، وذهب مع صاحب الخمارة الى القاعة الكبرى فوجد فيها نحو ثلاثين بحاراً كان بينهم ستة من الملقيين .

وجعـــل روكامبول ينظر بين أولئك البحارة باحثاً عن نادر فلم يجده ، لكنه سمع أحد الملقيين يضحك ضحكاً عالياً وهو ينظر اليه ، فارتعش وعلم أنه نادر وانه تنكر مثل تنكره

ثم ذهب اليه وجلس بقربه فهمس نادر في أذنه قائلاً : الملك منذهـل مما تراه ؟

— دون شك ، فاني لا أعلم سبب هذا التنكر ..

— إنك ستعرفه بكلمتين ، فإن بحارة السفينة التي يسافر فيها تريبوريتو لم يتم عددهم .

— أتظن أنهم يختارونا ؟

— دون شك فان ربان هذه السفينة انكليزي قديم العهد في مهنته ، لكنه شديد البخل فهو سيختار البحارة الملقيين لرخص أجورهم ولايثارهم على الهنود في مهنة البحار

- الملك هو الذي سيختارنا ؟
- نعم سيحضر قريباً إلى هذه الخمارة ورجائي أن يختارنا جميعنا .
- من تعني بجميعنا ؟
- جميع هؤلاء الملقين فانهم من رجالي الأمناء المخلصين ، وهم متنكرون مثلنـا .
- لقد فهمت كل شيء .
وقبل أن يجيبه نادر فتح باب الخمارة ودخل منه الربان الانكليزي فوقف له جميع البحارة .

- ٣٦ -

وكان هذا الربان يدعى جون هابر وهو قصير القامة ممتـلىء الجسم شديد القوة وكان عنقه ضخماً قصيراً يشبه عنق الثور بغلظته وله لحية كبيرة حمراء وجبهة ضيقة ونظرات حادة تدل على الشراسة .

وكانت جميع ملامحه تدل على الارادة الثابتة ، فلما دخل إلى القاعة وضع يديه وراء ظهره وجعل يخطر في القاعة ذهاباً وأيابـاً وهو يفحص أولئك البحارة كمن يفحص سلعاً يشتريها ، فما استوقف بصره غير الملقين وجعل يعدهم واحداً واحداً على أصابعه .

فهمس نادر في أذن روكامبول قائلاً : إذا أخذنا جميعنا كانت لنا السيادة في السفينة .

غير أن نادر أخطأ في حسابه كما سترى .

أما الربان فان نادر كان أول من استلفت نظره من الملقين فمشى اليـه وسأله بلغة الجزائر الهندية : أأنت حر ؟

– نعم ..

– كم تطلب أجرة عن خدمة عام ؟

– ثمانمائة غرش .

فهز الربان كتفيه ونظر إلى روكامبول فقال له : وانت ؟

فأدركه نادر قبل أن يجيب وقال للربان : إن هذا أخي وإننا لا نسافر إلا إذا كنا سوية كما تعودنا .

فسأله الربان : إذاً أدفع لكما الفاً ومائتي غرش .

فرفض نادر لاعتقاده ان رفضه يزيد الربان تمسكاً به .

فأجابه الربان : إذاً أعطيكما الفاً وثلاثمائة وخمسين ولا أزيد على ذلك غرشاً فأنتما مخيران .

ونظر نادر إلى روكامبول ليوهم الربان أنهما يتشاوران ثم أجابه : إننا نرضى بألف وأربعمائة ، فإن شئت دخلنـــا في خدمتك ، ونحن من خير البحارة .

فشتم الربان شتماً قبيحاً وقال إن هؤلاء الكلاب الملقيين يطمعون أن تكون رواتبهم كرواتب السفراء ، ثم تنهد تنهداً طويلاً وقال : لا بـأس فقد رضيت بهذه الأجرة .

ثم تركهما وعاد إلى فحص بقية الملقيين وجميعهم هنود متنكرون من أتباع نادر .

وكانوا ستة ، لكنه لم ينتخب منهم غير اثنين ، ولعله لم يكن محتاجـاً إلى أكثر من أربعة .

فقال نادر . إننا سنغدو أربعة وهو عدد قليل بازاء بحارة السفينة .

فسأله روكامبول ألا نسافر الان ؟

– بل نسافر دون شك .

– وبعد ذلك ؟

- نستولي على السفينة فنلقي تريبورينو في البحر ونذهب بكنز الرجاه وابنه الى اوربا .

- نعم فاني أريد أن أرى البستانية الحسناء ، وقد كتبت اليها عن قدومي . .

وقد اتقدت عيناه حين ذكر اسم روميا فلم يعلم روكامبول شيئاً من قصده لأن نادر لم يذكر له غير طرف من حكايته مع روميا .

وبعد أن أتم الربان اختياره ، أمر صاحب الخمارة أن يحضر له زجاجة من الشراب ، ثم دعا باشارة منه نادر وروكامبول والبحريين الآخرين اللذين اختارهما فشاركهم في شرابه .

ثم أخرج من جيوبه عهوداً مطبوعة ، فكتب في كل عهد منها اسم البحري المسافر ومقدار الأجرة ، والمدة المتفق عليها ، فكتب كل منهم توقيعه تحت الشروط وتم الاتفاق .

ولما تم التوقيع دفع لكل منهم أجرة ثلاثة أشهر مقدماً حسب العوائد المألوفة ، وأقاموا يشربون حتى فرغت الزجاجة فقال لهم · لقد آن أوان الرحيل فهلموا بنا الى السفينة .

وتنغص نادر إذ حسب أنهم سيكونون أربعة في السفينة وأن بحارتها الآخرون اثنا عشر .

غير أنه لم يقنط وقال لروكامبول : هلم بنا فإن الواحد منا يعادل ستة ، ورجائي معقود بالفوز .

ثم قاما فمشيا أمام الربان جوهن هابر ، فكان يسوقهم أمامه سوق المواشي .

وبعد ساعة بلغا السفينة



كانت الليلة التي أقلعت فيها السفينة الشراعية بالكنز حالكة الظلام .

وكانت هذه السفينة تدعى وست أنديا وهي لربانها جون هابر ، وقد برحت ميناء كلكوتا في الساعة السابعة ، أي عند غروب الشمس .

وكان الربان قد أقام نادر وروكامبول في محل واحد ولكنهما لم يتمكنا من المحادثة إلا بعد ست ساعات من سفر السفينة ، فكانا يتحدثان باللغة الفرنسية ، ولا يوجد من يتكلم بهذه اللغة في السفينة غير ربانها وتريبورينو .

أما تريبورينو فقد كان آخر من صعد الى السفينة ، وقد رآه نادر وروكامبول حين صعوده اليها فإذا به قد عاد انكليزياً محضاً فتزيا بأزياء الانكليز وقص شعره على الطريقة الافرنجية ، فكان من يراه يحسب أنه من أشراف يورك أو لانكشير .

ولا يخطر لمن يراه ان هذا الرجل الشريف قد أنفق كل ليلته في الأمس على جمع تلك الأموال التي اختلسها ونقلها الى السفينة .

وكانت السفينة تشحن أرزاً وقهوة فلم يعلم روكامبول إذا كان عالماً ربانها عالماً بأن تلك الأكياس حشوها من الذهب ، أو انه كان متفقاً مع الوزير على تهريب الكنز .

غير ان هذا الوزير القديم كان يظهر أنه السيد المطلق في السفينة حتى أن جون هابر نفسه على فرط قحته وغلظته كان يخضع له ويقف أمامه وقفة الاحترام .

ولما خلا روكامبول بنادر قال له : لقد خشيت أن يكون تريبورينو قد عرفني .

— متى ؟

— حين استعرض البحارة .

— لا تخش فلا يمكن أن يعرفك وأنت متنكر بهذا الزي الغريب ، أما أنا فانه يستحيل ان يعرفني لأنه لم يرني قبل الآن .

وكانت سكينة نادر واطمئنانه يدهشان روكامبول فسأله : إننا أربعة فقط في السفينة .

— أعرف ذلك .

— وان سائر البحارة انكليز ، وهم أشداء يقاتلون جيداً .

— لا بأس .

— وفوق ذلك فان الوزير يصحبه خادمان فاذا أضيفوا الى البحارة الانكليز كانوا جميعهم خمسة عشر وما نحن إلا أربعة .

فابتسم نادر دون أن يجيب .

فتابع . وفوق ذلك أيضاً فان جون هابر من أهل الثبات في أقواله وأعماله .

— من يعلم ؟

فخطر لروكامبول حينئذ ان نادر يريد إغواء الربان وحمله على خيانة الوزير ..

وكأنما نادر أدرك فكره فقال : كلا اني لا أغوي هذا الرجل إلا إذا يئست من جميع الوسائل .

— إذاً على أي شيء تعتمد ؟

فدنا نادر من جدار السفينة ومد يده الى الجهة الغربية قائلاً : انظر الى آخر ما يمتد اليه بصرك من البحر ، ألا ترى نوراً يشبه نور النجم يضطرب فوق الأمواج ؟

— نعم .

— انه ينبعث من قارب يسمونه باصطلاحكم « جنك » .

— أهو قارب صيني ؟

— نعم ، ولكن الصينيين الذين فيه مثل الملقيين الذين في هذه السفينة .

فاشكل فهم قصده عليه فسأله مستفسراً : بالله أوضح لي عن قصدك فاني

لم افهم ماذا تقصد .

– اننا حين خرجنا من الخمارة كتبت بسرعة كتاباً اعطيته الى أحد الملقبين الذين لم يختارهم الربان .

– لمن ارسلت الكتاب ؟

– لنائبي في زعامة أبناء سيوا فقد أمرته ان يعد قارباً ويذهب به مع فريق من رجالنا لمطاردة هذه السفينة التي نسافر عليها .

– أيجسر قارب صغير على مهاجمة هذه السفينة الكبيرة ؟

– عند اول إشارة تصدر مني اليه .

– ومتى يكون ذلك ؟

– لا حاجة الى العجلة فاننا نستطيع الصبر يومين وثلاثة .

فدهش روكامبول وسأله : كيف يمكن هذا القارب الصغير ان يدرك السفينة ويسير سيرها ثلاثة أيام

– ذلك لأنك تجهل سرعة هذه القوارب فانها تبنى بشكل خاص إذ لا غرض منها إلا المطاردة ، وهي تسبق أسرع السفن .

وعاد الأمل إلى روكامبول باسترجاع كنز الرجاه عثمان ، وحاول أن يتم محادثته مع نادر ، غير أن نادر قاطعه قائلاً له : كفى فإن الربان قد حضر .

وعاد الاثنان إلى عملهما ..

وصعد جون هابر إلى سطح السفينة يراقب سيرها ، وهو يبتسم إبتسام الرضى والارتياح .

ودنا الربان وتوكأ على جدار السفينة وجعل ينظر إلى الأفق قـائلا : إن السماء صافية والريح موافقة ، فاذا استمرت على ما هي عليه الآن نصل إلى لفربول بعد خمسة أشهر .

وفيما هو ينظر إلى السماء بعين الرضى شعر بيد وضعت فوق كتفه فالتفت ورأى تريبورينو فأسرع الى السلام عليه بملء الاحترام .

فسأله تريبورينو . إني أرى عليك علائم الارتياح فهـل الطقس موافق لسير السفينة .

— كل الموافقة .

— وانك تحب أن تصل لندرا بأسرع ما يمكنك من الوقت ، اليس كذلك؟

وتنهد الربان تنهداً طويلاً وقال : إني بلغت من العمر خمسين عـاماً ، وأنا أسير في الهند منذ ٣٠ عاماً ، حتى مللت السفر.

— أظن ان هذا السفر يكون آخر أسفارك ؟

— وهذا الذي أرجوه .

- ستجعل مركز إقامتك في لندرا لأنك تقبض مني مئتي الف لـــيرا انكليزية ، وهي ثروة طائلة تستطيع أن تعيش بها كما تريد في العاصمة .

فاحمر وجه القبطان حين سمع بهذه الثروة وكاد يطيش صوابه حـين علم أنه سيقبض ٥ ملايين فرنك أجرة تهريب كنوز الرجاه .

ثم ثاب إلى رشده وتمتم قائلا . كلا اني لا أقيم في لندرا .

— إذاً أين تقيم ..

— أقيم في بلدي في يوركشير ، وأشتري أرضاً متسعة في البلاد التي ولدت فيها وأتزوج كاتي ..

— من هي كاتي ؟

– هي فتاة حسناء من أهلي يبلغ عمرها الآن ٢٦ عاماً ، فلا أكبر في عينيها ولا تصغر في عيني ، ثم اني ابني كنيسة ومستشفى بفضل هذه الثروة ، فان صنع الجميل من خير ما تطيب به النفوس .

وكانا يتحدثان باللغة الفرنسية لاعتقادهما أن نادر وروكامبول ملقيان وان الملقيين لا يعرفون اللغة الفرنسية .

وقد سمع روكامبول حديثهما فهمس في أذن نادر قائلاً : لا تطمع باغواء الربان .

– لماذا ؟

– لأن تريبورينو سيعطيه ثروة لم يحلم بها ، ولم يطمع أن يدركها بالتصور ..

– لقد أصبت ولكن القارب لا يزال يطارد سفينتنا .

ثم جعل ينظر إلى القارب وهو في آخر ما يمتد اليه النظر الى البحر .

أما الربان وتريبورينو فقد عادا إلى الحديث . فتابع تريبورينو : أأنت واثق من بحارة السفينة ؟

– نعم كما أثق بنفسي ..

– أأنت واثق أيضاً أنه لا يوجد بين بحارتك من يعلم حقيقة ما تشحنه السفينة ؟

– أنهم جميعهم يعتقدون أنها تشحن الأرز والقهوة ، وفوق ذلك فليس بينهم من يعرف سر العنبر الداخلي غير اثنين لي بهم ملء الثقة بحيث لا خطر على الكنز إلا من الغرق .

ولكني لا أخشى الغرق أيضاً فقد الفت السير في هذه الطريق وأن سفينتي من أشد السفن وأقواها على مصادمة الأمواج .

وفيما هو يتكلم ، نظر إلى النور الذي كان ينبعث من القارب فاضطرب

وسأله : ما هذا ؟

فنظر ترينورينو النور أيضاً وقال : أنه منبعث من منارة دون شك .

ـ كلا فلا يوجد منائر في هذه الجهة .

ـ إذاً فهو من سفينة في الطريق التي نسلكها .

ـ قد يكون ذلك ولكني أخافها .

فاضطرب الوزير قائلاً : كيف تخافها ؟

ـ لأني أخاف القرصان الصينيين .

ثم تركه مسرعاً ونزل الى غرفته وعاد يحمل نظارته المكبرة فما كاد ينظر بها إلى ذلك النور حتى صاح صيحة غضب : هذا ما كنت أخشاه .

ـ ما هذا ؟

ـ قارب صيني .

ـ وكيف تخاف القوارب ولك مثل هذه السفينة الضخمة ؟

ـ لأنها تحمل قرصاناً ، وسنضطر إلى استعمال هذين المدفعين الموجودين في سفينتنا .

فقطب الوزير حاجبيه ولم يجب .

فقال نادر لروكامبول : إني لو استطعت إطفاء نور القارب لفعلت فأنهما رأياه قبل الأوان .

أما الوزير والربان فانهما عاد الى الحديث يتشاوران، وكان نادر وروكامبول مصغيين اليهما ولم تفتهما كلمة من ذلك الحديث .

٣٨

وكان القارب يبعد نحو ٣ أميال عن السفينة ، غير ان الربان كان يرى جميع حركاته بمنظاره الكبير فرأى انه يسير في طريق السفينة ويظهر خوفه للوزير .

أما تريبورينو فانه أنكر عليه هذا الخوف وقال : كيف يجرؤ هذا القارب على مهاجمتنا ؟

— انك مخطىء يا سيدي فاني لا أزال أذكر قارباً هاجمنا حين كنت رباناً ثانياً في سفينة تدعى ليفربول وهي أكبر من سفينتنا .

— ماذا جرى ؟

- ان هؤلاء الفرسان لا يختلفون عن الأبالسة فان قاربهم يكون فيه على الغالب كثير من الرجال الأشداء ، فاذا وصلوا إلى مرمى مدافع السفينة التي يطاردونها ، أنزلوا جميع ما لديهم من الفلائك الصغيرة إلى البحر ، وينزل اليها ثلاثة أرباع البحارة ، فيهربوا من قذائف المدافع وأحاطوا بالسفينة من كل جهاتها دون أن تتمكن المدافع من إغراقها لسرعة حركاتها واستحالة إصابة المرمى .

وان لدينا الآن نحو عشرين رجلاً ، ولكني واثق من أن هذا القارب يحمل ضعف عددنا من القرصان ، فاذا وصلوا الينا تفرقوا بالفلايك الصغيرة .

— إني لم أر الى الآن موقف الخطر فان القارب قد يدركنا لأنه يسير بالهواء ، فاذا وصل الينا أطلقنا عليه قنابلنا ، وأما اذا نزلوا في الفلائك الصغيرة ، فكيف يدركوننا وهم يسيرون بقوة المجاذيف .

فهز الربان رأسه وأجاب : ان القرصان موصوفون بالصبر ، وان الأوقيانوس الهندي معروف بسكون رياحه ، فلا يسلم من القرصان غير السفن البخارية ، لأنها تسير سيراً منتظماً ، غير مكترثة بسكون الرياح ، أما

السفن الشراعية فإن قوارب القرصان تطاردها أياماً ، بل قد تطاردها شهراً كاملاً حتى تسكن الرياح وتقف السفينة وينزل القرصان الى الفلائك ويدركونها بالمجاذيف .

وقد يتفق ان السفينة تغرق بعض هذه الفلائك ، ولكن ما سلم منها يهاجم السفينة ، وبقية القرصان يدركونها سباحة فيصعدون اليها وتنشب بين الفريقين معركة هائلة بالمسدسات والخناجر والمجاذيف فتصبغ السفينة بدماء المتقاتلين وتنجلي المعركة في الغالب عن فوز القرصان .

فاضطرب الوزير اضطراباً شديداً حين فكر ان هذا الكنز وهذه الأموال التي جمعها بالخيانات والمآثم ستقع غنيمة باردة بأيدي القرصان .

وعاد الربان إلى تتمة حديثه قائلاً : وان دوارع جلالة الملكة قد طهرت البحر من هؤلاء القرصان ولكن يظهر أنه لا يزال يوجد منهم بقية .

وبينما كان الاثنان يتحدثان كان نادر وروكامبول يصغيان اليهما ويراقبان نور القارب ، فرأيا ان النور يبتعد ويصغر فلم يدركا القصد من هذا الابتعاد .

وقد رأى الربان ما رأياه فاطمأن وقال : اظن ان القرصان لم يرونا فإني أراهم يبتعدون .

وبعد أن اقاما نحو ساعة يراقبان ويتحدثان هبط تريبورينو إلى غرفته ، وبقي الربان فوق ظهر السفينة كل ذلك الليل حتى توارى القارب عن نظره فاطمأن وتمتم في نفسه : اما أن يكون القرصان قد رجعوا عن مطاردتنا ، او انهم لم يرونا او انهم يطاردون سفينة أخرى ، وعلى كل فقد أمنا الخطر .

وعند الصباح عاد اليه تريبورينو فارتاحت نفسه لبعد القارب وسأله : أرى اننا قد أمنا الخطر لاسيما وان السفينة تسير سيراً حسناً لموافقة الرياح.

نعم ولكنها لا تسير هذا السير أمداً طويلاً فان الرياح لا تلبث أن تهدأ

ثم مد يده الى الأفق في الجنوب الغربي قائلاً : انظر ألا ترى هـذه الغمامـة الصغيرة التي تشبه طير البحر ؟

— نعم .

— انها مقدمة لعاصفة ستهب علينا فتثور الرياح ثورة عظيمة .

— وبعد ذلك ؟

— وبعد ذلك تهدأ الرياح بعدها أتم الهدوء بحيث قد يمر بنا يوماً أو ثلاثة دون ان تجتاز السفينة اكثر من ميل واحد ، وهنا يجب ان نضرع الى الله وأن نلتمس حماية القديس جورج حامي انكلترا كي يقينـا شر القرصان ولا تدركنا فلائكهم .

فقال نادر لروكامبول : لقد أصاب هذا الربان فان سكون الرياح سوف يعقب العاصفة التي لا بد أن تثور قريباً .

ولقد كان كلاهما مصيباً فانه بعد أن توارت الشمس في حجابها أربد وجه الأفق ، وأظلمت السماء بالغيوم الكثيفة ، وحجبت النجوم وهطلت الأمطار كأفواه القرب ، وعصفت الرياح ، فاضطربت الأمواج فجعلت تهاجم السفينة مهاجمة الجيوش وترتد عنها ارتداد الجبان .

وعند انتصاف الليل بلغت العاصفة أشد أطوارها فكانت السفينة ترقص فوق الأمواج وربانها يقودها بملء السكينة والحزم .

أما تريبورينو فقد خاف خوفاً شديداً على كنوزه ، إذ لم يمر بخـاطره مثل هذه الأخطار ، فكان يجيء إلى الربان وعليه علائم الذعر الشديد ويسأله عن حالة السفينة فيجيبه الربان . إني لا أخشى سكونها ولا أخاف هجوم القرصان .

وفيما هو يقول ذلك حانت منه التفاتة فصاح صيحة المغضب وصرخ بصوت مضطرب : هوذا سفينة القرصان قد ظهرت فلا حول ولا قوة إلا بالله .

فالتفت تريبورينو منذعراً فرأى سفينة القرصان تضطرب فوق الامواج

اضطراب سفينته وتلقى من العاصفة ما تلقاه .

أما نادر فانه التفت إلى قارب رجاله وقال وصدره يخفق . حييتم ايها الشجعان .

- ٣٩ -

وكانت أمواج البحر تتعالى علو قمم جبال الألب ثم تهوي الى الأعماق فتصبح السفينة في واد من المياه .

وفي كل حين تتدفق الأمواج فوق ظهر السفينة فتغسلها .

وكانت الصواري تئن لعوامل الرياح وتوشك أن تتحطم .

كل ذلك وروكامبول واقف يشتغل شغل البحارة ويتذكر تلك الليلة الهائلة التي فر بها من سجن طولون ، ولقي فيها من أهوال العاصفة ما يذكره القراء

ولم يكن يخشى على السفينة من الغرق لما رآه من حزم الربان ومهارته .

أما تريبورينو فقد كان واقفاً بجانب الربان وكلاهما ينظران الى سفينة القرصان فكان الربان يقول كلما رآها . اني لا أخشى ثورة الرياح بل اخشى ثورة القرصان .

فقال له تريبورينو انهم يلقون من العاصفة ما نلقاه .

— هو ما تقوله ، غير اني لا أخشاهم الآن بل حين تسكن الرياح .

ولم يكد يتم قوله حتى هبت ريح عاصفة مالت بالسفينة وأوشكت أن تدفنها باللجج ، فانقض الربان انقضاض الصاعقة على الصاري الأكبر وضرب حبله بفأس فقطعه ، ثم نادى البحارة فاشتغلوا جميعهم بكسر الصاري بما كان لديهم من الفؤوس .

وبعد عشر دقائق سقط الصاري الأكبر فكان له دوي شديد وكسر جدار السفينة ، غير انها ارتفعت وسلمت من الغرق ، بعد انكساره فصاح الربان صيحة المنتصر .

وعند ذلك جعل ينظر الى الجهة التي كانت تسير فيها سفينة القرصان فلم يرها .

فقال له تريبورينو : اظن ان العاصفة أغرقتها .

— كلا ، بل ان تياراً قد جذبها ، وفي كل حال فقد أمنا شر هؤلاء القرصان .

وكان نادر وروكامبول يسمعان الحديث فقال له نادر : ان الربان قد أخطأ هذه المرة اذ لا يوجد تيارات في هذه الجهات ولا بد لرجالي من إدراكنا .

وكان يتكلم بلهجة الواثق المطمئن بحيث لم يبق شك لدى روكامبول باسترجاع الكنز . .

ان العواصف هائلة في بلاد بحر الهند ولكن أمرها لا يطول ويعقبها في كل حالة من أحوالها سكون الريح أياماً .

وقد اتفق مثل ذلك بعد هذه العاصفة فإن الهواء سكن سكوناً تاماً عند الفجر ، فجعل البحارة يهتمون باصلاح ما اتلفته العاصفة من السفينة .

وكانت الأمواج حين كانت السفينة تنقلب قد ابتلعت ثلاثة من البحارة فسقطوا عن ظهر السفينة الى البحر حين التوائها وبين هؤلاء واحد من الملقيين بحيث لم يبق فيها من أعداء تريبورينو غير ثلاثة .

وكان القارب قد توارى عن الأنظار فقال روكامبول لنادر : إذا كان لا يوجد تيارات في هذه الجهات فكيف اختفى القارب ؟

— انه قد اختفى لغرض من الأغراض ولا بد له ان يدركنا

اما الربان فكان واقفاً مع تريبورينو يراقبان السفينة وقد سكنت الرياح

وامتنعت السفينة عن المسير ، غير ان الاثنين كانا قد ارتاحا بعض الارتياح لاعتقادهما ان القرصان قد غرقوا بالعاصفة .

ولما طال احتجاب القارب بدأت علائم الاضطراب تظهر على نادر وقال يستحيل ان يضل كوسلي الطريق .

— من هو كوسلي هذا ؟

هو نائبي الذي يتولى قيادة القارب ومن فيه فانه يعرف طرق السفن الشراعية الى اوروبا حق العرفان .

وفيما هو يتحدث وينظر الى البحر شد على يد روكامبول قائلا له : انظر مشيراً الى جهة الغرب

وكان روكامبول حديد البصر غير انه لم ير شيئاً ، ولكنه سمع شتماً قبيحاً خرج من فم الربان فعلم ان ما رآه نادر بالعين المجردة قد رآه الربان بالنظارة المكبرة ، وهو سفينة القرصان

وكان الربان يصيح صياح الذعر قائلا : القرصان .

ثم التفت الى الوزير وتابع لم يبق شك في ان القرصان يطاردوننا

— اتظنهم يهاجموننا ؟

— قبل غروب الشمس ، وقد وجب علينا الاسراع بالتأهب.

ثم اوقف إصلاح السفينة وأمر بحشو المدافع ووزع الأسلحة على البحارة وأقام الجميع ينتظرون قدوم القارب الذي كان يسير اليهم ببطء ، ولكنه كان مستمراً في السير خلافاً للسفينة .

وما زال يدنو حتى بات على مسافة مرمى المدافع فأنزل الى البحر اربع فلائك نزل الى كل واحد منهم ثمانية رجال .

أما الربان فدمدم قائلا اني كنت أحسبهم اكثر عدداً ، ولكنه سيكون لنا معهم شأن عظيم .

أما الفلايك فقد تفرقت وذهبت كل واحدة منها في سبيل بغية الاحاطة

بالسفينة ودنت إحداها منها بغية مهاجمتها من الأمام ، فقال الربان : لنغرق هذه في البدء .

ثم أطلق عليها بيده أحد المدفعين .

- ٤٠ -

فدوى المدفع دوياً شديداً ، وخرج دخان البارود منه ، فكان كالغمام وقد أطبق نادر وروكامبول عيونهما حين دوى صوت المدفع. ثم فتحاهما وانجلى الغمام فرأوا أن القنبلة لم تصبها وانها هاجمة على السفينة .

فصاح الربان صيحة غضب منكرة ، وأطلق على الثانيــة المدفع الآخر ، وكان محشواً بقذائف صغـيرة ، فنام الرجال على بطونهم ولم يصب أحـد منهم بأذى .

وكانت الفلايك الثلاث الأخرى قـد أحدقت بالسفينة من كل جانب ، وباتت عرضــة لنيران البنادق . فـأمر الربان بحارتـه بإطلاق النــار ، فصوبوها على أحد الفلائك وأطلقوها عليها دفعة واحدة ، فانقلبت وغاص رجالها في المياه .

ولكنهم ظهروا بعد هنيهة يسبحون وفي أفواههم الخناجر .

أما الفلائك الأخرى فكادت تتقدم وكان الربان يصيح أطلقوا النار !

فصوب كل بحار بندقيته وأطلق ممتثلاً لأوامر الربان ، ولكنهم أخطأوا المرمى كأنما يداً خفية كانت تحول القذائف عن أغراضها .

ثم وصلت الفلائك الى السفينة فتسلقوا عليها من كل جانب وصعد الذين كانوا يسبحون على الحبال فلم تمض عشرة دقائق حتى أصبحوا جميعهم على ظهر السفينة وقد قتل بعضهم حينما كانوا يصعدون

فالتفت روكامبول إلى نادر وقال له : أرى انه قد آن الأوان .

وكان في يده فأس فحاول ان يضرب به رأس الربان . غير ان نادر أمسك يده وقال له · لا تفعل أو نفقد كل رجاء .

ذلك ان نادر كان قد شاهد عن بعد دخاناً كثيفاً يتصاعد في الفضاء فقال له أنظر لقد خسرنا كل شيء حين وثقنا من الفوز .

ـ كيف ذلك ؟

فأجابه نادر بصوت يتهـــدج من الغضب إن هذا الدخان خارج من مدرعة إنكليزية .

وكان القتال قد حمي وطيسه بين الفريقين ، بحيث لم ينتبـــه أحد منهما لدخان المدرعة ما خلا القارب الذي كان رجال نادر فيه ، فإنه رأى المدرعة وأركن إلى الفرار .

وقد صبغ سطح السفينة بدماء المتقاتلين ،لأن البحارة الانكليز كانوا يقاتلون قتال اليأس بفؤوسهم ، ورجال نادر يقاتلون قتال الفائز بخناجرهم . وقـد اختلط الفريقان أيما اختلاط بحيث لم ينتبه أحد إلى ان نادر وروكامبول لم يشتركا في هذا القتال .

إلى أن بانت الدارعة على قيد من السفينة ، فأطلقت مدفعاً كان له دوي قوي ، فصاح الربان صيحة الفرح والاستبشار قائلا : لقد نجونا .

وكان الربان قد أصيب بعشرة جروح . فلما سمع البحارة صياحه ، ورأوا الدارعة أيقنوا من النجاة وجعلوا يقاتلون بملء البسالة .

أما الهنود فقد هالهم ما رأوه ووقفوا موقف التردد لا يعلمون ما يفعلون ، ثم سمعوا صوتاً يناديهم بلغة خفية .

وكان هذا الصوت صوت نادر فإنه أمرهم باللغة المقدسة التي لا يفهمها غير أبناء سيوا أن يهربوا فامتثلوا والقوا أنفسهم في البحر وأسرعوا يسبحون إلى فلايكهم والدماء تسيل من أجسامهم .

وكانت الدراعة لا تزال بعيـدة ، ولكنها تمكنت من إدراك القارب ، فأطلقت عليـه نيرانها ، فغرق بمن كان فيـه . أما الفلايك فقد تمكنت من النجاة .

وكان نادر يراقب جميع ذلك ، فاستـاء لغرق القارب ، وفرح لنجاة الفلايك ، فقال له روكامبول إني أخشى ان تـنزل الدارعة أحد سفنها ، فتطارد الهاربين .

— كلا إننا على مسافة قريبة من الشاطيء وهذه الشواطىء كثيرة الصخور فلا تخاطر الدارعة بنفسها .

ولقد أصاب نادر لأنه حين وصلت الدارعة الى السفينة كانت الفلايك قد بلغت البر آمنة فصعد أحد ضباط الدارعة إلى السفينة ففحص ما حدث وكتب تقريراً بما جرى .

ولم يكن باقياً من بحـارة السفينة غير عشرة ، منهم روكامبـول ونادر والهنديين .

وكان الربان مجروحاً بكتفه وذراعه وصدره وتولى قيادة السفينة الربان الثاني لكن السفينة نجت بفضل الدارعة .

أما الضابط فإنه أسر اثنين من رجال نادر منعتهما جراحهما عن الهرب ، وعاد الى دارعته فذهب بهما في طريق كلكوتا أما السفينة فانها اضطرت إلى الذهاب إلى أقرب ميناء تجاري لتجديد من فقد من بحارتها وإصلاح ما طرأ عليها من الخلل .

وعند ذلك خلا نادر بروكامبول وقال له : لا يجب ان تقنط ولا يزال لي بقية رجاء

فأجاب روكامبول : بل ان لي ملء الرجاء إذا تركتني أتولى العمل مكانك وسوف ترى .

- ما هي خطتك ؟

- سأقولها متى أخبرتني عن أمرين .

- ما هما ؟

- هل الهندي المتنكر الذي بقي معنا يحسن السباحة؟ وهل يستطيع بلوغ الشاطىء سابحاً ؟

- دون شك !

- وهل أنت واثق من ان هذه الشواطىء كثيرة الصخور ؟

-- كل الثقة .

- حسناً سوف ترى .

ثم انشغل عن محادثته بمراقبة الربان الثاني الذي صعد إلى سطح السفينة لتولي قيادتها بدلاً من جون هابر الجريح .

- ٤١ -

وكان الربان الثاني في السفينة يدعى مرفي ، وكان الشبه بعيداً بينه وبين جون هابر ، فان الربان الأول كان ضخم الجثة ، بديناً قصير القامة ، عريض الأكتاف ، أحمر الشعر خلافاً للربان الثاني ، فإنه كان فوق الربعة نحيف الجسم أشقر الشعر ، يشبه بقامته وحركاته روكامبول حين كان يدعى الكونت دي كامبل ، أي حين أتم أستاذه تدريسه وتدريبه وأرسله خاطباً للأسبانية ، كما يذكر قراء الفادة الأسبانية .

وكانت عادة هذا الربان الثاني ان يصعد إلى سطح السفينة مكشوف الرأس لكنه حين يتولى القيادة في الليل يلبس رداء طويلاً له قبعة واسعة ، تغطي معظم وجهه

وكان روكامبول يراقب منه جميع ذلك ، فذكر حياته السابقة وخطر له

أن يعود اليها إلى حين .

وذلك انه جال في فكره ان يمثل دور هذا الربان ويتنكر بزيه ، لا سيا لما رآه من الشبه بينهما بالقوام ورقة البدن. ومهارة روكامبول بتقليد الأزياء غير خافية على القراء .

ولما أتى الليل كان الهواء ساكناً غير انه كان يوجد في الأفق قطع متفرقة من الغيم تشير إلى ان الهواء قد يثور بعد بضع ساعات .

فصبر روكامبول إلى أن نزل الربان الثاني إلى غرفته فقال لنادر : متى تولى الثاني قيادة السفينة ؟

– عند الظهر وقد نزل الآن إلى غرفته كي ينام

- من يخلفه ؟

– رئيس البارة فإنه يتولى القيادة إلى منتصف الليل ، ثم يعود الربان الثاني ليتولاها .

– حسناً وإني أرجو التوفيق

فنظر اليه نادر منذهلاً وقال : ماذا عزمت أن تفعل ؟

– عزمت على أن أتولى القيادة ، عند منتصف الليل ، بدلاً من الربان الثاني .

– ومتى توليتها ماذا تفعل؟

– أدفعها الى الشاطىء ، فتتحطم على الصخور . وهناك نستعين برجالك على تخليص الكنز ، إذ لا خطر عليه من الضياع ، لأنه في العنبر الداخلي السري .

– إنها خطة تدل على الجرأة ، لكني لا أرى تنفيذها سهلاً .

– لماذا ؟

- لأني لا أعلم كيف تستطيع ان تتولى القيادة مكان الربان ، ولا كيف يتخلى لك عنها ؟

فابتسم روكامبول وأجاب : هذا سر من أسراري وسوف ترى .

أما نادر فإنه اطمأن لارتياح روكامبول وقال له : إن من ينتصر على علي رجاه فغير بعيد أن يفوز على مثل هذا الربان . فقل بماذا تريد أن أساعدك ؟

- ان تأمر الهندي الذي معنا كي يخضع لي أتم الخضوع .

فنادى نادر الهندي المتنكر بأزياء الملقيين وأصدر اليه اوامر بلغة أبناء سيوا السرية ، فانحنى الهندي أمام روكامبول قائلاً له : إني مستعد لطاعتك في كل ما تريد .

وكان قد أزف وقت النوم ونام جميع البحارة . فلما أيقن روكامبول أنهم ناموا جميعهم نادى الهندي وقال له : إتبعني .

ثم سار وإياه الى الغرفة التي ينام فيها الربان الثاني ووقف متنصتاً عند بابها إلى ان سمع غطيطه . ففتح الباب ودخل مع الهندي ، ثم أقفله من الداخل بالرلاج

وعند ذلك أشار إلى الهندي أن يعد الحبل لتقييد الربان ، ففك حبلاً كان قد عقده على وسطه وهو حبل من الحرير الدقيق يشبه حبل الخناقين . ثم أشار اليه إشارة أخرى فهمها فانقض الاثنان على الربان الثاني .

أما الربان فإنه صحا مرعوباً منذعراً وحاول ان يصيح مستغيثاً ، غير ان روكامبول عاجله بكمامة سد بها فمه ،فلم يتمكن من الصياح وعاجله الهندي فأوثقه وثاقاً متيناً عرف به الهنود .

ولما أتم وثاقه جعل الربان ينظر اليهما نظرات ملؤها الرعب ، ثم تبدل فزعه بالاندهال حين سمع روكامبول يكلمه باللغة الفرنسية ، لأنه لم يسمع اولئك الملقيين يتكلمون بغير لغتهم وباللغة الانكليزية .

أما روكامبول فانه قال له بصوت منخفض . يسوؤني يا سيدي أن أسيء اليك ، غير ان ذلك موقوف على إرادتك ، وإذا خرجت عن

حد السكينة ، إضطررت مكرهاً إلى القائك في البحر ، لأني محتاج إلى سكوتك .

ولم يكن الربان يستطيع الإجابة ، لأن الكمامة كانت تمنعه عن الكلام والوثاق يمنعه عن الحركة ، غير أنه أن أنيناً خرج من تحت الكمامة كصوت المختنق .

فالتفت روكامبول الى الهندي ، وقال له : إذا أن أيضاً مثل هذا الأنين فاقتله .

فجرد الهندي خنجره ووقف فوق رأس الربان

عند ذلك دنا روكامبول من المغسلة وأخذ اسفنجة وجعل يبلها بالماء ويدعك بها وجهه فذهب لونه الأسود وأصبح مثل الربان .

وكان الهندي والربان ينظران اليه بانذهال عظيم لأن كليهما لم يخطر لهما في بال ان هذا البحار الملقي من الإفرنج .

وبعد أن أتم روكامبول غسل وجهه ، خلع ملابسه وأخذ ملابس الربان المعلقة فلبسها ، وأخذ رداءه الكبير واتشح به فوق الملابس ، وستر رأسه بالقبعة .

ثم جعل ينظر في المرآة ويصلح تلك الملابس حتى بات الشبه قريباً بينه وبين الربان لتشابههما بالقوام

فلما رأى الربان هذا الشبه عاد الى الأنين ، فحاول الهندي أن يقتله . غير ان روكامبول منعه باشارة ، ودنا من الربان ، فجعل يكلمه فانذهل الربان انذهالاً عظيماً لأن روكامبول لم يقتصر على تقلده بزيه وملابسه ، بل سمعه يقلد صوته ولهجته أتم التقليد

وكان نادر مضطجعاً فوق ظهر السفينة ، ينتظر ما يكون من روكامبول بقلق شديد ، فقد مر به زمن طويل دون ان يرى روكامبول أو الهندي .

أما روكامبول فانه بعد ان حادث الربان الثاني مقلداً صوته ، وبعد ان شاهد علائم بين عينيه قال له : إنك لم تعلم من أنا ، ولكنك عرفت الآن دون شك ما عزمت على فعله ، لأني انا الذي سيتولى قيادة هذه السفينة في هذه الليلة .

ولقد حرمت على نفسي سفك الدماء ، وقتل أخي الإنسان . وإني أراك بحاراً نشيطاً ، وقد تكون رجلاً شريفاً . وإذا كنت حراً طليقاً ، فإن واجباتك تدعوك إلى الاستغاثة والاستنجاد علينا ، فيلقونني مع هذا الرفيق في أسفل العنبر .

فأشار الربان برأسه إشارة تدل على انه لو كان حراً لما فعل غير هذا .

فتابع روكامبول . لذلك وجب علي ان أستوثق من سكوتك ومنعك عن الاستغاثة لأني إذا تركتك حراً في هذه الغرفة فانك تستطيع ان تصيح صياحاً يخرج كالأنين من خلال الكمامة ولا بد ان يسمعوك .

فأشار الربان إشارة مصادقة

وكان روكامبول يعلم ان البحارة موصوفون بالتدين الشديد لكثرة تعرضهم للأخطار ، ونظر إلى المائدة فرأى فوقها من آلات البحارة توراة فأخذ هذا الكتاب المقدس ، وعاد الى الربان فقال له : إنني محتاج الى سكوتك عشر ساعات وبعد ذلك أطلق سراحك ، فإذا أقسمت لي بهذه التوراة أن تلزم السكينة في هذه المدة فلا تصيح ولا تحاول حل قيودك رضيت بقسمك وعفوت عنك .

فظهرت بين عيني الربان علائم الانفة من الخيانة ، وأجاب بهز رأسه ورفعه إلى العلاء مرات متتالية ، إشارة الى انه لا يرضى الخيانة ، وانه غير مكترث بالموت .

فرد روكامبول : لكني أقتلك إذا أبيت الامتثال .

فهز كتفيه يريد انه يؤثر الموت على العار .

فنظر روكامبول في ساعته فوجد ان الوقت لا يزال فسيحاً لديه فجلس عند سرير الربان وخاطبه بصوت يشبه الهمس: إنك متى عرفت قصدي وعلمت أن غايتي نبيلة ترضى بحلف اليمين .

ثم قص عليه بايجاز خيانة تريبوريدنو وان استرجاع الكنز منه ورده إلى صاحبه حق لا ينكره شريف .

وكان روكامبول يقص عليه هذه القصص بكلمات مؤثرة راجياً ان يحمله على الرضى ، فيمتنع عن قتله . لكنه أصر على الاباء وأشار بعينيه ورأسه انه يؤثر الموت .

فاضطرب روكامبول في أمره وأشفق من قتل رجل شريف باسل يستخف الموت في سبيل الواجب وجعل يفكر بحيلة صالحة ، لأنه لا يستطيع حراسته بالغرفة وليس من الحكمة ان يدعه وحده فيها .

وفيما هو يفكر التفت الى جدار الغرفة فرأى النافذة المطلة على البحر مفتوحة فمد رأسه منها وجعل ينظر نظر الفاحص . فرأى ان السفينة قد زادت سرعتها بحيث لا يستطيع السابح إدراكها ، وإن الظلام مشتد الحلك بحيث لو سقط رجل في البحر من السفينة لا يراه حراسه ، فخطر له خاطر سريع وعاد الى الهندي فسأله : أخبرني نادر انك تجيد السباحة ، فهل تستطيع بلوغ البر سباحة ؟

– دون شك .

– وإذا القيت هذا الربان إلى البحر ثم سقطت أنت بعده أيمكنك قطع

قيوده بخنجرك قبل ان يغرق ؟

— نعم .

فنظر روكامبول الى الربان الثاني وقال له: يسوءني ان اسيء اليك غير اني مضطر ، وأسأل الله ان يصونك ويقيك .

ثم شد وسطه بحبل ، وهو ينظر اليه نظر الاحتقار غير مكترث للموت ، وأنزله من النافذة والحبل بيده حتى بلغ إلى سطح الماء ونزل بعده الهندي وهو مشهر خنجره . حتى إذا بات الاثنان في الماء أفلت روكامبول الحبل فاختفيا تحت الأمواج .

وكان روكامبول قد أمر الهندي ان يذهب إلى الشاطىء ، ويجمع أبناء سيوا الذين سلموا من مطاردة الدارعة في موضع تكثر فيه الصخور وأمره ان يشعل ، متى اجتمعوا ، نيراناً تشير الى موضعها

ولبث روكامبول حيناً في النافذة يراقب الاثنين ، فرأى الربان قد اختفى بين الأمواج، ثم شاهده بعد دقيقة وقد ظهر فوق سطح الماء لان الهندي قطع وثاقه .

ثم سمع من سطح السفينة صوتاً يصرخ : شخص في البحر !

فأسرع إلى السطح ، وهو بملابس الربان ، ووجد ان رئيس البحارة الذي كان يتولى قيادة السفينة ، عازم على إنزال قارب لانتشاله فاعترضه قائلاً : إننا نخسر القارب ولا نتمكن من إنقاذه ، وفوق ذلك إن هذا الرجل من الملقيين .

وقد اشتهر الانكليز باحتقار اهل تلك الجزر حتى انهم يحسبونهم من البهم، ثم ان روكامبول كان لابساً ملابس الربان الثاني ساتراً وجهة بالقبعة ، وقد قلد صوته أتم تقليد فلم يسع رئيس البحارة مخالفته

وكان نادر قد شاهد سقوط شخصين فحسب انهاروكامبول والهندي واستند الى حائط السفينة وجعل ينظر الى البحر نظرات اليأس .

وشاهد روكامبول ذلك منه فترك القيادة حيناً بيد رئيس البحارة وذهب الى نادر ووضع يده على كتفه وهو غير منتبه ، فالتفت اليـــه منذعراً . ولكنه عرفه للحـال ، فقال له روكامبول : لقـد تم كل شيء على مـا أبتغي ، وأنا الآن أتولى إدارة السفينة . فعد لي بعد هنيهة الى ان ينام رئيس البحارة .

ثم تركه وعاد الى رئيس البحارة واستــلم منه القيادة وأطلق سبيله ، فانصرف الى قمرته لينام وهو آمن مطمئن غير مكترث لغرق البحار لاعتقاده أنه من الملقيين .

- ٤٣ -

بعد ذلك بساعة كان نادر يدير دفة السفينة وروكامبول يتولى القيادة العامة دون ان ينتبه اليه احد لانه كان يقلد صوت الربان أتم التقليد ، وكان الظلام حالكاً وكل بحار منهمك في عمله الخاص .

ولم يكن روكامبول يخشى إلا من رئيس البحارة ، ولكنــه كان ذهب إلى غرفته فخلا الجو له ولنادر ودفع السفينة الى حيث يريد دون ان ينتبه البحارة الى جهة سيرها لشدة الظلام .

وكان الهندي قد سقط الى الماء منذ ثلاث ساعات وروكامبول يعلم انه يسير الى جهة الشاطىء ولم يره أشعل النيران حسب الاتفاق وبات يخشى أن يطلع الفجر فيفتضح أمره .

وفيما هو مفكر ونظره متجه الى الشاطىء إذ شاهد نوراً أحمر قد سطع فجأة وشاهد دخاناً كثيفاً يكتنفه فما شك انه نور العصابة وضعه الهندي حسب الاتفاق في موضع تكاثر فيه الصخور .

فاطمأن خاطر روكامبول ولم يعد يشغله غير امر واحد ، وهو ابن الرجاء عثمان ، فانه كان في السفينة مع تريبورينو . فجعل يتداول مع نادر في طريقة إنقاذه من الغرق ، حين تكسر السفينة . فاتفقـــا أنه حين تلطم السفينة بأول حجر ، يهجم نادر على الغرفة ، فيختطف الغلام ويسقط به الى البحر .

ولم يكن في السفينة غير عشرة بحارة، ولكن رجال نادر أكثر عدداً ومتى جنحت السفينة وتحطمت فوق الصخور هجم أبناء سيوا على اولئك البحارة المضطربين فكان فوزهم مضموناً .

وعلى ذلك إطمأن الرجـلان ، ودفعا السفينة فاندفعت تسابق الرياح الى جهة النيران .

أما تريبورينو فانه بعد ان بددت الدارعة شمل القرصان ارتاحت نفسه ، وكان يتفقد الربان الجريح من حين الى آخر إذ لم يكن يستطيع مغادرة الفراش كما انه كان يصعد الى ظهر السفينة كلما خرج من غرفته فيدخن سيكارة ويراقب الجو ثم يعود الى الغرفة .

وقد اتفق انه صحا من نومه فسمع أنين الربان وتألمه الشديد من جراحه ، فاتشح برداء كبير وذهب لعيادته . فعزاه وآساه ثم صعد الى ظهر السفينة حسب عادته فرأى كل شيء سائراً في مناهجه المألوفة ولم يستوقف نظره غير ذلك الضوء الذي كان ينبعث من الشاطيء ولكنه حكم بعد إطالة النظر انه منـارة وضعت لارشاد المسافرين

وكان نادر جالساً عند الدفة يديرها وفوق الدفة مصباح ضعيف ، فرأى تريبورينو وجهه على ضوء ذلك المصباح واستغرب وجود هذا الملقي إذ أن للدفة عمالاً أخصاء .

فدنا منه وسأله عن السبب في قيادته الدفة .

فأجابه نادر بملء السكينة ان الربان عينه عليها لأنه يعرف هذه الجهات

حق العرفان ، ولأن عمال الدفة قتل معظمهم في المعركة الأخيرة التي حدثت مع القرصان .

فاقتنع من جوابه وعاد الى قمرته .

وعند نزوله مر بغرفة الربان الجريح ، وكان لا يزال يئن ويتوجع ، فدخل اليه .

أما الربان فانه انقطع عن الأنين حين شاهده وسأله : كيف البحر ؟

- إنه موافق لسير السفينة .

- والطقس ؟

- إن الرياح آخذة بالشدة .

- ومن على الدفة ؟

- واحد من الملقيين .

فارتعش قائلاً : من الذي عينه عليها ؟

- الربان الثاني .

- المسيو مرفي ؟

- نعم .

- إن هذا مستحيل .

- بل هذا الذي حدث لأن الملقي يدير الدفة .

فاضطرب الربان وحاول ان ينهض ، ويصعد الى ظهر السفينة ، فلم يستطع فقال لتريبورينو · أرجوك ان تذهب الى مرفي وتدعوه إلي لأني أحب أن أكلمه .

فامتثل تريبورينو وعاد الى ظهر السفينة .

وكان روكامبول يمشي ذهاباً وإياباً فوق السفينة وهو يدخن ، وقد باتت السفينة على قيد نصف ميل فقط من الشاطىء .

فتصدى له تريبورينو وقال له باللغة الفرنسية أشعل لي سيكارتي .

فلم يرد وأعطاه سيكارته .

أما تريبورينو فانه أشعل سيكارته وأعادها له فرأى وجهه على ضوئها الضعيف وصاح صيحة منكرة لأنه عرفه .

- ٤٤ -

وقد حال هدير الأمواج دون سماع صيحة تريبورينو فلم تصل الى مسامع البحارة .

أما روكامبول فانه أيقن ان الوقت من ان يتردد فهجم عليه فجأة ، وقبض باحدى يديه على عنقه ثم جرد خنجره قائلاً : إذا فهت بكلمة فأنت من الهالكين .

ولم ير أحد من البحارة ما جرى ما خلا نادر فانه شاهد الاثنين عن بعد فعلم ان الأمر خطير فترك الدفة وهي موجهة الى الشاطىء وأسرع الى روكامبول فرآه قابضاً على عنق تريبورينو وعلم كل شيء

وكان تريبورينو بعد أن نال هذه الثروة العظيمة أصبح جبان النفس ، منخلع القلب ، ولم يجب بكلمة . ولكنه كان ينظر الى روكامبول نظرات ملؤها الرعب .

وعاد روكامبول الى الوعيد وقال له بصوت منخفض إذا جاء أحد الى نجدتك أغمدت خنجري في قلبك فلا يجدك حياً .

ثم التفت الى نادر قائلاً له : أسرع انت الى غرفة هذا الخائن وخذ الغلام واسقط به الى المياه ولا تخف علي فسنجتمع في الشاطىء .

- والسفينة ؟

- إنها سائرة الى حتفها ، ألا تراها دنت من الشاطىء . أسرع الآن ولا

نضيع الوقت .

وانطلق نادر الى غرفة تريبوربنو .

وبعد هنيهة سمع روكامبول صوت صياح الغلام ثم سمع صوت سقوط في المياه فأيقن ان نادر قد نجا بالغلام .

وعند ذلك انصرف الى تريبوربنو ، فألقاه صريعاً الى الأرض فصاح عند سقوطه صيحة شديدة خشي روكامبول ان يكون البحارة قد سمعوها فرفع خنجره وحاول ان يغمده في صدره. ولكنه قبل ان يضربه شعر بيد قوية قد دفعته عن خصمه وسمع صوتاً يصرخ بلهجة الملح المضطرب : أسرعوا . أديروا الدفة . أطووا الشراع .

فعلم أن الصوت صوت الربان الأول وشاهد ان الذي دفعه عن تريبوربنو كان رئيس البحارة .

أما السبب في قدوم الربان فانه استبطأ تريبوربنو فأيقن انه لم يتأخر إلا لأمر خطير فأجهد نفسه وخرج من غرفته فكان اول ما شاهده أضواء أبناء سيوا وهو يعلم انه لا منائر في تلك الجهات.ثم شاهد السفينة تتجه الى الشاطىء وانها باتت قريبة جداً منه .

وكاد يجن من يأسه وصاح بصوته القوي ينادي رئيس البحارة فهب الرجل من نومه مرعوباً ، وأسرع الى تلبية نداء رئيسه ، فصعد الاثنان الى ظهر السفينة ، وشاهدا ذلك الخطر المحدق بها .

وانصرف الربان الى ملافاة الخطر المحدق بها ، وهجم رئيس البحارة على روكامبول وأنقذ تريبوربنو من الموت .

أما الربان فإنه نجا السفينة من الخطر باسراعه في طي القلوع وتحويل الدفة فأمنت الخطر بعد ان كانت سائرة الى الهلاك ولو تأخر هنيهة لقضي عليها ولم تنفعها الوسائل .

وأما روكامبول فانه نهض مسرعاً وانقض على رئيس البحارة وطعنه بخنجره

وركض الى حائط السفينة بغية الهرب بالقاء نفسه في المياه غير انه وجد ثلاثة من البحارة قد اعترضوا سبيله فلم يفضل له إلا النزول الى جوف السفينة والهرب من أحد منافذها

فأسرع راكضاً الى النزول حتى اذا وصل الى غرفة الربان الأول شاهد ان البحارة وتريبورينو كادوا يدركونه ، فدخل الغرفة مسرعاً وأقفل الباب من الداخل .

فرفس تريبورينو الباب برجله وجعل يصيح قـــائلاً . أكسروا الباب واقتلوا الخائن .

وكان لباب هذه الغرفة كوة كان الربان قد فتحها خاصة لمراقبة العمل ، فاطل روكامبول منها فرأى تريبورينو يزبد كفحل الجمل الهائج ، ومعه خمسة بحارة

فعلم انهم سوف يكسرون الباب ولا يبقى له مناص منهم .

غير أنه وجد طريقة لحسن حظه توقفهم عن كسر الباب الى أن يأمن شرهم . وذلك ان الربان حينما شاهد سفينة القرصان احتاط لها وأمر باخراج صناديق البارود من العنبر ففرقوها في الغرف ووضعوا صندوقاً منها في غرفة الربان قرب سريره .

وقد وجد على مائدة الربان غدارتين ، فتسلح بهما ، وصوب إحداهما على البرميل .

وعند ذلك سمع صوت تريبورينو قائلاً . أكسروا الباب واقبضوا على هذا اللص .

فأجابه من الداخل . إنك إذا كسرت الباب أطلقت مسدسي على برميل البارود فنسفت بكم السفينة نسفاً وبتم جميعكم طعاماً لأسماك البحر .



إلى هنا انتهى كتاب روكامبول وقد أقام مرميس في تلاوته ثماني ساعات فلما وصل إلى آخر صفحة من هذا الكتاب الغريب وقف وقفة الحائر ، إذ لم يعلم كيف نجا روكامبول من السفينة ، وإذا كان التقى بنادر وابن الرجاء عثمان ، أم لم يلتق بهما ، وماذا جرى بين روميا ونادر ، كل ذلك بقي لديه لغزاً يعسر حله .

فلما أتم تلاوته إلى ميلون وسأله : إن هذه الحكاية لم تتم بعد .

– ستعرف بقيتها متى التقيت بالرئيس .

– لكن متى نلتقي وأين ؟

– ستعلم ذلك غداً .

– والآن أنبقى في هذا البيت ؟

– كلا ، بل نخرج منه متى شئت .

– إذاً لنخرج الآن فقد بت محتاجاً إلى الهواء والنور بعد هذا الحبس الطويل في جوف الأرض .

– هلم بنا

وخرج الاثنان .

- ٤٥ -

بعد ذلك بثلاثة أيام كان مرميس وميلون في لندرا وقد وصلا اليها في الصباح ونزلا في فندق هانوفر .

وكانت هيئة مرميس تظهر على انه من الأشراف ، وهيئة ميلون على أنه وكيله .

أما السبب في قدومهما إلى لندرا فهو أنه حين خرجا من البيت السري ،

قال له ميلون : اني أخبرك الآن بأوامر الرئيس فهي اننا نبيت الليلة في باريس وغداً نذهب إلى لندرا .

- إن روكامبول ينتظرنا فيها دون شك .

ـ لا أعلم ولكنه أمر أن نقيم في فندق هانوفر حين نصل إلى لندرا وهذا كلما أعلمه .

إذن لا بد أن نجده أو نجد فاندا .

وباتا تلك الليلة في باريس وفي اليوم التالي سافر إلى لندرا ونزلا في الفندق الذي امر روكامبول أن ينزلا فيه فلما كتب مرميس اسمه في سجل المسافرين ورأى أن عمال الفندق قرأوه دون اهتمام علم ان روكامبول غير مقيم فيه .

وأقام في ذلك الفندق طول النهار راجياً أن يحضر روكامبول ولكنه لم يحضر ، فلما حل الليل قال لميلون : ابق أنت في الفندق وأنا ذاهب للطواف في المدينة علي أظفر بروكامبول

ثم لبس وتأنق وذهب إلى النادي الهندي ، وهو في ذلك العهد من أعظم النوادي فتمشى فيه وذهب إلى الاوبرا حيث كانوا يحتفلون فيها بتمثيل رواية جديدة لاعتقاده انه لا بد ان يجد الرئيس بين المتفرجين .

فلما دخل وجد القاعة غاصة باعيان الانكليز ففتش بنظره عن روكامبول تفتيشاً دقيقاً فلم يره .

ولكنه رأى غرفة من غرف الأوبرا لا تزال فارغة فقال في نفسه : لا بد أن الرئيس قد استأجر هذه الغرفة له ولفاندا وسوف يحضر فان الممثلين لم يفرغوا بعد من تمثيل الفصل الأول .

وبعد هنيهة رأى أن باب هذه الغرفة قد فتح ودخل منه رجل وامرأة ولم يكن الداخلان روكامبول وفاندا ، غير ان علائم الدهشة ظهرت على وجه مرميس لأن هذه المرأة التي دهش لجمالها جميع الحاضرين ، انما كانت روميا ، أي البستانية الحسناء .

أما الرجل الذي كان يصحبها فقد كان مربوع القوام ، وهو بين العمرين أميل إلى الكهولة ، غير انه كان شديد التأنق بملابسه ، تدل ملامحه على النبل فلم يكد يدخل الى اللوج حتى انصرفت اليه الأنظـــار وتحولت عن البستانية الحسناء .

فدهش مرميس ولم يدر السبب في اتجاه الأنظار إلى الرجل دون المرأة وكان الى جانبه رجل من الانكليز رآه في النادي ، فالتفت اليه وقال له : أتعلم سبب اهتمام الناس بهذا الرجل فهل كان ذلك لجمال امرأته ؟

– كلا ، بل انهم قد انصرفوا اليه دونها لاهتمامهم به نفسه .

– ومن عساه يكون هذا الرجل ؟

– هو الماجور لنتون

فارتعش مرميس إذ علم انه تريبوريدو .

اما الانكليزي فانه مضى في حديثه فقال . ان هذا الرجل قدم حديثاً من الهند بثروة عظيمة لا يحيط بها وصف ولا تذكر في جنبها ثروات الانكليز حتى لقد قيل عنه انه جاء من الهند بالوف من الأحجـار الكريمة التي لا يوجد مثلها في تيجان الملوك .

– ولكن كيف حصل على هذه الثروة ؟

– الشائع انه جمعها من تجارة الأفيون .

– وهل جعل اقامته في لندرا ؟

– يقال انه سيقيم فيها في الصيف ، وأما في الشتاء فسيقيم في قصر فخم اشتراه في بلاد الغال .

فبدأ مرميس يفتكر ان لروكامبول يداً في جميع ذلك ، وسأله قائلا : هل امرأته قدمت معه من الهند ؟

– ذلك ما لم يعلمه أحد إلى الآن ، فان الماجور قد جـاء معها ، ولكن يظنون انها فرنسية .

- أتراه تزوج بها في باريس ؟
- ربما .

ثم نظر مرميس إلى اللوج فرأى روميا ترمقه بنظرة الحدق فعلم أنها عرفته ثم رأى أنها تبتسم له ابتسامة سرية فقال في نفسه : انها جرأة نادرة ، غير ان تريبورينو لم يرها تبتسم لأنه كان منصرفاً عنها إلى مشاهدة التمثيل خلافاً لروميا فانها كانت شاخصة بأبصارها الى مرميس ، وجال في فكره خاطران ، وهما إما ان روميا لم تقم مع تريبورينو إلا بأمر روكامبول ، واما أنها تخلصت من روكامبول وكان اجتماعها بالماجور لنتون من قبيل الاتفاق والصدفة .

وأقام ينتظر حتى انتهى التمثيل فكان أول خارج من القاعة فوقف عند الباب كي يرى البستانية الحسناء عند انصرافها ، وفيما هو واقف ينتظر شعر بيد وضعت على كتفه فالتفت فرأى الرئيس .

- ٤٦ -

أما روكامبول فانه أجابه وهو يبتسم : أراك مندهلاً مما رأيته ولكنك ستزيد اندهالاً فاصبر

وما لبث أن انهى كلامه حتى أفلت منه مسرعاً واختبأ وراء أحد العواميد فأدركه مرميس قائلاً له : ماذا تفعل ؟

- إني أختبيء كما ترى .

وعند ذلك خرجت البستانية الحسناء وهي تتكيء على ذراع تريبورينو وقد احمرت وجنتاه وبدى جسمه وبدت في عينيه علائم الرضى والقحة كأنه كان يقول : ما فاز باللذات غير أهل الشر .

أما روكامبول فانه قال لمرميس : انظر إلى هذا الرجل .
– لقد عرفته فهو تريبورينو ولكن بقي أشياء لم أعرفها .
فابتسم روكامبول قائلاً : لم يحن الوقت بعد وستعرف كل شيء .

ومرت البستانية الحسناء فرأت مرميس وابتسمت له ، ثم مد روكامبول رأسه فذهب الابتسام عن شفتيها وبدت على وجهها علائم الخوف والخضوع .
ثم مشت مع الوزير إلى مركبة فخمة كانت تنتظرهما فركبا فيها وانطلقت بهما مسرعة

فلما ابتعدت المركبة أخذ روكامبول بيد مرميس قائلاً له : هلم بنا يا بني.
ثم مشى وإياه حتى خرج من الزحام فقال له اعلم الآن أن تريبورينا هائم بالبستانية الحسناء هياماً شديداً منذ ثمانية أيام .

– إن اهل لندرا يعتقدون انها أمرأته فكيف اتفق ذلك ؟
– لأنهم يعلمون أنه جاء بها من باريس ، فاعلم الآن يا بني ان هذه المرأة التي كانت تكوي الشيخ بالنار حتى تطفي دماؤه ناره ، والتي ذهبت بعقل المركيز دي مورفر ، وكانت تجلد ولده بالسياط ، والتي كادت تقضي عليك بالسهر ، ان هذه المرأة الهائلة أطوع لي من البنـــان ، وهي تخضع لأمري خضوع العبيد .

– لقد رأيت شيئاً من هذا غير اني لا أعلم غايتك من تسليمهـــا إلى تريبورينو
– غايتي أن أجعلها آلة في تنفيذ أغراضي منه .
– وماذا جرى لابن الرجاه ؟
– لقد نجا .

– وأين هو الآن ؟
– في باريس ..
– أتسمح لي أيها الرئيس أن أسألك سؤالاً ؟

ـ قل .

ـ ماذا جرى للدوق فنسترنج والمركيز مورفر وابنه ؟

ـ ان الدوق الشيخ مات والمركيز في مستشفى المجانين ، لكنهم يرجون له الشفاء ، وأما ابنه فقد تكفلت به فاندا ، ولم أعد أخشى الآن روميا ، فمتى فرغت من شأني مع تريبورينو أعـــدت للمركيز ثروته من ابن عمه فان الناس يعتقدون إلى الآن انه ميت .

ـ وفاندا أهي في باريس ؟

ـ كلا بل هي معي في لندرا .

ثم سكت روكامبول هنيهة ونظر إلى مرميس قائلا : أراك تريد أن تـسألني أيضاً سؤالاً آخر يتردد بين شفتيك حتى يكاد يلهبهما .

ـ هو ما تقوله يا حضرة الرئيس .

ـ انك تريد ان تعرف كيف خرجت من السفينة وكيف اجتمعت بنادر وابن الرجاه ، ان الأمر بسيط ، فاني حين كنت في غرفة الربان جيون هابر ، كنت مصوباً الغدارة على برميل البارود أنذر السفينة بالنسف ، فخـــاف تريبورينو أن أكون صادقاً في وعيدي وجعل يتشاور مع الربان فـيما يجب فعله ، فاغتنمت فرصة انشغالهم عني ، وخلعت ملابسي بجملتها وخرجت من نافذة غرفة الربان المطلة على البحر والقيت نفسي

كان الفجر قد انبثق فلما شعروا بسقوطي إلى البحر كنت أبتعـد عن السفينة نحو مائة متر فأسرعوا إلى ظهر السفينة واطلقوا عليّ بنادقهم فكان الرصاص يسقط حولي كوابل المطر ، ولكني كنت أغوص تحت الماء سابحـاً فأمكث دقيقة حتى يحسبوني غرقت ، ثم أطوف على وجه الميـــاه متنفساً فيعودون إلى إطلاق الرصاص

وما زال هذا دأبي ودابهم حتى بعدت عن مراميهم وأمنت رصاصهم ، وكان الشاطيء قريباً ، فلما دنوت من جهة النار رأيت نادر مسرعاً إلي بقارب

صغير فانتشلني من المياه وسافرت السفينة آمنة إلى اوروبا تحمل كنوز الرجاه وذلك الوزير الخائن .

فقال مرميس : بقي أمر يا سيدي أود ان أعلمه وهو بقية حديث نادر مع روميا والسر في سلطانك عليها .

— أما بقيت هذا الحديث فقد ارويه لك في موضع آخر ، وأما تسلطي عليها فهو ان هذه المرأة قد أحبت نادر حباً عظيماً وانضمت إلى سلك ابناء سيوا ، وقد جعلني نادر رئيساً لهذه الطائفة في اوربا فأنا الآن فيهـــا كما كان جوزج ستوي في لندرا ، لذلك وجب على روميا ان تطيعني لأني بت رئيسها المطلق وجميع خدامها من أبناء سيوا وهم يعرفون رئاستي ومـــا لي عليهم من حق السلطة المطلقة فلا سبيل لها الى عصيان أمري .

والآن فان لدينا كثيراً من المهام التي يجب قضاؤها فاعلم انه يجب عليك ان تتربص في هذا المكان الى ان تأتيك امرأة .

— من هي هذه المرأة العلها البستانية ؟

— كلا بل تأتيك امرأة ارلندية فتظهر لك قطعة من النقود فاذا اظهرتها لك فاتبعها .

— الى اين ؟

— الى البستانية حيث تمتثل لها في كل ما تريد وتفعل كل ما تطلب اليك أن تفعله .

وذكر مرميس ما لقيه من العذاب في منزل هذه المرأة الهائلة وظهرت عليه علائم الاضطراب ، فقال له روكامبول : لا تخف بعد الآن هـذه المرأة فقد باتت منا .

ثم تركه وانصرف ، وبقي مرميس واقفاً في مكانه ينتظر الارلندية .

- ٤٧ -

وتربص مرميس في مكانه ينتظر وهو يراقب خمارة في الشارع كثر تردد الناس اليها وخروجهم منها حتى شاهد إمرأة متسولة خرجت من تلك الخمارة وقربت منه .

وذكر مرميس أنه شاهد هذه المرأة قبل الآن ولكنه لم يذكر أين حتى سمع صوتها وذكر للحال انها تلك الارلندية التي ساعدت على اختطاف حبيبته جيبسي الغجرية ، وقد اضطرب قلبه وهاج غضبه وهم أن ينقض عليها وينتقم منها غير أنه ذكر وصية الرئيس فعلم أنه لا يحق له أن يعمل غير ما أوصاه به فسكن ثائره وكظم غيظه .

ولم يخطر في باله أن هذه الارلندية قادمة اليه حتى رآها دنت منه فقالت له : هل أنت مستعد ؟

فذهل مرميس وسألها لأي شيء ؟

– لتتبعني

– إلى أين ؟

– إلى حيث أمرك الرئيس ، اي إلى بيت روميا .

ثم أظهرت له قطعة من النقود فلم يشكك أنها هي التي عينها الرئيس ، لكنه لم يتمالك عن إظهار استغرابه واشمئزازه فقال لها : إني سأتبعك ولكني أعجب من الرئيس كيف يختار عماله من الأشقياء أمثالك.

قالت : ليكن حكمك علي كما تشاء غير اني أخدم من يحسن إجازتي بملء الإخلاص .

ثم مشت أمامه فتبعها مرميس وما زالا سائرين حتى وصلا إلى جسر لندرا وكان الضباب كثيفاً والظلام مدلهماً فسألها : إلى أين أنت سائرة بي؟

-- إلى النهر وسنجتازه إلى بيت روميا كما أخبرتك .

فتفقد مرميس خنجره ومسدسه ومشى في اثرها غير هيــاب لاعتماده على هذين الحليفين ، حتى إذا وصلا إلى الشاطىء خلعت الارلندية ثوبها الأعلى ، فظهرت رجلا بملابس البحارة ، ثم أخرجت قبعة من جيبها فلبستها وسترت تحتها شعرها .

وهناك قارب كان قد وضع خاصة لها ففكت حباله ونشرت شراعــه وناديت مرميس فوافاها اليه وانطلق يخوض التيمس.

فسألها : العل المكان لا يزال بعيداً ؟

– انه خارج لندرا وسنصل قريباً فان القارب ينطلــق انطلاق السهم لموافقة الريح .

فجلس مرميس في مؤخر القارب يفكر بروكامبول ومقدرته على امتلاك القلوب ، فانه ما استخدم رجلا ، ولو كان من اللصوص الأثمــة حتى انقلب إلى الهدى وخدمه بملء الوفاء والاخلاص ، كإنما لهذا الرجــــل قدرة فوق قدرة الانسان .

وظل القارب يسير في النهر والأنوار تحتجب تباعاً حتى بات في ظــلام دامس فعلم أنه خارج لندرا .

وبعد أن توغلا هنيهة في الظلام ظهر له على الشاطىء الأيسر ضوء ينبعث من أحد المنازل فقال لها : ما هذا الضوء الجديد الذي نراه ؟

– هو ضوء المنزل الذاهبين اليه وقد أشرفنا عليه .

ثم قامت إلى الشراع فطوته ووضعت المجذافين في موضعهما وجعلت تجذف بهما ، فما مرت بها بضع دقائق حتى وصلت إلى الشاطىء فنزلت اليه وربطت القارب .

وعند ذلك نزل مرميس فقالت له: أنظر هذا البيت والحديقة التي تكتنفه ألا ترى باب الحديقة ؟

– نعم .

— هوذا مفتاحه .

ثم أعطته مفتاحاً صغيراً وقالت له : إذهب وافتح به البـــاب وامش في الحديقة حتى تغدو تحت نوافذ المنزل فصفق بيديك ثلاث مرات فانها الملامة المتفق عليها .

— ألا تأتين معي أنت ؟

— كلا .

ثم تركته وعادت من حيث اتت .

- ٤٨ -

وقد تردد مرميس هنيهة حين رأى الارلندية تركته وعادت مسرعة ، وجال الشك في نفسه إذ خشي أن تكون هذه المرأة رسول تريبوريئو .

غير ان هذا الخوف لم يتجسم في قلبه فانه ذكر أنها أظهرت له الاشارة التي عينها الرئيس ، فأخذ المفتاح وتقدم إلى باب الحديقة ففتحه ، ودخل ويده قابضة على مسدسه من قبيل الاحتياط .

ولما دخل أقفل الباب ورأى ضوءاً منبعثاً من نافذة في المنزل فاهتدى به واخترق الحديقة تواً اليه حتى إذا بات تحت تلك النافذة صفق بيـديه ثلاث مرات فرأى أن الضوء قد تحول عن مكانه ثم رأى أن باب الغرفة المشرفـة على الحديقة قد فتح .

وهناك سلم من الرخام فصعد درجاته غير هياب حتى انتهى إلى باب فولج منه إلى فسحة ضيقة لا ضوء فيها وسمع صوت امرأة تقول له : تعال من هنا . فعلم أن الصوت صوت روميا .

ثم شعر أنها أخذت بيده وقالت : اتبعني .

فتبعها وسات به إلى أن اجتاز تلك الفسحة وانتهيـا إلى سلم فرشت درجاتها بالطنافس فقالت له همساً : اصعد وأحـذر أن يسمع حس لوقـع أقدامك .

– السنا وحدنا هنا ؟

– كلا فإن لنتون في الغرفة التي فوقنا .

– أفي الغرفة التي رأيت فيها الضوء ؟

– نعم .

فصعد مرميس بما أوصته من التـأني حتى وصلا إلى آخر السلم ففتحت البستانية الحسناء باباً عن يسارها ودخلت منه فتبعها مرميس فوجد نفسه في قاعة صغيرة تكتنفها الظلمات .

غير انه رأى في أحد جدران القاعة ثقباً صغيراً ينفذ منه النور الذي شاهده وهو في الحديقة .

فقالت له روميا : ضع عينك فوق هذا الثقب وانظر .

ففعل ونظر مقعداً شرقياً كبيراً ورأى عليه شخصاً نائماً بملابسه وقـد سقطت فوق صدرته البيضاء بعض نقط من الخمر .

ورأى بجانب المقعد منضدة وضعت فوقها قناني الشراب الفارغة وصينيـة عليها بقايا طعام .

فقالت همساً : انه نائم .

فوضع مرميس فمه في أذنها وسألها : العـله نائم نوم تخدير بأدويتك السرية .

– كلا بل هو صريع السكر .

– العله سكر بالأفيون ؟

– بل بالخمر .

فابتسم مرميس وقد عجب كيف انها أسكرته بالخمر وفي وسعها ان تضله

عن الرشد بما لديها من العقاقير المخدرة .

وكأنها قد علمت ما جال في فكره فقالت له : أراك منذهلا مما تراه ، لكن الماجور لنتون ، هو غير المركيز دي مورفر .

وقد لفظت اسم المركيز بصوت أجش فعلم مرميس أنها لو لم تصبح عبدة لروكامبول لما سلم قاتل حبيبها برديتو من انتقامها الفظيع .

غير ان مرميس لم يجبها فقالت له : إن لنتون عاش في الهند دهراً طويلا فهو يعلم ما أعلمه من أسرار الأزهار والمخدرات والسموم ، ولا أستطيع الوقوف على سره بالمخدرات ، بل بالغرام .

- العل له سراً ؟

- دون شك ألم يقل لك الرئيس شيئاً عنه ؟

- كلا ، فقد قال لي انهم سيأبون بي اليك وانك ستخبرينني بما يجب أن أعلمه .

- إذاً فاعلم ان الماجور لنتون عاد من الهند بثروة عظيمة .

- اني اعلم بهذه الثروة .

- وان الرئيس يريد سلبه إياها .

- وهذا أعلمه أيضاً .

- غير اننا لا نزال نجهل أين توجد هذه الأموال ، فانه شديد الحذر كثير الحرص عليها وقد خبأها في مكان لا يعلم به أحد وهو على فرط غرامه بي لم استطع أن أعلم منه شيئاً إلى الآن .

- ولكنه لا بد أن يكون أودع أمواله المصارف فكيف السبيل اليها؟

- انه لم يودع شيئاً منها خلافاً لما تتوهم ، بل انه اكتنزها أو خبأها في مكان لا يهتدي اليه سواه ، وهذا ما نبحث عنه الآن أنا والرئيس

- ولكنك تقولين أنه يهواك .

– نعم ، لكنه يحبني كما يحب الغني أداة ثمينة ، أو حصاناً جميلاً فهو يحبني بعينيه لجمالي ولكنه لم يحبني بقلبه بعد ، على أنه إذا لمست هذا القلب عقرب الغيرة بات في قبضة يدي أفعل به ما أشاء .

– ولكني أراه يذهب بك إلى المراسح والمنتديات فلو كان يخشى الغيرة لما عرضك للعيون .

– انه يرى الناس يحدقون بي فيسر لأنـــه لا يغار من جميع الناس وان الغيرة لا تكون إلا من واحد .

– أتريدين أن تقولي انك تستطيعين حمله على الغيرة .

– دون شك ، إذا أردت أن تمثل الدور الذي أسألك تمثيله ، بـأمر روكامبول .

– اني أفعل كل ما يأمرني به الرئيس .

– إذاً فاسمع .

ثم جلست وإياه على مقعد كان يبعد خطوتين عن الثقب الذي رأى منـه تريبورينو .

– ٤٩ –

أما تريبورينو فقد كان صريع سكره وهو نائم بسكينة وارتياح .

وقد كان متعوداً منذ عشرين عاماً أن يسكر عند العشاء وينـام فاذا صحا من رقاده ذهبت السكرة وعاد إلى ما كان عليه من الصحو .

وكان آخر عهد القراء به أننا تركناه في الباخرة العائدة من الهنـد إلى انكلترا ، لكنه لم يعد إلى بلاده تواً ، بل انه عاد قبلاً إلى فرنسا وأقـام في باريس عدة أيام .

وانه كان يتجول ليلة في شارع الايطاليين ، إذ رأى البستانيــة الحسناء فدهش لجمالها ، ولا نعلم إذا كانت يد الصدفة قد دفعتها إلى لقائه في هــذا الشارع أم يد روكامبول ، ولكن الرأي الثاني أقرب إلى الصواب .

أما تريبورينو فقد كان واثقاً من نيل كل ما يريد بفضل تلك الثروة الهائلة فلما رأى روميا وراقه جمالها أرسل من اقتفى أثرها وحظي منها بموعد لقاء وبعد ثلاثة أيام جاء بها إلى لندرا .

ولم يكن قلبه خالياً من الغيرة كما توهمت روميا ، فانه إذا كان واثقاً من المستقبل فلم يكن مطمئناً للماضي ، وكان يقول في نفسه : ان هــذه الحسناء مهما بلغ من طمعها فاني استطيع ارضاءها بجزء من مائة من ايرادي ، ولكني أخشى أن يكون قلبها عالقاً بأحد عشاقها وأنها تحبني حب مكر ورياء .

أما روميا فانها لم تكن تجهل مخاوفه فكانت تزيد هواجسه ولا تكشف له شيئاً من أسرار ماضيها بل انها كانت تبدر منها من حين إلى حين كلمات مبهمة تهيج ثائر هذا العشيق فيبيت منها بليلة الملسوع.

ولقد تقدم لنا القول ان تريبورينو كان يسكر فينام ثم يستفيق من تلقاء نفسه بعد أن تزول نشأة السكر ، غير انه في هذه الليلة لم يستفق من تلقــاء نفسه حسب عادته بل أنه صحا لسماعه صوت ألم شديد فهب منذعراً اذ علم أن هذا الصوت صوت عشيقته روميا .

فناداها باسمها فلم تجب فوثب من مقعده إلى الغرفة المظلمة المجاورة فعثر بجسم ممدد على الأرض .

وكان ضباب السماء قد انقشع ونفذت أشعة القمر إلى تلك الغرفة فرأى تريبورينا على نوره روميا ممددة على الأرض لا حراك بها .

فذعر ذعراً شديداً وقد حسبها ميتة ، فحملها بين ذراعيه وجعل يناديهــا فلا تجيب .

وفيما هو يجس قلبها شعر أن يده قد لمست مادة لزجة عند كتفها ، فصاح صيحة منكرة إذ علم انها دماء ، وأسرع إلى جرس الخدم فقرعه قرعاً شديداً فوافاه اثنان منهم وبأيديهما المصابيح ، وحملوا البستانية إلى سريرها وجعل يفحصها ، فرأى انها مجروحة في كتفها جرحاً غير خطر ولكن الدماء كانت تتدفق منه .

وجعل يشممها المنعشات حتى استفاقت ففتحت عينيها وجعلت تنظر إلى ما حواليها نظرات تشف عما داخل قلبها من الرعب .

وسألها تريبورينو : قولي ماذا جرى .

– لا شيء

– كيف لا شيء وهذا الدم ؟

– إني عثرت بالمقعد فسقطت .

– بل انك تكذبين .

– كلا .. كلا .. لم يحدث شيء .

– انك أصبت بضربة خنجر ..

– لا أعلم .

– من دخل الى هنا ؟

فنظرت روميا إلى ما حولها بذعر وقالت : لم يدخل أحد .

وكانت النافذة مفتوحة ، وكانت تقول هذا القول وهي ناظرة اليها نظرة تتنهد ، كي توهمه أن الرجل دخل اليها من النافذة ، وانها تتنهد لما علق بقلبها من هواه

وقد رأى تريبورينو منها هذه النظرات فجن من غيرته وترك روميا بين أيدي الخدامين يضمدان جرحها ثم ركض الى الحديقة وجعل يفحص ترابها فرأى آثار أقدام على الرمل فاقتفى الأثر حتى انتهى الى باب الحديقة فوجده مفتوحاً .

ولم يعد يشكك ان البستانية جرحت من أحد عشاقها وعاد الى المنزل وهو يزبد من الغضب وأمر الخدامين بالانصراف وجلس بجانبها فقال لها : ان رجلا قد دخل هذه الليلة الى هذه الغرفة وطعنك بخنجره ، فمن هو هذا الرجل ؟

فهزت البستانية الحسناء رأسها وقالت له : لا تسألني فاني لا أستطيع أن أقول شيئاً

فقال لها بلهجة التهديد · ولكني أريد أن أعرف كل شيء .

— ذلك محال .

فضرب الأرض برجليه وقال قلت لك أريد ان اعلم

— ولكني لا أستطيع أن اقول شيئاً ، فاذا شئت اقتلني .

ونظر تريبورينو فرأى ذلك الخنجر الذي جرحت به روميا على الأرض وأسرع اليه فاختطفه وعاد به الى روميا فقال لها : تكلمي أو لا تلقين مني غير الموت .

- ٥٠ -

أما البستانية الحسناء فانها لبثت ساكنة هادئة كأنما هذا الانذار غير موجه اليها .

وأما تريبورينو فان الغيرة قد صعدت من قلبه الى رأسه فألهبت دماغه وبات كالمجانين ولبث يردد هذا القول : تكلمي أو اقتلك

ولما طال تهديده رفعت روميا رأسها بعد اطراقها ونظرت اليه بعين كانت تتقد اتقاد السلاح سطعت عليه أشعة الشمس ثم ابتسمت ابتسام الساخر وقالت له تريد ان اتكلم اليس كذلك ؟

فضغط تريبوريتو على قبضة الخنجر حتى كاد يسحقها وقال نعم أريد أن أعلم كل شيء .

فلم يظهر على روميا شيء من الرعب وقالت له : إذا كانت هذه إرادتك فليكن ما تريد وسأتكلم .

— أرأيت كيف انتهى بك التهديد الى الخوف ؟

— كلا إني لا أخاف هذا الموت الذي تنذرني به ولكني أريد ان أنهج معك منهج الحرية فقد كفاني ما القاه كل يوم من غيرتك .

وكانت تتكلم هذا الكلام بلهجة تظهر التهكم فاضطرب تريبوريتو ولكنه كظم غيظه وصبر الى أن تتم حديثها .

وعادت روميا الى الكلام فقالت · إني سأكون معك حرة الكلام والضمير فاعلم إني لست امرأة طاهرة نقية ، وما أنا من أهل العواطف والأحلام ، بل أنا تاجرة جمال ، ولكني شديدة الطمع ببضاعتي ، فأنا أريد قصراً لا منزلاً ، ولو استطعت اصغت النجوم عقود وجملت بها هذا العنق الذي تهواه .

أما وقد عرفت ذلك مني فاعلم الآن إني ما أصغيت إلى حديث غرامك إلا بعد أن قيل لي بأنك أعظم مثر في هذا الوجود .

فأجابها تريبوريتو : وأنا أعلم إنك طامعة بمالي ، ولو كنت مكانك لما فعلت غير ما تفعلين ولكن جميع ما قلتيه لا ينبئني عن هذا الرجل الذي دخل إلى غرفتك .

— بل هذا الرجل الذي كاد يقتلني ، وطبع فوق كتفي أثراً من خنجره ..

فهاج غضبه وقال : نعم إني أطلب ان أعرف اسم هذ الرجل .

صبراً واصغ الى ان أتم حديثي . إنك حين لقيتني في باريس كان لي خيل ومركبات وجواهر وقصور ولم يكن علي ديون ، فكنت أنفق في العام

ثلاثمائة الف فرنك

- ماذا تريدين بذلك ؟

- أريد انه قبل ان يعود الماجور لنتون بالكنوز من الهند كان يوجد في باريس من يحبني وينفق علي كما أشتهي .

فوقع هذا الكلام من قلبه وقوع السهم ، لأنها عرفت منه موضع الضعف إذ علم أن مزاحمه في عشقها لم يكن من عامة الناس وفقرائهم فهاجت عوامل الغيرة منه وسألها : ومن هو هذا الرجل الذي يستطيع أن ينفق إنفاقي ؟

- إنه شخص هواني هوىً عظيماً ولم يسيء إلي بشيء . فلما تركته ولحقتك إلى لندرا كتبت اليه كتاب وداع ، ولكني حرصت على إخفاء أثري

وهذا الأثر ؟

إقتفاه لفرط عشقه إياي وعرف أين انا .

- أجسر على القدوم إلى هنا ؟

- نعم .

- ولماذا لم توقظيني حين قدومه ؟

- لأسباب أولها انك كنت سكران .

- وثانيها ؟

- وثانيها إني لا أستطيع طرد رجل عشقني عشقاً مخلصاً ، ونهج معي مناهج الكرام .

فقال لها بلهجة المحتقر : ولكن هذا الكرم دفع به إلى هاوية الإفلاس ؟

- إنك منخدع لأن ثروة هذا الرجل الذي أخبرك عنه لا تنضب ولو أنفق على عشر نساء مثلي لما أثرن عليه .

فهاجت كبرياء هذا السارق وثارت عوامل الغيرة في قلب هذا العاشق فسألها:

من هذا الرجل وماذا يدعى ؟

– إنك لا تعرف اسمه .

– لكن من يكون له مثل هذه الثروة يعرفه جميع الناس لاشتهاره ؟

– إفترض أنه أمير روسي .

– إذا كان هذا الرجل غنياً الى هذا الحد فكيف تركته من أجلي ؟

– لأنهم قالوا لي انك أغنى منه

فسر تريبورينو من هذا المديح وأجاب : لقد أصابوا لأني أغنى إنسان في هذه البلاد

– هذا ما يعتقده الناس في لندرا وباريس بل هذا ما كنت أعتقده أنا ، ولكني لا أعتقد بشيء من هذا الآن .

فتراجع مُنذعراً وقال : كيف ذلك ؟

– إني صدقتك في البدء فلم أسأل عنك ولا عن مقدار ثروتك . على ان هذا الرجل الذي جاءني في هذه الليلة قال لي إذا كان الماجور أغنى مني تنازلت له وتراجعت عن غرامك .

– لقد أصبت بثقتك بي أولاً وأخطأت في النهاية ، وأنا أقبل بهذا الشرط . فماذا قال لك الرجل ايضاً عني ؟

– يقول ايضاً ان هذا الرجل يموه على الناس تمويهاً وانه لم يعد من الهند إلا بمال قليل وبعض الحجارة الكريمة وأن جميع ثروته لا تقوم بنفقتك شهرين ثم يتخلى عنك لإفلاسه فتخسريه وتخسريني .

فضحك ضحكاً عالياً وقال : أهو يظن هكذا ؟

– بل هو يقين لديه يثبته بالأدلة .

– وما هو برهانه ؟

– برهانه انك لم تستودع مصرفاً من مصارف لندرا وباريس وفرنكورت وفيينا مليوناً واحداً من الثروة التي تدعيها .

– هذا أكيد .

– وبرهانه انك لا تمتلك شبراً من الأرض في إنكلترا وفرنسا وغيرهما.

– وهذا أكيد أيضاً .

– وآخر براهينه انهم سألوا عنك حاكم الهند بالتلغراف فأجاب انك برحت الهند بثروة قليلة جمعتها من اقتصادك في رواتبك .

– هذا أكيـد أيضاً ، غير أن لي ألوفـاً من الملايـين تكدس بعضهـا فوق بعض .

– أين هي هذه الملايين ؟

فنظر اليها عند هـذا الكلام نظرة البازي إلى فريستـه ثم قال لها ، بعد سكوت قصـير : إذا قلت لك أين هذه الملايين ، كلفك هـذا السر ثمناً غالياً .

فضحكت روميا ضحكاً دلت به على عدم تصديقها ثم قالت :رضيت بالثمن ولكني أريد ان أعرف

– ٥١ –

وساد السكوت بين تريبوريندو والبستانية الحسناء ، وكان كل منهما يفحص الآخر ويقول في نفسه ترى من يكون الغالب ؟

إلى أن بدأ تريبوريندو الحديث قائلاً . إذن أنت تعتقدين أيتها الحسناء اني مموه محتال ؟

– هذا ما يقوله الناس عنك .

– وترين إني فقير لا تكفيك ثروتي شهرين ولكني كما قلت لك لا يوجد في جميع أوروبا من يملك ربع ثروتي

– كل ذلك ممكن ولكن الكلام وحده لا يكفي

– أتريدين إذاً أن تري ثروتي كي تصدقي ؟

– دون شك .

– إحذري !

– من أي شيء تريد ان أحذر ؟

– من أمر بسيط وهو اني أخاف اللصوص .

– ذلك من حقك لأن من كان مثرياً وجب عليه الحرص على ماله .

– إنه ، إلى الآن ، لم يعلم الموضع الذي خبأت فيه أموالي ، غير شخص واحد .

– إذا كنت قد أوقفت على سرك واحداً ، فلا بأس من أن تطلع عليه اثنين .

– لكن هذا الرجل الذي أطلعته على سري بات عبداً لي وباتت حياته في قبضة يدي فهل يروق لك ان تكوني مثله ؟

– أقبل إذا أضحت هذه الكنوز تحت أمري .

– ولكن يجب ايتها الحبيبة ان أخبرك قبل كل شيء كيف أصبح هذا الرجل عبدي وباتت حياته بيدي .

إن هذا الرجل الذي ائتمنته على سري ارتكب جريمة ، إذا أذيع سرها حكم عليه بالاعدام وإن لدي الأدلة الكافية هي ثبوت جريمته فإذا فشا سر كنوزي فشيت سر جريمته ، فأعدمته بكلمة أرسلها إلى رئيس البوليس . غير انك لا تقاسين الى هذا الرجل ، لأنك لم ترتكبي جرائم فيما أظن .

– من يعلم ؟

– ولو افترضت انك مجرمة فليس لدي برهان يؤيد جريمتك .

فقالت له بلهجة تدل على صدق العزيمة : وإذا أعطيتك هذا البرهان ؟

فاضطرب تريبورينو ، وأتمت هي حديثها فقالت : كلا ان جميع ذلك لا يفيد وأنا لا أزال واثقة من ان ما قيل لي عنك حقيقة لا شك فيها فاسمح لي أن أكلمك بحرية وجلاء .

فقال لها ببرود : تكلمي .

– إن هذا الرجل الذي جاء الى منزلي وطعنني بالخنجر واسع الثروة ، وثروته ظاهرة للعيان . وإن من الحكمة إيثار الجلي على الخفي ، والثابت على المجهول .

أما وقد عرفت هذا فاعلم ان هذا الرجل يدعى غاستون ، وهو في مقتبل العمر يأخذ جماله وريمان صباه بمجامع القلوب . ولم أكن أحبه قبل هذا العهد غير أنه حين طعنني الليلة هذه الطعنة بت ميالة اليه، لأن المرأة تحب الذي تخشاه ، ولذلك لقد عزمت عزماً أكيداً ان أبيت الليلة في منزلك فاستريح ، ثم أفارقك في الغد فراق الأبد .

فلم يضطرب تريبورينو لكلامها ، بل قال لهـا بملء السكينة : وإذا أريتك كنوزي ؟

– هذا أمر يصعب عليك فيما أظن .

– وإذا أريتك إياها ؟

– أوافق ولكن بغير شرط .

– ذلك مستحيل ! .. ولكني أشترط عليك شرطاً واحداً يسهل عليك احتماله ، إذا كنت صادقة النية ، وهو انك لا تفـارقيني بعد إطلاعك على هذا السر .

– على شرط ان يحق لي التمتع بالكنز .

– دون شك .

فابتسمت وقالت : رضيت وهلم بنا لأنك ما خبأت كنوزك في هذا المكان دون شك .

- هو ما تقولين ولكني لا أستطيع الذهاب الآن .
- هوذا برهان آخر على العجز
- كلا ولكن يجب علي قبل ذلك أن أحتاط لنفسي .
- ممن ؟
- منك !

ثم قرع الجرس فأسرع اليه أحد الخدم ، وهو رجل هنـدي جاء به من الهند ، فأخلص في خدمته إخلاصاً أكيداً حتى أنه لو أمره بارتكاب الآثام في خدمته لما تردد .

وكان هذا الهنـدي يدعى لبتينو ، فنـاداه وقال له بالهنـدية : أترى هذه السيدة ؟

- نعم .
- إنـك ستقيم معها إلى أن أعـود . وإذا أرادت الخروج من هـذه الغرفة فاقتلها .

ثم أعطاه الخنجر الذي بيده وقال لروميا: أرجوك ان تصبري بضع ساعات فقط إلى ان أعود .

- ومتى تعود ؟
- في المساء لأذهب بك الى المكان المعهود .
- أتذهب في مركبة ؟
- كلا بل في سفينة .
- وماذا يجب ان أصنع حتى تعود ؟
- يجب ان تصبري وتحذري . أما صبرك فعلى البقاء في هذه الغرفة ، وأما حذرك فمن الخروج منها لأن هذا الهندي وحشي الأخلاق وقد أمرته ان يقتلك إذا حاولت الهرب وهو سيلازمك ملازمة ظلك
- ليكن ما تريد . ولكني أسألك أن تأمر الهندي أن يقف في الرواق ،

عند باب الغرفة ليخفرني ، كي لا أكون وإياه في غرفة واحدة . ولا سبيل لي إلى الهرب من نافذة هذه الغرفة ، لأنها تعلو عشرين متراً عن الأرض ، ثم لا فائدة لي من الهرب بعد ان عزمت عزماً أكيداً على أن تريني الكنز .

— لقد أصبت .

ثم أمر الخادم ان يقف عند الباب خارج الغرفة وانصرف .

وبقيت روميا وحدها ، وبقي الخادم في الرواق يتمشى ذهاباً وإياباً ، مشهراً الخنجر .

وبعد ذهاب تريبورينو بساعة كانت روميا تلاعب حمامة قالت لتريبورينو أنها اشترتها من أحد بائعي الطيور في لندرا .

وكانت الحمامة تطير في جهات الغرفة فتنتقل من كتفها الى كل مكان في الغرفة كما يتنقل الطير على الأغصان .

وبعد أن لاعبتها روميا هنيهة ، قامت الى منضدة وكتبت على ورقة صغيرة ما يأتي :

« راقبوا البيت . سيذهب بي تريبورينو هذا المساء في قارب . إتبعوه لأنه سائر إلى موضع الكنز » .

ثم أخذت الورقة فطوتها ، وربطتها بشريطة في عنق الحمامة ، وفتحت النافذة فأطلقتها . وطارت الحمامة وحلقت في الفضاء تشق عباب الريح .

وعند ذلك ابتسمت وقالت . هذه هي حيلة لم يفطن لها هذا الأبله الخائن ، إذ لم يخطر له ان هذه الحمامة من الحمام الزاجل .

مضى النهار كله دون ان يعود تريبورينو . فأقامت روميـــا في غرفتها لم تبرحها وأقام الهندي على الباب لم ينصرف عنه .

وبعد ان أطلقت الحمامة بساعة عادت اليها تلك الحمامة ووقفت على النافذة وجعلت تحرك جناحيها فأسرعت اليها ووجدت الشريطة معلقة بعنقها وفيها ورقة ففتحتها وقرأت فيها هاتين الكلمتين : « إننا ساهرون ! »

وعندما أقبل الليل عاد تريبورينـو ، وكان الضباب قـد انقشع . فرأت روميا من نافذتها القارب الذي جاء به ، وشاهدت بحارين .

غير ان هذا القارب لم يكن من القوارب الخاصة بالملاحة في نهر التاميز ، بل كان من قوارب السفن التجارية . إذ شاهدت على قبعـات البحارة اسم السفينة التي يخدمون فيها .

ولما دخل تريبورينو اليها قال لها : ألا تزالين أيتها الحبيبـــة مصممة على مشاهدة الكنوز ؟

– دون شك لأني لا أقيم معك إلا على هذا الشرط كما اتفقنا .

– ليكن ما تريدين .

ثم قام الى خزانة ففتحها وأخرج منها قطعة من القماش بشكل كيس له ثقب من وسطه .

فسألته : ما هذا الكيس وماذا تريد به ؟

– أريد ان أحيط به رأسك فإذا لبستيه فلا ترين الطريق الذي سرت فيه وهو احتياط لا بد لي منه .

– إفعل ما تشاء فلا يهمني إلا ان أشاهد الكنز وأثق من ثروتك .

– إذاً هلمي بنا .

وخرج الاثنان من المنزل إلى الشاطىء وهنـاك وضع الكيس في رأسها

وربط أطرافه في عنقها . ولكنها قبل ان تلبسه شاهدت على قيد عشرين متراً من القارب سفينة ضخمة معدة لنقل الفحم وشاهدت رجلا واقفاً عند مقدمها يدخن .

فقالت في نفسها : إني لم أشاهد هذه السفينة قبل الآن ، فاذا كانت هي سفينة روكامبول فلا تستطيع إدراك القارب ، لأنها بطيئة السير لضخامتها .

ثم أخذ تريبورينو بيدها وصعد بها إلى القارب وقال للبحارة : سيروا بنا .

فسار القارب ومر بسفينة الفحم ، فلم يكترث بها تريبورينو ولم ينتبه إلى كلب أسود من كلاب الأرض الجديدة كان واقفاً قرب الرجل على مقدم السفينة .

فلما ابتعد القارب عن السفينة أشار الرجل إشارة الى الكلب فألقى نفسه في النهر وجعل يسبح مقتفياً أثر القارب .

أما البستانية فإنها كادت تختنق من ذلك الكيس ، ولكنها عولت على الصبر الى النهاية ، فقد أمرها روكامبول أن تكتشف الكنز ، فلم تجد بدأ من الامتثال .

وكانت المسافة شاسعة بلغت سير ساعة ، لم تكن البستانية تسمع في خلالها غير وقع المجاذيف بانتظام ، وبعد ذلك شعرت ان القارب قد وقف ، ثم أحست ان تريبورينو قد أخذ بيدها وصعد سلماً فعلمت ان القارب قد توقف قرب سفينة كبيرة .

ثم شعرت انها بلغت الى سطح تلك السفينة الكبرى وسمعت صوتاً يقول : كل شيء قد تهيأ يا مولاي . فأجاب تريبورينو صاحب الصوت قائلاً : أنحن وحدنا ؟

— نعم لقد بعثت جميع البحارة إلى البر .

— والغرفة ؟

— إنها مهيأة حسب أوامركم .
— حسناً .
ثم مشى بضع خطوات مع البستانية ونزل بها سلماً ، حتى إذا انتهيا من نزوله قال لها : إنك تستطيعين الآن ان تنظري ففكي قيود الكيس وانزعيه عن رأسك .

فأزاحت ذلك الكيس الذي كاد يخنقها ونظرت إلى ما حواليها فرأت ذلك الرجل الذي كان يكلم تريبورينو وهو جون هابر وشاهدت ان السفينة خالية لا يوجد فيها أحد سوى هذين الرجلين .

وعند ذلك قال لها تريبورينو : سترين ايتها الحبيبة اني غير مموه خداع كما يتوهم عشيقك .
ثم دخل بها الى غرفة جون هابر . وكان يوجد تحت سريره حصير هندي فأزاح الحصير فظهر من تحته لولب أداره ففتح باب غرفة سري ينزل اليها بسلم. فأخذ الربان مصباحاً ونزل درجات السلم فتبعه تريبورينو وروميا حتى انتهيا إلى الغرفة السرية فرأت أن ضوء المصباح كان ينعكس على أكداس الذهب وأحجار الألماس فتتقد اتقاداً .

فوقفت وقفة المنذهل مما شاهدته من الثروة الهائلة ، ووقف تريبورينو أمامها وقال لها بلهجة الساخر : أترينني صادقاً فيما كنت أدعيه ، أم أنا من المموهين المخرفين ؟

- ٥٣ -

وكانت البستانية قد عرفت قبلاً من روكامبول مقدار هذه الثروة العظيمة ولكنها لم يسعها إلا الاندهاش لأنها شاهدت أكثر مما سمعت . غير انها نظرت

الى تريبورينو وقالت له بعظمة وسكينة : حسناً لقد بت معتقدة الآن انك من الأغنياء العظام .

– أترين اني أعظم ثروة من عشيقك القديم ؟

– دون شك والبرهان اني سأبقى معك .

فابتسم وقال لها : إنك ستبقين معي دون ريب ، فإن زمن سفرك قد فات .

– كيف ذلك ؟

– سوف أخبرك وهلمي معي .

ثم أشار الى جون هابر أن يقفل باب الكنز وقال له : سر بنا إلى غرفة السيدة .

فامتثل الربان ومشى أمامهما وهما يتبعانه حتى وصل إلى غرفة متسعة فدخلا اليها وقال لها هوذا المكان الذي عين لاقامتك .

فاضطربت لما ظهر عليه من دلائل التهكم وقالت : أهذا مسكني ؟

– دون شك .

– لكن أتمنى ان تكون إقامتي فيه إلى الصباح .

– بل الى شهرين او ثلاثة أشهر .

– كيف يكون ذلك ؟

– لأننا سنسافر . وماذا يهمك ما زلت من الأغنياء ؟

– لا أنكر اني عولت على الاقامة معك ، ولكني لا أبغي ان اكون سجينة في هذه الغرفة .

– إنك تبقين فيها إلى ان تقلع بنا السفينة وعند ذلك تصعدين إلى سطحها

– إلى اين نحن مسافرين ؟

– لا أستطيع ان أخبرك اليوم .

– لكن قل لي على الأقل متى نسافر .

- غداً مساء قبل غروب الشمس إذا وافقتنا الرياح .
- إذاً يمكنني ان أعود صباحاً الى البر ؟
- كلا .
- لماذا ؟
- لأنك عرفت الآن سري ولا أحب أن يذاع السر في أحياء لندرا .

فأذعنت لاعتقادها ان إقناعه محال وقبلت مكرهة بهذا الأسر فقال لها : لكن إقامتنا في هذه الغرفة لا تمنعنا عن العشاء .

- من يخدمنا ؟
- جون هابر الربان في هذه السفينة فانه وسفينته ملك لي .

ثم ضرب بيده على منضدة وأسرع اليه الربان فقال : هات العشاء .

وذهب الربان وعاد بعد حين يحمل صينية عليها عشاء فاخر صف من حولها قناني النبيذ ثم حاول الانصراف فأوقفته بحركة وقالت لتريبوريبنو : ألا تأذن لي باحضار حمامتي فانها تؤانسني بهذا السجن ؟

- كيف لا فاني لا أبغي ان تتضجري ولا أتمنى لك الا الخير .

ثم قال للربان : إذهب الى المنزل وأحضر الحمامة بقفصها من غرفة السيدة .

فامتثل الربان وجلس تريبوريبنو حول المائدة يأكل ويشرب القدح تلو القدح حسب عادته في كل ليلة فلم تحن الساعة الثانية بعد انتصاف الليل حتى صرعه الشرب فانقلب ونام على الأرض .

فقامت روميا عند ذلك الى الباب ، فرأته محكم الاقفال من الخارج وأنه متين لا سبيل الى كسره . فضربت الأرض برجلها من القهر وقالت : إني أسيرة ، ولكن لا بد للرئيس ان يعلم اننا مسافرون غداً ، وكيف لي باخباره ؟

وبعد ساعة سمعت صرير المفتاح في القفل ثم فتح الباب ودخل الربان يحمل قفص الحمامة وهي نائمة فيه .

فأعطاها إياها ونظر الى تريبورينو نائماً تحت المنضدة فهز رأسه وقال : ان صوت المدافع لا يوقظه الآن .

– الملك يحتاج اليه ؟

– كل الاحتياج . لقد جئته بنبأ خطير ، ولكن لا بأس فسأصبر حتى يستفيق .

ثم انصرف وأقفل باب الغرفة من الخارج كما كان .

غير ان هذه الغرفة كان لها نافذة تطل على البحر ، كأكثر غرف البواخر ، ففتحتها وقد خطر لها ان تعود الى استخدام الحمامة ، ثم نظرت نظر الفاحص الى تريبورينو فرأت ان السكر أخذ منه ، وانه لا يستفيق قبل ساعتين او ثلاثة ، فأخذت دفتراً صغيراً من جيبها فانتزعت منه ورقة وكتبت عليها ما يأتي :

« انا في سفينة لا أعرف اسمها ولكن الربان يدعى جون هابر ، والأموال مخبوءة في المنبر . إننا نسافر مساء غد واللبيب يفهم بالاشارة » .

(روميا)

ثم أيقظت الحمامة ، وكان الفجر اوشك ان ينبثق ، فعلقت الورقة في عنقها وأطلقتها .

وكان تريبورينو لا يزال نائماً غير ان الحمامة لم يطل غيابها فانها عادت بعد ساعة ووقفت على نافذة الغرفة ووجدت البستانية في عنقها ورقة ففتحتها وقرأت هذه الجملة : « نحن على أتم الاستعداد » ..

فأعادت الحمامة الى القفص وبعد هنيهة صحا تريبورينو من سكرته ووجدها نائمة قربه على مقعد .

ولنرجع الآن بالقارىء الى عهد بضع ساعات مضت، اي حين كان تريبوربنو سائراً بالقارب مع البستانية وحين سقط الكلب في البحر باشارة من صاحبه مقتفياً أثر القارب .

أما صاحب الكلب فانه لبث بعد سقوطه واقفاً في مقدمة سفينة الفحم ، وبعد هنيهة صعد اليه شخص من عنبر السفينة ، وكان هذا الشخص مرميس .

وقد عرف القراء دون شك ان صاحب الكلب لم يكن إلا روكامبول وكان الاثنان بملابس الفحامين وقد اسود وجهاهما وايديهما من غبار الفحم الموجود في السفينة .

فلما صعد مرميس قال له روكامبول : لقد مر بنا هذا اللص بقاربه دون ان ينتبه الينا .

فأجابه مرميس : انه منشغل عنا بغرامه .

— بل بأمواله . وفي كل حال فان روميا في أثره كما قالت لنا في الرسالة التي تركتها مع الحمامة .

فابتسم مرميس ابتسام المعجب باستاذه وقال له : إن هذه الطريقة التي ابتكرتها للمراسلة هي خير الطرق .

— اني لم ابتكرها يا بني فقد كانوا يستعملونها في العصور الوسطى وهذا الحمام يسمى عندهم الحمام الزاجل .

— والكلب ؟

— انه من خير الكلاب الذين يستخدمون للتجسس ، فقد أتيت به من الأرض الجديدة حين عودتي من الهند وهو سيتبع القارب حتى يعرف مقره ولو اجتاز التاميز الى المانش ، واذا توقف القارب عند السفينة عاد الينا

فقادنا اليها .

وكانت السفينة تسير ببطء في اثر القارب ، فلا تصل اليـه حتى اختفى عن الأنظار فجعل الاثنان يتحدثان وهما ينتظران عودة الكلب ، فقال له مرميس : لقد علمت كيف ان تريبورينو لم يطلع البستانيـة على سره لشدة إشفاقه على كنزه ، ولكني لم أعلم كيف انك لم تعلم إلى الآن موضع الكنز ؟

فأجابه : إني أبحث عنه منذ شهر فلا أهتـــدي اليه . ولكني وثقت أن تريبورينو لم يضع شيئاً من المال في مصارف باريس ولندرا وأدمبره ودبلـين .

— ولماذا ؟ أتراه يحاول دفنها في الأرض شأن الأغبياء ، وهو على ما عهد به من الذكاء ؟

— كلا ، ولكنه علم ان الأفكار ثارت عليه وان نظرات حكومة الهند قد تحولت اليه . فهو ينتظر الى ان تهدأ ثورة الأفكار بشأن ثروته وتفرغ الحكومة من البحث في مصادر هذه الثروة ولذلك فهو يخفيها الآن في مكان لا تصل اليه العيون .

وقد كان خطر لي في بدء بحثي انه يتركها في مكانها في سفينة الربان جون هابر الراسية الآن في الحوض ، غير اني رجعت عن هذا الخاطر لما أعلمه عن دهائه وحرصه ، فان هذا الربان قد يقلع بسفينته في ليلة مظلمة الى ميناء مجهول ويستأثر بالمال .

وفيما روكامبول يحادث مرميس سمع نباحاً فعلم انه صوت كلبه وقال· هوذا الكلب قد عاد الينا بالخبر اليقين وسوف ترى

وبعد حين وصل الكلب الى سفينة روكامبول فلما شاهد صاحبه نبح نباحاً قوياً وعاد الى السباحة أمام السفينة كأنه يريد إرشادها الى المكان الذي ذهب اليه القارب .

فقال روكامبول : هلم بنا الآن في أثر الكلب ، فسار الكلب سابحاً امامها والسفينة تتبعه حتى انتهى إلى سفينة جون هابر فجعل يطوف حولها .

فايقن روكامبول أن البستانية في تلك السفينة وأن الكنز لا بد أن يكون فيها ، فاخذ مرسى سفينة الفحم وألقاه في البحر .

فقال مرميس : ماذا تصنع أيها الرئيس ؟

– اننا سنقف قرب هذه السفينة .

– إلى متى ؟

– لا أعلم فاني اراقب الحوادث ثم اضطجع واضطجع مرميس بقربه فكان روكامبول شاخصاً ببصره إلى السفينة يراقبها .

وبعد ربع ساعة شاهد روكامبول شخصاً ينزل من السفينة إلى القارب وبيده مصباح فعرفه روكامبول وقال لمرميس : هوذا جون هابر قبطان السفينة وقد شفيت جراحه وعاد إلى ما كان عليه من القوة .

– ألا يجب ان نقتفي أثره ؟

– كلا ، انه ذهب إلى البر ولا بد أن يعود .

ولقد أصاب روكامبول ، فان هذا الربان عاد بعد ساعة يحمل بيده قفصاً فيه حمامة ، فقال : ان البستانية ساهرة وسنقف على حقيقة امرها قبل الفجر .

– ماذا يجب أن نصنع الآن ؟

– أنت تبقى هنا تراقب كل ما يحدث في السفينة ، أما أنا عائد إلى المكان الذي تذهب اليه الحمامة عادة فاقف على أخبار روميا .

ثم تركه وغطس في البحر فعاد سباحة إلى البر .

ووصل روكامبول إلى البر فنفض ثيابه من المـــاء وذهب إلى وينغ في خمارة كالكراف التي عرفهـا القراء باسم خمارة الملك جورج فلم يندهش كالكراف لمرآه إذ تعود أن يرى منه كل غريبة ولكنه أدخله إلى غرفـة فيها كثير من الملابس المختلفة ، فغير روكامبول ملابسه ويدخل إلى القاعة العمومية وهو بملابس البحارة .

وكان في هذه القـاعة بعض البحارة يشربون وبينهم شخص منزو حول منضدة يشرب منفرداً ولا يشارك القوم في حديثهم .

فلما شاهده روكامبول ارتعش وقال : اني عرفت هذا الشخص ولكني لا أذكر أين غير انه لم يطل تذكره حتى علم انه كان رفيقاً له في سجن طولون فأنكر وجوده في هذا المكان لا سيما وقد شاهده بملابس رؤساء البحارة في السفن الكبرى فقال في نفسه: كيف تمكن هذا اللص أن يفر من السجن فيغدو بحاراً ثم يرتقى إلى رئيس .

فخطر له أن يبحث في شأنه ففتح ساعته كي يعلم إذا كان لديه من الوقت ما يضيعه في البحث عن أمر هذا الرجل فرأى أن الساعة الثالثة فقال في نفسه : لا يزال لي فرصة ساعة فان الحمام لا يرى في الليل .

وكان المكان الذي ألفت الحمامة أن تحضر اليه برسائل البستانية نافذة في غرفة الارلندية وهي الغرفة التي كانت تقيم فيها جيبسي ، أي انها لا تبعد غير بضع خطوات عن خمارة الملك جورج .

وكان الفصل في ذلك العهد خريفاً فلا يشرق النهار قبل الساعة الخامسة فلما نظر روكامبول في ساعته قال في نفسه . ان روميا لا تطلق الحمامة قبل ساعة ولا يزال الوقت فسيحاً لدي .

وكان من عادة روكامبول أنه يعتمد على الصدفة والاتفاق فقد علمته التجارب أن الصدفة خير معين ، لذلك دنا من هذا الرجل الذي رآه في الحارة وجلس بقربه وحياه .

فقال له ذلك الرجل اللابس ملابس رؤساء البحارة : لقد أتيت بعد فوات الأوان أيها الرفيق فقد الفت بحارة السفينة ولم أعد محتاجاً إلى أحد .

- ما هي هذه السفينة ؟

- هي وست انديا لربانها جون هابر وقد عهد الي الربان أن أعد بحارتها لأنها مزمعة على السفر

فاضطرب روكامبول حين سمع اسم هذا الربان وقال للرجل : إني أهنئك بما بلغت اليه .

- بماذا تهنئني أيها الرفيق وما الذي بلغت اليه ؟

- ألم تكن هناك ؟

- أين هناك ؟

فما أحب روكامبول أن يطيل الحديث فقال له باللغة الفرنسية . ألا تذكر أيها الصديق اننا أكلنا أكلا واحداً في سجن طولون .

فاصفر وجه الرجل وقال له وهو يتلعثم ، إنك مخطىء فما دخلت في حياتي السجون .

فأجابه روكامبول ببرود . بل دخلت إلى سجن طولون وكنت تدعى فيه نمرة ٤ ، أما اسمك الحقيقي فاذكر انك تدعي جوزيف كوتيريه أو روديريه لا أعلم فإن العهد بعيد .

فلما سمع الرجل هذه التفاصيل الصادقة جعل يضطرب وباتت أسنانه تصطك من الخوف ، ورأى انه لا سبيل إلى الانكار فقال له : رحماك ايها الرفيق ولا تفضح أمري ، فإني كما تقول قد هربت من السجن وكنت أدعى فيه ٤١ ، لكن ليس في انكلترا من يعلم بشيء من أمري ، وقد وصلت إلى

ما تراني فيه بفضل حسن سلوكي ، ولو كان لي ثروة لوهبتك إياهـا ، لكني أهبك كل ما أملكه .

فابتسم روكامبول وقال · أمعن النظر بي لعلك تعرفني .

– كلا ، بل يلوح لي . ولكن هذا محال .

– أراك عرفتني .

– ۱۱۷ ؟

فقال روكامبول وهو يبتسم : نعم هو بعينه سجين طولون القديم .

وكأنما هذا الرجل قد اطمأن لما عرفه فان ۱۱۷ ، أي روكامبول ، اشتهر في سجن طولون شهرة فائقة ، فانه انقذ السجـــين من الموت ، ومنع آلة الاعدام أن تسقط ، ومن ينقذ اخوانه من السجون فلا يعيدهم اليها ولا تخطر له خيانتهم في بال .

وهذا الذي حمل جوزيف على الاطمئنان حتى أنه جاهر به فقال لروكامبول نعم لقد عرفتك ولم اعد اخشى خيانتك لأني عرفتك .

فقال له روكامبول : لا أنكر اني لا اخونك ، ولكني اشترط في ذلك ان تطيعني في كل ما أريد .

فعاد الرجل الى الاضطراب فقال : اني اطيعك في كل شيء ما عدا الإثم فاني تبت توبة صادقة .

– وأنا ايضاً .

– وقد كرهت العيش القديم وأثرت العيش بعرق الجبين اما وقد عرفت ذلك مني فقل ما تريد .

– اريد ان اشتري اثامك الماضية بعمل صالح يكون كفارة عما اجترمته من الذنوب

فبدت على وجه جوزيف علائم السرور والارتياح : احقاً ما تقول ؟

ــ ان روكامبول لم يكذب بعد ان تاب فهل تطيعني متى وثقت من سلامة قصدي ؟

ــ اطيعك طاعة لا حد لها .

ــ إذاً فاسمع .

وخلا روكامبول بهذا الرجل ، ولم يعلم احد ما جرى بينهما حتى كالكراف .

غير ان روكامبول حين بدأ الفجر ينبثق خرج من الخمارة وهو يقول : لقد اصبح تريبورينو في قبضة يدي .

ثم انصرف الى غرفة الارلندية لينتظر الحمامة وفتح النافذة فما طال انتظاره .

ولما أقبلت الحمامة برسالة البستانية التي تقدم نشرها أجابها عليها بقوله : (نحن على أتم الاستعداد) .

أما تريبورينو فانه صحا من نومه حسب عادته حين شروق الشمس فأجال في الغرفة نظر الفاحص فوجد البستانية نائمة ، ووجد الحمامة في القفص .

وقد وجد ايضاً نافذة الغرفة مفتوحة فخطر له في البدء ان البستانية فتحتها بغية الهرب منها ، لكنه ابتسم وقال في نفسه . إن هذا محال فان الأغنياء لا يهرب منهم النساء وإنما فتحت النافذة التماساً للهواء .

وفيما هو على ذلك سمع قرع الباب ، ثم رآه قد فتح ودخل منه جون هاتر فقال له : إني أتيت في الليل لأراك ولكنك كنت في حالة من السكر يتعذر بها محادثتك .

- العلك أتيتني بشأن خطير ؟

- دون شك .

- ما هو ؟

- أولاً انني جددت تأليف طاقم السفينة .

- لماذا ؟

- إذ لم أجد من الحكمة استخدام الهنديين وتجديد الاتفاق معهم لاسيما وقد بت مشككاً ببعضهم .

- العلك خائف منهم على الكنز ؟

- هو ما تقول .

فسر تريبورينو وقال : الحق انك رجل شريف أمين

- لقد خدعتك الظنون بي فما انا بشريف بل انا خائن مثلك ،

ولكني رأيت ان فائدتي هي في صيانة اموالك ، فبت حريصاً عليهـا هذا الحرص

ولم يظهر تريبورينو استياء من كلام الربان وقال له : إذاً فقـد غيرت البحارة ؟

- نعم ولم ابق واحداً من القدماء .

- وهل البحارة الجدد ماهرون ؟

- انهم من البحارة المجربين وقد كلفت باختيارهم رجلاً فرنسياً كان من كبار المجرمين ففر من سجنه وبات من خير البحارة .

- كيف ذلك اتختار مجرماً لقيادة السفينة ؟

- الم اقل لك انه فر من سجنه فهو سيكون لنا من اوفى الأوفياء إذ يعلم باطلاعي على سره .

- ارى انك قد تعلمت طريقتي ونهجت مع هذا الرجل كما نهجت معك وهي طريقة صالحة في كل حال ، والآن قل لي متى نستطيع السفر ؟

- إننا سنخرج من الحوض في هذا المساء ونرسو الليـلة في عرض النهر في الجهة المقابلة لمنزلك ، وعند الفجر نسافر فقـل لي انت ايضاً الى اين ازمعت السفر ؟

- إننا سنتجول في ايكوسيـا الشرقية ، فقد اشتريت هناك منزلاً منحوتاً في جوف صخر وفي نيتي ان اخبيء اموالي فيه ، إذ تكون هنـاك في امان .

- امـا وقد ائتمنتني على سرك فاسمع اخبرك بمـا لا يخطر لك في بال ، اتذكر ذلك الرجل الذي حاول نسف سفينتنـا ثم نجا من النـافذة وتوارى سابحاً في البحر .

- اتريد به ذلك الفرنسي صديق الرجاه الذي يدعى افاتار ولكنه غرق قبل ان يصل إلى البر ؟

ـ اتظن انه غرق ؟

ـ بل أؤكد ، فقد نشرت جرائد الهند بجملتها انهم عثروا بجثته وجثة نادر .

فقال له الربان ببرود : ولكن الجرائد كلها منخدعة فان هذا الفرنسي لا يزال حياً يرزق وهو الآن في لندرا .

فاصفر وجه تريبورينو وقال : ان وجوده فيها خطر شديد علينا فلنسرع بالرحيل .

ـ ولكني كفيتك مؤونـة هذا الخطر ، الا تذكر انه بعدمـا ابداه من الجرأة في محاولة الاستيلاء على السفينة اننا كتبنا تقريراً عن شرح الواقعـة امضاه جميع البحارة ؟

ـ نعم .

ـ إن هذا التقرير وحده يكفي للحكم عليه بالاعدام إذا اتصل بنظـارة البحرية وسيقبض عليه اليوم .

ـ ولكن اين ؟

ـ في فندق بريستول حيث يقيم ويعيش عيش الأشراف .

ـ أأنت واثق من كل ما قلته لي ؟

ـ كل الثقة .

ـ ارأيته بعينك ؟

ـ رأيته منذ يومين في تياترو غاردن ، فأرسلت احد بحارتي يقتفي اثره فاقتفاه وعلم انه يقيم في هذا الفندق باسم الماجور افاتار .

وجعل العرق ينصب من جبين تريبورينو وقال : اتظن ان البوليس يصدق ما تقول ؟

ـ دون شك فسأذهب إلى نظارة البحرية فأطلعها على التقرير واخبرهـا باسم الفندق فترسل من يقبض عليه .

فمسح تريبورينو عرق جبينه وقال : لقد احسنت ولكني كنت اوثر ان يكون هذا الشيطان قد مات غرقاً .

– انهم سيعدمونه رمياً بالرصاص ، فـإذا تنوعت اسباب الموت ، فالموت واحد .

وعند بلوغهما بالحديث الى هذا الحد تنهدت روميا ، وكانا يحسبان انهـا نائمة فقال له تريبورينو : كفى ، لقد صحت من رقادها ولا احب ان تسمع هذا الحديث .

أما روميا فانهـا فتحت عينيهـا وفركتهما مرات متتالية وهي تنظر نظرات الانذهال الى ما حواليها وتمثل الصحو من الرقاد اتم تمثيل ، ولم يشككا انها كانت نائمة .

ولنعد الآن الى مرميس فانه بقي مضطجعاً فوق سفينة الفحم يراقب سفينة تريبوريدنو كما أمره روكامبول ، واقام طول ليله يراقب السفينة دون ان يلوح له شيء جديد .

وعند الفجر رأى الكلب قد التفت ، فالتفت الى الجهة التي التفت اليهـا فرأى رجلا واقفاً وهو يشير اليه بالمجيء ، فما شكك انه روكامبول بالرغم عن تغير زيه وشكله فأسرع الى موافاته .

وكان هذا الرجل روكامبول نفسه وقد بالغ في التنكر كي لا يعرفه احد فلما صعد مرميس الى قاربه عاد الاثنان الى الرصيف وسارا حتى إذا انتهيا الى شارع مقفر قال له روكامبول : اني لو لم اشر اليك لمـا عرفتني فإني متنكر بزي جون هابر ربان هذه السفينة التي فيهـا الكـنز ، وسأتولى قيادة السفينة واخرج بها من الحوض عند منتصف الليل فتكون انت الربان الثاني .

فانذهل مرميس وقال له : ولكن تريبوريدنو مقيم فيها ، وهو يعرف ربانها معرفة جيدة ؟

– إني حين اصعد الى السفينة يكون تريبوريدنو قد بات اسيراً فيها ..

– من يأسره ؟

– انت .

وزاد انذهال مرميس وقال له : أتم حديثك ، فاني لا افهم كلمـة من هذه الألغاز .

– ان الأمر بسيط لأن تريبوريدنو وجون هابر سيسافران هذه الليلة الى

مكان مجهول ، وقد عرفت ذلك من رسالة البستانية ، ثم ان جون هـابر قد اطلق سراح جميع بحارته وكلف شخصاً ان يجمع له عشرة بحارة اشداء ، وعرفت هذا الرجل وبات شبه عبدي ، ولو كان الوقت فسيحاً لدينا لأخبرتك بجميع هذه التفاصيل ولكنك سترى فتعلم كل شيء .

— والى اين نحن ذاهبان الآن ؟

الى خمـارة كالكراف حيث نجد فيها هذا الرجل وجون هابر معاً إذ لا بد له من الحضور الى الخمارة لموافاته .

وظل الأمر مبهمـاً ملتبساً على مرميس ولكنه لم يجسر على سؤال روكامبول .

وبعد نصف ساعة بلغا الخمارة واجتمعـا بجوزيف كرتـيريه في غرفة خاصة ، وقال روكامبول لجوزيف : اانت واثق ان جون هـابر سيحضر الى هنـا ؟

— دون شك فاني متفق معه على ان اريه البحارة الذين جمعتهم وموعـدنا هنا في الساعة العاشرة .

— وهل أنت واثق أيضـاً أنه لا يوجد بين البحارة الذين جمعتهم من يعرفه ؟

— نعم فليس بينهم من اشتغل في سفينته .

— إذاً ابقوا أنتم هنا وأنا انتظر في الغرفة المجاورة فاني أخاف أن يأتي فجأة فيراني .

ثم تركهما ودخل وبقي مرميس وجوزيف ينتظران .

ولما اذنت الساعة التاسعة أقبل جون هابر ودخل إلى القاعة فقال لجوزيف لقد تأخرت قليلاً فإني كنت في نظارة الحربية لقضاء بعض المهـام فمن هذا الذي أراه معك ؟

– هو أحد البحارة الذين جمعتهم وسيحضر الآخرون فتراهم .

– إذن نشرب زجاجة خمر الى ان يحضروا .

ولكنه قبل أن يطلب الزجاجة سمع صوتاً يشبه صفير الهواء وشعر بحبل التف على عنقه وجذبه فسقط على الأرض .

ذلك ان روكامبول خرج من مخبأه واطلق الحبل عليه حسب الطريقة التي تعلمها من الخناقين .

وعند ذلك انقض عليه جوزيف ومرميس بأمر روكامبول فقيداه واشهر روكامبول خنجره وقال له : تخير بين طاعتي فيما أريد وبين ان تموت على الفور واسرع بالجواب فان الوقت ثمين .

وكان جون هابر حكيماً وفوق ذلك فقد رأى من اعمال روكامبول ما يدعوه الى الحكمة فلم يستغث ولم يقاوم .

ولما أتم مرميس تقييده نادى روكامبول كالكراف وسأله ان يحضر له أدوات الكتابة ، فامتثل وخرج ، وجون هابر ينظر اليه نظرات الحقد والتأنيب .

أما روكامبول فانه قال للربان : اننا سنحل قيد يدك اليمنى كي تكتب ما أمليه عليك .

– وإذا ابيت ان اكتب ؟

– تموت في لحظة .

فلم يسعه الا الامتثال فأملى عليه روكامبول ما يأتي :

« لحضرة الماجور لنتون .

« ارسل اليك رئيس بحارتي الذي سيتولى قيادة السفينة مع البحارة العشرة الذين اختارهم ، ولي فيهم ملء الثقة ، وهو سيخرج بالسفينة من الحوض وينتظرني على مسافة مرحلة من لندرا ، وعند منتصف الليل

احضر واكون متأهباً لتنفيذ اوامرك ، أما تأخري في البر فلقضاء بعض المهام . »

(جون هابر)

فلما كتب هذه الرسالة طواها روكامبول ووضعها في جيبه ، ثم نادى كالكراف ايضاً وقال له: انك مسؤول عن هذا الرجل مدة عشرة أيام تسجنه في خلالها في قبو الشراب الذي اتفقنا عليه .

ثم اضاف إلى ذلك بلهجة المتهكم قائلاً : وبعد عشرة أيام تطلق سراحه فيذهب للبحث عن سفينته .

وحمله كالكراف وذهب به إلى القبو ، واقبل البحارة بعد حين فعرضهم جوزيف على روكامبول وهو متنكر بزي جون هابر وقال لهم : هوذا الربان الأكبر .

ثم خلا روكامبول بمرميس فقال له : إني لا أحب ان اذهب في النهار الى السفينة كي لا يعرفني تريبورينو وسأوافيكم اليها في الليل فانه يسكرّ وينام حسب عادته ، فاجتهد حين تذهب إلى السفينة ان تري روميا وتقول لها ان تضع جميع هذا المخدر في كأس شرابه .

فقال مرميس : أهذا كل ما تأمرني بقضائه ؟

- نعم فاذهب الآن مع البحارة إلى السفينة وخذ المخدر لروميا .

ثم نادى جوزيف واعطاه خطاب جون هابر إلى تريبورينو وامره ان يذهب بالجميع إلى السفينة .

وبعد ان ذهب البحارة دخل روكامبول إلى غرفته فخلع تنكره وارتدى بملابس النبلاء ، ثم خرج من الخمارة وجعل يتجول في شوارع لندرا حتى انتهى إلى مكتب التلغراف فدخل اليه وأرسل التلغراف الآتي :

« فلكستون فندق بلجيكا

« إلى مدام فاندا كرايلف .

« تم العمل . سافري مع الغلام وميلون بقطار الليل . »

« أفاتار »

ولم يعد تواً إلى فندق بريستول الذي كان مقيماً فيه ، بل انه ذهب إلى بيكاديللي فتغدى ، ثم ذهب إلى نادي بال مال فأقام فيه يطالع الجرائد إلى وقت العشاء .

وعند الساعة الثامنة ذهب الى فندق بريستول كي يأخذ اوراقه فلما وصل اليه رأى الارلندية تنتظر جازعة .

فقال لها : ماذا اصابك وماذا تريدين ؟

– اني طفت جميع لندرا باحثة عنك وأنا انتظرك هنا منذ الظهر فان الحمامة قد عادت .

فارتعش روكامبول وقال : أهي حاملة رسالة ؟

– نعم وهذه هي .

فأخذ روكامبول الرسالة بيد تضطرب وأشار إلى الارلندية ان تتبعه الى غرفته وهناك فتح الرسالة وقرأ فيها ما يأتي :

« ان جون هابر يعلم انك في لندرا وقد شكاك إلى نظارة البحرية فاحذر ان تعود إلى فندق بريستول » .

فاصفر وجه روكامبول وقال : يجب أن نبرح هذا الفندق في الحال فماذا فعلت بالحمامة .

– ابقيتها عندي ..

– حسناً فعلت .

وبينما هو يجمع اوراقه بسرعة ، إذ قرع باب غرفته وسمع صوتاً من الخارج يقول : إفتحوا باسم الشرع .

فاضطرب روكامبول وعلم ان البوليس قد ظفر به ولكنه رأى انه لا بد من فتح الباب فقال للارلندية : اني سأعطيك رسالة فضعيها في عنق الحمامة واطلقيها عند الفجر .

ثم ذهب ففتح الباب ودخل رجلان من البوليس فقال له أحدهما : أأنت

الماجور أفاتار ؟

- نعم ..
- لقد صدر الينا الأمر يا سيدي بالقبض عليك وهذه صورة الأمر
- ولكن بأي ذنب أنا متهم ؟
- يتهمونك أنك حاولت في خليج بنغال نسف سفينة وست انديا .

فقال روكامبول بسكينة : لا شك انهم مخطئون ولكني لا أحاول اقناعكم انتم إذ ليس ذلك من شأنكم ، ولذلك سأتبعكم إلى حيث تريدون ، إنما اسألكم ان تأذنوا لي بكتابة كلمة الى صديق لي ليوافيني دون شك الى محل التوقيف فيخرجني منه .

فأذن له البوليس بالكتابة فأخذ ورقة وكتب عليها بضعة أسطر بالقلم الرصاص ثم دفعها الى الارلندية وقال لها : ارسليها عند الفجر مع الحمامة .

وعاد الى البوليس وقال : هلموا بنا .

كانت السكينة سائدة في السفينة وست انديا وقـد وصل اليها جوزيف ومرميس والبحارة عند الظهر فدفع جوزيف الى تريبورينـو الرسالة التي أملاها روكامبول على جون هابر ، فقرأها دون ان يشكك فيها وقال في نفسه ان الربان لم يبق في البر إلا للقضاء على روكامبول القضاء المبرم

وقد اغتنمت روميا فرصة وجوده على سطح السفينـــة فكتبت الى روكامبول تلك الرسالة التي اعطته اياها الارلندية بعد فوات الأوان واقـامت تنتظر عودة الحمامة عدة ساعات فلم تعد .

ثم نزل تريبورينو الى غرفتها وقـــال لها : اصعدي الى سطح السفينة وسرحي الطرف بجمال الميناء فإن الطقس جميل

فامتثلت روميا وصعدت وكان اول رجـــل رأته مرميس فتنهدت تنهد الارتياح وعلمت ان الرئيس قد أدرك المرام .

اما مرميس فانه اغتنم فرصة انشغال تريبورينو بمحادثة رئيس البحارة فدنا منها وقال لها . ان الرئيس يحضر عند نصف الليـل فبكري بالعشاء مع تريبورينو وضعي في كأسه هذا المنوم .

فأخذت روميا المخدر وعادت الى غرفتها تفتقد الحمامة ، لكن الحمامة لم تعد غير ان كلام مرميس طمأنها على روكامبول .

وعند الساعة السادسة دخل تريبورينو وقال لها : إننا سنبرح الحوض هذه الليلة وعند الصباح نسافر .

وقالت بلهجة تدل على عدم الاكتراث : ليكن ما تريد

وبعد حين رفعت المراسي ونشرت القلوع فخرجت السفينة تمشي الهوينا

من الحوض

وكانت روميا قد تمكنت خلال النهار من محادثة مرميس وقالت له . إن خوفي شديد فإن جون هابر في البر وسيشكوه الى نظارة البحرية .

فابتسم مرميس وقال إن هذا الربان بات سجيناً عندنا فلا نخشاه .

— ولكن الحمامة لم تعد الى الآن ؟

— ان الرئيس ابقاها عنده دون شك كي لا يحمل تريبوريبو على الريب وسيعود بها الينا .

وعند الساعة العاشرة خلا تريبوريبو مع البستانية في غرفتها وبدأ بالسكر والعشاء حسب العادة .

وقال لها : ان جون هابر قد لا يعود قبل نصف الليل ، وإذا عاد في هذا الحين اكون طائراً في عالم الأحلام بفضل هذه الخمر المعتقة .

— أما انا فأكون صاحية وإذا اردت ان تأمره بشيء أنوب عنك في تبلغيه امرك .

— نعم فإن السفينة سترسو بعد ساعة قرب منزلي الذي كنا فيه فمتى وافانا اليها مريه باسمي ان لا يرفع المراسي قبل ان استفيق .

وجلس حول المائدة وجعل يأكل ويشرب وهي تنادمه وتناغيه حتى اوشك سكر الخمر واللحظ ان يذهب بصوابه فدست له في كأسه ذلك الرشاش المخدر فشربه وكان آخر كأس إذ صعق فجأة حين استقر في جوفه واطبق عينيه وسقط بين قواعد المائدة .

وقامت روميا عند ذلك فهزته هزاً عنيفاً فلم يستفق ، وأيقنت ان المخدر قد صرعه .

ثم نادت مرميس وقالت له هوذا قد بات صريعاً وهو لا يستفيق قبل يومين كما علمت من المخدر ، فكم الساعة الآن؟

— اننا في منتصف الليل وقد رست السفينة في المكان المعين .

- إذاً إن غياب الرئيس لا يطول .

ثم صعدت واياه الى سطح السفينة ، ولم يطل وقوفهما حتى رأيا قارباً يدنو فقالت : لا شك انه قارب الرئيس .

غير ان القارب مر بالسفينة دون ان يقف .

وثارت هواجس روميا ومرميس ، وتمكن الخوف منهما على الرئيس لاسيما وان مرميس قد ذكر ما قاله جون هابر حين وصوله الى خمارة كلكراف فقد قال : انه كان عائداً من نظارة البحرية .

ومرت الساعات وكانت القوارب تمر بالسفينة دون ان تقف فأيقن مرميس أن روكامبول قد اصيب بنكبة وعول على الرجوع الى البر وامر جوزيف ان يمد له قارباً

وكان الفجر قد انبثق فبينما البحارة ينزلون الى البحر رأت روميا الحمامة تحوم حول السفينة

وقالت هوذا الحمامة قد عادت .

وأسرعت الى غرفتها فأخذت الحمامة ورأت في عنقها رسالة فانتزعتها منه وقرأت مع مرميس ما يأتي :

« أنا الآن سجين ولكني سأخرج من سجني غداً أو بعد غد فلا تقلقوا علي واكتبوا في الحال رساله إلى مس الن في لندرا اني سجين .

« ثم سافروا عند الصباح إلى الهافر وابقوا تريبورينو في العنبر وكلما استفاق اسقوه المخدر ، أما أنا فإني سأوافيكم إلى الهافر ، او اكتب اليكم فانتظروني أو انتظروا كتاباً مني فيها » .

(روكامبول)

فوقفت روميا موقف الحائر وقالت : ماذا يجب ان نصنع ؟

وقال لها مرميس يجب أن نصدع بأمر الرئيس فهو سيوافينا دون شك او نتلقى أوامره من الهافر متى بلغنا اليها

– إذاً ليكن ما تريد .

وكتب مرميس رسالة إلى مس الن ، وهي تلك الفتاة النبيلة التي أنقذها روكامبول من مخالب السير جورج ستوي فكانت له خير حليف مع أبيها اللورد ، وبعثها اليها مع بحار .

فلما وثق من وصولها أمر بأن تقلع السفينة فسارت تشق عباب البحر إلى الهافر وفي عنبرها الكنوز وسارقها .

وصلت السفينة إلى الهافر بعد بضعة أيام فأسرع مرميس بالنزول إلى البر باحثاً عن روكامبول فكان أول من رآه ميلون فدهش لمرآه وقال له كيف أتيت وأين الرئيس ؟

– ان الرئيس لا يزال في لندرا وأنا هنا مع فاندا وسائر رجال العصابة وقد صدر الينا أمره أن نوافيك إلى الهافر نعطيك هذا الكتاب

– وأين هي فاندا الآن ؟

– انها في فندق قريب مع بقية العصابة ونحن هنا منذ ثلاثة أيام ننتظر وصول السفينة فكنت أحضر كل يوم إلى الميناء وألبث فيها الى المساء .

ثم أعطاه كتاب روكامبول وهو معنون باسم مرميس وروميا فأخذه وعاد به الى السفينة ففضه وقرأ فيه مع روميا ما يأتي :

« أكتب اليكم من لندرا فقد تحتم علي البقاء فيها الى أجل غير محدود لقضاء مهمة خطيرة أرجو أن أغسل بقضائها ذنوبي السابقة وأنال عفو الله .

وأنا بخير وعافية وقد خرجت من السجن بمساعي المس ألن وأبيها اللورد وقد يمر عهد طويل دون ان تقفوا على شيء من أخباري فاحذروا من البحث أو القدوم الى لندرا إذا لم ترد اليكم أوامري مهما تلبست أحوالي بالخفاء ومهما انقطعت عنكم أخباري .

والآن فاني أوصيك يا مرميس أن تدعو اليك جميع رجال العصابة فتنقلون

الأموال تباعاً الى البر حتى إذا باتت كلها لديكم ضع النقود في مصرف باريس بإسمي وأبق اللآليء والأحجار الكريمة امانة في ذلك المصرف .

وبعد فراغك من نقل الأموال ووضعها حيث أمرتك تعود الى السفينة فتطلق سراح البحارة وبعد أن تكافئهم خير مكافأة وتسقي تريبورينو جرعة من المخدر ثم تتركه وحده بالسفينة وتعود برفاقك الى باريس فان جون هابر سيوافيه الى الهافر للبحث عن سفينته فيفعلان ما يشاءان ومتى فرغت من جميع ذلك فابعث إلي برسالة برقية بعنواني الذي تعرفه كي أطلق سراح الربان واهديه الى مرسى السفينة .

ثم أريد متى عدت الى باريس أن تشغل جميع رجال العصابة كلا بمهنته وتعطيهم لهذه الأعمال من اموال جيبسي فانها لا يجب ان تنفق إلا في سبيل الخير فاجعل ميلون مقاولاً لأن مهنته بناء وتجعل جواني تاجر لحوم لأن مهنته جزار ، وهلم جرا . ثم تجتمعون كل اسبوع للمداولة برئاسة فاندا فيما يجب صنعه من أعمال الخير والبر

أما روميا فيجب أن تسافر في الحال الى الهند حيث ينتظرها نادر في كلكوتا. ويجب على مرميس أن يزور كل يوم ابن المركيز مورفر في مدرسته ويتفقد أباه في المستشفى كما يجب على فاندا أن تعتني بابن الرجاه وفي كل شهر ترسلون إلي تقريراً ضافياً عن جميع أعمالكم بالعنوان الذي أبعثه اليكم كل شهر .

وفي الختام أعيد عليكم ما بدأت به فاحذروا أن تبحثوا عني مهما انقطعت أخباري .

وهذا كل ما أطلبه اليكم فاعملوا بما علمتكم واعلموا أن روحي ساهرة عليكم أين كنتم » .

« روكامبول »

فأسف مرميس لبعد روكامبول أسفاً شديداً ولكنه لم يسعه إلا الامتثال ففعل جميع ما أمره به ، وبعد اسبوع سافرت روميا الى الهند كما امرها نادر

وأودعت الأموال في مصرف باريس كما أمر روكامبول .

وبات سارق الكنوز وحيداً فريداً في تلك السفينة فلما استفاق من نومه وزال تأثير التخدير وتفقد كنزه وعلم مصيره جن من يأسه فأطلق غدارة على صدغه اسالت دماءه ، وجاء جون هابر الى السفينــة فوجد ذلك اللص الخائن جثة باردة فألقاه في البحر غير آسف عليه وعاد بسفينته الى بلاده راضياً من الغنيمة بالإياب .

انتهت رواية « كنوز الهند »

ويليها الجزء الثاني عشر من روكامبول « ابن ارلندا »

الجزء الثاني عشر

ابن ارلندا

ابن ارلندا

- ١ -

هناك على ضفاف نهر التاميز في ليلة أدلهم ظلامها وتلبد الضباب في سمائها كان نحو خمسين سفينة بخارية تسير ذهاباً وإياباً في ذلك النهر العظيم فتنقـــل الركاب من ضفة الى ضفة .

وإن بينها سفينة ازدحم فيها النـــاس ، بين نساء ورجال وأولاد على اختلاف طبقاتهم ، فكان معظمهم شاخصين بأبصارهم الى امرأة بين ركاب السفينة ، لا تتجاوز الخامسة والعشرين من عمرها ، ومعهـا غلام يبلغ عمره عشرة أعوام .

وقد اختلفت نظرات الناس اليها ، بين المعجب والمنذهل والمشفـق ، لأن ملابسها كانت رثة تدل على الفقر ، في حين ان مخائلها كانت تدل على النبل والشهامة .

وكانت المرأة لابسة قبعة من القش وعلى كتفها شال قديم من نسيج القطن وفي رجليها نعلان يدل تكدس الغبار عليها أنها اجتازت مسافة شاسعة مشياً على الأقدام .

أما الغلام فقد كان عاري الساقين الى الركبتين حاسر الرأس لا يستره غير شعر أشقر كثيف . وقد وشحتـه أمه وقاية له من البرد بوشاح يظهر أن أصل لونـه كان أحمر وأزرق ، ولكنه استحال لتقادم العهد بـه فصار أصفراً سنجابياً .

أما الذي دعا ركاب السفينة إلى إطالة النظر إلى الغلام وأمه ، فهو ان هذه الأم على فقر ملابسها ، كانت فتنة للناظرين بما وهبها الله من الجمال ، وكان أصدق وصف للغلام انه كان ملاكاً لم ترسم مثل وجهه الصبوح أيدي أبرع المصورين .

وكانت المرأة بيضاء الوجه قرمزية الشفتين زرقاء العينين سوداء الشعر . أما الغلام فكان أشقر الشعر وله علامة غريبة يتميز بها وهي خصلة حمراء دقيقة كانت تتسرب من شعره الأشقر إلى جبهته .

وكان الغلام وأمه ينظران بقلق الى تلك العيون المحدقة بهما ولا يفهمان لها معنى ، ثم يحولان أنظارهما عن الناس الى ضفتي النهر فيريان على أنوار المصابيح ما كانا يمران به من المنازل والحدائق والمحطات والجسور فيظهر من اندهاشهما أنهما غريبان .

ولم يكن بين المسافرين من يعلم من أين قدما ، لأنهما ركبا السفينة من محطة كرنويش وقد وصلا اليها ماشيين . فتنهدت الأم وأخذت كيسها وفيها نحو ثلاثة شلنات وبضع قطع من النقود النحاسية فأخرجت منه بنسين ثمن التذكرتين ، وأقامت في المحطة تنتظر قدوم السفينة وهي حاضنة ابنها .

ولم تكلم أحداً مدة الانتظار حتى اذا وصلت السفينة الى محطة أحواض الهند سألت رجلاً بقربها : هل نحن في لندرا ؟

وكان هذا الرجل بائع سمك وهو ايكوسي فقال لها : نعم ولا لأن لندرا لا نهاية لها كما يقول الانكليز فإلى اين انت ذاهبة ؟

فترددت المرأة هنيهة ثم قالت له : إني ذاهبة الى شارع يوجد فيه كنيسة

تدعى سانت جيل واسم هذا الشارع لورنس ستريت .

– إني أعرف هذا الشارع وهذه الكنيسة فهي كنيسة كاثوليكية .

– نعم .

– العلك إرلندية ؟

– نعم يا سيدي .

وكان هذا الرجل كريم الأخلاق ولكنه كان كثير الكلام. فراق له الحديث مع هذه المرأة لما رآه من جمالها وجعل يصف لها الطريق المؤدي الى الكنيسة وصفاً مفصلاً دقيقاً حتى اذا انتهى من تفصيله قال لها : العلك ذاهبة يا سيدتي الى أهل لك في تلك الناحية ؟

– كلا ، إني لا أعرف احداً من لندرا ولكن قيل لي انه يوجد في شارع لورنس رجل إرلندي يدعى بتريك سأقيم عنده أنا وابني .

– إن اسم بتريك كثير الشيوع بين الارلنديين ، وإذا كنت لا تعلمين عن هذا الارلندي غير اسمه الأول ، فإنك ستبيتين هذه الليلة دون مأوى .

فرفعت الارلندية عينيها الى السماء وقالت : إن الله رؤوف كريم ، ولا يتخلى عنا .

واستأنف الرجل الحديث فقال لها : إنك قادمة الى لندرا لتشتغلي فيها دون شك .

– لا أعلم .

فاستغرب الرجل جوابها لاسيما حين رأى ملابسها الرثة وقال لها : إن جميع الناس في لندرا يشتغلون ما خلا اللوردية .

– إني أتيت بمهمة اليس غداً يوم ٢٧ أكتوبر ؟

– نعم .

– إذاً قد وجب علي ان أكون صباح غد في كنيسة سانت جيل وان أقدم

ولدي لكاهن تلك الكنيسة .

فقال لها الايكوسي ببساطة : ولماذا تريدين تقديمه للكاهن ، في يوم معين ؟

ـ لأن أباه أوصاني بذلك قبل وفاته .

وكانت الارلندية تحادث الايكوسي وهي غير مكترثة للناس الذين كانوا ينظرون اليها ، وبينهم رجل من النبلاء وامرأة ، كانا ينظران الى ولدها نظرات خاصة .

وعاد الايكوسي الى الحديث ، وقد أعجبه ادب المرأة وأشفق عليها لسلامة قلبها فقال لها : إن امرأتي يا سيدتي كريمة الأخلاق ، فإذا أردت أن تبيتي الليلة عندنا مع ولدك استقبلتكما بملء الارتياح ، وعند الصباح تذهبان الى الكنيسة .

وكانت لهجة الايكوسي تدل على المروءة الصادقة والاخلاص الصحيح غير ان المرأة رفضت دعوته شاكرة وقالت له : يجب علي ان أذهب الى حيث أمرت ان أذهب .

وكانت السفينة قد وصلت الى المحطة التي يسير فيها الايكوسي الى منزله ، فقال لها : إذاً استودعك الله وأسأله ان يقيك شر المعتدين

ثم انصرف وعادت السفينة الى سيرها .

وكان الرجل النبيل والمرأة لا يزالان في السفينة . أما الرجل فكان ينظر إلى عيني الغلام ويقول في نفسه : ما أشبه هذه النظرات المتقدة بنظرات ادمون .

وأما المرأة فانها انسلت كالأفعى وجلست بجانب الارلندية وابنها .

- ٢

كانت هذه المرأة التي انسلت الى الارلندية ، أشرفت على سن الكهولة ، وهي زرقاء العينـين مصفرة الأسنان رقيقـة الشفتين ، تـدل ملامحها على الخبث والدهاء .

فدنت من الارلندية فبدأت حديثها معها بالثناء على ولدها والاعجاب بجماله ثم استطردت من ذلك الى تعريفها بنفسها فأخبرتها انها كاثوليكية تدعى مسز فانوش وان مهنتها تربية الأطفال وانها تقيم في منزل قرب اكسفورد على مسافة خطوتين من سانت جيل

فقالت لها الارلندية : تقولين انك كاثوليكية العلك إرلندية ؟

فاشمأزت المرأة في البدء ولكنها فطنت الى ان كل غريب يأنس بقومه في غربته فقالت لها : إني لم أولد في ارلندا ولكني إرلندية الأصل فقد كان جدي ارلندياً فلما هاجرنا الى لندرا بقينـا على مذهب الكثلكة . وقد لقيت عناء شديداً من زوجي رحمه الله فانه كان بروتستانتياً ، وكان يحاول إكراهي على تغيير مذهبي في كل حين .

ثم غيرت الحديث وقالت لها : أأنت ذاهبة الى سانت جيل ؟

– نعم يا سيدتي .
– العلك تعرفين احداً من الارلنديين في تلك الجهة ؟
– كلا يا سيدتي ولكني مرسلة الى شخص يدعى بتريك .
– في شارع لورنس اليس كذلك ؟
– هو ما تقولين .

وكان بجانب مسز فانوش امرأة لا تقل عنها خبثاً كما تدل ظواهرها فتبودلت بينهما نظرة سرية لم ترها الارلندية فكتبت المرأة بسرعة اسم بتريك وسانت جيل ولورنس ستريت .

وعادت مسز فانوش الى محادثة الارلندية فقالت لها ماذا عزمت ان تصنعي بغلامك الجميل ألا تدخليه في مدرسة جامعة ؟

فابتسمت الارلندية ابتسام حزن وقالت : لا أعلم لأني فقيرة ، وربما طال زمن فقري .

– إني أري مخائل النجابة تلوح بين عيني ولدك واذا شئت أدخلته الى مدرستي مجاناً لوجه الله وأنا مربية أطفال كما قلت لك .

وكان الغلام يسرح نظره ، خلال حديث تلك المرأة مع أمه ، بالقصور التي كانت تمر بها السفينة .

فلما مل هذه المناظر عاد الى أمه وشاهد مسز فانوش فشعر بعاطفة كره لها وقال لأمه : من هي هذه المرأة يا أماه ؟

فابتدرته مسز فانوش بقطعة من الحلوى ، أخرجتها من كيس مخملي كانت تحمله بيدها ، وقالت له : إني يا بني إرلندية مثلك ، فاقبل مني هذه الحلوى .

وكان الغلام جائعاً غير انه رفض الحلوى على جوعه لنفوره من هذه المرأة وتشاغل عنها بالنظر الى مياه النهر .

وعادت فانوش الى محادثة الارلندية فقالت لها : إنك لا تعرفين شيئاً من لندرا أيتها العزيزة ، فإني أعرف هذا الرجل الذي تدعينه بتريك فهو إسكافي فقير ستلقين عناء شديداً في المبيت عنده ، وربما لا تجدين في منزله قطعة من الخبز .

– لا بأس فسأشتري طعام إذ لا يزال معي بقية نقود .

– لقد قلت لك اني أقيم على قيد خطوتين من كنيسة سانت جيل فإذا بت عندي هذه الليلة تبيتين على أحسن حال ، ثم تذهبين في الصباح الى الكنيسة .

فأبيت قريرة العين بضيافة ارلندية مثلي .

ونظرت الارلندية الى ولدها كأنها تستطلع إلهام قلبه بالنظر فانضم الغلام

الى امه والتصق بها كما تتلاصق الطيور حين تشعر بدنو العاصفة ثم قال لها بلهجة الخائف : لا تذهبي يا اماه الى منزل هذه المرأة .

فقالت له فانوش : ليكن ما تريد يا بني .

ثم تبادلت نظرة سرية مع رفيقتها . أما الغلام فانه اخذ بيد امه وقبلهـــا بلهف كأنه شعر بأنه أنقذها من خطر عظيم .

ولقد تقدم لنا القول في الفصل الأول انه كان يوجد بين ركاب السفينة رجل من النبلاء ينظر نظرات خاصة الى الغلام وامه .

وكان مستمراً على مراقبة الغلام ، فلما رأى ما كان منه ومن فانوش وعلم ان السفينة باتت قريبة من المحطة ، نظر الى ما حواليه فرأى بقربه رجلاً يناهز الخامسة والأربعين من عمره ، تدل هيئته على أن جميع شقاء لندرا قد تجمع فيه .

وكان لابساً بنطلوناً برزت منه ركبتاه ، وقبعة لا إطار لها ، وسترة تجمعت فيها ألوان الأرض والسماء لتقادم عهدها . ولكنه كان واقفاً في السفينة وقفة الشامخ المتعاظم ، ولعله كان يفتخر بأنه لا يدانيه في الفقر أحد .

فدنا منه الرجل النبيل وقال له : إني أدعى اللورد بالمير وأقيم في شستر ستريت فاذا وافقتني فيما أريد أعطيتك عشرة جنيهات .

فاضطرب الفقير إذ لم يملك في زمانه هذه القيمة وقال له : العلك تهزأ بي يا سيدي ؟

- كلا ، قل لي ماذا تدعى ؟

- شوكنج .

- ومهنتك ؟

- لا مهنة لي

- ومن اين ترتزق ؟

- من أبواب الصدفة .
- هوذا الصدفة قد فتحت لك أبوابها اليوم فادخلها .
- بل انت فتحت لي أبواب السعادة فقل ماذا تريد ان أعمل ؟
- أترى هذه المرأة الجالسة على المقعد مع ولدها ؟
- نعم
- أريد ان تتبعها متى نزلت من المركب حتى تدخل منزلاً لتبيت فيه فتعود إلي وتخبرني عن موضع المنزل فتكسب المال .
- هذا امر سهل ميسور فاذا قضيته أين أجدك ؟
- تجدني في منزلي الذي أرشدتك اليه ، فاحذر ان يغيب عنك أثرها .

وكانت مسز فانوش في ذلك الحين قد دنت من رفيقتها وقالت لها : إنك تعلمين ان مسز اميلي سوف تطالب بولدها ثم انك تعلمين ايضاً ان ولدها قد مات . وهل كان يخطر لنا في بال ان الأمور تنقلب الى هذا الحال إذ لا بد لنا من هذا الغلام .
- ولكن الأم ماذا نفعل بها ؟
- إن ويلتون يتخلص منها .

وعند ذلك وصلت السفينة الى المحطة فخرج الناس منها وازدحمت بهم المحطة وبينهم الارلندية وابنها وهي لا تعلم كيف تسير .

- ٣ -

وخرجا من المحطة فســـارا على الرصيف وراء الجموع المزدحمة ، وكانت الأرلندية آخذة ولدها بيدها وهي خائفة وجلة من هذا الازدحام لا تعلم كيف تسير فان بائع السمك كان قد أرشدها الى الشارع الذي تريد الذهاب اليه غير

انها نسيت كل ما قاله لأنها لم تأت قبل هذه المرة الى لندرا وكادت تضيع رشدها بين هذه الجموع .

ثم خف الزحام بعد سير طويل فسألت أحد المارة عن شارع لورنس ستريت فأجابها انه لا يعرفه فشكرته واستمرت في سيرها ، فسألت آخر فأجابها كما أجابها الأول فواصلت السير وقد ضلت الطريق وسارت في جهة الغرب وطريقها من جهة الشرق .

وقد أجهدها السير ولم يعد يستطيع ابنها المشي فشاهدت خمارة فدخلت اليها بغية الاستراحة والاسترشاد .

وفيما هي جالسة مع ولدها على مقعد شاهدت رجلاً دخل الخمارة وطلب كأساً من الخمر فسرت الارلندية لمرآه إذ ذكرت انه كان معها في سفينة واحدة فاستأنست به وأملت ان يرشدها الى الطريق .

وكان هذا شوكنج نفسه الذي أرسله اللورد بالمير مقتفياً أثر الارلندية فوقف قربها وكأسه بيده ثم نظر اليها فلقيها تتطلع اليه فقال لها : أظن يا سيدتي إنك ضللت السبيل في هذه العاصمة العظيمة .

- نعم ، فإنني أسأل منذ ساعة عن شارع لورنس ستريت ولا أجد من يرشدني اليه .

- ذلك لأنك لم تسيري إلا في الشوارع التي يسكنها الأغنياء ، وهم لا يعرفون هذا الشارع الذي يسكنه أشد الناس فقراً ، غير اني فقير مثلك ، وقد وجب التعاون على الفقراء . وإذا شئت كنت دليلك الى هذا الشارع .

- إني أقبل شاكرة ممتنة وأسأل الله ان يجزيك عني خيراً .

فشرب شوكنج كأسه ومشي أمامها فتبعته مع ولدها ، وقد اطمأنت اليه لما رأته من دلائل السلامة بين عينيه ، وكذلك الغلام فانه نظر اليه في البدء نظرة تشف عن الريبة ، ولكنه لم يلبث ان وثق به وأعطاه يده

وسار وإياه .

وذلك ان مخائل هذا الرجل كانت تدل على المروءة ، وطيب العنصر ، فلم تحجب ظواهر فقره تلك الشمائل ، وإنما رضي ان يقتفي أثر الارلندية بأمر اللورد لشدة فقره .

ولم يخطر له ان اللورد قد أعجبه جمال المرأة ، فقال في نفسه : ليس ذلك من شأني وكان يجب علي ان أعرض عن هذه النقيصة ولكن فقري شديد وإذا كان هناك إثم فان الله يعاقب به ذلك الغني الذي يستغوي الفقراء بأمواله ويتخذ ذهبه الوضاح ذريعة لإغواء القلوب الطاهرة .

وما زال يسير بهما حتى وصل الى هذا الشارع وهو أفقر شوارع لندرا ولا يقيم فيه غير الارلنديين وكلهم فقراء معدمون

وقد وجدوا امرأة واقفة عند باب منزل فقالت لها الارلندية : أتعرفين يا سيدتي بتريك ؟

– أي بتريك تعني ، إن هذا الاسم كثير الشيوع بيننا .

– بتريك الإسكافي .

– نعم إن منزله في اول هذه العطفة غير انك لا تجديه في منزله فاذا أردت ان تكلمي إمرأته فهي في المنزل .

فشكرتها الارلندية وذهبت مع شوكنج وولدها إلى ذلك المنزل وهو منزل حقير لا باب له ويصعد اليه بسلم متهدم .

فأجفلت الارلندية من مظاهر هـــذا الفقر المدقع ، خلافاً لشوكنج ، فقــد كان ذلك مألوفاً عنده ، ووقــف في أسفل السلم وجعل ينــادي إمرأة بتريك .

وبعد تكرير النداء مرات ظهرت من النافذة إمرأة نحيلة رثة الملابس ، وعلى صدرها رضيع صغير . فنظرت إلى من ينـــاديها نظراً تائهاً يدل على اليأس وقالت : ماذا تريدون مني ومن يسأل عن بتريك ؟.. إن البوليس

قبض عليه هذه الليلة وزجه في السجن دون إشفاق ، فهو لا يعود قبل ان يقتلنا الجوع .

فالتفت شوكنج الى الارلندية وقال لها : لقد سمعت شكوى هذه المنكودة البائسة ولا رجاء لك في المبيت عندها .

فنظرت الارلندية الى ابنها نظرة ملؤها الاشفاق وقالت : رباه ! أين نبيت ؟

فقال لها شوكنج ببساطة : لا أعلم إذا كان لديك نقود .

– لم يبق معي غير ثلاثة شلنات وستة بنسات .

– إذن ، لقد هان الأمر إذ يوجد في هذا الشارع فندق تبيتين فيه ، وتتعشين فيه مع ولدك ، ولا تدفعين غير شلن واحد ، وفي الصباح يفعل الله ما يشاء .

– هلم بنا اليه فقد أضنى ولدي التعب والجوع .

فحمل شوكنج الغلام وسار به أمام أمه في طريق الفندق ، فما سارت في أثره بضع خطوات ، حتى شعرت بيد لمست كتفها ، فالتفتت فرأت مسز فانوش .

فقالت لها فانوش : ألم أقل لك ايتها الحبيبة انك لا تجدين مأوى في هذا الحي واني أحمد الله إذ لقيتك ثانية وتيسر لي تفريج كربك وخدمة ابنة وطني العزيز فهلمي معي الى منزلي ولا تخيبي رجائي .

ونظرت الأم الى ولدها كأنها تريد استشارته غير ان الغلام كان قد أضناه التعب ونام بين يدي شوكنج .

فعادت فانوش الى الإلحاح بلهجة تشف عن كرم عاطفة وسلامة قصد فاغترت الارلندية بلطفها وأجابت دعوتها .

وكأنما اتساع لندرا قد راعهاحق باتت تقبل بالمبيت عنداول إنسان يدعوها وقد نسيت ما شعرت به من الكره لأول مرة رأت فيها فانوش في السفينة ولم تذكر غير شيء واحد وهو ان ولدها تعب جائع .

فأسرعت فانوش اليها فتأبطت ذراعها وأشارت الى شوكنج أن يتبعها بالغلام فامتثل ومشى في أثرهما .

وكان منزل هذه المرأة قريباً وهو أجمل منازل هذا الشارع فلما وصلوا اليه فتحت فانوش بابه بمفتاح كان معها ودخلوا جميعاً فصعدو سلماً انتهو منه الى ردهة متسعة ودخلوا إلى غرفة مضاءة .

وكان في هذه الغرفة إمرأة عجوز وفتاتان صغيرتان فقالت فانوش للعجوز: إني أتيت بامرأة فقيرة مع ولدها ليكونا في ضيافتي فأرجو يا عمتاه ان تعتني بهما خير اعتناء .

ونظرت العجوز اليها بسرور وارتياح ورحبت بهما خير ترحيب وهي تقول: إن الضيف الفقير من عند الله .

ودنا شوكنج من الارلندية فقال لها : إنك ستبيتين عند خير قوم كما تبين لي فاحمدي الله .

أما الارلندية فإنها لما رأت انها آمنة مطمئنـــة على ولدها ، جعلت تبكي بكاء الفرح .

وأخذت فانوش بيدها وأجلستهاقرب المستوقد وهي ترتعد مرالبرد وطلبت من العجوز ان تعد الطعام .

ثم التفتت الى الرجل وقالت له : إني لا أستطيع ان أبقيك في المنزل إذ لا يبيت في منزلي رجال فاشرب هذه الكأس من الخمر وخذ هذا الشلن مكافأة لك والله يجزيك عن هذه المرأة وولدها خيراً .

فشرب شوكنج الخمر وأخذ الشلن ثم انصرف وهو يقول في نفسه : لا شك ان هذا اليوم من أفضل أيامي ، فقد شربت فيه خمراً وأمسيت وفي جيبي شلن ، وعملت جميلاً مع أم وابنها ، وإذا وفي اللورد بوعده ولم يكن هازئاً بي فقد تمت سعادتي .

ثم حفظ في ذهنه رقم المنزل وانصرف عائداً الى اللورد وهو يفكر بالعشرة جنيهات التي سيقبضها ويهجس بسعادته الجديدة .

بينما كان شوكنج ذاهباً الى اللورد بالمير كانت الارلندية وولدها يتعشيان وكانت دموع الشكر تهطل من أعينهما بين لقمة ولقمة .

وكانت الفتاتان الصغيرتان تأكلان معهما فدنت الفتاة الصغرى من الغلام وقالت له : ماذا تدعى ؟

— رالف .

فعانقته مسرورة وقالت : إذاً سنلعب سوية غداً .

أما الفتـاة الكبرى ، فكانت تنظر الى رالف وأمه ، نظرات حزن وإشفاق .

ولما انتهوا من العشاء قالت فانوش للارلندية : إنك تعبة دون شك فهلم الى الغرفة التي أعددتها لك .

وقامت فمشت أمامها تحمل مصباحاً ، فتبعتها الارلندية ودنت الفتـاة الكبرى من رالف فعانقته كما فعلت الفتاة الصغيرة غير انها اغتنمت فرصة ذهاب فانوش وقالت له همساً : إحذروا من ان تقيموا هنا .

فقال لها الغلام : لماذا ؟

— لأنهم يضربونك كما يضربونا كل يوم .

وعند ذلك دخلت العجوز وشاهدت الفتاة تحـدث رالف فنظرت اليها نظرة منكرة اضطربت لها الفتاة ، فانفصلت عن الغلام وتبع امه الى الغرفة التي سارت اليها .

وهناك قالت فانوش للارلندية : ألم تقولي لي انك تودين الذهاب غداً إلى سانت جيل ؟

– نعم .

– في أية ساعة ؟

– يجب ان أكون في الكنيسة مع ولدي عند الساعة ٨ .

– إذاً أستودعك الله وسنوقظك في الساعة ٧ .

ثم تركتها وانصرفت فأقبل الغلام الى أمه وبين عينيه دلائل الحذر وقال لها: أنقيم هنا وقتاً طويلاً يا أماه ؟

– كلا سوف نبرح هذا المنزل غداً .

– لماذا لا نذهب الآن ؟

– لأن ذلك مستحيل يا بني .

فسكت الغلام ولكنه عاد الى الحديث حينما كانت امه تخلع عنه ملابسه فقال لها بصوت خفيض : إني خائف يا أماه .

– لماذا انت خائف وممن تخاف ؟

– إن الفتاة الكبرى قالت لي لا يجب ان تقيموا هنا لأن هؤلاء النساء يضربونك كما يضربونا .

فقالت له أمه بصوت المؤنب : الست أنا معك يا بني . فكيف يضربونك وأنا بقربك ؟

فسكن خوفه وقال : إذاً نبيت هذه الليلة ولكن أتعديني ان نخرج غداً من هذا المنزل ؟

– دون شك .

وقبلها الغلام وصعد الى سريره ، ولم تمر بـه بضع دقائـق حتى نام نوماً عميقاً .

أما الارلندية فإنها ركعت قرب سريرها ، وجعلت تصـلي وتشكر الله

لإحسانه اليها .

وفيما هي تصلي شعرت فجأة بان حرارة شديدة قد دبت اليها ، ثم احست بدوار رأسها عقبه انحلال أعضائها وانطباق أجفانها .

فحسبت ان ذلك على أثر ما لقيته من مشقة السير ، ولكنها حاولت ان تفتح عينيها فلم تستطع وأرادت ان تصيح مستغيثة فاختنق صوتها ولم تستطع ان تتفوه بحرف .

وبعد جهاد غير طويل ، فقدت رشادها ، وسقطت على الأرض لا تعي .

وعند ذلك فتح باب الغرفة ودخلت منه مسز فانوش ودخل في أثرها رجل قبيح الهيئة رث الملابس .

- ٥ -

بعد ان أدخلت فانوش الارلندية الى غرفتها وتركتها ، عادت الى قاعة الطعام فأمرت العجوز ان تدخل الفتاتين الى مرقديهما وأخذت من جيبها رسالة فجعلت تتطلع اليها وعيناها تتقدان باشعة الفرح فتقول : لقد خدمتني الأقدار أجل خدمة ، وسوف تشاهد السيدة اميلي ان لدي ولداً اعطيها إياه ، بشرط ان يجد رسولي ولتون . .

وعند ذلك طرق باب الغرفة التي هي فيها ثم فتح ودخل منه رجل يشبه بظواهر فقره ورثاثة ملابسه شوكنج غير انه يختلف عنه بهيئته لأن كل ملامحه كانت تدل على الرذيلة وفساد الأخلاق .

ولما رأته فانوش فرحت بقدومه وقالت : أهذا أنت يا ولتون ؟

— نعم يا سيدتي لقد وافاني رسولك فأتيت بأمرك .

– لقد أحسنت ولكني أرجو ان لا تكون أفرطت في الشراب .

فابتسم الرجل ابتسام القانط وقال : أين أنا من السكر إني منـذ أمس لم آكل ولم أشرب .

– إذاً ، إجلس على هذه المائدة واشرب كأساً من البيرا وأملأ جوفك من الطعام واصغ إلي لأننا سنتحدث بامور خطيرة

– العلك تودين إغراق إحدى الفتاتين ؟

– كلا بل أود ان تتذكر أشياء ماضية .

– إني جيد الذاكرة فإني حين يهجم الليل ويمنعني الجوع عن الرقاد يتمثل لي جميع اولئك الأطفال الذين قتلتهم بامرك حتى اني أراهم يرقصون فوق الحصير الذي أنام عليه .

فهزت فانوش كتفيها وقالت : إنك تتخيل خيال الشعراء، ولكن لا سبيل الآن الى مباحث الخيال لأني سأعطيك جنيهاً على الفور وجنيهاً كل اسبوع مدة عام إذا وافقتني فيما أريد .

فقال لها بلهجة المتهكم : لقد أخطأوا ، يا سيدتي ، بتمثيـل الأبالسة بقرون ، ولو شاهدوك قبل ذلك العهد ، لما جعلوا إلا رسمك مثـالاً للشيطان ؟

– هب اني الشيطان نفسه أتقبل ان أغويك ؟

– إني أقبل بالرغم عني إذ يجب ان أعيش ، فقولي ماذا تودين .

– أود ان تعود بالذكرى الى تسع سنوات خلت ألا تذكر منذ تسعة أعوام ان رجلاً نبيلاً جاءني بطفل صغير ؟

– إنهم يأتونك بالأطفال كل يوم .

– نعـم ، ولكن ذلك الطفـل ، الذي أحدثك عنـه ، لا يمكن أن تنساه .

– ماذا يدعى الذي جاء به ؟

ـ هو السير جون واترلي ، أحد ضباط الجيش الهندي ، فقـــد دفع الي الغلام وسافر في اليوم الثاني إلى كلكوتا فأصيب هناك بمرض قاتل كما قيل لي وترجح عندي أنه لا يعود

وكان هذا الغلام ابنه من فتاة تدعى مسز اميلي همبوري ، وهي ابنة أحد اللوردية ومن كبار الأسرات النبيلة ، بحيث كان نبلها حائلاً دون زواجها بمن تهواه ، فجاءنا بالغلام وقـال : ربوه إلى أن يبلغ الخامسة عشرة من عمره وعلموه مهنة يعيش بها عيشاً شريفاً. وصرح لنا أن أم الغلام وأباه لا يستطيعان أن يطلباه .

ـ نعم ، لقد ذكرت هذا الطفل وذكرت أن أباه دفع لك ثمانمائة جنيه لتربيته ، فكرهت انفاق المال على الطفل وأمرتني ان القيه في النهر بعد سفر ابيه ، ولكن لماذا تريدين ان أذكر هذه الحادثة ؟

ـ لأن أباه عاد إلى طلبه .

ـ كيف ذلك ألم يمت اثر مرضه ؟

ـ كلا ، بل انه تزوج مسز اميلي لأن أباها اللورد قد مـــات فاعترفت بهفوتها لأخيها ، والتمست منه أن يأذن لها بزواج الضابط فصفح عنها وأذن لها بالزواج فكتبت الي مع زوجها يسألان إعادة الطفل .

فكبر الأمر على ولتون وقال : إن الموقف شديد فعلى ماذا عولت ؟

فابتسمت فانوش وقالت : إن جميع الأطفال متشابهون في سن الولادة ، وان مسز اميلي تسألني الآن إعادة طفل تركته منذ تسعة أعوام وعمره شهران وأنا أرد اليها غلاماً بالغاً تسعة أو عشرة أعوام ولا يخامر قلبها شيء من الشك .

ـ لقد أحسنت ولكن أين تجدين هذا الغلام؟

ـ انه في هذه الغرفة فاتبعني .

ثم أخذت مصباحاً وتقدمته إلى الغرفة التي كانت فيها الارلندية المنكودة وابنها رالف وكانا قد رقدا بتأثير المخدر كما قدمناه .

ولما دخل ولتون في اثر فانوش ذعر وقال : اني أرى إمرأة .

-- لا تخشى فاني سقيتها مخدراً لا تستفيق منه قبل أربع ساعات وقد بقي عليك أن تنيمها نوم الأبد .

-- أهذه هي المهمة التي تريدين أن اقضيها ؟

-- نعم ...

-- وهذا الغلام الجميل النائم ؟

-- انه ابنها ، وإنما اقتل امه كي ابعدها عنه إلى مسز اميلي .

-- ولكن فاتك أن لهذا الغلام عشرة أعوام من العمر فهو يذكر أهله وبلاده وأمه .

-- لقد فطنت لكل شيء والفت حكاية أقصها على مسز اميلي وهي اني دفعت طفلها إلى مرضع ارلندية ، وكنت أرسل لها نفقاته في كل شهر ولما أرسلت إلي تطلب ابنها كتبت إلى المرضع أن تحضر به ارلندا فجاءت به وكافأتها أحسن مكافأة وأرجعتها إلى بلادها .

-- إنها خير حيلة ولا أزال على سابق رأيي فيك وهو ان الشيطان لو رسم حتى رسمه لما كان الاك .

-- كفى بلاهة واعلم الآن أنه يجب قتل هذه المرأة .

-- بأية طريقة ؟

فهزت كتفيها وقالت : العلك نسيت طريقة النهر ؟

فحك ولتون اذنه وقال : كلا ، ولكن المرأة الكبيرة لا تحمل بوشاح كما يحمل الطفل .

-- ولكنها تحمل في مركبة ولا يزال جواني السائق صديقاً لك فيما أظن فإني أدفع له جنيهين أجرة نقلها .

ووقف ولتون وقفة المتردد غير ان فانوش حلت كيسها فحلت عقدة لسانه ، ودفعت له الأجرة مقدماً ، فأخذ المال وقال : ان هذه الأيام شديدة

العسر ، ولا بد للمرء أن يعيش .

ثم دنا من الارلندية فحملها على كتفه وخرج بها إلى قاعة الطعام دون أن تستفيق والقاها على المائدة .

فقالت له فانوش : يجب علينا أن نهتم الآن بايجاد سائق المركبة .

– لقد كفيتك مؤونة هـذا الاهتمام ، فإني علمت انك لم تبحثي عني إلا لارتكاب جناية جديدة ، وبحثت عن مركبة ، وجئت اليك بمركبة السائق نفسه .

– وأين هو الآن ؟

– انه ينتظرني على الباب .

فاتقدت عيناها بأشعة الفرح الوحشي وقالت : بورك فيك فإنك ما خلقت إلا للمنكرات والآثام .

– ٦ –

وحملوا تلك الارلندية المنكودة وهي لا تعي ونزلوا بها فأوقفت فانوش ولتون عند الباب وخرجت هي فتفقدت الطريق ثم عادت فقالت له : أسرع بحملها إلى المركبة قبل أن يفاجئنا البوليس .

ورأى ولتون ان الوقت قد حان للادلال عليها التماساً لزيادة الأجرة ، فقال لها : اني ممتثل لك ، ولكني لا أعلم مـــا يكون من السائق ، إذ لم أخابره بعد .

ففقهت فانوش مراده وقالت له : ان الوقت غير متسع للمخابرة فخذ كل ما لدي الآن في هذا الكيس وسأزيدك حين تعود .

ثم القت اليه كيساً فيه نحو عشرين جنيهاً فأخذه فرحاً وحمل الارلنـدية

وخرج بها والقاها في المركبة ، وجلس بجانبها ، ثم أمر السائق أن يسير إلى النهر

وانطلقت المركبة وقد خاصر ولتون الارلندية كي لا تقع من الاهتزاز بحيث لو رآهما أحد لما شكك انهما عاشقان .

وكان ينظر اليها فلا يراها لازدياد الظلام في ذلك الشارع المقفر ، وبعد حين اجتازت المركبة ذلك الشارع إلى شارع كثرت أنواره ، وكانت تلك الأنوار تنبعث إلى المركبة ، ورأى ولتون وجه الارلندية وارتعش ، لأنه لم يكن الى الآن نظر وجه هذه المرأة التي سيقتلها طمعاً بالقليل من المال

وإنما كان ارتعاشه لما رآه من جمالها الباهر ، ولما طبع على ذلك الوجه من علائم الطهر والسلامة ، وقال في نفسه : حيف على هذه المرأة أن تموت في نضارة الشباب .

واستمرت المركبة في سيرها وحجب الظلام وجه الارلندية وعاد ولتون الى التفكير وجعل يوبخ نفسه ويقول : بل الحيف على من كان مثلي يرتزق من قتل النفوس ثم يجد بين جنبيه قلباً يشفق ويحن

وبعد هنيهة وقفت المركبة وسمع ولتون السائق يناديه فقال له : ماذا تريد ولماذا توقفت عن السير ؟

- أريد ان أعلم الذي جئنا به من لندرا
- إنها امرأة .
- العلها ميتة ؟
- كلا ، بل هي نائمة نوم تخدير .
- اني لا اشترك بهذا المشروع يا ولتون .
- لماذا ؟
- لأني تعودت إغراق الأطفال وليس النساء .
- اما هما واحد ؟

ـ كلا ، فإن قتل النساء يورث الشقاء .

ـ إنك تمزح دون شك .

ـ كلا ، فان هذا اعتقادي ، وفوق ذلك فإن هذه المرأة قد تستفيق وتستغيث .

ـ لا خوف من ذلك فقد سقيت جرعة كبيرة من الأفيون فهي شبه المائتين .

ـ وكم عينت أجرتنا ؟

ـ خمسة جنيهات .

ـ للاثنين ؟

ـ كلا بل لكل واحد خمسة ..

ولبث السائق متردداً في أمره وقال إن المهمة صعبة يا ولتون .

ـ لكنهم دفعوا لنا مقدماً أتريد أن تقبض حصتك ؟

فتنهد السائق وقال : هات ، لكن سوف تعلم ان هذه الحادثة ستؤدي بنا إلى المشنقة .

فابتسم ولتون وقال : اليس الموت واحداً مهما تنوعت أسبابه ، ومتى كان امثالنا يتوقعون غير موت الشنق ؟

ثم نقده خمسة جنيهات وعادت مركبته إلى المسير وعاد ولتون إلى التفكير بالارلندية فقد كانت منزوية في المركبة لا تفرق عن الموتى .

وما زالت المركبة تسير من شارع إلى شارع ، حتى وصلت إلى جسر التيمس .

وكان يجتمع على هذا الجسر في النهار الوف من المركبات ، فإذا أقبل الليل انقطع سيرها ، وأقفر ذلك المكان ، ولا يسمع فيه غير هدير أمواج النهر .

وهناك أمره ولتون بالوقوف وأخرج من جيبه حبلاً من الحرير الدقيق فربط

به رجلي الارلندية ويديها حتى إذا القاها في المياه واستفاقت لبردها لا تستطيع دفاعاً وتغور في الأعماق .

وبعد ان أتم وثاقها خرج من المركبة ثم حمل الارلندية ومشى بها مشي الخائف الوجل إلى الضفة .

- ٧ -

ولم يكد يسير بها خطوتين حتى استوقفه السائق وقال : احذر .

فالتفت ولتون منذعراً فرأى نوراً كبيراً يدنو منه وهو نور مركبة من تلك المركبات الضخمة التي تنقل عليها البضائع فأسرع عائداً بالارلندية إلى المركبة واختبأ بها إلى ان تمر مركبة النقل .

ثم مرت تلك المركبة الضخمة وأصاب نور مصباحها وجه الارلندية فعاد ولتون إلى الاضطراب وحار في امره ولم يدر ما يصنع .

وقد استبطأه السائق بعد مرور المركبة فقال له : ما بالك ساكتاً ؟

فلم يجب وعاد الى حثه على الاسراع .

غير أن ولتون لم يسمع حديثه وكان كالمصاب بدوار وجعل يناجي نفسه فيقول : ما هذا الخوف وما كنت أرهب القتل وأخشى هذه المواقف ؟

وعاد السائق الى حضه على السرعة فأجابه ولتون بصيحة رعب ذلك ان الارلندية تنهدت تنهداً ضعيفاً بعد ان كانت ساكتة كالأموات فوقف ولتون منذعراً وقال : كلا لا أريد .

فقال له السائق : ماذا تريد ألا تريد اغراقها ؟

– كلا !

– إذاً ، أعزمت ايها الشقي ان ترد المال لفانوش ؟

ـ كلا ، فاني لا أريد المال ولا أغرق هذه المرأة فإن جمالها يأخذ بمجامع القلوب .

فقهقه السائق ضاحكاً وقال : يسرني أن أراك من أهل الغرام ، اما وقد عزمت على ان ترد المال فلا فرق عندي بين ان تغرقها أو تبقي عليها ، بل اني اوثر سلامتها ، فإن قتل النساء يورث الشقاء كما قلت لك ، ولكن ماذا يجب ان نعمل !

ـ لا أعلم ولكنها شربت مقداراً كبيراً من الأفيون بحيث يتسع لدينا مجال التروي قبل ان تستفيق .

ـ والآن الى اين نذهب ؟

ـ إذهب الى حيث تشاء شرط ان تبعد عن هذا النهر .

فقال له السائق ممازحاً : العلك تريد ان تتزوج هذه الحسناء ؟

واضطرب ولتون وقال : كلا فإني لا أجني جناية الزواج فاذهب بنا الى افقر مكان في ويننغ .

ـ كما تريد . ودفع الجياد فسارت باللصين والارلندية نحو ساعة حتى وصلت الى المكان الذي عينه ولتون فوقفت المركبة عند باب خمارة ونزل ولتون والسائق ودخلا اليها وجلسا يشربان ويتشاوران .

فقال له ولتون : لقد ارتأيت الرأي السديد في الطريق وذلك ان فانوش عهدت الينا إخفاء الأم كي تتمكن من الاستيلاء على الولد .

ـ ألهذه المنكودة ولد ؟

ـ نعم وسأقص عليك هذه الحكاية في فرصة أخرى والآن ان فانوش نقدتنا الأجرة كي نخفي الأم ، وإذ قد احضرناها الى هذا المكان فإنها لا تسمع بعد ذلك بأخبارها .

ـ لكن لهذه الأم ولداً كما تقول فهي تبحث عنه حتى تجده .

- هو ما تقول غير ان هذه المرأة غريبة وهي لم تعرف لندرا قبل هذه

الليلة بل انها لا تعرف اسم فانوش ، ولا الناحية التي تركت فيها ولدها فكيف تستطيع ان تجده في هذه العاصمة التي تشبه القارب باتساعها ؟

— إذاً ، ماذا عولت أن تصنع بها ؟

— عولت ان نذهب بها الى حديقة عمومية من حدائق وينغ فنضعها على مقعد من مقاعدها ويفعل الله بها بعد ذلك ما يشاء .

— انه رأي سديد فهلم بنا قبل ان تستفيق .

وخرج الاثنان من الخمارة الى المركبة وساروا بالارلندية الى اقفر شارع في وينغ فحل ولتون قيودها وانزلها الى محل عمومي وأجلسها على احد مقاعده وقال لرفيقه : ان جسمها قد بات حاراً وذلك دليل على قرب استفاقتها وقد قرب زمن تردد الناس الى وينغ فان حاناتها لا تفتح قبل منتصف الليل فاذا استفاقت فلا تعدم نصيراً بين هؤلاء اللصوص .

— دون شك فإن المرأة تلقى خير ضيافة في وينغ بل في كل مكان .

— ليس ذلك من شأننا والمهم عندنا اننا ابقينا على حياتها وسرقنا مال فانوش كما ينبغي أن يسرق

ثم ذهب اللصان وهما يضحكان .

وبعد حين تنبهت عصابات وينغ وظلت تلك المنكودة نائمة فوق ذلك المقعد .

— ٨ —

كان حساب فانوش ان الارلندية لا بد لها ان تستفيق بعد أربع ساعات من شربها المخدر وقد تقدم لنا القول انها تنهدت عندما كانت في المركبة مع ولتون فكان ذلك دليلاً على قرب استفاقتها .

غير أن اللصين تركاها منذ ساعة وهي لاتزال نائمة فوق المقعد الخشبي معرضة لبرد تلك الليلة القارص .

ولم تكن حانات وينغ قد فتحت أبوابها بعد .

أما الارلندية فانها بدأت بعد حين ان تستفيق ، فتحركت ثم تمطت ثم فتحت فمها ، وخرج من شفتيها اسم ولدها رالف ، فانها كانت تحلم به مدة رقادها ، وقد رأته شب وترعرع وبات يمشي بخطوات ثابتة قوية الى المستقبل .

ولما تحركت شفتاها فتحت عينيها وكانت حانات وينغ قد فتحت أبوابها فتوارد اليها اللصوص والمومسات من كل فج .

وقد حسبت تلك المنكودة حين فتحت عينيها انها لا تزال حالمة غير ان برد الهواء أزال منها هذا الظن فوقفت مذعورة وكانت اول ما قالته : رباه ! أين ولدي واين انا ؟

ثم جعلت تمشي مشي المجانين ، وتنادي ولدها رالف . ولكن رالف لم يجب .

وعند ذلك وضعت رأسها بين يديها كأنها تحاول جمع حواسها . فذكرت تلك المرأة التي باتت عندها ، وكيف انها بعد ان نام ولدها ، جثت راكعة تصلي ، ثم شعرت بدوار في رأسها ، ثم لم تعد تذكر شيئاً . فصاحت عند ذلك صيحة يأس هائلة ، إذ علمت انهم سقوها مخدراً كي يسرقوا ولدها .

ولكنها لم تكن تعرف اسم المرأة التي كانت عندها ولا نمرة منزلها غير ان للامهات قوة تنبعث من السماء فقالت في نفسها لأجدنه اين كان وأخذه من يد خاطفته .

ثم جعلت تسير الى الأمام هائمة ، وهي تحسب انها قريبة من ذلك المنزل ، إذ لم يخطر لها أنهم أبعدوها عنه مسافة أربعة أميال .

وجعلت تخترق الشوارع والأزقة ، وهي تارة تفرح ويشرق وجهها بنور البشر حين تحسب انها اهتدت الى الطريق ، ثم لا تلبث ان تعود الى اليأس حين تعلم أنها ضلت السبيل ، فيقطب وجهها وتنظر الى ما حولها نظرات لا تستقر على شيء .

وكانت تمر بين عصابات اللصوص والبحارة الداخلين الى الخمارات والخارجين منها في ذلك الشارع المخيف، فيكلمونها بألفاظ بذيئة فتفر منهم وقد ملأ الرعب قلبها وتسير فلا تجد أمامها غير أمثالهم .

الى ان مرت بعصابة من المومسات ، كن يتخاصمن عنـــد باب خمارة فدنت منهن ، وقد أنست بمنظر النساء ، وقـالت لهن : كيف الطريق إلى سانت جيل ؟

فجعل بعض هؤلاء الفواجر يعبث بها ، وبعضهن يضحك عليها ولم يرشدها الى الطريق .

غير ان واحدة منهن ضخمة الجثة هائلة المنظر شرسة الأخلاق ، ليس فيها شيء من صفات الانسان ، تقدمت الى الارلندية وقالت بلهجة التهديد : ماذا أتيت تعملين هنا ، وأنت لست من أهل الحي ؟ العلك علمت بقـدوم البحارة اليوم من الهند فأتيت تزاحميننا في رزقنا ؟ أم لعلك تريدين مزاحمتي على وليم ؟

ثم ضمت يدها وهجمت عليها تريد ان تضربها ، فهربت الارلندية منها مذعورة ولكن تلك الفاجرة وثبت عليهـــا وثبة النمر المفترس ، فقبضت عليها وجعلت تجرها وتقول إنك لا تبلغين مراداً من وليم ، ولا أطيق مزاحمة فيه .

أما الارلندية فجعلت تصيح بصوت مختنق وتقول : إني لا أبحث عن وليم بل ابحث عن ولدي . بالله دعيني أبحث عن ولدي وارحميني فإني اقسم لك اني لا أعرف وليم .

وفيما هي تبكي وتستغيث والنساء يضحكن من حولها إذ سمعت صوت رجل يقول . هوذا انا وليم فمن يذكر اسمي ؟

فالتفتت الارلندية وشاهدت رجلاً بملابس البحارة ، عالي القامة ، عريض المنكبين . فبسطت يديها اليه شأن المتوسل وقالت له : بالله ارحمني ودافع عني .

فدنا منها وليم وقال : من هي هذه المرأة ؟ فإني لم أرها من قبل ، لكنها حسناء .

ثم أشار الى المرأة ان تتخلى عنها ، فلما رأت المرأة انه قد استحسن الارلندية هاجت في فؤادها عوامل الغيرة فصفعتها صفعة أسالت الدماء من أنفها غير مكترثة لوليم

فغضب وليم غضباً شديداً وضربها بصدرها ضربة شديدة القتها على الأرض صريعة والتفت الى النساء وقال : إن كل من يمس هذه المرأة بسوء لا يلقى غير هذا العقاب .

ثم عاد الى الارلندية يعزيها ويؤاسيها فاستأنست به وقالت له : أسألك بحق السماء ان تعينني على إيجاد ولدي .

- ألك ولد ؟

- نعم وقد سلبوني إياه فرده إلي أباركك وأدعو لك الله .

- أتحبينني إذا أعدت اليك ولدك ؟

فلم تدرك تلك المنكودة معنى حبه الوحشي وقالت له : نعم نعم ، أحبك حق الموت

- اين هو ولدك ؟

- سر بي الى سانت جيل وأنا أجده .

- ولكن هذا المكان بعيد جداً من هنا .

- بالله سر بي اليه . لنركب مركبة فانها تقرب الأبعاد .

– سأفعل ما تريدين ، ولكن هلمي معي قبل ذلك نشرب كأساً من الخمر إني شديد الظمأ .

ثم ضمها الى صدره وتأبط ذراعها ، وأراد ان يسوقها الى الخمارة بالعنف . فعلمت ان نكبتها مع هذا الرجل شر من نكبتها مع تلك المرأة . وحاولت ان تفلت منه ، ولكنها لم تستطع إفلاتاً ، فجعل يجرها جراً وهي تصيح وتستغيث ، فلا تسمع من حولها غير قهقهة الضاحكين وبذاءة الهازئين

– ٩ –

كان بالقرب من ذلك المكان خمارة يدعونها الخمارة السوداء ، أطلق عليها هذا الاسم لكثرة ارتكاب الآثام فيها .

ولم تكن تفتح أبوابها إلا بعد انتصاف الليل ، فيسرع اليها نحو خمسين رجلاً وامرأة من أهل ذلك الحي ويجلسون حول موائد الشراب ، فيتنادمون ويعاقرون الخمر ويتخاصمون لأدنى سبب فتسيل دماؤهم على تلك الموائد ، ثم تغسل الدماء دون ان يتداخل البوليس في أمورهم وتعود الى ما كانت عليه حتى الصباح .

وكانت تتولى هذه الخمارة إمرأة . فكانت تنظر الى المتخاصمين مبتسمة غير مكترثة لنتائج الخصام ، حتى إذا قتل احد اولئك الأشرار أمرت خادماً لها فحمل الجثة والقاها في الشارع واستمرت الحفلات كأنه لم يحدث قتل ولم تسفك دماء .

وإن بين زبائن هذه الخمارة الهائلة رجلاً كان يجلس كل ليلة قرب مجلس صاحبة الخمارة فيشرب كأساً من الشراب جرعات صغيرة والمرأة تنظر اليه من

حين الى حين نظرات تشف عن الارتياح والإعجاب .

وكان هذا الرجل في الحلقة الرابعة من عمره ، أشقر الشعر ، ربعة القوام ، تظهر مخائل النبل ، وآثار الشهامة بين عينيه ، فتظهر انه من طينة غير طينة اولئك اللصوص ، وان قدومه الى تلك الخمارة كان لمآرب في النفس

ولذلك كان يستلفت اليه الأنظار ولم يكن أحد من زبائن الحانة يعلم أصل هذا الرجل فبعضهم كان يظنه ايكوسياً وآخرون يحسبونه ارلندياً او إنكليزياً وفريق كانوا يقولون انه فرنسياً .

وقد كان كثير التردد على هذه الخمارة ، غير انه لم يكن يكلم أحداً فإذا شرب كأسه دفع ثمنه وانصرف

ولكنه كان أحياناً يغرق في عباب التصورات ، فيقيم الساعة والساعتين وهو مقطب الجبين ، عابس الوجه ، ينـاجي نفسه . فلقبه أهل الخمارة بالرجـل العبوس فسمي عندهم بهذا اللقب ، إذ لم يكن له عندهم اسم معروف .

وقد حاول بعضهم ان يعرفوا شيئاً عن هذا الرجل ولم يجدوا سبيلا لذلك إلا بمخاصمته فاتفق ثلاثة منهم على مبادرته بالعدوان ، فانقض عليهم انقضاض الصاعقة وصرع الثلاثة واحداً بعد آخر فسجل اسمه منذ تلك الحادثة بين أبطال الخمارة وبات الكل يجلونه ويحيونه تحية الاحترام .

ولم يكن يجالسه في الخمارة غير رجل واحد وكان الجميع يحبونه لفقره وسلامة قلبه وهو شوكنج ، ذلك الرجل الذي أرسله اللورد بالمير لاقتفاء أثر الارلندية كما عرف القراء فكان الرجل العبوس يدفع عنه في كل ليلة ثمن شرابه ويحسن اليه بما يقيه شر الجوع .

فبينما كان اللصوص والبحارة مجتمعين في تلك الليلة يسكرون ويعربدون والنساء ترقص وتغني وصاحبة الخمارة تنظر خلسة الى الرجل العبوس وهو منشغل

عنها بهواجسه إذ دخل رجل الى الخمارة استلفت أنظار الجميع فصاحوا جميعهم صيحة عجب قائلين : هوذا شوكنج .

وإنما كان عجبهم لأنهم شاهدوا هذا الرجل على غير ما عرفوه فان عهدهم به رث الثياب ، بارز الكوع ، حافي القدمين . فرأوه عاد اليهم فجأة وهو بملابس التجار .

فقالت إحدى النساء : ما هذه النعمة ؟ إني أرى في قدميك نعلين جديدين ؟

وقال لص آخر : وإني أراك لابساً قميصاً جديداً .

وقالت صاحبة الحانة : لا شك انه بات من أهل الثروة لأنه لابس قبعة .

فضحك شوكنج وقال : نعم لقد بت غنياً ولكن إطمئنوا لأني أودعت نقودي في المنزل .

فضحك الجمع ، وتركهم معجبين بأمره وذهب الى الرجل العبوس وجلس بجانبه وقال له : إني سأدفع اليوم ثمن الشراب ، فقد طالما دفعت عني

- ١٠ -

فابتسم الرجل العبوس وقال : معاذ الله ان أمنعك عما تود لأني لا أبغي مساس أحد فادفع انت اذا كانت هذه مشيئتك غير اني أود ان تجيبني عن سؤال أسألك إياه .

— سل ما تشاء .

— ألديك نقود ؟

فأجابه بصوت منخفض : أسكت ولا تفضحني أمامهم ، فقد كسبت

الليلة عشرة جنيهات ، فأنفقت واحداً على ملابسي ، واشتريت سترة بثلاثة شلنات وقبعة بشلنين وبنطلوناً بشلن ونصف وحذاء باربعة شلنات وقميصاً بشلنين وكلها جديدة ، فأصبحت كما ترى بهجة النواظر

وكنت أود أن أشتري كثيراً غير ان الحكمة تغلبت علي فعزمت على استئجار غرفة لأسبوعين بحيث يبقى معي ثمانية جنيهات ونصف فأعيش بها عاماً كاملاً عيش الأمراء .

فابتسم الرجل العبوس وقال له : ولكن كيف كسبت هذا المال ؟

– إن الأمر بسيط ، فقد خدمت أحد اللوردية خدمـــة كافأني عنها بهذا المبلغ .

– كيف كان ذلك ؟ وما هي هذه الخدمة ؟

– إني كنت أجتاز في مركب وبين ركابها أحد اللوردية ، فدنا مني ودلني على امرأة وقال لي : إذا تبعتها وعدت إلي بعنوانها أعطيتك عشرة جنيهات ، ففعلت وكسبت هذا المال بشرف كما ترى .

فهز الرجل العبوس رأسه وقال له : أتحسب ان هذه الطريقة في الكسب من الطرق الشريفة ؟

فاحمر وجه شوكنج من الخجل وأدرك خطأه فقص على الرجل العبوس جميع ما عرفه من أمر الارلندية ، دون ان يغفل عن شيء من التفاصيـل . فلما أتم حديثه قال له الرجل العبوس : إنك ارتكبت طيشاً لا يشفع فيه غير سلامة قلبك .

– لماذا ؟

– إنك أحسنت بمساعدتك هذه المرأة ، ولكنك أسأت بارشادك اللورد اليها فقل لي ماذا يدعى هذا اللورد ؟

– اللورد ماليز .

فقال له بلهجة المؤنب : لقد كان ينبغي ان تعلم أن لورداً غنياً لا يبحث بحثاً

سرياً عن عنوان امرأة فقيرة لغاية صالحة .

فاضطرب شوكنج وقال : لقد أصبت فإني أخطأت وقد أغواني ذهبه وما أنا فيه من الفقر غير اني أعرف المنزل الذي غادرت فيه الارلندية أتود ان أعود اليها وأحذرها من هذا اللورد ؟

فلم يجد الرجل العبوس فرصة لإجابتـــه ، إذ سمع صيحة عظيمة في الخمارة

ذلك انه دخل اليها رجل كان آخذاً بتلابيب إمرأة يسوقها مكرهة وهي تستجير منه به وتتوسل اليه ان يطلق سراحها .

أما الرجل فإنه دفعها الى وسط القاعة وجلس جلوس المنتصر أمام مائدة فشمر عن ساعديه إظهاراً لعضلاته القوية .

وقال : إني وليم البحار وقد خضعت لي نساء وينغ كلهن وهمن بي هياماً فلا بد لك ان تقتدي بهن وتخضعي لي .

فصاح الجميع بصوت واحد : ليحيا وليم .

وأقبل النساء يعنفن تلك المرأة المنكودة لنفورها من وليم فاذا استغاثت هزئن بها .

ولما سمع شوكنج هذا الضجيج التفت وصاح صيحة الدهش حين شاهد الارلندية .

فقال له الرجل العبوس : ماذا أصابك ؟

– هي هي !

– من هي ؟

– الارلندية !

– أم الغلام ؟

– هي بعينها .

– كيف اتفق وجودها هنا ؟

ـ لا أعلم !

فكف الرجل العبوس عن محادثته ، وجعل يتأمل وجه هذه الارلندية وهو يندهش لجمالها النادر ، ولما تبينـــه في وجهها من دلائل الشرف والطهر . فكانت مع أولئـــك اللصوص ، تشبه ملاكاً سقط من السماء إلى الجحيم .

وكانت حين نظر اليها قد جثت راكمة ، وقالت بصوت يخنقه البكاء : بالله ارحموني واشفقوا علي فما أنا كما يحسبني هذا الرجل ، بل أنا أم منكودة اختطفوا منها ولدها . أستحلفكم بالله ان تنقذوني من هذا الرجل ، وتدعوني أبحث عن ولدي .

وكأنما وليم قد خشي ان تدفع المروءة أولئـــك اللصوص الى نجدتها . فأخرج خنجره ووضعه على المائدة وقال : إنكم جميعكم تعرفون من أنا ، وقد رأيت هذه المرأة وأعجبني جمالها . فمن منكم يجسر على منازعتي فيها وإنقاذها مني ؟

فسكت الجميع ولم يجسر أحد على اعتراضه فجذبها اليه وقال لها . أرأيت أيتها الحسناء كيف انه لا يوجد من يجسر على منازعتي فيك؟ إذاً ستكونين إمرأة وليم على رغمك .

غير ان وليم لم يكد يتم حديثه حتى رأى رجلاً اخترق القاعة ودنا منه فقال: بل انك تتركها على رغمك وأنا الذي أنقذها منك .

فصاح الجميع عند ذلك : ليحيا الرجل العبوس ! فإنه هو الذي تصدى لوليم . أما الارلندية فقد اتقدت عيناها بأشمة الرجاء فبسطت لهذا الرجل يد المتوسل وعلمت ان الله أرسل لها من يخلصها من اولئك الفجار .

كان مثل هجوم هذا الرجل على وليم ، مثـــل هجوم داود النبي على جليات الجبار .

إن وليم لم يكن جباراً ، ولكنه كان يشبه الجبابرة بضخامة جسمه ، حتى لقد يحسب من يراه اذ، لو ضرب ثوراً لقتله ، خلافـــاً للرجل الذي كانوا يلقبونه بالعبوس ، فإنه كان نحيل الجسم تظهر عليه آثار النعومة كأنه من أولاد اللوردية

فلما رآه وليم قادماً اليه يحاول مخاصمته ضحك ضحكاً شديداً ثم جعل يتهكم عليه ويلقبه بالقاب النساء استخفافاً بقوته .

غير ان هذا الرجل نظر اليه نظرة منكرة ، خرج على أثرها اللهب من عينيه ، فاضطرب وليم لهذه النظرة وانقطع عن الضحك ، ووقف في موقف الدفاع .

أما الرجل العبوس فإنه حال بينه وبين الارلندية وقال له : إني أمنعك عن ان تمد يدك بسوء الى هذه المرأة .

فتحمس اللصوص لمــا رأوه من ظواهر بسالته . وصاح بعضهم : يحيــا الرجل العبوس .

وأما وليم فإنه ضم يديه وهجم على الرجل وأطلق يده الهائلة عليه غير ان الرجل وثب وخلا من تلك الضربة واختل توازن وليم ، فاغتنم الرجل الفرصة ولكمه لكمة شديدة في صدره فانقلب وليم على ظهره .

وكان في وسع ذلك الرجل ان يستفيد من نصره ويطعنه بخنجره طعنة قاضية غير انه لم يفعل شيئاً من ذلك بل انه وقف مكتوف اليدين ينتظر نهوض خصمه وعودته الى القتال

أما وليم فإنه نهض وهو يزأر زئير الأسود وجرد خنجره وهجم على الرجل

العبوس ، فلم يجرد الرجل خنجره ، ولكنه خلا من الضربة كما فعل في المرة الأولى . ثم انقض على خصمه وحمله والقاه على مسافة مترين . فسقط صريعاً وسقط الخنجر من يده .

فأسرع الرجل ووضع رجله فوق الخنجر ووقف ينتظر نهوض خصمه ايضاً وجعل ينظر الى من كان حواليه فرأى شوكنج واقفاً مصفر الوجه ورأى ان الارلندية قد عرفته والتجأت اليه .

فنادى عند ذلك شوكنج وقال له : إني أعهد اليك بهذه المرأة وليعلم كل من في هذه القاعة اني قد توليتها بحمايتي .

فوقع هذا الكلام خير وقع من اللصوص فجعلوا يصفقون بأيديهم تصفيق الاستحسان ويصيحون : يحيا غالب وليم .

وهم وليم أن يعيد الكرة على خصمه غـــير انه توقف وانقطعت أصوات اللصوص وساد السكون فجأة في تلك الخمارة .

ذلك انهم رأوا رجلاً دخل الى القاعة فأثر فيهم هذا التأثير العجيب وباتوا كأن على رؤوسهم الطير .

ووقفوا وقفة الاحترام أمام هذا الرجـــل ، وهم مطرقون الرؤوس هيبة وإجلالاً .

أما هذا الزائر الجديد الذي أكره اللصوص والفواجر على احترامه ، فقد كان في مقتبل الشباب طويل القامة أصفر الوجه أشقر الشعر طويله وكان يتدلى على كتفيه .

وهو نحيل الجسم أسود الملابس نحيف الأعضاء ، حتى يحسبه الناظر اليه إمرأة متنكرة بملابس الرجال .

فاخترق صفوف اللصوص حتى وقف قرب وليم فقال له : لقد قال الله من قتل يقتل وقال أحبوا بعضكم بعضاً فقد خلق الانسان لمعاونة أخيه الانسان . فما بالكم أيها الأخوة تتقاتلون ؟

فركع وليم الوحشي أمام هذا الرجل وأحنت المومسات رؤوسهن وأطرق اللصوص إطراق الاحترام

وصاحت الارلندية هوذا الله قد أرسل لي ملاكاً من ملائكته الأطهار لإنقاذي .

أما هذا الرجل الذي فعلت كلماته بنفوس اولئك الأشرار فعل السحر فقد كان كاهناً كاثوليكياً ارلندياً عرفه جميع سكان وينغ حين كان الهواء الأصفر يفتك بهم الفتك الذريع ، فلا يجدون من يكترث بهم ويعتني بمعالجتهم غير هذا الكاهن .

فكانوا يحترمونه احتراماً مقدساً ، وقد عرف بينهم باسم الكاهن صموئيل كاهن كنيسة سانت جيل .

ونظر هذا الكاهن نظرة المؤنب الى وليم وقال له . إني ما جئت هـــذه الحارة إلا من أجلك ، فقد قيـــل لي إنك تسيء معاملة إمرأة ، وتريد إكراهها على الأمور الشائنة . فأسرعت كي أنقـذها منك ، وأهديك الى الصراط القويم .

فاضطرب وليم وقال له ، وهو لا يجسر ان ينظر اليه : أرجوك ان تصفح عني وإني لا أعود الى مثل هذه المآثم بعد الآن .

وعاد الكاهن الى الارلندية وهي ملتجئة الى شوكنج فقال لها : من أنت أيتها المرأة ؟

أجابت : إني أم منكودة خطفوا ولدهـا ، فاشفق علي يا سيدي ورد إلي ولدي .

فقال لها شوكنج : لا تخشي يا سيدتي مكروهاً على ولدك لأني أعرف المنزل الذي بات فيه الست أنا الذي أوصلتك الى هذا المنزل ؟ فثقي بي ولا بد لي من إرجاع ولدك اليك .

فصاحت الارلندية صيحة فرح وأكبت على يد الكاهن تقبلها فقال لها:أرى

من لهجة كلامك انك ارلندية .

– نعم يا سيدي .

– وأنا ارلندي فلينقذ الله الوطن العزيز .

ثم التفت الى الرجل العبوس وقال له : وأنت ايها الرجل الكريم الذي تولى حماية هذه المنكودة من أنت ؟

– إني رجل يطمع ان يكون من أهل الخير والصلاح فاذا أذنت لي أن اكون بمعيتك كنت لك أطوع من العبيد .

ثم ركع أمام الكاهن وقبل يده باحترام .

– ١٢ –

وعند ذلك أخذ جميع أولئك اللصوص يخرجون من تلك الخمارة ، كأنما هم أنفوا من الإقامة في محل دنس طهر بوجود هذا الكاهن فيه ، ولم يبق في الخمارة غير صاحبتها ، والارلندية ، وشوكنج ، والكاهن والرجل العبوس .

ولما تفرق الجميع عاد الكاهن الى محادثة الارلندية فقال لها إذاً أنت قادمة من ارلندة ؟

– نعم يا سيدي فقد وصلت الى لندرا هذه الليلة مع ولدي .

– ما الذي دفعك الى مهاجرة ارلندا ؟ العله الفقر شأن جميع إخواننا الارلنديين ؟

– كلا يا سيدي ، ولكنني أتيت الى لندرا قياماً بواجب مقدس ، فقد أمرت أن أحضر الصلاة في سانت جيل ، في الساعة الثامنة من صباح غد .

فارتعش الكاهن وقال : الملك نذرت نذراً ؟

فنظرت اليه نظر الواثق المطمئن وقالت إن قلبي يحدثني بأنك من رجال الله فلا جناح علي إذا بحت لك بحقيقة أمري .

— تكلمي .

— إني فلاحة فقيرة ولدت في جوار دبلين ، وأنا ابنة صياد . وقد عهد إلي زوجي قبيل وفاته بقضاء مهمة لا أعلم شيئاً من سرها . ولكني أقسمت له يميناً على قضائها .

— ما هي هذه المهمة ؟

فأجابت يجب علي أن أذكر لك بعض قصتي ، كي تفهم المهمة التي انتدبت لها .

لما كبرت وترعرعت جعلت أعين أبي في التماس الرزق فهو يصيد السمك وأنا أحيك له الشباك على أنه كان يسافر أحياناً في مراكب الصيد الى الأرض الجديدة ويصيد الحوت فيغيب ثلاثة شهور .

وقد اتفق اني بينما كنت ليلة في المنزل وكان أبي مسافراً إذ أقبل إلي رجل يركض مذعوراً وهو مخضب بالدماء فولج المنزل وقال لي : أستحلفك بالله وبارلندا التي سفكت دمي من أجلها أن تخبئيني .

فلم أنظر اليه ، ولم أنتبه لجراحه ، ولم أسمع غير كلمة الوطن المقدسة . فأدخلته وفرشت له سرير أبي فنام فيه ، وكنت أسمع عند ذلك عن بعد دوي البنادق .

ولم أعلم ماذا حدث غير اني ذكرت ما سمعته في ذلك الصباح من بعض الصيادين وهو ان الثورة قد نشبت في ارلندا ، وان انكلترا أرسلت سفنها وجنودها لكبح الثائرين .

فعلمت ان ما أصاب هذا الرجل ، اللاجئ إلى منزلنا ، إنما كان من عداء الانكليز .

فانصرفت الى الاعتناء به وأقمت طول الليل أصلي وأسأل الله ان يشفي الجريح ولا يهدي الانكليز اليه .

وعند الصباح برحت المنزل وذهبت الى الميناء ، فعلمت انه جرت معركة هائلة بين الارلنديين والانكليز . فكان النصر فيها للجنود وبددوا شمل إخواننا الارلنديين ، وهرب من سلم منهم الى الجبال غير ان الانكليز لم يفرحوا بهذا النصر لأنهم لم يستطيعوا القبض على زعيم الثائرين .

فأسرعت عائدة الى المنزل وكان قلبي يحدثني ان ذلك الجريح هو نفس ذلك الزعيم الذي يبحث عنه الانكليز .

وأقام عندنا عدة أسابيع وأنا أضمد جراحه كل يوم حتى شفي وتعافى وكان أبي قد عاد من السفر فاعتنى به نفس اعتنائي وأكرم مثواه ، فأقام عندنا مختفياً بضعة شهور .

وكان في مقتبل الشباب وضاء الطلعة تدل نظراته على انه تعود الحكم على القلوب فأحببته وأحبني ووافق أبي على زواجنا فتزوج بي . وبعد ان سافر الانكليز قبل أن يشتغل مع أبي في مهنته ويتعاونان على الارتزاق .

وقد رزقت منه غلاماً فكان يحمله بين يديه ويقول لي : إن هذا الغلام قد يكون منقذ ارلندا .

فكنت أصدق كل ما يقول وأؤمن بكلامه كما أؤمن بالله .

وهنا تنهدت الارلندية تنهداً طويلاً ، وأخرجت منديلها فمسحت به دموع عينيها .

فقال لها الكاهن صموئيل : أتمي حديثك يا ابنتي .

وكانت لهجته تدل على ان الأمر خطير .

وعادت الارلندية الى حديثها فقالت: توالت الأيام وبدأ الشعر ينبت في رأس ولدي فكان أسود قاتماً والعهد بشعور الآرلنديين ان تكون شقراء ولا سيما في عمر الحداثة

ثم رأينا يوماً بين الشعر خصلة حمراء نبتت فجأة ، فرأيت زوجي قد صاح صيحة فرح وقال لي : لقد كنت مصيباً حين قلت لك ان هذا الغلام ينقذ ارلندا .

أما انا فلم أفهم شيئاً من قوله ، ولكنه مضى في حديثه فقال إصغي يا امرأتي العزيزة لما أقوله لك فاني اليوم صياد فقير أعيش معك على فقرنا عيش السعداء غير اني قد اضطر الى فراقك فراقاً قد يكون أبدياً ، لأن ارلندا قد تحتاج إلي في الغد ، فأعود الى امتشاق ذلك الحسام ، الذي سقط مني في المعركة الأخيرة .

ولا يعلم غير الله ما يكون من أمري ، فقد أنتصر على من يضطهدنا وأنقذ ارلندا من نير الانكليز وقد يكون النصر لأعدائنا فأموت في المعارك تاركاً هذه المهمة لولدنا العزيز .

ومهما يكون من أمري فاصدعي بما أقوله لك وهو انه في سنة ١٨٦٠ يجب أن تغادري ارلندا مع ولدك .

— إلى أين ؟

— إلى انكلترا حيث يقيم أسيادنا ومضطهدونا . وإذا وصلت اليها إذهبي في الساعة الثامنة من صباح ٢٧ أكتوبر الى كنيسة سانت جيل ، وادني بولدك من الهيكل فإذا فرغ الكاهن من الصلاة قدمي له الولد وقولي له : « لقد أتيتك بالذي تنتظرونه » .

فأقسمت له أن أفعل ما يريد .

ومرت بنا الأيام وتوالت الأعوام وهو معي يشتغل بالصيد لما جسرت مرة على طول عهدي بصحبته أن اسأله شيئاً عن ماضيه .

إلى أن جاء منزلنا في ليلة مظلمة رحال لم أعرفهم من قبل فلما رآهم فرح بهم وانس بلقائهم وقال لقد طال عهد غيابكم فقالوا : جئنا حين الأوان ، فان ارلندا محتاجة الينا الآن ، وفي اليوم التالي سافر معهم فلم تحل دون سفره دموعي ، فلما ودعني قال لي : تذكري اليمين ولا تنسي سانت جيل في ٢٧ اكتوبر سنة ١٨٦٠ .

وبعد أيام اضطرمت الثورة في ارلندا فجعلت القرى تثور الواحدة تلو الأخرى ، فاندحرت الجنود الانكليزية مرات كثيرة ، غير أن الانكليز يحاربون بأموالهم ، فاذا قتل الجندي حل مكانه سواه وهم يملأون البحر سفناً عند الاقتضاء خلافاً للارلنديين ، فانهم يحاربون برجالهم ، فاذا قتل المجاهد منهم لا يجدون سواه وظل القتل مخيماً على الفريقين عدة أيام حتى انتهى القتال وانجلى عن فوز الانكليز وعادت ارلندا تئن تحت نيرهم الثقيل

ولكني لا أعلم ما جرى لزوجي فحملت ولدي وذهبت به من قريتي إلى دبلين فلما بلغت اليها سمعت الأجراس تدق ورأيت الشوارع غاصة بجماهير الناس فسألت عن السبب في ذلك فقيل لي أن المحكمة العليا حكمت بالاعدام على زعيم الثوار وسينفذون الآن هذا الحكم .

فانقبضت نفسي وحدثني قلبي بمصاب أليم وحاولت الرجوع ولكني كنت أشعر بقوة عظيمة تجذبني إلى ساحة الأعدام .

ثم باتت تلك الساحة ورأيت المشنقة منصوبة فحاولت الرجوع ولكن الناس كانوا يزاحموني فالتصقت بتلك المشنقة دون أن أريد وبعد هنيهة جاؤوا بالمحكوم عليه وأصعدوه درجات المشنقة فأغمضت عيني كي لا أرى ذلك المنكود ولكنهما فتحتا بالرغم عني فصحت صيحة منكرة حسب الناس أن روحي خرجت معها من صدري ذلك ان هذا المحكوم عليه كان هو ، أي زوجي ،

وقد رآني وقال لي « تذكري » .

ولم أعلم ما جرى بعد ذلك فقد أغمي علي ، فلما فتحت عيني وجدت الظلام أسدل جناحه والناس قد تفرقوا ورأيت نفسي بعيدة عن ذلك المكان الذي قتل فيه زوجي شهيد ارلندا ووجدت بجانبي رجلاً لم اكن أعرفه من قبل وهو يحمل ولدي النائم فقال لي : اتبعيني ، فتبعته وأنا فاقدة رشادي لا أعلم أين أنا ولا كيف أسير .

وبعد مسير ساعة وصلت إلى طريق قريتي فقال لي : اذهبي الآن الى منزلك إذ لم أعد أخشى على ولدك فان الظالمين لا يبحثون عنه في منزلك ولو علموا انه ابن زعيم الارلنديين لما أبقوا عليه ، فاذهبي الان رأف الله بحالك وتذكري .

ثم تركني وانصرف ، فعلمت بعدئذ ان هذا الانسان كان عارفاً بما اوصاني به زوجي .

وعند ذلك مسحت الارلندية دموعها وركعت أمام الكاهن صموئيل وقالت له : انك عرفت كل شيء أستحلفك بالله وبذلك الانسان الذي في سبيل الوطن أن تساعدني في سبيل ايجاد ولدي إذ يجب أن أكون معه في سانت جيل وأن . .

فقاطعها الكاهن باشارة وقال : أنا هو الكاهن الذي سيقيم الصلاة غداً في سانت جيل وأنا هو الذي ينتظر قدومك بالغلام .

فنظرت اليه بانذهال عظيم وقالت : أنت هو ؟

- نعم يا ابنتي وأنا أيضاً أنتظرك .

- وولدي أين هو ؟

- كوني مطمئنة فسوف نجده .

ثم التفت إلى شوكنج والرجل العبوس وقال لهما : انكما ستساعداني على إيجاد الطفل فيما أظن

فأجابه شوكنج إن إيجاده سهل لأني أعرف أين هو

وقال الرجل العبوس : اني مستعد لخدمتك في كل ما تريد

فقال لهم : إذاً هلموا بنـــا فإن هذا الغلام الذي نبحث عنه هو الذي تنتظره ارلندا .

وهموا بالخروج من الخمارة فتقدمهم الكاهن ولكنه لم يمش خطوة إلى الباب حتى رأى رجلاً قد دخل إلى هذه الخمارة ، فما أوشك أن رآه حتى ارتعش ونظر إلى رفاقه نظرة تدل على القلق والاضطراب

- ١٤ -

ولم يكن منظر هذا الرجل الذي دخل يدعو إلى مـا لقيه الكاهن من الاضطراب فقد كان حسن البزة نظيف الملابس مختماً بخاتم ثمين من الماس ممـا يدل على انه من أهل اليسر غير أن عينيه كانتا غائرتين وكانتا تشيران إلى ما فطر عليه من الخبث والطمع .

وكان على بساطة ظواهره يلقي الرعب في قلوب كثيرين من الذين عرفوه فإنه كان يدعى توماس الجن ، وهو من أشهر المرابين في لندرا وقـــد أرادت التقاليد أن يكون من الاسرائيليين

غير انه كان يخالف أبناء طائفته في كثير من مبادئهم ، فإن الربا يكاد يكون خاصاً بالاسرائيليين ، ولكن معظمهم يأخذون ربحاً حلالاً خلافاً لهذا اليهودي فقد كان يبلغ به الطمع أن يجعل الربا ضعف الأصل لا يردعه ضمير ولا تمنعه عواطف رحمة واشفاق .

وكان من عادته أن لا يرد طالب قرض ومن كلامه المأثور ان كل مديون لا بد له أن يدفع في النهاية ، وان من يطـالب بحقه لا يضيع له حق ولذلك

كان يسلف كل من يستدين منه بفوائد عظيمة ، فلو قبض منه ربع ماله عليه لكان الرابح ولكنه كان يستعين بنظام لندرا الصارم فيستوفي كل ما يعتقده حقاً ، وما هو إلا سرقة واختلاس ، ولذلك القى الرعب في قلوب أمثاله ، فكان إذا حيى أحدهم رفيقاً قال له : أجارك الله من توماس .

وكان هذا الدعاء خيراً من التحية .

هذا هو الشخص الذي دخل إلى الخمارة السوداء فارتعش لرؤياه الكاهن

أما توماس فإنه لم يحفل باضطراب الكاهن بل دنا منه وقال له : انه لو قيل لي اني قد أجدك في مثل هذا المكان لما صدقت ولهزأت بالقائلين .

وأجابه الكاهن بعظمة : إن من كان كاهناً يا سيدي وجب عليه أن يذهب إلى كل مكان يدعوه اليه الواجب .

– أرجوك العفو ومعاذ الله أن أحاول انتقادك ولكني قلت هـذا القول لأني أبحث عنك بحثاً طويلاً منذ حين فلا أجدك .

– ذلك لأني أقمت أسبوعين قرب مريض ولم أكن أبرح منزله إلا إلى الكنيسة .

– ولذلك لم يجدوك في منزلك منذ اسبوعين . ولكنك أخطأت إلى نفسك خطأً عظيماً

– لماذا ؟

– لأن رجال النظام والعدالة قد فعلوا في هذه المدة ما وجب عليهم والان فلنبحث في الموضوع فانك اقترضت مني مائـة جنيه لكنيستك منذ عام وقد استحق الدين منذ شهر فما وفيته إلى الان .

– نعم ، لكني كتبت اليك استمهلك شهرين .

– لا أنكر ما تقول

– واني أقسم لك بأني أفيك مالك بعد شهرين فقد أمرت وكيلي في ارلندا أن يبيع ما بقي لي فيها من الأرض وسيردني المال في أقرب حين .

وضحك توماس ضحك الهازىء وقال : اني أعرف أراضي ارلندا وأثمانها وأنا أشير عليك أن تبحث عن طريقة أخرى .

ـ ماذا تهمك الطريقة ما زال المال سيدفع اليك ؟

ـ لقد أصبت لأن ذلك من شؤونك الخاصة ولا دخل لي بها .

ثم وقف وهم بالخروج من الخمارة ، وظهرت علائم السرور على محيا الكاهن وقال له : إذاً رضيت إطالة الأجل شهرين ؟

فاندهش توماس وقال : متى قلت لك هذا القول ؟

ـ ولكني اقسم لك باني سأفيك مالك حين الاستحقاق .

ـ هذا ما أتمناه لك .

ـ إذاً أترفض تمديد الأجل ؟

ـ اني لا أرفض ولا أقبل ، لأن امرك بات منوطاً برجال النظام فاتفق معهم على ما تشاء .

ـ إني رجل فقير لا سبيل لي الى التقاضي .

فهز توماس كتفه وقال : ليس ذلك من شأني

ثم تركه وخرج من الخمارة وتبعه الكاهن وفي أثره شوكنج والرجل العبوس والارلندية ، والكاهن يتوسل اليه وهو لا يجيب حتى انتهى إلى مركبة كان فيها إثنان وقال لهما : إذهبا بحضرة الكاهن إلى سجن المفلسين فإن أوامر القبض عليه صريحة لا اعتراض فيها .

ووضع أحد الجنديين يده على كتف الكاهن وأمره ان يصعد إلى المركبة .

وعند ذاك نظر الكاهن إلى الرجل العبوس نظرة يأس وقال : استحلفك بالله أن تهتم بايجاد الغلام .

ـ أقسم لك بالله اني سأجده .

وصعد الكاهن إلى المركبة وسار به الجنديان وتهدد شوكنج توماس بقبضته

ولكنه هز كتفه ومشى في حال سبيله دون أن يعبأ به ، أما الارلندية فإنها ركعت وجعلت تصلي .

- ١٥ -

وبعد ان انتهت من صلاتها وبكائها انهضها الرجل العبوس وقـال : اني وعدتك بارجاع ولدك ولا بد من إرجاعه فاطمئني وهلمي بنا .

ونهضت الارلندية وسارت مع الرجلين ، وكان الصبـاح قد طلع فركبوا مركبة ، ودل شوكنج السائق على الشارع الذي تقيم فيه فـانوش وانطلقت بهم تنهب الأرض .

وقال الرجل العبوس لشوكنج ابان مسير المركبة : يجب علينا الآن ان نبحث عن السبب الذي حمل المعتدين على التفريق بين الأم وولدها فدعني أسألها علي أقف على السبب .

ثم جعل يسأل الارلندية أسئلة مختلفة غير ان هذه المنكودة لم تكن تعرف من امرها أكثر ما يعرف منه شوكنج ، وقصت عليه كل ما علمه القراء إلى أن اخبرته بالدوار الذي أصابها حين كانت واقفة تصلي ، وانها فقدت رشادها ولما استفاقت وجدت نفسها بعيدة عن ولدها في اقذر شارع .

وقال لها : اريني لسانك .

فامتثلت ففحصه وقال : انهم سقوك مخدراً ونقلوك من مكان الى مكان دون ان تشعري ، وذلك يدل على انهم يريدون فصلك عن ولدك لسبب اجهله الآن ، ولكن لا بد لي من معرفته فـاطمئني أيتها السيدة فـإنهم لم يسرقوا ولدك ليسيئوا اليه ، فإن هذه المدينة المتسعة كثيرة الأغنياء ، ومن يعلم فقـد يكون القصد من سرقة هذه المرأة لولدك ان تتبناه .

ـ كلا فإن مهنتها تربية الأطفال وقد رأيت عندها بنتين صغيرتين كانتا ترتعشان خوفاً منها . حتى ان احداهما قالت لولدي : لا تقم في هذا المنزل أو يضربوك كما يضربوننا .

وتاه الرجل العبوس في مهامة التصور والتفكير واسترسلت الارلندية إلى البكاء وظلت المركبة مندفعة في سيرها حتى وصلت الى الشارع المقيمة فيه فانوش ، وأوقفها شوكنج على مسافة قريبة من المنزل .

وقال له الرجل العبوس : ما هي نمرة المنزل ؟

- ٣٥ !

ـ إذاً انتظرني في المركبة الى أن أعود .

فأجفلت الارلندية وقالت : ألا تصحبني ولماذا تدعني في المركبة الست أنا التي يجب أن تطلب ولدها ؟

ـ نعم يا ابنتي ولكننا لا نستطيع إرجاع الغلام إلا بالحيلة لا بالعنف ، لأن في هذه العاصمة لا ينال مثل هذا الحق بالقوة غير الأغنياء وأصحاب المقامات ، وما نحن منهم ، وفوق ذلك لا يحق دخول المنازل عنوة لأحد .

وذكر شوكنج ما في جيبه من الذهب وقال : الم أخبرك اني غني ؟

فابتسم الرجل العبوس وقال وأنا ألم أخبرك انك طاهر القلب وإنك أبله فانتظرني هنا مع هذه السيدة حتى أعود

وأطرق شوكنج برأسه خجلاً ، وذهب الرجل العبوس إلى جهة المنزل ، لكنه بدلاً من أن يقرع بابه تجاوزه الى سواه .

وكان يوجد بازاء المنزل خمارة دخل اليها وطلب كأساً من الشراب ثم أخذ يحادث صاحبتها فقال لها : أتعرفين مسز فانوش ؟

ـ نعم فإنها من زبائني .

ـ أين تقيم ؟

ـ في هذا المنزل الذي أمامك رقم ٣٥ ..

– إنما أسألك عنها ، لأن لدي فتاة صغيرة أحب أن أعهد اليها بتربيتهـا لقد علمت أنها مربية أطفال .

واضطربت صاحبة الخمارة وظهر أن عاملين يتنازعانها الى أن تغلب أحدهما على الآخر فقالت له : اني أرى عليك مخائل السلامة وقد وجب علي نصحك ونصيحتي أن لا تضع فتاتك عند هذه المرأة

– لماذا ، أما هي مربية أطفال ؟

– هي كذلك بالظاهر ، أما بالحقيقة فهي سارقة أطفال ..

فشكرها الرجل العبوس وتركها وانصرف . فمر بمـنزل فـانوش ونظر اليه نظرة الفاحص وتجاوزه ماشياً على الرصيف بغية فحص جميع مـا يكتنفه وما يجاوره ، ورأى رجلاً تدل ملابسه على الفقر المدقع يسير الهوينا على الرصيف .

وتفرس فيه وكأنه قد عرفه فرسم على وجهه علامة الصليب بابهـام يده اليمنى ، ولما رأى الفقير هـذه العلامة السرية ، ورأى الرجـل العبوس يتفرس فيه دنا منه وقال له : لقد عرفت علامتك فماذا تريـد أيها الأخ ؟

وأعاد الرجل العبوس رسم علامة الصليب مرة ثانية ، ولكنه رسمهـا هذه المرة باليد اليسرى .

فانحنى الفقير باحترام وقال له : مر أيها الرئيس فاني طوع لأمرك .

فقال الرجل العبوس لقد علمت دون شك أن العلامة الأولى يراد بها إننا اخوان متساوون في جمعية واحدة ، وان العلامـة الثانية يراد بهـا أن لهذه الجمعية رؤساء ومرؤسين ، فـاعلم الآن أني واحد من اولئك الرؤساء .

– ماذا تريد أن أصنع ؟

- أريد أن تتبعني

وتبعه الفقير ممتثلاً دون أن يجيب .

- ١٦ -

أما الرجل العبوس فانه سار تواً الى المركبة .

وقال له شوكنج : ماذا صنعت ألم تجد الغلام ؟

فلم يجبه والتفت الى الارلندية وهي تبكي بكاء الأطفال وقال لها : لا أسألك يا سيدتي إذا كنت تريدين إيجاد ولدك ، فإنك تبذلين حياتك في هذا السبيل ولكني أسألك أن تصغي الي .

فكفكفت الأرلندية دمعها وقالت : قل يا سيدي ما تريد ؟

- إن هذه المرأة التي كنت عندها سارقة أطفال ، وهي لم تسرق ولدك للاساءة اليه بل لبيعه لعائلة تبحث عن وريث كما يظهر فـاطمئني على ولدك فليس عليـه أقل خطر ، واعلمي ان هذه المرأة لا تتوقع أن تراك ، وإذا رأتك الآن أضعت الغلام ، ولا تجيز الشرائع الانكليزية الدخول الى المنـازل فهي تنادي البوليس في الحال وتطردك من المنزل .

نعم انك تستطيعين رفع شكواك الى القضاة ، لكنها تكون قد تمكنت من ابعاد الولد قبل ان يشرع القضاة بالتحقيق ولذلك يجب اذا أردت أن أعيد اليك ولدك أن تطيعيني طاعة لا حد لها .

- مر اطع وقل ما يجب أن أصنع

- يجب أن تبقى هنا في هذه المركبة مع شوكنج .

ثم التفت الى شوكنج وقال له إني ذاهب الآن الى منزل هـذه المرأة فإن رأيتني قد ظهرت لك من نافذته دع السيدة في المركبة واحضر الي

- سأفعل ما تريد ، إخفض صوتك لأني أرى رجلا يسمعنا .

وقد أراد به الرجل الفقير .

ـ لا تخف هـذا الرجل فهو معنا وراقب النافذة ، وإذا رأيتني منها فاسرع الي ..

ثم تركهما وانصرف مع الفقير إلى منزل فانوش وقد أمره أن يزرر ثوبـه وفعل مثله إيهاماً لأهل المنزل انهما من البوليس السري .

ولما بلغا الباب طرقاه مرات متوالية فلم يفتح الباب، بل فتحت نافذة مطلة على الشارع وأطلت منها امرأة عجوز .

فقالت لهما : ماذا تريدان ؟

أجابها الرجل العبوس : إننا نريد منزل مسز فانوش .

ـ انه منزلها ، لكنها ليست فيه الآن .

ـ لا بأس ، افتحي لنا .

ـ ولكن من أنتما ؟

فقال لها الرجل العبوس بلهجة الآمر : قلت لك افتحي .

فترددت العجوز هنيهة ثم فتحت لهما ودخلا ، وأسرع الرجل العبوس الى إقفال الباب والدخول .

ولما تبينتهما العجوز ذعرت وظهرت عليها علائم الخوف وقالت لهما : من أنتما وماذا تريدان ؟

ولم يجبها الرجل العبوس بل تقدم إلى إحدى الغرف وفتح بابهـا ورأى فيهـا البنتين الصغيرتين ، فـامتنعتا عن الشغل وجعلتا تنظران إلى هـذين الشخصين

وعند ذلك التفت الرجل العبوس إلى العجوز وقال لها : تقولين ان مسز فانوش ليست في المنزل ؟

ـ كلا ؟

- أين هي ؟
- مسافرة
- حسناً وأين هي الارلندية ؟
وارتعشت العجوز وقالت : لا أفهم ماذا تقول .
- لقد جاء أمس في الليل إلى هذا المنزل رجل وامرأة وغلام .
- إنك منخدع يا سيدي .
- كلا ، لأن الرجل برح المنزل ، أما المرأة والغلام فقد بقيا فيه .
- قلت لك يا سيدي اني لا أفهم ما تقول .

ثم نظرت الى البنتين نظرة تهديد كأنها تحذرهما من أن تبوحا بشيء غير ان الرجل العبوس انتبه لنظرتها ، فدنا من إحدى البنتين وقال لها بلهجة لطف وحنان ، ألم يحضر يا ابنتي مساء امس رجل وإمرأة وغلام ؟
فقالت له الفتاة دون ان تكترث للعجوز : نعم يا سيدي

وغضبت العجوز غضباً شديداً وأخذت سوطها وحاولت ضرب الفتاة وهي تقول : سوف ترين أيتها الكاذبة .
غير انه قبض على يدها ومنعها عن ضربها ثم عاد إلى الفتاة وقال لها : قولي الحقيقة يا ابنتي ولا تخافي ، أتعشى الثلاثة الذين قدموا أمس هنا في هذا البيت ؟
- نعم ..
- وبعد العشاء ؟
أدخلوا الغلام وأمه الى هذه الغرفة .

وأشارت الى غرفة مقابلة لها ، فأمر العبوس الفقير أن يفتح بابها ففتحه ولم يكن أحد فيها وقال للفتاة : أين هما الآن ؟
- لا أعلم يا سيدي .
- ألم تريهما في هذا الصباح ؟

- كلا ..

- ربما انك لم تري الأم فهل رأيت الولد ؟

- كلا .

- وأين هي مسز فانوش .

- لا اعلم .

وعادت العجوز إلى الهياج وقالت . سوف أميتك أيتها الكاذبة جلداً بالسياط .

وهمت أن تهجم عليها ، ودفعها الرجل بصدرها دفعة شديدة وسقطت على المقعد وقال لها : إذا خطر لك أن تفوهي بكلمة قتلتك دون اشفاق .

ثم دنا من النافذة ففتحها ووقف كي يظهر لشوكنج كما اتفقا

- ١٧ -

ورأى شوكنج إشارة الرجل العبوس وأسرع الى مقابلته ، ونزل الفقير ففتح له الباب ، أما المرأة العجوز فقد كانت ملقية على المقعد وهي توشك أن يغمى عليها من الخوف ، وأما البنتان فقد كانتا تضحكان

ولما دخل شوكنج نظر الى ما حواليه ولم يجد الولد ، وقال له الرجل العبوس أخاف أن يكونوا خطفوه .

ثم عاد الى الفتاة الصغيرة وقال لها : أأنت واثقة يا ابنتي انك لم تري الولد مع مسز فانوش ؟

- نعم .

- اتعرفين هذا الشخص . وأشار الى شوكنج ؟

- نعم ، هو الذي جاء امس مع المرأة والغلام .

والتفت عند ذلك الى الرجل الفقير وقال له انى أعهد اليك بمراقبة هذه العجوز ، وإذا فاهت بكلمة وحاولت الاستغاثة اخنقها .

ثم خرج من الغرفة مع شوكنج وتفقد جميع غرف المنزل وبحث في الحديقة وفي السطح بحثاً مدققاً فلم يجد أثراً للغلام ، وعاد الى العجوز فوجدها ترتعش من الخوف غير انها كانت مصممة على الانكار وقال لها . انك قد ارتكبت جريمة هائلة لا يكون عقابك بعدها غير الشنق على اني اعد لك وسيلة للنجاة إذا أردت السلامة وهي ان ترشديني الى مكان الغلام .

وقالت له بصوت يتهدج من الخوف : اصنع بي مـــا تشاء ، لأن الله يعينني عليك

ـ انه يوجد مركبة اوقفناها خاصة قرب هذا البيت ، سنأخذك بها الى إدارة البوليس وهناك تقولين ماذا فعلتم بابن الارلندية ، إلا إذا أردت أن تقولي هنا فنكفيك هذه المشقة .

ـ قلت لك لا اعلم .

- بل تعلمين .

ـ اقتلني اذا شئت فاني لا أقول شيئاً ولا أعلم شيئاً .

فقال له شوكنج : اتريد ان اخنقها؟

ـ افعل ، لأن الموت اقل ما تستحق .

وأخذ شوكنج منديله ولفه على عنقها فجعلت تصيح بصوت أبح وتقول : اقتلوني اذا شئتم ولكني لا اقول .

وأمرد الرجل العبوس أن يضغط ففعل مهدداً وصاحت العجوز صياح المختنق وكادت تبوح بما تعلمه .

غير انهم سمعوا فجأة جرس الباب الخارجي يقرع قرعاً شديداً ، فكف شوكنج عن الضغط ونظرالى الرجل العبوس نظرة المستشير ، واغتنمت العجوز هذه الفرصة وجعلت تصيح وتستغيث .

ثم توالى قرع الجرس فأسرع الرجل العبوس الى النافذة المطلة على الشارع وأطل منها ورأى مركبة جميلة واقفة عند باب المنزل وقد خرج منها رجل نبيل وقف بجانبه رجلان من البوليس .

وأدرك العبوس ما يحدق به من الخطر وأسرع الى شوكنج والفقير وقال هلموا بنا الى الهرب وأسرعا .

ثم تقدمهما راكضاً الى الحديقة ووجد المفتاح في بابها ففتحه وخرج منه وأسرع الرجلان الى الخروج في اثره .

ولما أمنوا الخطر قال العبوس لشوكنج : اننا لم نجد الغلام اليوم ولكن لا بد ان نجده في الغد .

ثم أعطاه ورقة مالية قيمتها عشرة جنيهات وقال له : خذ هذه الورقة واذهب بالارلندية واستأجر لها بيتاً موافقاً وسلها عن مصابها وعدها بانقاذ ولدها قريباً لأني كما قلت لك لا بد من أن أجده .

– وانت الا تحضر معنا ؟

– كلا اذ يجب ان ارى الكاهن صموئيل .

– كيف تراه وهو في السجن ؟

– ذلك اني سأحبس نفسي معه في السجن

– لكنك إذا دخلت الى السجن لا تخرج منه فكيف تستطيع البحث عن الغلام ؟

– اني اواعدك على اللقاء غداً في الساعة الرابعة في شارنج كروس وعادتي ان أفي متى وعدت .

ثم افترقا فذهب شوكنج الى الارلندية وهو يتوجع لمصابها وذهب الرجل العبوس يتبعه الفقير الى شارع اكسفورد ، وهناك امر الفقير ان يعود الى بيت فانوش . وان يرقب ذلك الرجل النبيل الذي دخل اليه ويقتفي اثره اينما ذهب ، ويعلم اسمه ، وضرب له موعداً للقاء في المكان الذي عينه

لشوكنج .

فانحنى الفقير وانصرف ممتثلا وذهب الرجل العبوس في شأنه .

- ١٨ -

ولنذكر الآن ما جرى لابن الارلندية وكيف اختفى .

ولا بد لنا أن نعود بالقارىء إلى بضع ساعات حين كان ولتون والسائق ذاهبين بالارلندية بغية القائها في النهر ، فإن مسز فانوش لبثت واقفة في ذلك الحين عند باب المنزل تشيع اللصين بالنظر حتى توارت المركبة عن انظارهـا وعادت إلى منزلها وأحكمت إقفال بابه .

ثم دخلت إلى الغرفة التي كان نائماً فيها ابن الارلندية وجعلت تتفرس فيـه وتقول في نفسها : ما أعجب هذا الاتفاق الذي قـــدر لي الخروج من ذلك المأزق الضيق ، بل أن هناك اتفاقاً اعجب ، وهو ان هذا الغـلام يشبه ابن مسز اميلي بعض الشبه فاني سأسعد هـذه المرأة كما أشقيت تلك ومصائب قوم عند قوم فوائد .

وعند ذلك خرجت إلى قاعة الطعام ونادت العجوز قـائلة لهـا : اجلسي بجانبي نتحدث فإن أمرنا خطير .

ولم يرق هذا الاقتراح للعجوز وقالت : لقد دب النعاس إلى أجفاننا فلننم الآن ولنرجىء الحديث إلى الغد .

فاتقدت عينا فانوش بأشعة الغضب وقالت : اتظنين ايتها البلهاء اني أدفع لك راتب كي تأكلي وتشربي وتنامي ؟

فاشمئزت العجوز من هذا التقريع العنيف وقالت : اشكرك يا سيـدتي لاحسانك إلي بالرواتب الكثيرة ، لكني لو لم أكن في منزلك لما سارت اعمالك

هذا السير المنتظم فإن الأولاد عندك لا يرهبون إلاي .
ـ ذلك أكيد ، لكن أعيد عليك ما قلته وهو انه يجب ان نتحدث .
ـ إذاً قولي ما تريدين .
ـ يجب ان ننظر الآن فيما يجب ان نفعله بهذا الغلام .
ـ انك تعلمين أكثر مني .
ـ ان مسز اميلي وزوجها سيحضران بعد شهر فليس الوقت متسعاً لدينا كي نربيه على ما نريد .
ـ ان السوط يكفل حل كل عسير .
فهزت فانوش كتفها وقالت : انك كلما كبرت زدت خرفاً وبلاهة
ـ وبخيني واشتميني كما تشائين فإنك تدفعين لي رواتبي
ـ لا أريد توبيخك بل أريد أن أظهر لك ان نفسك خالية من الذكاء فإنه يجوز لنا أن نضرب الأطفال الذين عهد الينا بتربيتهم ، لأن اهلهم يدفعون لنا نفقاتهم ولا يطلبونهم إلا بعد عهد طويل ، أما هذا الغلام فإننا سنسلمه إلى مسز اميلي بعد شهر ، فنحن أحوج الى إرضائه منا إلى ضربه ، وذلك أولاً لكي ينس أمه التي افترق عنها بما يجده من المؤانسة والملاطفة ، ثم لأني رأيت منه صدقاً في العزيمة وصلابة في الرأي ، ولذلك لا أجد بداً من أن ننهج معه مناهج اللين
ـ إذاً أعهدي به الي فاني لا أعرف الرفق في تأديب البنين
ـ بل سأفعل خيراً من ذلك ، اي اني سأبعده عن هذا البيت ، فإنه متى صحا فيه ، ولم يجد أمه ، ملأ الدنيا صراخاً وعلم أهل الشارع بأمره وافتضح أمرنا .
ـ والسوط ؟
وغضبت فانوش وقالت : الا تزالين ايتها البلهاء تذكرين السوط ، ألم أقل لك اني أريد ان ألاينه واسترضيه ؟

– عفوك فقد نسيت ، ولنعد إلى قولك الأخير ، فـإلى اين تريدين الذهاب به ؟

– إلى ذلك البيت الجديد الذي اشتريته في خلاء همبستاد ، فـانه يكاد يكون مقفراً ، وفيه حديقة غناء يلعب فيها الولد كما يشاء ، فمتى عادت مسز اميلي أكون قد دربته على ما أريد ، وجعلته يعتقد انها امه الحقيقيـة ، وان الارلندية ، لم تكن غير مرضعة ، أما أنت فستبقين في البيت وتحتفظين به كما لو كنت فيه .

– انك تعلمين اني مخلصة لك كل الاخلاص .

– إذاً إذهبي الآن ونامي ، اما انا فاني ذاهبة الآن بالغلام .

فانصرفت العجوز وهي تقول افعلي ما تشائين ، اما انا فاني افضل السوط .

ولم تحفل فانوش بقولها ونادت خادمتها وقالت : احضري مركبة فإننا ذاهبون الآن إلى همبستاد .

فامتثلت الخادمة وعادت فانوش إلى حجرة الغلام .

وكان الغلام نائماً نوم تخدير كما تقدم والمخدر يؤثر بالصغار وضعفاء البنيـة أكثر من تأثيره بالكبار والأصحاء فـأخرجته من سريره دون ان يستفيق والبسته ثيابه .

ولما انتهت من ذلك عادت الخادمة واخبرتها ان المركبة على الباب فأمرتها ان تحمل الغلام اليها .

فقالت لها : الغلام تريدين إغراقه ايضاً ؟

أجابت : كلا ، فإننا سنكسب منه الف جنيه على الأقل ، بـل نحن سنذهب به في البرية .

وحملته الخادمة وخرجت به وتبعتها فانوش إلى المركبة ، وسارت بهن وبلغت همبستاد بعد ساعة والغلام لا يزال نائمـاً واخرجتاه من المركبة

واطلقتنا السائق .

وكان هذا البيت صغيراً قليل الغرف ، غير انــــه كان يحيط به حديقة متسعة ، وحملت الخادمة الغلام واجتازت به الحديقة تتقدمها فانوش فشعرت انه بدأ يتحرك وقالت لسيدتها : انه سيفيق قريباً .

– لا بأس الآن فليستفق ويصرخ قدر ما يشاء فلا جيران لنا يسمعون صياحه .

ثم دخلت به إلى البيت ووضعته على مقعد ، ولم يكد يستقر عليه حتى تحركت شفتاه وكان أول كلمة فاه بها قوله « امي » .

وبعد هنيهة فتح عينيه ونظر الى ما حواليه ورأى فانوش وقال لهـــا : أين أمي ؟

– نائمة يا بني .

فنهض عن المقعد ونظر إلى نفسه ورأى نفسه بملابسه وتذكر انه خلعهـا قبل وقال لفانوش : لماذا أنا بملابسي ؟

فلم تجبه .

وعاد إلى سؤالها عن أمه فقالت له . اني ذاهبة لأناديها .

ثم خرجت من الغرفة وقد نظرت إلى الخادمة نظرة سرية وكانت قــــد علمتها ماذا يجب ان تصنع مدة سيرهما في المركبة .

أما رالف فإنه سأل الخادمة ايضاً : لماذا انا بملابسي ؟

– ان امك البستك اياها .

– وأين هي الآن؟

– في الدور العلوي .

– اني أريد ان اذهب اليها –

ثم مشى الى الباب فحالت الخادمة دونه وقالت له : بل تبقى هنا .

– وإذا كنت لا أريد .

- ولكني أنا أريد .

وضرب الأرض برجله وقال : اني اريد ان اذهب إلى أمي .

ثم حاول ان يبعد الخادمة ويخرج فوقفت عند الباب ومنعته ، فدفعها بعنف وغضبت منه وصفعته على وجهه صفعة تألم منها ألما شديداً وضم يده وضربها ضربة شديدة نتج عنها ان هذه المرأة الوحشية أخذت سوطها وقالت له سوف ترى ايها الوقح كيف أربيك .

ثم انهالت بسوطها على ذلك المسكين فجعل يصيح صياحاً يقطع القلوب من الاشفاق ، لكن هذه المرأة لم يكن لها قلب يعرف الرحمة .

- ١٩ -

ولندع الان هذا الغلام المنكود مع ظالميه ، والارلندية أمه مع شوكنج ، ولنعد إلى ذلك الكاهن صموئيل الذي تركنا الجنديين ذاهبين به إلى السجن فنقول :

يوجد في لندرا سجن خاص بالذين يتأخرون عن دفع ديونهم ينفق كل دائن على من يسجنه فيه إلى أن يدفع الدين فيخرج منه او يمل الدائن من الانفاق ويطلق مدير السجن سراحه

وقد كان هذا الكاهن استدان مائة جنيه من الصراف الاسرائيلي وانفقها على المعوزين من قومه وهو يرجو ان يفي الدين في الأجل المعين بما سيبيعه من أرضه في ارلندا ، الا ان البيع لم يتيسر في الموعد المضروب ،وأدخله الصراف إلى سجن المفلسين ، وابى ان يمدد أجل دينه ، كما علم القراء من حديثهما في الخمارة السوداء .

ومن شروط هذا السجن، انه إذا أراد أحد أقرباء المديون أو أحد أصحابه

أن يسجن بدلاً منه يأذنون له فإذا عجز المديون عن الوفـاء وأراد الذي سجن مكانه أن يخرج من السجن جيء بالمديون الأصلي فسجن وأطلقوا سراح من ناب عنه .

غير ان هذا الكاهن على كثرة أصحابه ومريديه لم يلق من يعرفه حين ذهب به الجنديان وأبت نفسه الكريمة أن يطلب إلى من كان في الحارة أن يسجن واحد منهم في مكانه إلى ان يتيسر له السعي لايجاد المال ، وسيق إلى السجن وعينوا له خير مكان في القاعة العامة فإن الجميع كانوا يحبونه لما عرف به من الصلاح .

ولقد تقدم لنا القول ان الرجل المعبوس أخبر شوكنج انه سيجتمع بالكاهن في سجنه ، وواعده على المقابلة في اليوم التالي ، ولما افترق عن شوكنج ذهب الى منزله وغير ملابسه ومضى تواً الى سجن المفلسين ، وهو يفكر في طريقة تمكنه من ان يرى الكاهن ويخرجه من السجن .

ولما وصل الى ذلك السجن وجد في ساحته قهوة يختلف اليهـا اهل المسجونين واصحابهم فيقيمون فيها الى ان يؤذن لهم بمقابلتهم .

وجلس امام مائدة مع الجالسين وجعل يجيل بينهم نظر الفاحص الخبير بشقاء القلوب .

ونظر فتاة في ريعان الشباب فضح فقرها لباسها ، وستر ذلك الفقر ظواهر الأدب والوقار ، فهاجت بقلبه عوامل الشفقة لما رآه من دلائل انكسارهـا وشقاؤها فانها كانت مطرقة الى الأرض والدموع تنهل من عينيها ولا ترفع نظرها إلا حين تشعر بقدوم قادم جديد الى القهوة

ثم دنا منها وسألها عن سبب بكاؤها بلهجة حنو أنست بهـا الصبية وحكت له حكايتها ، وخلاصتها ان مهنة ابيها النجارة ، وانه مديون بعشرة جنيهات لشخص لا رحمة في قلبه وقد سلمه منذ ساعة الى الجنود لسجنه حتى يفي الدين فأرسل اليها أبوها من اخبرها بالأمر فسبقته الى السجن كي تراه

قبل دخوله اليه وإنها الآن تنتظره .

وقد حكت له هذه الحكاية بلء البساطة ، فوصفت له معيشتها مع أبيها ، وأنهما في أشد حالات الفقر ، بحيث يستحيل على أبيها وفاء الدين . وانه إذا بات ليلتين في السجن تموت هي من الجوع ، ويموت هو من اليأس

فرق الرجل العبوس لحكايتها وتمثل له الشقاء بأبلغ صورة ، فطيب خاطر الفتاة ووعدها خيراً .

وقد خطر له أن يستفيد من هذه الصدفة في الغاية التي يسعى اليها . فبينما هو يحادث الصبية ويعدها بانقاذ أبيها من السجن تفريجاً لكربتها ، إذ دخل الى القهوة جنديان كان بينهم رجل تدل ملابسه انه من العمال ، وقد طبع اليأس على جبينه . فلما رأته الصبية شهقت وقالت : هذا أبي ثم أكبت على صدره تغسله بدموعها .

فاحترم الجنديان هذا المشهد المؤثر ، وابتعدا عنهما وجلسا حول مائدة وطلبا زجاجة من الشراب يصرفان الوقت بها حتى يتم الرجل وداع ابنته ويوصيها بما يريد

وعند ذلك دنا الرجل العبوس من الجنديين وحياهما أحسن تحية ، فاستقبلاه خير استقبال لما رأياه من حسن أدبه ، وظواهر نبله وجمال لباسه مما يدل أنه من الأعيان وانه قادم الى السجن للفرجة والتفقد ، شأن كثير من ذوي اليسار والفراغ .

أما الرجل العبوس فإنه جلس معهما وجعل يحادثهما عن سجن المفلسين ونظاماته ثم استطرد الى البحث في أمر هذا الرجل وابنته ، والسبب في سجنه ومبلغ دينه . فأخبراه بما عرفه من الصبية ، فأظهر الرجل العبوس توجعاً شديداً لهذا المنكود شاركه فيه الجنديان ، لأنهما كانا عارفين بفقره المدقع .

ثم قال لهما : لقد خطر لي ان أحل محله في السجن

فضحك الجنديان لاقتراحه وحسباه ممازحاً فقال له أحدهما كيف يدخل من كان مثلك السجون ؟

– يدخل ليخرج سواه .

– ولكنك است من أهل الرجل ولا من أصدقاءه .

– ومع ذلك إني أحب ان أحل محله لأفرج غمه .

– إن ذلك سهل عليك تستطيعه دون الدخول الى السجن فاذا دفعت عنه ما عليه أطلقناه في الحال

فابتسم الرجل المعبوس وقال : إني أعلم من ذلك ما تعلم ، غير اني أوثر الدخول إلى السجن لأسباب كثيرة ، منها إني أجد لذة في هذه المشقة التي سأكابدها عن هذا المنكود لا أجد مثلها إذا اقتصرت على دفع المال ، فقد تعودت مثل هذا الاحسان حتى مللته .

ومنها إني أحب أن أدرس أحوال هذا السجن وأتفقد المسجونين فيه علي أجد بينهم من يستحق الافراج فأدفع دينه وأفرج عنه . وماذا عليكما إذا أدخلتماني الى السجن بدلاً من هذا الرجل ؟

فعبس الجندي وعلم انه غير مازح في ما قاله لما رآه من ظواهر جده فقال له : لا بأس ، غير ان العادة ان يدخل السجين نفسه الى السجن ، ولا يخرج منه إلا بدفع المال او عفو الدائن أو حلول غيره محله كضامن له إلى ان يجمع المال . وجميع هذه الأمور يكون مرجع الحكم فيها الى حاكم السجن دون سواه .

– إني أعلم جميع هذه القيود ، غير ان حاكم السجن لا يعرف هذا الشخص بالذات .

– ماذا تريد بهذا القول ؟

– أريد به اني لو لبست هذه الملابس الرثة - التي يلبسها ذاك النجار ،

وعرضت على حاكم السجن باسمه لحبسني ، وهو يعتقد انه يحبس النجار نفسه .

– لكن من يقدمك للحاكم باسم النجار ؟

أنت ورفيقك هذا ، ولا جناح عليكما ، لأني سأدفع المال عن هذا النجار . ولدي كثير منه في محفظتي ، فيطلقون سراحي ولا يدري بأمرنا أحد . فتكونان قد أحسنتما إلي لتسهيل سبل غايتي ، وما وراءها إلا الخير ، وأحسنتما إلى نفسيكما بما سأدفعه لكما من المكافئة عن هذه الخدمة الصالحة .

ثم أخرج محفظة من جيبه ، كي يدفع ثمن الشراب ، وفتحها أمام الجنديين . فرأيا فيها من الأوراق المتكدسة ما أدهشهما ، فجعلا يتشاوران بالنظر .

وبعد أن دفع الرجل العبوس عشرة أضعاف ثمن الشراب بسخاء نادر ، وعاد إلى إغواء الجنديين ، وقد ترك المحفظة مفتوحة أمامهما . فطال العهد بهما حتى أقنعهما فنقدهما عشرين جنيهاً واتفق معهما على ان يلبس ملابس النجار كي لا يلتبس أمره على الحاكم .

ولما تم الاتفاق ذهب الى النجار وابنته وأخبرهما بما حدث فجعلا يبكيان بكاء الفرح والامتنان .

ثم دخلا إلى غرفة من غرف القهوة ، ولبس الرجل العبوس ملابس النجار ، وعاد الى الجنديين فذهبا به الى الحاكم ، فأمر بادخاله إلى السجن . أما النجار وابنته فانهما عادا إلى منزليهما ، وهما يدعوان الله لهذا الانسان النبيل

وكان حاكم هذا السجن كثير الشفقة والحنان ، شديد الرأفة بالمسجونين ، حريصاً على راحتهم . فلما دخل عليه الرجل العبوس وهو بملابس النجار طيب خاطره وعزاه ثم دخل به الى السجن .

وعندما فتح باب السجن كان الكاهن صموئيل راكعاً على الأرض وبيده كتاب صلاة . وكانت تلك القاعة مظلمة رطبة لا نار فيها تقي ألم البرد غير ان وجه الكاهن كان يشرق بفضيلة الصبر إشراقاً . فلما رأى الحاكم قد دخل عليه وقف له احتراماً وحياه .

فتأثر الحاكم لما رآه من شقائه وقال له : إن تأثري شديد من هذا المرابي المحتال ، لأنه لا أدب في نفسه ، ولا رحمة في قلبه ، وليس له شيء من صفات الانكليز .

فابتسم الكاهن وقال له : لماذا تحكم عليه هذا الحكم الصارم ؟

– لأني أراه أفرط في العنف ، لكن عنفه لا يطول لأن لي سلطة تامة في السجن وسأستخدمها .

ثم التفت الى كاتبه وقال له : أكتب في الحال كتاباً الى توماس الجن وقل له إن ما ينفقه على مسجونيه غير كاف وإن إدارة السجن ترى ان الكهنة لا يجب ان يعاملوا معاملة الصادين وانه إذا لم يعين في القريب العاجل نفقات كافية للكاهن صموئيل فإن الادارة تطلق سراحه .

فابتسم الكاهن أيضاً وقال له : أشكرك يا سيدي خير الشكر لأنك خير من عرفت من الحكام ولكني ارجوك ان لا تكتب شيئاً لهذا المرء لأني بخير وقد تعودت شظف العيش .

– لكن ذلك مستحيل إذ لا تستطيع ان تعيش هذا العيش وإذا رضيته لنفسك فلا أرضاه لك .

– إني أعود أيضاً الى شكرك ورجائك ان لا تكتب لهذا الشخص ، لأنه من أهل الشر ولن تنال منه شيئاً . غير اني أسألك ان تأذن لي بالكتابة الى ارلندا فانهم يرسلون إلي في الحال قيمة ما علي لهذا الشخص .

– سأفعل ما تريد ولكن بقاءك على هذا الفراش من القش يؤذيك ، لأن البرد قارص .

– لقد رقدت مرات على أخشن منه ، أنظر الى هؤلاء المسجونين التعساء ، لأنهم أولى بالإشفاق مني .

وفيما هو يتكلم رأى الرجل العبوس بجانب الحاكم فبرقت عيناه وحاول أن يكلمه ،غير ان العبوس أسرع إلى وضع سبابته فوق فمه إشارة إلى السكوت فانصرف الكاهن الى محادثة الحاكم وبعد هنيهة تفقد الحاكم المسجونين وخرج من السجن .

وبعد ذلك خلا الكاهن بالرجل العبوس ، وقد اعتبر لأول وهلة رآه ان دخوله الى السجن لم يكن لدين عليه بل كان الدين حجة تذرع بها للوصول اليه فكان أول ما سأله إياه قوله : أعثرت على الغلام ؟

فرد العبوس : كلا .

فامتعض الكاهن وقال . رباه ! إني أسير في السجن ، ولا حيلة لي بالبحث .

فقال له العبوس : إني لم أعثر على الغلام ، ولكني سأعثر عليه وأقسم لك على ذلك .

– لكن كيف تجده وأنت سجين مثلي ؟

– هو ما تقول . غير اني أستطيع الخروج من السجن حين أريد . ولكني أردت ان أراك وأحدثك ، ولهذا دخلت الى السجن بدلاً من إنسان فقير

فعجب الكاهن لأمره ورأى الاخلاص يجول في عينيه فقال له : من أنت أيها

المرء لأني توسمت فيك الخير حين رأيتك ؟

فأطرق العبوس بعينيه الى الأرض وقال : إني كنت من كبار المجرمين فتبت توبة صادقة منذ عشرة أعوام وأنا أضحي نفسي كل يوم في سبل الخير راجياً أن أنال عفو الله

ثم رأى ان الكاهن لم يثق به كل الثقة ، فرسم بابهامه على وجهه تلك العلامة السرية التي أكرهت ذلك الفقير على الخضوع حين شاهده قرب بيت فانوش .

فارتعش الكاهن حين رأى العلامة ، وعاد العبوس الى رسمها أيضاً ، فمد الكاهن يده وصافحه وقال : إذاً أنت ارلندي ، وقد كنت أحسبك فرنسياً ؟

– بل أنا فرنسي ولكن جميع أهل الشقاء إخواني .

– ولكني رأيت من علامتك السرية ، إنك واحد منا فمن أدخلك في سلكنا ؟

– شخص مات في سبيل ارلندا .

– وهذا الشخص ؟

– إن الانكليز الذين حكموا عليه وأعدموه شنقاً يحسبون انه انسان فقير متسول من عامة الناس ويدعونه فالتن .

فاضطرب الكاهن وقال : أنت عرفت فالتن ؟

– إني عشت وإياه عيشاً واحداً ستة أشهر في دبلين . ولما حكم عليه بالاعدام أنقذته من سجنه ، وكاد يفوز بالفرار الى اوروبا . ولكن الله أبى ان يبلغ كل مراده ، فاني استأجرت سفينة وجعلت بحارتها من الفرنسيين وتوليت أنا رئاستها ، فركبناها وركب معنا فالتن ، وكنت واثقاً من الفوز كل الثقة .

وفيما نحن في البحر والسفينة تمخر بنا الى أرض الحرية قال لي فالتن : إني

أراك واثقاً من الفوز غير ان قلبي يحدثني باني غير ناج من قبضة الانكليز وقد حان لي أن أخبرك من انا لأن ساعتي أتت .

ثم مال على أذني وأخبرني عن تينك العلامتين وهما علامة العضو البسيط في جمعيتنا وعلامة الرؤساء .

وقال لي : إنك ستذهب أيضاً الى لندرا فتبحث في تلك المدينة المتسعة عن كاهن شاب يدعى الكاهن صموئيل ، فإنه رئيسنا الأكبر الى ان يترعرع الغلام الذي ننتظره فيتولى الرئاسة العليا مكانه ، ومتى اجتمعت بالكاهن حدثه عني ، واذا كنت قد قضيت فاذكر حوادثي الأخيرة . أما اذا بلغت الى أرض الحرية ونجوت من الانكليز لا تقل شيئاً عني لأنه لم يرني مرة في حياته ولكنه يعرفني .

– إذاً قد مات فالتن ؟

– نعم ، فإننا بينما كانت السفينة تمخر بنا ، هبت عاصفة شديدة القتها على الصخور ، والتجأنا كلنا الى صخر ولم يكن عندنا ريب اننا سنموت جوعاً .

غير انه عندما أشرق الصباح ظهرت لنا دارعة انكليزية فقال فالتن : هلموا نشير اليها .

فمنعته عن ذلك وقلت : اننا اذا استسلمنا الى الدارعة عرفوك وقبضوا عليك وعدت الى سجنك .

قال : إذا مت انا افتديتك وافتديت سائر البحارة فالموت محتم ومعاذ الله ان أرضى لكم الموت من أجلي .

ثم نزع قميصه دون ان يصغي إلي ، وجعل يشير بها الى الدراعة ، فرآنا رجالها ، وأسرعوا الى نجدتنا . فحملونا بقارب الى الدارعة فنجونا كلنا ما خلا فالتن .

فقال الكاهن أرأيته حين إعدامه ؟

- نعم فقد أعدم بعد ذلك بأسبوع في مدينة دبلين وكنت واقفاً تحت المشنقة فكان آخر كلمة قالها لي « تذكر » .

وكان العبوس يروي الرواية بلهجة تدل على تأثره فمد اليه الكاهن يده وقال أمن أجل هذا أتيتني ؟

- نعم .

- رباه وكيف السبيل الى إيجاد الولد لأن الارلندية قد صدقت فيما قالته ، وابنها هو الذي ننتظره لنكون له خداماً أمناء .

- إني اقسم لك باننا نجده .

فقال بلهجة تشف عما خامر فؤاده من الحزن . لكن كيف ؟

فابتسم العبوس وقال : إصغ إلي تعلم كيف نجد الغلام .

- ٢١ -

ثم قص عليه جميع ما حدث له بالتفصيل ، وكيف دخل الى منزل فانوش وأيقن من اختفاء الغلام ، حتى إذا أتم حديثه قال الكاهن : إني أرى عليك مظاهر الارتياح ، لاعتقادك ان الغلام قد اختطفته المرأة لبيعه لإحدى العائلات ، وإن التفتيش عنه سهل ميسور ، فاصغ إلي الآن أنت بدورك .

كانت ارلندا منذ مائة عام على ما هي الآن راصفة في قيود الذل والاستعباد للانكليز فاستمرت ثلاثين عاماً تحارب حرب كفاح عن حريتها برئاسة رجلين كانا أخوين .

وكان هذان الشخصان من نسل ملوكنا القدماء وللارلنديين إعتقاد أنه لا ينقذ ارلندا من ربقة العبودية غير أحد أبناء هذه الأسرة

وقتل أحد الأخوين في ساحة القتال أما الآخر فقد خان أمته ووطنه وباع نفسه للانكليز فكافأته انكلترا فجعلته عضواً في البرلمان ومنحته لقب اللوردية.

وولد لهذا الخائن ولدان فخلف احداهما أباه في البرلمان وبقي انكليزي المبدأ وأما أخوه فانه ذكر ان الدماء التي تجول في عروقه ارلندية وانه يجب أن يموت شهيداً بها .

وهذا الرجل يدعى السير ادموند فانه برح انكلترا عائداً إلى ارلندا وقد علمت كيف مات من الأرلندية .

– أهو والد الغلام الذي نبحث عنه وزوج تلك المنكودة ؟

– هو بعينه .

– لقد فهمت الان كل شيء .

– كلا ، لم تفهم شيئاً ، فان اخا السير ادموند بدلاً من أن يمد يده لأخيه ويعينه على انقاذ ارلندا من قبضة الانكليز مالأ الانكليز على أخيه وحقد عليه حقد اللئام .

– ألا يمكن أن يكون هذا الخائن نفسه قد اختطف الغلام ؟

– نعم أنه هو الذي اختطفه ولكنه لم يسرقه ليجعله وريثه بل ليمحوا أثره من الوجود ويتبعه بأبيه فان من قتل الأسد لا يعف عن الشبل ونهر التيمس بعيد الغور .

إرتعش الرجل العبوس وذكر في الحال ما أخبره به شوكنج عن ذلك اللورد الذي أمره أن يقتفي أثر الأرلندية وأعطاه عشرة جنيهات .

فقال للكاهن انك مصيب في ظنك كما أرى فهل تعرف اسم هذا اللورد شقيق السير ادمون ؟

– نعم انه يدعى السير ماير .

فصاح الرجل العبوس صيحة خوف واشفاق وقال : لم يبق لدي شك أن سارق الغلام هو هذا اللورد ، ولذلك يجب أن نسرع إلى الخروج من السجن

في الحال ونجد الولد

فأن الكاهن أنين الموجع وقال . كيف السبيل إلى الخروج من السجن ؟ ان هذا المرابي قد حبسني وعاملني دون اشفاق لأنه مدفوع إلى هذه الفظاعة من اولئك الذين يضطهدوننا ولم يكن غير آلة في أيديهم فانهم قد عرفوا أن الغلام قادم من ارلندا واني سأحتفل صباح اليوم بقداس بحضور أربعة رجال هم رؤساء مثلي في جمعيتنا وهم قادمون من ارلندا وايكوسيا وبلاد الغال واميركا وانا صلة التعـــارف بينهم فانهم لا يعرفون بعضهم بعضاً ولكن اعدائنا عرفوا بامرهم وعرفوا اني سأبارك الغلام أمامهم فحالوا دون هذا الاجتماع بسجني في اليوم المعين لاجتماعنا وحالوا دون مباركة الولد باختطافه .

ثم أطرق برأسه وقال ويلاه انهم قد يكونوا قتلوه وأنا أسير في هذا السجن فكيف أعمل ؟

— أما الولد فلا بد أن نجده ويستحيل أن يقتلوه كما تتوهم وأما هذا السجن فاننا نستطيع الخروج منه متى شئنا .

فنظر الكاهن الى ملابسه الرثة وقال : يستحيل الخروج من السجن إلا بعد دفع الدين وأين نجد المال ؟

— تجده في جيبي فان لدي من الأموال قدر ما تشاء لخدمة ارلندا فلا تعجب لأمري فستعلمه بعد .

وقد رأيت الحاكم ميالاً اليك فأدعه الان وأنا أدفع عنك وعني ونخرج من هذا السجن في الحال .

ثم أخرج محفظة أوراقه من جيبه وفتحها أمام الكاهن فسر بما رآه سروراً لا يوصف وأسرع إلى خادم السجن فسأله ان يدعو له الحاكم .

وبعد هنيهة أقبل الحاكم فدفع الرجل المحبوس دينـه ودين الكاهن فسر الحاكم بمـا رآه من كرم الرجل المحبوس وعلم كما أوهمه انه رجل غني من أهل الخير يتنكر ويدخل مثل هذه السجون فيفرج عن التعساء فيها وللحال أطلق

سراحهما مع رجلين آخرين دفع عنهما الرجل العبوس دينهما لما تبينه من حالتهما التي تحمل على الاشفاق ، وسار الكاهن والرجل العبوس وقد شيعهما الحاكم إلى الباب بمظاهر الاحترام والاجلال .

- ٢٢ -

عندما خرج الكاهن والعبوس من السجن كان الظلام قد انسدل وأضاءت لندرا مصابيحها وهي لا تنقص عن المليون وتعكس أشعتها على مياه التيمس وترقصها الرياح وتضطرب فوق الأمواج .

ولما بلغا إلى الشارع سأله الرجل العبوس إلى اين يريد الذهاب .

- إلى كنيسة سانت جيل .

وسارا مسرعين وجعلا يتحادثان على الطريق ما يأتي :

وقال له الرجل العبوس إني عهدت بالارلندية صباح اليوم إلى شوكنج وواعدته على اللقاء غداً لأني لم أكن متوقعاً الدخول الى السجن بهذه السهولة ولذلك فلا نستطيع أن نقف على أخبار الارلندية وابنها قبل غد .

- كيف نقف على أخبار ابنها ؟

- لأني كلفت رجلاً فقيراً من جمعيتنا ان يقتفي أثر الرجل النبيل الذي طرق باب بيت فانوش حين كنت فيه وواعدته على اللقاء غداً أيضاً كما واعدت شوكنج .

في أي مكان ؟

- في محطة شارنج كروس .

- إذاً لنذهب تواً الى سانت جيـــل وقد يكون الأربعة الذين انتظرهم كتبوا لي شيئاً .

وساروا حتى انتهوا إلى منزل فانوش وهو في طريقهم الى سانت جيل ، ورأى العبوس ذلك البيت مظلماً لا أثر للنور فيــه ، ثم رأى رجلاً يمشي على الرصيف فارتعش لمرآه ، لأنه كان ذلك الفقير الذي كلفه بمراقبة النبيل .

وناداه وقال له : لماذا أنت هنا ؟

– لأن الشخص لا يزال في البيت .

– أهو فيه منذ الصباح ؟

– كلا ، بل انه خرج صباحاً وسار بمركبته الى مـــنزله في الشارع شترستريت .

– ماذا يدعى ؟

– اللورد بالمير .

ودنا الكاهن عندما سمع هذا الاسم ورآه الفقير فتوقف عن الكلام الى ان أمره العبوس بالكلام وقال : إنك امرتني أن أعرف اسم هذا الرجل ومنزله وان أعود بعد ذلك الى مراقبة البيت ، وعدت ووقفت بجواره مراقبــاً كل النهار ولم يحدث شيء وبقيت العجوز في البيت ، غير ان اللورد عاد الى البيت منذ ساعة وهو لا يزال فيه .

والتفت العبوس الى الكاهن وقال له : اني لا أجد بــداً من الدخول الى هذا البيت .

– كيف تدخل اليه ؟

- لا أعلم، ولكني سأجد طريقة وربما دخلت من باب الحديقة المشرف على الزقاق غير أنه يجب أن تبقى أنت والفقير في مكانكما .

– حسناً سأقف ، لكن ماذا يجب ان أعمل.

– تتبعان اللورد بالمير إذا خرج من المنزل قبل ان أعود اليكما ؟

- سأقف فاذهب أنت في شأنك .

وابتعد الكاهن والفقير ووقفا في منعطف وجعلا يراقبان البيت ، وذهب

الرجل العبوس الى الزقاق بغية دخول البيت من باب الحديقة ، فما مشى خطوتين الى الزقاق حتى احس ان رجلاً يتبعه ووقف فرأى الرجل قد وقف أيضاً فتنبه له وقال سوف نرى من هذا الشخص .

ثم عاد الى المشي وتبعه الرجل الى أن مر بباب الحديقة ورأى نوراً ينبعث من نافذة المنزل الى شجرة كبيرة في الحديقة .

وهناك وقف ورأى الشخص أسرع في خطواته واقترب منه وقال في نفسه : لقد عرفت من انت وماذا تريد وسوف ترى اني أخبث منك .

ولما كاد يدنو منه مشى العبوس مجتازاً باب الحديقة ، وجعل يمر بأبواب المنازل فيهزها ويتفقدها كي يعلم إذا كانت محكمة الاقفال ، ثم عاد بعد ان تفقد جميع أبواب الزقاق الى الحديقة .

والعادة في انكلترا ان البوليس يتفقد المنازل فإذا رأى باب أحدها مفتوحاً طرق الباب ونادى اصحاب البيت كي يقفلوه بحيث أيقن الشخص الذي كان يتبع العبوس انه من رجال البوليس السري .

ولما عاد العبوس بعد تفقد المنازل الى الحديقة التقى بالشخص الذي كان يتبعه فقال له الرجل : العلك نسيت ايها الزميل انك متنكر فكيف تتفقد الأبواب ؟

فقال له العبوس اني تعودت هذه العادة بحيث لا أمتنع عنها ولو كنت متنكراً

فخدع الرجل وكان بوليساً متنكراً بقول العبوس وقال : لقد أصبت فإني أنا متعود هذه العادة ايضاً وقد تفقدت هذه الأبواب قبلك ، ولكن ماذا تعمل هنا ؟

فغمز العبوس بعينه وقال وأنت ماذا تعمل ؟

وضحك البوليس وقال له أرى انك أحد الأربعة الذين طلبهم اللورد اليوم من إدارة البوليس .

— هو ذاك .

— لا أدري ما يحمل هذا اللورد على مبارحة قصره المنيف والقدوم في الليل الى أشد الشوارع خطراً ، إذ لا يقيم في هذا الشارع غير الارلنديين ، فلو علموا ان عضواً من البرلمان قد جاء شارعهم ، فماذا يفعلون ؟

— اسكت أيها الرفيق فإن ذلك لا يعنينا ، لكن هذا اللورد يقيم في المنزل منذ ساعة ؟

وقال البوليس : نعم .

— ولذلك بدأت اخاف عليه ولم يعد بد من الاطمئنان

وقد ذكر الرجل العبوس انه حين خرج صباحاً من باب الحديقة أقفل الباب وراءه إقفالاً بسيطاً ، ودنا من ذلك الباب ودفعه ففتح ، ودهش البوليس وقال له : ماذا تفعل ؟

— اريد ان اتفقد اللورد فاني أخشى ان يكون اصيب بمكروه .

ولم يعترضه البوليس لاعتقاده انه زميل له ، ودخل العبوس وأقفل باب الحديقة من الداخل بالمفتاح ، فمشى مشياً خفيفاً الى ناحية المنزل واختبأ وراء الشجرة ، ونظر الى النافذة التي كان ينبعث منها النور في غرفة أرضية فرأى المرأة العجوز واللورد بالمير جالسين على مقعد وهما يتحدثان ، فنام على الأرض واخذ يزحف زحفاً الى النافذة كي يسمع ما يقولان .

— ٢٣ —

لا بد لنا قبل بيان السبب الذي عاد من اجله اللورد الى منزل فانوش أن نعود الى ما حدث في صباح ذلك اليوم حين اضطر الرجل العبوس ورفاقه الى الهرب من باب الحديقة

فإن اللورد بالمير حين عاد اليه شوكنج واخبره بعنوان المنزل الذي ذهبت اليه الارلندية ، رأى ان يحضر الى منزل فانوش ويقول للارلندية انه كان صديقاً لزوجها ، ويذهب بهـا وبولدها الى منزله ، وهناك لا يعدم وسيلة لادراك سؤاله من هذا الغلام الذي قد يكون خطراً قوياً على انكلترا يومـاً من الأيام .

فذهب الى المنزل وطرق الباب مراراً فلم تفتح له العجوز إلا بعـد ان استفاقت من رعبها وهرب العبوس ومن كان معه ، فاعتذرت اليه لتأخرها عن فتح الباب بحجة انها كانت في الحديقة .

ثم دخلت به الى قاعة الجلوس ورحبت به ترحيباً عظيماً لما رأتـه من ظواهر نبله فقال لها اللورد : انك مربية أطفال اليس كذلك ؟

– نعم يا سيدي .

– ولك شريكة كما قيل لي ؟

– نعم ، لكنها ليست في لندرا الآن فهي في الضواحي

– لا بأس ، ولكنكم اضفتم امس إمرأة وابنها اليس كذلك ؟

فارتعشت العجوز وحسبت انه زوج مسز اميلي فقالت له. العلك يا سيدي السير واترلي ؟

– كلا ، بل انا اللورد بالمير .

وعضت العجوز شفتها ووقفت موقف الحذر فقال لها اللورد انى اتيت بطلب المرأة والغلام لأنهما من اهلي .

– ولكنهما سافرا في هذا الصباح يا حضرة الميلورد .

– الى اين !

– لا اعلم ..

فنظر اليها نظر الفاحص وقال : أأنت صادقة فيما تقولين ؟

– نعم يا سيدي الميلورد .. ولكن ..

— ولكن ماذا ؟

— ولكن شريكتي قد تقول لك ما اجهله انا .

— واين هي شريكتك الآن ؟

-- في منزلها في ضواحي لندرا ، لكنها ستعود في المساء فإذا احببت ان تراها تجدها في انتظارك .

ورأى اللورد من حديثها واضطرابها ان في الأمر سراً وقال لها : اني امنحك مائة جنيه إذا كنت تخبريني في مساء اليوم اين اجـــد الارلندية وغلامها ولاسيما الغلام .

— إذاً انت تبحث يا حضرة الميلورد عن الغلام بشكل خاص ؟

— نعم .

وكانت العجوز كثيرة الطمع حاقدة على مولاتها فطمعت بمــال اللورد وقالت له : إذاً عد في المساء ، واني اعدك باخبارك عما تريد

فتركها اللورد وذهب .



اما العجوز فإنها استرسلت الى التصورات بعد ذهابه وجعلت تقول في نفسها : ان فانوش محتاجة الى الغلام وهؤلاء الثلاثـة الذين كادوا يقتـلونني محتاجين اليه ، ثم ان هذا اللورد النبيل الذي طـالما قرأت اسمه في جريدة التيمس محتاج اليه فلماذا لا اغتنم هذه الفرصة واستفيد من امواله .

اني إذا كتمت السر ووفيت بعهد فانوش فإنها ترضى عني وتكافئني عن وفائي بثوب قديم او حذاء جديد ، وهذا منتهى ما يبلغ اليه كرمها ، لكن كرم هذا اللورد لا يقف عند حد وعده بل اضمن بماله مستقبلي ولا أبوح له بالسر الا بعد ان ينقدني ما اريد ويبعدني عن لندرا ، بحيث اكون امنت انتقام فانوش .

وعلى ذلك فقد عزمت عزماً أكيداً على خيانة فانوش .

أما اللورد بالمير فإنه عاد في الساعة الثامنة مساء ، لكنه خشي سوء العاقبة بذهابه منفرداً إلى شارع يقيم فيه الارلنديون وذهب إلى مدير البوليس وأخبره عن المكان الذاهب اليه وسأله ان يرسل إلى تلك الجهة أربعة من رجال البوليس السري .

وكانت العجوز قد أنامت البنتين حين قدومه ففتحت له الباب وذهبت به الى غرفة ارضية معتزلة في الحديقة كي لا يسمع حديثهما أحد، ثم اقفلت الباب وجلست وإياه على مقعد قرب النافذة وقالت له : اني أعلم يا حضرة اللورد أين هو الغلام ، لكني لا أخبرك بموضعه إلا بعد شروط اقترحها فإن حياتي ورزقي معرضان للخطر .

فأجابها ببرود : قولي ما هي شروطك .

— أطلب ما يقيني شر العوز إلى آخر العمر .

— أيكفيك إيراد مائة جنيه في العام ؟

— يكفي ، لكن ليس هذا كل ما اطلبه .

— ماذا تريدين غير هذا ؟

— أريد ان أبرح لندرا كي لا يقف الذين أخونهم على أثري .

— أتريدين الذهاب الى اوربا ؟

— كلا فإني أوثر الاقامة في بريتون ..

— اذهبي الى حيث تشائين .

وفيما كانت العجوز تتكلم سمعت حركة في الحديقة فأسرعت مذعورة الى النافذة كي ترى مصدر هذه الحركة

إن الحركة التي سمعتها العجوز كانت صادرة من الرجل العبوس كما سترى فلقد تركناه يزحف على بطنه حتى وصل إلى تحت النــــافذة ، لكنه لم يكن يسمع حديث اللورد والعجوز .

وكانت النافذة عالية نحو مترين ،وفي قربها شجرة ضخمة التصقت أغصانها بجدار الغرفة ، ورأى الرجل العبوس في ذلك الجدار مروحة يضعها الانكليز في معظم الغرف لتجديد الهواء ، فارتأى ان يتسلق الشجرة ويضع أذنه على مروحة الجدار ، فانكسر الغصن لثقل جسمه ، وخرج لانكساره ذلك الصوت الذي سمعته العجوز .

ولو جرى مثل هذا الحادث لغير الرجل العبوس ، كان سقط على الأرض وافتضح أمره ، غير انه لما شعر بانكسار الغصن وثب كالهر إلى غصن آخر وتعلق به ، وجعلت العجوز تجيل نظرها في الحديقة دون أن ترفع رأسها إلى الشجرة ، فاطمأنت وعادت إلى اللورد وقالت : لا شك ان هذا الصوت خرج من الزقاق ، وعند ذلك عاد الرجل العبوس فاختار موقفاً صالحاً للسمع وسمع ما يأتي :

قال اللورد بالمير : ما بالك لا تزالين مضطربة وإذا كنت أتولى حمايتك فمما تخافــين ؟

قالت : ذلك لا ريب فيه ، غير اني لا أقول شيئاً قبـــل أن اصير في طريق بريتون .

— كيف ذاك الا تقولين لي الليلة اين هو الغلام ؟

وأجابته بلهجة كاد ييأس لها اللورد : كلا لا أقول ، ومع داك فلا خوف على الغلام ، ولا بأس ان تراه غداً .

— لكنك وعدتيني ان تخبريني بأمره في هذا المساء .

— اصغ يا سيدي لاقتراحي فإن خوفي شديد ولا انثني عن عزمي ، أمـا اقتراحي فهو ان تأتي في الساعة السابعة من صباح غد فتحضر الي المال الذي وعدتني به واذهب معك في مركبتك إلى حيث يقيم الغلام .

ولما رأى اللورد من لهجتها انه يستحيل إقناعها قال :

— لا بأس .. سأحضر غداً .

ثم وقف يحاول الانصراف ، فنزل الرجل العبوس عن الشجرة وهو يقول في نفسه : لقد قضي الأمر وليس اللورد بالمير الذي يأخذ الغلام بل نحن

ثم خرج من الحديقة الى الزقاق بينما كانت العجوز منهمكة بتوديع اللورد ورأى البوليس لا يزال في مكانه فقال له البوليس : ماذا جرى ؟

— لم يجرشيء فإنه لا يزال في المنزل فابق في مكانك وسأذهب أنا فأراقب في الشارع

ثم تركه وانصرف الى حيث كان الكاهن والفقير ، فأسرع اليه الكاهن وقال ماذا رأيت ؟

— لا حاجة الليلة الى اقتفاء أثر اللورد فإننا سنظفر بالولد غداً في مثل هذه الساعة .

— الأنت واثق مما تقول ؟

— إني سأقص عليك ما علمت واحكم بعد ذاك .

ثم قص عليه جميع ما سمعه من اللورد والعجوز واضاف الى ذاك قوله : اني واثق كل الثقة ولو كنت أعلم أين شوكنج الآن لذهبت الى الارلنـــدية وطمنتها ، لكن لندرا متسعة ولا بد من الصبر الى الغد .

— لنصبر والآن هلموا بنا الى سانت جيل .

وسار الثلاثة الى تلك الكنيسة ففتح الكاهن بابها بمفتاح كان يحيبه ودخل مع رفيقيه .

وكان فيها أمام الهيكل رجلا عجوزاً راكعاً يصلي ، ولما رأى الكاهن

نهض منذعراً وأسرع اليه فقال : العلك نسيت يا سيدي ان اليوم كان يوم ٢٧ اكتوبر فقد كانت الكنيسة في الصباح غاصة بالمصلين ؟

— واأسفاه اني كنت في السجن للدين الذي تعرفه فلا تخف هذين الرجلين فانهما من اخواننا واخبرني بما جرى .

— إن الناس انتظروا حتى سئموا فتفرقوا وكان بينهم الأربعة الذين تنتظرهم فانصرفوا مع الناس إذ لم أجد سبيلاً لحملهم على الانتظار .

فقال الكاهن بلهجة اليأس : وأنا لا أجد سبيلاً للاهتداء اليهم فقد مضى الموعد المعين .

فابتسم الرجل العبوس وقال : أما أنا فسأجدهم .

— كيف ؟

— بواسطة الجرائد فانه يوجد في لندرا مائتا جريدة يقرأها ملايين الناس فلننشر في جميع هذه الجرائد اعلاناً واحداً مآله أن كاهن سانت جيل يعلن لطائفته ان الاجتماع الديني الذي كان موعد عقده ٢٧ اكتوبر قد تأجل إلى ٣ نوفمبر فاذا نشر هذا الاعلان في مائتي جريدة فلا بد أن يطلع عليه اولئك الأربعة القادمون من ارلندا وأيكوسيا وأميركا وبلاد الغال .

— أن الطريقة مضمونة ولكن أين نجد المال لنشر هذه الاعلانات ؟

— تجده عندي إن لدي كثيراً من الملايين معدة لخدمة ارلندا .

- ٢٥ -

ولنعد الآن إلى الارلندية ، إن هذه المنكودة عندما عاد اليها شوكنج فأخبرها ان ابنها غير موجود في منزل فانوش صارت تبكي بكاء مؤلماً وهي توشك أن تجن من يأسها فأخذ شوكنج يعزيها ويعدها الوعود الجميلة وهي لا

تريد إلا بكاء ويأساً فقال لها : كفاك يا سيدتي بكاء ، إن الرجل العبوس لا بد أن يجد ابنك ويأتي به أينما كان أليس لك ثقة بهذا الرجل الكريم ؟ فلم تجبه. فقال : إذا كنت لا تثقين به ألا تثقين بالكاهن صموئيل ؟

— ولكنه في السجن .

— انه سيخرج منه اليوم أو غداً دون شك ، إن الرجل العبوس وعد بانقاذه وهو لا يخلف وعداً .

ولبث شوكنج يعزي هذه المنكودة ويؤاسيها حتى اذعنت له ورضيت بالذهاب معه إلى غرفة يستأجرها لها فذهب الاثنان إلى منزل معد للتأجير فاستأجر غرفة للارلندية وغرفة له وأقام معها طول ذلك النهار .

وكانت قاعدة معه تظهر الجلد ولكنها لم تكتم في خاطرها قصداً عزمت على فعله وهو أن تغافل شوكنج وتعود إلى بيت فانوش معتقدة أنها لا تعود منه إلا بولدها .

فلما أقبل الليل تظاهرت انها في حاجة إلى النوم فودعت شوكنج ودخلت إلى غرفتها

أما شوكنج فانه كان طاهر القلب سليم النية ولكنه على طهارة ضميره لم يكن يخلو من عيوب لطول عهده بعشرة الأشرار فكان أخص ما اقتبسه منهم عادة السكر

فلما نامت الأرلندية ذكر ما في جيبه من المال وحن إلى الشرب فخرج من المنزل إلى أقرب خمارة منه وجعل يشرب وهو يعتقد أن الأرلندية قد اضنكها التعب فنامت .

غير انه كان مخطئاً في زعمه ، إن هذه المنكودة سمعت وقع اقدامه على السلم حين خروجه من المنزل فاطلت من النافذة وراقبته حتى رأته اجتاز الشارع فخرجت من البيت وسارت الى الشارع المقيمة فيه فانوش وهي تقول في نفسها : سأكرهها على ارجاع ولدي أين كان .

بينما كانت تسير مسرعة وهي لا تعي لفرط اضطرابها صدمت رجلاً كان قادماً من الطريق الذاهبة فيها فصاح الرجل صيحة دهش حين رآها ونظرت الارلندية اليه تذكرت انها رأته أمس في السفينة .

أما الرجل فقد كان اللورد بالمير وكان في ذلك الحين عائداً من بيت فانوشن بعد أن أتفق مع العجوز على ما عرفناه .

وكان شوكنج لم يذكر شيئاً للارلندية عن اللورد بالمير احتفاظاً بثقتها فيه ولخجله من ارتكاب خيانة التجسس لا سيا بعد أن عنفه الرجل العبوس على ما فعل ، لم تجد الارلندية ما يحملها على الخوف من هذا اللورد .

أما اللورد فلم يكد يراها حتى صاح صيحة دهشة وعقبها صيحة فرح وقال: أهذا أنت أيتها العزيزة ؟

وكانت الأرلندية قد رأته في السفينة يمتاز على سائر ركابها بمظاهر نبله ، ثم رأته الآن وهي في أشد مواقف الضيق ، شعرت بعاطفة سرية تدفعها إلى الثقة به ، سرت لرؤياه وقالت : أحمد الله لالتقائي بك ، إن الله قد أرسلك إلي .

— ولكني أراك تبكين ؟

قالت بصوت يتهدج: أنهم خطفوا ولدي فرده إلي بالله ، إنك قوي قادر.

وكان اللورد لا يعلم أنهم فرقوا بين الأم والولد .

تأبط ذراعها وقال لها : أصعدي معي إلى هذه المركبة ، إني عضو من أعضاء مجلس اللوردية وسأرد لك ولدك بما لي من النفوذ .

امتثلت المنكودة وصعدت الى المركبة وقد أشرق في قلبها نور الرجاء ، وسارت المركبة الى منزل اللورد .

أما شوكنج ، كان في ذلك الحين امناً مطمئناً يشرب القدح تلو القدح .

وكانت هذه المنكودة لم تر منذ وصولها الى لندرا غير الأشقياء والبؤساء ورجال الشر ، سرها ان ارسلت لها الأقدار معيناً قوياً من أعظم رجال المملكة سلطة ونفوذاً وثقة به ، ان جميع الذين عرفتهم وعدوها بارجاع ولدها

فما وجدت بينهم من صدق في وعده ، وقـد وعدها هذا اللورد النبيل مثل وعدهم فكان أولى منهم بثقتها وادعى إلى رجائها وفوق ذلك ان اللورد كان يكلمها بأرق الألفاظ .

ولما عرفها بنفسه وملأ قلبها رجاء قال لها بقي أن تعلمي أيتها العزيزة اني لم ألتق بك اتفاقاً، اني أبحث عنك منذ أمس في هذه العاصمة المتسعة الأرجاء.

فدهشت وقالت : أنت تبحث عني ولماذا ؟

– لأن هذا الولد العزيز الذين تبكين لفراقه اذكرني رجلاً عرفته في عهد شبابي وهو من خير الأصدقاء .

ثم تنهد وقال بلهجة بدا فيها التأثر : وان هذا الصديق قد مات والأسفاه لأشرف الغايات .

فارتعشت الارلندية وذكرت زوجها اللورد .

أما اللورد فانه مضى في حديثه وقال : إن هذا الحبيب ادمون قـد مات في سبيل ارلندا العزيزة ، ألا يمكن أن يكون هذا الرجل والد ابنك ؟

واضطربت تلك الأم اضطراباً عظيماً وقالت : اتدعو هذا الرجل الذي مات مجاهداً عن ارلندا ادمون وتقول انك تحبه ؟

فتظاهر اللورد بالبكاء وقال : كيف لا أحبه وهو أخي ؟

وقالت الارلندية وانا كيف لا أبكيه وهو زوجي ، وكيف لا اثق بعد الآن بارجاع ولدي وهو ابن اخيك ؟

فعانقها اللورد عناقاً طويلاً وقال لقد عرفت ذاك من عيني الغلام فلا تبكي بعد الآن ايتها الحبيبة فإن ولدك ولدي ودمه دمي وهو عندي .

وأوشكت المسكينة أن تجن من فرحها وقالت كيف ذلك الملك وجدته وكيف تقول انه عندك ؟

– نعم انه مقيم في قصر من قصوري يبعد ثلاثين مرحلة عن ارلنـدا وأنا مخبرك بكل أمر فإن امرأة مهنتها سرقة الأطفال خدعتك ودعتك الى منزلها

ففرقت بينك وبين ولدك اليس كذلك ؟

— نعم فقد سقتني شراباً مخدراً فضاع رشادي .

— ثم القوك في الطريق .

— نعم ولما استفقت وجدت نفسي في مكان مجهول .

— أتمي حديثك يا ابنتي ..

وقد دفعها الى الكلام كي يقف على حقيقة امرها ويؤلف حيلة لخديعتها .

وحكت له كل ما جرى لها بالتفصيل ، وكيف اهتم الكاهن والرجل العبوس بأمرها .

وعلم اللورد ان اللذين اختطفوا ولدها لا يريدون به غير المتاجرة وندم على ما وعد به العجوز إذ كان يعتقد انها تخون ارلندا بارشاده الى الغلام .

وعند ذاك وقفت المركبة أمام باب قصره فنزل وأنزل الارلندية فبهتت لما رأته من ظواهر العظمة والجلال، ودخل بها اللورد الى ذاك القصر المنيف وقال لها . هنا ولد زوجك أخي .

ثم مشى بها من قاعة الى أخرى حتى ادخلها الى قاعة الاجتماع الكبرى فجلس وجلست بجانبه وهي منذهلة لما تراه من البذخ والثروة .

ثم قرع الجرس فأسرع الخادم الى إجابته .

فقال : اصعد الى غرفة مسز الن وقل لها ان أباك ينتظرك في القاعة الكبرى وانه وجد الذي كان يبحث عنه .

فانحنى الخادم وانصرف .

وبعد هنيهة ، فتح الباب ودخلت منه صبية تدهش الأبصار بجمالها وفخامة ملابسها ، فخجلت الارلندية من نفسها لفقر ملابسها ودنت منها الصبية وحيتها .

وقال لها أبوها عانقيها يا ابنتي فانها ارملة الحبيب ادمون .

* * *

أما شوكنج فإنه أقام في الحمارة إلى منتصف الليل فتمشى وعاد إلى غرفته فنام إلى الصباح وانتظر الارلندية مدة طويلة فلم تخرج من غرفتها ، وقام إلى تلك الغرفة وطرق بابها فلم تجب ، فقلق ونظر إلى الباب ورأى المفتاح فيه فأداره وفتح الباب ووجد الغرفة خالية والنافذة مفتوحة والفراش على ما كان عليه من انتظام أول الليل ..

ونادى عند ذاك صاحبة المنزل وسألها عن الارلندية فقالت انها لم ترها .

وكان في ذلك البيت إمرأة من ساكنيه فقالت انها رأت الارلندية خارجة من البيت في اول الليل .

فأظلم النور في عيني شوكنج وأشرف على اليأس وخرج من البيت لا يعي وأخذ يطوف في الشوارع والأزقة المجاورة سائلاً عن الارلندية ذاكراً أوصافها فلم يرشده أحد اليها .

وقال في نفسه : لقد فقدت كما فقد الغلام ، ولولا إدماني الشراب لما أصبت بهذه النكبة ، فويح لنفسي ماذا أقول للكاهن صموئيل ، وماذا أقول للرجل العبوس ؟

وقد ذكر عند ذاك موعده مع العبوس في محطة كروس فقال . لاذهب اليه فإن هذا الرجل قادر على كل شيء فهو يجد الغلام وأمه وقد أخطأت ولا بد لي من إخباره بما حدث .

وذهب الى المحطة فوجد الرجل العبوس بانتظاره ، ورأى معه الكاهن صموئيل ، فعظم العبوس في عينيه إذ وفى بما وعد به من انقاذ الكاهن ، لكنه كان مضطرب الوجه متلعثم اللسان ، ولم يعلم منه العبوس خبر اختفاء الارلندية إلا بعد الجهد ، ولما أتم حكايته قال له : ألم تهتد إلى المكان الذي يمكن أن تكون فيه .

فقال شوكنج : لو كنت أعلم ذاك المكان لكنت ذهبت اليه .

فهز الرجل العبوس رأسه وقال ألا تذكر انك اوقفت اللورد بالمسير على

أمرها فمن من الناس غيره يهتم بشأنها؟
فقال الكاهن : أتظن أن اللورد اختطفها ؟

— لا أقول ذاك على سبيل الظن بل أن لي ملء الثقة وإذا كانت الارلندية قد اختطفت فهي دون شك عند اللورد بالمير .

ولما سمع شوكنج كلامه هم بالذهاب .

فقال له العبوس : إلى أين ؟

— إلى بيت اللورد . .

— كلا لم يحن الوقت إذ يجب أن نجد الابن قبل الأم .

— متى نجده ؟

— في هذا المساء ونحن في حاجة اليك فهلموا بنا لأن الوقت فسيح لدينا .

- ٢٦ -

كان اللورد بالمير يتحدث مع ابنته في الساعة السابعة من المساء .

وكانت ابنته مسز الن من الفتيات اللواتي إذا شبهت بالثمرة فقد يقال فيها انها نضجت قبل اوان النضج ، فإنها على غضاضة شبابها ، وما يدعو اليه سنها من الاندفاع في تيار الصبى

كانت تتشاغل عن ملاهي النساء على فرط جمالها باحاديث السياسة وأراء العلماء . ولم يفتها شيء من دقائق تاريخ بلادهـــا وأسرار الثورة الارلندية ، وكانت تشبه أباها بكره أرلندا ، وهي مهد أسرتها وأم أبائهـا ، وتكره كل ممالىء لها على الانكليز بحيث كانت أعظم نصير لأبيها في تلك الأغراض

وكان أبوها في تلك الساعة يحدثها عن الارلندية وابنها ، فبدأت بمعارضته قائلة : إني لم أدرك قصدك إلى الآن .

- لكنه بسيط فاني أريد الاستيلاء على الغلام وحرمان الارلنديين منه إذ قد يتولى زعامتهم متى ترعرع وبلغ رشده .

- إن القصد حسن . لكن .

- لقد فهمت ما تريدين فإنك تنكرين علي تربية الغلام الذي لطخ أبوه اسم عائلتنا بموته شنقاً .

- هو ذاك

فابتسم وقال : اصغ الي يا ابنتي فإني بت واثقاً الآن ان الغلام لم يسرقه الارلنديون ليجعلوه رئيساً لهم ، بل اختطفته إمرأة لتبيعه من عائلة تتبناه ، وهنا لا بد لك ان تعجبي كيف اني أسعى إلى انقاذه وحقي أن أدعه وشأنه بين أولئك السارقين ، لكن اصغي إلي إصغاء تاماً تعلمي قصدي .

اني أريد الاستيلاء على الأم وابنها وارسالهما إلى قصرنا ، في ضواحي فلاسك ، فأملق الولد كل تمليق ، وأوهم الأم اني ارلندي المشرب واني عامل على استقلال ارلندا بالسر ، ثم أعين للغلام كثيراً من الخدم والمرشدين يربونه على ما أريد .

- ولكن أمه تربيه على ما تريد وتدربه على حب ارلندا ؟

فابتسم اللورد ابتسام الأبالسة وقال : ان الأم قد تموت فإن المرء معرض للموت كل حين .

فقد تسقط من شاهق فتقتل ، أو تشرب ماء بارداً إثر تعب فتموت ، أو تأكل أكلة تتخمها ، وأكثر موت الناس بالتخم ، فلنفرض ان الأم ماتت عن ولدها وهو في الثانية عشرة من عمره ، فإذا ربيناه على حب الانكليز ، لا يبلغ سن الشباب حتى ينسى ارلندا والارلنديين ، وإذا كان انكليزياً صادقاً فإنه يخلفني في مجلس اللوردية بعد موتي

واندهشت الصبية وقالت ماذا أسمع يا أبي اني لا أفهم ما تقول .

- اني أريد أن أجعل هذا الغلام زوجاً لك يا الن

فامتعض وجه الفتاة وظهر النفور والكبرياء بين عينيها قائلة . انا أتزوج هذا الشريد الطريد المتسول ؟

– لا تنسي يا ابنتي ان أباه أخي وفوق ذاك فاني لم أقل لك كل ما في نفسي بعد ومتى علمت كل قصدي هان الأمر عليك .

– اني مصغية اليك .

– أول ما أبدأ به اني في عرف الناس من أغنى الأغنياء ، لكني في الحقيقة أوشك أن أكون فقيراً فقد خسرت ثلاثة أرباع ثروتي في تلك الهوة التي يدعونها البورصة ، وأصل ثروتنا أن أبي حين تخلى عن ارلندا ، وهو يومئذ رئيسها وحالف الانكليز كافأته الحكومة اعظم مكافأة فمنحته معظم أراضي العصاة التي ضبطتها بحيث بات جدك أعظم غني في بلاد الانكليز .

ولم يكن يخطر له في بال ان أخي ادمون سيخون الانكليز ويعود إلى إرلندا ، فقسم تلك الثروة العظيمة بيني وبينه قبيل وفاته باذن خاص من البرلمان ، فان حق الارث في الأسرات النبيلة للبكر كما تعلمين فبت كثير الغنى ولكني لم أنل غير نصف ثروة أبي .

– وماذا جرى للنصف الاخر ؟

– ضبطته الحكومة حين شذ أخي عن طاعتها وذهب إلى إرلندا وتولى زعامة الثائرين ، لهذا أردت أن أربيه على حب الانكليز ، فاذا اشتهر أمره تمكنت من حمل الحكومة على إرجاع مال أبيه اليه ، وإذا تزوجت به تزوجت رجلا غنياً تحفظين به مقام أسرتك ونفوذها فهل تجدين نفوراً منه بعد الآن ؟

– كلا يا أبي ، ولكن كم عمر هذا الغلام ؟

– عشرة أعوام .

– وأنا لي من العمر ستة عشر عاماً .

– وماذا عليك إذا كان أحدث منك فان الزواج أصبح في هذه الأيام

زواج غايات فاذا تزوجته تزوجت ثروته وهذا كل ما يطلب منك فعله .

– لقد رضيت والان أتعلم أين هو الغلام ؟

– كلا فان المرأة العجوز سترشدني اليه ، وقد حان الموعد ولا بد من الذهاب الان .

– أتذهب وحدك ، ألا تخاف مكيدة في شارع لا يسكنه غير الارلنديين ؟

– لقد حذرت قبل ان تحذريني فطلبت إلى رئيس البوليس أن يرسل إلى ذاك الشارع أربعة متنكرين من رجاله يعرفونني فلا خوف علي وهم يخفرونني ، والان إني ذاهب في مركبة للأجرة فاعتني بالارلندية وابذلي الجهد في حملها على الثقة بنا .

– لم يبق لنا حاجة بذلك فقد باتت ثقتها بنا لا حد لها بعد أن أريتها صورة زوجها إدمون .

وقبل اللورد جبين ابنته وانصرف .

وبعد خمس دقائق كان اللورد في الشارع فرأى مركبة واقفة معدة للأجرة فصعد اليها وأمر السائق أن يسير إلى ديدلي ستريت ، وانطلقت المركبة ودفعها السائق فجعلت تنهب الأرض نهباً ، لا جرم فان شوكنج كان فيما مضي من عهده من سائقي المركبات الماهرين .

وذهبت المركبة فمرت بشارع دبر وستمنستر فشارع البرلمان إلى أن مرت بشارع الأميرالية فأوقف اللورد المركبة وأطل من نافذتها فرأى رجلين واقفين فأسرعا إلى المركبة .

فقال له أحدهما : نحن الذين تنتظرنا يا حضرة الميلورد .

وفتح لهما باب المركبة قائلاً · إذاً إصعدا .

فصعد الرجلان وجلسا أمامه ودفع السائق المركبة إلى حيث أمره اللورد أي إلى بيت فانوش

ولما وقفت عند بابه خرج اللورد وطرق الباب فأسرعت اليه العجوز إذ كانت في انتظاره .

وقالت : لقد خفت في البدء أن لا تعود ، ثم تعللت حيناً بهذا الرجاء وتمنيت ان لا تعود لشدة خوفي .

– مما تخافين ؟

– من أولئك الذين سأخونهم فانهم إذا عثروا بي قتلوني لا محالة ..

فأخرج اللورد محفظته من جيبه وقال لها ببرود : لقد أحضرت لك المال الذي طلبتيه ، وتذكرة السفر في القطار الذي يبرح لندرا إلى بريتون عند منتصف الليل .

فمدت العجوز يدها بلهف لتقبض المال ، غير ان اللورد أرجع المحفظة الى جيبه وقال لها : لا أعطيك شيئاً إلا بعد ان ارى الغلام فأوصلك بنفسي إلى المحطة .

فظهرت علائم الريب على العجوز وقالت من يضمن لي انك لا تخدعني ؟

– يضمنه اسمي فاني أدعى اللورد بالمير

– لقد وثقت بك ، لكن ماذا عزمت ان تصنع بالغلام ؟

– اريد ان ارده إلى أمه .

فاضطربت العجوز اضطراباً شديداً لاعتقادها ان الارلندية في قعر التمس، وقالت اين هي امه ؟

– إنها عندي وقد وصلت إلي بعد أن نجت من الموت بشكل عجيب أرأيت كيف اني عالم بكثير من الأسرار فلا تضيعي الوقت عبثاً واعلمي اني أحضرت معي بوليسين سيذهبان معنا فاما ان تهديني إلى الغلام فادفع لك المال واوصلك الى المحطة واما تمتنعي فأسلمك الى البوليسين .

فهلع قلب العجوز وقالت : اني اقسم لك يا سيدي اني ارشدك إلى

موضع الغلام .

- إذاً هلمي بنا .

فخرجت من المنزل ودخلت مع اللورد الى المركبة ورأت فيهـا رجلين كما قال ، غير انها لم تتبينهما ، لأن مركبات لندرا لا مصابيح فيها فسألها اللورد : الى اين ترغب الذهاب .

- الى همبستياد في شارع ماتمونت نمرة ١٨ .

— أنجد الغلام هناك ؟

— دون شك .

فأمر اللورد السائق أن يسير الى الجهة التي عينتها العجوز فامتثل السائق وهو شوكنج كما عرف القراء .

وبعد ساعة وصلوا الى المكان المعين فرأوا منزلاً صغيراً تحيط به حديقة متسعة ، فأمر اللورد العجوز ان تخرج من المركبة كي ترشدهم فذعرت وقالت: اسألك بالله ان تبقيني في المركبة فانهم يقتلونني دون شك إذا رأوني .

— إذاً ابقي فيها فان المال معي ولا اخالك تهربين دونه .

ثم خرج من المركبة وخرج في أثره الشخصان المتنكران فدنا من الباب وحاول ان يقرعه .

غير ان احد الشخصين حال دونه وقال له : لا يجب ان ننبه اهل البيت بطرق الباب .

— ولكن كيف ندخل اليه ؟

- لقد تحسبت لكل شيء .

ثم اخرج من جيبه حلقة ضخمة فيها كثير من المفاتيح المختلفة الأشكال ، واخذ يعالج البـاب بتلك المفاتيح ، حتى فتحه وقال للورد : تفضـل يا سيدي بالدخول .

فدخل اللورد آمناً مطمئناً ودخلا في اثره واقفلا الباب ثم انقضا عليـه

فجأة والقياه الى الأرض وقيداه ووضعا في فمه كامة ، وعلى عينيه عصابة والقياه عند جذع الشجرة

وعند ذاك قال احدهما لرفيقه : هلم بنا الان لنبحث عن الغلام .

وكان هذا الرجل المتنكر العبوس كما كان سائق المركبة شوكنج .

- ٢٧ -

ولنعد الان الى حيث تركنا الغلام مع خادمة فانوش ، فان تلك الخادمة انهالت عليه بالسوط وضربته ضرباً مؤلماً فجعل يصيح وهو كلما صاح زادته ضرباً .

وعند ذاك فتح الباب فجأة ودخلت منه فانوش وكانت الخادمة لا تزال تضربه فصاحت بها فانوش صيحة قوية وهجمت عليها وانتزعت السوط من يدها وطردتها من الغرفة فخرجت الخادمة دون ان تفوه بكلمة .

وعادت فانوش الى الغلام وضمته الى صدرها وجعلت تقبله وتسترضيه فنفر منها وقال لها : أين امي ؟

فقالت له بلطف : ان امك يا بني قد سافرت الى حين وعهدت الي بالاعتناء بك .

فنظر اليها نظرة رجل فاحص كأنه يريد ان يخترق خفايا قلبها وقال : انك تخدعينني .

– وأي غرض لي بخداعك يا بني وأنت ترى عطفي عليك أما أمك فقد سافرت حقيقة لكنها ستعود ؟

– متى تعود ؟

– غداً .

– إنك تخدعيني أيضاً وأنا أريد الذهاب من هذا المنزل .

– إلى أين تذهب يا بني ؟

– إلى اللحاق بأمي ..

– ولكن هذا مستحيل فإن امك سافرت .

وضرب الأرض بقدمه وقال · اني أريد أن أخرج من هـذا البيت . ثم مشى إلى الباب

واعترضته فانوش وقالت له بلطف . قلت لك يا بني ان أمك مسافرة فاذا أردت أن نعاملك معاملة اللين واللطف ، وجب عليك أن تكون هادئاً مطواعاً لنا وإلا ..

– اضربيني كما تشائين ، لكن دعيني أخرج من هنا ..

فأجفلت فانوش لما رأته من عناد الغلام ونادت الخادمة فأقبلت وبيدهـا السوط ، فقالت لها : أدخلي هذا المتمرد إلى مضجعه .

ثم خرجت وتركته مع الخادمة ، فأخذت الخادمة يده وجرته بعنف ، فكان يصيح وهي تضربه ويستغيث بأمه باكياً ، حتى لم يعد يستطيع صبراً على الضرب ، فكف عن المقاومة والاستغاثة ودخل إلى مضجعه ، فجلست الخادمة بقربه تتهدده بالسوط إلى أن دب النعاس إلى جفنيه فنام .

ولما صحا رأى أشعة الشمس قد ملأت غرفته ، وأجال في تلك الغرفة نظراً حائراً ، ورأى انه وحيد فيها وعاد إلى مناداة أمه .

ففتح الباب ودخلت فانوش وهي تبتسم وحاولت ان تقبله فدفعها عنـه وقال · أريد أن أرى أمي .

– إنها ستعود غداً .

وتظاهر الغلام بتصديقها وكف عن البكاء والسؤال .

فجعلت فانوش تملقه وتلاطفه وتعده بقرب عودة أمه ، ثم أذنت له أن يلعب في الحديقة .

ونزل اليها وأقام فيها نحو ساعتين يتسلق من شجرة إلى أخرى حتى مل اللعب ، وعاد إلى البيت وقد علم انه غير البيت الذي كان فيه مع أمه وقال في نفسه : لا بد لي من الهرب منه والذهاب الى البيت الذي تقيم فيــه أمي إذ أجدها دون شك .

وقد تجسم هذا الخاطر في فكره فلم يعد يفتكر إلا بالفرار ، لكن فانوش كانت كل النهار معه ، فصبر صبر الرجال بعد ان قرر خطة الفرار وتظـاهر أمامها بملء الطاعة والانقياد ، فباتت واثقة من إدراك قصدها منه

وبعد العشاء قالت له : لقد حان وقت الرقاد فهلم إلى غرفتك .

ولم يعترضها ودخل معها طائعاً ساكتاً فخلعت عنه ملابسه وارقدته في مضجعه ، ثم أقفلت الباب وخرجت إلى غرفة أخرى وأقامت مع خادمتها تتحدثان .

أما رالف فانه صبر ساعة ، ثم قام فلبس ملابسه جميعها دون الحذاء وعول على الفرار واثقاً من إدراك أمه إذ لم يكن يعلم شيئــاً من إتساع لندرا وهو يحسبها لحداثته كالقرية التي ولد فيها .

ولما أتم لبس ملابسه فتح النافذة المطلة على الحديقة وهناك شجرة كبيرة تتصل أغصانها بالنافذة تتدلى منها إلى الحديقة دون ان يسمع له حس .

وبينا كان الغلام قد وثب إلى الحديقــة ، كانت المرأتان تتحدثان ، وكانت الخادمة تلوم فانوش لاخبـارها العجوز بأنها اتت بالغلام إلى هــذا المنزل ، وكانت فانوش تخطئها لعدم الثقة بالعجوز ، إذ لا يوجد ما يحملهـا على الخيانة .

وفيما هما تتحدثان سمعتا حركة فقالت فانوش : ما هذه الحركة التي اسمعها العلها صادرة من غرفة الغلام ؟

— كلا ، بل يخال لي انها من الحديقة واني اسمع وقع خطوات .

— وكيف يكون ذلك وباب الحديقة محكم الاقفال ؟

ــ لا أعلم .

ثم أصغت قليــلا وتابعت : اني أسمع وقع خطوات ، وان الخطوات تقترب .

واصفر وجه فانوش لأنها سمعت ايضاً صرير مفتاح في قفل باب المنزل ، ثم وقفت موقف الحذر وقالت : الويل لهم إذا كانوا لصوصاً فاني لا أخافهم .

لكنها لم تكد تتم كلامها حتى فتح باب الغرفة ودخل منه رجلان وهمــا الرجل العبوس والفقير .

وكان بيد العبوس مسدس فصوبه على فانوش وقال لها ببرود : لا حاجة إلى الصياح يا سيدتي فما نحن من اللصوص ، لكني أريد ان احادثك ويجب ان تصغي الي .

فذعرت فانوش وراعتها نظرات هذا الرجل الساحرة فـلم تقو على النظر اليه وطأطأت رأسها ثم قالت : من أنت وماذا تريد ؟

ــ أتعرفين اللورد بالمير يا سيدتي ؟

فاطمأنت فانوش لسماعها إسم رجل من أعضاء البرلمان وقالت : كلا .

ــ ان هذا اللورد يبحث الآن عن ابن أخيه .

ــ اني لا افهم ما تقول .

ــ لكنك ستفهمين ، فانك تقيمين في الشارع الارلندي ومهنتك تربية الأطفال ولك شريكة عجوز وهي التي أرشدت اللورد إلى منزلك هذا وباعته أسرارك بمبلغ جزيل .

فقالت لها الخادمة : ارأيت كيف صدق ظني لحذري من هذه الخائنة ؟

وعاد الرجل العبوس إلى محادثتها فقال لهــا : لكن هذه العجوز لم تقبض المال بعد لحسن الحظ فاعطنا الغلام وخذي انت المال .

وظهرت على فانوش علائم الفرج ونظرت إلى غرفة الغلام كأنها تستوثق من إقفال بابها .

وباغت الرجل العبوس هذه النظرة وقال : لقد عثرنا به هذه المرة .

ثم وثب إلى باب الغرفة وفتحه ولكنه ما لبث ان دخل حتى وقف على عتبة الباب حائراً مبهوتاً ، لأنه لم ير الغلام ولكنه رأى سريراً صغيراً عليه اثر الغلام ، فدنا منه ووضع يده عليه فوجده لا يزال حاراً .

ونظر إلى النوافذ فرأى إحداها مفتوحة وهي التي تطل على الحديقة فأطل منها ، فلم ير احداً .

وعند ذلك دخلت المرأتان وصاحتا صيحة دهش صادقة لم يشكك الرجل العبوس بعدها ان الغلام قد هرب من النافذة دون ان تعلما ، فتسلق الشجرة ونزل إلى الحديقة كما نزل الغلام وبحث في جميع ضواحيها وأطرافها فلم يجد له أثر إلى ان وصل الى شجرة تصل اغصانها الى اعلى الجدار ، ورأى غصناً منكسراً ساقطاً منها .

وعلم من الكسر انه حديث فأيقن ان الغلام قد تسلق هذه الشجرة الى سور الحديقة ووثب منه الى الشارع .

وكان الفقير قد أدركه الى الحديقة وكذلك شوكنج فقال لهما الرجل العبوس : ان الغلام لم يهرب إلا من زمن قريب ولا بد ان نجده في همبستاد فهلموا نبحث عنه .

ثم خرج الثلاثة باحثين عن الغلام وقد ترك العجوز في المركبة وهي توشك ان تجن من الخوف واللورد بالمير مقيداً مكموماً مبرقعاً ملقى في الحديقة على الأرض .

- ٢٨ -

ولنعد الآن الى مس الن ابنة هذا اللورد فانها كانت تنتظر عودة ابيها وقد جلست مع الارلندية تلاطفها وتعدها اجمل الوعود وتمنيها بمستقبل ابنها التماساً

لثقتها بها وبأبيها .

غير ان الارلندية كانت في غنى عن هذه الوعود فان ثقتهـا باتت قوية باللورد حين رأت في قصره صورة زوجها وهو في العشرين من عمره ولم يخطر لها ان اللورد يحقد عليه ، لأنه لم يخبرها بشيء من ماضيه .

وبقيت مس الن معها الى منتصف الليل وهما في غرفتين متجاورتـين ، ثم استأذنت منها وسألتها ان تستريح بالنوم قائلة ان اللورد لا يعود بابنها قبل الصباح ، لأن القصر الذي وضعه فيه بعيد . فاطمأنت الارلندية وذهبت مس الن الى غرفتها

وقد استبطأت اباها وباتت عرضة للهواجس والأفكار ففتحت نافذة غرفتها واشرفت منها على حديقة القصر الغنـاء تستنشق النسيم العليل وتفرج كربة السأم بمناظر الأشجار .

ثم ملت هذه المناظر فجلست قرب مكتبتها واخذت كتاباً فجعلت تقرأ فيه وهي مولية ظهرها للنافذة المفتوحة .

وفيما هي تقرأ وتشاغل نفسها بالمطالعة ، عن غياب ابيها سمعت صوت حركة في الغرفة ، فالتفتت ورأت رجلاً واقفاً ورائها مشهراً بيده خنجراً وهو ينظر اليها بعينين براقتين فعلتا في نفسها فعل الكهرباء بالجسم ، وعقد لسانها عن الصياح .

اما الرجل العبوس فانه دنا منها وقال : احذري ان تستغيثي إذا كنت تؤثرين السلامة .

وتراجعت منذعرة وعيناها شاخصتان الى هذا الرجل الذي تجـاسر على انذارها بالقتل وهي لم تره مرة من قبل .

على ان هذا الرجل كان جميل الملابس تدل هيئته على انه من الاشراف وكان اعجب ما فيه عينيه ، فقد كان لهما سلطة غريبة على القلوب تغض لهما الأبصار

وكأنما مس الن قد اطمأنت قليلاً لهيئته فحلت عقدة لسانها وقالت له : من أنت وماذا تريد وكيف دخلت الى هنا ؟

— إني أسألك العفو مراراً يا مس الن فقد أكرهت على الدخول الى غرفتك من النافذة إذ لا يجب ان يراني أحد .

وكان يقول لها هذا الاعتذار بلهجة لطيفة أثرت في فؤادها أكثر من تأثير عينيه وخافت تلك النظرات أكثر مما خافت من الخنجر .

فعادت إلى سؤاله عما يريد وقد استندت الى الجدار حذراً من السقوط لفرط اضطرابها .

فقال لها : إني آت يا سيدتي لأكلمك باسم أبيك .

فدهشت الفتاة وقالت : باسم أبي ؟

ثم جعلت تنظر اليه نظرات الدهش فأخرج خاتماً من إصبعه وأعطاها إياه وقال لها : أتعرفين هذا الخاتم ؟

فنظرت الفتاة الى الخاتم وقالت : نعم ، إنه خاتم أبي فهل هو أعطاك إياه ؟

فابتسم الرجل وقال : نعم ولا يا سيدتي أي ان الخاتم برهان على ان أباك في قبضة يدي وان حياته متعلقة بحياتي .

فذعرت الفتاة وقالت : ولكن من أنت أيها الرجل ؟

— إن اسمي لا يفيدك شيئاً ، يا سيدتي ، فإنهم يدعونني « الرجل العبوس » .

ثم دنا منها أيضاً وقال . يوجد عندكم يا سيدتي ، إمرأة تدعى حنة الارلندية

فعاد إلى الفتاة بعض ثباتها وعنفوانها فقالت له . ماذا يهمك شأنها ؟

فقال لها العبوس بملء السكينة . إنك تسأليني يا سيدتي سؤالاً يحق لك سؤاله ولذلك أجيبك عنه فأقول ان اللورد بالمير أباك كان منذ يومين في سفينة

يجتاز النهر فلقي هذه المرأة مع غلامها وعلم من ملامح الغلام انه ابن أخية السير ادمون بالمير .

وحاولت الفتاة ان تصيح صيحة دهش ، غير ان نظرات هذا الشخص ضغطت عليها فسكتت .

وعاد الى الحديث فقال : إن اللورد بالمير قد اختطف هذه المرأة ، وجاء بها الى منزله وعول على اختطاف الغلام أيضاًلفرط اهتمامه بهما ولما كنت أنا أيضاً أهتم بهذه المرأةوغلامها فقد خاطرت بالدخول الىغرفتك وتسلقت سور الحديقة ثم تسلقت الأشجار الى النافذة بحيث لو رآني البوليس او خدم القصر لقضيت بقية أيامي في أعماق السجون .

فزادت دهشة مس الن وجعلت تنظر إلى هذا الرجل نظرة الفاحص فتراه على أحسن حال ثم تراه يكلمها بملء السكينة كأنما قد جاءها بعد موعد ولكنها كانت مصغية اليه فلم تجبه .

ومضى العبوس في حديثه فقال : إني فعلت أعظم ممـــا رأيت مني إني قبضت على نبيل من مجلس الـــلوردية ، فقيدته ووضعت في فمه كمامة . فأحذري من أن تفوهي بحرف ، فإني إذا لم أخرج من هنا حراً سالماً ، فإنك لا ترين هذا اللورد المقيد الى الأبد ، وهو أبوك لأن حياته موقوفة على حياتي .

ثم قال وهي تنظر اليه نظرات ممزوجة بين الرعب والاعجاب: إن الارلندية في هذا المنزل وأنا أريد ان أراها .

وقد قال هذا القول بلهجة سيادة هاجت كبرياء الفتاة فقالت : لم يقل أحد لي كلمة أريد قبل الآن

— وأنا أعتذر إذا كنت أول من قالها لك وقد ألجأتني الضرورة فلا تضيعي الوقت لأن حياة أبيك في خطر وقد يحدث عن امتناعك .

فقاطعته الفتاة وقالت : ما يضمن لي صحة ما تقول ؟

- يضمنه خاتم أبيك الذي أريته إياه

فعضت شفتها ولم تجب . فقـــال لها : إذاً ، أرجوك أن تذهبي بي إلى غرفة الارلندية .

وكانت نظراته لا تزال ضاغطة عليها ، تفعل فيها فعـــل السحر . وفوق ذلك فقد أيقنت ان أباها معرض للخطر . ففتحت باب غرفتها ودلته على غرفة الارلندية المجاورة لغرفتها ، فقـــال لها قبل ان يخرج : لي كلمة أيضاً يا سيدتي .

- قل !

- لقد قلت لك ان أباك في خطر ، إلا إذا خرجت من منزلك حراً سالماً . واحذري ان تنادي خدمك لأني إذا لم أعد إلى عصابتي عند الفجر يصبح اللورد بالمير جثة لا حراك فيها .

ونظرت اليه نظرة هائلة دلت على ما في فؤادها من الحقد وقالت : سأعمل ما تريد لكنك إذا سلمت اليوم لا تسلم غداً .

- قد تدركون ما تريدون مني في الغد. أما اليوم إن السيادة لي .

ثم فتح باب غرفة الارلندية ودخل . فسقطت تلك الفتـــاة المتكبرة على كرسي وقد وهت قواها.ثم غطت عينيها بيديها كأنها تخاف أن تصيبها نظرات ذلك الشخص

وكانت الارلندية لا تزال ساهرة تصلي ، وهي تنتظر عودة اللورد بابنها . وقد كان الحديث بين الرجل العبوس والفتاة بصوت منخفض ، فلم تسمع شيئاً منه . ثم أنها لم تشعر بدخول الرجل اليها لانصرافها إلى الصلاة حتى دنا منها ووضع يده على كتفها فالتفتت اليه منذهلة . فأسرع الى إسكاتها باشارة وقال لها : أستحلفك باسم ولدك ان تصغي إلي ، وان لا تصيحي أدنى صيحة تنبه الينا الخدم .

وعرفته الارلندية بالرغم عن تغيير زيه وذكرت انه أنقذها من يد البحـار

فقالت له باطمئنان : ماذا تريد مني ؟

– إني آت لأكلمك باسم زوجك الميت وابنك الحي .

فارتعشت تلك الأم لاسم ولدها وقالت : إنهم سيردونه إلي .

– وأنا آت يا سيدتي لأكلمك ايضاً باسم ارلندا التي تحاولين خيانتها دون تعلمي ما تفعلين بل أنا آت باسم هذا الكاهن الذي جئت بولدك من ارلندا لتقدميه اليه .

ونظرت اليه منذهلة وهي لا تعلم ما يريد فقال: أنت يا امرأة السير ادمون أتعلمين أين انت الآن ؟

– إني في منزل أخو زوجي وحامي ولدي .

– بل انت في قبضة قاتل زوجك ومضطهد ولدك بل أنت في منزل ذلك الخائن الذي دمر ارلندا وقتل منقذيها .

– إنك كاذب دون شك .

فوضع يده فوق صدره وقال : إني اقسم لك باسم ولدك الذي لا يرده اليك سواي إني لا أقول غير الحق .

– ماذا تقول عن ولدي ؟. إن اللورد بالمير سيأتيني به ، قبل أن يطلع الصباح .

فأجابها ببرود : إن اللورد بالمير لا يعود الى منزله ، إلا إذا خرجت أنت منه !

– كيف ذلك أتريد ان أبرح هذا المنزل ؟

– إني باسم زوجك الميت ، وولدك الحي ، والكاهن الذي ينتظرك ، وارلندا التي تعتمد عليك ، أدعوك الى الخروج من هذا المنزل والذهاب معي .

وكانت الارلندية تنظر اليه نظرات الريبة فما خفي ذلك على العبوس وقال: أرى انك غير واثقة بي

فأطرقت ولم تجب

وتابع قائلاً : إنك لا تثقين بي كما انك لم تثقي بالكاهن لاسترسالك بثقتك الى شقيق زوجك وما هو إلا قاتله .

— من يضمن لي صدق ما تقول ؟

— لقد أصبت فقد وعدتك في المرة الأولى ان أرد لك ولدك فما فعلت فصار يحق لك أن لا تصدقي الآن ما أقول .

— رد لي ولدي أصدقك في كل شيء .

— إني لا أستطيع رده إلا إذا خرجت أنت من هنا . واسمعي السبب إن ابنك قد اختطفته امرأة تتاجر ببيع الأطفال ، لكنه لو كان عندها أو لو كان شريداً تائهاً في أحياء لندرا لما لقي من الخطر نذراً مما يلقاه في منزل اللورد بالمير . وماذا قال لك هذا اللورد ؟ إنه قال إني أخو زوجك وان ولدك ولدي ومنزلي منزلك .

— نعم لقد قال لي هذا الكلام .

— وهو سيفي بوعده فتعيشين في بيته عيشة كرائم العقائل وينشأ ابنك عنده كما ينشأ أبناء النبلاء ، لكنك انت قد تموتين .

— وماذا علي من الموت إذا غادرت ولدي سعيداً ؟

— لقد أصبت ، إنه قد يبلغ أقصى درجات السعادة . لكنه ينشأ يا امرأة السير ادمون محباً لانكلترا ، كارهاً لارلندا وشهدائها ، ومنهم زوجك الفقيد .

فارتعشت وقالت : ماذا تقول ؟

— أقول ان زوجك مات شهيد ارلندا وهو يلعن انكلترا . لكن اللورد بالمير كان من أشد أعضاء البرلمان نفوذاً ، وكان يستطيع إنقاذ أخيه من الشنق لكنه رضي له الموت وقتل الأسد ، وهو الآن يريد ان يجعل الشبل إنكليزياً فينتقم مرتين .

إن ابنك قد يصبح لورداً نافذ الكلمة ، عظيم الجاه، كارهاً لارلندا متشيعاً للانكليز ويعيش عيشاً سعيداً غير ان أباه في قبره ينكره ويأنف ان يكون والداً له أفترضين بهذا ؟

فذعرت الارلندية وقالت له : كفى بالله ! إن ابني لا يكون إنكليزياً ما حييت .

— إذاً ، إعلمي إنك إذا خرجت معي من هذا المنزل يغدو إبنك فقيراً ويعيش عيش الشقاء والجهاد . لكنه يغدو زعيماً لجيش سري ، وان هؤلاء الجنود الأمناء قد يضحون اليوم دماءهم في سبيل الوطن ، لكن لا بد لهم أن ينتصروا ويطردوا الانكليز من ارلندا ، فتذكري كلام زوجك السير ادمون واختاري .

وكأنما ذكرى زوجها قد فعلت بها فعل السحر فوقفت قائلة هلم بنا ، إني رضيت ان أبرح هذا المنزل .

— كلمة ايضاً يا سيدتي ، إن ابنك لم نجده بعد لكن لا بد لنا أن نجده لأن ارلندا تبحث عنه الآن لتجعله رئيسها .

— لقد وثقت بكلامك لكن أتظن ان اللورد بالمبر كان يخدعني حين وعدني ان يعود بولدي ؟

. كلا لكنه فشل كما فشلنا ، لأن المرأة التي سرقت ولدك ذهبت به إلى همبستاد وعرف اللورد بالمبر المنزل الذي خبأته فيه وذهب لإحضاره مع شخصين كنت أنا أحدهما

فتعجبت قائلة : كيف أنت ؟

. نعم ، لأنـه كان يحسبني من رجـال البوليس السري . ولما وصلنا إلى المنزل وجدنا ان ابنك قد هرب منه .

لكن ذلك لا يحمل على الخوف لأنه سوف يتوه في الأزقة ساعة او ساعتين فيهتدي اليه البوليس ، ويأخذه الى الدير كولد متشرد ، فيبيت فيها بأمن إلى

أن نذهب ونطلبه .

– أتقول الحق ؟

– دون ريب لأنه لا يجد في الأزقة من الخطر معشار ما تجدينه ويجده في منزل هذا اللورد .

– لقد وثقت بك يا سيدي ، لأن عينيك وقلبي يحملاني على الثقة بك ، والركون اليك .

– أشكرك باسم ارلندا، هلمي بنا لأن الكاهن صموئيل ينتظرنا خارج الباب فقد أخرجته من السجن .

– ليكن ما تريد ، هلم بنا .

فتأبط العبوس ذراعها وذهب بها الى غرفة مس الن فقال لها: إنك يا سيدتي قد وفيت بشيء مما طلبته اليك لكن بقي لي عندك مأرب ولا تزال حياة أبيك في خطر حتى تقضيه .

– ماذا تريد مني ؟

– أريد ان توصلينا الى باب الحديقة الخارجي لأننا سنخرج من ذلك الباب الى الزقاق فلا يشعر بنا أحد .

فنظرت مس الن الى الارلندية وقالت لها بلهجة العتب: إذاً عولت على فراقنا والذهاب مع هذا الشخص ؟

– هذا ما تريده ارلندا .

فحاولت أن تجيبها ، غير أن نظرات الرجل العبوس كهربتها ، فحملت بيدها المصباح وسارت أمامهما من رواق الى رواق حتى انتهوا الى الحديقة .

ففتحت بابها الخارجي مغضبة حانقة وقالت للرجل العبوس : هوذا قد بلغت ما أردت .

فقال لها متهكماً : الى اللقاء يا سيدتي .

فهاجت فيها عوامل الكبرياء والحقد وقالت : نعم الى اللقاء ولا بد لنا ان نلتقي وسيكون بيننا ما يقل دونه الموت

- ٢٩ -

ولقد كان الرجل المبوس صادقـــاً فيما قاله عن الغلام ، فقد تفرق هو وشوكنج والفقير في جميع جهات همبستاد باحثين سائلين عن الغلام ، فلم يجدوه لأن الغلام بعد ان نزل من النافذة الى الحديقة لم يكن يجول في خاطره غير الهرب من فانوش وما لقي في منزلها من العنف .

وكان يعتقد انه إذا خرج من المنزل لا بد ان يجد امه .

لذلك أسرع الى تسلق سور الحديقة ، فسقط مراراً وتهشمت يداه ورجلاه الصغيرة ، ولكنه كان كلما سقط زاد همة وعزيمة . وعاد الى تسلق الجدار مستعيناً بما يكتنفه من الأشجار حتى بلغ مراده ، وبلغ الى أعلى الجدار فتدلى منه والقى نفسه الى الشارع العام ذاكراً اسم أمه فقط ، ورض جسمه رضوضاً شديدة ودميت يداه ورجلاه

لكنه لم يكترث لما أصابه بعد ان ظفر بحريته وهو لو بقي هنيهة في المنزل لأدركه المبوس ونجاه من خطوب كثيرة .

وكان اول ما عمله بعد أن نهض أنه نظر الى مـــا وراءه نظرة المذعور ، كأنه خشي ان تكون فانوش قد أدركته بسوطها ، فجعل يركض هائماً على وجهه حتى بعد بعداً شاسعاً عن همبستاد وبلغ لندرا المتصلة بها .

ولم يكن يخطر لهذا المسكين انه يبعد عن المنزل الذي كانت فيه أمه هذا البعد الشاسع ، فقد جاءوا به وهو نائم الى همبستاد ، وجميع أزقة لنـــدرا متشابهة . فكان يســير من حي الى حي هـــائماً حائراً ، والدم يسيــل من

قدميه وركبتيه .

ولم يكن يعرف اسم الشارع الذي غادر فيه أمه فيسأل عليه ، فجعل يسير مندفعاً الى الأمام وإذا رأى شارعاً يشبه الشارع الذي كانت فيه أمه جد في السير واتقدت عيناه بأشعة الأمل وإذا طال سيره وعلم أنه أضل السبيل وقف قانطاً جازعاً يذكر امه ويبكي ، ثم لا يجد من يجيبه ويرثي لدموعه ، فيستمر في سيره .

وبقي على ذلك ٤ ساعات حتى رهت قدماه من المشي ، وضعفت نفسه من الجزع ، فجلس على حافة باب منزل واسترسل إلى البكاء فكان بكاؤه يقطع القلوب من الإشفاق .

غير ان أهل لندرا مشهورون بعدم الاكتراث ، فقد مر بهذا المسكين كثير من الناس فلم يكترث أحد لبلواه ، بل أن كثيرين منهم لم ينظروا اليه . إلى ان اتفق مرور امرأة به فوقفت تنظر اليه نظرة المتوجع ثم وضعت يدها فوق كتفه وقالت له بصوت حنون ماذا أصابك يا بني ؟

والتفت رالف الى تلك المرأة التي رقت له فرآها صبية حسناء وخيل له أنها تشبه أمه فزاد بكاؤه وشهيقه .

فقالت له : العلك ضائع يا بني ؟

— إني أبحث عن أمي ؟

— ماذا تدعى أمك ؟

— حنة .

— أأنت ارلندي ؟

— نعم .

. وأنا أيضاً ارلندية مثلك واسمي سوزان أتحب ان تذهب معي لأعينك على لقاء أمك .

فنظر اليها الغلام نظرة شكر لكن عينيه كانتا تدلان على الارتياب فقالت :

تعال معي أيها الحبيب كي لا يقال ان سوزان الارلندية تدع غلاماً من أبناء وطنها يموت في أزقة لندرا من البرد والجوع .

ثم أخذت بيد الغلام وسارت به .

غير ان الغلام حاول الامتناع في البدء ، إلى ان رأى في نبرات صوتها الرقيقة ونظراتها الحنونة ما دعاه إلى الامتثال فقال لها : أحقيقة إنك ارلندية يا سيدتي ؟

– إني ولدت في دبلين يا بني .

– وتساعديني على لقاء أمي ؟

– دون ريب وإذا كانت ارلندية فإن إيجادها سهل ميسور لأن جميع الارلنديين متعارفون في هذه المدينة لما بينهم من جامعة الشقاء .

– اقسمي لي إنك لا تخدعيني .

– أقسم لك بالله يا بني إني صادقة وإني أريد لك الخير فأين تقيم أمك وفي أي شارع ؟

– في سانت جيل .

– ليس هذا اسم شارع بل اسم كنيسة .

– لا أعلم غير هذا الاسم .

– حسناً سنذهب غداً الى سانت جيل فاذا كنت أنت تبحث عن أمك فهي أيضاً تبحث عنك دون ريب .

فاضطرب رالف وقال : لماذا لا نذهب الآن ؟ ولماذا التأجيل الى الغد ؟

– لأن الكنائس لا تفتح في الليل .

فأيقن الغلام انها مصيبة في قولها ، فمسح دموعه بكم ثوبه وقال لكن الغد بعيد .

فابتسمت له قائلة : كلا يا بني ألا تعلم أننا الآن في منتصف الليل ؟

فاقتنع الصبي ، وسار معها حتى وصلا إلى مطعم ، فقالت له : العلك جائع ؟

- كلا .

فواصلا السير حتى اقتربت من الشارع التي كانت مقيمة فيه ، فلقيها كثير من الناس ، وجعلوا يمازحونها بشأن الغلام ، وهو لا يفهم شيئاً مما يقولون ، حتى مرت قرب خمارة ، فلقيها أحد الفتيان وقال : كيف حال ولتون ؟

- لا أعلم إنني لم أره منذ يومين .

- العله مسجون ؟

فردت بصوت مضطرب : لا أعلم .

- ومن هذا الغلام الذي معك ؟

- لقيته جالساً عند باب يبكي

- إن مخائل النجابة تبدو بين عينيه ، وسيكون له أعظم شأن بين اللصوص .

- لكني أرجو له غير ما ترجوه لأني سأرده غداً الى أمه .

فقال لها الفتى : لو سمعك ويلتون تتفوهين بهذا الكلام ، لما نجوت من ضربه .

ثم ودعها وانصرف .

وسارت سوزان والغلام حتى وصلت الى منزلها ، وهناك رأت رجلاً آخر تعرفه فقالت : أرأيت ويلتون ؟

- كلا لكني أعلم أنه بدأ بعمل خطير قد ينجح فيه لأن سرقة الجيوب لم تعد تفيد في مهنتنا لكثرة حذر الناس .

فلم تجبه ودخلت والغلام الى المنزل فأثارته وظهر لرالف انهذا المنزل مؤلف من غرفة واحدة أعدت للطبخ والاستقبال والنوم ووجد طاولة صغيرة كانعليها

بقية من الطعام وإبريق فيه بقية من البيرا .

فسألته سوزان : أتريد ان تأكل الآن ؟

– كلا يا سيدتي .

– أتريد ان تنام ؟

– حبذا النوم ، ولكني لا أستطيعه إلا إذا وعدتني وعداً صادقاً بلقاء أمي غداً .

– لقد أقسمت لك يا بني فنم مطمئناً .

ثم حملته الى سرير كان في زاوية الغرفة ، فلم يكد يستقر عليــــه حتى نام لفرط ما عاناه من التعب .

غير أنه لم يسترسل في نومه حتى صحا إذ سمع وقع أقدام في الغرفة تلاها صيحة فرح من سوزان .

ففتح عينيه ورأى رجلاً في الغرفة ورأى سوزان تعانقه وتقول : قد طال غيابك حتى خشيت ان تكون مسجوناً .

فضحك الرجل وأجابها بقبلة .

فــاضطرب رالف وكاد يصيــح ، إذ رأى يد الرجل عــارية ، وهي مصبوغة بالدماء .

– ٣٠ –

ولم يكن هذا الرجل قد رأى الغلام بعد لانشغاله بسوزان، وكانت سوزان قد نسيت الغلام لفرحها بقدوم الرجل .

أما رالف فانه كان يضطرب في سريره ولا يجسر ان يتكلم .

ودار الحديث بينهما فقــالت سوزان : لقد خفت عليك خوفاً عظيمــاً

فأين كنت ؟

وكان هذا الرجل عشيقها ويلتون ، فجلس بقربها وقال لها : لقد كان أمري خطيراً وأوشك الجنود ان يقبضوا علي ولكني فزت فوزاً تاماً وسلمت من الجنود .

ثم مد يده الى جيبه وجعل يخرج منه دنانير ويلقيها أمامها حتى اجتمع منها قدر كثير . وعند ذلك رأت سوزان يده مخضبة بالدماء فذعرت وقالت : ماذا أرى الملك قتلت الشيخ المنكود ؟

– كلا إني وعدتك ان لا أسفك دماً بشرياً الا إذا اضطررت .

– إذاً من أين هذه الدماء ؟

– إسمعي ما جرى إن المنزل الذي سرقناه كائن بين الحقول كما تعلمين ولم يكن فيه غير صاحبه الشيخ فدخلنا اليه وقيدنا العجوز ثم اخذنا ماله فاقتسمناه امامه بملء السكينة .

ولما تمت القسمة وحاولنا الخروج من الباب رأينا العسس وراءنا ، فعدنا الى حديقة المنزل .

وجرى في اثرنا الجنود بعد ان اغتصبوا الباب .

واسرعت انا الى سور الحديقة وتسلقت الجدار فأدركني جندي وجذبني برجلي فهويت الى الأرض وقبض علي واخذ يصيح مستغيثاً باخوانه لأنهم كانوا يطاردون رفاقي .

وهنا رأيت انه لا بد لي من سفك الدمـــاء ، فأغمدت خنجري في صدره وهربت .

وكان رالف يسمع الكلام ولا يفهمه ، لكن هيئة ويلتون كانت تدعوه الى الخوف .

اما الرجل فكان جميل الوجه يمتزج جماله بالقسوة ، فكانت سوزان تعجب بجماله ولا تهاب قوته ، ولكن رالف لم يكن يتجاوز العشرة اعوام فخاف هذا

الشخص خوفاً قوياً .

وحالت التفاتة ويلتون ورأى الغلام ، فدهش وقال بلهجة المغضب : من هذا ؟

فأغمض رالف عينيه لخوفه وحبس انفاسه وبدت سوزان بلهجة المستعطف: إنه ولد فقير التقيته تائهاً في الطريق يبكي ، فأشفقت عليه لأنه ارلندي مثلي ، كما تعلم .

فقال متهكماً : يسرني ان ارى منك هذا الاشفاق .

ثم دنا قرب السرير كي يرى الغلام فمسكت يده قائلة له: أرجوك ان لا تسيء اليه فهو نائم انظر الى جماله إنه يشبه الملائكة .

– انه جميل كما ولكن ماذا تريدين ان تصنعي به ؟

– سأرده غداً الى امه ، في شارع الارلنديين ، قرب كنيسة سانت جيل .

– حسناً ، والآن اتريدين ان ننام ثلاثتنا في سرير واحد ؟

– سأنقله الى المقعد .

ثم دنت من رالف وايقظته ففتح عينيه وتطلع خائفاً الى ويلتون فقالت له: لا تخف يا بني انه لا يؤذيك .

فلم يجبها الولد لكن الخوف كان بادياً بين عينيه .

اما ويلتون فانه حدق بالولد ملياً ثم قال لسوزان : قد اخطأت اذ عزمت على ارجاعه الى امه وخير انا لو بقي عندنا .

فاضطرب رالف اضطراباً قوياً . اما سوزان فانها اعترضته بعنف قائلة : كلا لا يجب ان يسقط الى الهوة التي وقعنا فيها ، واكون انا التي قذفته اليها .

– أراك من اهل الفضيلة هذه الليلة فدعي شرفك هذا الآن لأن هذا الغلام يفيدنا على حداثته فائدة بليغة .

– كلا ان هذا لا يكون .

فغضب ويلتون وقال : ويحك ! أبلغ من قحتك ان تجسري على اعتراضي .

ثم رفع يده منذراً إياها بالضرب .

فردت قائلة : أضربني ما تشاء ، ولكني لا أريد ان يخرج هذا الصبي لصاً مثلك .

فهاج غضبه وقال : أتحتقريني ايضاً ايتها الشقية .

ثم هم بضربها ، ولكن حدث أمر لم ينتظر وهو ان الغلام الصغير الذي كان واقفاً عند السرير يرتعش من الخوف اسرع الى ويلتون وحال بينه وبين سوزان قبل ان تصل اليها يده وقد اتقدت عيناه وحسب نفسه رجلاً قادراً على حماية تلك المرأة .

فلما رأى ويلتون ما كان من جرأته سر به سروراً عظيماً وضحك قائلاً : طب نفساً أيها العزيز إني لا أضربها إكراماً لك .

ثم أراد ان يعانقه فنفر الغلام منه وتهدده بالنظر الشذر فقال ويلتون : لقد أحسنت ايضاً .

ثم عانق سوزان وقال : اني أعانقها ايضاً إكراماً لك فاطمئن .

فارتاح خاطر سوزان وقالت إنك تظهر من الشر ما ليس فيك .

– سأفعل ما تريدين ايتها الحبيبة ، وسنرد الغلام غداً الى أمه ، ودعيه الآن ينام .

وكان يكلمها وينظر الى الغلام نظرات حنو . لكن رالف لم يطمئن حتى عادت سوزان الى وعده وتطمينه فذهب الى المقعد ونام آمناً .

ولما أيقن ويلتون انه نام قال همساً في اذن سوزان: إن الأقدار أرسلت الينا هذا الغلام .

– ماذا تعني ؟

- اننا غداً في مثل هذه الساعة يكون لنا بفضل هذا الغلام من المال ما يكفينا شر هذه المهنة .

فقالت بلهجة التأنيب · لقد قلت لك يا ويلتون اني لا أريد أن يكون هذا الغلام من اللصوص .

- لا تغضبي أيتها الحبيبة وأصغي إلي تعلمي ما أريد .

وكان الولد نائماً لا يسمع الحديث وفوق ذلك فقد كانا يتكلمان همساً مبالغة في الحذر ، فقال ويلتون : اني أريد أن أعمل عملاً أخلص به من هذه المهنة الخطيرة فاني إذا بقيت عليها لا يبعد ذلك اليوم الذي ترقص فيه رجلاي بالخلاء في سجن نيوجات .

- لا تقل هذه الأقوال فانك تخيفني من الموت فتميتني من الخوف .

- ولكن الشنق نصيب أمثالي فلا بد أن الاقيه .

- بالله كفى .

- اني ملاق هذا الجزاء لأن الله الذي تستحلفيني به كائن حي سيبلوني بهذا العقاب على انه لو كان لي ألف جنيه فقط لنجوت من الشنق وعشت عيشة السعداء .

- إذا ظفرت بهذا المال ترجع عن مهنتك الشائنة وتمتنع من السرقات وتبرح انكلترا ؟

- دون شك ، اسافر بك الى فرنسا وأتزوج منك ونعيش ما بقي لنا من العمر عيش الاشراف .

فتنهدت وقالت : واأسفاه أن التعلل بالأماني سهل ، وأين لنا أن نظفر بهذا المال .

- من يعلم فان هذا الولد يخدمنا خدمة جليلة ويحق لنا الرجاء .

فعادت سوزان إلى تأنيبه وقالت : لماذا تريد أن تصير هذا الولد الشريف المنكود لصاً : ألم ترى جماله ونبله أيخلق بمثل هذا الولد وهو يشبه الملائكة

ان يكون مأواه السجون ؟

فضحك اللص ضحك الساخر وقال : يعجبني أن أراك نبيلة العواطف ولكني أعدك وعداً صادقاً ان أرد الولد إلى امه متى قضيت مأربي .

— وما هو مأربك ؟

— أصغي إلي فاني مهتم بأمر خطير منذ عهد بعيد ولم أطلع عليه العصابة كي لا تشاركني بما سأختلسه فانه يبلغ الف وقد يبلغ أربعة الاف .

— أربعة الاف جنيه ! انها ثروة لا تدرك بالاحلام وممن تسرقها ؟

— من رجل يسرق الناس مثلي ولكنه يعد من اشراف اللصوص لانه يسرق الناس بالعلانية والجهر ونحن نسرقهم بالسر ولأنه لا يرحم فقيراً ولا يشفق على عامل وقد ملأ اسمه القلوب ذعراً .

— ما اسم هذا الرجل ؟

— هو توماس الجن .

— أهو ذلك المرابي الشهير ؟

— هو بعينه فاني اتهيأ منذ عام لسرقة ما سرقه من الناس ولدي الآن مفاتيح تفتح جميع أبواب منزله .

— أين يقيم ؟

— في شارع فلبيرن قرب محطة وسترن وهو يعيش وحده فليس في منزله خادمة أو خادم .

ولكنه يبقي نقوده في صناديق مصرفه ولا يضع مثل هذا المبلغ في بيته وهو فيه وحده كما تقول ؟

— اني اراقبه منذ عام أتم المراقبة وقد علمت انه يبقي نقوده في مصرفه جميع أيام الاسبوع ما خلا يوم الأحد لعلمه أن بعض الناس يحتاجون الى المال في هذا اليوم فلا يجدونه الا عنده في بيته لاقفال الأسواق أيام الأحد فيطمع فيهم ويأخذ من الربا قدر ما يشاء . ولذلك يأخذ مساء السبت مبلغاً كبيراً من المال

النقدي والأوراق المالية الى بيته، وهو آمن على ماله في ذلك البيت ، لأنه يضعه في صندوق ضخم من الحديد لا يستطيع أحد أغتصابه إلاي فاني علمت سره .

– كيف ذاك ؟

– اني قبل أن أكون لصاً كنت تاجراً صغيراً ، وكنت متزوجاً زواجاً شرعياً ، فما خرب تجارتي غير هذا المرابي ، وهو الذي قتل إمرأتي رغماً ، فاني علقت بشركه واستدنت مبلغاً صغيراً وتجسم المبلغ بزوره واحتياله ، وبلغ معدل ما أخذه من الربا ثلاثمائة في المائة ، فأفلست حين عجزت عن الدفع ، وغلت يدي عن الأعمال ، ودخلت إلى سجن المفلسين وكان ذاك اليوم بدء عهدي بالسرقات .

اما صندوق هذا المرابي فقد وضعه في غرفة ليس لها غير باب واحد ، ولهذا الباب نافذة صغيرة جداً ، فإذا اتى احد لمقابلته في منزله ينظره من تلك النافذة قبل ان يفتح له الباب ، ولو كنت استطيع مد يدي من النافذة لبلغت مرادي من صندوق هذا المرابي منذ عهد طويل .

– اليس لك مفتاح لهذا الباب ؟

– نعم ولكني إذا فتحته اقتل في الحال وذلك ان هذا الخبيث قد وضع وراء الباب بندقية بشكل عجيب بحيث انه إذا فتح الباب اطلقت البندقية ووقع رصاصها في صدر من يفتحه .

– ولكنك قلت لي إن هذه الغرفة ليس لها غير باب واحد فكيف يدخل منه توماس ولا تصيبه البندقية ؟

– وهذا السر الوحيد الذي لم اوفق إلى كشفه من اسرار منزله .

– إذاً لا رجاء بسرقة صندوقه إذ يستحيل الدخول إلى الغرفة .

– كلا فإن نافذة الباب لو كانت متسعة لمددت يدي منها وقطعت

بمقص حبلاً ربط به الباب واتصل بالبندقيـــة ، وإذا قطع الحبل لا يبقى خوف من انطلاقها ، لكن النافذة ضيقة ويدي ضخمة ، ولهذا أردت أن أبقي الغلام عندنا كي استخدم يده الصغيرة فيقطع الحبل ، وعنـد ذاك أبلغ مرادي من الصندوق ، وأتوب إلى الله توبة صادقة ، ولا أعود بعدهـا إلى ارتكاب منكر .

– أتعدني وعداً صادقاً أن ترد الولد إلى أمه بعد قضاء مأربك ؟

– اقسم لك بالله .

أجابت : ولكن توماس قد لا يخرج من منزله متى كان فيه هذا القدر من المال .

– كلا ، فإني أراقبه منذ عام كما قلت لك ، فهو يضع المـــال في الصندوق كل ليلة سبت ، ثم يضع البندقية في موضعها ويخرج آمنـاً فيقضي ليلته في الملعب .

– حسناً ، وماذا تصنع بالولد إلى يوم السبت ؟

– اني اتعهد بحمله على الصبر

فقالت له بصوت مضطرب : العلك تريد ضربه ؟

– اقسم لك اني لا أفعل شيئاً من هذا .

– حسناً . ماذا تصنع ؟

– سوف ترين .

وهنا انقطع حديثهما فأطبقا اجفانهما وناما كما نام الولد

- ٣١ -

ولما استفاقا صباحاً كان رالف لا يزال نائماً فقال ويلتون لسوزان :
كنت عولت على ان أسقي الولد مخدراً فينـام إلى المساء حيث أذهب به إلى بيت المرابي ، لكني رأيت ان ذاك يحمله على الشك بنا ، والذي أراه الآن هو ان تذهبي به حين يصحو بحجة البحث عن امه ، وتسيرين به كل النهـار من شارع إلى شارع ، وتبعدين كل البعد عن سانت جيل حذراً من أن يظفر بأمه اتفاقاً .

ومتى أقبل المساء تدخلين به إلى الخمارة الكائنة في أول عطفة من شارع ادورد فتتعشين معه ، وقبل أن تفرغا من الطعام أحضر اليكما بمركبة وأنا في ملابس نظيفة وهناك يكون بدء العمل .

- سأفعل كل ما تريد على شرط أن تجدد وعدك الي باعادته إلى أمه .

- سأفعل بعد أن يقطع حبل الباب ويكون ذلك أول ما اهتم به

ثم تركها وخرج من البيت على أن يجتمعا مساء في المكان المعين .

أما سوزان فإنها خرجت بالولد بعده وجعلت تسير به من شارع إلى شارع وتنتقل من مكان الى مكان ، ومن كنيسة إلى كنيسة وفي كل موضع توهمه انها تسأل عن امه بحيث بات له فيها كل الثقة ، لكنه لم يظفر بـأمه وكان يمشي حزيناً منكسر القلب

وما زال هذا دأبها حتى الليل فدخلت به الخمارة المعينـة وطلبت أكلا وشراباً ، وكان رالف قد تعب تعباً شديداً ، حتى اضطرت سوزان إلى حمله فأكل بملء الشهية ، لكنه كان يلهج كل حين بأمه ولا يذكر غير اسمهـا ، وكانت سوزان تعلله بالعودة إلى البحث عنها غداً وتضمن له لقاءها فيثق بها ويرتاح لوعودها

وفيما هما يأكلان فتح باب الخمارة ودخل ويلتون فقال للغلام لقد وجدت

امك يا بني .

ولم يدر الولد بماذا يجيبه لشدة فرحه ، لكنه وثب اليه فتعلق به وجعل يعانق هذا اللص ويذرف دموع الامتنان .

وقال له ويلتون : لا تحول الينا الأنظـــار يا ابني واصغي الي لأخبرك الحقيقة ، إن أمك في السجن ، لكنها ليست مسجونة في سجن الحكومة ، بل في منزل أحد الأشرار كما كنت أنت مسجوناً في ذلك المنزل الذي كانوا يضربونك فيه .

فأجفل الصبي وقال : أيجسرون على ضربها ؟

— كلا لم يضربوها بعد ولكننا اذا تأخرنا عن انقاذها فلا بد أن يضربوهـا وقد عرفت لحسن الحظ المكان المسجونة فيه .

ثم غمز سوزان بعينه فقالت له بملء البساطة : اين هو ذاك المكان ؟

— انه غير بعيد .

فقال رالف إذاً هلم بنا لانقاذها الآن .

فابتسم ويلتون وقبل رالف قبلة حنو ثم قال له : اني معجب ببسالتك يا بني ولكن وقت انقاذ أمك لم يحن بعد .

— لماذا ؟

— إذ يجب علينا أن ننتظر الى أن ينام حراسها فأتم الآن عشاءك وسنذهب بعد العشاء .

ثم انصرف عنه إلى سوزان وجعل يحدثها بلغة اللصوص الاصطلاحية وهي لغة لا يفهمها رالف فقال : لقد أعددت كل المعدات وارجو ان نعود بفوز عظيم ونرتاح من عناء المهنة .

- أأنت واثق من وجود المال في المنزل .

نعم فقد راقبته ورأيته دخل الى البنك في الساعة الثـالثة والنصف وخرج منه بكثير من الأوراق المالية ، وقد التقى ساعة خروجه بصديق له

فسمعته يواعده على اللقاء في ليشتر سكار في الساعة العاشرة ، لذلك لا بد له من ركوب القطار في الساعة التاسعة ونصف ، ولا بد لنا ان نصبر حتى نسمع صفير القطار .

– ومتى ظفرنا بالمال فماذا نصنع بالولد !

نذهب به إلى كنيسة سانت جيل فلا بد لأمه أن تطلبه منها فنودعه هناك ونذهب تواً إلى فرنسا .

وأقاما يتحدثان بمثل هذه الأحاديث الى ان حان الوقت المعين فخرجوا من الخمارة الى مركبة كان أعدها ويلتون فدخلت اليها سوزان والغلام ،وصعد ويلتون فجلس بجانب السائق وامره ان يسير الى المحطة .

ولم يكد يبلغ اليها حتى رأى ويلتون توماس الجن صاعداً مسرعاً الى درجات سلم المحطة فأيقن انه مسافر وان الجو قد خلا له فأمر السائق ان يسير الى منزل المرابي، ولما بلغ اليه اوقفه عند باب الحديقة ونزل من المركبة فأخرج منها سوزان والطفل .

ثم فتح باب الحديقة بمفتاح كان معه ودخلوا جميعاً فأقفل الباب وبقيت المركبة تنتظر في مكانها .

وبعد ان اجتازوا الحديقة صعدوا سلماً انتهوا منها الى باب المنزل فأخرج ويلتون مفتاحاً وفتح الباب مطمئناً لوثوقه انه لا يوجد أحد في المنزل . فسأل الولد . اهنا محبوسة أمي ؟

– نعم يا بني وسوف تراها فاحذر ان تتكلم كي لا يستيقظ النيام .

وبعد ذاك مشوا في رواق طويل انتهوا منه الى باب الحجرة التي فيها الصندوق .

وأنار ويلتون شمعة كانت في جيبه وخاطب سوزان انظري الا ترين هذا الثقب الصغير في باب الغرفة ؟

— نعم . .

- هذا هو الثقب الذي يجب ان يمد رالف يده منه ويقطع الحبل .

- ٣٢ -

ولنعد الآن الى توماس الجن فإنه خرج من البنك بعد ان قبض منه الفي جنيه ، وعاد بها الى مكتبه فجعل يكتب رسائل الى عملائه اذ كان ذلك اليوم يوم السبت والبريد لا يشتغل يوم الأحد في بلاد الانكليز .

وقبل ان يفرغ من كتابة رسائله قرع باب مكتبه فأمر الطارق بالدخول دون ان ينهض من مجلسه ولكنه ما لبث ان رأى هذا الزائر حتى وثب من مكانه مضطرباً واسرع الى استقباله بملء الاحترام

وكان هذا الزائر رجلاً طويل القامة عليه مسحة من الشباب وهو براق العينين تبدو عليه مخائل النجابة والعزم الأكيد

وكانت ملابسه كلها سوداء مثل رجال الدين فقال له : انك لم تنتظر زيارتي يا مستر توماس .

- كلا يا سيدي لم يخطر لي في بال ان انال هذا الشرف

— ان الوقت غير متسع لي الان فلا اطيل المباحثة وادخل تواً في الموضوع انك اوقفت الكاهن صموئيل وهو لا يستطيع ان يعقد حفلة ٣٦ اكتوبر ، لكن سجنه لا يكفي لنجاح المهمة التي نخدمها ، وقد جاء الى لندرا اربعة رجال خطرهم عظيم على انكلترا وبحثوا بحثاً دقيقاً عن الكاهن فلم يظفروا به ، ولكن عيوننا لم تغفل عنهم فإن واحداً منهم قد سرق وهو قادم من اميركا الى لفربول

وكان معه حوالة على بنك همبري وشركاه غير ان هذه الحوالة قد سرقت

ايضاً فلم يبق له شيء من المال .

لكن احد عمالي كان يقفوه في الليل والنهار ، وقد اقنعه على الالتجاء اليك فهو سيحضر اليك غداً الأحد ويسألك ان تسلفه الف جنيه لميعاد شهر فتعطيه ثلاثة آلاف .

— احب ان اعطيه كل ما تأمرني به غير ان البنك اقفل الآن وليس لدي غير الف جنيه .

— لقد توقعت ذاك فأحضرت لك المال .

ثم اخذ محفظته من جيبه واخرج منها اوراقاً مالية بقيمة ثلاثة آلاف جنيه واعطاه اياها وقال · هذا كل ما اردت ان اقوله لك اليوم .

ثم تركه وانصرف .

فشيعه المرابي الى الباب بملء التعظيم والاحترام .

ولما اصبح وحده قال في نفسه هذه اول مرة اجتمع فيها لدي في منزلي خمسة آلاف جنيه فلا بد لي من مضاعفة الحذر والاحتياط . ثم خرج من مكتبه فركب مركبة وذهب بها الى المنزل .

وهناك دخل الى الحجرة التي وصفناها من بابها فوضع المال في الصندوق الحديدي ووضع البندقية في موضعها ، فربط زنادها بطرف حبل رفيع وربط الطرف الآخر بالباب بحيث اذا فتح الباب من الخارج اشتد الحبل واطلقت البندقية على فاتحه .

غير ان المرابي لم يقتصر هذه المرة على البندقية لكثرة ما كان لديه من الأموال فعمد الى احتياط آخر لم يكشفه ويلتون قبل الآن ، وهو انه كان لديه مدفع صغير من المدافع الرشاشة يضعه عندما يريد المبالغة في الحذر فوق الصندوق الحديدي .

ويربط زناده بحبل ويشد الحبل الى اعلى الباب بحيث لا يستطيع الناظر من نافذة الباب ان يراه ، بل يرى فقط حبل البندقية ، ولهذا خفي امره

على ويلتون .

فلما اتم وضع البندقية والمدفع واطمأن باله اراد الخروج ولكنه لم يخرج من الباب بل انه ازاح سريره قليلاً وضغط على لولب كان مستترا وراء السرير ففتح باب سري يؤدي الى سلم في جوف المنزل فخرج منه واقفله ثم نزل درجات السلم فانتهى منها الى باب سري آخر ففتحه فاذا هو بالحديقة فخرج منها الى الشارع وذهب منه الى المحطة .

ولما وصل اليها ذهب ليشتري تذكرة فسمع وهو يصعد السلم صوتاً يناديه فالتفت ورآه وعلم انه جوهان كالفرن وهو جندي السجن الذي ذهب بالكاهن اليه فقال له الجندي اني كنت ذاهباً الى مكتبك يا سيدي غير اني رأيتك داخلاً الى المحطة فأسرعت اليك

— ماذا تريد مني ؟

— إني آت اليك بالدين الذي كان على الكاهن الانندي

فاضطرب المرابي وقال : كيف دفع ومتى ومن أين جاؤه بالمال ؟

— لا أعلم ، ولكنه دفع منذ يومين فأطلق حاكم السجن سراحه وأمرني اليوم ان احضر لك المال .

ثم أعطاه أوراقاً مالية قيمتها مائتا جنيه وهو يعجب لما يراه من دلائل استياء المرابي وانقباض سحنته والعهد به انه لا يفرحه غير المال .

أما توماس فانه أخذ الأوراق ووضعها في جيبه ونظر في ساعته فقال في نفسه : لا يزال الوقت فسيحاً وليس من الحكمة أن أذهب إلى محلات اللهو والشراب ومعي مثل هذا المبلغ ، فلاعد به إلى البيت وأسافر في قطار آخر !..

وعند ذلك خرج من المحطة وسار عائداً إلى منزله ، وقبل أن يبلغ اليه رأى مركبة عند بابه فاضطرب وقال من عسى أن يكون في منزلي ؟

وأسرع في خطواته فرأى باب الحديقة مقفلاً والسائق نائماً في المركبة، ولم يجد أثراً للنور في البيت فقال في نفسه: لعل وقوف المركبة هنا من قبيل الاتفاق. ثم فتح باب الحديقة ودخل.



كان ويلتون وسوزان والصبي في المنزل حين دخل اليه المرابي وقد ذكرنا للقراء كيف دخلوا اليه .

وكان أول ما صنعه ويلتون انه نظر من نافذة الباب الصغيرة فرأى الحبل في مكانه وقال للصبي : ان امك في هذا المنزل كما قلت لك فإن شئت ان تراها وجب عليك أن تفعل كل ما أقوله لك .

— سأفعل كل ما تريد .

فحمله ويلتون وقال له : مد يدك من النافذة وابحث عن حبل متصل بها .

فمد الصبي يده وقال : قد عثرت بالحبل .

فأعطاه مقصاً وقال : قص الحبل بهذا المقص .

فامتثل الغلام وقص الحبل .

فأنزله ويلتون الى الأرض ، فأخذت سوزان بيده ووقفت معه إزاء الباب فنظر ويلتون من النافذة فرأى الحبل مقطوعاً ساقطاً إلى الأرض فاطمأن من البندقية وأخذ مفتاحاً من جيبه فوضعه في قفل الباب وأداره ، ثم جذب الباب اليه وخرج دوي هائل يشبه دوي الرعد القاصف واشترك بهذا الدوي صيحتان احداهما خرجت من صدر ذلك الغلام الصغير المنكود فسقط مضرجاً بدمائه ، والثاني من سوزان فانها أصيبت برصاصة بصدرها وكان ذلك دوي المدفع الرشاش .

أما ذلك اللص الأثيم فقد نجا من المدفع بأعجوبة فسلم الأثيم وأصيب البريء

وفي الوقت نفسه فتح باب الحديقة ، وكان الذي فتحه توماس الجن فلما بوغت بصوت المدفع حمل يصيح مستنجداً اذ ايقن ان المدفع لم ينطلق الا لمباغتة اللصوص .

أما ويلتون فلم ينتبه لصياح المرابي ، ولم يكترث لمصاب الغلام ولم يحفل بسرقة الأموال ، فلم يشغله غير تلك الخليلة التي رآها مضرجة بدمائها ، فان عواطف الحب الصادقة قد تتمكن حتى في نفوس اللصوص فاحتملها واسرع بها هارباً إلى الحديقة فابتدره توماس وقبض على عنقه وهو يقول : ايها اللص انك ستنال جزاءك .

وكان بين الاثنين عراك شديد في الظلام اسفر عن أن ويلتون طعن المرابي بخنجره في بطنه وهرب بسوزان وهي مغمى عليها أما ذلك الطفل المنكود فقد تركه صريعاً على الأرض وهو مصاب برصاصة في كتفه .

- ٣٣ -

وحمل ويلتون سوزان إلى المركبة وهو يكاد يجن اشفاقاً عليهاوامر السائق ان يسير فسار بهما إلى المنزل وهناك اطلق سراح السائق واخرجها من المركبة وهي لا تزال مغمياً عليها فأدركه وهو عند الباب صديق له يدعى كرفان فذعر لما رآه من اغماء سوزان واضطراب عشيقها فقال : ماذا حدث ؟

– حدث اني فشلت في مهمة أتأهب لها منذ عام واظنهم قتلوا لي هذه الحبيبة فانها جريحة .

وكان يقول هذا القول بصوت يتهدج من الاضطراب والاشفاق كمن يجهش بالبكاء ، فطيب كرافان خاطره وساعده على حملها إلى المنزل وقال ، اني كنت خادماً عند طبيب جراح فتعلمت منه بعض المبادىء .

وكانت سوزان مصابة برصاصتين إحداهما تحت الثدي الأيمن والثانية في العنق ، فلما وضعها ويلتون فوق السرير ورآها لا تتحرك جعل ينتف شعره ويلطم وجهه ويصيح ويلاه إنها قتيلة لا رجاء فيها .

ففحصها كرافان وقال : كلا انها مغمى عليها وليست جراحها خطرة انظر ان إحدى الرصاصتين أصابت ضلعاً والثانية لم تنل غير الجلد فهلم الآن نضمد الجرحين .

فأخذ هذان اللصان يمزقان ملابسهما ليضمدا بها الجراح ويمنعا نزف الدماء ثم خرج كرافان من المنزل وعاد مسرعاً بشيء من الخل فجعل يدعك به صدغيها فما طال بها الأمر حتى تنهدت ثم فتحت عينيها ورأت ويلتون وصاحت صيحة فرح وابتسمت له .

وجعل هذا اللص يبكي سروراً وقد أعاده الحب انساناً فأخذ يقبلها ويقول انك حية والحمدلله .

فقالت سوزان : اني أحمد الله لنجاتك أما أنا فقد دنت ساعتي .

ثم خطر لها خاطر فجائي فالتفتت إلى ما حولها وقالت : رباه أين الغلام؟

— لا أعلم حقيقة أمره لانصرافي الى الاهتمام بك فإما ان يكون قتيلاً أو هو جريح .

فاضطربت وقالت : لقد اخطأت يا ويلتون فإنك ستحمل تبعة دمه المسفوك ظلماً .

ثم جعلت تبكي ..

أما ويلتون فان وجهه تجهم عند ذكر الغلام وقال : اني اؤثر ان يكون قد مات كي لا يبوح بما علمه من امرنا .

فعادت المخاوف إلى سوزان وجزعت على حبيبها قائلة له : اني الآن بين يدي الموت كما قلت لك فودعني ايها الحبيب آخر وداع واهرب فان البوليس يبحث عنك دون شك .

– أانا أهرب وأودعك على ما انت فيه فاني اؤثر الف شنق على هـذا الغدر الذميم .

– يسرني أن اراك قبل موتي ، ولكن لي أخ بين الذين أحبهم أريـد أن أراه . .

– ألأنت لك أخ ؟

– نعم انه رجل فقير يكسب رزقه بشق النفس لأنه بقي شريفاً وأبى أن ينغمس في الاثام فلا ترفض طلبي بالله فهذا آخر ما اطلبه اليك .

– ولكن اين هو أخوك ؟

– انه يقيم في ديدلي ستريت وهو اسكافي . .

فتحمس كرافان لكلامها وقال لها : وماذا يدعى أخوك ؟

– جون كولدن .

– لقد عرفته اليس نمرة البيت المقيم فيه ٢٧ ؟

– هو بعينه .

– فقال له ويلتون : إذا كنت قد عرفته أيها الصديق فأرجوك ان تذهب اليه وتأتي به .

فامتثل كرافان ومضى وبقي ويلتون ينظر إلى سوزان نظرات اليأس .

فقالت له بلهجة المؤنب : لمـاذا ، ايها الحبيب لم تصغ الي وترد الغلام إلى أمه ؟

فغطى وجه بيديه وقال : هو القدر ايتها الحبيبة ولا حيلة برده .

ثم ركع أمام سريرها وخاض في عباب التصورات .

أما كرافان فانه سار تواً إلى شارع ديدلي ستريت ووقف عنــد البيت الذي نمرته ٣٧ ، وهناك أقبية تحت الأرض ينزل اليهـــا بسلم من الرصيف ، يشتغل فيها العمال ، فنزل كرافان إلى القبو فرأى صاحب دكان الأحـــذية ، وأمامه العمال يشتغلون فدنا منه وقال : اني ابحث عن جون كولد فقد قيل لي انه يشتغل عندك .

فامتعض وجه صاحب الدكان وأجابه . كلا انه ليس هنا .

— أين أستطيع ان اجده الآن ؟

فنظر اليه الرجل نظر المشفق وقال له : العله من أصدقائك ؟

— كلا ، لكني قادم اليه بمهمة .

وجعل العمال يتساءلون حين سمعوا اسم كولدن ويتكلمون همساً .

أما صاحب الدكان فانه نهض عن كرسيه إلى كرافان وقـــال له : اني لا أعرفة ، لكني أرى انك من الانكليز ، ويجب على الانكليز ان يتعـاونوا ، ولهذا وجبت علي نصيحتك فاعلم يا بني انك إذا كنت من أصدقاء جون كولدن فخير لك أن تقاطعه وتبتعد عنه .

— لماذا ؟

— لأنه ضل سواء السبيل وانضم الى اولئك الارلنـديين الذين دأبوا على كيد المكائد لبلادنا الحرة .

— اشكرك لنصحك ،لكني اتيته بمهمة كما قلت لك ومتى انهيتها لا أكترث لأمره ، بل أعين البوليس إذا انتدبني للقبض عليه ولكني في حاجة الى ان أراه وأرجوك ان ترشدني الى مكانه .

— اني طردته من دكاني حين علمت انه دخل في سلك تلك الجمعيـة السرية الارلندية التي تأتمر كل يوم بدولة الانكليز ، فهو لا يشتغل عندي منذ

ذلك العهد .

– لكن الا تعلم اين يقيم ؟

– رأيته عدة مرار يتردد إلى هذه الخمارة التي بازائنا .

فشكره كرافان وذهب تواً إلى الخمارة وجعل يقول في نفسه . اني لا أجد في نفسي ما يجده هذا الاسكافي من الغيرة على بلاده ويسرني وجود هذه الجمعية السرية فانها منذ تكاثر أعضاؤها انصرف البوليس عن الاهتمام باللصوص وتركنا نفعل ما نشاء .

قال هذا في نفسه وذهب إلى الخمارة فطلب كأس شراب وأجال نظره في الحاضرين فوقع على رجل لابس ملابس جديدة فأحدق به واخذ ينظر معجباً إلى ملابسه ويقول : اني اعرف هذا الشخص حق المعرفة ، لكني انكر ما اراه عليه من ظواهر النعمة فقد عهدته من أمثالي .

ثم دنا منه فوضع يده على كتفه قائلا : اي صديقنا شوكنج لقد اصبحت من اهل الثروة كما أرى فمن اين هذه النعمة ؟

فنظر شوكنج إلى محدثه ثم نظر إلى ملابسه نظرة ملؤها الكبرياء وقال : ان من جد وجد .

– لقد أحسنت البيان غير اني لا اجد فرقاً بين الشقاء والرخاء فانك على ما انت فيه من ظواهر الاثراء مفكر مهموم كمن حكم عليه بالشنق .

فتنهد شوكنج تنهداً طويلاً دون ان يجيب ولكنه نظر إلى الساعة المعلقة في الحائط نظر الجازع فقال له كرافان : العلك تنتظر أحداً ؟

– نعم ...

– وانا ايضاً فاني انتظر جوهن كولدن .

فدهش شوكنج وقال : من الذي تنتظره ؟

– جوهن كولدن .

– وانا ايضاً انتظر الشخص نفسه اليس ذلك بعجيب ؟

غير ان كرافان لم يتمكن من الرد فان باب الحمارة فتح عند ذلك ودخل منه كولدن فصاح الاثنان قائلين : هذا هو .

اما كولدن هذا فهو نفس الشخص الارلندي الفقير الذي رآه الرجل العبوس عند باب منزل فانوش وأدخله في سلك عصابته .

ولما دخل كولدن لم يكاترث لكرافان ودنا من شوكنج فقال له : اننا على وشك ان نجد الصبي فلقد قيل لنا ان امرأة وجدته يبكي عند باب احد المنازل فأخذته .

فانتبه كرافان للحديث وقال : العلكم تبحثون عن غلام ؟

فالتفت جوهن اليه وقال : اهذا انت ؟ ثم صافحه قائلاً نعم اننا نبحث عن غلام فقدناه .

– ما هي صفات هذا الغلام وعمره؟

– انه ارلندي اشقر جميل لا يزيد عمره عن عشرة اعوام .

– إذا كان هذا ما تقولون فأنا ارشدكم اليه ، الم تقل يا جوهن انه كان يبكي وان امرأة قد اخذته ؟

– نعم .

– إذاً ، اعلم ان هذه المرأة التي لقيت الصبي الارلندي هي أختك سوزان .

فصاح جوهن قائلاً : ليحمي الله ارلندا .

ثم احنى رأسه مكتئباً فلم ينتبه شوكنج لكآبته وقال : إذاً هلموا بنا إلى مكان الصبي .

وسار الثلاثة إلى منزل سوزان فكان كرافن يقول في نفسه : إني أتيت لأدعو أخا سوازن وليس من شأني ان أخبرهم بتفصيل ما جرى للغلام بل قد اخطأت بالحديث عنه .

وأما شوكنج فكان يتبعه ويقول في نفسه : إن الارلندية هربت من المنزل إذ لا ثقة لها بي ، وقد أصابت في شكها ، لأني كنت السبب في دخولها الى منزل فانوش ، ولكني سأرد لها غلامها الآن فأستعيض تلك الثقة ، وفوق ذلك فان الرجل العبوس يعود الى ثقته بي ، لأنه يحسبني الآن من البله .

وأما كولدن فكان يقول : ما عسى تريد مني أختي ، وأنا لم أرها منذ عهد ؟

وسار الثلاثة حتى اقتربوا من المنزل فتأبط كرافن ذراع كولدن وقال له : العلك لم تر أختك من أمد طويل؟

- نعم فإنها قد نهجت مناهج الضلال ، وقد أنكرتها حين رأيتها تخطر بثياب الحرير فان أبناء أبي لا يأكلون طعامهم إلا ممزوجاً بعرق الجبين ، وإذا كنت قد رضيت ان أتبعك اليها لأني أريد أرى هذا الغلام رجاء ان يكون هو الذي أبحث عنه .

- لا أظنك تجهل ان أختك تقيم مع رجل يدعى ويلتون .

- نعم أعرفه وهو من اللصوص .

- هو ما تقول وقد حدثت نكبة .

فاضطرب كولدن وقال : ما هذه النكبة ؟

- إن سوزان وويلتون حاولا سرقة منزل ، فخبط سعيهما وأصيبت سوزان بجراح .

فارتعد جوهان كولدن ، ونسي حياة أخته الأثيمة . فلم يذكر إلا أنها أخته . وأسرع في خطواته حتى بلغوا الى المنزل . فكان اول من دخل اليه وتبعه شوكنج ووقف على عتبة الباب وأجال في الحضور نظراً وقال : أين هو الصبي ؟

فتلفت ويلتون اليه ، ثم التفت الى كولدن وقال له : ماذا يريد هذا الرجل ؟

فأجابه شوكنج قائلا : إني أريد الولد .

– أي ولد هذا ؟

- الولد الذي وجدته امرأتك .

– إنك لا تراه فقد بات من الأموات .

فأن شوكنج والارلندية أنين الموجع وأمسك جوهان كولدن ذراع أخته وهزها بعنف وقال : لا أعلم إذا كانت جراحك خفيفة او كنت في خطر الموت ، وانك إذا أردت ان يعفو الله عن ذنوبك الماضية ، فأخبرينا أين هو الصبي ؟

فتوجعت سوزان واغرورقت عينيها بالدموع وردت : اني أنا وجدته اما ويلتون فأضاعه

فاضطرب شوكنج ودخل الى الحجرة وهو يقول : أضاع أيضاً ؟

ولم تجبه سوزان ، بل قالت لأخيها : العلك تعرف هذا الولد ؟

– نعم ألا يدعى هذا الولد الذي عثرت به رالف ؟

– نعم .

فقال لها بلهجة الوعيد : إذاً اخبرينا بما جرى له .

– لا أعلم حقيقة أمره ، فقد يكون قتيلا ، وقد يكون مجروحاً مثلي .

وعندها أخذت تعترف لأخيها وشوكنج بكل ما حدث دون ان يجسر

ويلتون على مقاطعتها ، حتى اذا انتهت من كلامها رأت دمعة تجول في عين أخيها وسمعته يقول لها: ويحك أيتها الشقية انك أضعت ارلندا بأسرها باضاعتك هذا الصبي .

— ارلندا ؟

— نعم ، إنك لا تعلمين أية نكبة نكبت بها وطنك وبلادك ، واعلمي أنه يجب عليك ان تخبرينا أين تركتيه ، فقد يكون جريحاً كما ترين .

— تركناه في كلدن ستريت في منزل توماس الجن المرابي .

فارتعد ويلتون خوفاً وقال : ماذا تفعلين يا سوزان أتريدين ان ترسليني الى المشنقة ؟

وكان شقيق سوزان ضخم الجثة ، قوي العضل ، فوقف أمام ويلتون وقال له : إذا كان الولد قد قتل ، فليس إقرار سوزان الذي سيرسلك الى الشنق ، بل هو في خنجري الذي يقذف بك الى هوة الأبد .

وحسبت سوزان ان عشيقها وأخاها سيختصمان فقالت لهما : بالله خليا الخصام فليس هذا وقته ودعاني أنظر اليكما النظر الأخير .

وكان كرافن قد خرج هنيهة من الحجرة ، فعاد عند ذلك مذعراً وهو يقول : قد أقبل رجال البوليس وهم كثيرون يا ويلتون . اسرع الى الفرار لأنهم ما جاءوا إلا للقبض عليك .

فقال ويلتون : يا للشقاء إن الولد لم يمت ، وقد باح لهم بأمري ، دون ريب .

وسمعه شوكنج يتكلم هذا الكلام ، فسر سروراً عظيماً ، وقال له : إذا كنت صادقاً فيما تقول ، أيها اللص الأثيم ، وكان الولد حياً صفحت عنك

أما ويلتون فلم يصغ اليه بل وثب من الغرفة لخوفه من البوليس وصعد درجات

السطح وهو لا يلوي من خوفه على أحد .

ولما بلغ السطح كان الجنود قد دخلوا الى الغرفة فتقدم رئيسهم وقال إننا نبحث عن شخص يدعى ويلتون .

فرد كرافن قائلاً : إن الطير قد هرب من القفص .

– وإننا نبحث ايضاً عن امرأة تدعى سوزان .

فأجابته سوزان ، بصوت يتهـــدج من الاضطراب ، قائلة : أنا هي يا سيدي .

وكان الجنود يعلمون ان كرافن من اللصوص . غير ان البوليس في بـلاد الانكليز لا يقبض على اللص الا حين يرتكب الجريمة ، فاقتصر على ان يأخـذه كشاهد فقط .

ولذلك سأله عما يعلم فقال له : إن شوكنج وجوهان كولدن أتيا الى الحجرة وسألا عن ولد أضاعاه .

فأكد رئيس الجنود ان الولد لا يزال حياً وانه مصاب بجرح خفيف .

وهنا ضمت سوزان يديها الى صدرها وقالت لرئيس الجنود: إنني انا وويلتون المجرمان وأما الصبي فهو بريء .

أما رئيس الجنود لم يحفل بكلامها وقال لها : لك ان تقولي ما تشائين. أما الولد فلا بد له ان يذهب الى سجن الطاحون ويقيم فيه الى ان يبلغ العشرين من عمره .

وهنا ارتعـدت فرائص شوكنج وجوهـان ، لأنهما كانا يعرفان هـذا السجن الهـائل ، الذي اخترعه الانكلـيز لتأديب السـارقين ، لأنهم يلقون فيه من العـذاب ما يـدل على ان الذين اخـترعوه لا أثر في قلوبهم للرحمة .

ولما تأكد رئيس الجنود ان كرافن لا يد له في هذه السرقة ، أذن له بالانصراف .

فانصرف باكياً بكاء الأطفال وهو يقول : ترى أيبقي العبوس هذا الطفل المنكود في ذلك السجن الهائل المخيف ؟

- ٣٦ -

ولنعد الآن الى منزل توماس الجن ، فانه عندمـــا دوى المدفع وسمع الجيران دويه ، فخافوا وحسبوا ان أنابيب الغاز قد انفجرت ، ولم يجسر أحد على الخروج ، بل فتحوا النوافذ وجعلوا ينظرون بعضهم الى بعض ويتساءلون .

ثم خرج بعضهم بعد ربع ساعة فكان قدوة لسواه واجتمععند باب الحديقة كثيرون ولم يجسر أحد على الدخول .

وبعد هنيهة أقبل البوليس وأخذ مصباحاً ودخل ، فتبعه الناس . وهناك رأوا ذلك المرابي طريحاً على الأرض يستغيث لفرط ما نزف من دمائه ، لأن خنجر ويلتون قد أصاب ضلوعه فأسال دمه غزيراً .

اما الجرح فلم يكن خطراً ، فنادوا على الفور طبيباً مجاوراً وحملوا توماس الى سريره ورأوا عند باب الغرفة ذلك الفتى المنكود مضرجاً بدمائه فحملوه الى غرفة توماس .

فصاح توماس قائلا حين رآه : هوذا واحد من اولئـــك اللصوص الذين حاولوا سرقتي .

غير ان الحضور تلقوا كلامه بالشك لما رأوه من حداثة عمر الولد وجماله النادر وهيئته التي تدل على السلام ، فنظر الطبيب جرح الولد ايضاً ورأى ان الرصاصة أصابت الجلد فقط

وكان الفتى عندئذ مغميــاً عليه ، فرد الطبيب صوابه اليــه بما شممه

من المنعشات . ولما فتح عينيه أجال بين الحضور نظراً حائراً مضطرباً ، وأخذ يبكي

وصرح بـه توماس يقـول : يا ربيب اللصوص !.. قـل من الذين كانوا معك .

فذعر الولد وتمادى في بكائه دون ان يجيب .

ولما رأى توماس انه لا يجيب ، وان الناس لا يعتقدون ان الولد شريك اللصوص ، أراهم النافذة الصغيرة في الباب ، وباح لهم بسر المدفع والبندقية ، وأراهم الحبل المقطوع .

وأثبت لهم ان الفتى مد يده من النافذة وقصه ، وان يد الرجل لا يمكن ان تدخل منها لضيقها .

أما رالف فقـد هاله ما سمعه ، واعـترف بما يعرفه ، وذكر اسـم ويلتون وسوزان .

ولما سمع البوليس اسم ويلتون عرفه ففرق الجميع واخذ رالف وهو يقاسي من خوفه ما يكابده من جرحه وسار به الى مركز البوليس .

فعجب مـأمور المركز لأمره ، وسألهم عن هـذا الولد ، فأخبروه بـما حدث له

فركع رالف أمامه وأقسم له انه غير لص .

أما المأمور فلم يحفل بكلامه وامر الكاتب ان يكتب ما يقول ، واخـذ يستنطقه . فأخبره رالف بامه وكيف أضـاعها ، وعن تلك المرأة التي سجنته في منزلها وكانت تضربه ، وكيف ان الارلندية وجدته ، إلى آخر ما علمه القراء .

وكان يتكلم بلهجة مؤثرة ، ولما أتم حديثه نظر المأمور في ساعته وقال للكاتب : اختم التقرير لأن الساعة قد بلغت العاشرة الآن ، وغداً يوم الأحد وهو يوم راحة .

ثم أمر السجان ان يذهب به الى السجن ، وان يعود به اليه يوم الاثنين .

فجعل رالف يبكي ويتوسل الى المأمور ان يطلق سراحه ويبحث عن امه ، غير انه لم يكترث له لاعتقاده انه لص ذكي تدرب على المهنة منذ حداثته وان الحكاية التي رواها ملفقة .

وكان طبيب البوليس واقفاً فقال للمأمور : ان هذا الفتى جريح ويحتاج الى عناية .

فأجابه بجفاء : لا بأس عليه سيشفى في الحبس .

ثم اخذ تقريراً كان أمامه عن رجل قتل امس ورأى فيه انهم يتهمون بقتله لصاً يدعى ويلتون ، وإذا كان قد سمع من رالف اسم ويلتون ، أمر فريقاً ليقبضوا عليه .

وقد عرف القراء كيف انهم كبسوا منزله وكيف فر منهم .

أما رالف فإن السجان دفعه بعنف الى سجنه المؤقت ، وهو يبكي وينتحب ، فرماه على فراش من القش لينام عليه ، والدم لا يزال يسيل من جرحه .

- ٣٧ -

لم تكد تدق الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي، حتى غصت كنيسة سانت جيل بالمصلين ومعظمهم بالملابس الرثة ، بل ان كثيرين منهم كانوا حفاة الأقدام مما يدل على شدة فقر الارلنديين

وكانوا خليطاً عظيماً من النساء والأولاد والرجال والشيوخ .

وإنما كانوا كثيرين في ذاك اليوم ، لما أشيع بينهم من ان كاهنهم صموئيل

قد زج في الحبس . وكانت عـــلائم الحزن والقلق بادية في وجوههم ، وكلهم ينتظرون بفارغ الصبر ، ان يفتح باب الهيكل ، لـيروا من الذي يخدم القداس .

ثم بدأت الصلاة والقلوب واجفـــة مضطربة ، وفتح باب الهيكل فصاح جميع الحضور صيحة فرح بصوت واحد لأنهم رأوا الأب صموئيل واقفاً بالباب .

وبدأ الأب صموئيل بالصلاة حتى إذا فرغ من تلاوة الانجيل وقف بباب الهيكل وقال يخاطب الناس :

أيها الأخوة .

في مثل هذه الساعة من يوم ٢٦ أكتوبر ، اي منذ أربعة أيام ، وكان موعد الاحتفال بقداس خاص،وكنا ننتظر قدوم اربعة من بلاد بعيدة لا يعرف بعضهم بعضاً ولكنهم مجموعون متعارفون في حب ارلندا وطننا العزيز وكان الاتفاق ان اكون انا واسطة التعارف بينهم .

وقد اتفق ما حال دون حضوري في ذاك اليوم ، فلا أعلم اذا كانوا قـــد حضروا فيه ثم لا أعلم إذا كان قد حضر أحد منهم اليوم فاذا كانوا قد جاءوا فليدخلوا إلى الهيكل بعد انتهاء القداس .

وبعد ان فرغ من خطبته أتم حفلة القداس .

وكان عند باب الهيكل امرأة راكعة تصلي ، وتذرف الدمع السخين ، وهي الارلندية والدة رالف ، الذي تركناه جريحاً ملقيـــاً في الحبس على فرشة من القش . وكان بالقرب منها رجل ينظر اليها نظرات الإشفاق وهو الرجل العبوس .

ولما انتهت الصلاة وتفرق الناس ، أخذ العبوس بيد الارلندية ودخل بها الى الهيكل ووقف أمام صموئيل .

ثم دخل في أثرهما رجلان واقتربا من الأب صموئيل ، وأظهرا له إشارات

سرية عرفها وأجـــابهما بمثلها ، ثم التفت الى العبوس وقال له : لم يحضر من الأربعة غير إثنين .

فأجابه الرجل العبوس قائـلا : إني سأعثر عليهما ، إذ لا بد ان يكونا في لندرا .

فاطمأن الأب صموئيل لحديثه وقال للاثنين : من اين أتيتما ؟

فقال أحدهما : من ايكوسيا .

وقال الآخر : من بلاد الغال .

فقال للايكوسي : كم رجل عندك ؟

– عشرون الفاً .

وسأل الآخر هذا السؤال ، فرد : ثلاثون الفاً .

فأطرق الرجل العبوس برأسه وقال : إن هذا العدد لا يكفي ، ولم يحن وقت العمل .

فقـال الايكوسي : ولكنه لا بـد ان يحين ، فأين هو الفتى الذي ننتظره ؟

فوضع الأب صموئيل يده فوق كتف الارلندية وقال : هذه أمه

فاصفر وجـه الايكوسي وقال : إني أراهـا تبكي ، فهـل أصيب الفتى بمكروه ؟

فرد صموئيل : نعم انه في قبضة أعدائنا .

فنظر العبوس نظرات متقـدة ، تكهرب الأجسام ، وقال : سأنقـذه من أيديهم .

فارتعش الرجلان لنظراته وقالا له : من أنت ؟

– إني مثلكما وأحد زعماء هذه المهمة النبيلة التي نخدمها .

فقال أحدهما : ما اسمك ؟

– لا اسم لي .

فبهت الرجلان لهذا الجواب الغريب ، وأخذ كل منهما ينظر الى الآخر ، فقال لهما العبوس : إني أنوب عن شخص مات شهيد ارلندا وقد تلقيت أوامره الأخيرة قبيل موته وكنت واقفاً تحت مشنقته .

فقالا : وهذا الشخص ماذا يدعى ؟

— فالتن .

فانحنى الرجلان احتراماً .

وعندها التفت العبوس الى الأب صموئيل وقال له : إنك أصبت بصلاتك اليوم صلاة الأموات عن نفوس الذين سيموتون إذ لا بد ان يسفك دم كثير قبل ان ننزع الغلام من أيدي المضطهدين الآثمين ؟

فارتعش الرجلان لكلامه ، ورفعت الارلندية عينيها الى السماء ، وهما مغرورقتان بالدموع ، وقال له صموئيل : سيكون شهداء ارلندا كثيرين ، وستسيل دماؤهم الزكية فتروي الأرض ، وإني أزودك ببركات الله وأرجو ان يحميك ويقيك .

وعندها تركهم العبوس وخرج من الكنيسة فلقي عند بابها شوكنج ينتظره لأنه قد عرف منه حوادث الأمس .

ولم يكن شوكنج كاثوليكياً ارلندياً فوقف عند باب الكنيسة ولم يشترك في الصلاة لأنه من شيعة البروتستانت .

وكان منذ اسبوع لا يكترث لأمور ارلندا ، ولا تهمه شؤون الارلنديين . فبات الآن كواحد منهم بعد أن عرف الارلندية والأب صموئيل ، وبحث عن الغلام ، ولا سيما بعد ان تعلق بخدمة هذا الشخص السري الذي يتنكر باسم الرجل العبوس .

ولما لقيه العبوس قال له : أفعلت كما قلت لك ؟

— نعم ، إن ويلتون قد قبض عليه ، وذلك انه صعد الى السطح كما أخبرتك أمس ولكنه لم يجسر على النزول منه ، لأن البيت كانت تطوقه

الجنود فاختبأ داخل أنبوبة المستوقد طول ليله .

وعند الصباح كانت الجنود لا تزال في الطريق ، ولكنه رأى نافذة قد فتحت أمام المستوقد ، وبرز منها لص يدعى جاك ، ويلقبه إخوانه بالعصفور الأزرق ، فقال لويلتون : اسرع بالخروج ، لقد عثرت على طريقة لإنقاذك .

فامتثل ويلتون وخرج من مخبأه .

وفيما هو ينزل درجات السلم أطبقت عليه الجنود ، وكانوا مختبئين في منزل فطوقوه وأسروه .

– يظهر ان جاك قد خانه .

– هو ذاك والسبب في هذه الخيانة ان جمعية اللصوص عقدت جلسة حين كان ويلتون مختبئاً فوق السطح فحكمت عليه .

– لماذا ولأي ذنب اقترفه ؟

– إنه سرق أخيراً منزلاً مع بعض زملائه ، فأخذ فوق نصيبه من القيمة اختلاساً ، أي انه سرق إخوانه . ولهذا قررت الجمعية تسليمه بدلاً من إنقاذه . وهذا سبب ما كان من خيانة العصفور الأزرق ، فانه خدعه بأمر الجمعية .

– ألم يدافع ويلتون عن نفسه حين طوقه الجنود ؟

– نعم ، فإنه دافع دفاع اليأس ، ولم يقبضوا عليه إلا بعد ان جرح اثنين منهم جراحاً خطرة ، ولذلك ساروا به تواً الى سجن نيوجات وسيشنق بعد اسبوعين

– وماذا حدث لعشيقته سوزان ؟

– إنهم لم يستطيعوا نقلها من غرفتها لفرط ما نزف من دمائها ، وقد قرر الطبيب انها لا تشفى قبل شهر ، فوضع البوليس حارساً على باب منزلها إلى ان تشفى .

– ومتى شفيت يذهبون بها إلى السجن ؟
– دون ريب إذا أراد اللصوص .
– كيف ذلك ؟
– هذا ما أخبرني به كرافان ، فإن جمعية اللصوص التي حكمت على ويلتون ستجتمع أيضاً وتنظر في أمر سوزان . وهم يختلفون بشأنها والأكثرية ترى انها غير مذنبة وإذا أجمعوا على تبرئتها أنقذوها .
– أينقذوها رغم البوليس ؟
– بل بملء إرادته ، لأن البوليس في هذا الشارع لا يفعل إلا ما يريده اللصوص .
فابتسم العبوس وظهر من هيئته كأنه يذكر أموراً بعيـــدة ثم التفت إلى شوكنج وقال له : أين جوهان كولدن ؟
– إني لم أره ، ولكنه يجب ان يكون قرب مركز بوليس كلبيرن يراقب الفتى .
فافتكر العبوس هنيهة ثم قال له : إصغ إلي الآن ، فإنك قد لا تراني عدة أيام فلا تقلق علي ، وانتظر هنا الى ان يخرج الأب صموئيل والارلندية فإنها اطمأنت الآن ، لأننا لم نخبرها بما حدث لولدها ، ووعدناها بارجاعه وهي واثقة بنا .
فقـال له شوكنج : أترى تصدق هـذه الوعود ، وينجو هذا الغلام المنكود ؟
فهز العبوس كتفيه وقال : إنك لا تزال ساذج القلب ، وكيف لا ينجو ؟ أتريد ان ندعه في ذاك الحبس المخيف ؟
– وكيف تمنع البوليس ان يدخله اليه ؟
فابتسم العبوس ولم يجب . وقال له شوكنج : لدي رأي ، أرجو أن يكون مصيباً .

– ما هو هذا الرأي ؟

– هو ان نحيط مركز البوليس بخمسين رجلاً من الأشداء فاذا خرجت الجنود برالف الى الحبس أطبقنا عليهم وأخذناه بالهجوم .

– إن رأيك في غاية السداد. ولكنه فاتك انه يوجد قرب مركز البوليس ثكنة غاصة بالجند ، إذا نفخ بالبوق أتوا زرافات ، ومزقونا برصاص بنادقهم كل ممزق .

– أصبت فلم تخطر لي هذه النكبة ، اما إذا دخل الفتى الى حبس الطاحون فكيف تخرجه منه ؟

– ذاك موكول لي ، وسوف ترى . فابق هنا الى أن يخرج الأب ، صموئيل والارلندية ، واحرص عليها كل الحرص ، فقد وكلت حراستها اليك .

ثم تركه وسار الى الى الشارع الكبير ، وركب مركبة وأمر سائقها أن يسير به الى شارع بال مال ، وهو شارع عظيم لا يقيم فيه غير النبلاء .

فسارت المركبة وجعل العبوس يقول في نفسه : لقد مضى عهد طويل دون ان أعود الى المنزل فماذا عسى ان تقول عني صاحبته ؟

ولما وصلت المركبة الى ذاك الشارع ، أوقفها عند باب منزل فخم وخرج ودفع اجرة السائق ، وأخذ مفتاحاً من جيبه ففتح الباب ودخل . فكان السائق ينظر معجباً الى ملابسه الرثة ويقول : ماذا يصنع هذا الفقير في منازل اللوردية ؟

وبعد ساعة خرج الرجل العبوس من هذا المنزل ، وهو لابس خير الملابس وقد امتطى جواداً من أفضل الجياد ، وخرج وراءه خادم على جواد آخر .

وكان في قرب ذلك المنزل بائع كتب رأى الرجل العبوس حين دخل بملابسه الرثة . فأنكر دخوله وظن فيه الظنون . ثم رآه خرج وهو على أفخر ما يكون من الهندام والتأنق فحار في أمره وراح ينظر اليه مندهلاً حتى ابتعد عنه ولم يعد يراه .

أما العبوس فانه سار يتبعه خادمه فقطع شارع بال مال إلى جمس ستريت ثم إلى بيكاديللي وذهب منها إلى هايدبارك .

وكانت الساعة العاشرة صباحاً وقد كثر المتنزهون من رجال ونساء ، ومعظمهم يمتطون الجياد .

فما سار هنيهة في أروقة ذلك البستان الكبير حتى رأى فتاة مقبلة على فرسها ورائه فالتقى النظران واتقدا اتقاد السلاح المصقول أصابته أشعة الشمس ، فصرخت الفتاة مذعورة : هذا هو .

وقال العبوس : هذه هي مس الن .

وكانت مس الن ، إبنة اللورد بالمير ، تسير يتبعها خادم عجوز . ولما رأت ان الرجل العبوس قد تجاسر وحياها غضبت غضباً عظيماً والتفتت إلى خادمها واشارت اليه أن يوافيها فلما دنا منها وقالت له : أرأيت هذا الشخص الذي حياني ؟

— نعم .

— أريد ان تتبعه الليل والنهار وتلازمه ملازمة ظله ولا تعود إلي إلا بعد ان تعرف اسمه واين يقيم .

فانحنى الخادم ممتثلا وسار في أثر العبوس .

أما هو فلما رآها تكلم خادمها أدرك قصدها فقال في نفسه · إن خادمك لن يقضي المهمة التي انتدبته اليها .

ثم فك أزرار ثوبه واخرج من جيبه دفتر ، فانتزع منه ورقة وكتب عليها ما يأتي :

« يظهر يا مس ألان انك تريدين ان تعرفي من أنا إطمئني فسأتشرف باخبارك عما ترغبين الوقوف عليه بنفسي في الليلة القادمة عند نصف الليل » .

« خادمك المطيع »

(المجهول)

ولما فرغ من الكتابة طوى الورقة ونادى خادمه فقال له : اسرع بادراك تلك الفتاة وأعطها هذه الورقة .

فأخذها الخادم وقال له : اين القاك يا سيدي بعدها ؟

ــ لست محتاجاً اليك فاذهب بعد إعطائها الرسالة الى المنزل .

ثم افترق الاثنان وذهب الخادم الى الفتاة وسار العبوس يتنزه وخادم مس ألان يتبعه كيفما سار .

وظل العبوس يسير من مكان إلى مكان وهو يهزأ بالخادم الذي يتبعه ، حتى انتهى إلى غدير يفصل بين طريقين حرم البوليس على الفرسان قطعه . ولكن العبوس لم يحفل بهذا المنع ، فبحث عن أضيق مكان في الغدير ، ولكز بطن فرسه فوثب به من ضفة إلى ضفة وجرى في الطريق الآخر يسابق الرياح .

وكان الخادم العجوز يبعد عنه عدة أمتار فأسرع في أثره وأراد الاقتداء به فجمح جواده وأبى الوثوب ، فكان بين الفرس والفارس نزاع قوي أسفر عن انتصار الفارس ، فوثب الجواد كما اراد راكبه . ولكنه لم يتمكن من اجتياز الغدير فبلغت يداه الضفة ، ولكن رجليه سقطتا في المياه ، فانقلب

الخادم الى الأرض . وأسرع اليه البوليس كي يغرمه بالجزاء المفروض على الذي يجتاز النهر . فلم يكد ينتهي الخادم من نقاشه مع البوليس ، حتى رأى ان العبوس قد احتجب عن الأنظار . فعاد الى مولاته بالخيبة والخذلان .

اما الرجل العبوس فإنه واصل سيره آمناً ، وهو يقول في نفسه : لأذهب الآن الى مركز البوليس كيلبرن علي اعثر على طريقة لانقاذ الفتى قبل إرساله الى الحبس .



ان مراكز البوليس في لندرا تشبه مراكزه في مصر ، غير ان الفرق بينهما انه يبقى في كل مركز قاض دائم يحق التبرئة والحكم وإطلاق المسجونين . وكان رئيس هذا المركز قاضياً شريف الأخلاق حاد الطباع ، لكنه كان عاقلاً خبيراً شديد الوطأة على اللصوص حتى انه كاد يقطع دابرهم .

وكان له ابنة يحبها حباً عظيماً ، لا يلين فؤاده القاسي غير صوتها الحنون . وقد كان ذلك اليوم يوم احد وهو يوم يرتاح فيه القضاة فلا يشتغلون ، فكان هذا القاضي يراجع في منزله بعض المذكرات وبيته فوق مركز البوليس .

وفيما هو منهمك في تلاوتها فتح باب غرفته ودخلت منه ابنته فانقطع عن القراءة وابتسم لها قائلاً : ماذا تريدين يا ابنتي ؟

– اني أراك منهمكاً في الأشغال اتشتغل يوم الأحد ؟

– ذلك لا بد منه اذ يجب علي ان اضع تقريراً لحادثة الأمس .

– وانا قد اتيت ايضاً لأحادثك في هذا الشأن ، وأتمنى ان لا تؤنبني يا ابي ؟

فقال لها بلهجة حنو : متى كنت أؤنبك يا ابنتي قولي ما تشائين . ثم شدها نحوه وقبلها بجبينها .

– ان طبيب المركز قد جاء الآن .

– ماذا يريد العله أتى من أجل هذا الولد الجريح ؟

– نعم يا أبي فقد أتى يسألني ضماداً لجرح الولد المنكود ، أعطيته وساعدته على ضمد جراحه ولكني واثقة يا أبي من براءة هذا الصغير .

– أتظنين أنه بريء ؟

– بل اؤكد وقد قص علينا حكايته وهي تؤثر بالجماد .

فهز القاضي كتفيه دون أن يجيبها وانصرف عن محادثتها الى النظر في تقرير كان أمامه فما أتم تلاوته حتى أرتعش وقال : ما هذا ؟

فلم تجسر الفتاة على محادثة ابيها بشأن الولد بعد ما رأت اضطرابه ولكنه هو افتتح الحديث بشأنه ، فقال لها : تقولين ان الولد قص عليك حكايته ماذا قال لك ؟

– يقول انه أتى الى لندرا منذ أربعة ايام فقط مع امه وانه ارلندي وأمه تدعى حنة وان امرأتين فصلتاه عن امه وحبستاه في بيت له حديقة فهرب من هذا البيت راجياً إن يلقي امه وصار يركض في شوارع لندرا وهو لا يعلم أين يسير حتى عثرت به امرأة تدعى سوزان فسارت به الى دارها ووعدته ان تجمعه بأمه في الغد .

فضرب القاضي يده على المذكرة التي قرأها وقال . ما هذا الاتفاق الغريب أنظري هذه المذكرة فقد أرسلها لي الآن معاون بوليس مالبورج وأظنها خاصة بهذا الولد فاقرئيها ..

تناولت الفتاة المذكرة وقرأت ما يأتي :

« في صباح اليوم أتى الى مركزنا اللورد بالمير ، أحد أعضاء المجلس الأعلى، وقال لنا أن ولداً ارلندياً يدعى رالف وعمره عشرة أعوام سرقته امرأتان

وأخذتاه الى بيت في همستاد ، ففـافل الولد المرأتين وهرب من البيت ، ولا بد أن يكون تاه في شوارع لنـدرا ، وأن البوليس حجر عليه كما يحجر على المتشردين .

وان اللورد بالمير يهتم بهذا الولد كل الاهتمام ويطلب أن يرد اليه على عهدته ثم انه وضع جائزة قدرها الف جنيه يمنحها لمن يرد اليه الولد » .

فرحت الفتاة فرحاً عظيماً وقالت : لا شك ان الولد هو الذي يطلبه ، وانك سترده اليه أليس كذلك يا أبي ؟

– ان الأمر مستحيل لأن الولد قد اشترك بسرقة ويجب على اللورد بالمير ان يحضر غداً بنفسه ويطلبه مني .

– لا بأس فسيطلق سراحه في كل حال وهذا ما أتمناه ، ولكن ألا يجب أن نخبر اللورد بأمره ؟

– لقد أصبت يا ابنتي وسأذهب بنفسي واخبره .

ثم قام فلبس قبعته وقـال : اني ذاهب إلى منزل اللورد ، وقـد أغيب ساعة ، فاذا حدث أمر بغيـابي فأدعي سكرتيري المستر توب ، ولكن أكتبي المذكرات بيـدك فاني لم اجد اجهل من هذا السكرتير على طول عهده بالخدمة .

ثم خرج وهو يقول في نفسه ، ما أجمل هذا الاتفاق فسأقبض الجائزة وهي تبلغ قيمة راتبي عن عشرة اعوام فأجعلها مهراً لأبنتي ؟

وعادت الفتاة الى غرفتها ، ولم يطل جلوسها حتى سمعت وقع حوافر جواد في الشارع ، فأطلت من الشبـاك فرأت فارساً جميلاً نزل عن حصانه عند باب المركز فاعطاه لأحد الغلمان ودخل الى المركز ، وكان هذا الفارس الرجل العبوس .

ولنذكر الآن من أين جاء الرجل العبوس قبل ان ندخل بأذهان القراء معه إلى مركز البوليس فإنه حين تخلص من مراقبة خـادم مس الن ذهب تواً إلى منزل توماس الجن ذلك المرابي الجريح فوجد الناس مزدحمين عند باب الحديقة يتحدثون بحادثة الأمس وكل منهم يرويها رواية مختلفة .

وكان جميع سكان ذلك الشارع يعرفون ذاك المرابي المحتال فما وجد بينهم من أشفق لنكبته بل كان بعضهم يأسفون لعدم فوز اللصوص .

وقد حاول بعض الجيران ان يعودوه ، ليس إشفاقاً عليه بل من قبيـل الفضول ، غير ان المرابي اتى بممرضة في الليلة وامرها أن لا تأذن لأحـد بالدخول اليه .

فلما وصل الرجل العبوس ورأى الناس جمال فرسه وملابسه ، ما شككوا انه من كبار النبلاء ، ثم رأوه قد اختلط بفريق منهم وسألهم عن سبب تجمعهم فحكوا له ما حدث لتوماس وكيف أنهم سمعوا دوي المدفع ، فأظهر عجبـاً شديداً وقال لهم : اني من أهل الشذوذ والفضول وقد تعودت أن أقيـد في دفتري جميع الجرائم الكبرى التي تحدث في لندرا ولا بـد لي من أن أرى هذا الرجل .

وان أهل الشذوذ كثيرون في بلاد الانكليز بين نبلائهم ، حتى ان الشذوذ يكاد يكون خاصة بهم ، لذلك تلقى الجمهور كلامه بالارتياح ، فأخذ العبوس دفتراً من حقيبته وأخذ يكتب فيه اجوبة الأسئلة التي كان يلقيها على الحضور حتى إذا فرغ من الأسئلة قال اني أريد أن أرى هذا المرابي .

فقال له أحدهم : لا سبيل يا سيدي اللورد إلى رؤيته فإنه لا يؤذن لأحد بالدخول ..

– لكنه يأذن لي .

ثم ترجل عن فرسه ودفعه لأحد الحاضرين وتقدم من باب المنزل وقرعه .
وبعد حين أتت الخادمة فقال لها : قولي لسيدك أن لورداً نبيلاً يريد أن يرى منزلك ويدفع مقابل ذلك عشرة جنيهات .

ودهشت الخادمة لهذا الكرم وعادت الى توماس لتخبره .
والعادة عند الانكليز انهم يتراهنون على كل ما يحتمل الرهان ويغتنمون كل فرصة لفرط ولوعهم بالمراهنة ، فلما رأوا الخادمة عادت إلى سيدها لتستأذن الرجل بالدخول حمي وطيس المراهنة بين القـــائلين بقبول توماس بادخاله والقائلين برفضه ووقفوا ينتظرون عودة الخادمة
ثم عادت الخادمة فتطاولت اليها الأعناق وسمعوها تقول له : تفضـــل يا سيدي .

فاسودة وجوه وابيضت، أخرى ودخل الرجل العبوس الى المـنزل ورأى المرابي مضطجعاً في سريره .
وعند ذاك طلب اليه أن يريه المدفع وأراه اياه وأخبره بطريقة وضعه ثم أخبره بكل ما حدث في تلك الليلة حتى إذا وصل بحكايته إلى الغلام الارلندي سأله العبوس : أين هو الغلام ؟
— في السجن .
— في أي سجن ؟
— في سجن مركز كلبورن .
— إذن أريد أن أراه وإني ادفع لذلك عشرة جنيهات أيضاً .
فطمع المرابي بالمال وقال : ان للقاضي صديق لي فهو لا يرفض طلـبي إذا طلبت منه أن يأذن لك بمشاهدة الغلام .
-- إذاً اكتب لي كتاب توصية فاني أدعى اللورد كورنهيل .
فكتب المرابي ذلك الكتاب إلى القاضي ثم قبض المــال من العبوس وهو يتنهد بشراً .

أما العبوس فانه أخـذ الكتاب وودع المرابي وخرج ، فلما وصل إلى باب الحديقة ، رأى الخادمة تجادل شخصاً يريد الدخول لمقابلة توماس وهي تأبى إدخاله قائلة انه مريض لا يستطيع مقابلة أحد ، ولما رأى انه لا حيلة معهـا قال لها : قولي لسيدك اني غريب قادم من اميركا .

ولما سمع الرجل العبوس وارتعش ثم أحدق به وقال : اتتكلم الفرنسية يا سيدي ؟

فرد الأميركي بتلك اللغة

وفي خلال ذلك أشار العبوس بسرعة تلك الاشارات السرية الخاصة بزعماء الارلنديين فاندهل الأميركي ورد بمثل إشارته فقال العبوس بالفرنسية : إذاً أنت هو الشخص الذي ننتظر قدومه من اميركا فهلم بنا إذ لم يبق لك حـاجة بالدخول إلى هذا المرابي المحتال فقد أنقذتك يد الاتفاق من شراكه .

– ٤٠ –

وسار الاثنان إلى مركز البوليس فلمـا وصلا اليه وقف الأميركي بعيداً وترجل العبوس عن فرسه ودنا من الباب وطرقه .

وكانت ابنة القاضي قد رأته من النافذة وأعجبت به كما تقـدم فلم تنادي السكرتير بل قامت بنفسها وفتحت الباب فحياها العبوس أحسن تحية وقال لها اني اخشى يا سيدتي أن أكون مخطئاً إذ لا يمكن أن تكون فتاة لها ما لك من الجمال وهي تفتح أبواب السجون .

فسرت الفتاة لهذا الثناء ورأت عليه ظواهر النبلاء فقالت : إلى اين أنت ذاهب يا سيدي الميلورد ؟

– إلى مركز بوليس كليبرن

لقد وصلت فهذا هو المركز وما أنت بمخطىء .

– اني أريد أن أرى القاضي ؟

– هو ابي .

– لا شك يا سيدتي ان أباك كثير العجب والافتخار بهذا الجمال الباهر .

فاحمر وجه الفتاة وأطرقت بنظرها إلى الأرض فقال لها : لدي كتاب يا سيدتي لأبيك من المستر توماس الجن .

– أهو ذلك المرابي الذي كادوا يقتلونه ليلة امس ؟

– هو بعينه فاسمحي لي يا سيدتي أن أخبرك من أنا فاني أدعى اللورد كورنهيل وأنا مولع منذ أعوام بجميع تواريخ الجرائم وتفاصيلها فبات لدي منها مجموعة نفيسة .

– ولكن ابي غائب الآن .

فظهرت على العبوس علائم الاستياء غير ان الفتاة استدركت فقالت : إنه يحق لي يا سيدي أن أفتح رسائل أبي ، لقد خولني هذا الحق .

– إذاً خذي واقرئي يا سيدتي .

وأعطاها كتاب التوصية ففضته وقرأت ما فيه ثم قالت : إذاً يجب أن أدعو مستر توبي .

– من هو ؟

– إنه سكرتير أبي فانه يقرأ التوراة في غرفته .

ثم وقفت في باب غرفتها ونادت السكرتير فرد عليها .

وعادت إلى العبوس وقالت : إنك لو رأيت يا سيدي الميلورد هذا الغلام المنكود لأشفقت عليه كل الشفقة فإنه يشبه الملائكة وقد أخطأ المستر توماس باتهامه لأنه بريء دون شك كما اتضح لي من حكايته .

– العله قص عليك أمره ؟

– نعم يا سيدي وقصته محزنة .

- حبذا يا سيدتي لو حكيتها لي فأكتبها في دفتري .

-- حباً وكرامة .

ثم قصت عليه كل ما علمته من امر الغلام حتى إذا أتمت حكايتها قالت : لكني أظن أنهم سينقذونه غداً .

– من الذي ينقذه ؟

– شخص نبيل من اللوردية طلبه من المركز .

فارتعش العبوس وقال : اتعرفين اسم هذا اللورد ؟

– نعم فإنه يدعى اللورد بالمير ثم حكت له كل ما علمته من أبيها عن ذاك اللورد ، وعندها اقبل سكرتير ابيها فقالت له : اليس مفتاح السجن معك يا مستر توبي ؟

-- دون شك .

– إذاً أعرفك باللود كورنهيل فانه واسع الثروة شديد الولع بجمع أخبار الجرائم ، وهو يريد ان يرى الغلام الارلندي السجين .

– إن ذلك محال يا سيدتي ..

– لماذا ؟

- لأن المستر بوث ...

– ألا تعلم أن المستر بوث هو أبي ؟

– لا أنكر ذلك ..

– ألا تعلم أنه يستحسن كل ما أفعله ؟

– لا انكر أيضاً يا سيدتي ما تقولين ، ولكنه .

– حسناً ، ماذا ؟

واضطرب السكرتير قائلاً : لكني أخشى أن يكون حضرة الميلورد يريد إنقاذ الغلام .

وضحك الرجل العبوس واستاءت الفتاة من السكرتير وقالت للعبوس :

أرجوك يا سيدي أن تعذره فما اخطأ أبي بتلقيبه بالأبله .

وتألم السكرتير من كلامها وكان يهواها وهي تهزأ به فقال لها : أنت يا سيدتي صاحبة الأمر فمريني أطع ولو دعت هذه الطاعة إلى طردي .

ـ إذاً لا أحملك هذه التبعة فهات المفتاح

وتنهد السكرتير وأعطاها مفتاح السجن فأخذته منه وقالت للرجل العبوس : تفضل يا حضرة الميلورد فاني أفتح لك السجن

ـ وهل أرى الغلام ؟

ـ دون شك فانه سجين فيه .

ثم مشت أمامه فأخرج الرجل العبوس ورقة مالية من جيبه واعطاها للسكرتير وذهب في اثر ابنة القاضي ..

ـ ٤١ ـ

ووصلا إلى الباب الأول وهو مصفح بالحديد ، ففتحته الفتاة وتقدمت إلى الرجل العبوس وبيدها مصباح فاستوقفها العبوس وكتب في دفتره مذكرة عن الباب الحديدي .

وابتسمت الفتاة لما رأته من غريب أخلاقه ونزلت امامه سلماً طويلاً يبلغ ثلاثين درجة ، وهناك انتهت إلى باب حديدي آخر ، اشد كثافة من الأول ، فتوجع العبوس للغلام المنكود وقال في نفسه : يا ويحهم انهم زجوه في أعماق السجون كما يسجنون من يحكم عليه بالإعدام .

وفتحت الفتاة الباب ودخلت إلى دهليز طويل مظلم وتبعها وقلبه يخفق اشفاقاً على هذا الغلام الصغير الذي قدر له أن يبيت جريحاً في الحبس ويؤخذ بجريرة اللصوص .

وبعد ان مشيا في الرواق المظلم بضع خطوات سمع الفتاة تقول : لا تخف هذا انا .

ونظر العبوس ورأى الغلام المسكين منطرحاً على فراش من القش ونسي الدور الذي يمثله واغرورقت عيناه بالدموع .

اما رالف فانه لما سمع صوت الفتاة انس به ، لأنها هي التي ضمدت جراحه مع الطبيب .

فقالت له : الا تزال تتألم ؟

– قليلاً يا سيدتي ولكني شديد الظمأ .

ثم نظر اليها نظرة الملتمس وقال لها : إنك كريمة يا سيدتي كما ظهر لي منك فلماذا لا تخرجيني من هذا الحبس المظلم وتدعيني ابحث عن امي ؟

وعندها دنا الرجل العبوس من الفتاة وسألها : اتسمحين لي يا سيدتي ان اكلم هذا الفتى بلغة بلاده ؟

فابتسمت الفتاة وقالت : اليست لغة الارلنديين والانكليز واحدة ؟

– هو ذاك ، ولكن للارلنديين لغات خاصة تتكلم بها عامتهم فهل تأذنين لي ان اكلمه بها .

– إفعل ..

ولم يكد العبوس يفوه بالكلمة الأولى حتى صاح الغلام صيحة دهش واصغى إلى الحديث كل الاصغاء .

وقال له بتلك اللغة التي لا تفهمها الفتاة : إعلم يا بني إني صديق لأمك التي تبحث عنك وتبكي لبعادك ، ولكني سأردك اليها فاصغي الي الآن .

وكان رالف قد الف هذه الوعود حتى لم يعد يصدقها ، لكنه حين سمع الرجل يكلمه بلغة قومه وثق به .

وجعل الرجل العبوس يحدثه عن امه وجميع ما حدث له منذ قدومه إلى لندرا والفتى مصغ اليه إلى ان اتم حديثه فقال : يجب عليك ان تكون

رجلاً وان تكترث بالصعاب فانهم سيحاكمونك غــداً لأنك كنت شريك سوزان وويلتون .

وبكى الفتى وقال : اقسم لك بأني لم اكن عالماً بما كانوا يريدونه مني .

– اني واثق يا بني من براءتك ، لكن القضاة لا يصدقون ما تقول .

فقال رالف بلهجة اليأس : رباه إذاً ايبقونني في الحبس ؟

– نعم وسينقلونك إلى حبس آخر ، وعند ذلك اخلصك من الحبس ،لذلك يجب عليك ان تصبر إلى غد ..

- وامي الا اراها ؟

– ستراها غداً دون شك .

– اتعدني وعداً اكيداً يا سيدي ؟

– بل اقسم لك يا بني فاطمئن ..

وعند ذلك التفت إلى الفتاة وقال لهـا : لقد ازعجتك يا سيدتي بحديث لم تفهميه .

– ولكن ماذا قلت له ؟

– اخبرته انه سيحضر لورد من النبلاء فينقذه من الحبس ويرده إلى امه .

وهنا عاد إلى محادثة رالف بلغة قومه فقال : إذا كنت تريد ان ترى امك يا بني فاحرص ان تفوه بكلمة مما قلته لك للفتاة .

فابتسم الفتى ابتسام رحل وقال : لا تخف فلا ابوح بحرف .

ثم تمدد على فراش القش الذي خصص له وعند ذلك خرجت الفتــاة من الحبس وتبعها الرجل العبوس .

وبعد هنيهة كان العبوس يمتطي فرسه ويقول : هوذا المعركة قد نشبت بيني وبين اللورد بالمير وابنته والنصر بيد الله يؤتيه من يشاء .

ثم ذهب لمقابلة الأميركي الذي كان ينتظره في منعطف الشارع .

يوجد في لندرا كثير من عصابات اللصوص كل عصابة مستقلة عن سواهـا غير ان جميع تلك العصابات خاضعة لجمعية واحدة .

ولتلك الجمعية مكان سري تحت الأرض يجتمع فيه اعضاؤها عند الاقتضاء وهي مثل المحاكم المنظمة فيها قضاة ومحامون ومنفذون للاحكام الصادرة منها ولها قانون منظم لا يحيدون عن بنوده فاذا اتهم احد اللصوص بخيانة عرضت خيانته على محكمة الجمعية فاذا صدر الحكم عليه بالاعدام خنقوه في منزله في ليلة حالكة الأديم والقوه مكتوف اليدين والرجلين في نهر التيمس او غير ذلك مما يختارونه من انواع القتل .

وقد كانت جلسة تلك الجمعية معقودة في تلك الليلة ، للحكم غيـابياً على سوزان فان اسمها كان مسجلا بدفتر اللصوص ، وكانت جريحة لا تستطيع الحضور .

فلما التئمت الجلسة قال الرئيس : هل تكامل عدد الأعضاء ؟

فعدهم الحاجب وقال : نعم فانهم اثنا عشر .

– اين الشاكي ؟

فتقدم لص منهم وقال : انا هو ..

وكان ذلك اللص الذي يلقبونه بالعصفور الأزرق .

فقال الرئيس : واين المحامي ؟

فتقدم كرافان صديق ويلتون وسوزان وقال : انا ..

فالتفت الرئيس إلى الأول وقال : تكلم .

فأخذ العصفور الأزرق يثبت للقضاة ان سوزان كانت شريكة لويلتون ، وان ويلتون قد سرق مع عصابته أحد المنازل ، فخص نفسه اختلاساً بالقسم الأكبر من القيمة . ولما كانت محكمة اللصوص قد حكمت على ويلتون بتسليمه إلى البوليس . ثم لما كانت سوزان شريكته بالجريمة ، فهو يلتمس من المحكمة إبقاء هذه المرأة بين أيدي الجنود الذين يخفرونها وعدم السعي في إنقاذها .

ولما فرغ من كلامه أذن الرئيس للمحامي أن يتكلم ، فأثبت كرافان للقضاة أن سوزان لم تكن شريكة لويلتون في جرائمه ، بل كانت له خليلة صادقة خاضعة .

وبعد ان أيد بالبرهان ان ويلتون لم يكن يطلعها على أسراره وإنها لم يكن لها علم بخديعة ويلتون لرفاقه ، طلب من المحكمة تبرئتها والسعي في إنقاذها من الجنود المحيطة بمنزلها .

وبعد ان سمع الرئيس أقوال الخصم والمحامي اختلى بالأعضاء فتداول معهم ملياً ثم أصدر حكمه ببراءة سوزان وبضرورة مساعدتها وإنقاذها .

وفيما هم يتداولون في اختيار طريقة صالحة لإنقاذها سمعوا وقع أقدام على سلم المغارة التي كانوا يجتمعون فيها فذعروا لأنهم لم يكونوا بانتظار احد ووضع كل يده على خنجره .

ثم دخل هذا الزائر الجديد فهموا بالهجوم عليه ، غير ان العصفور الأزرق صاح بهم قائلاً . لا تفعلوا فهو منا .

فرد الزائر قائلاً : دون ريب .

ثم تقدم مبتسماً الى وسط الحلقة وكان هذا الزائر الرجل العبوس .

وكان العبوس مرتدياً تلك الملابس التي كان يلبسها حين ذهابه الى الخمارة السوداء ولم يكن يعرفه بين اولئك اللصوص المجتمعين غير العصفور الأزرق لأنه كان يراه في تلك الخمارة .

وكان اللصوص يحترمون العصفور الأزرق لاشتهاره بينهم ، فلم تؤثر عليه خسارة قضيته على سوزان ووثقوا بما قاله لهم عن العبوس . فمشى العبوس اليهم بقدم ثابتة وأجال بينهم تلك النظرات الجاذبة . وكان اللصوص ينظرون إليه معجبين بإقدامه خاضعين لنظراته .

وإن للصوص لندرا لغة اصطلاحية كسائر اللصوص ، فتقدم العبوس من العصفور الأزرق وصافحه شاكراً ثم التفت الى جمعية اللصوص وخاطب أعضاءها بلغتهم الاصطلاحية فقال: إعلموا أيها الأصدقاء إني قد نهجت قديماً في مناهجكم وامتهنت مهنتكم ، وإذا كنت اليوم قد اتخذت غير هذه المهنة ، فذاك لأني لقيتها أفضل .

فحدث ضجيج بين اولئك اللصوص وظهرت عليهم ظواهر الانذهال إذ لا يعتقدون أنه يوجد مهنة تفضل مهنة اللصوصية .

وعاد العبوس الى الحديث وقال للرئيس : إنكم حاكمتم سوزان ، أليس كذلك ؟

— نعم . .

— وحكمتم بضرورة إنقاذها ؟

— دون ريب .

فنظر اليه كرافان نظرة ارتياب وقال له : العلك تريد الاعتراض على هذا الحكم ؟

— معاذ الله إني أحب هذه المرأة وإنما أتيت اليكم من أجلها .

ثم التفت الى الرئيس وقال : بأية طريقة تريدون إنقاذها ؟

فرد الرئيس : بالطريقة التي الفناها لأن الجنود الذين يخفرونها لا يزيدون عن ثمانية وسنجمع رجالنا ونطلب الى الجنود الافراج عنها حسب العادة فإما ننقذها بالرضى أو بالقوة .

— أهذه هي خطتكم في إنقاذها ؟

- نعم إنها أسهل خطة .
- لكنكم مخطئون ولا تعلمون .

فصاح الجميع بصوت واحد قائلين : لماذا ؟

- إني مخبركم بالسبب ، وهو ان البوليس في هـذه الأيام لا يهتم باللصوص لانصرافه الى الاهتمام بالارلنديين ، وأنتم تعلمون ان سوزان إرلندية وقد بلغ البوليس ان لها علائق بالجمعيات الارلندية السرية فعزمت الحكومة على تعيين أحد قضاة لندرا لاستنطاقها .

قال الرئيس : متى ؟
- غداً .

فقال العصفور الأزرق : ولكنها جريحة ، لا يتيسر نقلها الى مركز القاضي
- القاضي سيحضر بنفسه اليها .

فضحك اللصوص جميعهم وقالوا: إن هذا أعظم تشريف لنا لأنها أول مرة يحضر القضاة شوارعنا .

فقال العبوس : لقد علمتم الآن فرط اهتمام الحكومة بسوزان ، لأنها سترسل القاضي اليها ولفرط خوفها من الارلنديين عينت مائتي رجل من البوليس السري يقيمون حول منزلها إلى ان يتم التحقيق في أمرها ، ولذلك يتعذر عليكم إنقاذها بالكره لأن الجنود أكثر منكم عدداً وخير لكم ان تصبروا الى الغد .

فقاطعه كرافان قائلاً . أية فائدة من الغد ، لأنه سيكون مثل اليوم ؟

- كلا لأن سوزان لا تعلم شيئاً مما يصنعه الارلنديون . فمتى أتاها قاضي التحقيق وحقق في أمرها يعلم أنها لا علاقة لها بالارلنديين ، وإنها فقط من اللصوص ، فيكتفي بالجنود الساهرة عليها ، وينصرف رجال البوليس السري الى شؤونهم .

فقال كرافان : إذا كان ما تقوله حقيقة إني موافق لرأيك .

– هي الحقيقة دون ريب .

فقال الرئيس : إذاً أنت ارلندي !

– هو ما تقول فأنا أريد إنقاذها لأن أخاها من عصبتنا وأنتم تريدون إنقاذها لأنها منكم .

ثم ارتد إلى العصفور الأزرق قائلاً : أتعرفني أنت ؟

– دون شك إني لم أنس قتالك مع البحار .

– ألك ثقة بي .

– إني أتبعك حتى الحبس .

– إني لا أكلفك مثل هذا العناء ، بل اقتصر على ان ترشدني الى منزل سوزان .

– لكن الجنود هناك لا يأذنون لك بالدخول .

فابتسم العبوس وقال : سوف ترى إني داخل الى حيث أشاء .

– إذاً هلم بنا .

فحيى الرجل العبوس اللصوص وخرج مع العصفور الأزرق ، فلما توسطوا الطريق قال له اللص : لا أعلم إذا كانت جمعيتكم أفضل من جمعيتنا ، ولكنك إذا دخلت في زمرة اللصوص ، ضمنت لك أن تكون الرئيس علينا .

فابتسم العبوس وقال : سوف نرى .

ثم سار الاثنان حتى قدم من منزل سوزان فدله عليه فودعه العبوس قائلاً : لم يعد لي حاجة اليك

ثم افترقا وذهب العبوس تواً إلى المنزل وكان على الباب أحد أفراد البوليس فمنعه عن الدخول غير ان العبوس أشار له تلك الإشارات السرية الارلندية ، فانحنى البوليس وأذن له بالدخول . فصعد سلم ذلك المنزل وهو يقول في نفسه :

مسكينة إنكلترا فهي تعتقد انها سيدة العالم، ولا تدري أن عدوها بين جندها وان الارلنديين في كل مكان .

- ٤٣ -

كانت ملابس العبوس الظاهرية تدل على الفقر لرثاثتها ، فهي ثوب طويل خلق ، ولكنه كان يستر تحت هذا الثوب الطويل ملابس أخرى . فلما بدأ بصعود السلم خلع ثوبه الخلق وقلبه وحمله على ساعده ، فظهر من تحتـــه بملابس رسمية سوداء ، ثم أخرج من جيبه عصا صغيرة من العصي التي يحملها ضباط البوليس .

وإن في لندرا عادة غير موجودة في غيرها من البلاد وهي ان أشرافها يتطوعون في خدمة البوليس خدمة شرف .

فاذا اتفق حـدوث خصام في شارع ، وقوي فيه المتخاصمـون لكثرة عددهم على البوليس برز من الناس المتجمهرين واحـــد او أكثر من النبلاء ، فأخرجوا من جيوبهم تلك العصي القصيرة ، وأعانوا البوليس في القبض على المتخاصمين .

وقد كان العبوس مقيماً في شارع بال مال ، أشهر شوارع لندرا . وكان ظهر بمظهرين أحدهما سري فيعاشر من عرفناهم وينتاب المحلات التي تقدم لنا وصفها والآخر ظاهري فكان يعاشر النبلاء ويتردد على أفخم الأندية ولذلك كان أحد أولئك الضباط المتطوعين .

ولما وصل الى باب غرفة سوزان ، لقي جنديين واقفين فأراهما العصا فانحنيا أمامه ودخل ، فأشار الى الجنود الذين كانوا داخل الغرفة فخرجوا

ولم يبق منهم أحد وهم يحسبونه من كبار رجال البوليس وانه أتى للتحقيق بأمر الارلندية .

أما الرجل العبوس ، فإنه لما خـــلا بسوزان قال لها : إني آت من قبل أخيك .

فارتعشت قائلة : العلك تعرفه ؟

– بل هو صديقي .

فبان على سوزان ظواهر الريبة وحسبته يريد إغواءها ، فابتسم العبوس وقال لها : إني صديقه وسأثبت لك ما قلته .

ثم أخذ يكلمها بلغة أهل الشواطيء الارلندية عن زمن حداثتها وعيشها العائلي بما لا يعلمه غير أخيها .

وأزال من نفسها كل ريب ، وقالت : مر يا سيدي ، فقد باتت لي فيك ملء الثقة .

– إنك عشت يا سوزان عيشة دعارة وفساد ولكنك على غوايتك لم تنسي وطنك العزيز .

– إني أحب وطني وأفديه بدمي .

– وكذلك أخوك فانه من أعضاء جمعيتنا السرية وانا أحد رؤسائها ، وإنما زرتك الآن لأن ارلندا محتاجة اليك

– أتحتاج إلي أنا ومن عسي ان أكون فتحتاج إلي البلاد إني امرأة لصة متهمة بجناية سيحكم علي باشد عقاب ؟

– كلا انهم لا يحكون عليك بشيء فقد اتفق الارلنديون على إنقاذك الست أخت جوهان ؟ إن جوهان ورفاقه سينقذونك على أن تخدمي ارلندا الخدمة التي تطلبها اليك .

– قل يا سيدي ماذا تريد ان أصنع ؟

– إنك ذهبت بغلام إلى الموضع الذي جرحت فيه

فغطت سوزان وجهها بيديها وقالت : مسكين هذا الفتى فقد يكون قضي عليه وذلك ذنب ويلتون لا ذنبي .

– إني أعرف ما تعرفينه وأزيدك ان الغلام لم يمت ولكنه مسجون وسيأتيك القاضي ويسألك عنه .

– إذاً أقول الحقيقة إنه بريء ونحن خدعناه .

– وهذا ما أتيت لأجله لأني لا أريد ان تثبتي براءة الفتى .

– كيف ذلك ؟

– إصغي إلي ...

ثم أخذ يكلمها همساً مدة طويـــلة ، فلم يدرك بما جرى بينهما أحد . ولكنه حين أتم حديثه قالت له : لقد علمت كل قصدك الآن ، وسأطيعك في كل ما تريد .

– إذاً أودعك الآن على أمل اللقاء قريباً فتشجعي واعلمي ان ارلندا لا تنسى من يخدمها

ثم تركها وانصرف فودعه الجنود بالاحترام .

ولما سار في الشارع ركب مركبة وسار بها إلى بيكاديللي ، وهناك رأى شوكنج واقفاً قرب خمارة ، فأوقف المركبة وناداه ثم سأله : أين الكاهن والارلندية والأميركي ؟

– إنهم في الكنيسة .

– إذاً إذهب الى الأب صموئيل وقل له اننا سنعقد جلسة في الساعة الثانية بعد نصف الليل

– العل الجلسة المباحثة في شأن رالف ؟

– هوذاك فأسرع الآن بالذهاب .

ثم أمر السائق ان يذهب الى شارع هاي ماركت ، وهناك نظر في ساعته فرأى انه لا يزال باقياً خمس دقائق لانتصاف الليل ، فقال : لقد حان

الوقت للذهاب الى مس الن ، فقد وعدتها أن أزورها حين انتصاف الليل ، ولا بد من الوفاء .

- ٤٤ -

ولنذكر الآن ما حـــدث في قصر اللورد بالمير منذ يومين . فإنه منذ دخل الرجل العبوس إلى ذلك المنزل ، من نافـذة غرفة مس الن ، وخرج منه بالارلندية ، بعد ان صعق تلك الفتاة بنظراته الساحرة . باتت تلك الليلة مضطربة ، واجفة القلب . فكانت كالحمامة طاردها البازي فأفلتت منه بعد العناء .

وقـد جلست على كرسي ، قرب النـافذة المفتوحـة ، الى أن أشرق الصباح . وهي تفتكر بهذا الرجل الجريء المقدام ، خضعت لنظراتـه هذا الخضوع .

وفيما مشردة الفكر شعرت ان باب غرفتها قد فتح ،فاضطربت إذ لا يدخل عليها أحد دون استئذان .

ونظرت فرأت ان هذا الداخل هو أبوهـا ، فزاد اضطرابها لما رأته من دلائل غضبه واختلال ثيابه واتساخها فصاحت تقول ما هذا الذي أنت فيه وماذا دهاك ؟

فقال بصوت يتهدج من الغضب . يا ويح أولئـك اللصوص ! فقـد مكروا بي

— من تعني يا أبي ؟

.. أولئك الارلنديون الذين تجاسروا أن يقبضوا على أبيك ويقيـــدوه ويلقوه في احدى زوايا الحديقة ، وقد كاد يموت لو لم تنقذه فانوش وخادمتها

عند الصباح .

ـ اني أعرف يا أبي الرجل الذي فعل بك هذه الفعال .

فدهش وقال : كيف تعرفيه ؟

ـ انه جاء أيضاً الى بيتنا .

ـ متى ؟

ـ هذه الليلة .

فاضطرب اللورد وقال : أمجنونة أنت أم حالمة ؟

ـ لا هذا ولا ذاك يا أبي ، لأن هذا الشخص لم يخرج من هنا الا بالارلندية .

ثم قصت عليه ما حدث لها ، وكيف أنه دخل من النافذة ولم تستطع ان تستغيث لتأثير نظراته بها ولأنه هددها بقتل أبيها اذا لم يعد الى العصابة في الموعد المعين .

وكان اللورد بالمير واثقاً من شجاعة ابنته ، وأيقن لما رآه من اضطرابها ان ذاك الشخص أثر بها تأثيراً عظيماً

وكان لديه طريقتان ينهجهما وهما اما أن يخبر البوليس على الفور بما جرى له أو يكتم الأمر ويعهد الى البوليس أمر التفتيش على الغلام. غير أنه فضل الرأي الأخير لأن ابنته ضغطت عليه .

ومضى على ذلك يومان وجاء يوم الأحد فقالت مس الن في نفسها: انالقتال سيكون هائلا بيني وبين ذاك الشخص ولكني سأكون قوية شديدة بقدر كرهي له وحقدي عليه

وخرجت بعد ذلك تتنزه على فرسها ، فلقيت الرجل العبوس . وأمرت خادمها أن يقتفي أثره ، كما قدمنا ، وبعد هنيهة رأت خادم العبوس قد دنا منها وأعطاها رسالة . فاضطربت وقالت : لقد بلغ من وقاحته أن يكتب لي .

ثم دفعها الفضول الى معرفة محتوى الرسالة ، فأخذتها من الخادم وقرأتها فاحمر وجهها وبدت عليها ظواهر الأنفة والاستكبار ، لأن الرجل العبوس كتب اليها انه سيزورها هذه الليلة عند انتصاف الليل .

فمزقت الرسالة قطعاً صغيرة والقتها الى الأرض ، ثم نظرت الى الخادم وقالت : اذا أردت أن تكون من أهل الثروة فقل لي من هو الشخص الذي أعطاك الرساله .

– هو سيدي .

– أعرف ذلك ولكني أسألك عن اسمه

فابتسم الخادم وقال : لا أعلم .

أما هي فقد أمسكت كيساً ملؤه الذهب ، ودفعته الى الخادم قائلة : اذا كنت تقول لي عن اسم مولاك وأين يقيم أعطيك الف جنية ، بل اعطيك ثلاثة اضعاف هذه القيمة اذا صدقت في خدمتي

فرد الخادم كيسها وقال لها ببرود: مهما بلغت ثروتك فإن سيدي أغنى منك ومن يخدمه لا يخونه .

ثم انحنى أمامها وأطلق لجواده العنان .

فامتعض وجه الفتاة وقبض القهر نفسها ، فعادت الى منزلها وهي تشبه أهل القنوط

وهناك وجدت أباها منشرح الصدر طيب النفس ، فقال لها حين رآها : أبشري لقد وجد الغلام .

– أين وجد وأين هو ؟

– إنه في أحد سجون البوليس ، وقد كان القاضي الذي تولى تحقيق أمره عندي الآن .

– وماذا جرى ؟

– سأذهب غداً إلى ذلك المركز ، وأطلب الغلام . وقد اتفقنا أن يرده

القاضي إلي .

فهزت الفتاة رأسها وقالت : لماذا لا تطلبه اليوم يا أبي ؟

— لأن الصبي وجد بين عصابة لصوص ، ولا بد للقاضي من محاكمته علناً ، حسب الأصول ، قبل أن يرده إلي . وهذا اليوم يوم أحد لا تشتغل فيه المحاكم .

— لكني أخشى غداً أن يكون فات الأوان

فاندهش اللورد وقال : لماذا ؟

— إصغ إلي يا أبي ، إني لا أستطيع الزيادة في التصريح . لكن ثق أن أعداءنا ليسوا من اللصوص ولا المتسولين ، بل ان رجلاً نبيلاً واسع الثروة يثير علينا هذا العداء .

— ماذا تعنين بذلك ؟ إني لا أفهم شيئاً مما تقولين ؟

فأخذت الفتاة يد أبيها وقالت : أتثق بي يا أبي ؟

— دون شك .

— أتصغي ؟

— تكلمي .

— أتريد أن تعكس السلطة بيني وبينك ، فتكون لي سلطة الوالد ولك امتثال الولد ؟

ثم نظرت اليه نظرة غريبة استدل منها على أن الأمر خطير ، ورأى ان الطبيعة قد منحتها سلطاناً عليه . فأطرق بنظره الى الأرض وقال : تكلمي يا ابنتي فسأصنع ما تريدين .

- أول ما أبدأ به يا أبي رجاؤك أن لا تسألني عن شيء وان تعدني باجابتي إلى كل ما أسألك إياه .

- لقد وعدتك فقولي .

فأخذت مس الن بيد أبيها ، وسارت إلى رواق يصل بين غرفته وغرفتها من إحدى جهتيه ، وينتهي من الجهة الأخرى الى قاعة فسيحة أعدها اللورد لأشغاله . فوقفت في تلك القاعة وقالت له : أريد ان تكون هنا في هذه الليلة ، قبل انتصاف الليل بقليل ، ويكون معك خادمان وكلكم مسلحون .

فارتعش اللورد وقال : لماذا ؟

ولم تجبه على سؤاله ، بل مضت في حديثها فقالت : وينبغي ان تدع باب الغرفة مفتوحاً وتصغي كل الاصغاء .

- سأفعل كل ما تريدين ولكن لماذا ؟

- أما وعدتني يا أبي أن لا تسألني واعلم الآن انك متى سمعت دوي غدارة .

فقاطعها اللورد وقد اصفر وجهه وقال . دوي غدارة ؟

- لا تخف يا أبي فأنا سأطلقها .

- ولكن لماذا ؟

- العلك نسيت وعدك يا أبي فعدت إلى السؤال ؟

- حسناً ومتى سمعت دوي الغدارة ؟

- تسرع إلي مع الخادمين ، وإذا وجدتم باب غرفتي مقفلاً اكسروه وعند ذلك تعلم ما يجب أن تصنع .

ووقفت مس الن عند هذا الحد ولم توضح لأبيها كلمة عن قصدها ، وتركته

مضطرب البال عليها

وعادت إلى غرفتها وأمرت وصيفاتها وخادماتها أن لا يدخلن اليها إلا إذا نادتهن .

ثم أقفلت باب غرفتها وأقامت وحدهـــا فكانت مصفرة الوجه ، بادية الاضطراب ولكن عينيها كانتا تدلان على عزم أكيد .

ومما دل على صدق عزمها أنها قامت إلى خزانة ففتحتهـا وأخرجت منها مسدساً ففحصته ووضعته في جيبها .

ثم فتحت النافذة المشرفة على الحديقة ، وهي النافذة التي دخـــل منها الرجل العبوس ، وجلست بقربها وهي تتطلع الى الحديقة ، وتنتظر قدوم الرجل العبوس .

وكانت السماء صافية والرياح ساكنة والحديقة خاوية، ولكن الوهم كان يمثل لعينيها الرجل العبوس .

وإذا رأت غير شيء ظننته رجلاً لا سيما وانه لا يستطيع الوصول اليها إلا من الحديقة كما فعل في المرة السابقة .

وأقامت تنتظر ساعة وهي متنبهة كل التنبه ، حتى دقت الساعة مؤذنة بانتصاف الليل دون ان يحضر حسب الوعد ، فوقفت مضطربة وقالت : أيجسر أن يهزأ بي ؟

ثم تحولت عن النافذة إلى المستوقد ولم تكد تخطو خطوة حتى صاحت صيحة ذعر وجمد الدم في عروقها واضطربت قدماها حتى أوشكت ان تسقط ، ذلك انها رأت رجلا واقفاً ينظر اليها مبتسماً وهو الرجل العبوس .

فحاولت ان تصيح وتستغيث ولكن لسانها تلجلج ، وأرادت ان تمشي فما استطاعت وهي مذعورة من هذا الرجل لا تعلم كيف دخل الى غرفتها وهي مقفلة الأبواب حتى حسبته من عالم الخيال. ثم حلت عقدة لسانها فقالت بصوت مختنق : أهذا أنت ؟

فأجابها بلهجة تشف عن أرق العواطف · وعلام العجب يا سيدتي ؟ ألم أقل لك اني سأزورك عند نصف الليل ، وإنما أتيت اليك لأعلم اذا كنت راضية عني ؟

فقالت بلهجة الاستكبار : ومن أي شيء تريد ان أرضى ؟

– من صدق وعدي ألم يعد أبوك حياً ؟

– إنك أتيت يا سيدي الى غرفتي من حيث لا أعلم ، فهل تريد ان تخبرني كيف دخلت ؟

– اني دخلت من الباب . وأنت ترين يا سيـــدتي ، ان لي أصدقاء في نفس منزلك .

– لكنها جرأة نادرة .

– هو ما تقولين يا سيدتي ، واني مقترح عليك الآن اقتراحاً أحب ان تسمعيه .

فاضطربت الفتاة لنظرات هذا الرجل وقالت له : قل اني مصغية اليك كل الإصغاء .

– إن أباك يا سيدتي عازم على ان يطلب غداً من مركز بوليس كليبرن ابن الارلندية .

فتراجعت منذعرة وقالت : أتعرف هذا أيضاً ؟

– اني أعرف كل شيء وأرجوك ان تمنعي أباك عن طلب الفتى .

فردت بعظمة : لماذا تريد ان أمنعه ؟

فابتسم قائلاً : لأن ذلك يرضيني .

وهنا اتقدت عيناها لمساس كبريائها والتقى نظرها بنظره فقاومته وقالت إصغ الي الآن يا سيدي فقد آن لي ان أتكلم .

– قولي يا سيدتي ما تشائين .

– أريد ان أعرف من انت ولماذا تجاسرت على الدخول الى غرفتي .

فرد متهكماً : أحقاً ما تقولين ؟

- اني أمهلك عشر ثوان للتفكير .

- وبعد الثواني العشر ؟

فأخرجت الفتاة المسدس من جيبها وقالت له : اني بعد ذلك لا أكون مسؤلة عن حياتك .

ثم شهرت مسدسها عليه وقالت : قل أم انت مقتول .

وكان العبوس بعيداً عنها بحيث لا يفيد خنجره فكررت مس الن قولها : قل او أطلق عليك النار ! . .

- ٤٦ -

على ان العبوس لم يظهر عليه شيء من الخوف ولم ينبس بكلمة ، بل وضع يديه فوق صدره وابتسم . فهاجت مس الن لبسالته واستخفافه ، فأطلقت المسدس ، فلم يخرج له صوت فأعادت ست مرات فلم ينطلق رصاص المسدس .

وعند ذلك جرد العبوس خنجره ووثب اليها فقال : اذا صحت فاني لا أقتلك انت بل أقتل أباك فانه على مسافة خطوتين منا اذا سمع صياحك حضر في الحال .

وكانت المس الن باسلة ، غير ان ثبات هذا الشخص وخوفها على أبيها حملاها على التسليم ، فأرخت نظرها الى الأرض وهي ترتعش وقالت له : ماذا تريد مني ؟

- اريد ان أحدثك ببعض الشؤون .

ثم أخذ بيدها وأجلسها على كرسي ولبث واقفاً امامها .

فقال لها . لقد قلت لك يا مس الن انه لي أصدقاء في منزلك ، ويثبت ما أقوله لك عدم انطلاق المسدس ، فقد نزعت يد خفية ما كان فيه من الرصاص .

أما وقد علمت ذلك فاسمعي الآن ما اقول .اني اتيت لأعرض عليك الحرب او السلم فاختاري بين الاثنين

أما السلم فهو ان ترجعي مع ابيك عن الخطة التي جريتما عليها ، وتكفا عن الأعمال التي كثر تداخلكم فيها . فإنكم خنتم ارلندا وانتم منها فارتكبتم اعظم شطط .

ان اباك يا مس الن لم يقتصر على خيانة ارلندا بل انه خان اخاه ودفعه بيده الى الموت .

فقد وقع هذا التقريع في نفس الفتاة وقالت · ان أبي من الانكليز .

— ولكن اباه من زعماء الارلنديين . وهو حر ان يكون كما يشاء غير انكم اذا رضيتم الصلح بقي ابوك غنياً شريفاً عضواً في البرلمان .

فقالت بلهجة المتهكم : اتأذن له بالبقاء في البرلمان ؟

فلم يكترث لتهكمها وقال : نعم ونصفح ايضاً عما جناه على اخيه . وفي مقابل ذلك ترجعان عن غاية الاستيلاء على ابن عمك السير ادموند ، لأنه الزعيم الوحيد الذي تنتظره ارلندا بجملتها بصبر وثبات ان يبلغ العشرين من عمره ليتولى رئاستها فقد عقدت كل رجائها عليه .

فقالت متهكمة ايضاً : أهذه شروط السلم ؟

— نعم يا سيدتي .

— اني كنت اجهل من انت حتى الساعة ، اما الآن فقد علمت انك احد زعماء هذه الجمعية الارلندية التي تريد ان تحارب انكلترا ، وليس بين اعضائها غير اللصوص .

— ربما .

فتشجعت الفتاة وقالت : لقد عرفنا بشروط السلم فهات شروط الحرب .

— هي ان ترجعوا عن المطالبة بالغلام ، وعن المداخلة في اي شأن من شؤون إرلندا .

واتقدت عينا الفتاة ببارق دل على انفتها واستكبارها وقالت : إذاً نختار الحرب وستكون هائلة بيننا .

فقال لها ببرود : استودعك الله يا سيدتي وليكن ما تريدين .

— بل قل إلى اللقاء فلا بد أن نلتقي .

— هو ما تقولين .

ثم أسرع إلى النافذة المفتوحة ووثب منها إلى الحديقة ، وتوارى عن الأبصار .



بعد ذلك بساعة كان الرجل العبوس حاضراً في جلسة عقدها الكاهن وزعماء الارلنديين الثلاثة ، لأن الرابع لم يعرفوا مقره ، وكان حاضراً في تلك الجلسة الارلندية والدة الغلام فقال لهم الرجل العبوس : اعلموا يا سادتي ان رجلاً عظيماً سيطلب غداً أن يأخذ الغلام وهو اللورد بالمير .

فاضطربت الارلندية وقالت : ولكني أنا أسبق إلى طلبه فيردوه الي ، وهو ولدي .

— كلا ايتها العزيزة فانك إرلندية وإبنك متهم بسرقة فلا يردونه اليك بخلاف اللورد فهو من اعيان الانكليز فيربى في منزل ذلك الخائن وينشأ على احتقار وطنه ، أتريدين ان ينشأ موالياً للانكليز ؟

فاتقدت عيناها وقالت : كلا والله بل اؤثر الف مرة ان يموت .

— كلا انه لا يموت بل سأرده اليك .

— متى ؟

– متى نقلوه إلى سجن الطاحون .

فنظرت اليه نظرة قلق المرتاب وقالت : كيف ذلك يا سيدي اتستطيع ان تفتح أبواب السجون ؟

فأجابها بلهجة الواثق المطمئن : اني أستطيع كل ما أريـده يا سيدتي فاطمئني .

وقال لها الكاهن عند ذلك : تذكري يا ابنتي كلام زوجك الأخـير وكوني قوية .

– سأكون .

فقال لها الرجل المحبوس : سنلتقي غداً في مركز البوليس وسأعلمك ما يجب ان تقوليه .

ثم نهض فقال : ان شهادة سوزان وحنة كافيتان لمنع اللورد من الاستيلاء على الغلام .

* * *

وفي اليوم التالي كان قاضي مركز كليبرن في منزله مع ابنته يتناول طعام الصباح فقالت له ابنته : إذاً سترد الفتى اليوم للورد بالمير .

– نعم يا ابنتي ولكن حصلت مشكلة جديدة أخشى منها وهي ان سوزان الارلنـدية سئلت امس عن الفتى فقالت ان امه قد وضعته عندهـا ليتعلم ، ولما كانت هذه الفتاة من اللصوص فقد باتت الجريمة ثابتة عليه ؟

– وماذا تفيد شهادة المرأة إذا كان مثل هذا اللورد النبيل يطلبه ؟

– هو ما تقولين فإني لا أحفل بشهادة هذه المرأة إذا جاء اللورد ، ولكن إذا جاءت أم الفتى فلا بد لي عن سؤالها فإذا وافق كلامهـا كلام سوزان لم يبق سبيل لرد الفتى إلى اللورد .

وعند ذلك جاء سكرتير القاضي وقال قد دنت الساعة العـاشرة

يا سيدي فهل افتح باب المحكمة ويدخل الناس ؟
— نعم إفتحه وها أنا قادم في الحال .

وانصرف السكرتير وقام القاضي فلبس رداء أسود ووشاحاً أزرق ودخل إلى المحكمة وجلس في مجلسه وكانت القاعة قد غصت بالحضور ، فأمر القاضي ان يحضر الفتى السجين فأحضروه وقال له : ماذا تدعى ؟

— رالف .
— أانت ارلندي ؟
— نعم يا سيدي ..
— أين أهلك ؟

وبدأ الفتى بحكاية ما جرى له غير ان القاضي اسكته باشارة والتفت إلى الحضور فقال : أيوجد بينكم من يرضى أن يضمن هذا الفتى ؟

فخرج اللورد بالمير من بين الجمهور ودنا من القاضي وقال له : أنا أضمنه .

فسأله القاضي قائلا : أتعرف هذا الفتى !

— نعم .

فقال للفتى : وأنت أتعرف اللورد ؟

— كلا ..
— لا بأس إن حضرة اللورد قد تنازل إلى ضمانتك .

وكان الفتى عند ذلك يجيل نظره بين الحضور فصاح صيحة أجيب بمثلها ومد يديه فقال : يا أمي .

وأسرعت أمه اليه وقالت : ها أنا يا ولدي لا تخف .

وعند ذلك أوقفها القاضي قائلاً لها : من انت ايتها المرأة .

— إني أدعى حنة والدة الفتى .

وصادق اللورد على كلامها وقال لها القاضي ببرود : إن النظام يقضي علي أن اسألك فاحذري مما ستقولينه فإن على كلامك تتوقف حرية ولدك الذي

يطلبه حضرة اللورد .

فاضطربت حنة وقالت له : إذ كان لا بد يا سيدي من تسليم ولدي لهذا اللورد فاني التمس منك ان تبعث به إلى السجن ، فان هذا اللورد يحـاول إغوائي وهو يرجو ان يظفر بي متى ظفر بولدي .

فضج الناس لهذا القول الغريب وقال للورد . ان هذه المرأة كاذبة .

إلا أن كلامه ضاع بين ضجيج الناس ولم يحفلوا به ومـــالوا إلى تصديق الارلندية فان المرء بالطبع ميال إلى الضعيف .

ولما رأى القاضي سوء منقلب اللورد قال للارلندية . أتعترفين أيتها المرأة إنك أم هذا الفتى ؟

– نعم .

– أتعرفين امرأة ارلندية تدعى سوزان ؟

– إنها صديقة لي وهي من بلدي .

– الأنت أودعت عندها ولدك كما تقول ؟

– نعم .

فتلا القاضي عند ذلك إقرار سوزان ثم أصدر حكمه على رالف بالحبس خمسة اعوام في سجن الطاحون ، فصاحت امه صيحة عظيمة وسقطت مغمياً عليهـا بين يدي الرجل المحبوس .

وبعد هنيهة استفاقت فخرج بها وهو يقول : لقـــد فزنا اليوم أعظم فوز بانقاذه من اللورد وسأنقذه قريباً من السجن .

إذا ذكر حبس الطاحون أمام الناس يعتبرونه حبساً عادياً فلا يخامر قلوبهم شيء من الرعب ولكن من عرف هذا الحبس ترتعد فرائصه خوفاً وتسيل نفسه اشفاقا على من حكم عليه نكد الطالع بالسجن فيه .

ان هذا السجن يسمى بالطاحون لأنه يشبه الطواحين والنواعير بما أعد فيه من الآلات وذلك انه يوجد فيه عمود طويل ركبت فيـه صناديق فارغة على الجانبين وفيـه لولب يدار فتدور الصناديق الفارغة من الأعلى إلى الأسفل كما تدور الصناديق في النواعير .

ويقابل هذه الصناديق خشبة ثابتـة لا تتحرك يمسك بها المحكوم عليه بالاشغـال ، وتبقى رجلاه في الفضاء فيسندهما الى أحد الصنـاديق إلتماساً للراحـة ، غير أن هذه الطاحونة تدور ، فإذا دار الصندوق هوت رجلاه فأسندها إلى صندوق آخر فيهوي أيضاً ، وهكذا لا تزال الصناديق تدور ورجلاه تعلقان بها وتفلتان منها ، فيكون مثل رجليه في هذه الطاحونة مثل المـاء في صناديق النواعير ، وهو لا يستطيع أن يوقف هذه الحركة فإذا أوقف رجليـه قبـل أن تقف الطاحونة مرت بهما الصناديق في دورانها فكسرتهما

ويستمر عقاب هذا المنكود على ما قدمناه ربع ساعـة فيوقف السجان الطاحونة فينزل المحبوس ويأتي بمحبوس اخر يعاقبه نفس العقاب .

هذا هو الحبس الهائل المخيف الذي سيق اليـه الولد الصغير ، وحكم عليه بالتعذيب فيـه على هذه الطريقة المرعبـة خمسة أعوام ، تكفيراً عن ذنب لم تقترفه يداه .

وكان هذا الحبس قديماً جداً يديره حاكم خاص وقائد من الجيش وكانت الحكومة شارعة ببناء سواه بدلاً منه في نفس مكانه ، فلا تهدم مكاناً حتى

تبني حبساً سواه .

وكان لهذا الحبس مأموران أحدهما للداخل والاخر لحراسة الباب الخارجي الذي يدخل منه أهل المحبوسين لمشاهدتهم .

وهذا المأمور ارلندي الأصل كاثوليكي المذهب ولكنه كان يتشيع للانكليز بالظاهر تشيعاً عظيماً وهو ارلندي النزعة في الباطن فلم يكن أحد من الانكليز يظن انه من الارلنديين .

وكان الباب الذي يتولى حراسته مشرفاً على الشارع، ففي اليوم الذي دخل فيه الولد الى الحبس جاء إلى هذا المأمور رجل عليه دلائل الفقر المدقع فحياه تحية الأهل وناداه بابن عمه فأجفل المأمور ، واسمه المستر بين ، لظواهر فقره وقال له : من أنت وكيف تدعوني ابن عمك ؟

— اني ادعوك بابن عمي لاني ادعى جوهن كولدن .

فحدق به المأمور ملياً وقال لقد اصبت فلقد تبدلت تبدلاً عظيماً من عشرين عاماً فما عرفتك، ثم مد يده وصافحه وقال له. ماذا اتيت تعمل هنا ؟

— إذا اردت الحقيقة يا ابن عمي العزيز ، فاني أتيت لأراك .

فامتعض المأمور لما رآه من ظواهر فقره ولكنه كان طاهر القلب طيب السريرة فقال : أرى من ملابسك ما يدل على فقرك ولكني فقير مثلك فان لي امرأة وبنتين وراتبي الصغير لا يكاد يفي بحاجتهم

فابتسم جوهن وقال : اني أعلم ما أنت عليه فما أتيت اسألك مالاً ، بل التمس مساعدتك في أمر لا يؤذيك بشيء .

— قل أيها القريب فاننا أبناء أخوين .

— هو ذاك ونحن أيضاً ارلنديان .

— أخفض صوتك فليس من يعرف هنا انني من الارلنديين .

— لقد أحسنت في تنكرك فقد ساءت سمعة الارلنديين في هذه الأيام وبات الانكليز ينظرون اليهم بعين الجفاء .

– يسرني أن أراك ترتئي رأيي .

– كما يسوؤني أن العامل الارلندي لم يعد في وسعه أن يجد عملاً يرتزق به في هذه العاصمة الواسعة لما يجده من جفاء الانكليز فقد مر بي شهر كامل لم أعمل فيه عملاً على فرط اهتمامي بايجاد عمل .

– ما هي مهنتك ؟

– إني إسكافي وبناء ، ولكني أفضل مهنة البناء لمكاسبها ، لهذا أتيت اليك راجياً إدخالي بين العمال الذين يشتغلون في بناء السجن الجديد .

– إن ذلك سهل ميسور ، لكن يجب علي أن أخبرك بحسنات هذه المهنة وسيئاتها في هذا السجن ، أما الحسنات فهي أن من يشتغل في قسم منه لا يخرج !

– عجباً كيف ذلك ؟

– ذلك انهم لم يقتصروا على بناء سجن جديد ، بل انهم يصلحون أيضاً القديم ، وفي نظام السجون أن المسجونين لا ينبغي أن يكون لهم علاقة مع أحد خارج السجن ، فاذا كان البناء يشتغل في ترميم الحبس القديم فلا بد له من الاختلاط مع المسجونين ، فإذا أذنوا للعامل أن يخرج من الحبس قبل انتهاء العمل فقد يحمل كلاماً أو رسالة من أحدهم إلى أهله أو عصابته فيسهلون له سبل الفرار .

– أيشتغل جميع العمال في الحبس القديم ؟

– كلا ، بل بعضهم ، وطريقتهم في ذلك أنهم يجمعون كل العمال كل يوم سبت ويقترعون على العدد الذي يحتاجون اليهم في الحبس القديم ، ومن أصابته القرعة فلا بد له من الامتثال ، وإنما يقترعون ، إذ لا يوجد بينهم من يرضى الاشتغال بالحبس القديم ، وعند ذلك يصبح هذا العامل كواحد من المحابيس

– ولكن أيكون حبسه طويلا ؟

– كلا ، بل يقيم فيه ثمانية أيام فينزعون ثيابه عند دخوله ويلبسونه ثياب الحبس ، فإذا انتهى الأسبوع فتشوه تفتيشاً دقيقاً وأعادوا اليه ثيابه ويعود إلى الاشتغال بالقسم الجديد وهناك تطلق له الحرية .

– إني لا أأسف إذا اصابتني القرعة إذ ليس لي إمرأة وبنون .

– حسناً ، قد تصيبك القرعة كل مدة اشتغالك ؟

– ذلك سيان عندي بشرط أن اشتغل ..

– إذاً سأدخلك بين العمال ، غير انه بقي لي شرط آخر وهو انه يجب ان تنكر جنسيتك كما أنكرتها فإنهم لا يقبلون الارلنديين وفوق ذلك سأقول لمدير الأشغال انك ابن عمي تسهيلاً لقبولك .

– أقسم لك اني سأدعي اني انكليزي بحت ، متى تقدمني المدير ؟

– هذه الليلة بين الساعة الثـــامنة والتاسعة ، فاذهب الآن وعد إلي في الموعد المعين .

وعند ذاك افترقا فودعه جوهان كولدن وسار حتى انتهى إلى خمارة فدخل اليها وهناك لقي العصفور الأزرق بانتظاره فقال له : ماذا فعلت ؟

– إنهم يدخلونني غداً في الخدمة .

– إذاً سأخبرك عن العوائد المألوفة في ذلك السجن فانك شقيق سوزان وقد وجبت علينا خدمتك ، والآن أتعلم أنهم سينقذون سوزان هذه الليلة بمساعي الرجل المحبوس ؟

ثم اظهر إعجابه به وقال : حبذا لو رضي هذا الرجل أن يكون منا فإنه يتولى رئاستنا المطلقة .

وقاطعه جوهان قائلاً لنتكلم الآن عن حبس الطاحون

في يوم السبت من ذلك الأسبوع الذي جرت فيه الحوادث المتقدمة دقت الساعة الثانية في سجن الطاحون ، وقرع الجرس الكبير الخاص بالذين يعملون في الحبس الجديد .

وكان الحبس القديم في الجهة الغربية ، والحبس الجديد في الجهة الشمالية وكانوا يعملون فيه ببطء ، وكلما بنوا غرفة من الجديد هدموا غرفة تماثلها من القديم .

وكان كلا الحبسين محاط بسور عظيم ليس له غير باب واحد ، وهو الباب الذي يتولى خفارته ابن عم جوهان كولدن ، ومن هذا الباب يدخل صباحاً جميع العمال ، فيفتشهم المأمور تفتيشاً دقيقاً حذراً من أن يدخلوا إلى السجن أشياء ممنوع إدخالها .

وبعد أن يدخل العمال من الباب الخارجي يجدون قاعة فسيحة لها بابان من الحديد أحدهما يؤدي الحبس القديم حيث يحبس المسجونون ، والآخر يؤدي إلى الحبس الجديد الذي كانوا يشتغلون فيه .

وكان الجرس يدق مؤذناً بالساعة التي يرتاح فيها العمال فامتنعوا عند سماعه عن العمل واجتمعوا وجعلوا يتحدثون ويتنادمون إلى أن ينقضي وقت الراحة .

وكان واحد منهم جالساً بينهم ولكنه لا يحدث أحداً فالتفت أحدهم إلى رفيق له وسأله من هذا العامل ؟

- إنه عامل جديد دخل في صباح اليوم

- ماذا يدعى ؟

– جوهان ، وقد أدخله مأمور الحبس الجديد ، وهو من أهله كما يقول
- إذاً حبذا لو أصابته القرعة بدلاً مني .

– إني أراك شديد الخوف من هذه القرعة وتظهر إضطرابك منها في كل أسبوع في حين انك كنت اسعد العمال فإنك تعمل في هذا الحبس منذ عامين ولم تصبك القرعة غير واحدة فلماذا هذا الخوف ؟

– إني لا أخاف على نفسي أيها الصديق وسيان عندي أن أبيت في المنزل أو في الحبس .

– إذاً على من تخاف ؟

– العلك متزوج ؟

- كلا ..

– إذاً أعذرك إذا أنكرت علي الخوف من البقاء في الحبس ثمانية أيام .

فأجابه آخر كان يسمع الحديث : لقد اتضحت الآن أسباب خوفك فإنك متزوج بامرأة حسناء تغار عليها .

- لقد أصبتم فلقد كان لي إمرأة حسناء وكنت أغار عليها كما يغـار كل متزوج على زوجته .

ثم تنهد وتابع : ولكن امرأتي قد ماتت والأسفاه

قالوا : إذاً على من تخاف بعد موتها ؟

– أخاف على بنتها وبنتي فإنها في ريعان الصبى والجمـال وهي تعمل في أحد المخازن فأذهب بها صباح كل يوم إلى ذلك المخزن وأعود بها منه في المساء، فإذا غبت عنها ثمانية أيام فماذا يصيبها وأهل الدعارة تغص بهم شوارع لندرا .؟

وعند ذلك تقدم جوهان كولدن فاختلط بين العمال وقال لذلك الذي يخاف أن تصيبه القرعة : اني هنا أيها الرفيق منذ هذا الصباح فلم تستحكم الصلة بيني وبينكم بعد غير أن حديثك أثر بي وأنا رجل عازب وليس لي عـــائلة فإذا

أصابتك القرعة دخلت إلى الحبس القديم مكانك .

فمد الرجل يده اليه وصافحه شاكراً وأثنى جميع العمال على مـــا أظهره جوهان من المروءة .

وعند ذلك فتح باب كبير ودخل منه رجل كبير ضخم فسكت المتحدثون واتجهت الأنظار اليه ، فإنه كان يحمل كيساً مملوءاً بالكرات الصغيرة المنمرة.

ودنا جوهان كولدن من والد الفتاة وقال له : كيف يكون عـــادة الاقتراع ؟

– انظر إلى هذا الرجل الذي دخل الآن انه مدير الأعمال وهذا الكيس الذي معه يحتوي على كرات خشبية بقدر عدد العمال ، وهي نمر متسلسلة من الواحد إلى آخر ما يبلغ اليه عددنا وسيقترب كل واحد منـــا فيهز الكيس ويأخذ نمرة من النمر ، وبعد تفريق النمر ينادي المدير مبتدئاً من نمرة واحد فاذا كانوا يحتاجون مثلاً إلى خمسة عشر عاملاً ينادي من نمرة واحـد إلى نمرة خمسة عشر ، ومن كان معه أحد هذه النمر أصابته القرعة ودخـل إلى الحبس العتيق

– لقد فهمت فأجمل وقوفك بجانبي حتى إذا رأيت أن القرعة أصابتك أعطيتني نمرتك وأخذت نمرتي .

وتأثر الرجل وقال : أحقاً انك تحل محلي إذا أصابتني القرعة ؟

دون شك .

- ولكنك لم تعرفني قبل اليوم فما دفعك إلى هذا الصنيـع ؟

– لم يحملني عليه غير تأثري من حكايتك وإشفاقي على ابنتك من أن تنالها يد الأشرار ، وأنا وحيد شريد ، لا فرق عندي بين أن أكون سجيناً أو مطلقاً .

فشكره الرجل شكراً جزيلاً

وقاطعهما عند ذلك مدير العمال فقال لهم بصوت جهوري اني مخبركم

يا إخواني بخبر سيء ، وهو انه تهدم حائط في الحبس القديم ويلزم لاصلاحه كثير من العمال ، لذلك سيزيد عدد الذين تقع عليهم القرعة اليوم عن مثله في كل اسبوع .

وجعل كل من العمال ينظر الى الآخر نظرات تشف عن اضطرابهم ثم عاد المدير إلى الحديث فقال : إننا محتاجون إلى خمسة عشر عاملا اي بزيادة عشر عمال عن العدد المألوف فتشجعوا أيها الاخوان وهلموا إلى النمر فانه أسبوع يمضي كما مر سواه .

وكان عدد العمال مائة وستصيب القرعة ربعهم فاصطفوا صفاً طويلاً وجعل المدير يمر بهم فيمد كل منهم يده إلى الكيس ويأخذ نمرة فكان بعضهم ينظر إلى نمرته ليطمئن وبعضهم يبقونها في أيديهم دون أن ينظروا اليها .

أما والد الفتاة فلم يطق الصبر ونظر إلى نمرته فاصفر وجهه لأنها كانت ثلاثة وخشي ان تكون نمرة كولدن قريبة أيضاً .

ولما أخذ جوهان كولدن نمرته نظر فيها وابتسم ثم دنا من والد الفتاة وقال له : ما هي نمرتك ؟

– ثلاثة واأسفاه .

فأبرقت عينا جوهان ببارق الرجاء وقال . لا بأس هات نمرتك وخذ نمرتي فانها تجاوزت عدد خمسة وعشرين وهي ٦٩ وقبل والد الفتاة شاكراً وتبادل الاثنان النمرتين .

ولما فرغ المدير من توزيع النمر جعل يناديهم بالأعداد ، مبتدئاً من الواحد إلى الخمسة وعشرين ، فكان كل واحد معه نمرة من هذه النمر يلبي النداء حتى تكامل عددهم ، فسيقوا جميعهم اثنين إثنين إلى السجن الداخلي .

وكانوا يمرون جميعهم بالمعامل المختلفة كالحدادة والنجارة حيث يعمل فيها الذين حكم عليهم احكاماً خفيفة من المسجونين .

ثم اجتازوا إلى الحبس حيث يقيم المسجونون الذين حكم عليهم بالتعـذيب بالطاحونة على ما قدمناه ، فانقبض جوهان حين علم ان هذا الصغـير المنكود سيعاقب هذا العقاب الشاق

- ٤٩ -

والآن لنعد إلى حيث ذهبوا برالف الى الحبس ، وهو ذلك الغلام الذي يقول التاريخ أن آمال ارلندا كانت معلقة عليه ، فانهم ساروا به في مركبة المجرمين ، في اليوم التالي للحكم عليه وكان قد جاءه أحد رجـال البوليس فحمله ووضعه في المركبة فلم يبال بعد أن فرقوا بينه وبـين أمه بأي سجن يكون .

ولم يكن رأى ذلك البوليس قبل الآن ، ولكنه ارتعش ارتعاشاً عظيماً حين سمعه يهمس في أذنه فيقول : « لا تخف يا بني .. ان أمك وأصدقاءها ساهرون عليك »

وكان همس في أذنه الكلام ، بتلك اللغة الخاصة التي كلمه بهـا اللورد كورنهيل في الحبس ، حتى لقد خيل للغلام ان صوت الاثنين واحد ، لكنـه حدق تحديقاً طويلاً بالبوليس فلم يجد به أقل شبه باللورد ومع ذلك فـان الرجاء ملأ قلبه الصغير لأن هذا الرجل كلمه عن أمه وبلغة قومه .

وسارت به المركبة من مركز الى مركز وكلما وقفت عند مركز ينقلون اليها المحكوم عليهم بسجن الطاحونة .

حتى وصلت الى ذلك السجن الرهيب فخرج منها البوليس واخرج منها الغلام فقال له بصوت خشن : أمش

غير ان قسوته لم ترهبه فمشى بقدم ثابتة غير هياب .

ودخل البوليس برالف الى رئيس السجن ففتح سجلا أمامه وجعل يسأل الأسئلة المألوفة فكان البوليس يجيبه فيذكر اسم الفتى وعمره والجريمة التي ارتكبها والحكم الذي صدر عليه .

ولما أتم الرئيس الكتابة جعل ينظر إلى البوليس نظر الفاحص ثم قال :اني لم أرك قبل الآن .

فأجابه البوليس بسكينة : لقد أصبت يا سيدي فهذا أول يوم توليت فيه هذه الخدمة .

— كيف ذلك العل مستر لنتون مريض ؟

هو ما تقول يا سيدي ، وانك لم ترني قبل الآن لأني كنت بوليساً في الأقاليم وقد دعوني إلى العاصمة منذ يومين .

-- أين كنت في الأقاليم ؟

— في منشتر وكنت أخدم فيها السجون أيضاً

— حسناً . هات سواه .

- لي كلمة أيضاً يا سيدي أمرني قاضي المركز أن أقولها لك وهي أن اللص الصغير جريح في كتفه وهو يرجوك أن لا تعاقبه بالطاحونة قبل أن يشفى من جراحه ولا يقتضي لذلك غير بضعة أيام .

— ليس ذلك من شأني · بل هو شأن الطبيب وسنعرضه للفحص غداً .

في صباح اليوم التالي دخل رئيس الحراس والطبيب إلى الغرفة المسجون فيها الفتى ، فقال له الرئيس بلهجة عنيفة قف أيها اللص احتراماً للطبيب فانه قادم لفحصك .

فلم يخف رالف من تلك اللهجة القاسية لارتيـاحه إلى ذاك الصوت ، واقترب الطبيب منه وقال : اهذا هو الفتى الذي سرق صندوق تومـاس الجـن ؟

ثم جعل ينظر اليه ويقول : إنه جميل الوجه ومن الحيف أن يكون

من اللصوص .

ثم لقترب منه وجعل يبحث في جرحه بقسوة دعت رالف إلى الصياح من الألم .

وقال له الرئيس : إني اراه جريحا لا يستطيع عمل شيء ولا أدري كيف خطر للقاضي ان يحكم عليه بالطاحوم وهو لم يبلغ عشرة أعوام .

– لا أنكر انه جريح ، لكن الرصاصة خرجت من كتفه وليس هناك خطر فقد اندمل الجرح .

ثم جعل يهز كتف الفتى بعنف اثباتاً لقوله ويقول : لم يبق من الجرح غير الأثر القليل وسيزول الأثر بعد اسبوع .

– وفي تلك المدة الا ترى أنه يجب وضعه في المستشفى ؟

– لا حاجة إلى ذلك فانه معافى ..

فتجهم وجه الرئيس وحاول ان يعترض غير ان الطبيب قاطعه قائلاً : لقد قلت لك انه لا فائدة من ذلك فان اللص الصغير يستطيع العمل .

– ايعمل اليوم !

– نعم ..

فتنهد الرئيس وخشي الطبيب ان يتهمه بالقسوة فقال له اني كثير الرأفة ولذلك عينت رئيساً لنادي الرحمة بالانسان ، غير ان القسوة في موضعها رأفة ولا يحسن الرأفة باللصوص

ثم خرج من غرفة رالف وتبعه الرئيس وأقفل الباب وبقي رالف وحده نحو ساعة .

وبعد ذلك فتح الباب فحسب الفتى أن البوليس قد فتحه ، ولكنه رأى حارسين من حراس الحبس دخلا اليه وبيد احدهما شهادة من الطبيب ان الفتى معافي يستطيع العمل وجرداه من ثيابه والبساه ثياب السجن وذهبا به إلى محل العمل .

وفي ذلك الحين خرج رئيس الحرس من الحبس وسار في الشارع حتى انتهى الى خمارة فدخل اليها ورأى رجلا يشرب فيها ، وكان هو الرجل العبوس ، فحياه تحية سرية ثم جلس وجعلا يتحدثان باللغة الارلندية الاصطلاحية فسأله الرجل العبوس قائلا : أين الفتى الان انقلتموه الى المستشفى ؟

– كلا ، بل في حبس الطاحونة .

فاصفر وجه الرجل العبوس وقال رئيس الحراس ان الطبيب لا رحمة في قلبه فانه واسع الثروة كثير الحرص فلو ولي القضاء لحكم بالاعدام على من يسرق درهماً .

فقال له الرجل العبوس . لقد فسدت خطتنا فانها مبنيه على اعتبار أن الفتى في المستشفى .

– دون شك .

– وهل هو في قاعة الطاحون .

- نعم وليس في تلك القاعة من اعتمد عليه

– العل قاعة الطاحون بعيدة عن المستشفى ؟

- كلا . .

أيستطيع العمال أن يدخلوا الى تلك القاعة ؟

فارتعش الرئيس وقال لقد خطر لي خاطر وهو ان الجدار الفاصل بين هذه القاعة وبين محل العمال غير متين .

– متى يسقط ؟

– حين أريد .

– إذاً احرص ان لا يكون ذلك قبل يوم السبت اذ سيدخل في اليوم بين العمال واحد من اخواننا .

فقال الرئيس لينقذ الله ارلندا .

ثم جعل الاثنان يتحدثان بصوت منخفض

وكان رئيس الحراس ، واسمه باردل ، يكلم الرجل المبوس بملء الاحترام ، ويخضع له الخضوع التام .

وذلك لأنه كان من أعضاء الجمعية الارلندية السرية ، التي كان الرجل المبوس أحد زعمائها . وهي جمعية كانت في ذلك العهد عظيمة ، تضطرب لها انكلترا . ولا تزال أسرارها خفية لأن التاريخ لم يكشف إلا القليل منها الى الآن .

ومن أسرار هذه الجمعية ان أعضاؤها لم يكونوا يتعارفون إلا بالاشارات السرية والكلمات الاصطلاحية التي كانت تتغير مرة كل شهر .

وكان السبب في تعارف الرجلين انه حين حكم على رالف ، تنكر المحبوس بالملابس التي كان يلبسها حين كان يدعو نفسه اللورد كورنهيل ، وذهب الى ذلك الحبس قبل أن يرسلوا الفتى اليه ، بحجة أنه مولع بجمع أخبار الجرائم .

ودخل الى المستشفى ومحلات العمل وفحص جميع السجن فحصاً دقيقاً ما خلا قاعة الطاحون قائلا : إنه سيعود اليها مرة اخرى .

وكان غرضه من زيارة هذا الحبس ان يبحث عن الموظفين فيه إذ كان يعلم أنه يوجد بينهم كثير من الارلنديين ، كما كان يوجد بين البوليس .

فجعل ينتقل من قاعة الى قاعة ، ويتفحص الموظفين بالاشارة . الى ان مر برئيس الحراس وأشار له تلك الاشارة وأجابه بمثلها فسر المحبوس ، وسأله الاختلاء به .

ولما اختليا أشار اليه إشارة الرؤساء فانحنى باردل وقال : مر أيها الرئيس بما تشاء فإني من المطيعين .

— لا أستطيع أن أقول لك شيئاً هنا ، كي لا أنبه الظنون . فإذا رأيتني خرجت من الحبس فاخرج منه بعد ساعة ووافيني في الحال الى اول خمارة في الشارع .

- سأكون عندك في الموعد المعين .

وبعد ساعة اجتمع الاثنان في الخمارة فقال العبوس : ألا يوجـد في دائرة نفوذك أحد من إخواننا ؟

- كلا .

- أحق من المسجونين ؟

- كلا .

- ولكني علمت ان مأمور الباب الخارجي ارلندي .

- هو ذاك . ولكنه كثير البنــين ، شديد الفقر ، وهو يحرص على منصبـه كل الحرص . وقـد يبيع ، في سبيل الاحتفاظ به ، ارلنـدا والارلنديين .

- بأية طريقة نستطيع إدخال العمال الأحرار الى حبس الطاحون ؟

- لدي طريقة سهلة وهي ان الطاحونة الكبيرة تمر حين دورانها بأحـد جدران القاعة وقد بات متداعياً إلى السقوط . فاذا وقفت تلك الآلة فجأة ، صدمت الحائط صدمة عنيفة فيسقط دون شك .

- كيف توقفها ؟

- إني أضع في سبيل دورانها قطعة من الحديد فاذا مرت بها تفككت وصدمت الحائط تلك الصدمة .

- حسناً إسمع الآن خطتي انه يوجد بين العمال الذين يدخلون حبس الطاحون عامل من إخواننا أتراه يكفي لانقاذ الغلام ؟

- قد يكفي . وذلك ان العمال حين يدخلون هذا الحبس يعاملون نفس معاملة المسجونين ، ما عدا الطعام . فيحبس كل منهم في غرفة حين المساء . فإذا سقط حائط الطاحونة فلا بد لهؤلاء العمال من المبيت في الرواق المجاور لهذه الطاحونة .

ثم انه يوجد لكل رواق حارس خاص يستحيل اغراؤه لأنهم جميعهم من

المتعصبين على الارلنديين .

– ولكن ظهر لي ان كل رواق ينتهي الى فسحة .

– هو ذاك .

فقال العبوس : إذاً لنفرض أن جوهان يبيت في الرواق المسجون فيه الفتى اليس ذلك ممكناً ؟

– دون شك لأنه منوط بي .

– ولنفرض ايضاً ان حارس الرواق من أتباعنا .

– ولكن هذا محال .

قلت لنفرض . فاذا أخذ جوهان الفتى وسار به إلى فسحة الرواق ألا يجد معك مفتاح باب الفسحة ؟

دون شك .

– وان كل فسحة تنتهي إلى باب يؤدي إلى السجن الجديد ، اليس لديك مفتاح هذا الباب ؟

– نعم ، ولكن مفتاح الباب الخارجي مع المستر بين ، وهو لا يفارقه لحظة .

– ذلك سيان عندي ، لأن جوهان متى وصل بالفتى إلى الحبس الجديد ، فهو لا يخرج به من باب الحبس العام . وعلى ذلك لم يبق أمامنا غير حائل واحد وهو حارس الرواق .

– ولكنه أعظم حائل يا سيدي كما قلت لك .

فابتسم الرجل العبوس وقال : سوف ترى ان الأمر على عكس ما تراه والآن فلننظر في نتيجة أبحاثنا ، إن الحائط يسقط يوم الجمعة مساء أي ليلة السبت ؟

– نعم .

– وفي يوم السبت يدخل جوهان مع رفاقه العمال الى حبس الطاحونة

لترميم الجدار .

– وبعد ذلك ؟

– وبعد ذلك تأتي إلي يوم السبت مساء في الخمارة ، فأريك كيف ان كل شيء ممكن .

– إذا كانت حياتي مفيدة لارلندا فإني أسفك دمي من أجلها .

– لا حاجة إلى ذلك بل أننا سننقذ الفتى وتبقى أنت في منصبك ولا يعلم بأمرك أحد

– إذاً إلى اللقاء .

ثم افترقا ، وذهب كل منهما في شأنه .

– ٥٠ –

ولنعد الآن إلى رالف ، ونقص ما جرى لهذا الشهيد الصغير في ذلك السجن الرهيب .

كان اليوم يوم سبت ، أي بعد ان دخل رالف إلى الحبس بخمسة أيام . فكان عذابه الأيام الأولى من سجنه لا يحيط به وصف ، ولا يستوفيه تغيير ، فإنه كان يتعلق بيديه الصغيرتين بتلك الخشبة ، ولا يكاد يلقي رجليه على الصناديق ، كي يستريح حتى يشعر أنها دارت ، وباتت رجلاه في الخلاء .

وعذبوه هذا العذاب ربع ساعة ، ثم أراحوه فأنزلوه وهو يلهث من التعب . وقد بلت ثيابه من العرق واصفر وجهه حتى بات كالأموات . وأشفق عليه المسجونون فودوا لو تحملوا عنه عذابه ، ولكن تنفيذ العقاب في إنكلترا لا تقبل فيه شفاعات .

وكان يتولى تعذيب أولئك المنكودين رجل فظ الطباع ، قاسي القلب يدعى ويب .

ولم يكن هذا اسمه الحقيقي بل لقباً لقبه به إخوانه ، لما رأوه من فظاعته وقسوته لأن هذه اللفظة عندهم معناها الكرباج .

وإنما لقب بالكرباج ، لأن كرباجه لم يكن يسقط من يده إلا على ظهور أولئك المسجونين .

فإذا تأفف أحدهم من الألم أو شكا من التعب انهال عليه بذلك الكرباج دون إشفاق حتى يدوي صياحه في ذلك الحبس .

وهذا ما أصاب ذلك الفتى المسكين ، فقد لقي من كرباج ذلك العاتي أعظم نصيب .

ولما أقبل المساء ذهبوا به إلى سجنه وهو واهي القوى ، ولم يكن يبكي ولم يقنط ، لأن كلمة ذلك الرجل الذي قال له: إن أمك ساهرة عليك . كانت قد رسخت في أذنه وملأت نفسه أملا .

وبات على العقاب والأمل إلى يوم السبت . فأخرجوا المسجونين صباحاً وساروا بهم صفاً طويلاً إلى قاعة التشكيل يتقدمهم ويب .

وجعلوا يصعدون بهم إلى الطاحونة ، وهي أربعة أقسـام ، كل قسم منهـا مستنداً الى جدار .

حتى إذا وضعوا أربعة منهم في الطواحين الأربع أدير اللولب ، فدارت الطواحين في البدء دوراناً بطيئاً ثم أسرعت فجأة . ولكنها لم تتم دورتها الأولى حتى خرج صوت هائل كدوي الرعد .

ذلك ان إحدى هذه الطواحين صدمت بالحديـد الذي وضعه رئيس الحراس ، فوقفت بغتة وصدمت الحائط صدمة هائلة فسقط وخرج له ذاك الدوي العظيم .

وهنا اختلط المسجونين وأصيب بعضهم بشظايا الآلة فانجرحوا وساد الرعب

في جميع السجن ، فأقبلوا إلى قاعة الطاحونة من كل ناحية .

وأسرع عمال السجن ورؤسائه ، لحذرهم من ثورة المسجونين واغتنامهم تلك الفرصة .

وكان بين الموظفين رئيس السجن العام ورئيس الحراس ، فارتأيا إرجاع المسجونين إلى غرفهم .

ثم أحضروا المهندسين فقرروا بعد فحصهم ان هذا الحائط لم يكن متيناً خلافاً للحيطان الثلاثة ، أي أن الطواحين الثلاث الباقية لا خوف عليها في عملها .

فأعادوا المسجونين من غرفهم إلى قاعة الطاحونة ، وجعلوا يعذبونهم بالطواحين الثلاث .

ثم جاء دور البنائين ، فدخلوا إلى الحبس القديم ، وفي طليعتهم جوهان كولدن .

فأجال بين المحكوم عليهم بالعذاب نظراً فاحصاً ، وجعل يبحث عن الفتى فرآه جالساً على الأرض ، إذ كان في ذلك الحين دوره بالاستراحة ، ورأى العرق ينصب منه فدنا منه وقال له همساً : لا تخف إني صديق لأمك ثم أسرع بالابتعاد عنه والاختلاط بين العمال دون ان يراه أحد .

أما الصبي فإنه صاح صيحة دهش سمعها ويب ،فالتفت اليه وجلده بكرباجه فصاح متألماً وجلده مرة ثانية

فرأى الصبي جوهان واقفاً بعيداً عنه ينظره ويشير اليه باصبعهأن يسكت ففهم الفتى إشارته وسكت

ولكن ويب لم يكتف بجلده بل أصعده إلى الطاحونة قبل مجيء دوره بالتعذيب انتقاماً منه لصياحه .

* * *

وفي اليوم نفسه كان الرجل العبوس وباردل رئيس الحراس متفقين على الاجتماع في الخمارة .

ولما حانت الساعة السابعة كان العبوس في الخمارة حسب الاتفاق ، أما باردل فلم يحضر .

ثم فتح الباب ودخل شوكنج ولم يكن يوجد في الخمارة أحد فقال العبوس: ماذا فعلتم أأعددتم كل شيء ؟

ــ نعم وقد أحضرنا الحبل الطويل المعقد وستكون المركبة على باب المنزل في الوقت المعين .

ــ أين هي الارلندية ؟

ــ لقد أتينا بها مع سوزان وهما الآن في المنزل .

ــ ومتى تحضر المركبة ؟

ــ سيحضر فيها كرافان في الساعة التاسعة .

وعند ذلك فتح باب الخمارة أيضاً ودخل منه باردل رئيس الحراس ، وكان العبوس ينتظره فدعاه إلى الجلوس معه . ودار بينهما الحديث باللغة الارلندية الاصطلاحية .

فقال العبوس : قل لي ماذا حدث ؟

ــ إن الحائط سقط .

ــ أأصاب الفتى بجراح ؟

ــ كلا .

ــ وجوهان كولدن ؟

ــ إنه يعمل في قاعة الطاحونة مع العمال .

ــ هل فعلت ما قلته لك ؟

ــ بالتدقيق .

ــ أعد علي ما فعلت .

— إني أقمت جوهان في نفس الرواق الذي أقمت فيه الفتى وأقفلت الأبواب بيدي وأعطيت جوهان خنجراً .

— ولكني أرجو ألا يحتاج اليه .

— وبعد أن أقفلت جميع الأبواب تركت بابه مفتوحاً ، ثم أبعدت خفير الفسحة الكبرى بحجة المطر ، وأنه لا فائدة من حراسة السجن الجديد لعدم وجود أحد فيه .

— ومن هو حارس الرواق ؟

فقطب باردل حاجبيه وقال : إنه رجل وحشي الأخلاق ، نلقبه بالكرباج ، لقسوة طباعه ، وأخشى أن يحتاج جوهان كولدن إلى استعمال الخنجر .

ففكر العبوس هنيهة ثم قال : أيدخن هذا الرجل التبغ ؟

— إنه مولع به مثلي .

— إذاً لقد سهل الأمر أنظر إلى هذه العلبة إنها تغنيك عن الخنجر .

- كيف ذلك إني لا أفهم شيئاً ؟

— ألا ترى أن هذه العلبة تفتح من الجهتين ؟

— نعم .

— إن فيها طبقتين يفصل بينهما حاجز رقيق يستره التبغ ، فانظر إلى الطبقة اليمنى تجد عليها نقشاً خلافاً للطبقة الأخرى فهي ملساء ، ففي الساعة التاسعة إذهب لمراقبة الحراس ، فإذا وصلت إلى هذا الحارس ، فقدم له سيكارة من الطبقة ذات الباب المنقوش وخذ لنفسك من الطبقة ذات الباب الأملس .

- لقد فهمت فإن تبغ الطبقة المنقوشة ممزوج بمادة مخدرة

— هو ذاك والآن تريد أن تعلم كيف يخرج جوهان كولدن والغلام من السجن الجديد ؟

دون شك فإن خروجها لا يزال لدي متلبساً بالغموض

قال العبوس : أخرج قبلي وانتظرني في عطفة الشارع ، فسأوافيك بعد عشر دقائق .

فامتثل وبقي العبوس هنيهة مع شوكنج يحدثه ببعض الشؤون ، ثم خرج الاثنان من الخمارة .

وكانت الليلة حالكة السواد وقد تكاثف ضبابها ، فكانت أنوار مصابيح الغاز تظهر من خلاله كما يضيء الجمر من خلال الرماد .

وكان باردل واقفاً في عطفة تحت نور أحد المصابيح ينتظر العبوس ، فلما وافاه أخذ بيديه وقال له : هلم بنا فسأريك كيف أننا لا نحتاج في سبيل إنقاذ الفتى الى الخروج به من باب السجن العام .

- ٥١ -

وسار الرجـــل العبوس وباردل يتبعهما شوكنج ، حتى وصلوا الى منزل مشرف على الحبس الجديد ، يدل السكون فيه على انه لا يسكنه أحد .

ففتح الرجل العبوس بابه ، وصعد الثلاثة سلالمه الى أن وصلوا الى الدور الأعلى فيه .

وهناك فتح العبوس باب غرفـة وظهر لهم نور شمعة ضعيف ، ورأى باردل غرفة تدل على فقر ساكنيها اذ لم يكن يوجد فيها من الأثاث غير ما لا يمكن الاستغناء عنه .

ثم رأى في هذه الغرفة امرأتين ، لا ينطبـق جمالهما الباهر على ظواهر هذا الفقر

وكانت هاتان المرأتان سوزان والارلندية والدة رالف فان العبوس جاء بهما

الى ذلك المنزل .

فقال : ستجتمعين بابنك في هذا المساء .

وقد بدأ العبوس حين دخولهم إلى الغرفة بأن أطفأ الشمعة ثم ذهب إلى النافذة ففتحها ونادى باردل قائلا : أنظر .

وأطل باردل من النافذة وقال : إن الضباب كثيف ، ولا أرى كل شيء ، ولكن يخال لي أن هذه النافذة مشرفة على فسحة السجن الجديد .

– هو ما تقول .

– وأرى أنه لا يفصل بينها غير عرض الشارع ، وهو أضيق شوارع لندرا .

– هو ذاك ، وان الفاصل بينهما أيضاً سور السجن العريض وهو لا سقف له كما ترى

فلم يفهم رئيس الحراس مراده وقال له : ماذا تعني بذلك ؟

– إصغ إلي تعلم قصدي . إن النافذة يبلغ ارتفاعها ستين قدماً

– تقريباً .

– فافترض أنك أنت وجوهان تأتيان بالفتى من سجنه إلى الفسحة التي تراها أي فسحة السجن الجديد .

– نعم .

– فسألقي لكم من هذه النافذة حبلا طويلا معقداً ، أعلق طرفه بحديد النافذة ، فيسقط الحبل من فوق السور إلى فسحة السجن ، حيث تكونون .

وعند ذلك يركب الفتى ظهر جوهان ويتسلق به الحائط بواسطة الحبل المعقد ، حتى يبلغ إلى أعلاه .

وبين أعلى السور وهذه النافذة مسافة ثلاثة أمتار ، فإذا وضع لوح

سميك من الخشب بينهما ، سار بالغلام على اللوح ، ودخل من النافذة إلى الحجرة .

- وأين هو الحبل ؟

- هذا هو .

ثم أراه حبلاً طويلاً ملفوفاً ، وقد كثرت فيه العقد ، وجعلت المسافة شبراً بين العقدة والأخرى تسهيلاً للصعود عليه ، بحيث يصبح شبيهاً بالسلم .

فابتسم باردل وقال : إن هذا الفكر جميل وبسيط ، ولكنه لا يخطر لي .

- وكذلك علبة التبغ فإنها لم تخطر لك أيضاً .

- هو ذاك .

- والذي أراه الآن انه يجب الاسراع لأن الوقت غير متسع لدينا .

- أيطول زمن بدء التأثير بالخدر ؟

بعد خمس دقائق من شربه .

- وماذا يحدث للحارس حين يدخن تلك السيكارة ؟

- ينام نوم الأموات ، ولا توقظه المدافع ، ولا يستفيق إلا عند الصباح .

- إذاً الفرار بالصبي بات سهلاً لأني أبعدت حراس فسحة السجن الجديد ولم يبق شيء نخافه غير الصدفة .

- أي صدفة تعني ؟

- لا أدري فقد يمر بنا أحد الحراس اتفاقاً بل يخطر المدير العام أن يجول في الرواقات ويراقب مراقبة فوق العادة .

- وبعد ذلك ؟

- إذا لم يحصل شيء من هذا ، نصل الى فسحة السجن كما صممت ،

ويفر جوهان بالصبي إلى هذه الغرفة ، ولكني أرى أنه يجب علي أيضاً أن أفر معهما .

– لماذا ؟

– لأني إذا بقيت في السجن يعلمون بفرار الغلام

– دون شك .

– وهم يعلمون أن مفتاح باب الفسحة لا يكون إلا معي في الليل .

– ليعلموا .

– ولكن ذلك يدعو إلى اتهامي بتسهيل فراره

فابتسم العبوس وقال : أتظن أنهم يتهمونك ؟

– بل أؤكد ، لأن الحارس ويب سيقول فوق ذلك إني سقيته مخدراً . وفي كل حال فلا يسعني إلا الامتثال لأمرك ، فمر أطع . ولكني أستطيع إذا كنت مطلق السراح ان أفيد ارلندا بشيء . ولهذا أفضل الفرار فإنهم إذا اتهموني وزجوني في أعمق سجن ، فلا أعود استطيع خدمة الوطن العزيز بشيء

فأجابه العبوس ببرود : إن كل ما تقوله ملؤه الحكمة والصواب ، ولكن لا فائدة فيه .

فتراجع منذعراً وقال : كيف لا فائدة فيه ؟

– دون شك

– ألا تحتاج ارلندا إلى خدمتي ؟

– بالعكس .

– إذاً كيف أستطيع خدمتها وأنا مغلول اليدين في السجن ؟

– إنك لا تذهب إلى السجن ولا تغل يداك ، بل تبقى في حبس الطاحونة وتفيدنا فيه فوائد كثيرة .

– أأبقى في حبس الطاحونة سجيناً ؟

- بل تبقى كما أنت الآن محترماً محبوباً ، وتبقى في منصبك وهو رئاسة الحراس .

فنظر باردل اليه نظرة بلاهة وقال له : إني لا أفهم شيئاً من هذه الألغاز .

فابتسم العبوس وقال : سوف ترى إن الأمر بسيط كما رأيت في مسألة الحبل وعلبة التبغ

- أأبقى رئيس الحراس في سجن وأسهل فيه فرار المسجونين ، ويكون الأمر بسيطاً ؟

- دون شك

- ومفتاح الفسحة ؟

- إنهم سرقوه منك .

- وتخدير التبغ ؟

- إنك تخدرت أيضاً كما تخدر الحارس ويب .

- كيف ذلك ؟

- ذلك إنك بعد أن تخدر ويب وينام . وبعد أن تساعد جوهان ويفر بالصبي ، تعود بملء السكينة والارتياح الى الحبس القديم وتدخن سيكارة من تلك السكاير المخدرة التي أعطيت منها ويب ، وتنام مخدراً في نفس الرواق الذي نام فيه .

فصاح باردل صيحة دهش وقال : إن هذا الفكر بسيط جداً ، ولكنه لم يخطر لي .

- ذلك لأنه بسيط . والآن اعلم أنهم سيدققون غداً كل التدقيق ثم تنجلي أبحاثهم عن اتهام بائع التبغ فاذا سئلت عن الذي باعك التبغ فقل إنك اشتريته من الدكان الصغيرة الكائنة في أول الشارع .

- لماذا ؟

ـ لأني أمرته أن يسافر الليلة الى فرنسا وسيبحثون عنه فلا يجدوه فتثبت التهمة عليه وتنجو . والآن لم يبق لدينا من الوقت غير ساعة فعد الى الحبس وافعل كل ما قلته لك .

فامتثل باردل وانصرف . وعاد المحبوس الى الارلندية فرآها تبكي فقال لها: إن بكاءك سيستحيل بعد ساعة الى بكاء سرور حين تضمين الى صدرك ولدك ، فكفي عن البكاء وثقي بمراحم الله .

- ٥٢ -

كان ويب الحارس ، أي الرجل الملقب بالكرباج ، مشهوراً بالفظاعة كما قدمنا . وكان يكره الارلنديين كرهـــاً عظيماً . فإذا دفع نكد الطالع أحدهم إلى ذلك السجن ، وتولى هو تشغيله عذبه عذاباً لا يطاق ونكل به أفظع تنكيل .

وكان يعلم أن الفتى ارلندي فكان يجور عليـــه كل الجور غير مشفق على جسمه الصغير .

وقد تقدم لنا القول أنه سمع رالف وصاح صيحة دهش ، فأيقن أنه رأى بين البنائين رجلاً يعرفه ، فجلده بكرباجه وأصعده الى الطاحونة قبل أن يجيء دوره .

ثم لما فرغ من تشغيله هذا الشغل الشاق ناداه بلهجته المألوفة فأيقن المسجونون أنه ناقم على الفتى يريد جلده وود كل منهم لو تحمل عنه ألم الضرب لفرط إشفاقهم عليه .

أما رالف فإنه لبى النداء وسار مرتفع الرأس شامخ الأنف غير مكترث بنظرات ذلك الرجل الوحشي .

فسأله ويب عن الرجل الذي عرفه من بين البنائين ، وأنذره بالضرب فلم يجبه رالف الا بالانكار فحقد عليه وضربه ضربـــاً مؤلماً ثم أعاده الى الطاحونة .

ودام يعذبه هذا العذاب والمسجونون ينظرون ولا يجسرون على اعتراضه حتى المساء .

فجاء باردل وشاهد أعمال ويب المنكرة فوبخه أقسى توبيخ ولم يسعه الا أن ينظر الى الفتى نظرة إشفاق لم تخف على ويب . فهاج لها وحقـد على رئيسه حقداً عظيماً لتوبيخه اياه أمام المسجونين ، لا سيما وانه كان يكرهه منذ زمن بعيد لأن باردل كان قد شكاه مرتين للمدير العام لما يرتكبه من الفظاعة فعاقبه المدير في المرتين .

ومع ذلك فان باردل لم يجسر على ابعاده عن الخدمة في تلك الليلة وتركه يتولى حراسة الرواق الذي أقام فيه البناؤون ورالف .

وعادة الحراس في ذلك السجن انهم يتغيروا كل ساعتين. وأما في الليل فقد تحتم على الحارس أن يحرس أربع ساعات متوالية .

وقد ذهب ويب يتمشى في الساعة السادسة ، أي حين كان باردل يدخل المسجونين والبنائين الى غرفهم وقد دفع الخنجر الى جوهان وترك غرفته وغرفة رالف مفتوحة كما قدمنا .

وكان باردل يعلم ان ويب يعـود الى الحراسـة ، في الساعة الثامنة والنصف

وانصرف بعد ادخال المسجونين الى لقاء الرجل العبوس .

أما ويب فإنه ذهب للمشاء مع صديقه جوناتان ، ولم يكن له صديق سواه بين عمال السجن ، لاتفـــاقهما في الفظاعة ، ولاتحادهما على كره رئيسهما باردل .

وفي المثل المأثور ان الطيور على أشكالها تقع . فلما اجتمع هذان الحارسان

جعلا يتمشيان ويطعنان ببإردل طعناً قبيحاً ويتمنيان له كل شر ويستنبطان الحيلة شأنهما في كل اجتماع

وقد دار بينهما في تلك الليلة الحديث الآتي فقال جوناتان . لقد طال عسف هذا الرئيس بنا واني أراك أصلح منه للرئاسة .

فأجابه ويب : ومتى كانت الناصية تعطى لمستحقيها فإن جميع الرؤساء متحاملون علينا ، حتى لقد بت أخشى ان أقضي العمر كله في هذا المنصب الحقير .

- ولكنك اذا سميت قد تنال منصب باردل .

- وأين لي ذلك أيها الصديق ألا ترى ميل المدير اليه وتعلقه به ؟

- ان المدير مخطىء .

- وهذا رأيي أيضاً .

- وفوق ذلك فان باردل يتهامل في الخدمة منذ بضعة أيام .

- أتظن انه يتهامل ؟

- بل أظن أنه يحاول مساعدة أحد المسجونين على الفرار .

فارتعش ويب واتقدت عيناه وقال وما حملك على ان تفتكر به هذا الفكر ألديك برهان ؟

- اني أراه منذ يومين يكثر الخروج من السجن حتى انه يخرج ثلاث مرات في اليوم الواحد .

- وأين يذهب ؟

- الى الخمارة في أول الشارع

- خمارة الحارس القديم الذي عزل ؟

- هو بعينه ، وقد رأيته أمس ، مختليـــاً في تلك الخمارة مع رجل لم ترضني هيئته .

- أحق ما تقول ؟

وخفض جوناثان صوته وقال : اسمعت بأولئك الارلنديين الذين يشغلون الحكومة في هذه الأيام ؟ ان قلبي يحدثني بأنه منهم وأنه الآن خارج السجن .

– لقد كذب حديث قلبك دون شك فقد تركته الآن منشغلاً بادخال المسجونين والعمال إلى غرفهم .

– ولكنه سيخرج من السجن متى قضى هذه المدة .

– يسوؤني اني رضيت ان أنوب هذه الليلة بالحراسة عن زميلنا بيرلي .

– لماذا ؟

– لأني كنت أقفو أثر باردل حين خروجه من الباب العام .

فقال له جوناثان : إننا أيها الصديق ، مرتبطان بوثاق الصداقة منذ عهد بعيد .

– ماذا تعني بذلك ؟

– اعني اني هذه الليلة حر إلى منتصف الليل فإذا شئت أن تقفو أثر باردل توليت الخدمة مكانك إلى أن تعود .

– لا أحب إلي من ذلك فإن ما قلته لي قد هاج بي عاطفة الحقد على باردل ، غير انه يجب ان تنتظر إلى ان يسلمني باردل الخدمة ، فتحرس مكاني

– – كما تريد .

وقد تم الأمر على ما توقعه جوناثان فإن ويب ذهب إلى الرواق فتبعه باردل وقال له ، قف مكاني في الحراسة فإني سأخرج من السجن لبعض الشؤون وأعود في الساعة التاسعة للتفتيش .

ثم تركه وانصرف إلى الخمارة التي واعد الرجل العبوس على الاجتماع به فيها .

وبعد عشر دقائق أقبل جوناثان فتولى الحراسة مكان ويب ، وذهب ويب إلى مأمور السجن الخارجي ، فتكلف هيئة الاهتمام وقال له : ألم

ترى باردل ؟

– انه خرج الآن وأظن انه ذهب إلى الخمارة .

– يجب أن أحادثه في شأن هام فاسمح لي بالخروج .

فأذن له المأمور وذهب ويب توا إلى الخمارة ولكنه لم يدخل اليها بل لبث واقفاً خارجها ونظر من زجاج بابها الخارجي ، فرأى في داخلها باردل جالساً مع الرجل العبوس ومختلياً به خلوة سرية .

وبعد هنيهة خرج باردل فأختبأ ويب ثم اقتفى اثره دون ان يراه ، ورأى أنه لم يذهب إلى السجن بل انه وقف في عطفة ينتظر فوقف هو أيضاً بعيداً عنه إلى أن أقبل الرجل العبوس وشوكنج فرآهما قد انضما إلى باردل وساروا جميعهم في الطريق .

– ٥٣ –

كان ويب على فظاعته فطناً حكيماً مبالغ بالحيلة والحذر ، بحيث كان يسير في أثرهم فيراهم ولا يرونه ، حتى رآهم قد دخلوا إلى منزل مشرف على سور السجن ، فوقف يراقب ماذا يكون ، وهو لا يجسر ان يتبعهم إلى ذلك المنزل .

ووقف بعيداً وعيناه شاخصتان إلى النوافذ ورأى نوراً ضعيفاً من خلالها ثم رأى ان النور قد انطفأ وان النافذة قد فتحت .

وكان ثاقب البصر فحدق بتلك النافذة ورأى رأسي رجلين قد برزا منها وأيقن أن باردل أحدهما .

وهنا اقترب حتى اصبح تحت النافذة وجعل يصغي متنصتاً عله يسمع كلمة من حديث الرجلين غير ان الصوت يذهب صعداً ولا ينزل من الأعلى

الى الأسفل ، ومع ذلك فإنه كان يسمع لغطــاً ولكنه لا يفهم شيئاً من الحديث .

على انه بات واثقاً مما قاله له جوناتان ، وهو ان رئيس الحراس يأتمر منذ أيام لأنقاذ أحد المسجونين ، فبذل جهداً عظيماً ، واصغى إصغـاء تاماً حتى أنه حبس أنفاسه عله يفهم كلمة واحدة مما يتحدث به الرجلان ، وسمع ولكنه لم يسمع غير كلمة واحدة وهي الحبل ، فاضطرب قلبه وقــال في نفسه : أما وهما قد ذكرا الحبل فلم يبق شك بصدق ظنــون جوناتان من أنهم يحاولون إنقـــاذ مسجون ، وإذا كان ذلك فلا بد ان يكون باردل شريكاً بالجريمة .

وعند ذاك رأى ويب أنه قد عرف كل ما يمكن أن يعرفه وأنه لم يعد بحاجة لوقوفه تحت ذلك المنزل ، فعاد على أعقابه وبلغ السجن قبل أن يخرج باردل من المنزل .

وكان أول ما خطر له حين دخوله الى السجن أن يذهب الى المدير العام ويعرض له ما سمعه ورآه ، لكنه عاد عن هذا القصد حذراً من أن لا يصدقه المدير لميله الى باردل ، ورأى أن من الحكمة أن يقبض عليه متلبساً بالجريمة . وعند ذلك ذهب تواً الى صديقه جــوناتان ورآه في موقف الحراسة ينتظر عودته بفارغ الصبر .

أما جوناتان فإنه رآه يبتسم إبتساماً معنوياً فأيقن أنه وقف على سر من الأسرار وقال : ما وراءك ؟

– لقد كنت مصيباً في ظنونك أيها الصديق .

– أرأيت أن لباردل علائق خارجية ؟

– نعم .

– مع من ؟

– مع قوم لا أعرفهم ولكني واثق أنهم يريدون إنقاذ أحد المساجين غير

اني لم أوفق الى معرفة هذا السجين .

-- ولكني أنا عرفته

- كيف ذلك ؟

- اليس باردل الذي أقفل أبواب غرف المسجونين هذه الليلة ؟

- نعم .

- ولكنه ترك باب إحدى الغرف مفتوحاً .

- باب أية غرفة ؟

- نمرة ١٦ تعال وانظر .

وجعل صدر ويب يخفق خفوقاً قوياً وقال : انها غرفة الغلام الأرلندي

- ألم أقل لك أن باردل من جمعية الارلنديين ؟

- إصغ إلي أنه يجب ان تبقى هنا في الرواق .

- دون شك .

- وإن باردل سيأتي في الساعة التاسعة .

- ربما ..

- وبعد سيسألك لماذا خلفتني في الحراسة فتقول له اني مريض لأنه يحذرني أكثر مما يحذرك ..

- أتظن ذلك ؟

- بل أؤكد وهو سيبعدك بحجة من الحجج .

- وعند ذلك ماذا أصنع ؟

- تذهب الى الفسحة وتختبيء فيها ..

- وبعد ذلك ؟

- ليس الوقت فسيحاً فأوضح لك كل شيء ، ولكني واثق أن باردل سيخرج الغلام من سجنه ويأتي به الى فسحة السجن الجديد ، بعد ذلك نتبعه الى تلك الفسحة وتصيح مستنجداً وعلى البقية إذ أكون هناك فنقبض عليه

متلبساً بالجريمة .

ثم تركه وانصرف الى الفسحة فاحتجب عن الأبصار .

وبعد هنيهة جاء بردل وهو متشح بوشاحه وقد علق في زناره حلقة فيها مفاتيح الغرف وبيده مصباح .

وكان جوناتان واقفاً في موقف الحراسة فدنا منه وارتعش حين رآه في مكان ويب وقال : أين ويب وكيف أنت هنا ؟

— إنه يا سيدي مريض وقد انابني عنه .

— لماذا لم يقل لي ؟

— لأنه خشي ان توبخه وقد سألني ان أنوب عنه ونحن على العشاء .

وقال بجفاء : أخاف أن يكون أخطأ في اختيارك فإنك لا تصلح لحراسة الليل كما أرى

— لماذا يا سيدي ؟

— لأنك لا تطيق السهر لأن النعاس قد سرى الى عينيك منذ الآن .

ثم وضع المصباح على الأرض وأخذ من جيبه علبة السكاير التي أعطاه إياها الرجل العبوس وأعطاه سيكارة قائلاً : خذ ودخن كما أصنع انا فان التدخين يعين على السهر .

وأخذ جوناتان السيكارة شاكراً وأشعلها وجعل يدخن وهو مطمئن .

أن الرجل العبوس أعطى باردل هذا السيكار المخدر كي يدخن منها ويب فكانت من حظ جوناثان ، غير أن باردل رأي أن النتيجة واحدة ، فان جوناثان كان يخلف ويب في الحراسة والغرض تخدير حارس الرواق .

وصار الاثنان يدخنان فكان جوناثان يظهر عجبه بالتبغ وارتياحه ثم قال· من أين تشتري يا سيدي التبغ الفاخر ؟

فضحك باردل وقال له : مهما يكن فاخراً فلا أراه يفيدك في السهر ، فانك عدت إلى النعاس ، فخذ هذه السيكارة الأخرى ما زلت معجباً بهذا التبغ .

تناولها وأشعلها من السيكارة الأولى وصار يدخن بها .

وعند ذلك قال باردل · أبق في مكانك واحذر أن تنام فاني ذاهب الآن وسأعود للمراقبة ، ثم تركه وانصرف .

فصار جوناثان يشيعه بالنظر وهو معجب بأمره ويقول في نفسه · لقد أخطأ ويب في حسابه ، انه كان يعتقد انه سيتخذ حجة لابعادي فاذا هو يبعد نفسه .

ثم جعل يسير في الرواق ذهاباً واياباً وهو يقول: ان ويب سيطول انتظاره ويأتي لينقذني فأسلمه الحراسة وأذهب في شأني

فقد مثل لنا الحقد على باردل أموراً لا حقيقة لها فان هذا الرئيس يتولى منصبه من عشرين عاماً لا يخاطر به من أجل غلام وهو طامع بالترقي .

وفيما هو يمشي شعر ببرد فجائي لم يدر سببه فالتف بردائه وقال لا شك أن النار مطفأة في المستوقد والا من أين هذا البرد الشديد ؟

ثم اشتد عليه البرد وكان ذلك من تأثير المخدر فذهب الى زاوية ووقف فيها كأنه يحاول الفرار من البرد ، شعر أن ساقيه لا يحملانه فجلس القرفصاء وعند ذلك شعر بصداع أليم فأطبقت عيناه وحاول أن يقف فلم يستطع وأن يستغيث فلم يخرج له صوت ، ثم حاول أن يفتح عينيه فلم تفتحا ، فكاد يجن مما أصابه ، ولكن عذابه لم يطل فانه سقط على الأرض فاقد الرشد وقد بلغ منه المخدر كل مبلغ .

وعند ذلك فتح باب الرواق وظهر منه باردل ومصباحه بيده فدنا من جوناتان وهو ملقى على الأرض لا حراك به فناداه وهزه ، لم يجب ، رفسه برجله وقال : لقد نال ما يستحق ، ثم تركه وذهب الى غرفة جوهن كولدن .

وكان جوهن لا يزال ساهراً ينتظر عودة باردل ففتح باردل باب غرفته وناداه بتلك اللغة الارلندية الاصطلاحية أن يخرج اليه .

أسرع جوهن اليه وقال له باردل : ألا يزال خنجرك معك ؟

— نعم .

— إذاً هلم بنا فقد أزف الوقت .

— اني مستعد لكل شيء ، لنسر الى حيث تريد .

ثم سار الاثنان فمرا بجوناتان وهو صريع على الأرض ، قال له جوهن : ألعلك قتلته ؟

— كلا ، بل قتلت حواسه فهو نائم الآن نوم تخدير .

ومشيا في الرواق الى أن وصلا الى غرفة الغلام ، وكان المسكين قد أنهكه التعب في النهار مما لقيه من عناء الطاحونة وكرباج الحارس ، فنام نوماً عميقاً .

وجعل الاثنان يتأملان وجهه الجميل هنيهة ، قال جوهن : ألا ترى هذا الوجه الملائكي ، والله اني أكاد أشفق أن أوقظه ؟

– ان نومه سيكون اكثر هدوءاً بعد ساعة حين ينام في حجر امه .

ثم هزه برفق وجعل الاثنان يبتسمان كي لا يخاف ففتح عينيه ونظر الى باردل وقال له : أهذا أنت الذي تقفل باب سجني كل ليلة وتحدثني عن امي ؟

– نعم أنا هو يا بني فقم واتبعني ولا تفه بحرف .

وأسرع الغلام الى لبس ثيابه دون ان يسأله الى اين يذهب به فأمسك جوهان بيده ، وسار باردل أمامهما فتبعاه الى باب الفسحة وهناك أطفأ باردل مصباحه وفتح الباب .

وكان السكون سائداً في فسحة السجن والظلام حالكاً فتقدمهما باردل وتبعه جوهان بالغلام وهو لا يجسر ان يكلمه كلمة عن أمه خوفاً من أن تبدر منه صيحة فرح فينفضح أمرهم .

وكانوا لا يزالون في فسحة السجن القديم، ولا يفصل بين القديم والجديد غير باب ففتحه باردل ودخل الثلاثة إلى الفسحة الكبرى وعند ذلك سأله جوهان قائلا : إلى أين نحن سائرون ؟

– انظر إلى العلاء ألا ترى منزلاً مشرفاً على السور ؟

– نعم . .

– ألا ترى نافذة مفتوحة ؟

– نعم . .

– أنه يوجد حبل معقد ربط أحد طرفيه إلى حديد تلك النافذة وسقط الطرف الآخر إلى أرض الفسحة أفهمت الان ؟

– نعم . .

وتقدم الرجلان بالغلام حتى بلغا إلى السور فارتعش باردل فجأة وصاح صيحة دهش وخوف ، ذلك انه رأى رجلا ملتصقاً بجدار السور وبيده ذلك الحبل المعقد .

ولما رأى هذا الرجل باردل مشى اليه مشي الظافر وقال له : لقد قبضت عليك متلبساً بالخيانة ولم يبق سبيل للانكار .

واضطرب باردل إضطراباً عظيماً إذ علم من صوته انه ويب ذلك الحارس الوحشي الذي ادعى انه مريض كي يخلفه جوناثان بالحراسة .

- ٥٥ -

أما ويب فقد كان رابط الجأش آمناً لوثوقه من أن جوناثان قادم لنجدته من وراء باردل ، خلافاً لباردل فإنه ذعر ذعراً شديداً ، ولم يكن خوفه على نفسه ، بل على الغلام الذي فوجىء عند الوثوق من انقاذه من هذه النكبة ، ولكن وقت إضطرابه لم يطل ، وعاد لفوره إلى سكينته العادية !!

أما ويب فإنه قال متهكماً : بورك لك في هذه المهنة الجديدة أيها الصديق العزيز ، فإنك تسهل المساجين سبيل الفرار ، وتبعد عنك الخفراء ، وتطلق الحبال من نوافذ المنازل المجاورة ، لكن عين ويب ساهرة عليك وأنه ..

ولم يدع له باردل فرصة لإتمام حديثه فانقض عليه وقبض على عنقه بيده كي يمنعه عن الصياح .

وجعل ويب يصيح بصوت مختنق مستنجداً بجوناثان ، وهجم عليه جوهان كولدن عند ذلك بخنجره وقال له باردل : إطعنه والله يحمي ارلندا .

وكان باردل وجوهان قريبين ، غير ان ويب كان يدافع دفاع اليأس ، وكان هم باردل أن يلقيه على الأرض ويضغط على عنقه كي يمنعه عن الاستغاثة فإن أضعف صوت يصل إلى الخفراء يستفزهم ، لذلك كان يضغط على عنقه ضغطاً شديداً ، فلم يمسك يده ولم يخطر له أنه يحمل خنجراً مع ان مدير السجن

العام كان أصدر أمره إلى جميع الحراس بحمل الخناجر .

أما ويب فإنه شعر ان باردل يكاد يخنقه بضغطه على عنقه لكن ذلك لم يمنعه عن استلال خنجره .

وقال باردل لجوهان : اطعنه بخنجرك .

وصاح جوهان عند ذلك صيحة ألم ، لأن ويب كان سبقه إلى طعنه بخنجره ، ولما شعر جوهان بألم الطعنة هجم عليه هجوم الكواسر وطعنه بخنجره طعنة نجلاء ، ولم يعد يدافع عن نفسه وشعر باردل وهو لا يزال ضاغطاً عليه أنه قد انحط وتلاشى لأن الخنجر قد أصاب قلبه فاخترقه وقضى عليه في الحال .

وتركه باردل عند ذلك فسقط على الأرض ميتاً لا حراك به .

أما الغلام فقد كان واقفاً ينظر هذا المشهد الهائل وقد ملأ الذعر قلبه فدنا منه باردل وقال : لا تخف يا بني لقد نجوت وسوف ترى أمك .

ثم أمره أن يركب ظهر جوهان وأمره أن يتسلق الجدار بواسطة الحبل المعقد .

وكان الضباب كثيفاً فلم ير الغلام النافذة ، ولا المنزل ، بل كان يرى الحبل كأنه معلق في السماء .

وركب ظهر جوهان وطوق عنقه بيديه .

وأخذ جوهان الحبل وبدأ يصعد .

غير انه لم يثب الوثبة الأولى حتى شعر ان قواه قد اضمحلت ، فأفلت الحبل مرغماً وسقط بالغلام إلى الأرض وهو يقول : وانا أيضاً قد أصبت بما أصيب به .

ذلك ان خنجر ويب كان قد أصاب فخذ جوهان فنزف دمه بغزارة ودعا إلى ما رأيناه من إنحطاط قواه .

ولما رأى باردل ما أصابه أوشك أن يجن من يأسه وخاف ان تكون

الأقدار قضت على المشروع بجملتـــه ولم يجد بدأ من أن يتولى هو بنفسه انقاذ الغلام .

وكان رالف قد نهض واقفاً فأسرع اليه باردل وقال له : إركب ظهري وتعلق بي جيداً فسأحاول بنفسي الصعود بك .

وكان رئيس الحراس على ما يبدو من ظواهر قوته قد تجاوز سن الكهولة ولم يكن متمرناً على شيء من الألعاب الرياضية ، ولم يكن لأعضائـه شيء من تلك المرونة الخاصة بأعضاء الشباب ، فحاول ان يتسلق الجدار بينما كان جوهان راكعاً يحاول النهوض فلا يستطيع ويقول لباردل : أنقذ الفتى ولا تهتم بسواه الان .

فصعد وعلم لأول وهلة انه لا يجد قوة تعينـه على بلوغ المراد وأن صعوده محال فلبث ممسكاً بالحبل وهو يكاد يجن من اليأس .

وفيما هو على هذه الحالة من القنوط لا يعلم ماذا يصنع سمع صوتاً يناديـه ويقول : عد إلى الأرض وأترك الحبل .

فسقط باردل على الأرض منذهلاً والفتى فوق ظهره ورفع عينيـه إلى مصدر الصوت فرأى رجلا ينزل من السور مستعيناً بالحبل حتى بلغ الأرض ورأى انه الرجل العبوس .

أما الرجل العبوس فانه نظر نظرة سريعة إلى ما حوله فرأى ويب قتيلاً وجوهان جريحاً فعلم كل ما حدث وقال لباردل : اني سمعت من النافذة مـا حدث بينكم وأسرعت لنجدتكم فأين رالف ؟

— ها هو .

فنظر إلى جاهان وقال : أين جرحت ؟

— في الفخذ .

— اتشعر بضعف ؟

— إني كثير الضعف وأراني مشرف على الموت ، ولكني لا اكترث بالموت

إذا نجا الغلام .

– بل أنقذكم جميعاً .

وكان الحبل طويلاً يجر على الأرض ، فأخذه الرجل العبوس وربط بـه وسط جوهان ثم قال له : انني [redacted] برالف إلى الحجرة ومتى وصلنا اليها وبات الفتى بأمن [redacted] مع شوكنج ، وانت مربوط به ، فننقذك أيضاً .

ثم التفت الى باردل وقال له . اما انت فافعل ما اوصيتك به ولم يبق لديك ما تخشاه من ويب فهو قتيل فعد الى رواق السجن القديم ودخن سيكارة من التبغ الذي أعطيتك إياه فاذا رأوك مخدراً لا يتهمونك

فأشار باردل إشارة إمتثال وأركب الرجـل العبوس الفتى فوق ظهره وجعل يتسلق به ذلك الجدار المرتفع بخفة الغلمان حتى توارى عن نظر باردل فصاح صيحه فرح وقال : لقد نجا الفتى فلتحيا ارلندا وليحيا زعيمها .

فأجابه جوهان بصوت خافت بمثل دعاءه ثم قال: إذهب الان ايها الحبيب واستودعك الله .

– بل الى اللقاء فسيرفعونك بالحبل وتشفى من جرحك .

ثم ودعه وهو متأثر لنكبته وعاد الى السجن القديم ليفعل ما امره بـه الرجل العبوس وينجو من تهمة الخيانة .

أما جوهان كولدن فكان يتمتم بصوت ضعيف قـائلاً : اني أصبت بجرح قاتل ، لكن عزائي اني أموت شهيد ارلندا ، فلتحيـا بعدي .. وليحيا نصراؤها .

وكان الرجل العبوس قد أدرك مراده في ذلك الحين ودفع رالف الى أمه وقد عرف جوهان ذلك من الحبل المعلق به فانه بـدأ بالتوتر ، ثم أحس بالجذب ، ثم رأى نفسه قد ارتفع عن سطح الأرض ، فملىء فؤاده رجاء ، لكن هذا المنكود لم يكد يصل الى مرتفع السور حتى صاح صيحـة رعب

هائلة وهوى ساقطاً على الأرض .

ذلك ان الحبل انقطع لثقل جسمه فكان آخر ما قاله ذلك المنكود اني كنت واثقاً من دنو ساعتي فلو سلمت من الشنق لما سلمت من الجرح فلتذهب تلك النفس شهيدة وطنها ولأمت فداء إبن ارلندا .

انتهت رواية « ابن ارلندا »

ويليها الجزء الثالث عشر من روكامبول « قلب المرأة »

وبه يبدأ المجلد الرابع والأخير

RIWAYAT RUCAMBUL

AL-MAKTABA AL-THAKAFIYAT